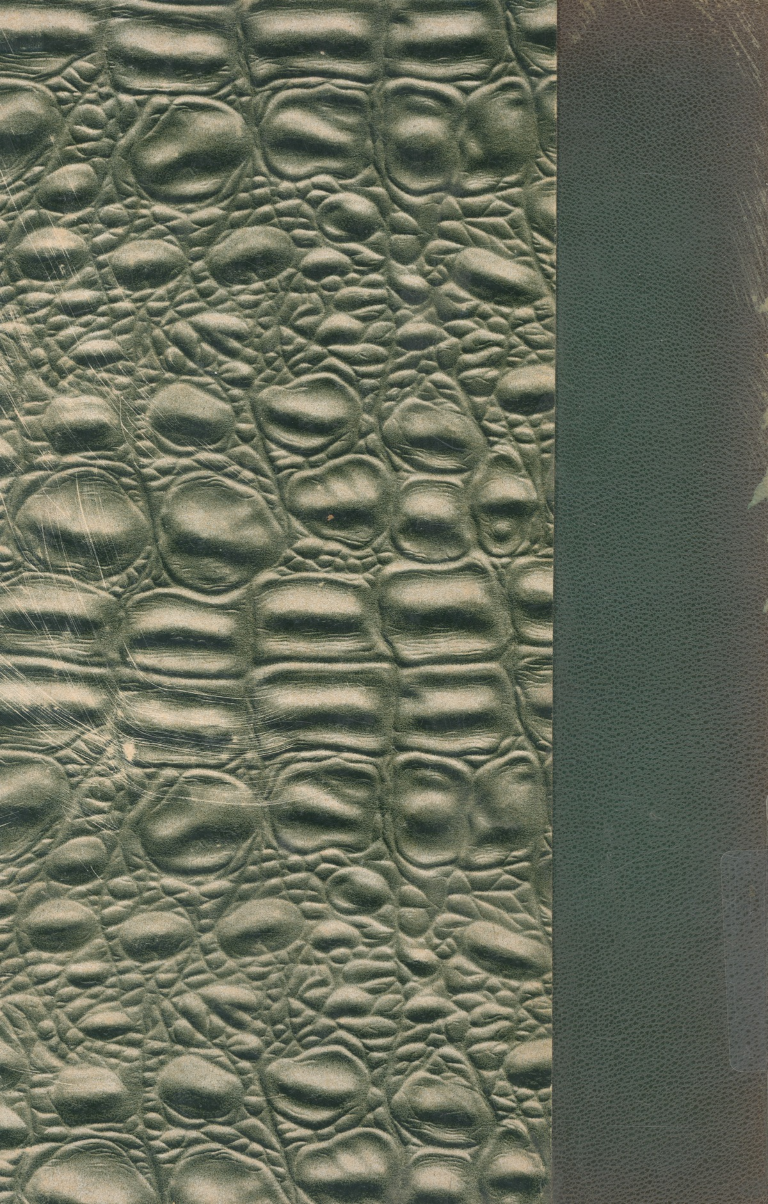


لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤



مزين بالصور التاريخية

تأليف
محمد عبد الله عنان
المحامي

[الطبعة الأولى]
مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م

الثمن ٣٥

فهرس

صفحة

صفحة

الكتاب الثالث

فى المحاكمات والقضايا الكبرى

٢ — عصر الثورة الفرنسية

الكتاب الرابع

فى المحاكمات والقضايا الكبرى

٣ — العصر الأخير

* * *

فهرس للوثائق والأحكام والمرافعات

صفحة

فهــرس للصـــــور

صفحة

ثبت عام بالمراجـع

BIRKENHEAD: Famous Trials of History
BRANTÔME: Vie des Dames Illustres
BULAU, FR. VON: Geheime Geschichten und rahtselhafte Menschen
CARLYLE: History of the French Revolution
CONDÉ: Histoire de la Domination des Arabes en Espagne
DICKENS: A Child's History of England
DUMAS (PÈRE): Les Crimes Célèbres
FAVRE, JULES: Le Procès de Karl Naundorff
„ : Défense d'Orsini
FROUDE: The Reign of Mary Tudor
„ : Short Studies on Great Subjects
FUNCK-BRENTANO: L'Affaire du Collier
„ : Le Drame des Poisons
GIRARD, H.: Histoire de la Troisième République
HALLAM: Constitutional History of England
KING, B: The Life of Mazzini
LACHAUD: Plaidoyers (recueillis par Sangnier)
LAMARTINE: Histoire des Girondins
LLORENTE: Histoire Critique de L'Inquisition d'Espagne.
LEA: The Moriscoes of Spain; their Conversion and Expulsion.
LODGE, R.: Modern Europe.
MACAULY: History of England.
MACCUNN: Mary Stuart.
MALET, A.: Révolution et Empire.
„ : XIX[eme] Siècle.
MARTIN HUME: Philip II of Spain.
MICHELET: Histoire de la Révolution Française.
MIGNET: Histoire de la Révolution Française.

MORFILL: Russia (Story of the Nations Series).

NOLHAC, DE: La Reine Marie Antoinette.

PETIT, M.: Histoire de France.

PRESCOTT: History of Ferdinand and Isabella of Spain.

" : History of Philip II of Spain.

RAMBAUD: Histoire de la Russie.

RECUEIL DES PIÈCES RELATIVES À LA PROCÉDURE ET JUGEMENT DE SOLEYMAN EL HALEBY.

REINACH, J.: Histoire de l'Affaire Dreyfus.

ROBERT, HENRY: Grands Procès de l'Histoire.

STRICKLAND, A.: The life of Queen Elizabeth.

THIERS: Histoire de la Révolution Française.

" : Histoire du Consulat et de l'Empire.

VIGNY: Cinq-Mars.

VOLTAIRE: Essai sur les Mœurs et L'Espirit des Nations et sur les principaux faits de L'Histiore.

" : Siècle de Louis XIV.

" : Politique et Législation.

" : Siècle de Louis XV.

" : Histoire du Parlement de Paris.

" : Traité sur la Tolérance à l'occasion de la Mort de Jean Calas.

" : Relation de la Mort du Chevalier de la Barre.

" : Correspondance

THE ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA.

THE JEWISH ENCYLOPAEDIA.

LA GRANDE ENCYCLOPÉDIE.

LAROUSSE: Le Grand Dictionnaire.

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى .

ذكر تملك جمهور الفرنساوية للاقطار المصرية والبلاد الشامية للعلم نقولا الترك .

بسم الله الرحمن الرحيم

لم تعن الآداب التاريخية العربية بتدوين سير المحاكمات والقضايا الكبرى لسبب واحد هو ان النظم السياسية والقضائية فى الدول الاسلامية لم تفسح كبير مجال لوقوع هذه القضايا والمحاكمات. واذا كانت السير العربية تشير فى فرص نادرة الى وقوع محاكمة كبرى، فانها لا تقدم الينا مع ذلك شيئا من التفاصيل والوثائق، لأن التشريع الجنائى والاجراءات الجنائية لم تكن تتسع فى هذه العصور لجدل فى التطبيق أو التفسير، ولم تعرف نظام الاتهام والدفاع كما عرفته الشرائع الحديثة؛ بل كانت سلطات التشريع والتنفيذ والقضاء كلها تجتمع فى يد الأمير أو تصدر عن وحيه وارادته، وكان تطبيق العدالة فى الجرائم السياسية أو الاجتماعية الكبرى يتخذ صورة الانتقام المباشر، وتسيره الأهواء السياسية أو الدينية، وتقلبات العصبية والملك.

ولكن هذه السير القضائية تملأ فراغا كبيرا فى الأدب الغربى، لأن تاريخ الغرب حافل بالمحاكمات والقضايا الكبرى، ولأن النظم والشرائع الغربية الحديثة قد افسحت لوقوعها مجالا كبيرا، وقد عرفت نظام الاتهام والدفاع منذ عصور بعيدة. وكان القضاء ثمة يتمتع دائما بنوع من الاستقلال قل أو كثر، وكان الانتقام السياسى أو الدينى كثيرا ما يتشح بثوب العدالة، وكانت الاجراءات الجنائية تقدّم دائما من التفاصيل ما يصلح مادة لهذه المآسى التى كان لبعضها أثر عميق فى تاريخ الأمم التى وقعت فيها.

وها إنى أقدم اليوم الى الأدب العربى مجموعة من هذه السير القضائية، كتبتها لغرضين: الأوّل أن أصور خلالها لمحات من التشريع والنظم القضائية والجنائية خلال

العصور المتعاقبة ، وهـذه هى وجهة الكتاب القضائية ؛ والثـانى أن أحقق قدر الاستطاعة، ما اقترن بهذه السير وما ترتب عليها من العوامل والآثار التاريخية، وهذه هى وجهـة الكتاب التاريخية . وعسانى وقد درست القـانون أكون قد وفقت فى تصوير الوجهة القضائية، وعسانى وقد شغفت بدراسة التاريخ وكتابتـه أكون قد وفقت فى ارضاء الوجهة التاريخية . وانها لأمنية كبيرة أن أطمع فى مثل هـذا التوفيق المزدوج، بيد أنى على أى حال وضعت تحقيقها نصب عينى، فلم استسـلم الى الأفراط فى شرح النصوص والاجراءات حتى لا أخرج هذه السير فى ثوب جامد من الجـدل الفقهى، كما أنى لم أستسـلم الى الرواية المجردة حتى لا أخرجها قصصا جردت من ثوب البحث القضائى والنقد التاريخى .

والكتاب قسمان كبيران : الأول يشـتمل على تاريخ مسهب لديوان التحقيق (لانكيزيسيون)[1]، ولا سيما ديوان التحقيق الاسبانى، وعلى دستوره ونظمه واجراءاته وطائفة من محاكماته وقضاياه ؛ وفى هـذا القسم عنيت عناية خاصة بصفحة مؤثرة من تاريخ العرب فى اسبانيا، هى شرح الجهود التى بذلتها السياسة الاسبانية وديوان التحقيق لتنصير العرب، ومحو آثار الاسلام من اسبانيا، ثم لاخراج أولئك العرب المتنصرين نهائيا من أرض الوطن بعـد استشهاد طال أمده . ولمـا كانت الرواية المجردة لهذه المأساة تثير من تلقاء نفسها كثيرا من الأسى والشجن، ففى وسع القارئ أن يقدر أثنـاء تلاوتها ما آنست فى كتابتهـا من بواعث الانفعال والتأثر . غير انى اجتنبت التعليق ما استطعت، وتركت القول هنـا لمؤرخى الغرب أنفسهم ، معتقدا أن الوثائق تغنى عن كل تعليق ؛ وهذه الوثائق التى عنيت بأن أقدم عنها خلاصـة شافية هى قرارات الحكومة الاسـبانية وقوانين ديوان التحقيق منـذ قيام الديوان حتى صدور قرار النفى الأخير فى عهد فيليب الثالث ؛ كذلك قدمت طائفة من

(١) أقصد « محاكم التفتيش » ، غير أنى عدلت عن هـذه التسمية لخطئها طبقا لمـا بينته فى فاتحـة الكتاب الأول .

محاكمات الديوان وقضاياه ، بعضها متعلق بالعرب المتنصرين، حتى تبدو صورة الديوان كاملة سواء من حيث التشريع أو التطبيق .

وأما القسم الثانى، فيشتمل على مجموعة كبيرة من المحاكمات والقضايا الكبرى فى مختلف العصور والبلاد ، ومنها السياسية والاجتماعية . ومعظمها من قضايا التاريخ التى أثرت فى سيره ؛ واذا كان ثمة منها ما ليس له صلة بالتاريخ وآثاره ، كمأساة السموم، وقضية مدام لافارج، فان لها فى سير القضاء من الأهمية والطرافة ما يضعهما فى صف القضايا الكبرى .

وقد كان التحقيق التاريخى الوثيق هو جل ما سعيت اليه سواء فى القسم الأول أو الثانى . وكانت مهمة شاقة دقيقة، لأن المصادر شاسعة وفيرة، ثم هى شديدة التناقض والتباين سواء فى الرواية أو التقدير . وقد كانت لكل قسم، ولكل فصل، كما يرى القارئ ، مصادره الخاصة . ولم تكن كثرة المصادر لفصل معين أو حادث معين إلا لتريدنى اهتماما ببحثها واستقصائها . وبين هذه المصادر أحدث المؤلفات والمباحث؛ ومنها المصادر التاريخية العامة، وموسوعات التاريخ القومى، ودوائر المعارف المختلفة؛ ومنها المصادر الخاصة من تراجم ومباحث لعصور وحوادث معينة، ومباحث للقضايا والمحاكمات المعينة مما كتبه مشترع أو مؤرخ محقق . وقد رجعت الى طائفة غزيرة من النوعين لاستخراج التفاصيل والحوادث والوثائق المختلفة ، وأثبت المراجع تباعا فى آخر كل فصل، كما أثبتها مجتمعة فى صدر الكتاب، ورأيت زيادة فى التعريف بأهم المؤرخين والمشترعين والكتاب الذين رجعت اليهم أن أثبت تراجمهم موجزة فى نهاية الكتاب .

أما النقد والتقدير والتعليق ، فقد عالجتها بكثير من الحرية والاستقلال، عدا ما أوردته منها فى سياق البحث مسندا الى مصادره . غير أنى رجعت فى ابداء الرأى الخاص، دائما إلى التحقيق والتدليل التاريخى . وكان التقدير أحيانا فى منتهى الصعوبة والدقة نظرا لتباين النزعات والعواطف التى تطبع المصادر المختلفة . فمثلا

نجد بين مراجع الثورة الفرنسية ما تطبعه النزعة الجمهورية، وما تطبعه النزعة الملوكية، ونجد بين مراجع قضية دريفوس، المصادر اليهودية وغيرها، ونرى على العموم كثيرا من هذا التناقض فى النزعة والتقدير فى معظم المصادر الخاصة بالمحاكمات الملوكية. بيد أنى حاولت ما استطعت أن أتحرز من هذه المؤثرات الخاصة، وأن أبينها فى كثير من المواطن حتى لا يتسرب أثرها الى التقدير التاريخى الصادق. كذا عنيت عناية خاصة بمسألة الوثائق الرسمية، فأوردت منها ما استطعت من نصوص واجراءات، وصور أحكام، وقوائم اتهام، ومرافعات، لكى يعرض بذلك طرف من روح التشريع فى عصوره المختلفة فى صور عملية تقربه من الأذهان.

إلى جانب ذلك عنيت بمسألة الصور التاريخية، فأثبت منها خلال الفصول المختلفة أكثر من خمسين صورة، نقل بعضها عن صور فنية شهيرة. وانى لأنتهز هذه الفرصة لأسجل عميق شكرى، أولا لدار الكتب المصرية التى كانت أنفس مستقى لى سواء فى اقتناء المصادر أو نقل الصور، ولحضرات مديرها وموظفيها الأفاضل الذين قدّموا الىّ كل معاونة صادقة فى هذا السبيل؛ وثانيا لمطبعة الدار التى بذل حضرة ملاحظها الفاضل وعمالها، همة وعناية فائقتين، فى طبع الكتاب وإخراجه فى هذا الثوب الأنيق.

هذا، ولست أختم هذه الكلمة، دون أن أتقدّم بجم الثناء والعرفان إلى «لجنة التأليف والترجمة والنشر» التى أتشرف بعضويتها، فاليها يرجع الفضل فى نشر هذا الكتاب، وضمه إلى مجموعة كتبها القيمة التى تنطق بما تبذل من جهود صادقة فى خدمة التفكير العربى الحديث

القاهرة فى مايو سنة ١٩٣٠

محمد عبد الله عنان
المحامى



فيليب الثالث ملك اسبانيا (نقلا عن صورة ڤيلاسكيز)

وهو الذى أصدر القرار الشهير بنفى العرب المتنصرين من اسبانيا

مقدمة

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك

أتيح لى من خمس سنوات مضت أن أقدم للقراء كتاب زميلى الأستاذ محمد عبد الله عنان (قضايا التاريخ الكبرى)، حيث قص طرفا من حديث أشهر المحاكمات والجرائم فى عصور و بلاد مختلفة . وكانت الفكرة التى ألهمتنى إياها قراءتى فصول هذا الكتاب هى التى لخصتها فى صدر مقدمته حين قلت : «لعل ما نسميه الجريمة أقدم شيء فى الوجود. بل لعلها الأساس الذى قامت عليه الحياة بدء ظهورها. فالجريمة ليست إلا المظهر الأدنى لقانون تنازع البقاء و بقاء الأصلح . والرجل الذى يفتك بجاره و يسلبه متاعه أو زوجه، إنما يندفع الى ذلك كما يندفع أى حيوان ضار يريد أن يدفع عن نفسه غائلة الجوع أو يرضى من نفسه سليقة بقاء النوع وترقيته... وما تزال أنواع منظمة من الفتك والاعتداء ، نظام حياة الانسان ... وتاريخ الانسانية فى علاقة الناس بعضهم ببعض أفرادا وأمما يتحدث أغلب الأمر عن تاريخ الجريمة . و إن شئت فهو يتحدث عن تاريخ القتل والسلب الذى لا يسميه الناس جريمة بل يسمونه حربا ، وعن تاريخ القتل والسلب الذى لا يسميه الناس جريمة، ان ارتكبه ذوو السلطان وأسبغوا عليه دثار القانون ... والأمم السعيدة التى يسبغ عليها الوجود من النعمة مايغنيها عن النضال الى حد القتل والسلب، و يحرمها لذلك مجد الجريمة العظيمة، أمم لا تاريخ لها . وكيف يكون للرجل السعيد القانع بسعادته تاريخ ، والتاريخ قصة المطامع التى تستباح فى سبيل تحقيقها الذمم والأنفس ؟ !» .

هذه هى الفكرة التى ألهمتنيها مراجعة (قضـايا التاريخ الكبرى) . وقد اختار زميلى بعض فصول من تلك المحاكمات الكبرى أعاد صياغتهـا وضمها الى طائفـة كبرى من فصول جديدة ، وقدّم للكل بكتاب ضاف عن ديوان التحقيق وطالع بذلك كله قراءه فى هذا المجلد الذى أقدّمه اليوم اليهم، والذى سماه (ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى) . وربمـا كان للقارئ أن يسائل نفســه أى جديد يمكن أن أقوله اليوم فى هــذه المقدّمة غير ما قلت فى مقـدّمة الكتاب الأوّل ؟ وهل اضافة فصول جديدة الى كتاب أو تغيـير الترتيب فيــه يغير من الفكرة الذى يلهمها هــذا الكتاب قارئه ؟ على أنى أشهد بأن الكتاب الذى أقدم اليوم مختلف جدا عن الكتاب الذى قدمت من خمس سنوات ، وبان الفكرة التى ألهمنيها الكتاب الأوّل لاتشـمل إلا حيزا ضيقا من الفكرة التى ألهمنيهـا الكتاب الذى أقدم اليوم ، وأن ما أضيف الى الكتاب وطريقــة تبويبــه جعلت منــه كتابا جديدا لا يقف عنـد ضم فصول من قصص المحاكمات والجـرائم الكبرى فى العصور المختلفــة على نحو ما كان فى الكتاب الأوّل ، بل هو يرتفع فى التاريخ الى اسمى من هــذه المكانة ؛ و ينتظم سلســلة متصلة من حياة الانسانية حين تحكم فى طبقات الانسانية الحاكمة أحط شهواتها، شهوات التعصب والطغيان، والجشع للسلطة والمـال، وامتهان كل حق وكل عدالة وكل رحمة فى سبيل هذه الشهوات الدنيا .

وهذا الجانب من التاريخ مضافا الى تاريخ الفتــح والغزو هو ما تواضع أهــل الغرب على تسميته التاريخ الكبير (La Grande Histoire)، فأما ما سوى ذلك ممـا تعاقب على الانسانية من ثمرات جهاد بنيها الصالحة، فلم يكن الى عهد قريب معتبرا بعض تاريخها، وهو لا يزال الى اليوم معتبرا تاريخا خاصا على هامش التاريخ العام أو التاريخ الكبير . فتاريخ العلم ومكتشفاته، وتاريخ الفلسفة وتطوّراتها، وتاريخ الأدب وثمراته ، هذه كلها لم تعتبر تاريخا بالمعنى المتعارف إلا الى عصر قريب كانت من قبله تعتبر بعض العــلم أو الفلسفة أو الأدب أو ما اليها من فنون وعلوم . فأما انطلاق شهوات الانسان من عقالها، واغراقها سائر فضائله، من حكمة وروية، ومن

رحمة و بر، ومن تفكير صالح فى الحق والعدل، فى فيض من وحشية هذه الشهوات، وما يكون أثرا لذلك من حرب ضروس أو جريمة نكراء أو تشريع مجرم، فذلك تاريخ الانسانية منذ عرف الناس لانسانيتهم وجودا . وهو ما يلقيه الأباء للأبناء على أنه مواضع فخر السلف ومجدهم، مما يجب أن يأتم الخلف به، ويزداد سموّا فيه بأن يزداد اوغا فى دم الحرب والجريمة، وبأن يجعل من التشريع ومن القضاء ومن الدين والعقيدة، مبررات لهذا الولوغ فى دم الحرب والجريمة .

فالطريف الظريف مما يفتح (ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى) عينك عليه، ذلك استعلاء الجانب الحيوانى المفترس فى الانسان على جانب البصيرة المضىء منه، وخضوع ذكاء من يسمونهم العظماء ودقة منطقهم لشهواتهم، وشرههم للدماء، وتطور ذلك الاستعلاء وهذا الخضوع، فى صور تحاول الانتساب الى الأفكار الانسانية، وهى بعد لاتعدو مهاجمة الحيوان للحيوان طمعا فى اقتناصه وافتراسه، أو فى إبعاده عن فريسة يريد الحيوان الأقوى اقتناصها واختصاص نفسه بها . وكما أن الحيوان الظافر هو الذى يعتبر فى نظر سائر أقرانه صاحب الحق، كذلك يعتبر الانسان الظافر فى جهاده الحيوانى صاحب الحق . ثم يزيد حقه بعد ظفره على حق الحيوان، أن يجد من العقل ومنطقه، ومن الذكاء وحيله، ما يدعم حق هذا الظفر بالشعر البديع تتغنى به الأجيال المتعاقبة، وبالشرائع الثابتة يزعم واضعوها أنها أقيمت على أساس من الحق ومن العدل المجرّد من كل هوى .

ولما كان التعصب الأعمى أوّل مظهر للشهوة فى الانسان، فان ما سيتلوه القارئ فى صحف (ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى) إنما هو أثر هذا التعصب الأعمى تعصبا باسم الدين والكنيسة، أو باسم الملك والحق الإلهى فى الحكم، أو باسم العدالة التى تستند اليها سلامة الدولة، أو باسم الحرية المقدّسة الخالية من كل شائبة، أو باسم الوطنية الصادقة المخلصة . وما نرتاب فى أن المستقبل كفيل بأن يخلق صورا من التعصب، وألوانا أخرى يسخر فيها التشريع والقضاء لتنفيذ أهواء المتعصبين، باسم الانسانية البارة، أو باسم العناية الرحيمة، أو باسم آخر لا يعجز ذكاء العظماء ومنطقهم

عن ابداعه، وذلك ما دامت عظمة الانسان ليست شيئا غير سموه على ملايين أقرانه، فى قوة شهوته قوة تبهر ذكاء الأذكياء وعقول العقلاء، فتستفزها الى شعر قوى ومنطق دقيق، يرى فى قوة شهوة الانسان أسمى ما تبتغيه عظمة الانسان، فى توجهها سبيل الكمال، وفى محاولتها الاتصال بالملكوت الأسمى .

* * *

فباسم الدين والعقيدة الطاهرة، البعيدة عن كل زيغ حتى لا يطمع الشيطان فى أن يمسها وأن يقربها ، أنشئ ديوان التحقيق منذ القرن الثالث عشر الميلادى بدعوى القضاء على الزيغ فى العقيدة أيا كانت صورته. وكانت جريمة الزيغ فى العقيدة معاقبا عليها بأشد العقوبات، بعقوبة القتل حرقا، بعد التطهير وبعد الاعتراف عن طريق العذاب بالكى بالنار، وبصب مالا يطيق المعذب من كميات الماء فى جوفه، كى يعترف وكى يخرج الشيطان من جسمه . وكانت عقوبة الموت حرقا توقع فى حفلات عامة يحضرها الملوك والوزراء، يمتعون فيها أعينهم بمنظر الانسان تأكل النار جسمه، وآذانهم بسماع صيحات ألمه خلال هذا العذاب فى طريق الموت، وأنوفهم برائحة اللحم الانسانى تشويه النار ثم تلتهمه ثم تحرقه حتى تذره رمادا . وفى أثناء التحقيق الذى ينتهى الى هذه العقوبة كان هذا الشريك للشيطان — فيما يزعمون — يلقى أصنافا من التعذيب، بما لا يمكن أن يخطر على ذهن أشد الهمج توحشا وقسوة . فأما الجريمة التى يجزى الرجل أو المرأة من أجلها بمثل هذا التعذيب وذلك العقاب عقاب الحرق علنا بمشهد من الملك والوزراء والجند والشعب، فكانت جريمة غير محدودة إلا فى أذهان الذين يريدون توقيع العقاب على صاحبها . فهم يتهمون فلانا من الناس بالزيغ وبالاتجار مع الشيطان، ويلتمسون لذلك أيه قرينة من القرائن، يعتبرونها هم دليلا على الزيغ ويعدون الشهود لإقامة الحجة على هذه القرينة. فاذا أنكر المتهم اعتبر إنكاره دليلا على إمعانه فى زيغة، وعلى شدّة محاربة الشيطان له، حتى ليحول بينه وبين الاعتراف بجريمة، إن لم ينته الاعتراف بها الى أية نتيجة فى شأن عقابه، فهو قد يخفف عنه عند الله يوم الحساب . وهو ما دام لا يقيم حتى ليوم

الحساب وزنا فلا يعترف، فليكن عدم اعترافه ظرفا مشدّدا، ولو سبق عدم الاعتراف كل ما شئت من صنوف التعذيب بالنار والماء، وبما لا يتصوّره عقلنا إلا بعد أن يصوّره شهود ذلك العصر لنا، ويجليه معاصرونا من الكتّاب والمؤرخين علينا .

ولقد ظل ديوان التحقيق قائما باسبانيا وغير اسبانيا حتى القرن الثامن عشر الميلادى . لكن انتهاء عهد ديوان التحقيق لم يكن معناه انتهاء الفكرة المجرمة التى قام عليها . فقد ظل التعصب الدينى فى أوربا، وظلت المحاكمات المصطبغة به الى عهد الثورة الفرنسوية، حتى لقد حوكم كالاوسرڤن ودلابار فى القرن الثامن عشر وحكم عليهم؛ ولئن اختلفت الاجراءات واختلف السبب الذى انتحل للمحاكمة، فقد كان الأساس واحدا، هو التعصب الدينى الأعمى، تعصبا دفع الفيلسوف الكبير ڤولتير ليقوم بحملة قوية على هذه المحاكمات فينجح فى قضية كالا نجاحا يكون له أثره من بعد ذلك وحين قامت الثورة الفرنسوية لاعلان حقوق الانسان اعلانا تجرى من حوله دماء الظلم والغدر والفجور، منادية بظلم دعاة العدالة وطغيان أدعياء الحرية .

وإنما قام ديوان التحقيق فى عصور بلغ التعصب المسيحى فيها غاية مداه . وقد يكون عجيبا أن يكون أتباع الدين المسيحى، وهو من أشد الأديان تسامحا ودعوة للرحمة، أشد أهل الأديان قاطبة قسوة وتعصبا . ولعلنا لا نجد لهذا تعليلا إلا فى تركيز السلطة الدينية فى شخص البابا تركيزا جعل كلمته كلمة الله، فمن عصاها فقد عصى الله . وكان من آثار هذا التركيز ان كان الملوك فى الأمم المسيحية يستمدون سلطتهم الزمنية والروحية جميعا من البابا، فكانوا جميعا كما كان رعاياهم من أتباعه . ولم تكن البروستانتية قد ظهرت إلا بعد قيام ديوان التحقيق وتفشى مظالمه وفظائعه بقرنين، فلم يكن بين المسيحيين هذا الخلاف فى تفسير النصوص وتقدير الطقوس، خلافا يخفف، أنى وجد، من غلواء التعصب، ويبعث بطبيعته قبسا من الرحمة لأولئك الذين لا تطمئن نفوسهم الى عسف الظلمة المتعصبين . ومن أجل ذلك كانت سلطة ديوان التحقيق مطلقة لا حدّ لبطشها فى كل الأمم التى قامت فيها، وإن يك هذا البطش وما تولد عنه من ظلم ووحشية وفظاعة لم يبلغ فى أمة من الأمم التى نشأ ديوان

التحقيق فيها ما بلغ فى اسبانيا، هذا بالرغم من أن اسبانيا كانت فى تلك العصور أسمى من غيرها من أمم النصرانية فى أوربا حضارة، وأكثر منها جميعا سبقا فى ميدان العلم والتفكير والبحث والاطلاع.

لكن وحشية ديوان التحقيق وفظاعة جرائمه فى اسبانيا كانت ترجع الى وجود المسلمين بها حتى أجلاهم النصارى عنها، والى بقاء مخلفاتهم بعد الجلاء، والى اعتناق أخلافهم الديانة المسيحية، اعتناقا لم يطمئن له البابا ولم تطمئن له السلطات الاسبانية، حتى رأت سلام المسيحية وقفا على القضاء على كل من بقى ممن كانت له بالمسلمين فى اسبانيا أية صلة، ولو كان قد تنصر وحسنت نصرانيته، ولو كان قد غلا فى النصرانية وتعصب لها حتى بذ فى تعصبه أعضاء ديوان التحقيق وبذ الجلادين الذين يحرقون ضحايا الديوان بعد تعذيبهم بمشهد من الملك والوزراء والجند والشعب — من هؤلاء الألوف من المسيحيين الذين يدينون بدين الفضل والرحمة، والذين أوصاهم نبيهم بالتواضع والابتعاد عن الغلظة واحتمال الأذى فاذا صفعهم أحد على خدهم الأيمن أداروا له خدهم الأيسر.

وقد صوّر الأستاذ عنان فى كتابه الأول عن (ديوان التحقيق) مما كان يقوم به هذا الديوان بازاء المسلمين، والمسلمين المتنصرين الذين أسماهم كتاب الافرنج (بالموريسكيين)، صورة ترتعد لها الفرائص بل تشيب من هولها الولدان. كان كافيا أن يلبس المسلم المتنصر ثيابا نظيفة أو ينقطع عن عمله بعض يوم الجمعة ليكون زائغا فى نصرانيته، وليحق عليه العذاب كى يعترف بزيغه، تمهيدا لموته محروقا بعد أن يصلى الهوان ألوانا؛ وكان يكفى أن يتشبه فى زيه بلبس المسلمين، أو أن يذكر محمدا عليه السلام بشيء من الاحترام، أو أن يسمى ابنا أو ابنة له باسم متعارف عند المسلمين، أو تبدر منه بادرة تدل على أنه فى قلبه على الدين الذى كان يعتنقه هو أو يعتنقه آباؤه أى عطف بالغا ما بلغ ضعفه، ليسام العذاب تمهيدا لموته محروقا. ثم أصبح المسلمون المتنصرون — أو الموريسكيون — كلهم موضع شبهة، وأصبحت نصرانيتهم جميعا مطعونا عليها بالزيغ، وصار بقاؤهم فى المملكة خطرا على المملكة، فلا بد من نفيهم منها

وابعادهم عنها، ولا بد من تنفيذ أمر النفى بأشد وسائل القسوة . ولو أن ذلك كله تم فى سنة أوسنتين أو عشر لهان الامر بقصر عصر التعذيب والاضطهاد . لكن ملوك اسبانيا وأمراءها، كانوا يجدون فى كثير من الأحيان صلابة ومقاومة من جانب المسلمين أو المسلمين المتنصرين، فيضطرون الى مهادنتهم، وقطع العهود على أنفسهم أن يحترموا ممتلكاتهم وحرياتهم وعقائدهم . فاذا آنس هؤلاء الملوك أو الأمراء من النصارى قوة، انتحلوا أوهى الأسباب وزعموا أن العرب الباقين فى اسبانيا يثيرون فى الأرض الفساد، فيجب اخضاعهم لنظام ديوان التحقيق أو نفيهم من البلاد . وعند ذلك ينتشر الرعب، وتجرى أعمال الارهاب بما لم يجد أى مؤرخ من مؤرخى المسلمين أو النصارى نظيرا له فى بشاعة القسوة، وفظاعة الارهاب . وكذلك دام الحال حتى جلا المسلمون والعرب المتنصرون عن اسبانيا جميعا، وحتى اطمأنت السلطات فيها الى أنها أصبحت متحدة الجنس واللغة والدين، اتحادا لا محل للخوف معه من أى انتقاض . وبذلك كتب ديوان التحقيق بحروف من دم ونار، صفحة فى تاريخ اسبانيا من أشد صفحاته سوادا : صفحة أساسها التعصب الدينى الأعمى، وكل ما يلده التعصب من فظائع ومايهوى، بأصحابه من درجات الانسانية الى أسفل درك الهمجية .

* * *

هذه صورة من صور استعلاء الجانب الحيوانى المفترس فى الانسان على جانب البصيرة المضىء منه، صورها مؤلف (ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى) فى كتابه الأوّل عن ديوان التحقيق وفى فصول متفرقة أخرى، وهى صورة استعلاء التعصب الدينى على التسامح، لأن البابا الدينى كان يومئذ صاحب السلطان الزمنى الأعلى، فكان يسخر الدين والعقيدة والكتب المقدسة والألوهية ذاتها إذا اقتضى الأمر، للمزيد فى سلطانه وللقضاء على خصومه . وثم صورة أخرى وضعها المؤلف لاستعلاء الجانب المفترس، صورة الملك المستبد لايرضى الى جانبه من ينازعه ملكه، ولوكان الذى الى جانبه أخا له أو ابنا، ويسخر التشريع ويسخر القانون والقضاء، ليجعل من اسمهما وسيلة للقضاء على من يخافه . وهو ما تغلب على خصمه كان الحق

فى جانبه . فاذا تغلب عليه خصمه كان تشريعه باطلا وقضاؤه ظالما وقضاته متحيزون ، لأن القوة التى فاز بها خصمه عليه ، قديرة على أن تجعل حكم التاريخ كذلك فى هذه الشؤون جميعا ، كما انه إن فاز هو بهذه القوة ، فقد جعل حكم التاريخ فى شأن تشريعه وقانونه وقضاته كما يشاء ويهوى .

وثم صور مختلفة معروضة فى هذا الكتاب لمنافسى الملك المستبد ، ثم تصوير دقيق لمعركة الدستور والحكم المطلق فى انكلترا ، بين الشعب الذى تنتهى قيادته آخر الأمر الى أوليڤر كرمويل ، وتشارلس الأول أشد الملوك حرصا على حقوقه كملك مستبد ، حتى ليقول ساعة صعوده الى نطع الجلاد : « يجب أن تعلموا أن حرية الشعب إنما هى فى أن تكون له حكومة ... وليست فى أن يكون له نصيب فى الحكومة ، فذلك ليس من حقوقه . والملك والرعية شيئان مختلفان » ؛ وثم صورة النزاع بين الملك والنبلاء الذين يأتمرون بملكه ويعملون للاتفاق مع دولة أجنبية ضده ، سواء أكان ذلك لقلبه من فوق عرشه ، أو للقضاء على طائفة من ذوى الحظوة ضده . وغير هاتين الصورتين صورة ثالثة للملك المستبد الخائف على ملكه من ولى عهده ، والذى يقف مترددا بين شهوة الملك وعاطفة الأبوة ، فتثور العاطفة به حينا لتحول بينه وبين القضاء على ولده ، ثم تستعلى الشهوة على العاطفة شيئا فشيئا حتى تتحقق الكلمة المأثورة : الملك عقيم ، وحتى يرى الملك فى ولى عهده أكبر خصم له فى حياته ولذكراه بعد موته ، وحتى يصبح الابن والأب عدوين كما لو كانا أجنبيين لا يجرى فى عروقهما دم واحد ، ثم يستعين الملك بصورة مما يسميه القضاء يستصدر منه حكما على ولى عهده بالموت ، ثم يخاف الاب بعد ذلك عاقبة تنفيذ الحكم علانية لما يثيره هذا التنفيذ فى النفوس من حفيظة ، لامتهان أقدس عاطفة هى الحب الأبوى ، فيسر الاب الى رجاله ليقتلوا ولى العهد فى سجنه ، وليذيعوا من بعد ذلك أنه مات كمدا وأسفا على ما فرط من قبل فى حق الملك وفى حق أبيه .

ومن هذه الصورة الأخيرة أورد لنا مؤلف المحاكمات الكبرى مثلين : الأول محاكمة الدون كارلوس أمير استرياس ولى عهد اسبانيا وولد الملك فيليب الثانى ،

فى سنة ١٥٦٨ ، والاخر محاكمة الكسى رومانوف ولى عهد بطرس الأكبر منشئ روسيا الحديثة ، فى سنة ١٧١٨ . ولم تقع هاتان المحاكمتان إلا بعد أن أفرغ كل من فيليب الثانى وبطرس الأكبر، كل جهد لديه فى تقويم عوج ولده وفى إعداده إعدادا صالحا ، ليكون من بعده ملكا مثلا يؤدّى لبلاده واجب الملك ويقوم فيها بالاصلاح على نحو ما يريد أبوه ، وبعد أن حاول كل من الأبوين الاطمئنان الى نزول ولى عهده عن حقـه فى ولاية العهد لما أن يئس من صلاحه للملك ، وبعد أن أيقن أن كل وعد يبذله ولده وكل قسم يقسمه ، لم يكن إلا خديعة تدبر من حولها الدسائس وتحاك المؤامرات . هنالك نفدت العاطفة الأبوية ، ووجب تصوير خلاص الملك وخلاص الدولة من ولى عهدها ، فى صورة حكم يصدره القضاء العادل . فتألفت فى كل واحدة من الحالين محكمة ، ناقشت شهودا واستجوبت المتهم وسمعت دفاعا ، ثم أصدرت الحكم الذى أراد الملك أن يصدر من قبل أن تؤلف المحكمة — حكم الاعدام . فلماصدر تردّد الأب وعادت عاطفــة الأبوة وأنانية الملك تتنازعان زمنا ، انتهت أنانية الملك بالتغلب فيه على ألا ينفذ الحكم علنا ، وعلى أن يدس لولى العهد المحكوم عليه من يقتله ، ليدفن بعد ذلك فى احتفال لائق بمقام الأب كملك عظيم فقد ولى عهده المحبوب .

وفى أثناء هذا النزاع بين الملك وولى عهده لم ين كل واحد منهما عن تدبير المؤامرات وبذر الدسائس لصاحبـه . وكما تغلب بعض أولياء العهد فخلعوا آباءهم باسم الشعب أو قتلوهم ، واعتبروا ذلك إخلاصا صريحا للوطن متمثلين بقول بروتس على أثر قتل صديقه الحميم قيصر : « لقد كنت أحب قيصر ، لكنى كنت أكثر حبا لروما » ، كذلك كان شأن هؤلاء الذين صوّروا مأساة قتل الأب لابنه فى صورة القضاء والعـدالة : أذاعوا من بعد على لسان أنصارهم أنهم ضحوا أكبر تضحية يستطيعها انسان فى الحياة ، حين ضحوا بأبنائهم لمصلحة الوطن . وقد يكون لاعتبار الوطن مكان فى منطق هؤلاء الآباء والأبناء الذين ارتكبوا هذه الجرائم ، لكنا فى حل من أن نعتقـد أن هذا الاعتبار لم يكن إلا منطق العقل الذى يبرر الجريمة ، وأن الدافع الحقيقى إنما كان هذه الشهوة الانسانية الدنيا ، شهوة الملك والاستبداد به ، والقضاء على كل من يتوهم الملك أنه ينازعه فيه .

فأما النزاع بين الملك والنبلاء ومحاكمة هؤلاء فترى منه صورا كثيرة فى الكتاب . ومن هؤلاء النبــلاء من يتآمرون بالفعل لقلب النظام على نحو ما فعل سان مار ؛ ومنهم من يشتركون فى الجرائم أو يجرهم غيرهم اليها ، للتقرب من البلاط ، على نحو ما كان فى قضية العقد وموقف الكردينال دى روهان منها ؛ ومنهم من يحكم عليــه ظلما لغير شيء إلا لأن قويا من المتصلين بالملك أراد القضاء عليه كما كان الحــال فى محاكمة أوربان جرانديه ؛ وغير هذه من الأمثال يجده القارئ مفصلا فى الكتاب . وهو يرى فى كل محاكمة كيف سخرت العدالة وكيف سخر القضــاء لازهاق أرواح قد لا تكون بريئة ، ولكن السبب فى القضاء عليها لم يكن الدليل القائم فيها ، ولكن الشهوة التى دفعت للمحاكمة ، ووسائل الفن والخداع التى اتخذت فى التحقيق ، ونزول هؤلاء الذين يسميهم التاريخ ويسميهم أهل عصورهم العظماء وهم ليسوا عظماء ألا بقوة شهواتهم الدنيا ، وتحكمهم من أجل ذلك بذكائهم فى غيرهم من الفضلاء والحكماء ممن لا تحركهم شهواتهم بمثــل تلك القوة ، التى تجعل منهم عظماء من طراز العظماء الذين يسيغون شرب دماء أمثالهم من بنى الانسان إرضاء لنهمهم للسلطة ، وشديد حرصهم على استبقائها لا ينازعهم فيها منازع .

واذا كان ذلك هو الشأن فيما ينزل بالنبلاء الذين يحاكمون فليتصور القارئ ماذا يكون من شأن الملوك يحاكم بعضهم بعضا أو يحاكم شعبهم أحدهم ؟ وقد تكون الظروف التى حاكمت فيها مارى تيودر اللادى چان جراى مما يستثير العطف والشفقة على لادى چان لصغر سنها وجمال وجهها ، ولأنها كانت فوق ذلك ألعوبة فى يد غيرها حتى لقد طاح رأسها إرضاء لمطامع لم تكن تشارك فيها ولا يدفعها اليها طموحها . لكن المحاكمة التى عبثت فيها شهوة الملك بالعدالة شر عبث ، فتلك محاكمة الملكة اليزابث لمــارى ملكة اسكتلنده . فقــد كانت مارى ملكة للفرنسويين ثم صارت ملكة ايقوسيا ، ولأسباب خاصة ثار بها شعبها فاستغاثت باليزابث وطلبت الاحتماء بهــا فى أرض انكلترا . ووعدتها اليزابث حمايتها وجرتها جرا للمقام بالأراضى الانكليزية ، ولو أنهــا لم تفعل لتخطت مارى الى القارة ولاحتمت بفرنسا ، ولوجدت منها خير ملجأ أن كانت فيها ملكة محبوبة لذكائها وجمالها وعظيم تعلق الشعب بها . لكن

اليزابث وجدت فيها منافسة قوية وخشيت إن هى انضمت الى جانب الكثلكة أن تصبح خطرا عليها وعلى عرشها ، فجعلت من القصر الذى أضافتها فيه سجنا لها وظلت بها تنقلها من قصر الى قصر كلما خشيت سلطان جمالها على من يحيطون بها ، ومن تأمرهم هى أن يكونوا حراسها . وكانت محاكمتها من بعد ذلك مهزلة من شر المهازل التى مثل فيها بالعدالة شر تمثيل ، والتى لا يبررها مبرر غير الحرص على الملك من جانب اليزابث ، حرصا وجدت هى فيه مسوغا لكل عسف ولكل ظلم ولكل قسوة.

فأما الملوك الذين حاكمهم شعوبهم وحكموا بموتهم ، فسيتلو القارئ سيرة ملكين منهم ، أولهما تشارلس الأول ملك انكلترا ، والثانى لويس السادس عشر ملك فرنسا. وسيرى القارئ كم بين شارل ولويس من فرق . كان لويس ضعيفا وشارل قويا ، وكان لويس مستسلما وشارل مقاوما ، وكان لويس فريسة أهواء زوجه وبلاطه ، وشارل ضحية مبدئه الذى لم ينزل عنه حتى على نطع الجلاد. وكان لويس أبا وزوجا قبل أن يكون ملكا ، وكان شارل ملكا وكل شىء فى الحياة خاضع له كملك . مع ذلك كان الشعب الفرنسى أشد قسوة بلويس من الشعب الانكليزى بشارل . وليت شعرى لو أن شارل هو الذى كان ملكا للشعب الفرنسى فهل كان الفرنسويون يثورون به ما ثاروا بلويس أو أنهم كانو يقدّسونه ويعدّونه ملكا عظيما كما كان لويس الرابع عشر. لكن شارل ولويس حوكما لأنهما لم يعترفا بحقوق الشعب فى الحكم وشركته فيه ، ولم يعترفا بما يذكر اليوم فى صيغة أن الأمة مصدر السلطات جميعا ، فحقت عليهم لذلك عدالة الشعب . وعدالة الشعب دامية سفاكة .

* * *

كان واجبا أن تكون محاكمة لويس السادس عشر خاتمة الثورة الفرنسوية ما دامت هذه الثورة قد أعلنت حقوق الانسان وجعلت شعارها « الحرية والاخاء والمساواة » ، وما دامت قد قضت على الملوكية وأقامت الجمهورية مكانها لاعتبارها الملوكية مسئولة عن آلام الشعب ومصائبه وأرزائه فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر . ولكن لا ! فالواقع أن إعدام لويس السادس عشر وإعدام زوجه مارى انتوانيت ، لم يكن إلا مقدمات الثورة ومبادئها ، وأن الثورة قد ظلت بعد ذلك سنوات حتى استخلصها نابليون لنفسه بثورة عليها أقوى وأضخم منها . وليس فى ذلك

من عجب . فالثورات فى الأمم كالحريق فى بيت كبير به فاخر الرياش وثمين الجوهر والنفائس . ما تكاد النار تتسع فى هــذا البيت دائرتها حتى ترى متطوعين من كل جانب يفدون اليه بدعوى إطفائها ، ثم لا يحول ذلك دون الواحد منهم واستلاب ما تصل اليــه يده من كنوز البيت ونفائسه. وقد يكون المتقدّمون الأوّلون لاطفاء الحريق من ذوى المروءة والنجدة، يأبى عليهم شرفهم وتأبى كرامتهم أن يسلبوا وأن يكونوا لصوصا سارقين . لكن غير هؤلاء ما يلبثون يندســون الى مكان الحريق بدعوى الاطفاء، وفى نية أكثرهم أن يزيد النــار ضراما ليزداد حظه من الاسلاب والمغانم . كذلك كان الشأن فى الثـورة الفرنسوية، وهو كذلك الشأن فى الثورات جميعا . قضى على الحياة الملكية، واستقر النظام الدستورى، وأخذت الأمة بنصيب من حكم نفسها، فيجب أن يكون للافاقيين فى هذا الانقلاب وسيلة العظمة والتحكم فى الشعب، ولتكن أسماء الحرية والعدالة وسيلتهم وسلمهم الى غاياتهم. ومادام غيرهم من العدول وذوى المكانة لا يستطيعون أن يذروهم يتسنمون الذروة بالسرعة التى يريدون، فهؤلاء العدول والحكماء وأنصار الحق يجب أن يكونوا خونة مارقين ويجب أن يقضى الشعب عليهم بكل وسائله . كان رجال « الجيروند » أكثر أهل فرنسا حكمة وعلما واقتدارا، وكانوا هم الذين تغلبوا على نزق مارى انتوانيت وضعف لويس السادس عشر، ووضعوا لفرنسا دستورها، وحاولوا تمهيد السبل لخروجها مما كانت فيــه من فاقة وضنك الى بحبوحة الرخاء والرغد، والى المكانة التى تليق بفرنسا كأمة من أعظم أمم الأرض . لكن الشعب الذى أثاره رجال (الجيروند) ما يزال ثائرا . ومن بين رجال الشعب، ومن القريبين الى الشعب فى عقليتهم وثقافتهم وتفكيرهم، طائفــة ترى فى بقاء (الجيروند) مايحول دون ازدهار شهواتها فى الحكم الى أقصى الغايات التى تطمع فيها شهوات الانسان الدنيا المتصلة فيه بحيوانيته. فليقض اليعاقبة اذًا على الجيرونديين، وليجعلوا من الوطنية والعدالة سبب هــذا القضاء . ثم ليمعن اليعاقبة بعد ذلك قطعا للرءوس تحت نصل المقصلة (الجيوتين) باسم الثورة ومبادئها وباسم العدالة ونزاهتها، وان كان الدافع الحقيق لهذه المجازر كلها ، هو تلك الشهوة الدنيا : شهوة الحكم والاستبداد به. وكذلك جعل روبسپيير وشيعته يخضبون أرض

فرنسا كل يوم بدماء الأبرياء فى مهزلة مؤسية يسخر العقل منها، وتتفطر من هولها الأكباد والجوانح. وكيف تستطيع أن تسمى عدالة تلك التى تحشد أمام هيئة يسمونها القضاء، عشرات المتهمين، تسمع المحكمة الثورية قضاياهم من غير شهود ومن غير مدافعين، وتقضى عليهم بالأعدام تحت نصل المقصلة لغير تهمة محددة أكثر مما كانت تحدد التهم فى أيام محاكم التحقيق، وحين كان التعصب الدينى الأعمى على أشده. كذلك كان التعصب الأعمى لما يسمونه الحرية والثورة والوطن على أشده فى أيام هؤلاء اليعاقبة. على أن الدم البرىء المسفوك مايلبث أن ترتفع صيحاته الصامتة بين الأرض والسماء فتحرك فى النفس الانسانية القبس المضىء الخالد، المستمد من روح الآلهة، والذى لا يطيق البقاء على احتمال الظلم إلا ريثما تهتز فى السماء قواعد العدالة، فتبعث على الظالمين فى الأرض أشواظا من لهب تبعثها أفواه شركاء الظالم أنفسهم. كذلك كان الشأن مع روبسپير وأنصاره جماعة السلام العام. فقد حركت مآسى المحكمة الثورية نفوس هؤلاء فأتمروا بروبسپير وكوتون وسان چست وغيرهم ممن استهانوا بالدم الانسانى فولغوا فيه وبالروح الانسانية فأزهقوها أفواجا. وفوق المقصلة التى كانت تقطع الرقاب باسم روبسپير وأصحابه، صعد روبسپير وأصحابه ليهوى عليهم نصلها فيفصل عن أبدانهم رءوسهم ويثير على شفرته دماءهم، لتختلط بدماء أولئك الأبرياء الذين ظلموا باسم الحق والحرية والعدالة. وليتبع ذلك كله بعد عام واحد من قضائهم القضاء القاسى على جماعة (الجيروند) ذوى النزاهة والحكمة والمقدرة.

على أن قسطا غير ضئيل من الفضل فى تحريك نفوس الذين ثاروا بمسيح الثورة — روبسپير — وأصحابه يرجع الى فتاة وامرأة. فتاة بارعة الجمال حادّة الذكاء قوية الايمان، وامرأة على أعظم جانب من الثقافة وهبت من سحر الكلمة ما كان جم الأثر فيما أراد الجيرنديون لفرنسا من اصلاح. فأما الفتاة فشارلوت كورداى وأما المرأة فمدام رولان. وكلتاهما قص مؤلف (ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى) قصتها فى دقة وروعة، كما قص فى دقة وروعة مقدّمات الثورة التى انتهت الى محاكمة لويس السادس عشر ومارى انتوانيت. والحق أن دم الفتاة الساحرة الخلابة شارلوت كورداى، كان صاحب الفضل الأكبر وان لم يكن صاحب المقام الأعظم. فهذه

الفتاة التى نشأت وأقامت بريف فرنسا والتى ظلت تتعلم فى الدير حتى أقفلت الثورة الأديرة ، قد ضحت بنفسها وبحياتها لا تحركها أية أثرة ، ولا يدفعها أى مطمع من المطامع ، وانما كانت تحركها وتدفعها عاطفة وطنيــة وانسانية صادقة هى الثــورة لمقتل خير رجال فرنسا وازهاق أرواحهم باسم الحرية مع أنهم هم الذين مكنوا لفرنسا من الحرية . بهــذه العاطفة سافرت الى باريس واحتالت لمقابلة مارا وقابلته وهو فى حمامه وطعنته بسكينها الطعنة القاتلة ، ثم أسلمت نفسها واعترفت بما جنت يداها وبأنها قتلته بسبب جرائمه . وتركت من بعدها نداء الى أبناء وطنها تفتتحه بهذه العبارة : «الى متى أيها الفرنسويون التعساء تؤثرون الاضطراب والتفرق؟ ألا لقد طال الأمد الذى غلب فيــه الادعياء ودعاة الانقسام مصالحهم وأطماعهم على المصلحة العامة ، فلم تبطشون أنتم — ضحية أطماعهم — بعضكم ببعض فتقيموا بذلك صرح استبدادهم على أنقاض فرنسا؟ » .

ولم يكن مصرع روبسبيير وأصحابه بعد سنة من مصرع شارلوت كورداى ومدام رولان خاتمة الدماء التى أفاضتها الثورة . غير أن وجهتها اختلفت بعــد ذلك بقليــل . فلم يبق الحكم والسلطان فى الداخل سبب الدماء بمقــدار ما كان الغزو ومحاربة من كانوا يسمونهم أعداء الثورة فى الخارج سببها . وفى هــذا الميدان برز نابليون بونابارت داخل فرنسا أولا ، ثم فى ايطاليا ومصر بعد ذلك ، ثم فى سائر ممالك أوربا . ومع ما امتــاز به عصره من عظمة لفرنسا ومن طمأنينــة نسبية فى داخل ربوعها كان سببها هيبة الهيئــة الحاكمة وقوة القنصــل الأول ثم الامبراطور ، فان ذلك لم يحــل دون وقوع فظائع باسم العــدالة أورد الأستاذ عنان منها مأساة الدوق دنجان الذى اتهــم بالتآمر على حياة القنصــل بونابارت والذى اختطف من أرض أجنبية — إذ كان يقيم فى ألمــانيا — وجىء به الى باريس وزج به فى سجن ڤنسان ، وحوكم وحكم عليه بالاعدام وأعدم ، وذلك كله فى ليــلة واحدة ، وذلك كله ليرى بونابارت الشعب ، أنه يستطيع أن يهدر دما ملكيا فيلق باهداره الرعب فى قلب كل من يحاول إعادة الملكية الى فرنسا .

وبالرغم من أن الجمهورية عادت بعــد موت نابليون فان ارتقاءه العرش أمبراطورا على أكتاف الثورة ، جعل لأبناء بونابارت من بعده أن يدعوا الملك ، وجعل

نابليون الثالث يطمع فيه ويصل اليه، ويظل جالسا على عرشه حتى تنتهى فرنسا الىهزيمة حرب السبعين، فتهوى الامبراطورية مع الهزيمة الى القرار الأخير ويحاكم المارشال بازين رجل الامبراطور وتقوم حكومة الجمهورية الثالثة قوية تعيد الى فرنسا كل أمنها وكل طمأنينتها وتحقق ما رمت اليه الثورة من «حرية وإخاء ومساواة»، وتقضى بذلك على أسباب الثورة ان حققت للثورة كل أطماعها .

* * *

على أن الشهوات الانسانية الدنيا التى أملت ما رأيت من محاكمات نتلو تفاصيلها فى هذا الكتاب لم تنته بانتهاء الثورة ، فقد ضرب لنا الأستاذ عنان مثلا قضية دريفوس وكيف أدّت اليها خصومة السامية التى كانت وما تزال قائمة بين النصرانية واليهودية . وقد شهد العالم خلال الحرب الأخيرة ومن قبلها محاكمات كبرى كمحاكمة مدام كايو فىمقتل كالمت، ومحاكمة قاتل چوريس فى مفتتح الحرب، ومحاكمة المسيو كايو أثناء الحرب . لكن أبطال هذه المحاكمات ما يزالون جميعا أحياء فمن المتعذر على المؤرخ أن يقول فيهم كلمة تصوّر الحقيقة بمقدار ما يستطيع الاستقصاء والتحقيق التاريخى أن يصل الى الحقيقة .

وقد قال الأستاذ عنان كلمته كمؤرخ فى كل المحاكمات التى فصلها كما قال كلمته فى ديوان التحقيق وما ارتكب باسم العدالة من فظائع ومظالم . ولست أنكر على القارئ أنى كثير التردّد عظيم الشك فى كلمة التاريخ والمؤرخين فى مثل الحوادث التى قص الأستاذ عنان . ففى هذه القضايا لم يكن المحققون الذين حققوا محققين ، ولم يكن القضاة الذين حكموا قضاة، ولم تكن هناك فكرة العدالة يقصد الىتحقيقها . بل كان هذا كله تمثيلا مسرحيا يصور مهزلة فاجعة تمليها شهوات أولى الأمر وليس فيها للقانون والقضاء والعدالة سوى الاسم . فالتحقيق والقضاء والعدالة لا تكون إلا حيث يكون ضمير القاضى وحده هو صاحب التقدير والحكم ، وحيث يكون التحقيق والقضاء قادرين أن يقضيا على صاحب القوّة بنفس النزاهة التى يستطيعان أن يقضيا بها على من يناصبه صاحب الحكم الخصومة، ولم يكن شىء من ذلك فى أية واحدة من المحاكمات الكبرى التى عرفها التاريخ ، بل كان الملك أو الطاغية يقرر الحكم الذى يصدر، ثم يكلف المحققين والقضاة بتمثيل مهزلة العدالة التى تجعل لهذا الحكم أمام الشعب الصورة الشكلية التى يتخذها القضاء ليكون محترما

فى نظر الشعب . وبحسب القضاء أن يكون ذلك مظهره ليكون غير جدير بأى تقدير، وبحسب الخصومة بين اثنين أن يكون أساسها الشهوة، ليكون الحكم لأى من المتخاصمين حكما مشوبا بأهواء أهل العصر ومؤرخيه، ممن يتأثرون هم أيضا بناحية من نواحى الخصومة أكثر من تأثرهم بوحى العدالة ونزاهة القضاء .

ولنا من محاكمة دريفوس وما أورده الأستاذ عنان من تفاصيلها أقوى حجة على ما نقول. فهذا الضابط، الذى قضى عليه بالتجريد من ألقابه العسكرية وبالسجن فى قلعة، قد ثبت من بعد أنه كان ضحية ظلم صارخ متعمد، ولم يكن ضحية خطأ للقضاء ولا ضحية شبه ملفقة . مع ذلك ظل أعواما فى السجن كان اليهود خلالها يقيمون العالم ويقعدونه بسبب الظلم الذى حل به، وكان أكبر كتاب فرنسا وساستها ينتصرون له انتصارا كاد يدفع بفرنسا إلى مهاوى الثورة . أترى لو أن هذا الضابط أعدم ولم يكن حوله من الأنصار الأقوياء من كان حوله أفكان القضاء يعيد اليه براءته وشرفه ؟ وهل كان حكم التاريخ بعد ذلك عليه يصور فى الصورة الحاضرة فيعتبره شهيد الظلم والتزوير والشهادة الكاذبة ودناءة القضاة ؟ !

كم بين الذين حوكموا ويحاكمون من هو فى موقف دريفوس يوم قضى عليه بالتجريد والسجن ؟ كثيرون لا ريب ، وأكثرهم لا يجدون الوسيلة لظهور براءتهم كما ظهرت براءة دريفوس . ومن هؤلاء من يقضى التاريخ والمؤرخون عليهم بأنهم أثموا فى حق الوطن والعدل والانسانية .

على أن الأستاذ عنان كان فى آرائه التى أبداها فى القضايا والأحكام متئدا كل التؤدة، مراعيا هذه الظروف الدقيقة التى تحيط بالتاريخ والمؤرخ، محتاطا لا يحازب ملكا أو خصما لملك، مدققا فى بيان ما للملك وما لخصمه وما على الملك وما على خصمه .

وهذه الدقة التى راعاها الأستاذ عنان فى آرائه ، وهى بعينها الدقة التى توخاها فى سرد تاريخ «ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى» ، ندع الآن للقارئ تقديرها، وأما نحن فنهنئ الأستاذ عنان أصدق التهنئة على حسن اختياره فصوله وعظيم دقته فى تحرى مصادرها، والسلاسة الجميلة التى جعلتنا ونحن نتم قراءة صفحات كتابه الأربعين والخمسمائة نشعر بأنها لم تبلغ نصف هذا العدد ./.

محمد حسين هيكل

الكتاب الأول

ديوان التحقيق – L'Inquisition

---

١ – نشأته ودستوره واجراءاته .

٢ – ديوان التحقيق والعرب .

٣ – محاكمات الديوان وقضاياه .

ديوان التحقيق

تمهيد

كيف نشأ ديوان التحقيق . قيام الديوان فى أراجون . رسومه واجراءاته . النزعة الصليبية فى اسبانيا قيام الديوان فى قشتالة . نشاطه فى اشبيلية . مطاردته لليهود المتنصرين . تركويمادا ينشىء ديوان التحقيق الاسبانى .

لم يعرف قضاء الانسانية المتمدينة صفحة، فى روعة الأجراء، و إهدار العدل، وضعة الغاية، كقضاء ديوان التحقيق [1]، ولم يخلف نظام من نظم العصور الوسطى ماخلفته محاكم التحقيق من شنيع الآثار والذكريات .

قام ديوان التحقيق باسم النصرانية، ليسحق أعداء النصرانية، ونما وازدهر فى ظل الكنيسة ليحمى الكنيسة من شر الأنكار والإلحاد، فكان دينيا فى أصله وجوهره، ولكنه اختار سبيل القضاء لتحقيق غايته، فكان محكمة قضائية هائلة ذات نظم ورسوم خاصة، وكانت له مواقف شهيرة فى سير القضاء والمحاكمات الكبرى .

ولكن ديوان التحقيق كان فريدا فى قضائه، فريدا فى وسائله واجراءاته، وكانت له فى فهم العدل وفى وزن الأدلة، وفى تقدير الادانة والبراءة، وفى تصوير الانسانية والرحمة، فكر فريدة لاتقرها أبسط مبادئ التقدير والعدالة البشرية كما شرعت وفهمت منذ أقدم العصور .

وذلك طبيعى، فما قام ديوان التحقيق، وما شرع قضاؤه الا لسحق حرية الفكر والاعتقاد : أقدس الحقوق البشرية، ومطاردة كل فكرة نبيلة، وبالأخص كل

---

(١) أعتقد أن التعبير بديوان التحقيق هو أدق ترجمة فقهية لكلمة (Inquisition) وأصلها اللاتينى (Inquisitio) ومعناها العادى البحث أو التنقيب، ولكن معناها القانونى هو البحث أو التحقيق القضائى، أما التعبير بديوان التفتيش أو محاكم التفتيش، فهو ترجمة عامية خاطئة، اذ المقصود هنا التحقيق بمعناه القضائى، ومن ثم كانت صحة التعبير الذى اخترته .

نزعة حرة ترمى الى تحرير الضمائر والعقول من أغلال النظريات والتقاليد الدينية المظلمة ، وحماية تراث الكنيسة من كل جدل مستنير ، وسلطتها من كل محاولة هدامة . فلم يك غريبا أن تلجأ محاكم التحقيق الى قضائها الشاذ ، والى وسائلها الدموية ، لتمضى فى تحقيق غاية تثير مبادئ العدالة السليمة ، ولم يشرع لتحقيقها القضاء العادى .

فى مهاد هذه المعركة الفكرية قام ديوان التحقيق ليرد عن النصرانية سيل الإلحاد والإنكار . ولم تنس الكنيسة منذ نشأتها أن تلجأ الى سلاح المطاردة الدينية لبث دعوتها ودفع سلطتها ، ولكن إقامة قضاء منظم يعمل لهذه الغاية ، فكرة لم تخطر لأحبار الكنيسة إلا فى أوائل القرن الثالث عشر . ففى ذلك الحين ذاعت تعاليم الألبيين[(١)] وهم جمعية سرية ملحدة هدامة للدين ، قامت فى جنوب فى فرنسا ، وهبت يومئذ على تعاليم الكنيسة ريح قوية من الخروج والالحاد . فدفع البابا ، وهو يومئذ انوسان الثالث سيمون دى مونفور[(٢)] الى محاربة الألبيين ، واضطرمت فى جنوب فرنسا حرب صليبية مُزق فيها الألبيون بعد معارك طاحنة . وهنا شعر أحبار الكنيسة بضرورة إنشاء قوة منظمة تقاوم دعوة الخروج والالحاد المنظمة ، فعهدت البابوية الى جماعة من عمالها ، هم الآباء الدومنيكان[(٣)] بمطاردة الكفرة والملاحدة وعقابهم بمعاونة الكبراء والسلطات المدنية . وفى سنة ١٢٣٣ م ، فى عهد البابا جريجورى التاسع ، وفى عهد لويس التاسع ملك فرنسا ، وُضع أوّل قانون ينظم إجراءات هذا القضاء الكنسى الجديد ، وأنشئت محاكم التحقيق بعد ذلك فى ايطاليا والمانيا ، ثم أنشئت فى مملكة أراجون ، ووضعت لها فى سنة ١٢٤٢ م إجراءات جديدة هى التى اتخذت فيما بعد أساسا لنظم ديوان التحقيق الاسبانى . ونشط ديوان التحقيق

---

(١) (Les albigeances) نسبة الى ألبى ، وهى احدى مدن جنوب فرنسا وكانت مركزا من أهم مراكز الملاحدة .

(٢) من كبراء سادة فرنسا الاقطاعيين فى هذا العصر .

(٣) نسبة الى القديس دومنيك .

فى أراجون ، وهو الذى يعرف بالديوان القديم ، الى مطاردة الالحاد والكفر ، وأمعن بالأخص فى مطاردة الألبيين حتى أخمد دعوتهم ومحا أثرهم . وسرعان ماغدا الديوان ، وغدت وسائله واجراءاته مثارا للرهبة والروع . وكانت هذه الوسائل والاجراءات ، مثل نظائرها فى الديوان الحديث تقوم على كثير من العسف والتحكم والمبادئ المريبة التى تنافى أبسط أصول العدالة ، سواء فى الإتهام أو التحقيق أو توقيع الأحكام . وكانت العقوبات أقسى وأشنع ماعرف القضاء المتبربر . فكان المتهم الذى توجه اليه تهمة الزيغ يقدم الى الديوان حالا ، ويحقق معه سرا ، وتقبل عليه كل الأدلة ، وكثيرا ما يغرى بالاعتراف الكاذب خوفا من العذاب أو يلجئه العذاب الى الاعتراف بمالم يرتكب ومالم يعتقد . ويقسم المحكوم عليهم الى فريقين المذنبون غير التائبين ، وهؤلاء يقضى عليهم بالاعدام حرقا ، والمذنبون التائبون ، وهؤلاء يقضى عليهم بالسجن المؤبد وتفرض عليهم رسوم دينية مضنية . هذا الى عقوبات تبعية أخرى كمصادرة الأموال ، وازالة المنزل الذى كان يقيم فيه المذنب . ولم يكن الطعن فى الأحكام جائزا فى الغالب ، ولم يكن مفيدا بالأخص ، وكان الدفاع ممنوعا أو لا قيمة له . وكانت كل الوسائل جائزة على العموم ، لإثبات التهمة وتوقيع العقاب . ولا يعفُّ الديوان عن الكذب ، والخديعة ، والتجسس أحيانا لبلوغ هذه الغاية .

وكان ديوان التحقيق يعمل فى البلاد الأخرى التى أنشئ فيها وهى ايطاليا وفرنسا والبرتغال وألمانيا لنفس الغاية ، ويتبع نفس الوسائل والاجراءات ، ولكن نشاطه فيها كان محدودا . أما فى اسبانيا ، فكان الديوان كما رأيت يضطرم نشاطا وغيرة ، وكانت مهمته هنالك فادحة ، وضحاياه لا حصر لهم . ذلك أن اسبانيا النصرانية كانت يومئذ تجيش بالفكرة الصليبية وكل عواملها ، وكان فيها مجتمع كبير من اليهود والمسلمين . وكانت تعتزم تطهير الدين من رجس أعدائه ، كما تعتزم تطهير الوطن من البقية الباقية من غزاته ومغتصبيه . وكان المسلمون لا يزالون فى الجنوب سادة فى غرناطة ، وكانت منهم طوائف كبيرة فى أشبيلية ، وطليطلة ، وبلنسية ، ومرسية وغيرها من القواعد

الأندلسية التى سقطت تباعا فى يد اسبانيا النصرانية . وكان ثمة مجتمع كبير من اليهود أيضا ، وكانت لهم مكانة فى التجارة والمهن والفنون . فكانت هذه العوامل والظروف تجعل من اسبانيا النصرانية أصلح ميـدان لنشاط ديوان التحقيق ، وكان المسلمون واليهود ، بعد الألبيين ، له أخصب مادة تغذى بغضه لأعداء الدين ، وحماسته فى محو آثارهم .

وقد رأينا ان ديوان التحقيق قام فى أسبانيا ، أولا فى أراجون ، وان مطاردة الألبيين استغرقت نشاطه زهاء قرنين . وكان اليهود قد استقروا فى أراجون منـذ بعيـد ، كما استقروا فى باقى الممـالك النصرانيـة ، وأزهر مجتمعهم هنالك . وكانوا موضع البغض والريب دائمـا رغم ما كانوا يتمتعون به أحيانا من الحظوة لدى بعض الملوك والأمراء . وكثيرا ما نكبتهم سياسة العسف والمطاردة فى تلك العصور التى كان الاضطهاد الدينى فيها سياسة مقررة للنصرانية . فلما اشتدّ ساعد ديوان التحقيق فى أراجون ، تحوّل الى اليهود بعـد الألبيين . ثم اتحـدت مملكتا أراجون وقشتالة فى سنة ١٤٧٩ م ، وكان فرديناند الخامس أو فرديناند الكاثوليكى ملكا لأراجون ، وزوجه الملكة إيزابيلا ملكة لقشتالة ، فكان اتحاد المملكتين فاتحة الفصـل الأخير فى معركة اسبانيا النصرانية واسبانيا المسلمة ، وفاتحة لسياسة القمع الهائلة التى وضعت لاستئصال الاسلام واليهودية ، ونفذت على يد ديوان التحقيق .

ولم يكن ديوان التحقيق قد أنشئ يومئـذ فى قشتالة لأن الملكة إيزابيلا لبثت حينا تعـارض أحبار الكنيسة فى إنشائه . ولكن الكلمة كانت للأحبار أخيرا . وكان أعظـم محرّض للملكة على إنشاء الديوان فى قشتالة هو توماس دى تركويمادا ، وهو راهب دومنيكى كان قسا لايزابيلا قبـل ولايتها الملك ، فيقال إنه حملها ذات يوم أن تعده «أنها متى وليت الملك ، فانها تكرس حياتها لاستئصال الكفر» . وكان هـذا الراهب يضطرم تعصبا وبغضا لأعداء الكنيسة ، ويرى كل وسيلة مشروعة لازهاقهم . فأذعنت ايزابيلا لنصحه وإقناع زوجها فرديناند ، وطلب الملكان الى البابا أن يصدر مرسومه بانشاء الديوان «المقدّس» فى قشتالة ، فأصدر سكستوس



ايزابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة (عن الأصل المحفوظ بقصر مدريد)

الرابع فى الحال مرسوما بذلك فى نوفمبر سنة ١٤٧٨، لأن بلاط رومة كان يومئذ يرى فى ذيوع الديوان المقدّس موردا خصبا للنفوذ والثروة، ولم تمض أشهر قلائل حتى أنشئ ديوان التحقيق فى إشبيلية فى سبتمبر سنة ١٤٨٠، وصدرت الأوامر الى السلطات بأن تقدّم الى أعضاء الديوان كل ما تستطيع من مساعدة .

وفى مستهل العام التالى بدأ ديوان التحقيق عمله فى إشبيلية ، فأصدر عدّة قرارات يحث فيها كل شخص أن يساعد الديوان فى البحث عن الملاحدين والكفرة وكل من فى عقيدتهم زيغ، وفى جمع الأدلة على ادانتهم، ويحدّد بعضها آجالا لتوبة المذنبين، ويجيز كل طريقة للتبليغ والاتهام. وانقضّت العاصفة بالأخص على اليهود المتنصرين، لأن كثيرا من اليهود اعتنقوا النصرانية فرارا من القتل والسلب ومختلف

ضروب الأذى والاهانة . ولكن الكنيسة كانت ترى فى سلوكهم دائما ما يدعو الى الريب فى صـدق ايمانهم ، وكان الديوان يتخذ من بعض مظاهر الحياة العادية أدلة على الزيغ والميل الى اليهودية . ومن هذه الأدلة الغريبة أن يرتدى المتهم يوم السبت ثيابا أنظف أو أحسن مما يرتدى عادة ، أو ألاّ يضرم النار فى منزله فى المساء السابق على السبت ، أو أن يجلس الى المـائدة مع يهود ، أو أن يأكل لحم الحيوانات التى يذبحها اليهود ، أو يشرب شرابا مما يحلونه ، أو أن يغسل جثة الميت بالمـاء الحار ، أو يوجه وجه المحتضر نحو الجدار ، أو أن يسمى أبناءه بأسماء عبرية . فهذه الأمور وأمثالها كانت فى نظر الديوان المقدّس أدلة قاطعة على الزيغ والكفر ، وكانت تكفى للقضاء باعدام المتهـم . فلم يمض عام واحد على عسف الديوان باليهود فى إشبيلية وغيرها من قواعد الأندلس حتى بلغت الضحايا ألوفا عدّة ، منهم ألفان أعدموا حرقا ، وآلاف اعتبروا من التائبين وصدرت عليهم أحكام السجن أو الغـرامة الفادحة ، أو المصادرة ، أو التجريد من الأهلية والحقوق المدنية ، وغيرها .

وفى أكتوبر سنة ١٤٨٣ ، أصدر البابا مرسوما بتعيين توماس دى تركويمـادا «محققا عاما» لقشتالة وأراجون ، ومرسوما آخر يخوله سلطة مطلقة فى وضع دستور جديد للديوان المقدّس . وبذا نشأت تلك المحكمة الهائلة التى سوّدت صحف التاريخ الاسبانى بجرائمها مدى قرون ، وأفاضت على صحف القضاء الجنائى ، بل على الخيال والقصة ، من رائع وسائلها واجراءاتها الدموية ، ومحاكماتها الفريدة ، مالم يعرفه قضاء البطارقة والبربر والوندال .

وسنأتى فى هذا «الكتاب» على خلاصة وافية لاجراءات التحقيق والمحاكمة والتنفيذ التى كان يتبعها الديوان المقدّس ، طبقا للدستور الذى وضعه تركويمادا وبعض سوابق الديوان القـديم ، ثم على سيرة مطاردة الديوان للعرب والعرب المتنصرين ، وأخيرا على طائفة من فريد محاكماته وقضاياه ، وبالأخص قضايا العرب والعرب المتنصرين .

الفصل الأول

دستور الديوان واجراءاته

طريقة التبليغ الى الديوان. بدء الاجراءات. الأحبار المقررون. القبض على المتهم. سجون الديوان. جلسات الرأى. قرار الاتهام. التعذيب والاعتراف. الاستجواب الأول. الدفاع. الشهود. الاستجواب الثانى. قرار الأحبار. الحكم والطعن فيه. البراءة والادانة. الأوتودافيه. تلاوة الحكم. حفلات الأوتودافيه. مثال شهير منها. تعليقات ڤولتير. آثار الحكم.

تبدأ قضايا الديوان «المقدس»(1) بالتبليغ أو مايقوم مقامه كورود عبارة فى قضية أخرى تلقى شبهة على أحد ما. ولا فرق بين أن يكون البلاغ من شخص معين أو أن يكون غفلا. ففى الحالة الأولى يدعى المبلغ، وبعد أن يقسم يمينا بقول الصدق، يذكر الأشخاص الذين يرى الاستشهاد بهم فى اثبات الوقائع التى يرويها، فيُدعى هؤلاء وتؤخذ أقوالهم، وتعتبر أقوال المبلغ وأقوالهم « تحقيقا تمهيديا ». كذلك يمكن التبليغ بواسطة الاعتراف، وللقسس الذين يتلقون الاعتراف أن يبلغوا عما يفضَى به اليهم من حالات الاشتباه فى العقائد. ويقسم الرواة أو الشهود يمينا بالكتمان، ولا توضح لهم الوقائع التى يسئلون عنها بل يلقى اليهم قبل كل شىء، سؤال عام هو : هل رأوا أو سمعوا شيئا يناقض الدين الكاثوليكى أو حقوق الديوان ؟ ثم يخاطب الديوان العام محاكم الأقاليم سرا فى شأن الشخص المبلغ ضدّه حتى إذا كان لديها فى سجلاتها شيئا يخصه، أرسل الى الديوان ليضم الى التحقيق التمهيدى وليكون مادة للاتهام، ويعرف هذا « باستعراض السجل »(2). ثم يعرض التحقيق

---

(1) نقصد بديوان التحقيق دائما الديوان العام أو السلطة المركزية التى تقوم بأعماله. أما محاكم التحقيق فهى الدواوين الفرعية أو المحلية أعنى محاكم المدن أو الأقاليم، وكلها تستمد سلطتها من الديوان العام

(2) نلاحظ أن هذه الطريقة تشبه فى القوانين الحديثة، مسألة الكشف عن سوابق المتهم، فتكون أحيانا ظرفا مشدّدا فى الحكم عليه.

وملحقاته على « الأحبار المقررين » ليقرروا ما إذا كانت الأقوال والوقائع المنسوبة للمبلغ ضدّه تجعله مرتكبا لجريمة الكفر أو تلق عليه فقط شبهة ارتكابها . وقرارهم يحدّد الطريقة التي تتبع فى سير القضية حتى تُهيء للحكم . ويقسم المقررون يمين الكتمان أيضا . ولما كان سواد أولئك المقررين من القسس المتعصبين بل الجهلاء الذين تنبو عن أفهامهم أصول الكلام[1] الصحيح ، فقد كانت أخلاقهم وآراءهم بل شرفهم ، دائما مثار الريب ، وكان رأيهم الادانة دائما الا فى أحوال نادرة .

وعلى أثر هذا التقرير يصدر النائب أمره بالقبض على المبلغ ضدّه ، وزجه الى سجن الديوان السرى . وكان للديوان ثلاثة أنواع من السجون ، الأولى العامة ، وهذه تخصص لسجن الأشخاص الذين لم يرتكبوا أية جريمة ضدّ الدين بل ارتكبوا فقط جريمة يختص الديوان بالفصل فيها بطريق الامتياز ، والثانية الوسطى وهى التى تخصص لسجن موظفى الديوان الذين يرتكبون أثناء تأدية وظائفهم جرائم أو أخطاء لاعلاقة لها بالدين أو الكفر ، والثالثة السجون السرية وهى التى تخصص لسجن « الكفرة » وتتصل بغرف التحقيق والعذاب مباشرة . وهى غاية فى الشناعة ، عميقة مظلمة رطبة . وأفظع ما فى أمرها ان من يزج اليها « يسقط فى الحال فى نظر الرأى العام ، وتلحقه وصمة لا تلحقه من أى سجن آخر مدنى أو دينى ، وفيها يسقط فى غمار حزن لا يوصف ، وعزلة عميقة دائمة ، ولا يعرف الى أى مدى وصلت قضيته ، ولا ينعم بتعزية مدافع عنه »[2] . ويقول الدكتور لى «كان القبض الذى يوقعه ديوان التحقيق فى ذاته عقوبة خطيرة . ذلك أن أملاك السجين كلها تصادر وتصفى على الفور ، وتقطع جميع علائقه بالعالم حتى تنتهى محاكمته . وتستغرق المحاكمة عادة من عام الى ثلاثة لا يعرف

(١) نقصد بها علوم الدين .

(٢) دون‌جوان انتونيولورنتى : Histoire Critique de L'Inquisition d'Espagne
وينفى هذا المؤرخ كون الأغلال الثقيلة كانت توضع فى أرجل المتهمين وأيديهم وأعناقهم ويقول ، ان هذا الاجراء لم يكن يتبع الا فى أحوال نادرة ولظروف خاصة .

السجين أو أسرته خلالها شيئا عن مصيره . وتدفع نفقات سجنه من قيمة أملاكه المصفاة وكثيرا ما تستغرقها المحاكمة[1] » .

ولا يخطر المتهم بالتهم المنسوبة اليه ، ولكنه يمنح عقب القبض عليه ثلاث جلسات في ثلاثة أيام متوالية تعرف بجلسات الرأى أو الانذار ، وفيها يطلب اليه أن يقرر الحقيقة دون مواربة أو نقص ويوعد بالرأفة إذا قرر طبق ما ينسب اليه ، وينذر بالشدة والنكال اذا كذب أو أنكر لأن الديوان المقدس لا يقبض على أحد دون قيام الأدلة الكافية على إدانته . وهى طريقة غادرة محيرة . فاذا اعترف المتهم بما سجل ضده ولو كان بريئا ، اختصرت الإجراءات ، وقضى عليه بعقوبة أخف . ولكنه فى حالة الاعتراف بأنه كافر مطبق ، لا ينجو إطلاقا من عقوبة الموت حرقا مهما كانت الوعود التى يبذلها المحققون له بالرأفة والعفو .

فاذا أبى المتهم الاعتراف بعد الجلسات الثلاث ، وضع النائب له قرار الاتهام طبقا لما ورد فى التحقيق من الوقائع ، وذلك مهما كانت الأدلة والقرائن المقدمة من الركاكة والضعف ، معتبرا كل واقعة تهمة بذاتها ولو كانت الوقائع كلها متحدة فى المغزى . بيد أن أفظع ما يحتويه القرار هو إحالة المتهم على العذاب ، فان النائب غالبا ما يطلب هذه الاحالة رغم اعتراف المتهم بما نسب اليه أو بأكثر منه وذلك بحجة أنه أخفى أو كذب فى اعترافه وانه لذلك يعتبر متعنتا غير تائب . وكان التعذيب فى العصور الأولى يعقب الاشتباه والقبض فورا ، وتتبع فى توقيعه أساليب وطرق هى مثال الوحشية والقسوة الرائعة يقول عنها المؤرخ لورنتى : « لست أقف لأصف ضروب التعذيب التى كان يوقعها ديوان التحقيق على المتهمين ، فقد رواها بما تستحق من الدقة كثير من المؤرخين ، ولكنى أصرح أن أحدا منهم لا يمكن أن يتهم بالمبالغة فيما روى . ولقد تلوت كثيرا من القضايا فارتجفت لها اشمئزازا ورعبا ولم أر فى « المحققين » الذين التجأوا الى تلك الوسيلة

---

(١) فى كتابه : The Moriscos of Spain ، والدكتور لى أحدث مؤرخ لديوان التحقيق ، ولأحكامه وآرائه وروايته قيمة خاصة .

إلا رجالا بلغ جمودهم حد الوحشية[1] » . ويجب أن يحضر التعذيب مندوب أو اثنان من رجال الديوان المقدس . ولا يخطر المتهم بأسباب إحالته على التعذيب ، ولا يسئل عن وقائع معينة بل يعذب ليقرر ما شاء . ويمكن الطعن فى القرار بطريق الاستئناف أمام المجلس الأعلى إلا فى أحوال استثنائية . ولكن الاستئناف لا يقبل ولا ينظر فيه حيثما كان القانون صريحا واضحا فى وجوب إجراء التعذيب . ولا يسمح لأحد بحضور التعذيب سوى القضاة والقسس والجلادين ، وطبيب الديوان . وقد يأمر الطبيب بوقف العذاب اذا رأى حياة المتهم فى خطر ، ولكن التعذيب يستؤنف متى عاد المتهم الى رشاده أو جف دمه . فاذا اعترف المتهم ، واعتبر القضاة اعترافه صحيحا بمعنى أنه يتضمن عنصر التوبة كف عن تعذيبه ، وان استطاع المتهم احتمال العذاب وأصر على رفض الاعتراف ، لم يفده ذلك شيئا لأن القضاة يتخذون غالبا من الوقائع المنسوبة للمتهم أدلة يجب معها اعتباره « كافرا » سيئ النية ، أو غير تائب ، ويحكم عليه طبقا لهذا الاعتبار ، ويقرر المعترف فى اليوم التالى ما قاله وقت العذاب بعد أن يقسم يمينا بقول الصدق وذلك حتى يؤكد صحة الاعتراف ، فاذا أنكر أو حرف شيئا أعيد الى العذاب .

وبعد انتهاء التعذيب يحمل المتهم ، ممزقا داميا ، الى قاعة الجلسة ليجيب عن التهم التى توجه اليه لأول مرة . ولا يبلغ قرار الاتهام اليه كتابة حتى لا يستطيع التأمل أو تحضير دفاعه ، ولكن التهم تتلى عليه فى الجلسة واحدة فواحدة ، ويسئل عند تلاوة كل منها جوابه عنها مباشرة . ثم يسئل عن دفاعه ، فان كان له دفاع ، اختار القضاة له محاميا من المقيدين فى سجل الديوان للمرافعة عنه . ولا يسمح للمتهم باختيار محام من الخارج إلا فى أحوال استثنائية نادرة . على أن الدفاع لم يك فى الواقع سوى ضرب من السخرية ، إذ لم يك يسمح للمحامى أن يطلع على أوراق القضية الأصلية ولا أن يتصل بالمتهم على انفراد ، وكل ما هنالك هو أن تقدم اليه

(١) يجدر بنا أن نذكر أن قائل هذه العبارة ، أعنى لورنتى ، كان حبرا كبيرا ، وكان مدى أعوام طويلة سكرتيرا لديوان التحقيق الأسبانى الأعلى .

نتيجة التحقيق التمهيدى وفيها أقوال الشهود دون ذكر أسمائهم ودون ذكر الظروف أو المكان أو الزمان، أو ذكر ما ورد فيها لصالح المتهم، ويغفل منها بالأخص أقوال الأشخاص الذين أنكروا علمهم بالوقائع أو نفوها، وتقدّم هذه الخلاصة مرفقة بقرار الأحبار، وقرار الاتهام الى المحامى فى نفس الجلسة . وفى هذا يقول لورنتى : «ماذا يفيد المدافع من هذه الأوراق؟ وكيف يستطيع أن يثبت أن هنالك خطأ أو وقيعة أو تفسيرا باطلا أو نسيانا من جانب الشهود ؟» وكان الدفاع أزاء ذلك كثيرا ما يلجأ الى رد الشهود، فتأمر المحكمة باجراء ما يسمى بالتصديق على الشهادة وهو عبارة عن إرسال صورة من شهادة كل شاهد اليه ليصدق عليها ، ويجرى ذلك فى غيبة المتهم وغيبة محاميه فلا يستطيع أن يثبت ما قدمه فى الشهادة من أوجه الطعن . وقد يضار المتهم بذلك ولا ينتفع لأن القضية توقف حتى ترد المصادقات . وقد تمضى أشهر بل أعوام اذا كان الشهود قد تفرقوا فى نواح بعيدة .



تركويمادا منظم ديوان التحقيق الاسبانى

وبعد ذلك تأمر المحكمة لأول مرة باذاعة الشهادة والتحقيق فتتلى على المتهم فقرة فقرة، ويسئل عند كل منها عما اذا كان ما ورد فيها صحيحا كله أو بعضه . ثم تحال القضية بحالتها الجديدة على «الأحبار المقررين» ليبدوا رأيهم فيها من جديد بعد أن ضمت اليها أقوال المتهم؛ وعما اذا كان قد هدم بهذه الأقوال تهمة «الكفر» التى نسبت اليه ، أو كان بالعكس قد أيدها وقواها . وكانت هذه خطوة حاسمة فى الواقع لانها تمهيد الى الحكم النهائى . ولكن الأحبار قلما كانوا ينقضون رأيهم الأول، ولم تك هذه الخطوة فى نظرهم إلا إجراء اسميا فقط . ومتى أصدر الأحبار قرارهم اعتبرت القضية فى حكم الانتهاء . وهنا يستدعى « المحققون» أو قضاة الديوان حبرا مستشارا ليبدى رأيه النهائى معهم، ورأيه استشارى يجوز أغفاله . واذا صدر القرار

بالإدانة كان للمتهم فرصة الاستئناف أمام المجلس الأعلى (Suprema) بيد انها كانت على الأغلب فرصة خائبة ، لانها لم تكن إلا طعنا أمام نفس الهيئة التى أصدرت الحكم . وكان له أيضا أن يلتمس العفو من رومة. وكانت الخزينة البابوية تغنم من هذه الالتماسات أموالا طائلة ، بل لم تشرع البابوية هذا الحق إلا لتحقق من ورائه هذه الغاية . فكان فرصة لا يستفيد منها سوى الأغنياء .

وفى حالة الطعن فى الحكم الأول، يصدر حكم القضاة مجتمعين بهيئة محكمة عليا. وقلما كان الحكم يصدر «بالاقالة» أوالبراءة فى العصور الأولى إذ أن أقل شك فى براءة المتهم براءة مطلقة خالصة، كان يوجب اعتباره مذنبا من النوع الخفيف (de levi) وعندئذ تصدر عليه عقوبات تتناسب مع مبلغ الذنب، ويقضى عليه بأن يتطهر من كل شبهة للكفر ولا سيما تلك التى وجهت اليه، وذلك بأن يجثو فى قاعة المحكمة أمام قضاته ويطلب العفو، ويتلو صيغة الطهارة، ويوقعها. ولم تكثر أحكام الاقالة إلا منذ القرن الثامن عشر . وإذا قضى بالبراءة، أطلق سراح المتهم، دون أن يعرف بأى حال اسم المبلغ فى حقه، وأعطيت له شهادة بطهارته من الذنوب، وهى كل ما يعوض به عما أصابه فى شخصه وفى شرفه وماله من ضروب الاعتداء والألم .

أما إذا قضى بالادانة، فان الحكم لا يبلغ الى المتهم إلا عند التنفيذ . وهو أيضا إجراء من أشنع الاجراءات الجنائية التى عرفت، فيؤخذ المتهم المحكوم عليه من السجن دون أن يدرى مصيره الحقيق، ويجوز رسوم «الاوتودافيه» (Auto-da-fé) ومعناها «عمل الايمان»، وهى الرسوم التى تسبق التنفيذ وتختتم به، وخلاصتها أن يلبس المحكوم عليه ثوبا خاصا يعرف بالسان بنيتو (San Benito)(1) ويوضع فى عنقه حبل، وفى يده مشعل وشمعة، ويؤخذ الى الكنيسة أولا ليجوز رسوم التوبة ثم يقاد إلى

(1) ومعناها « الكيس المبارك » . وكان هذا الثوب فى عصور الديوان الأولى عبارة عن قميص ضيق يلتصق بالجسم ويمتد حتى الركبتين فقط تمييزا للمحكوم عليهم من طوائف القسس الذين يرتدون مثل هذا القميص . ولونه عادة أصفر، وفى صدره صليب أحمر . ثم تعددت بعد ذلك أنواع الاثواب التى يلبسها المحكوم عليهم ، فكان لكل طائفة منهم ثوب خاص طبقا للوصف الذى يعطى لهم من حيث مدى الذنب ودرجة الكفر .

ساحة التنفيذ، وهنالك فقط يتلى عليه الحكم، وهو إما حكم « بالتوفيق » فى حالة الذنوب الخفيفة ويترتب عليه عقاب المتهم بالسجن أو الغرامة لمدد أو مقادير تتناسب مع جرمه على أنها فادحة فى الغالب وقد يكون نصيبه الحكم بالسجن المؤبد والمصادرة؛ وإما حكم بالاعدام حرقا فى حالة « الكفر الرسمى » . وكانت أحكام الاعدام هى الغالبة فى عصور الديوان الأولى . وهنا نستطيع أن نتصور فظاعة هذا الاجراء متى قدرنا الروع الذى يصيب المتهم حين قيادته من السجن الى ساحة الاحراق لاعتقاده أنه يؤخذ الى النطع . ويروى لورنتى أن بعض المتهمين الذين لم يحكم عليهم بالاعدام كان يصيبهم الجنون عقب تلاوة الحكم. وكان التنفيذ فى الغالب علنا، يقع فى ساحات المدن الكبيرة على مثل حفلات المصارعة الرومانية، فى احتفال رهيب تظلل فيه الساحة بالأعلام، ويهرع السادة والعظماء الى شهوده، كذلك يشهده الأحبار بأثوابهم الرسمية، وقد يشهده الملك أحيانا. ويشمل التنفيذ عادة إحراق عدّة من المتهمين معا قد يبلغون العشرات أحيانا . واذا كان المتهم الذى حكم بكفره غائبا أو فارا أو كان قد توفى (لأن الديوان يجيز محاكمة الغائب والمتوفى) فان الحكم بالاحراق ينفذ فى تمثال يرمز به اليه ويشهر به قبل احراقه. وقد استمرت هذه الحفلات الشهيرة المروعة تقام مدى قرون، وبقيت حتى أوائل القرن الماضى[1] .

ونصف على سبيل التمثيل حفلة ملوكية من حفلات الأوتودافيه شهدها فيليب الثانى ملك اسبانيا. وكان هذا الملك المتعصب أقرب فى سياسته الى أحبار الكنيسة منه الى سادة العرش، وكان لديوان التحقيق كما سنرى، فى عصره ذروة السلطان

---

(١) الفكرة فى اختيار ديوان التحقيق الاحراق لتنفيد حكم الاعدام هو زعم الكنيسة أنها تترفع عن سفك الدماء . ويذكر المؤرخ سسموندى فى تاريخه عن فرنسا ان أول حكم بالاحراق لتهمة الكفر أصدر فى أوائل القرن الحادى عشر، فى عهد الملك روبر . ثم ذاعت هذه الوسيلة لاعدام الكفرة والسحرة خلال العصور الوسطى . وكانت تتبع أحيانا فى بعض الأمم الاسلامية فى معاقبة الجرائم الشنيعة، فمثلا يذكر عبد اللطيف البغدادى فى روايته عن حوادث مصر سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١م) ، أن والى القاهرة أحرق عدة أشخاص اتهموا بقتل الأطفال وأكلهم (كتاب الافادة والاعتبار) .

والنفوذ . ففى يوم الأحد ١٨ أكتوبر سنة ١٥٥٩ أقيمت حفلة كبرى لأعمال الايمان «الاوتودافيه» فى بلد الوليد (ڤالادوليد) وأعد للملك فى الساحة الكبرى التى نصبت فيها المحارق أمام كنيسة القديس مارتين، عرش فوق منصة فخمة، وأحاط بالعرش قضاة الديوان المقدس ، وهرعت الجموع من كل صوب لتشهد المنظر الفخم الرهيب معا . ولما تكامل الجمع وانتظم الاحتفال نهض فيليب الثانى من فوق عرشه وأقسم بأن يحافظ على نقاء الدين ونصرة الديوان المقدس . ثم أُتى بالمحكوم عليهم فمروا بمنصة العرش . ويروى أن أحدهم — وهو سيد من النبلاء يمت الى البلاط بصلة المصاهرة — صاح فى وجه الملك حينما مر به «كيف يسلم سيد مثلك، سيدا آخر مثلى الى هؤلاء الأحبار؟» فأجاب فيليب الثانى : «لو كان ولدى آثما لأعددت بنفسى المحارق لازهاقه» . وسلم الديوان الى السلطة المدنية فى ذلك اليوم اثنتى عشرة ضحية بشرية لاجراء قضاء الديوان فيها .

ولم تكن مثل هذه المناظر الرهيبة مما يروع الأسبان يومئذ أو يثير اشمئزازهم أو يذيب عواطفهم بل يلوح أنها كانت بالعكس تمثل اتجاه نفسيتهم كما كانت تمثل اتجاه نفسية ملوكهم وأحبارهم . فكانت هذه الحفلات للشعب الأسبانى أعيادا ومواسم يهرع من أقاصى البلاد لشهودها والتمتع بمناظرها .

ويقول ڤولتير فى وصف هذه الاجراءات والمشاهد المروعة : «ولكن هذه النتائج المحزنةَ التى أدت اليها أعمال ديوان التحقيق ليست شيئا اذا قيست بالضحايا العامة التى تعرف بأعمال الايمان (أوتودافيه) وبما يتقدمها من الفظائع . ذلك أن رجل الدين أو نفس الراهب الذى وقف حياته على بث التواضع والبر هو الذى يطبق على الأسرى فى أعماق السجون أروع صنوف العذاب . ثم يعد بعد ذلك مسرح فى ساحة عامة، ويقاد المحكوم عليهم الى المحارق، وراء موكب من الرهبان والاخوة . ثم يرتل هؤلاء، ويتلون القداس، ثم يقتلون الناس . ولو أن مشرقيا وفد على مدريد يوم ينظم هذا التنفيذ ، لما عرف أهو يشهد حفلة طرب أو حفلة دينية،

أو تضحية ، أو مذبحة ، فثمة كل ذلك . لقد أخذوا على منتروما[1] أنه يضحى الأسرى للآلهة ، فماذا كان يقول لو شهد حفلة «الأوتودافيه»[2] .

هذا ولا يقف أثر الحكم عند المتهم ولا ينتهى بازهاقه ، بل يتعدّاه أحيانا الى أسرته وولده الأبرياء ، فقد صدرت فى سنة ١٥٠١ أوامر ملكية تقضى بأن الأشخاص المحكوم عليهم «بالتوفيق» ، وأولادهم وأحفادهم من جهة الابن ، يحرمون من تولى أية وظيفة فى المجلس الخاص ، أو القضاء ، أو المجالس البلدية ، أو أى منصب شرف أو ثقة ، وكذلك يحرمون من امتهان الجراحة والصيدلة وتسجيل العقود . وهذا أخذ للابناء بذنب الآباء الى حد لم تذهب اليه أية شريعة أخرى من الشرائع الحديثة .

---

(١) آخر ملوك المكسيك القدماء يوم غزاها الاسبان فى أوائل القرن السادس عشر .

(٢) Voltaire: Essai sur les Moeurs. et l'Esprit des Nations

الفصل الثانى

ديوان التحقيق والعرب

نهاية دولة الاسلام فى الاندلس . العرب والعرب المتنصرون . نشاط الكنيسة فى تنصير المسلمين . احراق الكتب العربية . نبوءة موسى ابن أبى الغزان . الثورة و إخمادها . سعى الكنيسة لانشاء الديوان فى غرناطة . قرارات الاضطهاد الأولى . القمع المنظم . ما يؤخذ به الموريسكى من الشبه . المسلمون فى أراجون . شارلكان يعقد محكمة كبرى . صحة التنصير القهرى . ضروب جديدة من الاضطهاد . اخراج المسلمين من اسبانيا . الثورة فى بلنسية ومطالب المسلمين . قرارات مجلس الدولة . اعتناق المسلمين للنصرانية . الموريسكيون فى بلنسية . سعيهم لدى البلاط واتفاقهم مع الديوان . المسلمون فى أراجون أيضا مساعى الموريسكيين فى غرناطة . سياسة الرفق أيام شارلكان . الاضطهاد فى عصر فيليب الثانى . ثورة غرناطة الكبرى وسحقها . فيليب الثالث . الخطوة الحاسمة . مساعى الدوق دى لرما والمطران ربيرا لنفى الموريسكيين . خطط مجلس الدولة . قرار النفى . نصوصه وأحكامه . تنفيذه . المناظر المؤسية . ختام المأساة . تعليقات .

بدأ ديوان التحقيق كما رأينا بمطاردة اليهود فى أراجون، ثم فى قشتالة منذ سنة ١٤٨٠ . وكان اليهود بعد الألبيين هم أخصب مادة لنشاط الديوان فى بدء حكم فرديناند وإيزابيلا . وكان لا يزال من المسلمين فى قواعد الأندلس الذاهبة بقية كبيرة فى أراجون و بالأخص فى قشتالة، فى أشبيلية ومرسية، وطليطلة، و بلنسية وغيرها . ولكنهم لبثوا حينا يتمتعون بنوع من السلام والطمأنينة تنفيذا للعاهدات المعقودة ، ولأن دولة المسلمين كانت ما تزال قائمة فى غرناطة وما تزال فى اسبانيا قوة يحسب حسابها . ولكن غرناطة سقطت فى يد فرديناند وإيزابيلا فى يناير سنة ١٤٩٢ . وذهبت بسقوطها دولة الاسلام فى الأندلس، وغدا المسلمون رعايا لملك النصارى .

وعقدت غرناطة يوم التسليم مع ملك النصارى معاهدة تحفظ للسلمين شريعتهم وعاداتهم، وتؤمنهم على أرواحهم وأموالهم . وأبدى فرديناند وإيزابيلا مدى حين

رفقا ولينا فى معاملة الشعب المغلوب، ومحافظة على العهود التى قطعت، زهاء ثمانية أعوام. ولكن فرديناند كان يخشى دائما ذلك الشعب الذكى النابه، وكانت الكنيسة من جهة أخرى تضطرم رغبة فى تطهير اسبانيا النصرانية من بقية الاسلام الباقية، وكانت الفكرة الصليبية دائما توجه سياستها .

وكانت طائفة جديدة من العرب قد نشأت يومئذ فى قشتالة وأراجون ، وهم الموريسكيون (Morisco)[1] أو العرب المتنصرون ، حملهم التعلق بالوطن، وخوف الفاقة والاضطهاد، على اعتناق النصرانية . وكانوا موضع الريب أيضا، ولكنهم كانوا شراذم قليلة متفرقة هنا وهنالك، لا تحمل على الخوف، فلم تعن الدولة أو الكنيسة بأمرهم بادئ بدء . أما غرناطة فكانت تضم كتلة مسلمة كبيرة، وكانت قريبة من إفريقية . فكان وجود هذه الكتلة المسلمة فى قلب اسبانيا النصرانية شغلا شاغلا للسياسة الاسبانية .

والظاهر أن السياسة الاسبانية لبثت تتردد حينا إزاء العرب، وقد كانوا من أهم عوامل النشاط والثروة والعرفان فى اسبانيا . وكانت براعتهم قدوة فى الزراعة والصناعة والفنون والعلوم، وخلالهم قدوة فى النشاط والمثابرة والزهد والعفة والرفق والانسانية «وكانوا ، على الجملة، أفضل سكان يمكن أن تضمهم دولة من الدول»[2] . ولكن كلمة الكنيسة كانت هى الغالبة دائما . وفى هذا قالت الملكة إيزابيلا كلمتها الشهيرة : «فى حب المسيح والعذراء أثرت فادح الشقاء والبؤس، وخربت بلادا ، وأقطارا ، وممالك» . وحاولت الكنيسة أن تعمل لهذه الغاية ، أعنى تنصير المسلمين بالوعظ والاقناع أولا ، وأخذ أحبار الكنيسة مذ سقطت غرناطة يبثون دعوة النصرانية بين الفقهاء والكبراء . ولكن هذه الوسيلة لم تسفر عن نتائج

(١) أطلقت هذه الكلمة على العرب المتنصرين لأول مرة حوالى سنة ١٤٩٩ ؛ وكان ذلك عقب اضطرابات كبيرة وقعت فى غرناطة من جراء تصرف أحبار الكنيسة ، وقبض فيها على كثيرين من المسلمين . وخشى عدد كبير منهم عسف السلطات ، فأذعنوا الى التنصير ، واعتنق النصرانية منهم يومئذ طبقا للرواية الاسبانية خمسون ألفا .

(٢) الدكتور لى فى كتابه السالف الذكر .

تذكر، فآثرت الكنيسة عندئذ سياسة العسف والمطاردة . وكان روح هذه السياسة الدموية حبران كبيران، هما الكردينال كمنيس مطران طليطلة ، والدون ديجو ديزا الذى خلف تركويمادا فى منصب « المحقق العام [1] » .

ففى سنة ١٤٤٩ ، ذهب الكردينال كمنيس الى غرناطة ، وحث مطرانها الدون تالاڤيرا على اتخاذ وسائل جديدة لتنصير المسلمين ، وجمع فقهاء المدينة وشرح لهم أصول النصرانية ودعاهم الى اعتناقها وأغدق عليهم التحف والهدايا ، فأقبل بعضهم على التنصير، إما اتقاء الاضطهاد، أو اغتناما للحظوة ، وتبعهم جماعة كبيرة من العامة . ولما حاول بعض أعيان المسلمين التدخل والاحتجاج بأن هذه السياسة تنافى روح العهود المقطوعة ونصوصها ، أجاب كمنيس بالوعيد، وهدّد باتباع الشدّة والعنف . وعمد الى ارتكاب جريمة من أشنع الجرائم البربرية إذ أمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكداسا فى أكبر ساحات المدينة، وكان منها عدد كبير من المصاحف المزخرفة وكتب الفقه والكلام ، ومنها أيضا كثير من كتب الآداب والعلوم، وأضرمت فيها النار جميعا [2]، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة كتاب فى الطب وهبت لجامعة ألكالا (القلعة) لأن العرب كانوا يومئذ أساتيذ العالم فى الطب، وكان أبرع الأطباء فى اسبانيا النصرانية من العرب. وكان « المحقق العام » تركويمادا، قد فعل مثل هذه الفعلة بآثار التفكير اليهودى ، فجمع ما استطاع أن يجمعه من المخطوطات العبرية ،واحتفل بحرقها فى مدينة شلمنقة فى سنة ١٤٩٠ .

---

(١) Inquisiteur Général أعنى قاضى قضاة الديوان أو مديره العام .

(٢) يختلف المؤرخون فى تقدير عدد المخطوطات العربية التى ذهبت فريسة هذه الجريمة الشائنة ، فيقدّرها بعضهم بأكثر من مليون ولكن كوندى يقدّرها بثمانين ألفا ، وتقديره أرجح وأقرب الى المعقول ، لأن المكتبة الأموية الشهيرة فى قرطبة لم تزد على ستمائة ألف مجلد . وقد بددت هذه المجموعة الكبيرة أيام ثورات البربر واقتحامهم لقرطبة . ولم يجتمع فى غرناطة فى مجموعة واحدة مثل هذا القدر. ولكن أنشئت بها مجموعات مختلفة ما بين خاصة وعامة ، وكان طبيعيا انها وهى مركز العلوم الاسلامية بعد قرطبة ، تحتوى على أنفس الآثار الاسلامية من حيث التفكير والفنون . ويزيد كوندى تقديره بقرائن وشواهد لا بأس بها .

وكان المسلمون، مذ دالت دولتهم، يعيشون فى نوع من السكون والطمأنينة، فى ظل المعاهدة التى عقدوها مع ملك النصارى . وكان فرديناند و إيزابيلا يؤثران الى ذلك الحين، كما قدّمنا ، اتباع الرفق واللين نحو أولئك الرعايا الجدد . ولكن عسف الأحبار، وما أبدوه من إصرار فى محو الإسلام وآثاره، وما ارتكبوه من خرق لنصوص المعاهدة ، أثارت فى المسلمين مخاوف قديمة ، وذكرتهم بذلك النذير



فرديناند الخامس (الكاثوليكى)

المروع الذى ألقاه موسى بن أبى الغزان أمجد فرسانهم ، يوم اعتزموا التسليم لملك النصارى : « أتعتقدون أن القشتاليين يحفظون عهودهم؟ لشد ما تخطئون . انهم جميعا ظمئون إلى دمنا ، والموت خير ما تلقون منهم . ان ما ينتظركم شر الاهانات، والانتهاك، والرق . ينتظركم نهب منازلكم، واغتصاب نسائكم وبناتكم، وتدنيس مساجدكم، ينتظركم الجور والارهاق، تنتظركم المحارق الملتهبة لتجعل منكم حطاما

هشيا ! » . وكان يوم تحقيق هذه النبوءة الصادقة قد حل . فان تصرف كمنيس أثار الاضطراب والشغب فى بعض أعمـال غرناطة ولا سيما البشرات والبيازين ، وسرت بين المسلمين فكرة الدفاع عن الدين، بعد الوطن، فنشط فرديناند إلى إخماد الهياج، وتقـدّم إليه كمنيس بنظرية غريبـة ، هى انه ما دام المسـلمون قد أبدوا خروجا عن طاعته ،وهموا بالثورة، فهم خونة لا يستحقون الرأفة وقد أضحى فى حل من العهود التى قطعها لهم، وحانت ساعة تنصيرهم أو إخراجهم من اسبانيا . ونصح إليه ديزا المحقق العام بوجوب إنشاء ديوان التحقيق فى غرناطة . فألفت لجنة ملكية للتحقيـق فى حوادث غرناطة، وقبض على كثير من المسلمين بتهمـة التحريض، وهرع آلاف منهم الى اعتناق النصرانية خيفة السجن والمطاردة[1] . وعارض فرديناند وإيزابيـلا فى إنشاء ديوان التحقيق فى غرناطة ذاتها ، ولكنهما قبلا أن تحول الى اختصاص ديوان التحقيق فى قرطبة ونصحا بألا يقدم المسـلمون أو الموريسكيون الى الديوان إلا لتهم خطـيرة . وكانت هـذه أول خطوة فقط . ولكن الكنيسة لم تقنع باتخاذ اجراءات جزئية ، ومضت تعمل لغايتها الشاملة . وكان فرديناند من جهـة أخرى لا يزال يتوجس من المسلمين شرا، ويرى فى منطق الكنيسة قوة ، وهو أن احتفاظ المسلمين بدينهم يقوى الروابط بينهـم وبين إخوانهم فى إفريقية، وان اسبانيا ما تزال تضم بين جوانحها عدوا يخشى بأسه ، وان فى تنصـير المسلمين أو إخراجهم، سلام اسبانيا ونقاء دينها .

وكانت الكلمـة للكنيسة دائما ، ففى ٢٠ يوليه سنة ١٥٠١ أصـدر فرديناند وايزابيلا أمراً ملكياً خلاصته «أنه لمـا كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة

(١) يعلق فولتير على ذلك بقوله : « لمـا افتتح محمد الثانى قسطنطينية واليونان ترك هو وخلفاؤه ، المغلوبين آمنين باقين على دينهم . ولمـا فتح العرب اسبانيا لم يرغموا النصارى الوطنيين قط على اعتناق الاسـلام . ولكن لمـا استولى الأسبان على غرناطة ، أراد الكردينال كمنيس أن ينصر كل العرب ، تدفعـه الى ذلك غيرة دينيـة أو طموحه الى انشاء شعب جديد يخضع لصولته ، فأرغم خمسين ألف عربى على أن يحملوا رمز دين لا يؤمنون به » و يقول الدكتور لى : « لمـا افتتح العرب اسبانيا ، استسلم السكان للفاتحين طوعا فلم يكونوا فى حكمهم أشد وطأة من القوط ، ولم يحاولوا تدخلا فى دين رعاياهم الجدد، بل تركوهم أحرارا فى عقائدهم ونظمهم الدينية » .

من « الكفرة » فانه يحظر وجود المسلمين فيها ، فاذا كان بها بعضهم ، فانه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم خوفا من أن يتأخر تنصيرهم ، أو بأولئك الذين نصروا لئلا يفسدوا ايمانهم ، و يعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال» . وفى ١٢ فبراير سنة ١٥٠٢ ، صدر أمر ملكى جديد يحتم على كل المسلمين الأحرار، الذين بلغوا الرابعة عشرة بالنسبة للذكور ، والثانية عشرة بالنسبة للأناث أن يغادروا مملكة غرناطة قبل حلول شهر مايو التالى ، و يسمح لهم بالتصرف فى أموالهم وأملاكهم ، ويحظر عليهم أن يجوزوا الى إفريقية التى كانت يومئذ فى حرب مع اسبانيا و إلا عوقبوا بالموت والمصادرة ، ولكن يسمح لهم بالهجرة الى البلاد الأخرى . أما الارقاء فتوضع فى أرجلهم متى عرفوا سلاسل من الحديد تميزهم من الأحرار . ولكنه لما لوحظ فى تنفيذ هذا الأمر أن كثيرا من العرب المتنصرين يبيعون أملاكهم و يهاجرون الى إفريقية ، صدر أمر جديد بتاريخ ١٢ سبتمبر سنة ١٥٠٢ ، يحظر على أى انسان أن يتصرف قبل مضى عامين فى أملاكه أو يغادر مملكة قشتالة لغير مملكتى أراجون والبرتغال [1] .

وهكذا هبت على المسلمين ريح شديدة من البطش والمطاردة ، ولم ينج من ذلك العسف من تنصر منهم ، فان الموريسكيين رغم اعتناقهم النصرانية لبثوا موضعا للريب ، عرضة للاضطهاد . والحقيقة أن السياسة الاسبانية كانت أبعد من أن تقنع بتنصير المسلمين ، وانما كانت ، كما سنرى ، ترمى الى إبادتهم ومحو آثارهم .

وانقضت الأعوام الأخيرة من حكم فرديناند بين الاقدام والاحجام فى تحقيق هذه الغاية ، واعتنق المسلمون النصرانية آلافا مؤلفة ، وغادر الوطن القديم من آثر التشريد والفاقة على الردة ، فهاجرت جموع كبيرة من المسلمين وتفرقت بالأخص فى ثغور إفريقية ، واستحال المسلمون فى الأندلس أعنى فى قشتالة ، الى طائفة جديدة ، هى طائفة الموريسكيين أو العرب المتنصرين .

---

(١) لورنتى . وقد أورد نص هذه الأوامر نقلا عن المجموعات الرسمية الملكية .

ولكن الموريسكيين لبثوا أبدا شغلا شاغلا للكنيسة والسياسة الاسبانية، فهم ما زالوا رغم تنصرهم خونة مارقين، وما زالوا أعداء الدين فى سريرتهم . وكانت يد العسف والارهاق تدفعهم أحيانا الى الثورة فى بعض المناطق الجبلية ، ولكن القوة كانت تحطم هذه الثورات المحلية الضئيلة دائما .

وكان ديوان التحقيق قد عاقته عن أداء مهمته الدموية خلافات داخلية نشأت حول امتيازاته وسلطاته ومطالبه فى قشتالة وأراجون فى عهد الكردينال كمنيس الذى خلف ديزا فى منصب المحقق العام . ولكنه خرج من تلك المعركة أقوى وأشدّ بطشا .

ففى عهد المحقق العام دون الفونسومانريك الذى خلف الكردينال كمنيس ، نظم الديوان المقدّس خطة شاملة لاستئصال الكفر والزيغ . وكان قيام الطوائف الجديدة المريبة أى الموريسكيين، واليهود المتنصرين، واللوتريين يذكى نشاطه وحماسته . وقد رأينا مما تقدّم كيف كان الديوان يأخذ اليهود المتنصرين بأقل الشبه التى قد لا ترجع إلا الى العادة أو المصادفة ، و يعتبرها دليلا قاطعا على الكفر وموجبة للحكم بالاعدام . فكذلك سن الديوان لائحة جديدة يؤخذ العرب المتنصرون بما تعدّد من قرائن وشبه يعتبرها الديوان أدلة على الكفر ، وفيها يؤمر كل نصرانى مخلص أن يبلغ الديوان بما يلاحظه من قيام هذه الشبه أو القرائن . واليك محتويات هذه الوثيقة الغريبة التى قلما وعت نظائرها شرائع البربر والوندال :

يعتبر الموريسكى أو العربى المتنصر قد عاد الى الاسلام اذا امتدح دين محمد ، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلها وليس إلا رسولا ، أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه . و يجب على كل نصرانى أن يبلغ عن ذلك . و يجب عليه أيضا أن يبلغ عما اذا كان قد رأى أو سمع بأن أحدا من الموريسكيين يباشر بعض العادات الاسلامية ، ومنها : أن يأكل اللحم يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح ، أو أن يحتفل بيوم الجمعة كأن يرتدى فيه ثيابا أنظف من ثيابه العادية ، أو يستقبل المشرق بوجهه قائلا باسم الله ، أو يوثق أرجل الحيوانات قبل ذبحها أو يرفض أكل لحم تلك التى لم تذبح أو ذبحتها امرأة ، أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية أو يعربه

عن رغبته فى اتباع هذه العادة، أو يقول بأنه يجب ألا يعتقد إلا فى الله وفى رسوله محمد، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب أو يتناول الطعام قبيل الفجر (السحور)، أو يقوم بالوضوء أو الصلاة بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سورا من القرآن، أو أن يتزوج طبقا لرسوم الشريعة الاسلامية، أو ينشد الأغانى العربية، أو يقيم حفلات الرقص أو الموسيقى العربية، أو يتبع قواعد محمد الخمس (كذا)، أو يملس بيده على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذا لهذه القواعد، أو يغسل الموتى ويكفنهم فى أثواب جديدة، أو يدفنهم فى أرض بكر أو يضعهم فى قبور من الحجر نائمين على جنوبهم ورؤسهم مسندة الى الحجارة، أو يغطى قبورهم بالأغصان الخضراء، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتا إياه بالنبيّ ورسول الله، أو يقول إن الكعبة هى أول معابد الله أو يقول إنه لم يتنصر إيمانا بالدين المقدس (النصرانية)، أو إن آباءهم وأجدادهم قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين. كذلك يجب على النصارى أن يبلغوا عما اذا كانوا قد عرفوا بأن أحدا من الموريسكيين قد هاجر الى إفريقية أو غيرها من البلاد لكى يرتد هنالك عن النصرانية.

من هذه الشبه وأمثالها رأى الديوان المقدّس أن يتخذ أدلة على كفر الموريسكيين وعلى مروقهم من الدين الجديد. ويقول لورنتى تعليقا على هذه الوثيقة الشائنة: «من السهل أن نرى بين الأعمال والكلمات التى ذكرت عدّة قد لا يتردّد الكاثوليكى المخلص فى عملها أو قولها باعتبارها تافهة فى ذاتها، ولا يمكن أن تغدو كفرا أو شبهة عليه إلا اذا قرنت بظروف تسبغ عليها هذا اللون. ولكن اصدار الديوان لهذا القانون الجديد، وما كان يلاقيه الموريسكيون من الاحتقار فى مملكة اسبانيا بصفة عامة، قد مهد السبيل الى وقيعة تذكيها روح البغض والانتقام وغيرهما من العواطف العنيفة». بيد أن المحقق العام مانريك أبدى اعتدالا فى تطبيق هذه اللائحة، ولما تظلم اليه الموريسكيون فى برغش فى سنة ١٥٢٤، وذكروه بالعهود التى قطعت لهم بأن لا يقدّموا الى قضاء الديوان إلا لتهم خطيرة، عرض ظلامتهم على

المجلس الأعلى (السپريما) فوافق على وجهة نظرهم، وأمر بأن يفرج عن المتهمين اللذين لم تثبت عليهم تهمة الكفر بصفة قاطعة .

ويجب أن نلاحظ أن هذه القوانين الهائلة لم تطبق بادئ بدء إلا على المسلمين والموريسكيين فى مملكة قشتالة أعنى فى مملكة الملكة إيزابيلا، ولكن المسلمين فى مملكة أراجون نجوا من بطشها حينا لأن السادة والنبلاء فى أراجون اعترضوا على اضطهاد المسلمين وحذروا فرديناند من عواقب سياسة تنذر بتخريب ضياعهم وإضعاف مواردهم. فتعهد الملكان بعدم التعرّض للمسلمين، ثم تعهد من بعدهما شارل الخامس (شارلكان) بذلك أمام البرلمان (الكورتيس) فى سنة ١٥١٩ . ولكن حربا أهلية ما لبثت أن نشبت فى ولاية بلنسية بين النبلاء والكافة، ولم ير الكافة وسيلة لايذاء النبلاء سوى اضطهاد المسلمين أعوانهم وعماد ثروتهم، فطاردوهم فى كل مكان، وأرغموهم على التنصر، فتنصر بهذه الوسيلة من المسلمين عدّة آلاف افتدوا أرواحهم وأموالهم بالارتداد . ولكن معظمهم عاد الى الاسلام عند ركود الثورة، وهاجر الى الجزائر آلاف منهم أيضا . فغضب الامبراطور لذلك، واعتزم أن يطهر مملكته من المسلمين، فطلب الى البابا أن يحله من عهده الذى قطعه على نفسه بعدم التعرّض اليهم، فردّ البابا باصدار مرسوم جديد فى ١٢ مارس سنة ١٥٢٤ يحث فيه «المحققين» (قضاة الديوان) على المبادرة بتنصير المسلمين، وأن يخرجوا من أبى النصرانية منهم من اسبانيا، وأن تكون عقوبة المخالفين الرق مدى الحياة متى انقضتَ المهلة التى تمنح لهم ولم يتنصروا، وطلب البابا فى مرسوم آخر أن تقلب كل مساجد المسلمين الى كنائس .

وقبل البدء فى تنفيذ هذا القرار فى مملكة أراجون عقد الامبراطور محكمة كبرى من أعضاء مجلسى قشتالة وأراجون ومجلس الهند وكبار القادة، وقضاة ديوان التحقيق، وجماعة من الأساقفة وكبار علماء الدين برئاسة المحقق العام، لتنظر فى أمر التنصير الذى وقع على المسلمين بالاكراه، وهل يجب اعتباره ملزما أم يطبق القرار الجديد عليهم كمسلمين، فأصدرت المحكمة بعد بحوث ومناقشات طويلة قرارها بأن

التنصير الذى وقع على المسلمين صحيح لا تشوبه شائبة « لأنهم سارعوا بقبوله اتقاء لما هو شر منه ، فكانوا بذلك أحرارا فى قبوله » . ويعلق المؤرخ كوندى وهو اسبانى نصرانى على ذلك القرار بقوله : « وهكذا اعتبر التنصير الذى فرضه القوى على الضعيف ، والظافر على المغلوب ، والسيد على العبد منشئا لصفة لا يمكن لارادة معارضة أن تزيلها[1] » . وعلى أثر ذلك أمر الامبراطور أن يرغم كل العرب المتنصرين كرها على البقاء فى اسبانيا باعتبارهم نصارى ، وأن ينصر كل أولادهم . وأمروا أن يحضروا الى كنيسة بلنسية الكبرى ليوفق بينهم وبين الكنيسة الكاثوليكية ، وليطهروا من الكفر والردة ، فاذا عادوا الى نبذ النصرانية قضى عليهم بالموت ومصادرة الأموال . وصدر أمر آخر يقضى بأن المساجد التى أقيم فيها القداس تغدو كنائس ، ولا تقام فيها الشعائر الاسلامية .

وكان هذا العسف يحدث الرجعة من حين لآخر ، فان جموعا كبيرة من المسلمين فرت الى الجبال ، وشهرت الثورة مدى أشهر ، ولكنهم أذعنوا بعد ان صدر العفو عنهم ، وكتب الامبراطور الى زعماء المسلمين فى بلنسية يحثهم على قبول التنصير ، ويعدهم بالحماية والتمتع بكافة الحقوق التى يتمتع بها النصارى ، ويؤكد لهم أنه سيحافظ على هذا العهد رغم كل اعتراض ونصح .

ولكن صدر فى ٢١ اكتوبر سنة ١٥٢٥ مرسوم يحظر على الموريسكيين بيع الذهب والفضة والحرير والحلى والأحجار الكريمة والماشية وبعض الأشياء الأخرى . وفى ١٨ نوفمبر صدر أمر يحث النصارى على التبليغ الى الديوان المقدس عن الموريسكيين المرتدين أو من فى إيمانهم شبهة أو زيغ . أما المسلمون ، فقد أمروا بأن يضعوا على قبعاتهم شارة زرقاء ، وأن يسلموا كل أسلحتهم ولا يحرزوا بعد شيئا منها . ومن أحرز السلاح عوقب بالجلد ، وأن يسجدوا فى الشوارع متى مر كبير الأحبار ، وأن لا يقيموا شعائرهم فى الجهر ، وأن يغلقوا كل مساجدهم .

---

(١) يوسف كوندى : « تاريخ دولة المسلمين فى اسبانيا » .

وفى ٢٥ نوفمبر سنة ١٥٢٥ صدر الأمر الشامل والأخير بأن يغادر المسلمون جميعا أراضى اسبانيا قبل نهاية شهر يناير من العام التالى وذلك من طرق فى الشمال عينت فى الأمر، وحظر على السادة أن يبقوهم فى ضياعهم وإلا عوقبوا بالغرامة الفادحة.

فعاد المسلمون الى الثورة، ولا سيما فى مقاطعة قورية، ثم شملت الثورة اقليم بلنسية كله. وكان عدد المسلمين هنالك يبلغ يومئذ زهاء ستة وعشرين ألف أسرة[1]، واعتصمت جموع كبيرة منهم بالجبال ولبثت حينا تقاوم جند الحكومة. واستغاث من جنح منهم الى السلم بالأميرة جرمين ده فوا حاكمة بلنسية، فسمحت الى وفد منهم بالذهاب الى البلاط ليعرض ظلامة المسلمين على الامبراطور، فمثل الوفد بين يديه، والتمس منه أن يمنح المسلمون مهلة قدرها خمسة أعوام لكى يعتنقوا النصرانية أو يغادروا المملكة من ثغر الفنت، فلما رفض هذا الملتمس، عرض الوفد أن يتنصر المسلمون بشرط أن لا يمتد اليهم قضاء الديوان المقدس قبل مضى أربعين سنة، فأبى الامبراطور عليهم ذلك أيضا، فالتجأوا عندئذ الى المحقق العام منريك وقدموا اليه مذكرة يعرضون فيها دخولهم فى النصرانية بشرط ألا يطبق عليهم قضاء الديوان قبل مضى أربعين سنة، وأن يحتفظوا خلال ذلك بأزيائهم ولغتهم، وأن يسمح لهم بمدافن خاصة بهم، وأن يسمح لهم بأن يتزوجوا أثناء هذه المدة من أقاربهم وحتى من بنات أعمامهم، وأن تعتبر كل العقود التى عقدت من قبل على هذا النحو صحيحة، وأن يستمر رجال الدين منهم على مزاولة مهامهم ويقبضوا دخل المساجد التى حولت الى كنائس، وأن يسمح لهم كالنصارى بحمل السلاح، وأن تخفض الضرائب التى يدفعونها الى سادتهم بحيث تصبح مساوية لما يدفعه النصارى، وألا يدفعوا فى المدن الكبيرة ضرائب بلدية مالم يختاروا الاشتراك فى تولى مهام المدينة والتمتع بما يتمتع به النصارى من الحقوق والمزايا. فعرضت هذه المطالب على مجلس الدولة، فأجاب عنها بما يأتى: أن نفس الاجراءات التى اتخذت نحو الموريسكيين فى مملكة غرناطة تتخذ نحو الموريسكيين فى بلنسية ومملكة أراجون، وأن يسمح لهم مدى عشرة أعوام

(١) لورنتى عن ساندوفال مؤرخ الامبراطور شارلكان.

بالاحتفاظ بأزيائهم ولغتهم، وأن يسمح لهم بمدافن خاصة بشرط أن تكون قريبة من الكنائس وأن يسوغ دفن النصارى القدماء فيها، وأن لا يعترض بشيء على عقود الزواج التي عقدت من قبل، ولكن يجب اتباع الرسوم النصرانية في كل عقد جديد، وأن رجال الدين الموريسكيين (المتنصرين) يحتفظون بدخلهم بنسبة ما يبدونه من الغيرة في تنصير أبناء جلدتهم، وأن يسمح لهم بحمل السلاح أسوة بالنصارى، وأن يسوّى في دفع الضرائب الى السادة بينهم و بين باقي السكان، وأن تستمر الحال في المدن بالنسبة اليهم على ما كانت عليه ولا تفرض عليهم ضرائب حيثما لم تفرض من قبل .

وكانت هذه المنح أكثر ما يمكن نيله في مثل هذه الظروف، فاذعن المسلمون وأقبلوا على التنصير جموعا غفيرة ما عدا أقلية منهم أصرت على الثورة في الجبال، فجرد الامبراطور عليهم جنده، فأخضعهم بعد قليل، واعتنقوا النصرانية صاغرين، وافتدوا أنفسهم من الرق بدفع غرامة طائلة .

ولكن بلنسية لبثت مدى حين ميدانا خصبا لنشاط الديوان المقدّس لأن مجتمع الموريسكيين (العرب المتنصرين) كان فيها غاصا زاهرا، وكانت ريح العسف والمطاردة تشتدّ عليهم بين آونة وأخرى، وكثيرا ما لجأوا الى المقاومة أو افتداء أنفسهم بالمال. وكان تعاقب الثورات أحيانا يردّ السياسة الاسبانية الى نوع من الاحجام . وهكذا حدث عقب ثورة غرناطة الكبرى التي سنذكرها بعد، فقد خشيت السياسة الاسبانية عواقب القمع الشديد في بلنسية ومالت الى نوع من اللين في معاملة الموريسكيين، وأصغى البلاط إلى ظلامة «الجماعة» في بلنسية، و بذل كوسمى بن عامر وهو نبيل موريسكي يتصل بالبلاط وله نفوذ فيه، جهودا كبيرة لنصرتهم انتهت بأن صدر في أكتوبر سنة ١٥٧١ قرار ملكي بقبول مطالب الموريسكيين، وهي : أن يعفى المرتدّون منهم (أعني عن النصرانية) وذريتهم من المصادرة لأجل الردّة بلا استثناء لرجال الدين والفقهاء والمختنين والمتهمين رهن المحاكمة، ولا تقع مصادرة ما عند القبض، وتعهد الموريسكيون من جانبهم أن يدفعوا الى خزينة الديوان جزية

سنوية قدرها خمسون ألف صولدى (نحو ٢٥٠٠ دوقة)، بيد أنه لم يمض على تطبيق هذا القرار ربع قرن حتى نقض وعاد الديوان الى سابق عنفه وإغراقه (١) .

أما فى باقى ولايات أراجون فقد أشفق السادة والنبلاء على مصالحهم وضياعهم من التلف اذا اضطُهد المسلمون ومُزقوا كما حدث فى بلنسية ، فأوضحوا للامبراطور خطأ هذه السياسة ، وأكدوا له أن المسلمين فى أراجون جماعة هادئة عاملة ذلولة لم ترتكب جرما قط، ولم تبدر منهم خطيئة سياسية أو دينية، ومعظمهم زراع فى أراضى الملك أو السادة، ومنهم صناع مهرة، فاخراجهم من أراجون خسارة



الأمبراطور شارل الخامس (شارلكان)

(١) أورد الدكتور لى احصاء لقضايا الموريسكيين فى بلنسية من سنة ١٥١٢ الى سنة ١٥٢٣ مستخرجا من السجلات والوثائق الرسمية، وفيه أن عدد هذه القضايا بلغ فى هذه المدة ٤٢٣ قضية، ونظر أكبر عدد من القضايا فى سنة ١٥١٤ حيث بلغ ٦٣ قضية وأقلها سنة ١٥١٨ حيث بلغ ٢١ فقط . وأحرق فى هذه المدة من الموريسكيين نحو ١٩٢ شخصا .

شـديدة . ولا داعى لارغامهم على التنصير لأن ذلك لا يعنى إخلاصهم للدين الجـديد ، ومن الخير أن يتركهم الامبراطور فى سـلام وأن يحافظ على العهد الذى قطعه على نفسه أمام البرلمـان (الكورتيس) . ولكن مساعى نبلاء أراجون فى هذا السبيل ذهبت عبثا ، وأصر الامبراطور على أن يطبق التشريع الجديد على مسلمى أراجون جميعا ، وأصدر أوامره الى ديوان التحقيق أن يقوم بتلك المهمة ، فأذعن لمسلمون الى التنصير بلا مقاومة فى سنة ١٥٢٦ ، وتم بذلك تنصـير جميع المسلمين فى اسبانيا .

ثم عاد نواب(الكورتيس) فالتمسوا الى الامبراطور أن يعفى الديوان الموريسكيين من الاتهام لشبه أو لأمور تافهة لأنهم لم يتمكنوا من أصول الدين الجديد وتقاليده ، فاستصدر شارل الخامس من البابا فى أواخر سنة ١٥٣٠ مرسوما يخول للمحقق العام سلطة فى إقالة المرتدين من الموريسكيين اذا حسنت نيتهم وتابوا عن ذنوبهم .

وكان الموريسكيون فى غرناطة ، يسعون فى نفس الوقت الى تخفيف ما يصيبهم من صنوف الاضطهاد والويل ، وقد كان لهم منها النصيب الأوفر ، ففى سنة ١٥٢٦ انتهزوا فرصـة وجود الامبراطور فى غرناطة ، وقدم اليـه ثلاثة من أكابرهم هم الدون فرديناند بنجاس ، والدون ميشـيل داراجون ، وديجو لوبيز بنشارا ، وهم من أبناء ملوك غرناطة القدماء ، وكانوا قد نصروا منـذ الفتح ، مذكرة يشرحون فيها ما يعانيـه الموريسكيون من اضطهاد الأحبار وقضاة التحقيق والوكلاء والمسجلين والنصارى القدماء ، فتأثر الامبراطور لظلامتهم ، وانتدب لجنة للتحقيق على رأسها أسقف قادس لتطوف بأعمال غرناطة . فبحثت اللجنة مظالم الموريسكيين ، وأيدت فى تقريرها أقوالهم ، ولكنها صرحت بأن السواد الأعظم منهم قد ارتدوا الى الاسلام ولم يحافظ منهم على الدين الجديد إلا أفراد قلائل . فاهتم الامبراطور لذلك وعقد مجلسا من المطارنة برآسـة المحقق العام ، وبعد مباحث ومناقشات طويلة تقرر أن تنقل محكمة التحقيق من جيان الى غرناطة ، وصدّرت عدّة أوامر ملكية خلاصتها أن يُصفح عن الموريسكيين فى كل ما تقدّم من الذنوب ، فاذا عادوا الى الارتداد

طبقت عليهم أشد قوانين الديوان . فأذعن الموريسكيون الى كل ما فرض عليهم . ولكنهم افتدوا من الامبراطور بمبلغ طائل حق ارتداء أزيائهم القومية ، وحق الاعفاء من مصادرة الديوان لأموالهم اذا اتهموا بالردة . واستطاع الموريسكيون فى أراجون بأن يحصلوا على مثل هذه المنحة .

وهكذا لبثت السياسة الاسبانية أيام شارل الخامس ازاء الموريسكيين بين الاقدام والاحجام، والشدّة والاعتدال، بيد أنها كانت أقل عسفا من سياسة فرديناند وإيزابيلا ، وكان نفوذ رومه أقل تأثيرا فى صوغها من العوامل الداخلية والمحلية . ومما أصدره الامبراطور من القوانين التى تجنح نوعا الى الاعتدال ، قانون صدر فى سنة ١٥٣٤ يحظر على محاكم التحقيق فى بلنسية أن تصادر أموال المحكوم عليهم من الموريسكيين فى تهم الردة وأن تؤول هذه الأموال الى الورثة ، وقانون صدر فى سنة ١٥٤٣ يمنح فيه الموريسكيون فى ألميدو واريفالو مهلة «للتوفيق» . وفى سنة ١٥٤٤ استصدر الامبراطور قرارا من البابا يخول للموريسكيين فى غرناطة ولو اتهموا بالردة مرارا أن يتولوا هم وأبناؤهم الوظائف المدنية ، وأن يتمتعوا بالحقوق والمزايا الكنسية ، ويلغى فى نفس الوقت كل القضايا المرفوعة على الموريسكيين أمام محاكم التحقيق . وفى سنة ١٥٤٨ ، وضع المحقق العام ڤالديس بأمر الامبراطور لائحة جديدة للموريسكيين خلاصتها أنه يسمح بتوفيقهم (أعنى اعادتهم الى حظيرة الكنيسة) دون احتفال علنى ، وأن يتخذ كل منهم داره بين دارين للنصارى القدماء وألا يسمح لهم باستخدام المتنصرين الجدد ، وأن يسمح لأبنائهم الذكور بأن يتزوجوا من بنات النصارى القدماء وأنه اذا تزوجت موريسكية (أو عربية متنصرة) بأحد النصارى القدماء وحكم بمصادرة أملاك وليها الذى وهبها المهر لتهمة الكفر التى ارتكبت قبل توقيع الهبة فان المهر يستثنى من المصادرة وأن هذه القاعدة تسرى بالنسبة لموريسكى حمل شيئا من المال الى الأسرة التى تزوج منها اذا حكم بمصادرة أموال الواهب .

وخلف شارل الخامس ولده فيليب الثانى . وكان يضطرم تعصبا للكثلكة ولسياسة رومة . ولكنه كان يحرص على استبقاء الموريسكيين ونشاطهم وفنونهم . وكان بطش ديوان التحقيق، وما رتب من ضروب الايثار الخالد بين النصارى القدماء والعرب المتنصرين، يحمل الموريسكيين على مغادرة اسبانيا الى إفريقية كلما سنحت الفرص . فحاول فيليب الثانى فى بدء حكمه أن يمنع هذه الهجرة باتباع نوع



فيليب الثانى (عن صورة لى تتيان الأصلية المحفوظة فى متحف مدريد)

من الرفق فاستصدر من رومة قرارا يبيح للموريسكيين التوبة السرية على يد القسس بحيث تقيل التائب من العقاب والمصادرة، ولكن ديوان التحقيق كان يعمل دائما على مقاومة هذه السياسة، وكان يتجاهل كل قانون أو قرار يصدر لصالح الموريسكيين فكانت الأوامر والقوانين التى تقرر لهم حقا أو مزية تدفن منذ صدورها فى أقبية

الديوان ولا تبلغ الى المحاكم الفرعية والأحبار ، فيشل الديوان بذلك تطبقها ويحول دون انتفاع الموريسكيين بمزاياها . وكان فيليب الثانى يخشى بأس الديوان المقدّس كما كان يخشاه أبوه . وكانت نزعات القس تغلب دائما فى نفس هذا الملك المتعصب فكانت إرادة الديوان هى الغالبة دائما ، وكان الموريسكيون دائما فريسة بطشه وقضائه الدموى .

وهكذا ثارت فى عهد هذا الملك على الموريسكيين ريح شديدة من الارهاق والعسف ، واعتبر التكلم بالعربية ، والاستحمام ، وحجب النساء ، ولبس الثياب العربية ، والرقص ، كلها أدلة على الردة والزيغ ، وشرع السجن والغرامة عقوبة لهذه التهم . ونزع من الموريسكيين صغارهم ذكورا وإناثا ، وزجوا أكداسا فى المعاهد والمدارس العامة لتقتل فيهم الى الأبد لغة الآباء ودينهم ، وبلغ عسف الديوان والأحبار والسلطات والنصارى ذروته ، فأهدرت أرواح الموريسكيين ، وحرياتهم ، وأعراضهم ، وأموالهم وأضحت حياتهم جحيما لا يطاق .

«عندئذ ضاق الموريسكيون ذرعا ، وألفوا ملاذا فى الخروج واليأس ، فاجتمعوا سرا ، وأتمروا على الثورة والدفاع عن أنفسهم إزاء العسف والجور ، وأوفدوا بعض زعمائهم خفية الى إفريقية ، وطاف الآخرون جبال البشرات لبث الدعوة وإحكام المؤامرة . ولكن ضبطت لسوء طالعهم بعض الكتب التى تبادلوها مع سلاطين افريقية ، وظهر منها أن حكومات افريقية قد لبت داعى الغوث واعتزمت أن تبعث الجند والذخيرة الى شواطئ ماربلة والمرية ، فعززت الثغور ، وشدّدت المراقبة على الشواطئ ؛ ولكن نشاط المتآمرين لم يفتر ، بل اجتمعوا فى ضاحية غرناطة سرا ، واختاروا لهم زعيما شجاعا جريئا هو محمد بن أمية الذى نصر باسم فرديناند دى ڤالور وهو سليل لبنى أمية ، ونزحوا الى جبال البشرات ورفعوا هنالك لواء الثورة ؛ وانضم اليهم سكان تلك المنطقة ، ومزقوا جند الحكومة بادئ بدء ، واقتحموا الكنائس والأديرة ، وقتلوا القسس وعمال الحكومة . واستفحل أمر الثورة ، واستطالت معاركها حتى جردت الحكومة على البشرات قوة كبيرة أحاطت بها من كل صوب ،

ونفذت الى مراكز الثوار بعد معارك شديدة (سنة ١٥٦٩) ، فاعتصم الثوار بالجبال وقدمت اليهم بعض نجدات صغيرة من افريقية استطاعت أن تجوز الشواطئ رغم كل رقابة، ولبث القتال سجالا بين الفريقين ، واضطر فيليب الثانى أن يبعث من أشبيلية جيشا كبيرا بقيادة أخيه الدون چوان، فسارعت البيازين وغيرها الى الاذعان ولكن الثوار اعتزموا القتال الى النهاية .

وكان محمد بن أمية أو فرديناند دى ثالور قد قتل غيلة أثناء ذلك، فانتخب الثوار مكانه مولاى عبد الله، واستمرت الحرب طول الشتاء سجالا بين الفريقين . ولما رأى الدون چوان استبسال الثوار وفداحة المهمة، لجأ الى المفاوضة وأذاع منشورا بالعفو العام وعد فيه أن يمنح الموريسكيين شروطا حسنة، وأن يقمع الخارجين بلا رأفة ؛ فجنح من أضناهم النضال الى السكينة، وأباها أولئك الذين عرفوا غدر القشتاليين، وارتد كثير بأسرهم الى إفريقية خيفة الفشل والانتقام، وطورد مولاى عبدالله من صخرة الى صخرة حتى مزق جنده، وقتله أنصاره فى النهاية افتداء لسلامتهم، وحملت جثته الى غرناطة حيث عرضت ومثل بها، وانتزع الموريسكيون من دورهم بلا رأفة وشردوا فى وهاد أوستر ياس وجليقية ووضعوا تحت الرقابة الصارمة. واكتشفت أيضا فى بلنسية وغيرها مؤامرات خطيرة دبرها الموريسكيون للانتقام والخلاص ولكنها حطمت جميعا فى غمر من النار والدماء .

وفى سنة ١٦٠٩ ، فى عهد فيليب الثالث ، اتخذت اسبانيا النصرانية خطوتها الحاسمة . وكان التنصر قد عم الموريسكيين وغدا أبناء قريش ومضر ، بحكم القوة والإرهاق نصارى يشهدون القداس فى الكنائس ، و يتكلمون و يكتبون القشتالية . غير انهم لبثوا مع ذلك فى معزل ، وأبت اسبانيا النصرانية ، بعد أن فرضت عليهم دينها ومدنيتها أن تضمهم الى حظيرتها . وكانت ثمة جموع كبيرة منهم فى بلنسية ومرسية وغرناطة وغيرها من القواعد الكبيرة . وكانوا ما يزالون ، رغم العسف والإرهاق والاضطهاد والتشريد والذلة ، قوة فى إنتاج اسبانيا القومى ، وعنصرا بارزا فى الصناعات والفنون . ولكن السياسة الاسبانية كانت تخشاهم ، رغم خضوعهم

وضعفهم، بعد أن فشلت بوسائلها الدموية فى كسب محبتهم وولائهم . وكان ديوان التحقيق من جهة أخرى يراهم رغم تنصيرهم، ابدا وصمة فى نقاء النصرانية ، ويتصور الاسلام دائما يجرى كالدم فى عروقهم »[1]

عندئذ اتخذت السياسة الاسبانية خطوتها الحاسمة فى إقصاء البقية الباقية من الموريسكيين وتطهير اسبانيا نهائيا من آثار الاسلام وآثار العرب، ومحو تلك الصفحة الأخيرة لشعب عظيم تالد . وكانت السياسة الاسبانية تزمع اتخاذ هذه الخطوة منذ بعيد، ولكن فيليب الثانى توفى قبل تحقيقها . وكان ولده فيليب الثالث، ضعيف الرأى والارادة، يتأثر بنفوذ الأحبار ويخضع لوحى وزيره وصفيه الدوق دى ليرما . وكان ليرما من أشد أنصار الفكرة، أشار بها منذ سنة ١٥٩٩ ووضع لتنفيذها مشروعا خلاصته أن الموريسكيين انما هم عرب يجب استرقاق الشبان والكهول منهم ومصادرة أملاكهم ونفى شيوخهم الى بلاد البربر (مراكش والجزائر) ، وانتزاع أطفالهم وتربيتهم فى المعاهد الدينية ، وهو مشروع أقره مجلس الدولة ، وأخذ سرا يحشد القوى اللازمة لحصر عدد الموريسكيين فى جميع اسبانيا . وفى سنة ١٦٠١ قدم المطران ربيرا الى الملك مذكرة يقول فيها ، ان كل وسيلة للرفق بالموريسكيين قد أخفقت ، وان اسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها ، الى أخطار كثيرة ، وتتكبد فى رقابتهم والسهر على حركاتهم كثيرا من الرجال والمال ، وان الدين دعامة المملكة الاسبانية ؛ ويقترح فيها أن تؤلف محكمة سرية من كبار الأحبار تقضى بردة الموريسكيين وخيانتهم ، ثم تحكم علنا بوجوب نفيهم ومصادرة أملاكهم ، وانه لا ضير على الملك فى ذلك ولا حرج . ولكن هذه الفكرة لم تنفذ لأن مجلس الدولة كان يرى أن يسير فى تحقيق غايته سرا وألا تصطبغ اجراءاته فى ذلك بالصبغة الدينية . وأخيرا عهد بدرس المشكل الى لجنة خاصة على رأسها الدوق دى ليرما ، ووضع مشروع الخطة النهائية بعد كبير جدل . وخلاصته أن يمنح الموريسكيون شهرا لبيع أملاكهم ومغادرة اسبانيا ، الى حيثما شاءوا ، فمن جاز منهم الى إفريقية منح السفر الأمين ، ومن جاز

(١) نقلت هذه الفقرات من كتاب «مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام» (الفصل الرابع عشر) .

الى أرض نصرانية أوصى به خيرا ، ومن تخلف عن الرحيل بعد انقضاء هذه المهلة عوقب بالموت والمصادرة . ولم يرتفع صوت للاعتراض على المشروع فى ذاته، ولكن ظروف اسبانيا يومئذ، وخصومتها مع فرنسا وانجلترا أخرت نفاذه أعواما أخرى .

وفى يناير سنة ١٦٠٩ بحث مجلس الدولة المسألة لآخر مرة ، وقدم تقريرا ينصح فيه بنفى الموريسكيين لأسباب دينية وسياسية فصلها ، وأهمها تعرض أسبانيا يومئذ لخطر الغزو من مراكش، وقيام الأدلة على أن الموريسكيين جميعا خونة مارقون يستحقون الموت والرق، ولكن اسبانيا تؤثر الرفق بهم وتكتفى بنفيهم من أرضها . وتقرر ان تنفذ الخطة فى خريف هذا العام . وأرسلت الأوامر الى حكام صقلية ونابولى وميلانو بأعداد السفن اللازمة لنقل الموريسكيين، واجتمعت عشرات منها فى جزيرة ميورقه منذ أوائل الصيف .

وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ أعلن قرار النفى النهائى فساد الاضطراب والروع بين الموريسكيين . واليك خلاصة هذا القرار الشهير فى صحف المآسى والاستشهاد :

يبدأ القرار بالتنويه بخيانة الموريسكيين واتصالهم بأعداء اسبانيا ، ويقول أنه تقرر نفيهم الى بلاد البربر بعد أن أخفقت كل الوسائل والجهود فى تنصيرهم وضمان ولائهم ، وبناء على ذلك فانه يجب على جميع الموريسكيين من الجنسين ، أن يرحلوا مع أطفالهم فى ظرف ثلاثة أيام من نشر القرار فى المدن والقرى الى الثغور التى يعينها لهم مأمورو الحكومة . والموت عقوبة المخالف . وأن لهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطاع حمله على ظهورهم ، وأن السفن قد أعدت لنقلهم الى بلاد البربر ، وأن الحكومة تتكفل بعولهم أثناء السفر ولكن يجب على كل منهم أن يحمل ما استطاع من المؤن . وأنه يجب عليهم أن يبقوا خلال الأيام الثلاثة فى أماكنهم رهن اشارة المأمورين ، ومن وجد متجولا بعد ذلك عرض للنهب والمحاكمة والاعدام فى حالة المقاومة . وأن الأملاك العقارية والمنقولة التى لم تحمل تترك للسادة ، فاذا أحرق أحد منهم عقارا أو محصولا أعدم سكان الجهة جميعا . ونص الأمر على استبقاء

ستة فى المائة فقط من الموريسكيين وذلك للانتفاع بخبرتهم فى الزراعة والفنون، وهؤلاء يختارهم السادة من بين الأسن والأكثر خبرة وأشد ولاء للنصرانية . أما الأطفال فاذا كانوا دون الرابعة فانه يسمح لهم بالبقاء اذا رغبوا (كذا) ورضى آباؤهم أو أولياؤهم،واذا كانوا دون السادسة فانهم يبقون اذا كانوا من أبناء النصارى القدماء (أعنى من غير العرب المتنصرين) وتبقى أمهم الموريسكية، واذا كان الأب موريسكيا والأم نصرانية أصيلة، نفى الأب،وبقيت الأم مع أطفالها الذين دون السادسة . ويسمح بالبقاء للموريسكيين الذين أقاموا بين النصارى مدى عامين ولم يختلطوا «بالجماعة» اذا زكاهم القسيس . وحظر إخفاء الهاربين أو حمايتهم، ويعاقب المخالف بالأشغال الشاقة ستة أعوام. كذلك حظر على الجنود والنصارى القدماء أن يتعرضوا للموريسكيين أو يهينوهم بالقول أو الفعل، وهدد المخالفون بالعقاب الصارم .

وقع قرار الاخراج على الموريسكيين وقع الصاعقة، وسادهم الذهول والوحشة. وكان عصر الثورة والمقاومة قد ولى ، ونهكت قواهم ونضبت مواردهم . وكانت الحكومة الاسبانية قد اتخذت عدتها للطوارئ وحشدت قواتها فى جميع الأنحاء الموريسكية . ومع ذلك فقد وقعت ثورات محلية وتأهب الموريسكيون للمقاومة واحتشدوا فى بعض المناطق الجبلية وعاثوا فى الأنحاء المجاورة ، ولكنها كانت فورة المحتضر، فأخمدت حركاتهم بسرعة . وبدئ بتنفيذ قرار النفى فى الجهات التى نشر فيها أولا وهى أعمال أراجون وبلنسية، منذ أوائل أكتوبر سنة ١٦٠٩، وخرجت أول شحنة من هذه الكتلة البشرية المعذبة من ثغر دانية وبعض ثغور أخرى ، وقدرت بثمانية وعشرين ألف نفس، حملوا الى وهران ، واستظلوا بحماية سلطان تلمسان. ورحل من ثغر بلنسية زهاء خمسة عشر ألف، ورحل المنفيون من القنت على عزف الموسيقى ونشيد الأغانى وهم يشكرون الله على عودهم الى أرض الآباء والأجداد . وقدر المنفيون فى الثلاثة أشهر الأولى بمائة وخمسين ألفا . وسافر ألوف من الأغنياء والموسرين على نفقتهم الخاصة ، وقصدت جموع كبيرة من أراجوان تقدر بنحو خمسة وعشرين ألفا الى ناقار ، ودخل فرنسا من قشتالة نحو

سبعة عشر ألفا فسمح لهم هنرى الرابع ملك فرنسا بالتوطن فيما وراء الجارون بشرط بقائهم على دين الكثلكة .

أما فى الأندلس فقد أُعلن قرار النفى فى غرناطة فى ١٢ يناير سنة ١٦١٠ ، ونصه كالقرار السابق مع خلاف يسير ، ففيه يمنح الموريسكيون للرحيل شهرا ويباح لهم بيع أملاكهم المنقولة وأخذ ثمنها ، وتصادر الأملاك العقارية لجهة العرش . ويقدر من نفى من مقاطعة غرناطة بنحو مائة ألف .

ثم توالى إعلان أمر النفى فى جميع الجهات التى تضم مجتمعات موريسكية ، فى جميع أنحاء اسبانيا ، ونفذ فى كل مكان بصرامة ووحشية . وظلت السفن شهورا طويلة تحمل أكداسا من تلك الكتلة البشرية الدامية ، فتلق بها هنا وهنالك فى مختلف الثغور الافريقية فى غمر من المناظر المروعة المفجعة [١] . وبذلك انتهى الفصل الأخير من مأساة الموريسكيين وطويت صفحة شعب من أنبل وأمجد شعوب التاريخ ، وحضارة من أزهر حضاراته .

وقد اتفق أكابر المفكرين والمؤرخين فى الحكم على السياسة الاسبانية تجاه الموريسكيين بأشد الأحكام ونعتها بأقسى النعوت ، واعتبارها أعظم عامل فى اضمحلال اسبانيا وذوى عظمتها . ولا يتسع المقام هنا للافاضة فيما علق به مؤرخو الغرب ومفكروه على تلك الفاجعة [٢] ، وانما نكتفى من ذلك بكلمات يسيرة . ولعل أقوى وأبلغ ما وصفت به المأساة قول الكردينال ريشليو ، وهو من أعظم أحبار الكنيسة ،

---

(١) اختلف المؤرخون فى تقدير عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا تنفيذا لقرار النفى ، فيقدرهم لورنتى بمليون ، والمستشرق فون هامار بثلاثمائة ألف وعشرة آلاف ، ويقدرهم بعض مؤرخى الاسبان بستمائة ألف ، والبعض الآخر بتسعمائة ألف ، ويقول نافاريتى وهو من أعظم مؤرخى اسبانيا أنه قد نفى من اسبانيا فى مختلف العصور مليونان من اليهود وثلاثة ملايين من العرب والعرب المتنصرين . وبلغ من هلك من الموريسكيين أو استرق منهم أثناء هذه الفاجعة زهاء مائة ألف . ويقدر سكان اسبانيا جميعا فى هذا العصر بثمانية ملايين .

(٢) أوردت طائفة من هذه التعليقات المؤثرة فى « مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام » (الفصل الرابع عشر) .

فى مذكراته : « أنها أشد ما سجلت صحف الانسانيـة جرأة ووحشية » ويقول لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق وهو من أحبـار الكنيسة أيضا مشيرا الى عسف الديوان : « كانت هذه الوسائل بقسوتها الشائنة تذكى روعة الموريسكيين من تلك المحكمة الدموية التى تتبع هـذه السياسة . وكانوا بدلا من التعلق بالنصرانية، وهو ما كانت تؤدى اليه معاملتهم بشىء من الانسانية ، يزدادون مقتا لدين لم تحملهم على اعتناقه سوى القوة . وكان هذا سبب الاضطرابات التى أدت فى سـنة ١٦٠٩ الى نفى هذا الشعب، وعدده يبلغ المليون يومئذ . وهى خسارة فادحة لاسبانيا تضاف الى خسائرها السابقة . ففى مائة وتسع وثلاثين سنة انتزع ديوان التحقيق من اسبانيا ثلاثة ملايين ما بين يهود ومسلمين وموريسكيين » . ويقول الدكتور لى إن تاريخ الموريسكيين « لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضا خلاصـة لجميع الأخطاء والأهواء التى اتحدت لتنحدر باسـبانيا فى زهاء قرن من عظمتها أيام شارل الخامس الى ذلتها فى عصر كارلوس الثانى » . .

الفصل الثالث

فى محاكمات الديوان وقضاياه

(١) ريب الديوان فى الموريسكيين . تعسفه و إغراقه . محاكمة چوان مدينا . احراق رمز لعربى متنصر . تهمة بالسحر . اتخاذ الشبه والتقاليد الاسلامية أدلة على الكفر . أعمال الايمان فى غرناطه . المطاردة بعد النفى . محاكمة فرنشيسكو دى لوكى . محاكمات أخرى . ندرة المحاكمات الموريسكية . الخاتمة الأبدية .

(٢) صولة الديوان . الديوان يهدّد شارلكان وفيليب الثانى . قضية بارتلمى كارانزا . قضايا عظماء آخرين .

(٣) الديوان يطارد النهضات الفكرية . قرار بمحاكمة ميراندولا . محاكمة الفيلسوف جاليليو .

(٤) احصاء لضحايا الديوان .

١

لبث ديوان التحقيق أكثر من قرن يطارد الموريسكيين بقضائه الوندلى ويعمر بهم سجونه ومحارقه . وكان طبيعيا ان يتخذ الديوان "المقدس" المجتمع الموريسكى المغلوب، أخصب ميدان لنشاطه، لأنه لم يقم فى اسبانيا إلا ليصون نقاء النصرانية من شوائب الكفر، وكان أشـد ما يتمثل رجس الكفر والزيغ فى تلك البقية الباقية من ذلك المجتمع الاسـلامى الزاهر الذى ساد اسبانيا عصـورا مديدة والذى كان يطبع الموريسكيين رغم اعتناقهم للنصرانيـة بطابعه الخالد . فقد لبث الموريسكيون رغم اتخاذهم فى الحياة العامة والخاصة كل مظاهر النصارى، مسلمين فى سرائرهم، يقرنون النصرانية دائما بذكرى الوسائل الدموية التى اتخـذت لحملهم على اعتناقها، وذكرى الخطوب والآلام المروعة التى خاضوا غمارها، وذكرى الذلة التى فرضت عليهم والعسف المنظم الذى نزل بهـم . ولكنهم لبثوا رغم ضعفهم واستكانتهم أبدا موضعا لريب السياسة الاسبانية وريب الديوان "المقدّس" . وكان ديوان التحقيق أشد ما يأنس هـذا الريب فى صور الحياة الخاصة . فكان الموريسكى يقع بين براثن

الديوان لأقل شبهة تتصل بالعادات أو التقاليد . وقد رأينا مما تقدم الى أى حد من الاغراق والتعسف كانت محاكم التحقيق تدفع الأخذ بأبسط الشبهات [1] .

وسنرى فى هـذا الفصل كيف كان الديوان المقدّس يطبق قضاءه المروع على الموريسكيين، وينفـذ بنظمه واجراءاته الى قرارة حياتهم الخاصة والى أعمق ثنايا عواطفهم وضمائرهم ، وكيف كان الموريسكيون ، مهما خلصت سرائرهم وحسنت خلالهم يعيشون فى جو من الجزع الدائم، يسـقطون صرعى الاهواء فى مجتمع لبث رغم تعاقب العصور يعتبرهم غرباء عنه دخلاء فيه، و يرقب حركاتهم وسكناتهم بعين الريب والتحامل، و يقـدر أنفسهم وأعراضهم وأموالهم بمعيار الاستهتار والبغض، وسنشهد أيضا فى تطبيق هـذا القضاء لمحة من تلك المناظر والصور المؤسـية التى استحالت اليها بقية العرب والاسلام فى الاندلس، بعد أن غدا أبناء قريش ومضر قشتاليين ونصارى .

ولا يتسع المقام هنا للافاضة فى سير هذه المحاكمات المؤثرة فهى كثيرة تفيض بها سجلات الديوان المقدّس وتواريخه، ولكنها متماثلة على الأغلب، ولهذا نكتفى بايراد طائفة يسيرة منها :

فى شهر ديسمبر سنة ١٥٢٨ أبلغت امرأة نصرانية محكمة التحقيق بأن عربيا متنصرا يدعى چوان مدينا قد ارتد، وأنها قبـل ذلك التاريخ بثمـانية عشرة سـنة أى فى سنة ١٥١٠ كانت تسكن فى نفس المنزل الذى يقيم فيه مع ابنيه وابنته وصهره فلاحظت أن چوان وأولاده لم يأكلوا لحم الخنزير ولم يشربوا الخمر قط، وأنهم يغسلون أقدامهم وأرجلهم حتى الوسط كل سبت واحد . وكان چوان مدينا شيخا فى الحادية والسبعين، من أهل سـقوبية (سيجوڤيا) ويشتغل بصنع الآنية النحاسية . ففى ٧ سبتمبر سنة ١٥٢٩ استدعت محكمة التحقيق فى بلد الوليد (ڤلادوليد) چوان مدينا واستجوبته فقرر أنه نصر فى سنة ١٥٠٢ أعنى فى العام الذى نفى فيه المسلمون من هذه المنطقة . وأنه لا يذكر أنه اتبع من ذلك الحين شيئا من التقاليد الإسلامية، وأنه

(١) راجع ص ٣٩ من هذا الكتاب .

حقيقة لم يأكل لحم الخنزير ولم يشرب الخمر لأنه لم يعتد على ذلك، وأنه نصر وهو فى الخامسة والأربعين أعنى فى السن الذى لا تتبدل فيه العادات بسهولة. أما الاستحمام فى مساء السبت وصباح الأحد فلان حرفته تضطره الى ذلك . ورد المتهم أقوال المبلغة بأنها غاسلة وأنها تبغضه لمشادة وقعت بينهما، وأنها سيئة الخلق كثيرة الكذب، واستشهد بعدة أشخاص من الموريسكيين على صحة أقواله فأبت المحكمة سماعهم، فطعن المتهم فى هذا القرار أمام المجلس الأعلى، فنقضه، وسمع شهوده، فأكدا أنه كاثوليكى مخلص . ولكنه لما أخفق فى رد شهادة المبلغة قررت المحكمة أن تهدده بالإحالة على التعذيب، فاذا أقر بأنه « كافر » أعادت النظر فى القضية، واذا أصر على الإنكار عوقب بالغرامة . فدعى أمام المحكمة ثانية وهدد بالتعذيب فى ٣١ أغسطس، وأخذ فعلا الى غرفة التعذيب وجرد من ثيابه، ولكنه أصر على أقواله وأكد بأن الخوف وحده يرغمه على نقضها . فقضى عليه عندئذ بالجلد والتوبة فى موكب « الاوتوادفيه » فى ١٨ فى ديسمبر سنة ١٥٣٠، وقضى عليه أيضا بالغرامة والمصاريف .

وفى سنة ١٥٦٠ قضت محكمة التحقيق فى مرسية بأن يحرق « رمز » عربى متنصر، وهو شيخ فى السبعين من عمره توفى فى سجن الديوان السرى . وكان القضاء العادى قد أبلغ أنه يقرأ كتبا عربية فى التوحيد الاسلامى، فسلم الى الديوان، وحوكم . فاعترف بصحة الواقعة ولكنه عارض فى اعتباره كافرا، وحاول أن يدحض التفسير الذى أعطى لتهمته . ولكنه اعتبر مذنبا فى تهمة الكفر وأيد المجلس الأعلى هذا الحكم . وكان الشيخ مريضا فتوفى أثناء ذلك، فلم يوفق الديوان الى تنفيذ الحكم الذى أصدره بحرق المحكوم عليه ، فتقرر أن يحرق رمز له فى حفلة الأوتودافيه، وهنالك قرئ الحكم، وهو يقضى بأن تخرج جثته من القبر وأن تحرق وأن تعتبر ذكراه ملوثة واسرته موصومة، وأن يصادر ماله .

وفى ٢٠ مارس سنة ١٥٦٣، قضت محكمة مرسية أيضا على عربى متنصر يدعى چوان هرتادو بمائة جلدة والظهور فى موكب «الأوتودافيه» لأنه طعن باللغة العربية فى القانون الذى أصدره الديوان بوجوب الامساك عن التكلم بها ووصف القانون

بأنه سرقة لأن يعاقب المخالف بالغرامة . وفى ذلك ما يدل على أن الديوان لم يكن فى التطبيق يحترم نفس القوانين التى يصدرها بفرض صحة التهم التى توجه بناء عليها .

وفى سنة ١٥٦٤ حاكمت محكمة مرسية أيضا فتى موريسكيا فى الرابعة والعشرين من أهل أريولة بتهمة السحر والعود الى دين الاسلام . وكانت تهمة السحر من التهم الذائعة فى محاكم التحقيق . وكانت حفلات «الأوتودافيه» فلما تخلو من المحكوم عليهم بهذه التهمة ولا سيما فى المناطق الشمالية . وقال المبلغون عن هذا الفتى العربى أنه قد أبرأ المرضى بوسائل خبيثة ترجع الى تعاقده مع الشيطان . فزج المتهم الى سجن الديوان ، واعترف بأنه حقيقة عالج بعض المرضى ولكن بغير واسطة الشيطان وأنه يملك كتابا عربيا أعطاه اياه موريسكى آخر، وفيه حجب وتعاويذ وأوصاف عقاقير تصلح لمعالجة المرضى اذا استعملت وأنه استطاع أن يشفى باستعمالها كثيرين ، وأن الشفاء يرجع الى هذه العقاقير ذاتها لا الى ما تضمنته التعاويذ من الأدعية والأقوال . ولكن قضاة التحقيق لم يتركوا وسيلة لحمل المتهم على الاعتراف بمحالفة الشيطان ، من الإغراء الى الوعيد والوعد بالعفو ، لأن الإعتراف بذلك وحده يكون جريمة السحر . فاعترف الفتى طمعا فى العفو ، وقال بانه كان خاضعا للشيطان يدعوه الى معونته حين يقرأ الأدعية فى الكتاب ، فاذا حضر بالقرب منه ، قرأ تعاويذه وجرب طرق العلاج فى لعبة يصنعها رمزا للشخص المريض . ثم يعيد اجراء ذلك فى الشخص ذاته . ولكنه لم يعبد الشيطان ولم يتخذه إلها قط ، وأنه يقر الآن أن هذه الأمور منافيةَ للدين الكاثوليكى ويأسف على ارتكابها ، وأنه يضرع الى قضائه أن يتولوا « توفيقه » ولكن القضاة اعتبروه مذنبا وقضوا عليه بالتوفيق وأن يرتدى " السان بنيتو " (رداء المحكوم عليه) ليظهر به فى موكب « الاوتودافيه » وأن يجلد مائتى جلدة وأن يقضى خمسة أعوام من الأشغال الشاقة فى السفن .

وفى سنة ١٥٧٥ ، أخذت الى المحرقة عربية متنصرة تدعى ماريا من مدينة لجرنيو ، وكانت قد اتهمت بالكفر والزيغ ، وزجت الى سجن الديوان السرى ، واعترفت بما نسب اليها ، ولكنها عادت فانكرت وقالت أنها اعترفت فى نوبة جنون وأنها

لم ترتد ولم تخرج عن دينها ، فاعتبرت المحكمة جنونها مصطنعا وقضت بادانتها ، وصادق المجلس الأعلى على الحكم وزهقت مارى فريسة النيران .

وكانت الشبه المتعلقة بالتقاليد والعادات كما قدمنا أشد ما يثقل كاهل الموريسكيين، وكان الديوان يذهب فى تفسير هذه الشبه الى حد الاغراق، فيتخذ من كلمة أو إشارة فقط دليلا على الادانة فى تهمة الكفر والردة . ففى سنة ١٥٥٩ مثلا اتهمت محكمة التحقيق خمسة من الموريسكيين بأنهم غنوا فى الطريق أنشودة عربية، فقبض عليهم وزجوا فى سجن الديوان، ولكنهم أنكروا، وظهر أن الشهود المبلغين لا يعرفون العربية ولا شيئا من الأناشيد التى أنشدها المتهمون ، فبرئوا لانعدام كل دليل وقرينة . وفى سنة ١٥٧٥ حوكم موريسكى يدعى ديجو هريز بتهمة الزيغ لأنه حينما سمع رجلا يقول عن محمد أنه وغد قال « وما شأنك أنت بمحمد» ، وقضى عليه بالتوبة والجلد وتلقى الوعظ بضعة أشهر . وفى سنة ١٥٩٧ حوكم بارتلمى سانكيز واعتبرت النظافة قرينة على إدانته لأنه اعتاد كثرة الاستحمام اتباعا للتقاليد العربية ، فعذب وقضى عليه بالأشغال الشاقة ثلاثة أعوام والسجن المؤبد والمصادرة . وفى سنة ١٦٠٦ حوكمت ماريا رواين وابنتها مارى لويز لأنها فى حفلة زواج ولدها حملت الى منزل العروس بعض الفطائر والحلوى والقتها فوق الفراش اتباعا لعادة عربية قديمة. وحوكمت ايزابيل رويز فى سنة ١٥٩١ لأنها كفنت زوجها بأثواب جديدة ، وقضى عليها بالغرامة والتوبة فى موكب «الأوتودافيه» . وكانت التقاليد العربية فى تكفين الموتى وفى الجنائز أشد ما يثير الشبه ، وكانت تعتبر بذاتها دليلا على الادانة . كذلك كان الاضراب عن أكل الخنزير أو شرب النبيذ ظرفا مريبا جدا، وقد رأينا كيف اتخذه الديوان دليلا فى قضية چوان مدينا . ويلحق بذلك الامتناع عن أكل لحم الحيوانات التى نفقت ولم تذبح، فقد حوكمت ماريا ناراجنا مثلا لأنها لم تأكل من جثث غنمها التى نفقت بل القت بها الى الكلاب . كذلك صبغ اليد بالخضاب كان يعتبر قرينة. على أن الديوان لم يكن فى غالب الأحيان يقف عند هذه الشبه وخصوصا ما كان منها بعيدا عن الدين والتقاليد الدينية الحقة

وكثيرا ما كان يلجئ المتهم بطريق العذاب أو الوعيد على الاعتراف بارتكاب أمور تتصل بالدين ذاته كالصوم والصلاة والوضوء . وأكثر من ذلك أن احراز الكتب العربية أو أوراق كتبت بالعربية كان يعتبر فى ذاته دليلا على الادانة و يوجب الحكم بالتوبة والجلد . من ذلك أن ديوان التحقيق فى سرقسطه قبض فى سنة ١٦٠٧ على نوڤرى بلانش و زوجه لضبط أوراق عربية فى منزلها ، وحاكمهما وقضى على الزوج بالجلد والتوبة والسجن سنة ، وعلى الزوجة بالغرامة . وقضى الديوان فى بلنسية على ايزابيل زاكيم ، وهى موريسكية فى التسعين من عمرها بالتوبة فى موكب الاوتوداڤيه وبالتشهير (١) والسجن لإحرازها قرآنا عربيا (٢) .

من هذه الشبه وأمثالها كان ديوان التحقيق يصيغ الأدلة والادانة ، ويستند عليها فى توقيع أشد العقوبات البربرية . وكان الموريسكيون يعيشون دائما تحت خطر الشبه والوقيعة لا يستطيعون الوقاية من الاتهام مهما حسنت سيرهم ، ومهما كان خضوعهم للقوانين والأوامر . وفى ذلك يقول الدكتور لى : « والحقيقة أن الادانة كانت تفرض ما تعلق الأمر بموريسكى . وكانت اجراءات الديوان كفيلة بأن تقلب الفرض الى يقين . ولم يدرك ساسة اسبانيا ، للاسف ، أن النتيجة المحتومة لذلك كانت البغضاء ، ولم تكن التنصير (٣) » .

وكانت حفلات الايمان (الأوتوافيه) تقام فى كل عام ، فى معظم القواعد الكبيرة ، وخصوصا فى الأعياد والمواسم الدينية ، وفيها يقاد الى التوبة أو الاعدام مئات من المحكوم عليهم . وكان أشد ماتغص هذه المواكب بالموريسكيين فى غرناطة آخر أوطانهم . وكانت وطأة الديوان شديدة عليهم رغم ماكانت تحاوله السياسة الاسبانية أحيانا من الرفق بهم ، ورغم ماكان يدّعيه الديوان من أنه يفسح مجال

---

(١) كان التشهير من عقوبات الديوان المقدّس أيضا ، وكان يتبع فى ذلك نفس الرسوم التى عرفت فى قضاء المشرق ، فكان المتهم مثلا يحمل على حمار و يعلق على ظهره لوحة يكتب فيها اسمه وتهمته و يطاف به المدينة على هذا النحو .

(٢) راعيت ايراد أسماء المتهمين ليرى القارى كيف كان يسمى أبناء المسلمين فى اسبانيا فى عصر الاستشهاد .

(٣) فى تاريخ الموريسكيين المشار اليه فيما تقدم .

التوبة لأولئك الذين يسارعون بالاعتراف من تلقاء أنفسهم . وكانت هذه المنحة فى نظر الموريسكيين اغراء خطرا، فكان السواد الأعظم منهم يخشون أن يتقدموا الى الديوان بأى اعتراف أو توبة . وكان عقاب المرتدين مروعا دائما ، مثال ذلك أنه قبض فى سنة ١٥٦٢ على زعيم موريسكى يدعى لويس أبو عاسل ، وكان قد هاجر الى إفريقية وعاد هنالك الى الاسلام، فلما شرعت التوبة الحرة عاد الى وطنه مع نفر من زملائه، فقبض عليهم جميعا، وقدموا الى الديوان، وحوكموا بتهمة الردّة والكفر، واحرقوا أحياء فى حفلة الأتودافيه فى سنة ١٥٦٣

* * *

اخرج الموريسكيون من جميع الأراضى الاسبانية كما رأينا فى سنة ١٦١٠ ، ولكن بقيت منهم فى اسبانيا بقية ضئيلة تتكون ممن استثنى منهم من قرار النفى ، ومن استرق منهم، ومن الأطفال الذين احتفظ بهم. ومن ذلك الحين قلت محاكمات الموريسكيين قلة واضحة . ولكن محاكم التحقيق لبثت مع ذلك يقظة ساهرة، تطارد بنقمتها كل من قامت أبسط الشبه على ردته عن النصرانية أو ميله للإسلام. وكان من الصعب على ذرية الموريسكيين أن يتواروا أو يندمجوا فى مجتمع يضطرم نحوهم تعصبا وبغضا، وقلما كان ينجو من العقاب منهم من قامت على زيغه أقل الريب . ولذا نستطيع أن نتخذ ندرة القضايا منذ مأساة النفى دليلا على فوز السياسة الاسبانية بالقضاء على بقايا الاسلام والعرب .

ومع ذلك فقد سجلت صحف ديوان التحقيق خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر طائفة من القضايا الموريسكية، وكلها للتهم والشبه الخالدة التى تتلخص فى الردة عن التنصير أو الميل الى الاسلام، وفى اعتبار أبسط مظاهر الحياة الخاصة واتباع العادات والتقاليد القديمة أدلة حاسمة على الردة والزيغ . وإليك طائفة من هذا القضايا والمحاكمات :

فى سنة ١٦٢٥ اتهمت محكمة التحقيق فى بلنسية موريسكيا يدعى فرنسيسكو دى لوكى بالردة الى الاسلام . وهو عربى متنصر فر من اسبانيا، وارتدّ الى الاسلام، وانضم

الى القرصان ، وحج الى مكة ، وكتب عن رحلته تاريخا شائقا . ثم قبض عليه وقدّم الى محكمة التحقيق ، فقضت بإدانتـه وعوقب بالجلد والسجن المؤبد مع ارتداء الثوب المقـدّس (السان بنيتو) . وفى سـنة ١٦٤٥ قضت محكمة بلنسيه أيضـا على بعض العبيد المتنصرين بالإدانة فى تهمة الميل الى الردة واعتبرت محاولتهم الفرار الى الجزائر دليـلا على ثبوت التهمة . وفى سـنة ١٦٢٧ أقيم فى برشاونه احتفـال « لأعمال الإيمـان » (أوتودافيه) ، فمثـل بين المحكوم عليهـم ثلاثة من القرصان المرتدين الى الإسلام ، وفى نفس العام أقيم احتفال آخر فى قرطبة لم تظهر فيـه غير مسـلمة واحدة هى جارية نصرت واتهمت بالردة لمحاولتها الفـرار الى الجزائر وحكم « بتوفيقها » مع معاقبتها بالجلد . وفى سـنة ١٦٨٠ أقيم احتفـال ضخم فى مدريد حشد إليه المتهمون من جميـع أنحاء اسبانيا ولكن لم يظهر فيه سوى مسـلم واحد يدعى لازارو فرنندو أو مصطفى ، وهـو رجل من أهل قادس عاد الى الاسـلام وانضم الى القرصان ، ولمـا قبض عليه وقدم الى محكمة التحقيق أصرّ على إسـلامه فقضى بإعدامه وأحرق حيا .

وهكذا نرى أن قضايا الموريسكيين قلت منـذ « النفى » قلة واضحة . ويرجع ذلك بلا ريب الى غيرة السلطات وشدّة الرقابة . وقد بلغ من أثر هـذه الرقابة أن عصورا كاملة كانت تنقضى دون أن تسجل بعض محاكم التحقيق قضية موريسكية واحدة ، فان سجلات محكمة بلد الوليد (ڤالاد وليد) لم تسجل مثلا من سنة ١٦٢٢ الى سـنة ١٦٦٢ غير قضية واحدة تتعلق بالردة الى الاسـلام ، ولم تسجل سجلات محكمة طليطلة من سنة ١٦٤٨ الى سنة ١٧٩٤ سوى خمس قضايا من هذا النوع ، كذلك لم تنظر محكمة مدريد من سـنة ١٧٠٣ الى سـنة ١٨٢٠ غير قضية مسـلم واحدة . ولكن السلطات اكتشفت غير مرة جماعات سرية موريسكية تحافظ على شعائر دينها القديم ، من ذلك جمعية سرية اكتشفت فى غرناطة فى سـنة ١٧٢٧ فقبض على كثيرين من المنتمين إليها وصودرت أملاكهم . كذلك عثرت سلطات الديوان فى سنة ١٧٧٩ بمسجد فى قرطاجنة يصلى فيه الموريسكيون سرّا فقبضت على

كثيرين وأصدرت عليهم طائفة من الأحكام الصارمة . والخلاصة أن ديوان التحقيق لم يشغل كثيرا بأمر الموريسكيين والمسلمين فى عصوره الأخيرة بعد أن لبث زهاء قرن ونصف يطارد الاسلام حتى أعمق ثنايا القلوب والضمائر ، وحققت بعد عصور طويلة من النضال الخالد فى صحف الإيمان والعقيدة ، غاية السياسة الاسبانية وغاية الكنيسة ، فلم يبق للعرب والاسلام فى اسبانيا غير الذكريات والذكريات فقط :

وصار ما كان من ملك ومن ملِكٍ　　كما حكى عن خيال الطيف وسنان

ولكن تاريخ العرب والعرب المتنصرين فى اسبانيا ، يبقى سجلا خالدا لذلك القضاء المتبربر — قضاء ديوان التحقيق — ويبقى الى الأبد أسمى ما تعرض صحف الاستشهاد فى العصر الحديث .

٢

وكان ديوان التحقيق فى العصور الأولى قوة هائلة لا يقف بطشها عند الأفراد والكافة ولا عند اليهود والعرب المتنصرين بل كانت كثيرا ما تمتد الى الملوك والعظماء من النصارى . وكان مارتن لوتر قد قام يومئذ بثورته العاصفة على الكنيسة الرومانية ، فبثت اليها الانحلال والتفرق ، وسرت المبادئ اللوتريه الى جميع أنحاء أوروبا ، ونشطت الهيئات الرجعية السرية التى انشأتها الكنيسة مثل التياتين واليسوعيين الى حشد صفوف المؤمنين ومقاومة تعاليم لوتر ، ونشط الى جانبها ديوان التحقيق ، وهو يومئذ أعظم سلاح فى يد رومة ، الى مطاردة الخارجين وأحرار المفكرين على العموم بتهمة الميل الى المبادئ اللوترية ، وامتد بطشه فى ذلك الى جماعة كبيرة من الملوك والعظماء . واليك بعض هذه الأمثلة الشهيرة :

(أ) حاول البابا بول الرابع أن يستعمل ديوان التحقيق الاسبانى فى محاربة ملك اسبانيا ذاته . وكان بول الرابع قبل ارتقائه عرش البابوية من أشراف نابولى وكانت نابولى وقتئذ من أملاك العرش الاسبانى . وكان البابا يبغض سيد وطنه الأجنبى ، وبالأخص لأن ملك اسبانيا كان يؤازر آل كولونا وآل سفورتزا أعداءه

الالداء . ففكر أن يجرد شارل الخامس (شارلكان) من التاج الأمبراطورى، وأن يجرد ولده فيليب الثانى، وهو يومئذ ملك اسبانيا، من تاج صقلية ونابولى . ورأى أن يتخذ الديوان أداة لتحقيق هذه الغاية . فأمر باجراء تحقيق تمهيدى غيابى ضد شارل الخامس وفيليب الثانى ، لكى يثبت أنهما عدوين للكرسى الرسولى ، وأن شارل الخامس بالأخص مذنب ومشتبه فى ميله الى التعاليم اللوثرية . وقام بهذا التحقيق المدعى العمومى للمحكمة الرسولية، ثم طلب من البابا كنتيجة لهذا التحقيق أن يعلن حرمان شارل الخامس من التاج الأمبراطورى، وتاج اسبانيا، وحرمان ولده فيليب من تاج نابولى ، وأن يقرر نفيهما من الكنيسة ، وأن يحل شعوب ألمانيا وايطاليا واسبانيا ، وبالأخص شعب نابولى، من يمين الخضوع والطاعة لهما . وهنا وقف بول الرابع سير القضية ليستأنفها فى الوقت الملائم ، ولكنه أصدر مرسوما بنقض كل القرارات السابقة التى أصدرها الكرسى الرسولى لصالح ملوك اسبانيا .

فرأى شارل الخامس وولده أن يردّا على البابا باستصدار فتوى دينية تعرف سلطة الكرسى الرسولى على الكاثوليك وتحددها . فأصدر بعض الأحبار الأسبان فتوى بأنه يجب أن يحال بين سيد رومة الزمنى وبين الاضرار برعايا الكنيسة،وأن يكون فى سياسته أكثر أناة وحزما، وأن كل المنح التى أقرّها البابا لصالح العرش أو الكنيسة فى اسبانيا لا يمكن نقضها لأنها أصبحت حقوقا مكتسبة . فردّ البابا على ذلك بأن أصدر أمره الى المحقق العام بأن يعاقب أولئك الأحبار، لأن فتواهم هذه كفر ومروق، وأن يعاقب شركاءهم ومحرضيهم . وانضم الى رومة يومئذ المطارنة وكبار الأحبار فى اسبانيا . ولكن فيليب الثانى ارتقى العرش بعدئذ بقليل، وعقد الصلح مع بول الرابع .

(٢) ومن أشهر قضايا ديوان التحقيق، وربما أشهرها جميعا، قضية بارتلمى كارانزا مطران طليطلة . وكان كارانزا حبرا ومفكرا اسبانيا نابها، تقلب فى الوظائف الدينية حتى عين فى سنة ١٥٥٧ مطرانا لطليطلة وهى أرفع المناصب الدينية فى اسبانيا . وكان قبل ذلك قد مثل اسبانيا فى المجلس الدينى العام الذى عقد فى ترنت فى سنة ١٥٤٥

وظهر فى مناقشاته ومباحثه بجرأته وقوة جدله ، ونشر فى ذلك الحين بعض رسائله الدينية . وكان ارتفاعه السريع مثار الحسد والبغض فى صدور بعض أكابر الأحبار الذين كانوا يطمحون الى منصبه و يعتبرون أنفسهم أحق منه بنيله ، ومن هؤلاء القس كانو ، والمحقق العام ڤالديس ، ودى كاسترو اسقف قونقه ، والدون انتوان أوجستن أسقف لاردة وغيرهم . وكانت رسائل كارانزا الدينية سبيل الانتقام لخصومه . فان المحقق العام ڤالديس أحال بعضها على أسقف قونقه لبحثها ومعرفة ما اذا كانت تخالف أصول الدين فى شيء . فقدم الأسقف رده فى أبريل سنة ١٥٥٨ ، وفيه يقرر بأن هذه الرسائل خطرة جدا ، وأنها مشربة بروح التعاليم اللوترية ، وأنه يذكر لكاتبها أعنى كارانزا آراء وأقوالا بدرت منه فى مناقشات مجلس ترنت ، وفى بعض محاضراته فى لندن يوم كان فيها برفقة ملك اسبانيا[1] تشعر بمروقه وكفره . وقال فى حق المطران أحبار آخرون مثل هذا القول . واستصدر المحقق العام من أشخاص كثيرين معظمهم من الرهبان والراهبات ومنهم بعض سجناء الديوان ، شهادات وأقوال تؤيد كفر كارانزا ، وقال أحدهم انه قرأ أوراقا مخطوطة فيها اجتراء شنيع على الدين وان كاتب هذا المخطوط هو كارانزا أيضا . ولبث ديوان التحقيق حينا يجمع من هذه الأدلة والقرائن مادة غزيرة ، و يضبط من رسائل المطران ومخطوطاته ما استطاع .

وفى يناير سنة ١٥٥٩ أصدر البابا بول الرابع ، بناء على طلب ديوان التحقيق ، أمرا بالقبض على بارتلمى كارانزا مطران طليطلة . وكان فيليب الثانى يقيم يومئذ فى بروكسل ، بعيدا عن عمل الديوان وسير القضية . وكان يخشى أن يتدخل فى قضية فيها تهمة تتعلق بالدين والايمان والتعاليم اللوترية ، ولكنه وعد المطران أن يحميه ما استطاع سبيلا الى ذلك . ولم يسمح لكارانزا أن يناقش القرار الذى أصدر فى حق رسائله بعد أن شهد الشهود بكفره ، وعرض المحقق العام ڤالديس نتيجة التحقيق كما شاء على الأميرة جنة أخت فيليب الثانى وحاكمة اسبانيا فى غيبته ، ونبأت الأميرة أخاها بكل ما سمعت . ولكن فيليب الثانى كان يخشى دائما أن يصطدم

(١) كان فيليب الثانى قد تزوج من مارى تيودور ملكة انجلترا ، وأقام فى لندن الى جانبها حينا .

بإرادة الديوان المقدس، فآثر السكوت وترك الحوادث تأخذ مجراها . وسعى كارانزا في نفس الوقت لدى مستشار الديوان وكبراء الدولة فى أن توضع رسالته التى قيل انها تضمنت زيغا فى الدين فى القائمة السوداء دون ذكر اسمه . ولكن سعيه كان عبثا، واستصدر المحقق العام ڤالديس من رومة أمر القبض على المطران كما قدمنا .

وطلب المحقق العام الى الملك أن ينفذ أمر البابا، ولكن فيليب الثانى طلب تأجيل القبض على كارانزا حتى يعود من الفلاندر . واستمر المحققون أثناء ذلك فى جمع الأدلة على كفر كارانزا من الأحبار فى مختلف النواحى . وفى ١٣ مايو من نفس العام وجه مجلس الديوان الى كارانزا طلبا بمثوله أمام الديوان ليجيب عن التهم التى وجهت اليه . وأوصى الملك الى الديوان مع التصريح له بالمضى فى التحقيق أن يعامل المطران بكل ما تقتضيه مكانته من الرفق والاحترام، وأمر بوقف تنفيذ أمر المثول مؤقتا ، وأرسل يكرر للمطران وعده بالرعاية والحماية ، ولكن الديوان عاد فكتب الى الملك يصر على تنفيذ أمر القبض ومصادرة أموال المطران لأن الأدلة على ادانته ناهضة لا ريب فيها . وبعد مراسلات عديدة بين المحقق العام وفيليب الثانى، أرسل فيليب الى أخته الأميرة جنة أن تحمل المطران على المثول فى محكمة التحقيق بعذر من الأعذار . فكتبت الأميرة الى المطران تدعوه الى الحضور الى بلد الوليد بحجة قرب عود الملك ، فرد عليها بالايجاب ، وشرع فى أهبة السفر . ولكن المحقق العام لم ينتظر قدوم الأسقف، وعهد الى جماعة من المحققين بالقبض عليه، فقبض عليه فى منتصف الطريق فى ٢٢ أغسطس رغم اعتراضه على صحة الأوامر الصادرة بالقبض عليه ، وشرع المحققون فى نفس الوقت فى ضبط أمواله وأوراقه . وأخذ الى بلد الوليد، واعتقل هنالك فى منزل خاص .

وسارت المحكمة فى التحقيق وسماع الشهود ، ولكن الأدلة على ادانة المطران لم تكن وفيرة حاسمة كما حدث فى دور التبليغ، وشهد كثيرون بورعه وحسن ايمانه، وكانت أهم النقط التى تناولها التحقيق هى مسألة التبرير بواسطة الايمان، وشفاعة القديسين، وتفسير الكتاب المقدس، والنظرية اللوترية بصفة عامة ، والأعمال

والأقوال التى تدلى بالميل اليها ، وما تعرضه الرسائل المطبوعة والمخطوطة من وجوه الزيغ . أما كارانزا فانه أبى أن يقسم اليمين وأن يبدى أقواله حتى يصدر بذلك أمر البابا أو الملك ، وطعن فى اختصاص الديوان وفى صحة اجراءاته ، نعرض طعنه على المجلس الأعلى ، فقضى برفضه وباختصاص الديوان . فاصر كارانزا على موقفه ، ورد المحقق العام ڤالديس لاسباب قدمها ، وعرض الرد على هيئة من المحكمين مثل فيها الديوان ، فقضت بصحة الرد ووجاهة الأسباب التى بنى عليها . فالتجأ الديوان الى البابا ، فاصدر مرسوما يخول فيه للملك أن يختار القضاة ، وأن تصدر المحكمة حكمها فى ظرف عامين ابتداء من ٧ يناير سنة ١٥٦١ فاختار الملك الدون جسباردو دى زنيجا مطران سانتياجو (شنت ياقب) وأذن له بالتفويض والانتداب ، وسمح الملك لكارانزا بأن يختار من يشاء للدفاع عنه ، فاختار اثنين من كبار الأحبار ، ومحاميا كبيرا ، وأحيلت رسائله من جديد على لجنة من علماء الدين فدرستها ، وقررت «انها تحتوى على آراء تميل الى الكفر ، وأن مؤلفها تلحقه فى الكفر شبهة قوية» .

وكان أشد ما يبتغيه مطران كارانزا هو أن تحال قضيته على رومة . وقدم الدفاع عنه بذلك الى فيليب الثانى مذكرة ضافية شرحت فيها الوجوه والأسباب ، وأهمها أن قضاء الديوان لا يؤمن لما بين قضاته وبين المتهم من عوامل الخصومة ، وأن ذلك لا يعتبر اعتداء على اختصاص الديوان لأن رومة هى المرجع الأعلى والأخير . ولكن المحقق العام ڤالديس استطاع أن يقنع فيليب الثانى بأن إحالة القضية على رومة يعتبر انتقاصا لسلطات العرش الأسبانى ، وأن محاكمة المطران فى اسبانيا تقوى سلطانه الدينى ، وتلقى الرعب فى قلوب الكفرة والمارقين ، فسعى فيليب الثانى لدى بلاط رومة حتى حصل فى يوليه سنة ١٥٦٥ على مرسوم من البابا بيوس الرابع باجراء المحاكمة فى اسبانيا ، وفيه ينتدب البابا أيضا عدة من كبراء أحباره لتأليف المحكمة التى يعهد اليها بذلك . فوصل رسل البابا الى اسبانيا فى نوفمبر سنة ١٥٦٥ ، ولكن المحكمة لم تعقد يومئذ لوفاة البابا بيوس الرابع بغتة فى ٩ ديسمبر من نفس العام ، فعاد كبير البعثة ، وهو الكردينال بونكمبانى الى رومة

تاركا القضية على حالها ، ولكنه استطاع فى الفترة القصيرة التى قضاها فى اسبانيا أن يقف على الدسائس التى يدبرها ديوان التحقيق للتنكيل بالمطران المتهم وحرمانه من قضاء رومة . وشرح الموقف للبابا الجديد وهو بيوس الخامس ، وأقنعه بأن قضية كارانزا لا يمكن أن تنظر فى اسبانيا بنزاهة وعدل ، فأصدر بيوس الخامس مرسومين احدهما بارسال كارانزا وقضيته الى رومة ، والثانى بعزل المحقق العام ڤالديس من منصبه ، ولم يذعن فيليب الثانى لذلك إلا بعد أن هدده البابا بنفيه من الكنيسة .

وأطلق سراح كارانزا أخيرا فى ٥ ديسمبر سنة ١٥٦٦ بعد اعتقال دام أكثر من سبعة أعوام ، وحمل لضعفه الى رومة فى هودج ، وصحبه أحد المحققين ، ومندوب لحراسته ، فوصل الركب الى رومة فى أواخر مايو سنة ١٥٦٧ ، وسلم كارنزا الى السلطات البابوية ، مع الأوراق والوثائق المتعلقة بقضيته . غير أن الاجراءات عادت فاستغرقت شهورا طويلة ، ولم تراجع أوراق القضية إلا فى أواخر سنة ١٥٦٩ وعندئذ لاحظ القضاء البابوى اضطرابا شديدا فى التحقيق والاجراءات ولم يجد بعض المستندات والوثائق التى أشير اليها فى القضية ، فأوفد البابا سفيرا الى اسبانيا ليحادث ملكها فى الأمر وليشكو له تصرف ديوان التحقيق ، فعاد السفير يحمل بعض الوثائق الهامة التى كانت قد حجزت عمدا فى الديوان ، ولبث بيوس الخامس حينا يراجع القضية . وأخيرا أصدر حكمه فيها دون اعلانه حتى يعرضه بادئ بدء على ملك اسبانيا ، وكان يقضى ببراءة كارانزا من تهمة الكفر ، و يرد الرسائل المطعون فيها الى صاحبها ليترجمها الى اللاتينية و يشرح ما ورد فيها خاصا بأصول الدين . وكان البابا يعتقد أن البراءة ترضى فيليب الثانى ، فتحمله على مساعدة البابا فى مجهوده الذى يسعى اليه من جمع كلمة الدول النصرانية ضدّ الدولة العثمانية . ولكن فيليب الثانى رأى فى هذه البراءة طعنا فى شرفه وفى نزاهة ديوان التحقيق ، فكتب الى البابا يعترض على الحكم ويؤكد أن صاحب الآراء اللوترية التى وردت فى الرسائل المضبوطة لا يمكن إلا أن يكون كافرا ، و يطلب اليه تأجيل الحكم حتى يبعث اليه بوثائق جديدة تؤكد هذه الحقيقة . وعهد الى بعض أكابر الأحبار بوضع شروح

إضافيــة لآراء كارانزا ونظرياته ، وبعث بها الى البابا فى سنة ١٥٧٢ ، ثم أوفد بعد ذلك الى رومة بعض أعلام الدين الأسـبان ليزيدوا هـذه الشروح بيانا وقوة . واستصدر من المطارنة فى اسبانيا فتاوى جديدة بكفر كارانزا وأرسلها الى رومة . وكان بيوس الخامس قد توفى يومئذ وخلفه جريجورى الثالث عشر . فحولت هذه الجهود سـير القضية الى وجهـة جديدة ، ورجحت كفة الادانة ، وفى ١٤ أبريل سنة ١٥٧٦ أى بعد زهاء ستة عشر عاما من بدء التحقيق ، أصدر البابا أمره الى بارتلمى كارانزا مطران طليطلة بأن يتوب عن كل رأى كافر وكل فكـرة لوثرية مما تقررت شبهته فى اعتناقها ، وقضى بوقفه خمسة أعوام عن تولى مهام منصبه ، وباعتقاله أثناء هذه المدة فى دير معين ، وبالزامه أن يتبع رسوما معينة فى الصـلاة والتعبد ، وبمنع تداول رسائله التى حكم عليها ديوان التحقيق .

وكان بارتلمى كارانزا يومئذ شيخا متهدما فى الثانية والسبعين من عمره ، وكانت الآلام المعنوية التى يعانيها من جراء اعتقاله ومحاكمتـه قد أضنته وحطمته ، فتوفى فى سجنه لأسابيع قلائل من صدور الحكم فى ٢ مايو سنة ١٥٧٦

وهكذا كانت خاتمـة تلك المحاكمة الشهيرة التى أنفق فيها الديوان المقـدس ، وأنفقت السياسة الأسـبانية كل ما وسعا من ضروب الدهاء والكيد ، والتى يجعل منها لونها الدينى نموذجا قويا فريدا فى محاكمات ديوان التحقيق .

(٣) ومن العظماء الذين حاكمهم ديوان التحقيق أيضـا ، الدون ردريجو دى بومون وهو من أمراء ناڤار وعظماء اسبانيا ، حاكمه الديوان فى سـنة ١٥٤٢ بتهمة تحيزه للموريسكيين وعطفه عليهـم . وكذلك حاكم الديوان فى هـذا العصر أميرال أراجون الدون سانكو دى كردوڤا بتهمـة الزيغ والكفر ، وقضى عليـه بالتوبة والاعتقال . فاعتقل بقية حيـاته ، وسجن وهو فى الثالثة والسـبعين فى أحد الأديار حتى توفى . وفى حفلة الايمان (الاوتودا فيه) فى سنة ١٥٧١ ظهر الأسـتاذ الأعظم لجماعة مونتيزا واثنان من كبراء السادة بين المحكوم عليهم . وكانت التوبة هى العقوبة الغالبة فى أمثال هذه القضايا . ولكن التوبة كانت أشد ما يصيب السادة فى هـذا

العصر لانهـا كانت وصمة أبدية لأسرهم وجميـع أقاربهم، وكانت فوق ذلك تهدم فى ذريتهم « نقاء الدم » الذى هو شرط الالتحاق بالمناصب الكبرى، فكانت صولة الديوان المقدس وإجراءاته تبث الرعب بين صفوف السادة والعظماء فى تلك العصور.

٣

وكان الديوان المقدس منذ نشأته خصيم كل حركة فكرية وعلمية، وكانت اسبانيا مدى حين أخصب ميدان لنشاطه فى مطاردة العلوم والآداب ولاسيما تراث اليهود والعرب. على أن هـذه المطاردة كانت عامة تتناول الحركة الفكرية المستنيرة أينمـا استطاع الديوان أن يبسط سلطانه، وكانت نقمته تتجه حيثما بزغ ضوء فكرى جديد. واليك مثلين شهيرين :

(١) فى سـنة ١٤٨٨ قرر ديوان التحقيق الاسـبانى محاكمة الكونت جوفانى پيكودللاميراندولا، وهو أمير إيطالى من أعلام «الاشراق» (الرينصانص). وكان هـذا الأمير العالم آية خارقة من آيات التفكير والعلم، فقد درس الفلسفة والعـلوم وبرع فيهما براعة مدهشة وهو فتى لم يجاوز طور الحداثة، وكان البـابا وهو يومئذ إنوسان الثامن يخشى تفكير هـذا الأمير ونظرياته على هيبة الكنيسة، فدعا لجنة من الفقهاء لبحث آرائه فى الدين والرياضة والطبيعة والفلسفة وغيرها، وقضى هؤلاء بأن فى نظريات ميراندولا زيغ وكفر، فرد ميراندولا على قرارات اللجنـة بكتابه الشهير (التبرير Apologia) سنة ١٤٨٦ وهو يومئذ فى الثالثة والعشرين من عمره. ثم نما الى البابا أن الفيلسوف الفتى ذاهب الى اسـبانيا ليذيع آراءه ونظرياته فى جامعاتها ودوائرها العلميـة، فبعث الى فرديناند وإيزابيـلا بمرسوم يشرح فيه كفر ميراندولا وخطر آرائه، وما يخشى من أثر خلاله الرقيقة فى أذاعة دعوته، وما يسـتحق من عقاب مضاعف لكونه قد عاد الى زيغه بعد التوبة، ويطلب الى الملكين أن يقبضا عليـه ليحاكمه ديوان التحقيق. فتأهب الملكان وتأهب الديوان لتنفيذ المرسوم البابوى، ولكن ميراندولا علم بالأمر فعدل عن السفر الى اسبانيا، ورحل الى فلورنس حيث اتصل بآل مديتشى حماة العلوم والآداب فى ايطاليا يومئذ، وعين

استاذا للفلسفة فى الجامعة الافلاطونية، ونشر عدة كتب ورسائل علمية وفلسفية وتوفى فتى فى الحادية والثلاثين من عمره فى سنة ١٤٩٤ .

(٢) وهنالك مثل جاليليو الفيلسوف والرياضى والفلكى الأشهر، فانه أحدث بنظرياته فى الأجرام والكواكب والأرض والشمس والقمر ثورة فى الفلك . وكانت البابوية تخشى علمه ونظرياته على سلطة الكنيسة الروحية وعلى عقائدها . وكان جاليليو يشتغل بمباحثه منذ سنة ١٦١٠ فى فلورنس تحت رعاية ملكها ، وابث أعواما طويلة يعمل على إذاعة نظرياته الجديدة عن دوران الأرض واستقرار الشمس وسط الكرة . ولكن البابوية أصدرت منذ سنة ١٦١٦ وفقا لرأى أحبار الديوان المقدّس، قرارا بنقض هذه النظريات وتحريمها، واعتبارها فلسفة مضحكة واجتراء على النصوص المقدّسة،ونصح البابا جاليليو على أثر ذلك بالكف عن دعاويه،ولكن جاليليو لم يعبأ بهذا القرار ولم يعمل بهذا النصح، ومضى فى مباحثه والتدليل على نظرياته، ونشر كتابه الأشهر « محادثات عن الأصول العالمية » فى سنة ١٦٣٢، فاستقبل بعاصفة من الترحاب والحماسة فى جميع أنحاء أوربا . عندئذ ثارت الدوائر الكنسية، وحرم بيع الكتاب فى الحال، ودعى جاليليو للمثول أمام الديوان فى رومة فاعتذر أوّلا بشيخوخته وضعفه — وكان يومئذ فوق السبعين — فغضب البابا واعتبر تخلفه خروجا وعصيانا، فلبى الدعوة ، واعتقل فى قصر الديوان فى أبريل سنة ١٦٣٣ ، واتهم بأنه أذاع أمورا تناقض القرار البابوى . ثم حقق معه فى شهر يونية . وتقول بعض الروايات أنه عذب فى أقبية الديوان ، ولم يرحم الديوان كبره وضعفه، ويقال أيضا أن الفيلسوف أنكر تحت أثر الوعيد والعذاب نظرياته التى عمل لإثباتها طول حياته . ولكن المحقق أن الديوان هدّده بالعذاب فقط وأنه لم ينفذ وعيده قط. ثم تلى عليه الحكم بعد استجوابه وخلاصته «أنه مشتبه فى كفره شبهة قوية»، وقضى باعتقاله طبقا لمشيئة الديوان، وأن يقوم أسبوعيا مدى ثلاثة أعوام بصلوات التوبة . ولكن الديوان أطلق سراح الفيلسوف بعد اعتقاله بضعة أيام فقط، فعاد الى فلورنس وقضى فيها أعوامه الأخيرة .

٤

ونختم هـذا الفصل بكلمة عن عدد الضحايا الذين ذهبوا شهداء هـذا القضاء المروع، وفقدوا النفس أو الحرية والمـال .

يخصص لورنتى لهـذا الاحصاء فصلا كبيرا فى خاتمة مؤلفه يستعرض فيه عدد المحكوم عليهـم فى عهد كل « محقق عام » منـذ عهد تركو يمـادا الى أوائل القرن التاسع عشر أى الى العهد الذى كتب فيه مؤلفه . و يعتمد فى أرقامه أولا على جماعة من أعلام المؤرخين المتقدمين ، وثانيـا على الوثائق والمحفوظات الرسمية . ومن ثم كانت روايته أقرب الروايات الى الصحة والتحقيق .

ففى العصر الأول ، أعنى فى عهد المحقق العام تركو يمادا والأعوام القلائل التى تقدمته مذ قامت أول محكمة للتحقيق فى قشتالة فى سنة ١٤٨١ ، الى سنة ١٤٩٨ ، بلغ عدد المحكوم عليهـم من محاكم التحقيق المختلفة فى قشتالة واراجون ١٢٥,٢٩٤ شخصا من هؤلاء ثمـانية آلاف وثمـانمائة هلكوا فوق محارق الديوان، وستة آلاف وخمسمائة أحرقت رموزهم بعد موتهم أو بعد فرارهم ، وتسعون ألفا و بضعة وقعت عليهم أحكام مختلفة من السجن والغرامة والتو بة وغيرها .

و بلغ عدد المحكوم عليهم فى عهد المحقق العام ديزا من سنة١٤٩٩ الى سنة١٥٠٦ ، ٣٤,٩٩٢ شخصا من هؤلاء ، ١٦٦٤ أحرقوا ، و ٨٣٢ أحرقت رموزهم ، والبـاقى وقعت عليهم أحكام أخرى .

وفى عهـد المحقق العام كمنيس ، من سـنة ١٥٠٦ الى ١٥١٨ وهو العهـد الذى اشـتدت فيه وطأة المطاردة على مسلمى غرناطة وعلى الموريسكيين بلغ عدد الضحايا ٥٠,١٦٧ من هؤلاء، ٢,٥٣٦ أحرقوا، و ١٣٦٨ أحرقت رموزهم، وعوقب الباقون بعقو بات أخرى .

و يقدر لورنتى مجموع ضحايا ديوان التحقيق الاسبانى فى عصوره المختلفة حتى أوائل القرن التاسع عشر كما يأتى :

٣١,٩١٢ أحرقوا فعلا و ١٧,٦٥٩ أحرقت رموزهم و ٢٧١,٤٥٠ من التائبين الذين وقعت عليهم عقوبات شديدة ، فيكون مجموع الضحايا طبقا لهذا الاحصاء ٣٤١,٠٢١

ويرى بعض المؤرخين ، ومنهم پرسكوت ، أن هذا التقدير مبالغ فيه وان لورنتى اتبع فى الاحصاء طريقة خاطئة واعتمد على بعض الروايات الضعيفة . غير أنه يلوح لنا أن لورنتى بما استطاع أن يصل اليه من المصادر والوثائق ، وما يمتاز به من دقة فى البحث والتحرى ، يقدم لنا بهذا التقدير عن ضحايا ديوان التحقيق الاسبانى رواية لا تبعد كثيرا عن الحقيقة ، ثم هى ما زالت الى يومنا مرجعا لكثير من الباحثين والمؤرخين[1] .

أهم مراجع هذا "الكتاب"[2]

Don Juan Antonio Llorente: Histoire Critique de L'Inquisition d'Espagne.

William Prescott: History of Ferdinand and Isabella of Spain.

" " : History of Philip the II of Spain.

Henry Charles Lea: The Moriscos of Spain; their Conversion, and Expulsion.

Joseph Condé: Histoire de la Domination des Arabes en Espagne.

Matin A. S. Hume: Philip II of Spain.

Voltaire: Essai sur les Mœurs et l'Esprit des Nations et sur les principaux faits de l'Histoire.

The Encyclopaedia Britannica (Art. Inquisition).

---

(١) استمر ديوان التحقيق الاسبانى قائما حتى سنة ١٨٠٨ وفى هذا العام ألغاه نابليون الأول عقب افتتاحه لاسبانيا . ثم أعاده فرديناند السابع ملك اسبانيا فى سنة ١٨١٤ . وفى سنة ١٨٣٥ أصدر البرلمان الاسبانى (الكورتيز) قرارا بالغائه نهائيا من جميع الأراضى الاسبانية . وبذلك طويت صفحة الديوان .

(٢) رأيت لكثرة المصادر التى رجعت اليها وتباينها أن أذيل كل فصل بأهم المصادر الخاصة به ، بدلا من وضعها جميعا فى ثبت واحد .

الكتاب الثانى

فى المحاكمات والقضايا الكبرى

---

١ – من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر

الفصل الأول

محاكمة اللايدى چان جراى ملكة انجلترا

سـنة ١٥٥٣

مأساتان شهيرتان فى التاريخ الانجليزى جازتا نفس الحوادث، وأحاطت بهما نفس الظروف، وزهقت فى كلتيهما ملكة بارعة فى الجمال والخلال، ضحية ملكة صارمة قوية، لم ترسوى إراقة الدم سياجا لعرشها : هما مصرع اللايدى چان جراى ملكة انجلترا، ومصرع مارى استوارت ملكة ايكوسيا (اسكتلنده) .

ولنا أن نعتبر النصف الأخير من القرن السادس عشر فى التاريخ الانجليزى عصر النساء والملكات . فمنذ إدوارد السادس يتعاقب النسوة على عرش انجلترا حتى فاتحة القرن السابع عشر؛ لايدى چان جراى، فمارى تيودور، فاليزابيث؛ ونرى مارى استوارت فى نفس الوقت ملكة لايكوسيا . على أن ملكات آل تيودور لم يكن أقل عزما ودهاء من ملوكهم ، وكن مثلهم صرامة وجرأة لا يقفن عند وسيلة فى تأييد سلطانهن، وحماية عرشهن ؛ كانت وسائل هنرى الثامن الدموية شعار ابنتيه مارى، واليزابيث . وكانت لكلتيهما ضحية ملوكية من جنسها . فأراقت مارى تيودور دم اللايدى چان، وأراقت اليزابيث دم مارى استوارت . وكانت معركة العرش مبعثا لكلتا الفاجعتين .

ومأساة اللايدى چان جراى[1] مأساة فتاة، بل طفلة ، حملت رغم ارادتها الى عرش لم تتطلع اليه، ولم تفكر فيه ، ثم أخذت بجرم غيرها، وزهقت كما يزهق مجرم وشهيد ، فى زهرة الفتوة والجمال ، فاشتهرت بمحنتها كما اشتهرت بفياض ظرفها، ورقيق شمائلها، ورائع خلالها . واللايدى چان ابنة حفيدة لهنرى السابع

---

(١) سنأتى على محاكمة مارى استوارت فى فصل قادم .

ملك انجلترا . وذلك أن ماري ابنـة هنري السابع بعد أن توفى زوجها لويس الثاني عشر ملك فرنسا ، تزوجت من صديق لأخيها هنري الثامن ، هو الدوق سفولك ، فرزقت منـه بابنتين ، تزوجت كبراهما اللايدي فرانسس من هنري جراي ، فكانت اللايدي چان من ثمرات هذا الزواج . ولدت سنة ١٥٣٧ ، وعرفت منذ الطفولة بالذكاء النادر ، والسحر الخلاب . وما كادت تجوز دور الحداثة ، حتى برزت مواهبها القوية ، فكانت في الخامسة عشرة تجيد العبرية واليونانية واللاتينيـة ، وتأخذ بحظ كبير من مختلف العلوم المعروفة يومئذ ، وتتقن التصوير . وتفتحت في نفس الوقت زهرة حسنها الفائق فكانت تتبوأ بين سيدات عصرها المقام الأول في كل ما تفرض عبادة الذكاء والجمال والخلال . وزوجت اللايدي چان من اللورد جلفورد دودلي ولد الدوق نورثمبرلند ، وهو كزوجه الفتيـة صبي لم يجز طور الحداثة . فاستأذنت اللايدي چان أن تطيـل مكثها حينا في منزل أسرتها . ولبثت كذلك حتى طارت الإشاعة بأن الملك إدوارد السادس قد أشرف على الموت . فاخطرت اللايدي چان بالانتقال الى منزل آل نورثمبرلنـد أسرة زوجها ، حتى اذا قضى الملك ، وجب أن تمثل في قصر «البرج» لأن الملك قد اختارها وارثة لعرشه .

وكانت هذه أول إشارة ألقيت الى اللايدي چان عن المصير الذي قدر لهـا . فلم تؤمن بصدق الاشارة ، وأبت ان تغادر منزل أسرتها حتى جاءت الدوقة نورثمبرلند وولدها جلفورد زوج اللايدي چان ، ووقع منظر عاصف بين الأسرتين ، وأمر اللورد جلفورد ، چان ، أن تطيع أوامره كزوجة وأن تسير معه الى منزل أسرته . فأذعنت اللايدي چان . ولبثت أياما شبه أسيرة تحت رقابة الدوقة ، ثم أُخطـرت أخيرا ، في اليوم التاسع من يوليه سنة ١٥٥٣ بأن تحضر الى قصر سيون لتتلق أوامر الملك .

والحقيقـة أن إدوارد السادس كان قد توفى قبـل ذلك بثلاثة أيام أعني مساء الخميس ٦ يوليـه . ولكن وفاته لبثت سرا مكتوما حتى تنضج التدابير التي يتخذها رجال البـلاط لحل مسألة العرش . وكان الدوق نورثمبرلند رئيس مجلس العـرش روح هذه التدابير . وكان يعمل معه جماعة من الكبراء مثل ايرل بمبروك ، ودوقات

نورثمبتون ، وهنتنجدون ، وارندل . وكان العرش من بعـد إدوارد السادس يجب أن يؤول الى أختـه الكبيرة مارى تيودور ثم الى أختـه اليزابيت ، ولكن مارى واليزابيت كانتا ابنتين غير شرعيتين لهنرى الثامن . وكان ثمة حزب كبير من الأمراء والنبـلاء يعارض فى أن ترث إحداهما العرش . وكانت اللايدى چان أقرب وارثة للعرش من بعدهما . وكان الدوق نورثمبرلند يتطلع الى اغتصاب السلطة ،على يد چان زوج ولده متى ظفرت بالعرش وتوجت ملكة . وكانت خطة المؤتمرين أن يعتقلوا مارى قبـل أن تذاع وفاة الملك . ولكن مارى كانت على قدم الأهبـة ، وكان أصدقاؤها يرقبون الحوادث بدقة ، فما كاد إدوارد السادس يسلم روحه ، حتى أخطرت مارى بالفرار ، ففـرت الى أنصارها فى نورفلك ، وانهار بذلك أول ركن فى مشروع المتآمرين .

وذهبت لايدى چان الى قصر سيون كما أُمرت فلقيت هنالك نورثمبرلند ، وبمبروك ونورثمبتون وهنتجدون وارندل . ونهض دوق نورثمبرلند فقـال : "لقـد قضى الملك ولقى بعد حياة ورعة ، نهـاية ورعة . ولكنه وهو يغادر هذا العالم لم ينس واجبه نحو شعبه . فقددعاجلالته فى فراش موته ، ربه القادر أن يحمى المملكة من الفكر الزائفـة ، ولا سيما من أخته الوضيعة ، وقد رأى أن اللايدى مارى ، واللايدى اليزابيث قـد حرمتا من الوراثة بقرار البرلمـان ، باعتبارهما غير شرعيتين . وكانت اللايدى مارى عاقة لأبيها ، عاقة لأخيها ، ثم كانت عدوا أوحد وألد لكلمة الله ، وقد

اللايدى چان جراى

ولدت هى وأختها غير شرعيتين، ولم يفكر الملك هنرى (الثامن) فى أن يهب عرشه لايهما، وأما الملك إدوارد فقد أوصى قبل موته بالعرش لابنة عمه اللايدى چان فاذا توفيت اللايدى چان دون عقب، آل الى أختها الصغرى. وقد رجا المجلس، أن يشرف على تنفيذ هذه الوصية صونا لسلام الدولة» . ثم جثا الدوق، وجثا الباقون معه و بايعوا اللايدى چان بالملك، وأقسموا بأن يهبوا حياتهم للدفاع عنها. واضطربت اللايدى چان لتلك المفاجأة، وأغمى عليها، وقالت: إنها لم تخلق للعرش، ولا تصلح لحمل التاج . فهدأ نورثمبرلند روعها، حتى أذعنت، وقالت : إنه اذا كان المركز السامى الذى دعيت اليه حقا لها فان الله مسبغ عليها حوله و رفقه ليمكنها من أن تعلى كلمته وتعمل لرفاهة شعبه .

وفى عصر اليوم التالى، قدم الركب الملكى مخترقا نهر التيمز، ودخلت اللايدى چان قصر البرج فى احتفال باذخ . ولكن الجموع كانت قليلة، وكانت واجمة . وكان الموقف كله يشف عن التوجس والخطورة .

٢

ولكن أولئك الذين حاولوا أن يتخذوا من تولية اللايدى چان وسيلة لاغتنام السلطة والملك لم يحسنوا تقدير دهاء مارى وعزمها . وذلك أن مارى ما كادت تصل الى ملجئها الأمين فى نورفولك حتى كتبت الى السفير الاسبانى رينارد تنبئه بأنها فى مأمن، وقد نادت بنفسها ملكة، وتسأله النصح والمعونة، وأرسلت أيضا الى اللوردات كتابا، تقرر فيه إنها صاحبة العرش الشرعية وتطلب اليهم الخضوع والطاعة. ولم تقف مارى عند ذلك، بل حشدت، وحشد أنصارها كل ما استطاعوا من جند .

وأذاع الدوق نورثمبرلند ردا على خطاب مارى الى اللوردات، قال فيه : ان اللايدى چان هى ملكة انجلترا الشرعية، استنادا الى وصية الملك إدوارد، وكتبه، وان طلاق الأميرة كاترين الأرجونية والدة مارى من هنرى الثامن كان شرعيا، صدر

طبقا لشريعة الله، إذ أصدرته الكنيسة الانجليزية، وصادق عليه البرلمـان . واذن فمارى ابنـة غير شرعية، ولا حق لهـا فى العرش، وزاد الدوق على ذلك بأن حذر مارى فى كتابه من الخروج على الملكة الشرعية .

وكانت اللايدى چان أثناء ذلك تعانى أمر ضروب الريب والجزع . وكانت الاشاعات المختلفـة تروج فى كل مكان ولا سيما عن أهبة مارى وتحركها . وسرى الخلاف فى نفس الوقت الى حزب «البرج» اذ حاول نورثمبرلند أن يرغم اللايدى چان على الموافقة على أن يتوج ولده وزوجها جلفورد دودلى ملكا الى جانبها فأبت إباء قاطعا، وقالت إن وصية إدوارد السادس لم تشر الى آل دودلى، وان الملك يجب ألا يخرج عن آل تيودور .

ولم تمض أيام قلائل حتى جاءت الأنبـاء مزعجة بأن مارى تسـير مسرعة الى لندن، والشعب يؤيدها من كل صوب . وكان هـذا حقا فان مارى سارت على رأس أنصارها مسرعة لانتزاع العرش الذى تعتبره حقا لها، ومزقت كل قوة أرسلها آل دودلى لمقاومتها . وأخذ كبراء السادة فى نفس الوقت يعلنون خروجهم على اللايدى چان، وطاعتهم للملكة مارى . عندئذ بادر نورثمبرلند بحشد قواته، وعهـد الى الدوق سفولك والد اللايدى چان بأن يسهر على القصر، وغادر لندن على رأس جنـده القليل فى يوم الجمعة أى لسـتة أيام فقط من تولية اللايدى چان، ولكنه ما كاد يبتعد بقواته عن المدينة، حتى أخذت بوادر الثورة تضطرم، وبرز أنصار مارى من كل فج، ونادوا بملكها، وتقدمت مارى فى نفس الوقت صوب كمبردج، حيث عسكر الدوق بقواته . وجاءت الأنباء من جميع الأنحاء بأن السادة والشعب جميعا قد نادوا بطاعة مارى . وهنا تبين اللوردات الموقف جليا، واجتمعوا فى الحال، وفى مقـدمتهم أرندل، وبمبروك، ونوهوا بالخطر الذى تتعرض اليه البلاد من جراء الحرب الأهليـة، وان لاسبيل الى حقن الدماء إلا برد العرش الى مارى، وقرروا انذار الدوق نورثمبرلنـد بذلك حتى يكف عن المقاومة ويسعى فى سلامة نفسـه،

ثم نادوا فى الحال بمارى تيودور ملكة لانجلترا ، وذلك لعشرة أيام فقط من تولية اللايدى چان .

وكتب أعضاء المجلس فوق ذلك الى زعيم الثورة الدوق نورثمبرلند يأمرونه باسم الملكة مارى أن يلقى سلاحه ، فاذا أذعن سعى اللوردات الى العفو عنه ، واذا أصر اعتبروه خائنا . ثم أوفدوا رسلا منهم الى الملكة مارى يطلبون اليها الصفح ، ويؤكدون لها أنهم لم يكونوا شركاء فى المؤامرة . وانهم لم يتأخروا عن مبايعتها مدى هذه الأيام القلائل إلا سعيا الى حقن الدماء .

وهكذا تحوّل التيار فجأة ، ووجد نورثمبرلند نفسه فى مأزق شديد الحرج . فلم ير وسيلة للنجاة سوى أن يذعن ، وأن يعلن طاعته لمارى معتذرا بأنه إنما ينفذ أوامر المجلس ، فما دام المجلس قد غير رأيه ونادى بمارى ملكة على انجلترا ، فانه يخضع لقراره . ولكن مارى لم تقبل توبته ، وأمرت بالقبض عليه . ونفذ أمر القبض شريكه القديم ارندل ، وعفت مارى عن معظم اللوردات ، ولكنها اعتقلت طائفة كبيرة منهم ممن رأت خطورة فى جرمهم وتصرفهم . واعتقلت منافستها اللايدى چان ، وهى ما زالت فى قصر البرج ساكنة ، مستسلمة للحوادث ، واعتقلت زوجها الفتى جلفورد دودلى ، وزجت بهما الى سجن البرج .

٣

وكان ذلك فى الأيام الأخيرة من شهر يوليه ، ولما تمض أيام عدّة على تبوىء اللايدى چان لملك سيقت اليه مكرهة . وكانت تضطرم منذ الساعة الأولى توجسا وريبا . ولكنها أُخذت بسرعة الحوادث ، فلم تملك لنفسها أمرا ، وكانت ترى العاصفة حولها تحمل كل معارضة لمارى ، وترى ذلك الحادث الذى بدأ فى شبه سخرية يتحول سراعا الى مأساة دموية . ولكنها رأت فى نفس الوقت كل ممثلى هذه المأساة ، وهم أولئك الذين حاولوا أن يتخذوها وسيلة لتحقيق أطماعهم ، يبادرون بالتخلى عنها الى منافستها وخصيمتها . بيد أن اللايدى چان أبدت فى محنتها ثباتا يثير الاعجاب ،

وانتقلت من عرشها وقصرها، الى سجنها ، مستسلمة ساكنة . ويروى أنها قالت يومئذ : «لقد رأيت حينما رفعت الى العرش ، النطع منصوبا وراءه، فكنت دائما على أهبة لأن أغادر هذا الى ذاك » .


مارى تيودور

وكانت مارى تيودور تعرف حقيقة الدور الذى أدّته اللايدى چان فى انتزاع العرش، وتعرف أنها كانت آلة بريئة لمطامع آل دودلى . وكانت تعطف عليها، وتعمل على تخفيف اعتقالها . ولعلها كانت تميل الى العفو عنها . ولكن الحوادث وأهواء السياسة كانت أقوى من العواطف فى تقرير مصير اللايدى چان . فان مارى تيودور ما كادت تستقر فى عرشها حتى استسلمت الى تيار السياسة الاسبانية التى آزرتها وقت الشدّة، وما زالت تؤازرها فى توطيد عرشها، ومالت الى تمكين التحالف بين انجلترا واسبانيا بالتزوج من فيليب الثانى ملك اسبانيا . وكان هذا المشروع بغيضا فى نظر كثير من السادة، ولا سيما البروتستانت ، فقد خشوا أن تتغلب سياسة التعصب الاسبانية فى انجلترا، فتنصب فيها محارق التحقيق كما تنصب فى اسبانيا وفى الفلاندر . ولكن المشروع كان غاية للسياسة الاسبانية . وكانت هذه السياسة ترمى الى مطاردة خصومها فى انجلترا ولا سيما البروتستانت . وكانت اللايدى چان بروتستانتية . وكان رينارد السفير الاسبانى يلح فى محاكمة اللايدى چان وزوجها، وينوه بالخطر الذى يحدق بالعرش اذا تركا دون عقاب . وأخيرا غلبت سياسة الانتقام وتقررت محاكمة اللايدى چان وزوجها بتهمة الخيانة العليا فحوكما امام محكمة خاصة من اللوردات : محاكمة قصيرة، قضى فى نهايتها

بادانتهما و إعدامهما . ويروى أن رئيس المحكمة اللورد مورجان تأثر بجمال الملكة الفتاة، ونبلها و براءتها، حتى انه جن بعد إصداره الحكم باعدامها .

ولكن مارى تيودور أرجأت تنفيذ الحكم طويلا . وكانت ماتزال تميل الى الرأفة والعفو . وكان مشروع الزواج الإسبانى قد نضج، ونضجت المعارضة فيه الى الثورة. فثار فريق كثير من النبلاء والسادة بقيادة السير توماس ويات، واشترك فى الثورة دوق سفولك والد اللايدى چان واخوته . وحدق الخطر ثانية بعرش مارى . ولكنه كان خطرا حقيقيا . فقد زحف الثوار على لندن ، وحاولوا اقتحام القصر . ولكن مارى انتصرت ثانية ومزق الثوار ، واعتقل زعماء الثورة ليلقوا جزاء خروجهم. على أن الدرس كان عميقا، وبادرت السياسة الإسبانية الى الاستفادة منه . وأوضح رينارد لمارى تيودور خطر التهاون مع الثوار مرة أخرى ، وأنه مادامت چان جراى على قيد الحياة، فانها تبقى غواية للخوارج، وخطرا على العرش. وكانت مارى عندئذ متأهبة للاصغاء والتأثر . وكان اشتراك آل جراى فى الثورة الأخيرة جريمة يجب أن تسئل عنها اللايدى چان . وعلى ذلك تقرر تنفيذ حكم الاعدام فى چان جراى و زوجها .

٤

وفى يوم ٩ فبراير سنة ١٥٥٤ أوفدت مارى تيودور قسيسها فكنهام الى اللايدى چان ليخطرها بالنبأ الرائع ، وليحاول أن يحملها على اعتناق الكثلكة إن استطاع سبيلا الى ذلك ، وليعدها للقاء ربها . فألفاها فكنهام جالسة تقرأ، فنبأها بمهمته الأليمة ، و بما كان من أمر المؤامرة الأخيرة . فتلقته اللايدى چان ، فى سكينة وثبات وقالت له : «إنها لاتعرف عن المؤامرة الأخيرة شيئا، كما أنها لم تشترك فى تدبير المؤامرة الأولى وان كانت باشتراكها فيها قد غدت مجرمة ، تستحق العقاب » . وعندئذ حاول فكنهام أن يقوم بمهمته، وأن يعظ اللايدى چان فى فضائل مذهبه، وأنها قد تجد سبيلا الى العفو اذا اعتنقت الكثلكة . فأصغت اليه فى حلم، ثم

أجابته : أنها قد أنفقت صباها فى تكوين اعتقادها وإن الوقت لايتسع للجدل، بل تجب الصلاة ، وإن عبء القدر يرهقها ، ولذا تود الاسراع فى لقاء ربها ، وإنها كانت دائما ترى نطع الجلاد من وراء التاج . فتحول فكنهام عندئذ الى مواساتها لأن الاعدام كان قد تقرر فى اليوم التالى .

وكان ذلك فى اليوم العاشر من فبراير . وكان قد تقرر إعدام اللورد جلفورد دودلى زوج اللايدى چان فى نفس اليوم قبل زوجه . فطلب اللورد الى زوجه أن يتزود منها بعناق أخير، وترك لها أن تقبل أو تأبى . فأجابته : إنها تراه راضية اذا كان الاجتماع يفيد روحيهما ، ولكنها ترى أنه لايفيدهما شيئا ، بل ترى أنه يذكى فيهما جذوة الأسى والألم . فقيد جلفورد الى النطع دون أن يراها ، ورأته هى للمرة الأخيرة من نافذة سجنها . ثم رأته بعد ذلك جثة دامية فوق عربة الموتى فصاحت عندئذ : « وداعا يازوجى العزيز . ان ما أرى ليس سوى أوضع مافيك . أما أنبلك فقد صعد الى السماء وسوف ألحق بك، وهنالك يكون اجتماعنا خالدا » . فلما جاء دورها سارت الى النطع ثابتة ، وكانت عينها جامدة لاتذرف دمعة بينما كان خدمها من حولها يرسلون الدمع المدرار، ولبثت تصلى هادئة حتى وصلت الى النطع . وعندئذ التفتت الى فكنهام وشكرته على مواساته . ثم صعدت الى النطع، قائلة : إنها أجرمت حقا بقبول العرش ولكنها لم تدفع بعامل الطمع، وإنها تشهد الله والناس على نزاهة قصدها، وإنها تموت نصرانية مخلصة .

تقول الرواية « ثم جثا أمامها الجلاد، وسألها الصفح، فصفحت عنه راضية . ثم رجته أن يعجل باعدامها . ثم حجبت عينيها ، ووضعت رأسها على الحاجز الخشبي وقالت : « اسلم روحى بين يديك يارباه » .

* * *

وهكذا زهقت اللادى جان جراى ، فتاة فتية لم تجاوز ربيعها السابع عشر، فى زهرة الجمال والنقاء والطهر، وذهبت على هذا النحو المؤسى ضحية لاطماع لم تجش بها .

واذا كانت چان جراى قــد رضيت أن ترقى عرش انجلترا أياما قلائل ، وأن تجاهــل بذلك وجود مارى تيودور، فانها لم تكن هى روح مشروع تبينت خطره منذ الساعة الأولى ، ولم تقدم عليه الا امتثالا لقرار مجلس العرش .

ولكن مارى تيودور، أو مارى الدموية كما عُرفت فى أواخر عهدها ، كانت خليقة ببطش أبيها هنرى الثامن، وكانت آلة كما رأيت فى يد السياسة الاسبانية ومن ثم فى يد الكثلكة . وكانت چان جراى فى نظــرها مبعث خطــر على العــرش ، أو صورت لها كذلك، وكانت فوق ذلك بروتستانية .

وكان للملكة اليزابيث بعــد ذلك باختها مارى تيودور اســوة فى محاكمة مارى ســتوارت و إعدامها . ولكــن الخطر الذى كانت تخشاه اليزابيث كان محتملا . وكانت مارى استوارت حقا محور معترك شاسع من المؤامرات والدسائس الخارجية . ولكن أثر الجــرم الذى ارتكبته چان جراى كان صورة أكثر منه حقيقة. وكانت المأساة الأليمــة التى هلكت فيها هــذه الملكة الطفلة وحيا رائعا لجمهرة مــن عظماء المصورين والكتاب .

مراجع هذا الفصل

J. A. FROUDE: The Reign of Mary Tudor.

HALLAM: Constitutional History of England.

DICKENS: A Child's History of England.

THE ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA (Art. Jane Grey).

الفصل الثانى

محاكمة الدون كارلوس أمير أستورياس[1]

ســنة ١٥٦٨

ما أفاضت سيرة من سير القصــور فى القرن السادس عشر على دولة الشــعر والخيال قدر ما أفاضت سيرة الدون كارلوس؛ وما تبعث الى النفس منها من روعة وكآبة قدر ما تبعث أساطير هذه السيرة العجيبة إذ تجرّد من ثوب الحقيقة والتاريخ وتوهب صــورة القصص المشجى . وأى سيرة أدعى للروعة والوحشــة من سيرة ملك يقضى بالموت على ولده وولى عهــده الوحيد لمؤامرة قيــل أنه دبرها لقتــله ثم يذهب فى بطشه وقسوته الى حد تنفيــذ هذا الحكم ؟ هذا ما يحفظ التاريخ من سيرة فيليب الثانى ملك اسبانيا وولده الدون كارلوس؛ ولكن القصة تسبغ على تلك السيرة طائفة خلابة من الأساطير فتقول إنــ الأمير الفتى هام بحب زوج أبيــه الملكة اليزابيت ابنة هنرى الثانى، وكانت يومئــذ صبية أو طفلة؛ و إنها بادلته هذا الهوى، و إنهما تكاتبا وتلاقيا مرارا، و إن فيليب الثانى الملك الجبار، لم يغفر لولده هذا الانتهاك لشرفه، فنسب إليه أنه يدبر مؤامرة لقتله، وأمر به فاعتقل، وحوكم وقضى عليــه بالموت، وأُعدم . وتضيف القصــة الى ذلك أن ديوان التحقيق هو الذى قام بمحاكمة الدون كارلوس والحكم عليــه . ونحن لا نعنى هنا إلا بالتــاريخ . أما القصــة فحسب ما صاغه منها خيال بارع كخيال شيلر وألفيرى . ولكن التــاريخ اذا كان ينقض كثيرا من تلك الصور الخلابة المؤســية التى تصوّر الدون كارلوس ضحية محزنة لغرامه الفتى، فانه يقدم لنا فى نفس الوقت من تلك السيرة صورا قوية من كيد القصور وأخلاق العصر وخلاله .

---

(١) "أمير استرياس" لقب يعطى لولى عهد اسبانيا حتى يرقى الملك .

ولد الدون كارلوس فى بلد الوليد (ڤالادوليد) فى ٨ يوليه سنة ١٥٤٥ ، وفقد أمه ماريا أميرة البرتغال لأربعة أيام من مولده . وكان أبوه فيليب (الثانى) يومئذ وليا للعهد أما جدّه شارل الخامس (شارلكان) ، فقلما كان يتسع وقته لرؤيته أو تعهده أيام طفولته ، أو الاشراف على تربيته وتكوين أخلاقه ، غير أنه لم ينس مع ذلك أن يختار لحفيده كبار المربين والأساتذة . وكان من هؤلاء أستاذه ومربيه الدون أونوريو دى چوان . ولكن الأمير كان يرغب عن الدرس ، ويؤثر اللعب والمرح ، وينزع الى العنف . وقدر فيليب الثانى منذ الساعة الأولى شذوذ ولده وانحراف ميوله ، وعبثا حاول أن يهذبها بكل الوسائل ، فاستمر الفتى فى لهوه وعنفه وطيشه .

وفى ذلك الحين أعنى حوالى سنة ١٥٥٨ كانت الحرب تضطرم بين فرنسا واسبانيا ، وكان فيليب الثانى قد تربع على عرش اسبانيا عقب تنازل أبيه فى سنة ٥٧ ، ثم انتهت الحرب ، وعقد الصلح فكان من شروطه أن يتزوج الدون كارلوس متى بلغ أشدّه من اليزابيت ابنة هنرى الثانى ملك فرنسا ، وكانت يومئذ فى الثانية عشرة ، وكان الأمير فى الثالثة عشرة . ولكن مارى تيودور ملكة انجلترا وزوج فيليب الثانى توفيت بعدئذ بقليل ، فانتهز هنرى الثانى تلك الفرصة لتعديل الاتفاق الخاص بزواج ابنته من الدون كارلوس وتقرر أن تتزوج الأميرة من ملك اسبانيا ذاته لا من ولى عهده.(١) وتم الزواج فى طليطلة فى فبراير سنة ١٥٦٠ ، وعقد المجلس النيابى العام (الكورتيز) فى نفس الوقت ، وأقسم النواب يمين الاخلاص للدون كارلوس واعترف به وارثا لعرش أبيه .

ويصف المؤرخ برانتوم الأميرة اليزابيت بقوله « انها كانت ابنة فرنسا الحقة فى كل شىء ، حسناء ، عاقلة ، عفيفة ، خفيفة الروح ، طيبة القلب » . ثم يقول : « ان الدون كارلوس ، مذ رآها ، هام بها الى حدّ أنه لبث طول حياته يضطرم غيرة من

(١) يقدّم برانتوم لذلك تفسيرا فكها فيقول : « إن ملك اسبانيا رأى صورة للأميرة اليزابيت ، فأخذ بروعة حسنها وقطع الطريق على ولده وأخذها لنفسه » .

أبيه، وملئ حقدا عليـه لأنه حرمه من فريسته الحسناء الى حدّ أن قال له يوما إنه اعتدى عليـه وأهانه لأنه انتزع منه تلك التى وهبت له فى عهد الصلح . ويقـال أيضا إن هذا كان من أسباب موته الى جانب مسائل أخرى لا أتعرّض لها الآن» .

وبرانتوم مؤرخ معاصر اتصل بالبلاط الفرنسى والبلاط الأسـبانى فى ذلك الحين . ولكنه من رجال القصور الذين يعنون بظواهر الأمور أكثر من بواطنها ، وهـذه الرواية وأمثالهـا هى مصدر السيرة الخلابة المؤسـية ، التى صوّرت الدون كارلوس مدى عصور شهيد غرامه . على أن هذه السيرة ، وما تزعم من تبادل الهوى المبرح بين الأمير الطفل والملكة الفتية، تعتبر اليوم أسطورة فقط . فقـد ولدت اليزابيت ونشأت فى مهد الدس السياسى، وذهبت الى اسبانيا لأسباب سياسية، وعُهد اليها أن تعمل لعقد خطبة الدون كارلوس على أختها الأمـيرة مرجريت، ثم على توثيق الروابط بين اسبانيا وفرنسا . وربمـا بعثت بجمالها وظرف خلالهـا الى نفس الدون كارلوس هوى وشغفا . ولكن الدون كارلوس كان يومئذ طفلا [1] . ولم يكـن فيليب الثانى شيخا بل كان فتى فى عنفوانه أيضا، لم يجاوز الثالثة والثلاثين، فلم يك ثمة ما يبعث الأميرة على النفور من زوجها الملك الشاب ؛ ولم يكن للدون كارلوس من جمال الخلقة أو سحر الخلال ما يلفت النظر أو يجعله منافسا لأبيـه فى قلب طفلة لم يتفتح بعـد . هـذا الى أن الزواج ما كاد يعقد حتى أصيبت الملكة بالجدرى، إصابة شـديدة شغلت بأمرها عن كل شيء لأن جمالها كان فى خطر الزوال ، فلم تشهد حفلة النوّاب يوم أقسموا الطاعة لولى العهد ولم تمثل حينا فى حفلات البلاط الشائقة؛ فلم يك ثمة اذن ما يدعو الملكة الى العطف على غلام أهزل ترتسم آيات السقم والشحوب على وجهه، وقد عرفت عنه بلا ريب شراسة الخلق، وابتـذال الطباع والخلال .

---

(١) يعلق پرسكوت على ذلك بقوله : « كان الدون كارلوس يتفوق على أبيه بميزة واحدة هى حداثته . بيد أنه كان يومئذ فى الرابعة عشرة فقط فلم يكن قـد وصل الى السن المناسب ؛ كما أن الملك كان قد جاوز هذه السن ، ولكن زعم الرواة الثرثارون إن الأمير قد شغف بجمال زوجة أبيه مذ رآها ، واضطرم ببغض خفى نحو أبيه اذ حال بينه وبين خطيبته الحسناء» .

وكان الدون كارلوس وقت مقدم الملكة عرضـة لنوبات شـديدة من الحمى قلما كانت تسمح له بالخروج والتريض . فلما تمـاثل الى الشفاء بعث به الملك الى الريف بصحبة عمه الدون چوان لكى يقضى حينا فى التنزه بعيدا عن رسوم البلاط ومتاعبه . وهنالك وقع للدون كارلوس حادث خطير كاد يذهب بحياته، فقد سقط من سلم قصره وأصيب بجروح خطرة . وهرع فيليب الثانى من مدريد الى سرير ولده، وأمر الأساقفة والأحبار بالدعاء العـام لولى عهده ؛ وأجريت للأمير عملية جراحية خطيرة ، ونجا من الموت بأعجوبة، ولكنه لم يبرأ قط تمـام البرء فبقى طول حياته عرضة لآلام فى الرأس تمنعه من الدرس وتبعث اليه الخلط والهذيان أحيانا.

وعاد الدون كارلوس الى البلاط فى سنة ١٥٦٤ بعد أن تخلص من أساتذته، وعين معلمه الدون أونوريو أسقفا لاوسمة إثابة له . وكان للعلم نفوذ كبير على تلميذه فلم يقطع الفصل بينهما ما كان يشعر به الدون كارلوس نحو هـذا الحبر الورع من العرفان والعطف ، واستمر التلميـذ يكاتب معلمـه . وفى رسائل الدون كارلوس الى أستاذه ما ينم عن ضآلة مواهبـه ، وضعف تفكيره ومنطقه ، وإليـك نموذجا من هذه الرسائل :

« الى أستاذى الأسقف :

أستاذى، لقد تسلمت خطابك فى الغابة وصحتى حسنة، و يعلم الله كم كنت أود أن أذهب لأراك فى صحبـة الملكة (يشير الى رحلة الملكة لمقابلة والدتهـا فى بايون فى سنة ١٥٦٥) فصف لى ما فعلت، لقد ذهبت من الاميدا الى بوتراجو، وسررت لذلك أيمـا سرور . وأنى أذهب الى الغابة فى يومين وقد عدت الى هنا فى يومين وما زلت أمكث منذ الأربعاء حتى اليوم، صحتى جيدة، أننى أختم . تحريرا فى الحقل فى ٢ يونيـه . أنت أعز صديق لى فى هـذا العالم، وسأفعل كل ما تطلبـه إلىّ ، أنا الأمير » وكان الأسقف يلجأ الى نفوذه على تلميذه فيسدى اليه النصح فى رسائله اليه، ولكن التلميذ لم يعمل بهذا النصح قط ولم تتغير خلاله وطباعه، وكثيرا ما كانت تحمـله نزعاته و بوادره العنيفة فيعتـدى على محافظه أو غيره من كبار السـادة الذين

عينوا لبطانتـه من ذلك أنه غضب أثناء الصيد ذات يوم فركض وراء محافظـه الدون جارسيادى توليدو ليضربه ففرّ منه خشية أن يخرج على ما يجب من الاحترام لولىّ عهد مليكه ولم يقف إلا أمام فيليب الثـانى فأثابه وأقاله ، وعين مكانه أمير إيڤولى . وحدث أيضـا أنه شهر خنجره ذات يوم على المحقق العام لأنه أمر بإبعاد ممثـل هزلى كان يتأهب للتمثيل فى قصره ، فبادر السادة بملاطفـة الأمير، و بادر المحقق العام بالانسحاب .

والخلاصـة أن الدون كارلوس لم يكن نموذجا خلابا لفتى ساحر وافر الرقة والظرف ، وأمير مهذب رفيع الخلال .

٢

فى سنة ١٥٦٥ اعتزم الدون كارلوس السفر الى الفلاندر، سرا ، بمعاونة أمينيه الكونت دى جلبيس والمركيز دى تلبارا ، وأراد أن يصطحب محافظه البرنس إيڤولى إيهاما بأن الرحلة تمت باذن أبيـه ، وحمل اليه أنصاره مبلغا كبيرا من المـال وثيابا للتنكر ، ولكن فيليب الثانى الذى لم يغفل حركة من حركات ولده ، حال دون نفاذ هـذا المشروع المريب . وعلم بذلك أستاذه أسقف أوسمه ، وألمع اليه فيليب الثانى بأن يسدى النصح الى تلميذه ، فأرسل اليه خطابا مستفيضا يشرح له فيـه ما يجب أن يتبعه من الرسوم والمجاملات نحو وزراء أبيـه ؛ ويحذره من العواقب الوخيمة التى تترتب على مخالفة هذه الرسوم ، فتقبل الأمير رسالة أستاذه بما يجب من الاكرام والحفاوة ، ولكنه لم يعمل بشىء ممـا أسدى اليه ، ولم يقلع ذرة عن نزقه وعنفه ، وحدث ذات يوم أن البرنس إيڤولى دوق آلفـا الذى عين حاكما للفـلاندر ، جاء يودع الأمير ويستأذنه فى السفر ، فأجابه الأمير بأن أباه الملك أخطأ فى تعيينه لمنصب ليس يصلح له سوى ولىّ العهد ، فقـال الدوق إن الملك لم يرد بلا ريب أن يعهـد اليه بذلك لكيلا يعرضه لمـا هنالك من الأخطار ، فثار الدون كارلوس لذلك الجواب واستل خنجره وهجم على الدوق يريد قتله ، فلم ير الدوق وسيلة للدفاع

عن نفسه إلا أن يعتنق الأمير بشـدّة، وهرول على الضجة بعض السادة، فحجزوا الأمير عن محافظه .

على أن سلوك الدون كارلوس على شذوذه وخروجه لم يحرمه من عطف عمـه مكسمليان الثانى أمبراطور ألمـانيا، وخالته الأمبراطورة مارى، فقد عرفاه وتعهداه طفلا قبل أن تتفتح فيه غرائز الشر، واعتزما أن يزوّجاه ابنتهما حنة أميرة النمسا . وكان الدون كارلوس يعرف هذه الأميرة لأنها ولدت ونشأت الى جانبه فى اسبانيا، ووافق فيليب الثانى على هذا الزواج، ولكنه تمهل فى تنفيذه حتى يرى ما ذا يكون من أمر ولده ؛ ولكن الدون كارلوس ما كاد يعـلم بذلك حتى جاش برغبـة عنيفة فى الاقتران سريعا بابنـة عمه ، واعتزم أن يسافر سرا الى ألمـانيا لتحقيق أمنيتـه مؤملا أن يحمل وجوده فى ڤينا عمه الأمبراطور على إزالة كل عقبة . ويقال إنه اتصـل عندئذ بزعمـاء الفلاندر وهم وليم أمير أورانج وإجمونت وهـورن وبرج ومونتينى . وكانت الفلاندر تضطرم يومئذ بالثورة، فجاء برج ومونتينى الى مدريد رسـولين عن الفلاندر ليفاوضا فيليب الثـانى فى تسوية المشاكل القائمة ، ولما علما أن الدون كارلوس يعنى بمشروعه المتقـدّم تقربا إليه وعرضا عليه المساعدة ، ووعداه أن ينـاديا به ملكا للأراضى السفلى (الفلاندر) بعد أن ينزعا الحكومة المدنية من يد حاكمتها الأميرة مرجريت والحكومة العسكرية من يد الدوق آلفـا . ولكن هذا التحالف لم يطل أمده. إذ قبض على زعماء الفـلاندر لتهمة أخرى هى التآمر فى الأراضى السـفلى على قلب الحكومة الأسبانيـة، فأعدم اجمونت ودورن، وفر أمير أورانج، وسجن كل من برج ومونتينى فى قلعة منفردة[1] .

---

(١) كانت الأراضى السـفلى أو هولندة والبلجيك فى ذلك العصر من أملاك آل هبسـبرج ، ورث ملكها الأمبراطور شارلكان (شارل الخامس) فيما ورث . وكانت يومئـذ تتكوّن من عدّة ولايات تختلف فى النظم والأحوال والتقاليـد . وكان شارل الخامس يرمى الى أن يتمم فيها نوعا من الحكومة المركزية المؤتلفة ولكنه لم يوفق الى تحقيق هذه الغاية لأنه كان يخشى الافتئات على امتيازات الولايات المختلفـة ؛ وفى أواخر أيامه اتبع فيها سياسة الاضطهاد الدينى وأصدر قانونا لقمع الاصـلاح الدينى البروتستانتية الذى كانت ريحه تهب يومئذ قوية على الأراضى السفلى وأنشأ هنالك ديوانا للتحقيق لمطاردة الزيغ والكفرة. =

أما الدون كارلوس فاستمر فى سعيه للحصول على المال اللازم لتنفيذ مشروعه ، وسلك فى ذلك خطة طائشة أفضت الى فضح مشروعه ، ومن ثم الى نكبته . ذلك أنه كتب الى معظم كبراء اسبانيا يستمد معونتهم فى مشروع يسعى الى تحقيقه ، فأجاب كثيرون بالتأييد ولكن معظمهم كان يشترط ألا يكون المشروع موجها ضد أبيه الملك ، على أن واحدا منهم هو أميرال قشتالة رابه صمت الأمير وخشى أن يكون المشروع جنائيا فأبلغ الملك بالأمر ، وكان الدون كارلوس قد أفضى فى نفس الوقت الى عمه الدون چوان بكل شىء ، فنقله الدون چوان فى الحال الى فيليب الثانى ، وكان حليف الدون كارلوس فى مشروعه وساعده الأيمن فى تنفيذه ، وصيفه الفاريز أوزوريو فسافر مرارا الى بلد الوليد و برغش وأشبيلية وغيرها ليسعى فى جمع مايحتاج اليه الدون كارلوس من المال .

وسرعان ماتطور هذا المشروع — مشروع السفر الى ألمانيا — تطورا غريبا ، واستحال الى وجهة خطرة ، وجاشت مخيلة الدون كارلوس المضطرمة باحدى هذه النزعات الجنائية الفجائية . ولم تكن هذه النزعة سوى اعتزام الدون كارلوس أن يقتل والده فيضع باعدامه حدا لما يعتقد أنه عسف منه بحياته واسترقاق لحرياته . والمرجح أن هذه الفكرة ولدت فى ذهنه قبيل يوم الميلاد من سنة ١٥٦٧ ؛ والغريب

= فلما انتقل ملك الأراضى السفلى ، الى ولده فيليب الثانى فى سنة ١٥٥٥ اتبع فى حكمها سياسة الشدة والعسف ، ونشط الى تحطيم نفوذ أشرافها وزعمائها وعين لحكمها أخته الأميرة مرجريت دوقة بارما ، وحاول تغيير نظمها الكنسية ، فسرى إليها الهياج بسرعة ونهض الأشراف لقيادة الثورة والدفاع عن حقوقهم ونفوذهم بزعامة ثلاثة من أكابر البلاد ، هم وليم أمير أورانج ، والكونت اجمونت ، والأميرال هورن ، ولكن فيليب الثانى لم يجب إلا بمضاعفة الشدة والمطاردة الدينية . فلما تفاقم الاضطراب رأى زعماء الأشراف حسم الخلاف بالتفاهم والمفاوضة فأوفدوا من أكابرهم الكونت اجمونت والمركيز دى برج والبارون دى مونتينى الى مدريد لمفاوضة فيليب الثانى واقناعه بسوء العواقب اذا استمرت سياسة العسف والشدة . ولكن حبط كل سعى الى الوفاق ، واعتزم فيليب الثانى قمع الثورة بالقوة ، وحاكم قائده الدوق ألفا جماعة من الزعماء بتهمة التآمر كما تقدم وأمعنت القوات الأسبانية فى البلاد عيثا وسفكا . واستمرت الحرب والثورة فى الأراضى السفلى أعواما طويلة حتى استقلت الولايات الشمالية أخيرا واحتفظت اسبانيا حينا بملكية الولايات الجنوبية ، ومن ثم كانت أهمية الشبهة التى قامت حول اتصال الدون كارلوس بزعماء الفلاندر وتآمره معهم ، وهى شبهة لم تقم عليها أدلة قوية .



الدون كارلوس

فى الأمر أن ذلك الأمير الطائش الذى اعتقد أنه ينزع الى العلياء ويسمو الى أفق الحكم والرياسة بارتكاب هذه الجريمة، لم يستطع أن يكون كتوما لمشروعه الهائل ولا أن يسير فى تنفيذه بحذر عادى ، بل كان طائشا أو كان بالحرى مجنونا . وكان فيليب الثانى يقيم وقتئذ فى « الاسكوريال » والأسرة الملكية فى مدريد . وكان من المقرر أن « تعترف » الأسرة الملكية كلها يوم ٢٨ ديسمبر طبقا لرسوم البلاط .

ولكن الدون كارلوس اعترف يوم ٢٧ ديسمبر لقسيسه ، ثم صرح فى نفس اليوم لبعض أخصائه أن قسيسه أبى أن يمنحه الغفران لأنه اعترف له بأنه ينوى قتل رجل ذى صفة سامية وأبى أن يعده بالعدول عن عزمه . ثم أرسل فى طلب أحبار آخرين فرفضوا مارفض الأول، عندئذ طلب الى چوان دى توبار وهو الحبر الذى ستعترف له الأسرة الملكية فى اليوم التالى أن يقدّم اليه «كسرة» غير مباركة ، لكى يستطيع الاقتراب من المائدة المقدّسة كباقى أفراد الأسرة، فأدرك الحبر عندئذ أن عقل الأمير به مس ، وحاول أن يعرف منه اسم الشخص الذى يعتزم قتله لكى لا يأبى عليه الغفران ولا يرغمه على التعهد بالعدول عن عزمه . فسقط الأمير المنكود فى الشرك ، واعترف بأنه ينوى قتل أبيه ،ثم أفضى بعدئذ بعزمه الى عمه الدون چوان الذى كان يثق به ثقة عمياء .

وكان الفاريز أوزوريو قد جمع فى ذلك الحين من أشبيلية مبلغا وافرا من المال فرأى الدون كارلوس أن الساعة أذنت بالتنفيذ واعتزم السفر فى منتصف يناير سنة ١٥٦٨ ، وأفضى بذلك الى عمه الدون چوان وطلب اليه أن يرافقه طبقا لوعده ولم يحسب حسابا لافشائه السر، إذ كان يعده بوعود ضخمة . وكان الدون چوان من جانبه يجيبه إنه مستعدّ لكل شيء ، ولكنه يخشى ألا يمكن تنفيذ الرحلة لما يقترن بها من مخاطر . على أن الدون چوان كان يقف الملك على كل شيء فى حينه . وكان فيليب الثانى ما يزال مقيما فى الاسكوريال ، فاستشار جماعة من علماء الدين والمشترعين فى أمر ولده وهل يجب أن يتظاهر بالجهل حتى يمكن ولده بذلك من تنفيذ مشروعه فكان الرأى الغالب أن يحول الملك دون تحقيق المشروع اتقاء لوقوع الحرب الأهلية .

وفى ذلك الحين كان الدون كارلوس قد اعتزم أمره نهائيا وأرسل فى يوم ١٧ يناير سنة ١٥٦٨ أمره الى مدير البريد بأن يعدّ له ثمانية جياد فى مساء اليوم التالى ، فارتاب فى الأمر وكان قد نما اليه طرف من الاشاعات التى كانت تدور حول الأمير فى مدريد، وأجاب الأمير بأن كل الجياد قد شغلت،وذهب من فوره

فأخطر الملك بما حدث، وغادر فيليب الثانى الاسكوريال الى « باردو » وهو قصر يبعد مرحلتين عن مدريد، وهناك لقيه الدون جوان . ولم يعلم الدون كارلوس بشىء من ذلك، بل ذهب للقاء عمه فى « تامار » بين مدريد وباردو، وأطلعه على ما تم، فأكد له الدون جوان إنه على أهبة السفر معه، ولكنه ما كاد يغادره حتى ذهب فأخطر الملك بما وقع . وعندئذ أسرع فيليب الثانى الى مدريد فوصلها عقب وصول الدون كارلوس ببضع دقائق .

٣

ولما علم الدون كارلوس بمقدم الملك اضطرب وعدل عن طلب الجياد تلك الليلة . وفى صباح اليوم التالى، الأحد ١٨ يناير، ذهب الملك لحضور القداس، وحضر معه الدون جوان والدون كارلوس. وعطف الأمير على عمه يسأله عن سبب قدوم الملك . والظاهر أن أجوبة الدون جوان لم تكن مرضية لأن الدون كارلوس هجم على عمه فجأة واضطر الدون جوان أن يجرد سيفه للدفاع عن نفسه، وهرول الحضور فوضعوا حدا لمنظر كاد يتحول الى مأساة. وعندئذ رأى الملك أنه لايستطيع أن يؤجل البت فى أمر ولده بعد، فاستشار جماعة من أعضاء مجلسه الخاص فقرّ الرأى على اعتقال الدون كارلوس، وقبض عليه فعلا فى مساء ذلك اليوم، وضبطت أسلحته وأوراقه ونقوده . وقد وصف هذا المنظر وما تلاه موظف من بطانة الدون جوان شهد بعينيه تفاصيل القبض على الأمير ودوّنها فى وثيقة تاريخية هامة ورد فيها :

فى الساعة الحادية عشرة من المساء رأيت الملك يجوز السلم ومعه الدوق دى فيريا، وكبير الأحبار، وقائد الحرس، واثنا عشر من جند الحرس . وكان الملك مسلحا فوق ثيابه، يضع فوق رأسه خوذة، فسار نحو الباب الذى كنت أقف به وأمرنى بإغلاقه وألا أفتحه لكائن . ودخل الجميع غرفة الأمير (الدون كارلوس) فصاح : من هذا ؟ فاقترب الضباط من فراشه، وأخذوا سيفه وخنجره، وضبط الدوق

دى فيريا أيضا بندقية محشوة، فصاح الأمير وأبرق وأنذر، فأجيب بأن مجلس الدولة موجود لديه، فحاول أن ينتزع أسلحته وأن يشهرها، ووثب من فراشه . وعندئذ دخل الملك ، فقال له ولده : ما ذا تريد بى يا صاحب الجلالة ؟ فأجابه الملك سوف ترى . ثم أغلقت الأبواب والنوافذ، وقال الملك لولده أن يبقى هادئا فى تلك الغرفة حتى يصدر أوامره بشأنه . ثم نادى الدوق دى فيريا وقال له : إنى أعهد اليك بشخص الأمير لكى تعنى به وتحرسه، ثم قال لجماعة من السادة هم كويجادا ، والكونت ليرما، والدوق مندوزا : إنى أعهد اليكم بخدمة الأمير وارضائه ؛ ولكن لا تفعلوا شيئا مما يأمركم به قبل اخطارى . وانى آمر كل انسان أن يسهر على حراسته بإخلاص وإلا كان خائنا . وعندئذ علا صياح الأمير وأخذ يقول : خير لجلالتك أن تقتلنى من أن تسجننى ، فذا عار كبير للمملكة، فاذا لم تقتلنى قتلت أنا نفسى، فأجابه الملك أن يحذر ارتكاب هذا الأمر إذ لا يقدم على ارتكابه إلا المجانين . فقال الأمير : انك يا ذا الجلالة تبالغ فى إساءتى حتى لترغمنى أن أغدو مجنونا بل بائسا . واستمر الجدل بينهما على هذا النحو حينا .

ثم انصرف الملك ، وتسلم الدوق كل مفاتيح الجناح، وصرف كل خدم الأمير وحشمه، ورتب فى غرفة الاستقبال اثنى عشر حارسا وضابطهم . ثم جاء الى الباب الذى كنت أقف به، ورتب هنالك ثمانية حراس، وأمرنى بالانصراف. ثم جمعت بعد ذلك مفاتيح أدراج الأمير وخزائنه وأرسلت الى الملك، ورفعت أسرة الحشم ؛ وسهر الدوق دى فيريا والكونت دى ليرما والدون رودريجو تلك الليلة الى جانب الأمير . أما فى الليالى التالية فكان يسهر الى جانبه أمينان، كل ست ساعات . وكان يتناوب هذه الحراسة سبعة من السادة لايحملون السلاح . وكان يحظر علينا أن نقترب من الأمير ليلا أو نهارا، ولا يسمح بادخال سكين قط إذ كان اللحم يؤتى به مقطعا .

وفى يوم الاثنين ١٩ يناير استدعى الملك الى جناحه كل المجالس ورؤساءها ، وتلا على كل مجلس بمفرده تقريرا عن القبض على الدون كارلوس ، وقال انه وقع لأسباب تتعلق بشعائر الله ومصالح المملكة . وقد أكد لى شهود عيان

أن الملك كان يبكى عنـد تلاوة هذا النبأ . وفى يوم الثلاثاء جمع جلالتـه فى جناحه أعضاء مجلس الدولة فلبثوا يتداولون من الساعة الأولى حتى الساعة التاسعة . ولسنا نعلم ماذا بحثوا فى اجتماعهم . ثم بدأ الملك التحقيق، وكان هو يوس سكرتير اللجنة، وكان الملك يسمع أقوال كل الشهود .

وكانت الملكة والأميرة تذرفان الدمع ، وكان الدون جوان يذهب الى القصر كل مساء وهو يرتدى السواد، فلامه الملك على ذلك وطلب اليـه أن يخلع السواد ويرتدى ثيابه العادية » .

ورأى فيليب الثانى أن مثل هـذا الحادث لا يمكن أن يبقى بعـد سرا ، وأنه لا بدّ أن يثـير فضول الشعب ويطلق الألسن بمختلف الأقاويل سواء فى اسـبانيا أو فى قصور الدول الأخرى، فاعتزم أن يبلغه الى كل الجهات الكبرى وأن يصوغه فى ثوب رزء اليم نزل بقصره وشعبه .

٤

وكان اعتقال الدون كارلوس حادثا فريدا فى سيرة البلاط الاسبانى . ولم يكن سرا خفيا وقـد شهده جمع من الأمراء والسادة والجند، كذلك لم يكن آخر خطوة رأى فيلب الثانى أن يتخذها فى حق ولده العاق المتآمر . بل كانت مقدّمة لقصاص هائل ، رأى ذلك الملك الجبـار أن ينزله بذلك الذى جال بخاطره أن يأتمر بعرشه وحياته . لذلك رأى فيليب الثانى أن يسبغ على الحادث ثوب العلانية الرسمية، وأن يبلغه الى كبار الأحبار ومحاكم العرش العليا ، وحكام المقاطعات ، والمجالس المحلية، والى البابا وأمبراطور ألمـانيا، والى عدّة ملوك وأمراء أخر . وممـا يقول فى خطابه الذى كتبه الى البابا، إنه رغم الألم الذى يعانيه، يعزيه أنه لم يذخر وسعا فى تهذيب ولده وتقويم أخلاقه؛ وإنه لم يستطع صونا لشعائر الله وخير الأمة أن يصبر بعد على سوء مسلكه . ويقول فى خطابه الى عمته الملكة كاترين إنه يفضى اليها بكل الألم الذى يمزق قلبـه الوالدى، وانه أخطرها من قبل بعدّة حوادث كانت تنـذر بسوء

المصير ، وانه لن ينزل بولده عقابا آخر، غير أنه يعتزم أن يضع حدا لطيشه . ثم يقول فى خطابه الى المدن ، إنه لو كان أبا فقط لما اتخذ مثل هذا القرار ، ولكن صفة الملك لم تترك له خيارا ، وان هذا التصرف وحده كفيل بصون الدولة مما كانت تحمله اليها رأفته من المصائب .

فكتب البابا پيوس الخامس وغيره من الكبراء الذين كاتبهم فيليب الثانى اليه بأن يغلب الرحمة على الشدّة ، وأن يغفر لولده ذنبه . وكان أكثرهم رجاء والحاحا مكسمليان الثانى الذى تقرر أن يتزوج الدون كارلوس ابنته كما تقدم، فأنه لم يكتف بالكتابة بل أوفد ولده الارشيدوق شارل الى مدريد ليستعطف فيليب الثانى . ولكن فيليب أصر على عزمه كل الاصرار، وكشف عن نيته أيضا فى إطالة اعتقال ولده فى لائحة أصدرها فى ٢ مارس لتنظيم هذا الاعتقال، وعهد بتنفيذها الى البرنس إيقولى . وهذه خلاصتها :

«ان البرنس ايقولى هو رئيس عام لكل الأشخاص الذين يقومون بخدمة الأمير وحراسته وإطعامه، والعناية بصحته، وتنفيذ كل مطالبه . وعليه أن يتحقق من اغلاق باب غرفة الأمير بالمزلاج، لا بالمفتاح، ليل نهار، ولا يسمح لسموه بالخروج قط . ولا يسمح لأحد غير الطبيب والحلاق والحارس أن يدخل غرفة الأمير دون اذن من الملك . وعلى الكونت دى ليرما أن يبيت فى غرفة الأمير ذاتها، فاذا لم يستطع فعلى أحد زملائه أن يقوم بذلك . وعلى أحدهم أن يسهر الليل، وعليهم أن ينظموا ذلك بالتناوب بينهم . وعليهم أن يمضوا طول النهار بالقرب من الأمير وأن يجتهدوا فى مواساته مالم يحل دون ذلك عمل من الأعمال . وللسادة أن يتحدثوا فى كل الموضوعات إلا ما تعلق بمسألة الأمير وكذلك بشئون الحكومة، وعليهم أن يأتمروا بأوامره فى كل مايتعلق براحته، ولكن يحظر عليهم أن يحملوا منه رسالة لأحد فى الخارج، أو من أحد فى الخارج اليه . فاذا تعرض الدون كارلوس فى حديثه الى مسألة اعتقاله فان عليهم أن يمتنعوا عن الرد عليه وأن يخطروا البرنس ايقولى بذلك . وعليهم ألا يذيعوا شيئا مما يحدث أو يقال . فاذا علم أحدهم بأن حديثا جرى فى ذلك الشأن

فى المدينة أو فى أحد المنازل فعليه أن يقدّم عنه تقريرا الى الملك. ويلى ذلك طريقة تقايم الطعام الى الأمير ، وتوزيع الحراس على الأماكن... الخ» .

وهكذا لبث الدون كارلوس يرسف فى سجنه . وكان نظام الاعتقال يطبق بمنتهى الدقة والصرامة حتى أن الملكة والدونا چوانا أخت الأمير لما أرادتا زيارته لمواساته أبا عليهما الملك ذلك . وكان فيليب الثانى يرتاب فى كل انسان ويعيش من أجل ذلك فى نوع من الأسر ، ويلزم جناحه دائما ، ولا يستطيع أن يسمع صوتا أو حركة دون أن يطل من نافذته ليتحقق الأمر . وكان جم النشاط يعنى بتفاصيل الأمور بنفسه . وكان يرتاب بالأخص فى الفلمنديين ويخشى كل حركاتهم وسكناتهم ولا سيما منذ اتصال ولده بهم واعتماده على مؤازرتهم . ولما كان الدون كارلوس بطبيعته نزقا فارغ الصبر فقد أثارت هذه الشدّة كوا من غضبه وبوادر عنفه فاضرب عن شهود القداس . وكان استاذه أوقف أوسمة قد توفى ، فأمر الملك قسيسة الدكتور سواريز دى توليدو أن يزوره ليسدى اليه النصح والهداية فلم يجد سعيه . ثم حل اليأس مكان الغضب فلم يعن الدون كارلوس بطعامه أو نومه ، وأصابته الحمى واعتراه الهزال حتى خيف على حياته .

٥

وقد رأينا مما تقدّم أن فيليب الثانى انتدب لجنة لتحقيق جريمة الدون كارلوس ، ألفت من الكردينال اسبينوزا المحقق العام لديوان التحقيق والبرنس إيثولى كبير أمناء الملك والدون موجناتونس مستشار قشتاله . وكان رئيسها الملك ذاته ، وأمينها الدون هويوس . وأمر فيليب الثانى أن تحمل الى اللجنة من المحفوظات الملكية الوثائق الخاصة بمحاكمة چوان الثانى ملك اراجون لولده شارل الذى كان أيضا وليا لعهده ، وذلك لكى يسبغ على محاكمة الدون كارلوس صفة الاعتداء على الذات الملكية .

واستمر التحقيق بضعة أشهر حتى يوليه سنة ١٥٦٥ . وألفى المحقق الدون موجناتونس أن ما كشف عنه التحقيق يكفى لاصدار حكم جزئى دون سماع

المتهم، وعلى ذلك استغنى عن اعلان الدون كارلوس، واكتفى بأقوال الشهود والرسائل وغيرها من الوثائق . وكانت النتيجة رائعة إذ رأت اللجنة أنه يجب طبقا لما تبين أن يصدر حكم الاعدام على الدون كارلوس إذ ثبتت ادانته فى تهمة الاعتداء على الذات الملكية؛ أولا لأنه وضع مشروعا لاغتيال أبيه، وثانيا لأنه حاول أن ينتزع لنفسه سيادة الفلاندر . وقدّم موجناتونس تقريرا الى الملك بما تقدّم غير أنه صرح فيه أن جلالته يستطيع فى مثل ظروف هذه القضية الخاصة ولصفة المتهم الخاصة، أن يعدل عن تطبيق القوانين العامة وأن يعلن أنها لا تطبق على الذين يخضعون لقوانين أخرى أسمى وأرفع، تستند الى السياسة والى ظروف الدولة والى خير الشعب . وكان الكردينال اسبينوزا والبرنس ايفولى من رأى المستشار موجناتونس . ولكن فيليب الثانى قال ان قلبه يملى عليه أن يتبع رأى مستشاريه ولكن ضميره يأبى عليه اتباعه وانه يعتقد أنه لن ينتج منه خير لاسبانيا بل يترتب عليه بالعكس أعظم نكبة للبلاد وهى أنها تحكم من أمير جرد من كل علم وكفاية، ورأى وفضيلة، وفاضت نفسه رذيلة وشهوة وعنفا؛ وان كل هذه الاعتبارات تحمله رغم حبه لولده وما تمزق هذه التضحية الهائلة من فؤاده، أن يترك الأمر للقانون والشريعة العامة؛ ولكنه يرى مع ذلك رأفة بولده العليل أن يخفف وطأة اعتقاله فيرخص له بتناول ما يشتهى من مأكل ومشرب؛ وان كل ما يشغله هو أن يقنع ولده بالاعتراف قبل موته تحقيقا لسلام روحه . ومعنى ذلك أن فيليب الثانى قد حكم على ولده بالموت أو بالحرى قد أقر حكم اللجنة عليه بذلك . غير أنه لا يوجد فى أوراق القضية أثر لذلك الحكم اللهم الا حاشية صغيرة لهوبوس يقول فيها : «انه حدث أثناء هذه المناقشة ان مات الأمير من مرضه فلم يصدر لذلك حكم ما» على أن هذا الحكم الذى لم تسجله الوثائق الرسمية قد ورد فى كثير من مذكرات هذه العصر وتواريخه.[1]

---

(١) هنالك رواية تقول بتدخل ديوان التحقيق فى تلك القضية، وانه هو الذى حققها وأصدر الحكم فيها . ولكنها لا تستند الى دليل ما، فان اللجنة الملكية التى أشرنا اليها هى التى قامت بالتحقيق . أما اشتراك المحقق العام للديوان فى أعمال اللجنة فلم يكن بصفته العامة وانما كان بطريق الانتداب الخاص .

ولما رأى الكردينال والبرنس ايفولى ان الملك مصر على رأيه فى الحكم على ولده بالموت أدركا ما وراء ذلك مما تضمره لغة القصور الغادرة : أدركا أن التنفيذ واجب، ولكن لا بالأساليب العامة . فاستدعى البرنس ايفولى طبيب البلاط الدكتور اوليفاريس وخاطبه فى الأمر بتلك اللهجة الخفية التى لا يفهمها الا من تفقه فى سياسة القصور، فأدرك الدكتور أوليفاريس فى الحال انه يطلب اليه تنفيذ حكم بالموت أصدره الملك، وأن يجرى هذا التنفيذ بحيث يبقى شرف الأمير سليما مصونا، وان يشبه الموت الطبيعى الذى يعقب مرض الموت . وأشار الى البرنس ايفولى أنه أدرك غايته وأنه يعتبرها أمرا من الملك عهد اليه بتنفيذه .

٦

وفى ٢٠ يوليه سنة ١٥٦٨ أمر الدكتور أوليفاريس بدواء تناوله الدون كارلوس . ويشير المؤرخ كابريرا الذى كان موظفا فى القصر يومئذ الى هذا الدواء فى كتابه «تاريخ فيليب الثانى» بما يأتى : «لم يعقب هذا الدواء خير، ولاح أن المرض مميت . ولكن الطبيب أعلن الى العليل أنه يحسن به أن يموت نصرانيا صادقا وأن يتقبل التقديس» ، ويقول فاندرهارمن فى تاريخه «فيليب الحازم» : «إن هذا الدواء أعقبته أعراض مميتة ، وإن فيليب الثانى مذ نما اليه مشروع ولده فى السفر الى الفلاندر تفرغ الى احباط هذا المشروع وانقاذ ملكه بكل الوسائل» وهذا ما تؤيده كل مذكرات العصر ووثائقه السرية . ومما يجدر ذكره أيضا ان أمير أورانج زعيم الفلاندر اتهم فيليب الثانى فى منشوره بقتل ولده، وهو دليل على أن سر مقتل الدون كارلوس لم يطل كتمانه بل ذاع فى قصور العصر منذ وقوعه .

أخطر أوليفاريس الدون كارلوس بأن داءه عضال، وان موته قريب محقق، فطلب الأمير أن يؤتى اليه بكاهنه المعتاد، فنفذ أمره وجاء الحبر الى الأمير فى ٢١ يوليه فعهد اليه أن يطلب باسمه الصفح الى والده، فأرسل اليه الملك يجيب انه يصفح عنه من صميم فؤاده ويباركه . وتقبل الأمير شعائر التقديس فى نفس اليوم .

ثم املى وصيته على أمينه . وفى اليوم التالى دخل الدون كارلوس فى دور النزع، فاقترح الوزراء على الملك أن يرى ولده، وأن يباركه بنفسه تعزية له وتخفيفا لمصابه، فتردد فيليب الثانى بادىء بدء، ولكنه لما علم ان ولده يحتضر فى ليلة الرابع والعشرين ذهب الى جناحه، ومد اليه ذراعيه من فوق كتفى البرنس ايثولى وباركه خفية؛ وما كاد ينصرف حتى أسلم الأمير الروح .

وهكذا حوكم الدون كارلوس وحكم عليه طبقا لرسوم خاصة . ولم ينقذه مولده ومركزه من براثن موت قضت به سياسة ملك قاهر، بل كانا بالعكس وبالا عليه وسببا فى حرمانه مما يتمتع به أقل متهم عادى، فقد حكم عليه دون أن تسمع أقواله ودفاعه دون أن يواجه شهوده ومتهميه، وكان خصومه هم قضاته .

يقول المؤرخ پرسكوت : « وهكذا ذهب الدون كارلوس ، أمير أستورياس ، فى زهرة العمر، دون الثالثة والعشرين . ولم ينشأ فى عصره قرينه فى طوالعه الحسان، فقد كان وارثا لأعظم مملكة فى النصرانية . ولكن طالعا سيئا ظلل مولده، وغلب على كل هبات سعده ، فاستحالت الى لعنة . وكان خلقه الوحشى الصارم تذكيه الأوصاب ، فلما استثير من ذلك الذى كان مصيره بيده ، استحال الى نوع من الجنون هو مرجع كل حماقاته؛ وهو الذى يمكن أن يبرر اتخاذ أبيه بعض اجراءات لدرئه . ولكن هل يستطيع أولئك الذين يبرئون الوالد من تهمة القتل، أن يبرؤوه مما أنزله بولده من رائع القسوة، سواء فيما اتخذ من الاجراءات أو فيما ترتب عليها من مسئولية فادحة ... ومهما نظرنا من أى النواحى الى موت الدون كارلوس ، وسواء كان موته اغتيالا ، أو كان نتيجة للأعمال الجنونية التى ارتكبها وقت اعتقاله — ففى أى الحالتين يجب أن نحمل فيليب الثانى مسئولية موته الى حد كبير — لأنه اذا لم يكن قد لجأ مباشرة الى يد القاتل لإزهاق ولده، فقد دفعه بقسوته الى نوع من اليأس، ثم الى نفس الخاتمة المؤسية » .

* * *

تنفس فيليب الثانى الصعداء لموت ولده ووريثه الأوحد، وأمر بأن يدفن بما يليق بمركزه من فخامة وتكريم . وحزنت اسبانيا أشد حزن على فقد ولى عهدها الوحيد، واتجهت الآمال الى عقب الملكة اليزابيت ولكن اليزابيت لم تعش طويلا بعد وفاة الدون كارلوس اذ توفيت فى اكتوبر من هذه السنة . وكان هذا الموت الفجائى مثارا للظنون والريب ؛ فاذاع خصوم فيليب الثانى انه قتل زوجه بالسم كما قتل ولده[1] ، ورتبت على تلك المصادفة تلك المأساة الغرامية التى ناقشناها فى بدء هذه السيرة ، والتى ملأت أسفار الرواة والقصصيين . بيد ان هنالك رأيا آخر يفسر به بعض المؤرخين قسوة فيليب الثانى، وهو أن الدون كارلوس كان يميل خفية الى البروتستانتية ويزمع السفر الى الفلاندر ليعلن ارتداده هنالك . وفى روح العصر، وما أثر عن فيليب الثانى من عميق تعصبه للكثلكة، وخضوعه لديوان التحقيق الاسبانى، ما يلقى على هذا التفسير طرفا من التأييد والضياء[2] .

مراجع هذا الفصل

PRESCOTT: History of Philip II of Spain.

BRANTÔME: Vies des Dames Illustres.

LLORENTE: Histoire Critique de L'Inquisition d'Espagne.

MARTIN HUME: Philip II of Spain.

R. LODGE: Modern Europe.

---

(١) يشير برانتوم الى ذلك بقوله عن موت الملكة اليزابيت : « لقد تحدثوا عن موتها أحاديث مزعجة لأنه وقع قبل الأوان » .

(٢) يعلق پرسكوت على ذلك بما يأتى : « واذا قيل أن هنالك كبير فرق بين أعمال العنف وبين مقتل الابن ، فيجب أن نذكر أن فيليب الثانى ، كان فى مسائل الدين يرى أن الغاية تبرر الواسطة ، وأن الزيغ فى الدين كان إحدى الجرائم التى نسبت الى الدون كارلوس» .

الفصل الثالث

محاكمة مارى استوارت ملكة اسكتلنده

سنة ١٥٨٧

شهد التاريخ الانجليزى فى فترة قصيرة ، دم الملوكية الرسمية يراق ثلاث مرات ففى نحو قرن فقط تعاقبت على النطع رؤوس اللايدى چان جراى ، ومارى استوارت ، وتشارلس الأول ؛ غير أنه اذا كانت اللايدى چان ، قد ذهبت كما رأينا ، ضحية خصومة حقيقة على الملك ، واذا كان تشارلس الأول قد كفر بدم الملوكية عما أثم فى حقوق الشعب وحرياته ، فان مارى استوارت تذهب ضحية لاطماع ومشاريع لم تجز طور الاحتمال أو التدبير . كذلك اذا كان النضال السياسى هو الأثر البارز فى مصرع اللايدى چان ، فان الخصومة الجنسية والعواطف الشخصية أشد ظهورا وأعمق أثرا فى مصرع مارى استوارت من النضال السياسى .

كانت مارى استوارت إحدى هذه الشخصيات النسوية التى تملأ دا حولها سحرا وفتنة ونقمة ، واحدى أولئك الملكات ، اللائى ، مثل كليو باترة وشجرة الدر ، يذكر التاريخ بذكرهن كل ما كانت تضطرم به القصور الغابرة من مكائد ودسائس ، وما كان يسودها من سلطان الجمال والهوى ، ويوجه مصائرها من بواعث العطف والنقمة ، أو الهيام والحسرات التى تنعم بها نفوس وتتفطر أخرى .

وسنقص فى هذا الفصل سيرة هذه الملكة ، الخلابة ، التى تستقبل فى المهد حياة الملك والمجد ، ثم يعبس لها الجد منذ الحداثة فتذوى شمائلها وخلالها الباهرة ، أبان ازدهارها ، وتحملها يد القدر من العرش الى ذلة أسر طويل مرهق ، ثم الى موت مروع مؤثر تريق الملوكية فيه دم عضو من أسرتها .

* * *

هى ابنــة چيمس الخامس ملك اسكتلنده من زوجته الثانية مارى دى جيز، ولدت فى ديسمبر ســنة ١٥٤٢ فى لنلثجون وتوفى أبوها قبــل أن تبلغ يومها السابع فأعلنت فى المهد ملكة لاسكتلنده، وعقدت خطبتها وهى فى الخامسة على ولى عهد فرنسا، ابن الملك هنرى الثانى، ثم حملت على أثر ذلك الى البلاط الفرنسى حيث عنيت بتربيتها جدّتهــا الدوقة دى جيز، وتولى تعليمها وتهذيبها جمــاعة من أعلام العصر منهــم الشاعر الكبير رونسار، وسرعان ما تفتحت مواهبها وظهرت آيات من ذكائها وحدة ذهنها، إذ ما كادت تبلغ الثالثــة عشرة حتى كانت أديبــة بارعة تنظم الشــعر، وتجيد عدّة لغات منهــا اللاتينية، وتجيد الموسيقى والغناء والرقص، وما كادت تبلغ الخامســة عشرة حتى أزهر جمالهــا الرائع وغدت شمائلها الباهرة وظرفها الجم فتنة لكل عين، وفى وصفها يقول الشاعر رونسار "ان الطبيعة لم تبدع مخلوقا أجمل منها" ويقول برانتوم، مؤرخ ملكات العصر وأميراته : "كان جمالها يسطع بكل ضوئه، ويمحو ضوء الشمس اذا غاب . وكان لها مثل هــذا البهاء فى رشاقة القد، وفى خلال الروح" .

وفى أبريل ســنة ١٥٥٨ احتفل بزواج مارى اســتوارت وولى عهــد فرنسا وكلاهما فى الخامسة عشرة من عمره . وكان الزواج حادثا سياســيا، لأن المعاهدة التى عقــدت بالزواج كانت تقضى بأن يؤول عرش اسكتلنده الى ملك فرنســا اذا توفيت مارى بلا عقب، وكذلك حقها فى وراثة عرش انجلترا . وفى يوليه سنة ١٥٥٩ توفى هنرى الثانى، فارتقى فرنسوا الثانى ومارى استوارت عرش فرنسا .

ويقول لنا برانتوم، إن الزواج كان سعيدا يسوده الحب والوئام . ولكن أمد هذه السعادة لم يطل، وكان فرانسوا الثانى ضعيفا ضئيلا شاحبا، تغلب عليه الكآبة والسقم، فلم يلبث أن توفى فى ٦ ديسمبر ســنة ١٥٦٠، وغدت مارى أرملا دون الثامنة عشرة لعام ونصف فقط من ارتقائها عرش فرنسا .

ورأت مارى استوارت أن ذلك المصاب الفادح يضع حدا لاقامتها فى فرنسا ويقضى عليها بالعودة الى وطنها اسكتلنده، لتتبوأ هنالك عرش أبيها . فركبت البحر من كاليه فى ١٤ أغسطس سنة ١٥٦١ فى حاشية كبيرة من سادة البلاط الفرنسى ومنهم برانتوم . ويقدم لنا برانتوم وصفا مؤثرا لهذه الرحلة ويقول إن مارى استوارت غادرت فرنسا مرغمة ، "وكانت تخشى ذلك الرحيل كأنما تخشى الموت ، وتفضل مائة مرة أن تبقى فى فرنسا أميرة بسيطة على أن تذهب لتحكم فى وطنها المتوحش" .

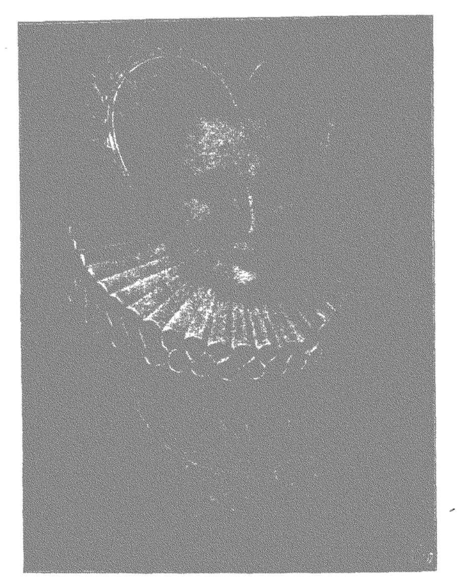
٢

كانت آثار الثورة التى شهرها لوتر على الكنيسة الكاثوليكية تتغلغل يومئذ فى سياسة الأمم الأوربية، وكانت انجلترا واسكتلندة تجوزان كغيرهما طور النضال الدينى الذى هو ظاهرة النزاع الأوربى فى أواخر القرن السادس عشر . وبينما كانت البروتستانتية (أو الاصلاح الدينى) قد سادت فى انجلترا ، وتبوأت مقامها الرسمى فى الملوكية والحكم، اذا بها تتقدم فى اسكتلندة بسرعة، ولكن دون أن تظفر بالسلطان . وكانت مارى استوارت كاثوليكية مخلصة، بل متعصبة . وكانت فى نظر اسبانيا وفرنسا، وهما معقل الكثلكة يومئذ، أداة صالحة لتحطيم انجلترا عدوتهما المشتركة . وكان الكاثوليك الانجليز أنفسهم يتجهون بأبصارهم اليها ولا يرون بأسا من محالفتها والعمل معها على مناوأة ملكتهم اليزابيث .

وكانت الخصومة قديمة فى الواقع بين الأميرتين فان مارى استوارت ادعت عرش انجلترا عند وفاة ملكتها مارى تيودور، وتجاهلت وجود أختها غير الشرعية اليزابيث، وتلقبت مذ كانت فى فرنسا بملكة اسكتلندة ، وانجلترا وارلندة ، وكانت باعتبارها حفيدة لهنرى السابع، هى وارثة العرش الانجليزى اذا توفيت اليزابيث بلا عقب . وكان يذكى هذه الخصومة ما كان يضطرم يومئذ بين اسكتلندة وانجلترا من الحروب والمنافسات . وفى ذلك يقول ڤولتير : «كانت كل الخصومات تقوم بين مارى

واليزابيث : خصومة القومية ، وخصومة التاج ، وخصومة الدين ، وخصومة العقل ، وخصومة الجمال » .

وكان الأفق قاتما والنفوس جائشة ومعترك الأحقاد والخصومات فى أشدّه ، حينما قدمت الملكة الفتاة الى اسكتلندة لتتبوأ عرشها . ولذا ما كادت تستقر ببطانتها



مارى استوارت

فى ادنبورج (ادنبره) حتى انفجرت من حولها عاصفة من الأكاذيب والدسائس ، وذكا تعصب البروتستانت . ووقع حادث لفتى فرنسى يدعى شاتلار قدم فى بطانة الملكة وبقى فى ضيافتها ، وكان شاعرا يهيم غراما بها ، فضبط ذات ليلة مختفيا فى غرفة نومها ، فقبض عليه وحوكم وأعدم — فاتخذه البروتستانت وخصوم الملكة

سندا لدعوة شديدة من التشهير والقذف، ورأت الملكة أن الصعاب تتفاقم من حولها، فاعتزمت أن تتزوج مرة أخرى ورأت اتباعا لنصح أصدقائها أن تستشير فى ذلك اليزابيث ملكة انجلترا. وكان التجاء مارى الى نصح خصيمتها ضربا من السياسة والمجاملة المفروضة لأن الخصومة كانت تضطرم كما رأيت بين الملكتين. ولم تكن اليزابيث قد بلغت ثلاثينها يومئذ، فلم تكن خصيمة لمارى كملكة فقط، بل كامرأة كذلك. وكانت اليزابيث تتفوق على مارى فى الثقافة والخلال والمواهب، فقد كانت بارعة فى السياسة والتاريخ والفلسفة والشعر والموسيقى، تجيد لغات عدة. ولكن مارى كانت تتفوق عليها بجمالها الباهر وظرفها الساحر، فكان ذلك فى نظرها جريمة لا تغتفر.

اختارت اليزابيث صديقها المقرب الكونت ليستر ليكون زوجا لمارى. وتقدم لخطبتها كثير من أمراء أوربا مثل الأرشيدوق كارل ثالث أبناء امبراطور المانيا، والدون كارلوس ولى عهد اسبانيا، والدوق دانجو ولى عهد فرنسا. ولكن مارى أبت محافظة على حقوقها فى الملك أن تتزوج من أمير أجنبى، ووقع اختيارها على قريب لها من أبناء عمومتها يدعى هنرى استوارت لورد دارنلى ابن الكونت لينوكس، وهو سليل أسرتى استوارت وتيودور، فاقتران مارى به مما يدعم حقوقها فى العرش. ولكن هذا الاختيار كان مثارا لسخط اليزابيث إذ رأت فيه تهديدا لحقوقها، وسخط مورى وزير مارى وأخوها غير الشرعى لأنه جاء مخالفا لرغباته، وسخط البروتستانت لأنهم كانوا يرون فى دارنلى كاثوليكيا متعصبا يخشى منه على حرياتهم.

وتم الزواج رغم ذلك فى ٢٩ يوليه سنة ١٥٦٥، ولكن سرعان ما شعرت مارى بخطئها فى ذلك الاختيار لأن دارنلى كان فتى سيء السيرة والخلال، يطمح الى اتخاذ الزواج سلما لارتقاء الملك، فحاول أن يرغم مارى أن تمنحه العرش اذا توفيت بلا عقب فأبت ذلك عليه، فعول على تحقيق أطماعه بالعنف، وائتمر بزوجه مع مورى وزعماء البروتستانت.

وكان أول ضحايا هذه المؤامرة داڤيد رزيو أمين شئون الملكة. وكان رزيو ايطاليا من أتباع الدوق موريتو سفير دوق دى ساڤوا فى ادنبورج. وكان فتى رقيق

الشمائل بارعا فى الغناء والعزف، سمعته مارى ذات مرة فطلبت الى دوق موريتو أن تلحقه ببطانتها . ولم يلبث رزيو أن نال حظوة لديها فعينته أميرا للرسائل . وكان دارنلى يتظاهر بالغيرة من عطف زوجه على رزيو ومن نفوذه عليها، فنفذ مع مورى وبعض المؤتمرين ذات مساء الى مترين الملكة، وكان رزيو هنالك مع نفر من السادة، فانقض عليه رثفن أحد المعتدين واحتاط به الباقون وأثخنوه طعنا بخناجرهم وألقوا جثته الى أسفل القصر، وزهقت روح المنكود أمام قدمى سيدته دون أن تستطيع دفاعا عنه .

فرأت مارى حينئذ أن تلجأ الى الخديعة والكيد فانقلبت الى مصانعة زوجها وملاطفته ولم يمض سوى قليل حتى دب الجفاء بين دارنلى وحلفائه، واتحد مع زوجه على مقاومتهم ومطاردتهم .

ثم وضعت مارى ابنا هو الذى توج فيما بعد ملكا لأسكتلندا باسم چيمس السادس . فجزعت اليزابيث لهذا النبأ ورأت فى وضع هذا الغلام خطرا جديدا على عرشها ، ويروى انها صاحت حينما أُبلغ إليها النبأ " لقد وضعت ملكة اسكتلندا ابنا بديعا، أما أنا فما زلت مخلوقا عقيما " .

وكانت اليزابيث صادقة الحدس، فقد شاءت الأقدار أن يكون هذا الغلام وارث عرشها .



هنرى لورد دارنلى

على أن مولد هذا الابن لم يوثق عرى الزواج المنفصمة بين مارى ودارنلى بل تفاقم الخلف بينهما . وتخلت مارى عن زوجها بعد أن تخلى عنه أصدقاؤه . ثم أصابه مرض شديد فلزم الفراش فى قصره منعزل فى ظاهر إدنبورج، وكانت مارى تتردّد هنالك لزيارته ومؤاساته . فذهبت ذات يوم لزيارته كعادتها وغادرته

قرب منتصف الليل ، ولم يمض زهاء ساعتين على خروجها حتى نسف القصر بمن فيه وهلك دارنلى وخدمه، بينما كانت مارى ترقص فى حفلة محجبة .

وأثبت التحقيق ان الانفجار وقع من صندوق من الديناميت وضع خفية فى قبو المنزل .

أما مدبر هذا الجرم المروع، فقد عينته الاشاعة بأنه هو اللورد بوثويل قائد الحرس، وأما المحرض له على ارتكابه فقد همس الناس بأنه هو مارى ذاتها .

وكانت الظروف تؤيد هذا الفرض ، لأن مارى كانت فى الواقع تغدق على بوثويل كل مظاهر العطف، وكان يلازمها فى غدواتها وروحاتها وحفلاتها، وهى تعرض فى ذلك عن كل لوم ونقد .

وكانت اليزابيث من ألد خصوم دارنلى وزواجه ، ولكنها وجدت فى مقتله فرصة لتهديد مارى . وتضرعت اليها والدة الأمير القتيل وأسرته أن تعمل لمعاقبة الجناة . فأرسلت اليزابيث الى مارى كتابا تطلب اليها فيه أن تدافع عن نفسها وأن تحمى شرفها من وصمة التحريض على مقتل دارنلى ، وتقدّم جماعة من الأشراف الى مارى بمثل هذه الدعوة . فحسبت مارى أنها تستطيع أن تبدّد هذه السحب التى تجتمع حول عرشها، وأن تدحض تهم خصومها بتدبير محاكمة يخرج منها بوثويل طاهر الذيل مرفوع الرأس .

فانتدبت محكمة للتحقيق، وظهر بوثويل أمام قضاته. وكانت محاكمة صورية، أعدّ لها الحكم من قبل، فقضى ببراءة بوثويل من كل جرم .

وذهبت مارى خطوة أخرى، فاتفقت مع بوثويل أن يختطفها. وتم الاختطاف فى طريق لنلثجو . ثم كانت خاتمة المغامرة والجرأة فى اقتران مارى بذلك الذى اتهم بمقتل زوجها . وأغرب منه أن عقد زواج مارى ، وهى الملكة التى تعتبر حمى للكثلكة ، طبقا للرسوم البروتستانتية . ودلت مارى بهذا الاستهتار بكرامة العرش والتحدى لعواطف الشعب أنها لا تتردد فى أن تضحى فى سبيل غرامها بكل شىء، ولو كانت العزة، والشرف، والدين .

وكانت الثـورة نتيجة محتومة لهذه الفضائح ، فاجتمع الأشراف الناقمون وائتمروا بالملكة وبوثويل وحاصروهما فى حصن بورثويك . ففرا منه تحت جنح الظلام ، وجمعا قواتهما ، واشتبك الفريقان ، فمزقت جموع بوثويل لأول موقعة . وفر بوثويل ، وأسرت الملكة ، وأخذت الى إدنبورج حيث أمطرها الشعب وابلا من الإهانات واللعنات ، وسجنت فى حصن لوخ ليفن ، وعين أخوها مورى قائما بشئون الدولة ، وحاول أن يكرهها على التنازل عن العرش مهددا إياها بمحاكمتها عن مقتل دارنلى .

ولكن مارى لم تفقد جلدها رغم سقوطها الى هذا الدرك الأسفل . واستطاعت بقوة سحرها الخارق أن تؤثر فى الفتى جورج دوجلاس ابن اللورد لوخ ليفن وأن توحى اليه بعاطفة غرام مبرح . وما زالت به حتى دبرلها سبيل الفرار ، وانسلت من الحصن تحت جنح الظلام متنكرة فى زى خادمة ، ووصلت فى الغداة سالمة الى حصن اللورد هاملتون . ولم تمض أيام قلائل حتى استطاعت أن تحشد من أنصارها جيشا يبلغ عدة آلاف .

ولكن مورى لم ترعه تلك الأهبة ، فبادر الى مهاجمة قوات الملكة قبل انتظامها وسحقها فى « لا نجسايد » فى ١٣ مايو سنة ١٥٦٨

وخشيت مارى أن تعود الى قبضة مورى ، ورأت الخطر يحدق بها من كل صوب ، فاعتزمت أن تفر الى انجلترا وأن تلتجئ الى حماية اليزابيث .

وهنا يبدأ الطور الثالث من حياة مارى استوارث .

٣

اتخذت مارى هذا القرار رغم نصح أصدقائها ، وفى ١٦ مايو ، استقلت مركبا للصيد مع بطانتها الصغيرة ورست فى وركنتون ، وفى اليوم التالى كتبت الى اليزابيث رسالة مؤثرة تفصل فيها ما أصابها من المحن والخطوب وتصف يأسها المبرح ، وتلتمس فيها العون والحماية . ولم يخطر حينئذ بذهن الملكة الفارة أنها تخاطر بحريتها

و رأسها، وأنها ستجد بدل الملجأ الأمين الذى تنشــده سجنا أبديا ترسف فى ظلماته فلا تغادره إلا الى ساحة الموت .

ذلك أن اليزابيث كانت ترقب هــذه الفرصة بفارغ الصبر، وترى فى القضاء على مارى استوارت قضاء على خصيمة تتفوق عليها فى الجمال والفتنة، وملكة تخشى دسائسها وتعتبرها ملاذا لكيد الكثلكة، ومنازعة قديمة لها فى حقوق الأسرة والعرش .

وكانت هذه الملكة البارعة فى الدهاء تتبع فى اسكتلنده سياسة مزدوجة ، ترمى أولا الى خلق الصعاب فى وجه مارى وتأييــد خصومها ، وثانيا الى تأييــد مارى ذاتها واتخاذ هــذا التأييد أداة لمناوأة الزعماء الأسكتلنديين . وكانت أثناء أسر مارى تهدد مجلس الحكم فى ادنبورج، وتنذر أعضاءه بأنها تشنقهم جميعا وتسحق بلادهم اذا اجترأوا على مس شعرة من رأس مارى . وكانت تغرى مارى بالوعود والقدوم الى انجلترا . فلمــا فرت مارى عقب موقعــة لا نجسايد ، والتجأت الى انجلترا ، كشفت اليزابيث عن حقيقة نياتها، وأرسلت رسلها الى كارلزل لتحيــة مارى فى الظاهر والقبض عليها فى الواقع . وهنا لك أبلغت مارى ان اليزابيث لا تستطيع رؤيتها قبل أن تمحى عن شرفها وصمة مقتل دارنلى، وانها ستطلق بعد ذلك سراحها وتساعدها على استعادة عرشها .

وأرسلت مارى أسيرة الى حصن بولتون فى يوركشير . وانتدبت اليزابيث لجنة للتحقيق من قضاة ثلاثة هم : دوق نورفولك، وكونت سوسكس، والسير رالف سادلر، وقام مورى بمهمة الاتهام، وأبت مارى أن تخضع أولا لقضاء هذه اللجنة ، ولكنها أذعنت بعــد ذلك ، و بدأت المحاكمة فى يورك فى أغسطس . وكانت أدلة الاتهام طائفة من الوثائق عرفت فيما بعد «برسائل الصندوق»[١] ، وهى عدّة رسائل وقصائد

(١) «رسائل الصــندوق» (Casket Letters) سميت كذلك لأنها وجدت فى صــندوق فضى زعم ايرل مورتون ، الذى عين فيما بعد وصيا لعرش اسكتلنده ، إنه عثر به فى يونيه سنة ١٥٦٧ عقب فرار بوثو يل . وقيل إن الصندوق كان يحتوى على عدة رسائل كتبتها مارى استوارت لبوثو يل وفيها تعده بالزواج منه، وبعض أناشيد بالفرنسية من نظمها . وقد قدمها مورى دليلا على أدانة مارى فى مقتل دارنلى =

غرامية قيل أن ماري كتبتها الى بوثويل قبل مقتل دارنلى وبعده. غير أنه لم يُسمح لمارى أن تطلع عليها أو تواجه بمتهميها . وعرضت الرسائل على اليزابيث فلم ترفيها ما يقطع بشيء، ولذا أمرت بفض اللجنة فانفضت دون أن تصدر قرارا فى القضية .

وعلى أثر ذلك نقلت مارى استوارت الى حصن توتبورى فى شفيلد ، إذ نما الى اليزابيث أن الدوق نورفولك الذى فتنته مارى بسحرها أثناء المحاكمة ، يطمح الى الاقتران بها ، وان أخته صاحبة حصن بولتون تمهد له سبل الاتصال بالملكة الأسيرة . وكان توتبورى بناء شامخا، قاتما حصينا . وعهد الى صاحبه ايرل شروزبورى وزوجه بحراسة الملكة . وتحوّل مقام مارى استوارت من ذلك الحين الى سجن حقيق، فنُزعت كثيرا من حرياتها السابقة وحُرمت من كثير من وسائل الراحة والسعة ، ولم يبق لها من حاشيتها الكبيرة سوى أمينيها نو وكورل، وطبيبها الفرنسى بورجوان، وجراح، وصيدلى، وجماعة قليلة من وصيفات الشرف والأتباع والحشم . وكانت تتولى الانفاق على هذه البطانة ، ولا تدفع اليزابيث إلا نفقات الطعام (١) . وكانت مارى تنفق عن سعة لأنها فضلا عن ايراد أملاكها الخاصة فى اسكتلنده، كانت

= ولكن مارى أنكرت أنها كتبت قط مثل هذه الرسائل والاناشيد ، ولم يسمح لها قط بالاطلاع عليها . وتوارث أوصياء العرش هذه الرسائل حينا ثم فقدت حوالى سنة ١٥٨٤ .

وينقسم المؤرخون فى الحكم على هذه الرسائل ، فيرى البعض صحتها اطلاقا ، ويرى البعض تزييفها اطلاقا ، ويرى البعض أن منها الصحيح والزائف . ويقول أصحاب الرأى الأول إن مارى كانت قبل فرارها الى انجلترا تكتب وسائلها دائما بالفرنسية لا بالاسكتلندية . ويقول أصحاب الرأى الثانى إن الرسائل صيغت فى لهجة مبتذلة لا تتفق مع الذوق الملوكى ولا مع براعة مارى الأدبية . ويرى آخرون رأيا آخر، هو أن الرسائل صحيحة ولكنها لم تكتب الى بوثويل بل كتبت الى اللورد دارنلى قبل اقترانه بمارى، وان بوثويل حصل عليها بعد ذلك .

وللمؤرخ هالام فى مقتل دارنلى رأى لا بأس بايراده : وهو أن المسألة لا تخلو من فرضين ، الأول أن يكون بوثويل قد دبره دون علم مارى، واثقا فى رضائها عنه، وفى حمايتها له ، مقدرا أن الجريمة هى السبيل الوحيد لزواجه من الملكة . والثانى هو أن تكون مارى قد علمت بالمشروع قبل تنفيذه ووافقت عليه . واذا كانت رسائل الصندوق صحيحة فانها تؤيد الفرض الأخير . ومن رأى هالام أنها صحيحة . ويرى صحتها أيضا ، هيوم، وروبرتسون، وبرتون، وفرود .

(١) كانت هذه النفقة تبلغ أولا اثنان وخمسون جنيها فى الاسبوع، ثم أنزلتها اليزابيث الى ثلاثين فقط وكانت تشكو من كثرتها دائما . وهو مثل مما يروى عن شح هذه الملكة العظيمة .

تقبض من الحكومة الفرنسية، بواسطة السفير الفرنسى نفقة سنوية قدرها اثنا عشرة الف جنيه باعتبارها ملكة سابقة لفرنسا .

وفى توتبورى سلخت مارى خمسة عشرة عاما طويلة ، فى أغلال الأسر، هى زهرة عمرها، وذروة شبابها وأطماعها . بيد أن هذه الملكة الحسناء التى أنفقت حداثتها فى مراتع العز والسعادة والمرح ، وأطلقت أيما عنان لأهوائها المضطرمة، أبدت فى محنتها شجاعة تخلق بالاعجاب . فكانت تنفق أيامها فى ثبات وجلد ، وتحتمل صابرة ما يوجه اليها من ضروب الخشونة والاهانة . وكانت تصرف شطرا من الصباح فى منزينها ، فتعنى كما كانت أيام الحرية والنعماء بزينتها حتى كان محياها يحتفظ دائما بجماله الباهر وسحره الفتان وشبابه الغض . ثم تعمد بعد الزينة الى الوشى ، ثم الى المطالعة . وأحيانا يسمح لها بأن تقضى رياضة فى الصيد . على أنها كانت تنفق معظم أوقاتها فى قراءة الرسائل السرية العديدة التى ترد عليها من مختلف أنحاء القارة وفى الرد عليها بنفسها .

ذلك أن مارى استوارت، كانت فى الواقع عمادا لمعترك شاسع من المؤامرات، يدبرها أنصارها فى رومة ومدريد وباريس ، وكانت آمال الكاثوليك فى انجلترا واسكتلنده تتوقف الى حد كبير على استعادتها لعرشها وسلطانها .

ومن ثم فان عهد أسرها كان فياضا بالمؤامرة والجريمة، تضطرمان من كل ناحية حول عرش اليزابيث، وأحيانا حول شخصها . ومن الصعب أن نحدد الدور الذى أدته الملكة الأسيرة فى تدبير هذه المؤامرات والجرائم . ولكنا نستطيع أن نقول إنها كانت دائما، مبعث وحيها سواء عامدة أو غير عامدة، مختارة أو مرغمة، لأنها كانت جميعا ترمى الى غاية واحدة هى انقاذ مارى واتخاذها أداة لمحاربة اليزابيث ومحاربة البروتستانتيه .

وكان الدوق نورفولك بطل أولى هذه المؤمرات، فقد رأيت كيف كان يطمح الى الاقتران بمارى . وكانت بينهما مراسلات سرية تفيض عطفا وكآبة، ثم انقلبت الى تحالف سياسى، واعتزم الدوق أن يخوض غمار المعركة الى جانب فاتنة لبه،

وتعهد باثارة الكاثوليك فى انجلترا اذا أمده فيليب الثانى بجيش . ولكن سرعان ما افتضحت المؤامرة اذ ضبطت رسالة سرية من فيليب الثانى الى مارى استوارت وترجمت ، ووقفت منها اليزابيث على تفاصيل المؤامرة كلها .

فقبض على الدوق نورفولك وحوكم ، ثم قضى باعدامه فأعدم .

وكانت اليزابيث كلما شعرت بازدياد الدسائس من حولها كلما ازدادت حذرا وحرصا . وكانت تحيط مارى وكل من يتصل بها أو يعطف عليها برهط من الجواسيس . فكان عهدا ملؤه الجزع والسعاية والريب .

ثم دُبرت مؤامرة أخرى اتهم فيها ابن كبير القضاة اللورد تركمورتون ، واللورد باجت ، وضبطت رسائل وتعليمات صدرت الى المتهمين من مورجان وكيل مارى فى فرنسا ، واعترف أحد المتهمين عند العذاب بأن المحرض هو مندوزا سفير اسبانيا ، وأن غاية المؤامرة هى عزل اليزابيث . فأُنب السفير وأرغم على مغادرة انجلترا فى الحال . وفر بعض المتهمين وهلك ولد القاضى الأكبر .

وضبطت أوراق مع حبر يسوعى يدعى كريتون ، أخذته سفن اليزابيث فى عرض البحر ، وحاول إتلاف الأوراق بالقائها فى الماء فأنقذت ، وظهر منها أن هنالك مشروعا لغزو انجلترا ورفع لواء الثورة باسم مارى استوارت .

وتوالت هذه المؤامرات ، والمحاكمات ، وذهب فى سبيلها نفر كبير من الأشراف والسادة .

وثار البروتستانت لذلك ونادوا بمحاكمة مارى استوارت . ولكن اليزابيث رغم سخطها وجزعها على حياتها وعرشها لم تجرأ أن تتخذ بعد هذه الخطوة . وأجابت مارى أنها ، وهى ملكة أجنبية مستقلة أسرت فى انجلترا خرقا لكل قانون وكل عدالة ، حرة فى أن تدافع عن نفسها ما استطاعت ، وأن تمد يدها الى كل من يتقدم لاغاثتها .

ولكن اضطراب الرأى العام كان يشتد يوما فيوما . واعتادت جموع من العامة أن تركع فى الطرق أمام موكب اليزابيث كلما مرت ، وأن ترفع صوتها بالصلاة

والدعاء بسلامتها وطول بقائها . وأنشأ اللورد لستر جمعية لحماية اليزابيث من « المؤامرات البابوية » شعارها أن يتعهد كل أعضائها بأن يطاردوا حتى الموت كل من حاول ائتمارا بالملكة أو اعتداء عليها . ولم يمض إلا قليل حتى أدمج هـذا العهد فى قانون أصدره البرلمان هذا نصه :

« كل شخص يحرض على الثورة أو يُدعى اليها من أجله ، أو يعتـدى على حياة الملكة ، أو يُعتدى عليها من أجله تجوز محاكمته أمام لجنة تؤلف بأمر ملكى ، ويقضى عليه بالاعدام . فاذا اغتيلت حياة الملكة ، فكل شخص ارتكب ذلك ، أو ارتُكب ذلك من أجله ، يقضى عليه حتما بالاعدام ، ويحرم نسل هـذا الشخص من وراثة العـرش » .

وكان واضحا أن المقصود بسن هذا القانون هو شخص مارى استوارت . وكان ولدها جيمس السادس ملك اسكتلنده قد بلغ يومئذ عامه السابع عشر . وكان هو الوارث لعرش انجلترا بعـد أمه طبقا لقانون الوراثة ، فكانت اليزابيث التى حاولت أن تختطفه مذ كان طفلا فى المهد ، ترى هـذا الاحتمال يشتد يوما فيوم ، وتحاول أن تحول دون تحقيقه بكل الوسائل .

ويعلق المؤرخ ماكنتوش على ذلك بقوله : «ليست ثمة حاجة الى بيان المأزق الشنيع الذى تُجعل فيه ، ملكة اسكتلنده ، وهى أسيرة فى قبضة اليزابيث ، مسئولة عن أعمال تُؤدى من أجلها ، أو تؤدى باسمها » .

ليس من ريب فى أن اليزابيث كانت تتربص منذ بعيـد بمارى استوارت وبعرشها وسلطانها ، وتعتزم أن تقضى عليهـا كملكة ومنافسة . ولكن هـل كانت « الملكة العـذراء » ترى أن تذهب فى ذلك الى حد ازهاق حياة مارى ؟ هـذا ما يختلف المؤرخون عليه ، فالبعض ينسب اليها هذه النية ، ولكن البعض ينفيها ، ويرجعها الى وزراء اليزابيث وناصحيها ، وبالأخص ليستر صديقها المقـرب ، وولسنهام ، وزير داخليتها . ولعـل هنالك ما يرجح الرأى الأخير فى تردد اليزابيث مدى هذه الأعوام الطويلة فى محاكمة مارى .

والحقيقــة أن التخلص من مارى استوارت لم يكن أمرا سهلا، بل كان غاية خطيرة تعترضها صعاب ومخاوف جمة . فقد كانت مارى ملكة وابنة ملك، ولم تكن سابقة اهراق الدم الملكى قد تأثلت فى انجلترا . نعم أن هنرى الثامن ، أرســل الى نطع الجــلاد بأكثر من واحدة من زوجاته ، ملكات انجلترا ، ولكن دؤلاء كانوا نسوة من الشعب رفعهن الى مقام الملك بمحض ارادته . وكان مصرع اللايدى چان نتيجة لثورة علنية على العرش، دبرت ونفذت باحتلال العرش . ولكن اعدام ملكة أســيرة، محرومة من وسائل الدفاع والمقاومة، بتهمة التآمر على العــرش وعلى حياة مليكته، كان محاولة جريئة، بل كان جريمة ظاهرة .

ومع ذلك فقد دبرت هذه المحاولة ووقعت الجريمة . ودبرها بالأخص ولسنهام، وكان بروتستانتيا متعصبا يستحل كل أمر فى سبيل الدولة أو الدين، ثم كان داهية، جم الذكاء، مقداما فى الخيانة والجريمة، لا يقف عند وسيلة ولا يردعه ضمير .

٤

وفى ذلك الحين نقلت مارى استوارت من قصر شفيلد لأن عقيلة شروزبورى اتهمت زوجها بالميل الى أسيرته الحسناء، وخشيت اليزابيث عواقب هــذه الرقابة المريبة، فنقلت مارى استوارت الى حصن شارتلى، وعهدت بحراستها الى الســير أمياس بولت الذى يذكر التاريخ أنه أقسى حراس ملكة اسكتلنده وأغلظهم قلبا . فشدد عليها الرقابة، وقطع كل علائقها مع الخارج، وحظر عليها كل استقبال وكل زيارة حتى اضطرت الى ترك مراسلاتها السرية، والكف عن تدبير المؤامرات .

ولكن هذه الشدّة لم تكن تتفق مع مشاريع ولسنهام . وكان ولسنهام يلجأ منذ أعوام الى رهط من الجواسيس لمراقبة كل من يتصل بمــارى استوارت أو يشــك فى اتصاله بها ، ولتدبير مؤامرات ضد الحكومة وضــد اليزابيث تلقى مسئوليتها على مارى . وكانت هذه المؤامرات المفتعلة توشــك أحيانا أن تنقلب الى خطر حقيق يهــدد حياة اليزابيث أو عرشها . من ذلك أن وليم بارى أحد أولئك الجواسيس

انتهى أخيرا باعتناق الكثلكة وتآمر مع بعض الناقمين على اغتيال اليزابيث . ولكن المؤامرة افتضحت ، وحوكم بارى وقضى باعدامه . وأغرى باتهام مارى فأبى وبرأها من كل علم بالمؤامرة ، ولكنه اعترف بعلائقه مع مورجان وكيل مارى فى فرنسا . وكان مورجان غاليًا من ألد أعداء اليزابيث . وكان يرى أن هلاكها هو السبيل الوحيد لانقاذ سيدته . وكانت اليزابيث تضطرم سخطا عليه حتى انها على أثر محاكمة بارى طلبت الى هنرى الثالث ملك فرنسا أن يسلمها مورجان ، فأبى هنرى الثالث وحاول أن يرضيها بالقبض عليه وسجنه فى الباستيل ، وارسال أوراقه اليها بعد بحثها واعدام الوثائق الخطرة منها . ولكن سجن مورجان لم يحل دون اتصاله بأصدقائه ، واستمراره فى مشاريعه .

وكان ولسنهام من جهة أخرى يحيط مورجان و جميع أصدقاء مارى بجواسيسه . فشاء القدر أن يتصل مورجان باثنين من أبرع رسل ولسنهام وجواسيسه تنكرا فى زى قسيسين كاثوليكيين ، أحدهما يدعى چيفورد والثانى جريتلى فأوصى بهما سيدته خيرا . وعمل ولسنهام من جانبه على تغذية المشروع وتوسيع نطاقه حتى يغدو مؤامرة حقيقية خطرة . وكان زعماء المؤامرة غير چيفورد وجريتلى ، شخص يدعى بالارد ، وهو قس كاثوليكى ، وآخر يدعى سافدج وهو ضابط تعهد بقتل اليزابيث ، وانتونى بابنتون



سير فرانسيس والسنهام

وهو فتى غنى ينتمى الى أسرة نبيلة ويضطرم اخلاصا لمارى وحماسة لانقاذها . وكان ولسنهام يرعى المشروع بنصحه وبذله . وكان الشرك الذى وضع لمارى استوارت هو أن تُغرى الى الكتابة الى أنصارها بما يفيد العلم بالمؤامرة وتأييدها .

وكتبت مارى استوارت فى الواقع الى سفيرى فرنسا واسبانيا ترجو أن يحث كل منهما بلاطه على تقديم المال والرجال لانقاذها . وكتبت الى آخرين من أنصارها من كبراء الكثلكة . وكانت رسائلها تقع فى يد ولسنهام تباعا، ويقوم بترجمتها من الأرقام السرية توماس فلبس مترجم اليزابيث الأشهر، ويساعده فى فض الرسائل وغلقها مزور بارع يدعى جريجورى مهر فى تقليد الخطوط والأختام .

وكان بابنتون روح فكرة الاعتداء على حياة اليزابيث . وكان جيفورد يتردد بين زعماء الكثلكة يستنهض هممهم ويذيع بينهم أن فليب الثانى قد وطد عزمه على غزو انجلترا لينقذ الملكة الأسيرة، وليعيد سلطان الكثلكة ويمحق البروتستانتيه فى انجلترا، وانه لا بد من قتل اليزابيث حتى تسترد مارى حقوقها بلا منازع .

فكانت مؤامرة مزدوجة، على الأمه الانجليزية وعلى اليزابيث .

وكانت مارى استوارت حريصة فى رسائلها كل الحرص فمضى حين لم تكتب فيه ما يؤخذ به . ولكن بابنتون كتب اليها أخيرا بيانا مسهبا بالمؤامرة وخططها . ووقعت الرسالة فى يد ولسنهام بالطبع . وترجمها فلبس . وبذلك تحقق الشطر الأول من الشرك الذى دبر للايقاع بمارى استوارت حيث غدت على علم بالمؤامرة التى يدبرها أنصارها لاغتيال اليزابيث .

وفى ١٧ يوليه سنة ١٥٨٦ ردّت مارى استوارت على رسالة بابنتون . ويروى أن السير بولت صاح عند قراءة هذا الرد «لقد وقعت فى يدنا، وقد توج الله جهودى فى النهاية وأثابنى عن خدماتى واخلاصى !» .

وكان فى خطاب الملكة الأسيرة على قول مترجمه فلبس مصادقة منها على مشروع بابنتون ونصائح أسدتها اليه لتأكيد النجاح . وقد نقل منه فلبس صورة فقط، وأرسل الأصل على قوله الى بابنتون .

ولكن كثيرا من الشك يحيط بهذه الرواية، لأن فلبس وجريجورى كانا كما رأيت جاسوسين مزورين لا ذمام لهما . ومن المرجح أن عملهما لم يكن مقصورا على فض الرسائل وترجمتها . وهذا ما يؤكده لنا مؤرخ كبير معاصر هو كامدن،

حيث يقرر إن حاشية مزوّرة قد أضيفت الى احدى رسائل مارى استوارت الى بابنتون بنفس الحروف التى استعملتها، وفيها موافقة على أهم نقط المؤامرة .

وأهمية هـذا الاقرار واضحـة إذا ذكرنا نص القانون الذى أصدره البرلمـان ، معاقبا بالاعدام « كل شخص يحرض على الثـورة أو يدعى اليها من أجله أو يعتدى على حياة الملكة أو يعتدى عليها من أجله ... » وإذن فقد تم الشرك ونضج المشروع .

وعلى أثر ذلك شعر بابنتون أنه قد افتضح فحاول فرارا ، ولكنه أخذ مع عدّة من زملائه وزجوا الى سجن البرج، وأذاع ولسنهام أن الحكومة قد اكتشفت « مؤامرة لحرق مدينة لندن وقتل الملكة ، وان جيوش فرنسا واسبانيا قد سيرت فى البحر لغزو انجلترا ، وان جميع الكاثوليك يتأهبون لمعاونة العدو » فضجت مدينة لندن، وقرعت الكنائس ابتهاجا بنجاة الملكة، وانطلقت الجماهير بالدعاء لها .

وحوكم بابنتون وستة من زملائه فى ١٣ سبتمبر سنة ٨٦ فاعترفوا بالجريمة وكفروا عنها بحياتهم . ولكن أحدا منهم لم يعترف بكلمة على ملكة اسكتلنده .

وفى الحال نقلت مارى من شارتلى الى تكسال مؤقتا، وضبطت أوراقها ونقودها أثناء غيبتها، وقبض على أمينيها نو وكورل وهددا بالعذاب اذا لم يشهدا على سيدتهما، فاعترفا مكرهين بأمور تلقى عليهـا الشبهات . ولم يوجد فى أوراقها ما تؤخذ به ذرة، فأعيدت الى شارتلى بعد بضعة أيام .

٥

وكانت اليزابيث تتردّد مع ذلك فى محاكمة مارى اسـتوارت خشية أن تؤدى المحاكمة الى تدخل اسكتلنده أو فرنسا أو اسبانيا، أو ألا تسفر الأدلة عن الادانة . ولكن برلى كبير وزرائها ولستر وولسنهام، استطاعوا أخيرا أن يصـلوا الى الغاية التى عملوا لها طويلا، وأن يقنعوا اليزابيث بأن مارى استوارت، — تلك الأسيرة المريضة التى يحيط بهـا الرقباء من كل صوب ، قد أضحت خطرا داهما على شخصها وعرشها

وأنه قد أضحى من واجبها أن تعجل بموتها، ولم تكن الوسيلة الى تحقيق هذه الغاية سوى محاكمة صورية، تلق على المأساة صبغة القانون والعدالة .

وبعد مداولة طويلة استقر الرأى على أن تحاكم مارى استوارت أمام محكمة من الأمراء وأعضاء المجلس الخاص ينتدبها العرش . وفى ٥ أكتوبر سنة ١٥٨٦ صدر



الملكة اليزابيث

قرار الانتداب بتأليف هذه المحكمة من ستة وأربعين عضوا ، ضم اليهم جماعة من القضاة للاشراف على الاجراءات القانونية ، وتقرر أن تجلس فى قاعة الجلسات الكبرى فى قصر فوذرنجى الذى كان سجنا قديما للدولة .

ثم أصدرت اليزابيث قرارا آخر بالقبض على مارى استوارت ، فدهمتها قوة كبيرة من الفرسان واقتادتها الى قصر فوذرنجى .

وفى ١٢ أكتوبر عقدت المحكمة فى ساحة القصر الكبرى . ولكن مارى استوارت أبت أن تعترف بقضائها . فوجهت اليها اليزابيث على يد المحكمة الخطاب الآتى :

«من الملكة اليزابيث الى مارى ملكة الاسكتلنديين

«لقد حاولت بطرق وصور مختلفة، أن تغتالى حياتى، وأن تدفعى بمملكتى الى الخراب بسفك الدماء . ولم أعاملك أنا قط بمثل هذا التجنى ، بل بالعكس حميتك وتعهدتك تعهدى لنفسى؛وسوف تقدم اليك الأدلة على هذه الخيانات وتوضح

«بيد أنى أريد أن تجيبى أشراف المملكة وأمراءها كما لو كنت حاضرة بنفسى، ولهذا أطلب اليك، وأكلفك، وآمرك أن تجيبى، لأنى نبئت بأمر عنادك .

«اعملى بصراحة، ودون تحفظ، تظفرى عاجلا بالعطف منى» — اليزابيث

فأجابت مارى فى كبرياء وعزة، أنها ملكة وابنة ملك، وأنها أجنبية أسرت وسجنت وعرضت لأشنع ضروب الاكراه والعسف خرقا لكل حرمة وعدالة، وانها ليست من أتباع اليزابيث بل هى قرينتها وقرينتها فلا تقبل أن تؤمر منها، وانها قد حاولت أن تستعيد حريتها، وستمضى فى ذلك ما عاشت . ولكنها لم تأتمر قط بحياة الملكة ولم يكن لها صلة قط ببابنتون أو غيره إلا من أجل حريتها؛ وانها سوف تفضى بالحقيقة الى الملكة اذا استجوبتها بنفسها، ولكنها لن تجيب أحدا دونها .

فنقلت المحكمة جوابها الى اليزابيث ، فأرسلت اليها فى اليوم التالى تخطرها بأن امتيازاتها الملكية وأسرها، لا تحلها من الجواب ، وأنها اذا أصرت على السكوت فان القانون يحتم اجراء المحاكمة فى غيبتها .

فاعتزمت مارى استوارت عندئذ أن تدافع عن نفسها خشية أن يصدر الحكم فى غيبتها .

وفى عصر ذلك اليوم تلى عليها قرار الاتهام ونصه : «ان مارى استوارت الملقبة بملكة اسكتلنده، وابنة چيمس الخامس، نظـرا لاتهامها بأنها أقرت تدبير مؤامرة شائنــة لاغتيال ملكة انجلترا وغزو المملكة، ستستجوب أمام هــذه المحكمة عن هذه الوقائع » .

وكان وحى اليزابيث ظاهرا منذ البداية فى تسيير هذه المحاكمة الشهيرة فقد أرسلت منذ ٧ أكتوبر الى القضاة خطابا تطلب فيه اليهم « أن يمتنعوا عن إصدار حكمهم على ملكة اسكتلندة حتى يمثلوا أمامها و يقــدّموا تقريرهم اليهـا » . كذلك كانت اليزابيث هى التى تصرفت فى أمر الدفاع ، فقد طلب اليها السفير الفرنسى باسم حكومته أن يسمح لمـارى بمحام يدافع عنها، فغضبت وأجابتــه أنها لا تريد نصحا من الدول الأجنبيــة فيما يجب أن تقــوم به وأنها تعتبر أن ملكة اسكتلندة غير خليقة بالدفاع .

وهكذا ظهرت مارى استوارت أمام قضاتها، واحتجت على هذه الاجراءات الاستثنائية، وطعنت فى اختصاص المحكمة، وفى القوانين التى تطبقها .

وفى اليوم التالى أخطرت مارى المحكمة أنها ستجيب فقط على ما يتعلق بحيـاة الملكة . ثم دخلت فى صبيحة ذلك اليوم الى قاعة الجلسة الكبرى بين صفين من الجند، مستندة الى ذراع طبيبها . وكانت تمشى ببطئ وقد ارتسمت على محياها آثار العنـاء والكآبة . وجلست فى المكان المعــدّ لها، وجلس الى جانبها حارسها الســير امياسَ بولت .

ثم نهض المــدّعى الملكى جودى وتلا صيغة التهمــة ، ثم سرد وقائع المؤامرة المزدوجة ، وقرأصــور الخطابات التى تبادلتها مارى و بابنتون وتلا اعترافا قال إنه صدر من بابنتون ساعة موته واعترافات قال إنها صدرت من نو وكورل أمينى مارى ثم قدّم هذه الوثائق الى المحكمة . وعلى أثر ذلك نهضت مارى استوارت واعترفت بأنها تبادلت الكتابة مع سفيرى اسبانيا وفرنسا وأنها فى حل من أن تفاوض الأمراء الأجانب فى سبيل خلاصها من الأسر . أما مكاتبتها مع بابنتون فقــد أنكرتها بشــدّة

وأكدت أنها لم تكتب اليه أو تتسلم منه أية رسالة ، وحملت على الاتهام بشـدّة اذ اعترف بعجزه عن تقديم أصـول الرسائل المزعومة واعترافه بأنه لا يملك إلا صورا منها، وأكدت بكل قواها أنها لم تأتمر قط بحياة الملكة اليزابيث، وإنها لا يمكن أن تسـئل عن مشاريع جنائيـة دبرت ونظمت دون اشتراكها أو علمها ، ثم طالبت بمواجهتها بأمينيها نو وكورل، واحتجت على إعدام بابنتون وشركائه قبل إجراء مثل هذه المواجهة .

وهكذا دافعت ماري استوارت عن نفسها فى ذلك اليوم المشهود بمنتهى الشجاعة والبراعة والعزم .

ورفعت الجلسة عند مغيب الشمس وقد ساد عليها الضجيج والهرج .

وسلخت ماري استوارت سواد ليلها فى إعداد بقية دفاعها، وذهبت فى صباح اليوم التالى، وهو يوم ١٥ اكتوبر — الى قاعة الجلسة ، واستأنفت دفاعها بثبات وذلاقة . فذكرت كل ما لقيته من ضروب الاضطهاد والعسف ، وما اتخذ لتدبير هذه المحاكمة من الوسائل الشاذة، واحتجت على الأسلوب الشائن الذى تجرى به، وطلبت أن تحاكم أمام البرلمـان الانجليزى أو أمام الملكة ومجلسها، وقالت إنها تعلم أن موتها قد تقرر منذ بعيد لأن حياتها تعتبر رمزا لآمال الكثلكة .

ولكن ماري استوارت كانت تلقى دفاعها على قضاة يصرفهم الوحى عن الاصغاء والفهم، وكان بيرجلى رئيس المحكمة يقاطعها من وقت لآخر بتحـيز ظاهر، وكانت إمارات الضجر والاعياء تبدو على وجوه القضاة، والحدّة ماثلة فى أقوالهم واشاراتهم، وكان واضحا أن مصير ماري استوارت قد مالت به كفة القدر .

ثم اختتمت المرافعات ، واجتمع القضاة للمداولة . ولكن رسـول الملكة جاء يحمل أمرا الى الرئيس بيرجلى بتأجيل إصدار الحكم حتى تراجع اليزابيث بنفسها أوراق القضية فأجل الحكم عشرة أيام . ثم عادت المحكمة الى الانعقاد فى الخامس والعشرين من اكتوبر فى «قاعة النجمة» فى وستمنستر، ولم تشهد ماري استوارت هذه الجلسة، وسمعت المحكمة أقوال نو وكورل ثانيـة فلم يقولا شيئا جديدا ، وفى ذلك يقول تيتلر

مؤرخ اسكتلندة : «حضرت المتهمة فى فوذرنجى دون الشهود، وحضر الشهود فى وستمنستر دون المتهمة» .

وعلى أثر ذلك أصدرت المحكمة حكمها باعدام مارى استوارت ، وذلك باجماع الآراء . وكان الحضور من القضاة ستة وثلاثون، ووافق الغائبون وهم اثنا عشر على الحكم كتابة .

واجتمع البرلمان فى ٢٩ أكتوبر، وراجع أوراق القضية، ورفع التماسا الى الملكة بأن ينفذ حكم الاعدام فى مارى استوارت .

٥

وهكذا تمت الاجراءات التى أعدت لمحاكمة مارى استوارت ، وصدر الحكم المنشود الذى مهد اليه باصدار قانون خاص وتدبير مؤامرة خاصة، ومثلت لتحقيقه مهزلة قضائية اتخذت صورة المحاكمة ، وأصدرته محكمة ليس لها قضاء ولا عدالة ولا رأى .

غير أن صدور الحكم لم يكن كل شىء ولا بدّ من تنفيذه . وكان التنفيذ محفوفا بصعاب جمة . وكانت اليزابيث تخشى أن تتخذه الدول الكاثوليكية وبالأخص فرنسا واسبانيا حجة لمحاربة انجلترا . ويتخذه الكاثوليك داخل انجلترا وسيلة الى إثارة الحرب الأهلية . وكان الخطر يهدّدها من جهة اسكتلندة أيضا اذ كان يتبوأ عرشها جيمسَ السادس ولد مارى استوارت . ولذا وقفت الاجراءات عند اعلان حكم الاعدام الى مارى فى سجنها فى فوذرنجاى فى ٢٢ نوفمبر، ومضت أسابيع عديدة دون أن تتخذ خطوة أخرى .

والواقع أن قصور أوربا كلها اهتزت لصدور هذا الحكم وكان له بالأخص وقع عميق فى البلاط الفرنسى الذى تبوأت مارى عرشه من قبل وخلبته بجمالها . واهتم هنرى الثالث ملك فرنسا بالأمر فأوفد الى انجلترا سفيرا خاصا الى اليزابيث ليحاول إقناعها بالعدول عن تنفيذ الحكم فاستمعت الى سفارته وأكدت له أنها أرغمت على

اتباع هـذه الخطة لأنه يستحيل عليها أن تنقـذ حياتها اذا أبقت على حيـاة ملكة اسكتلندة، ولم يفد نصح السـفير شيئا ، وكانت مارى استوارت من جهة أخرى تخشى أن يسفر هذا التردّد فى تنفيذ الحكم علنا عن قتلها فى سجنها غيلة فكتبت الى خالها الدوق دى جيز تعرب اليه عن مخاوفها . وكتبت الى اليزابيث فى ١٩ ديسمبر سـنة ١٥٨٦ خطابا طويلا مؤثرا تستهله بقولها « ان المسيح يسوع قد أمدّها بعزم وجلد على احتمال كل ما وجه اليها من مطاعن وتهم ، وانها تموت لتمسكها بمبـادئ الكنيسة الرومانية الكاثوليكية » وتشكر اليزابيث على الحكم الذى أصدره برلمـانها ثم تقـــول :

" لست أتهم أحدا ، وانمـا أصفح من صميم القلب عن كل إنسان ، بل أودّ أن يمنحنى العفو كل انسان، وأن أحظى بغفران الله فيهم جميعا . ولكنى أعلم أنك أشدّ من يجب أن يشعر من أعماق قلبه بمـا ينال دمك من شرف أو سبة، وما ينال منهما بالأخص دم ملكة وابنة ملك " .

« ثم انى، أطلب اليك يا سيدتى بحق يسوع الذى تحنى أمام اسمه كل قوّة ، أن تأمرى متى روى أعدائى ظمأهم الاسـود من دمى البرىء، بأن يسمح لخدمى المحزونين أن يحملوا جثتى الى فرنسا لتثوى هنالك فى أرض مقدّسة الى جانب ملكات فرنسا الأخريات ... ولا تأبى على هذا الرجاء الأخير فتسمحى بقبر حر لهذا الجسد بعد أن تفارقه الروح، فهما اذا اجتمعا لا ينعمان قط بحرية العيش الهنىء...» .

وكتب ملك اسكتلنده الفتى، وهو چيمس ولد مارى استوارت، الى اليزابيث خطاب عتاب قوى فى شأن والدته المنكودة، وسعى سفيره فى انجلترا لدى اليزابيث لتعدل عن تنفيذ الحكم، فأجابته اليزابيث : ان ليس ثمة قوة بشرية تحملها على توقيع أمر باعدام مارى . فلما أعلن الحكم عاد چيمس يتوعد ويهدّد ، ولكن اليزابيث رفعت القناع عندئذ، ولم تقبل أية شفاعة أو رجاء .

والخلاصة أن موت مارى استوارت كان غاية مقرّرة محتومة. ولكن اليزابيث كانت تؤثر تحقيقها بسلاح الغيلة فلما تقدّم اليها الوزير داڤيسون بأمر التنفيذ لم تحجم

عن توقيعه ولكنها أشارت اليه أنها تؤثر ألا يقع التنفيذ وأن يغدو أمرا لا ضرورة له ففهم الوزير مغزى الاشارة . وكانت فكرة الغيلة تملأ ذهن اليزابيث فى أيام مارى الأخيرة . فكتب داڤيسون وولسنهام الى السير بولت والسير درورى حارسى الملكة الأسيرة بالامر . ولكن بولت لم يكن قاتلا آثما وان كان سجانا غشوما . فكتب الى ولسنهام يأبى ارتكاب إثم « يحظره الله والقانون » ويقول : انه يضع حياته تحت تصرف الملكة ويضحيها رهن إشارتها « ولكن الله يأبى أن يلق بضميره الى هذه الغمار فيسفك الدم دون شرع وأمر » وكذا نكل زميله درورى عن القيام بمثل هذه المهمة . وكان ذلك فى الثانى من فبراير . فعندئذ قرر دافيسون أن ينفذ أمر الاعدام الذى وقعته الملكة ، وعهد الى كونت شروزبورى باعتباره قائد انجلترا الأكبر والى كونت كنت بتبليغه الى مارى استوارت .

فذهبا الى فوذرنجاى فى عصر السابع من فبراير . وكانت مارى استوارت مريضة تلزم الفراش ، ولكنها نهضت للقائهما فتلا عليها شروزبورى صيغة الأمر . ويصف برانتوم هذا المنظر بقوله « فلم تبد دهشة بل شكرتهما على هذا النبأ السار وقالت انه ليس أحب اليها منه لأنها ترى فيه خاتمة محنها ، وأنها تستعدّ للقاء الموت وتسكن اليه مذ أسرت فى انجلترا[١]» . ولما نبأها شروزبورى بأن التنفيذ سيكون فى الساعة الثامنة من صباح الغد احتجت على هذا التأخير فى إخطارها . وسألت عما اذا كانت الملكة قد أذنت بأن تدفن جثتها فى فرنسا ، فأجيبت بالنفى . ثم انصرفَ شروزبورى وكنت .

فكتبت مارى استوارت عندئذ اعترافا موجزا تطلب فيه من الله أن يغفر لها زلاتها ، وتصرح بأنها تموت على دينها قوية الايمان والعقيدة . ثم وزعت على حشمها

(١) أن التفاصيل الآتية عن اعدام مارى استوارت هى خلاصة لرواية برانتوم ، وهى التى نقل عنها معظم الكتاب . يقول برانتوم إنه أوردها على لسان وصيفتين فرنسيتين كانتا فى خدمة مارى استوارت ولازمتاها حتى لفظت نفسها الأخير ، ثم عادتا الى فرنسا ، وإنه اعتمد أيضا على كتاب ظهر فى هذا العهد عنوانه « استشهاد ملكة اسكتلنده » .

بعض حليها ومتاعها تذكارا لكل منهم. ومن حولها تتصاعد الزفرات وتنهمر الدموع. ثم تناولت عشاءها مبكرة وأكلت يسيرا، ثم كتبت وصية طويلة ورسالة لصهرها هنرى الثالث ملك فرنسا تستحلفه أن يسهر على ولدها وتوصيه خيرا باتباعها وخدمها.

ثم ارتدت ثوبا أنيقا قاتما، وتناولت منديلا موشى بالذهب لتحجب عينيها فى اللحظة الأخيرة، وذهبت الى مصلاها. وقرأت لها وصيفتها جنه كندى فصولا من كتاب "حياة الشهداء" ثم استغرقت بعد ذلك فى صلاة طويلة حارة حتى مطلع الفجر. وعندئذ دوت ساحة القصر بصلصلة السلاح وغصت بالفرسان. فنهضت مارى استوارت. وعهدت الى طبيبها بورجوان أن يقرأ وصيتها وأن يحملها الى الدوق دى جيز الذى اختارته منفذا لها. وعادت الى الصلاة حتى جاء محافظ المدينة يخطرها بأن الساعة قد حلت. فنهضت وتبعته وهى ترجوه أن يساعدها على السير. واستأذنت فى أن يلحق بها حشمها الى النطع متعهدة بأن تحماهم على السكينة وضبط العواطف.

واخترقت ساحة القصر فى ثبات. وجازت الى بهو التنفيذ، على قول برانتوم "فى فيض من الجلال والظرف كأنما تجوز الى بهو للرقص" وجلست على كرسى منخفض أعدّ لها، وجلس الى جانبها كنت وشروزبورى، ووقف الجلادان أمامها. فتقدّم منها أسقف بيتربره وأخذ يعظها بحماسة وخشونة، فأجابته إنها ترغب عن وعظه. وأخذت تصلى وحدها بخشوع وحرارة.

ولما دنا الجلاد منها لينزع بعض ثيابها أفهمته انها ستتولى ذلك بنفسها، وساعدتها وصيفتها جنه كندى على نزع ماوجب نزعه منها. ثم جثا الجلادان أمامها وطلبا اليها طبقا للتقاليد أن تصفح عنهما لاعدامهما إياها، فأجابتهما: انى أصفح عنكما من صميم قلبى لأنكما ستضعان حدا لكل آلامى.

ولبثت مكانها معتقدة أن رأسها سيقطع بالسيف كما تقضى امتيازات الأشراف، ولكن الجلاد أشار اليها أن تجثو وأن تضع رأسها فوق النطع. ثم شهر فأسه.

وكانت مارى استوارت تصلى دائما ومن حولها عاصفة من الزفرات والدموع .

فرفع الكونت شروزبرى عصاه إشارة بالتنفيذ، ثم حوّل وجهه مرتاعا .

فهوت فأس الجلاد . ولعله قد تأثر أيضا بما يحيط به من مظاهر الجلال والحزن والألم فضرب بيد مرتجفة ، ولم تسقط رأس الملكة المنكودة إلا بعد الضربة الثالثة .

وعندئذ رفع الجلاد رأسها البديع الدامى الى الجمع المحتشد وصاح كالعادة «أدام الله الملكة اليزابيث » .

وكان ذلك فى صباح اليوم الثامن من فبراير سنة ١٥٨٧

٦

يقول المؤرخ كامدن انه « ما كاد نبأ اعدام ملكة اسكتلنده يتلى على الملكة اليزابيث حتى بدت عليها إمارات سخط بالغ، فامتقع لونها، وتلعثم حديثها، ووقفت ذاهلة، ثم استسلمت الى حزن عميق، وارتدت ثياب الحداد، واغدقت الدموع، وأنبت وزراءها وطردتهم من مجلسها » . ومن الصعب أن نرى فى هذا المنظر غير مهزلة متقنة، وأن ننسبه لغير ذلك الرياء العميق الذى كان ظاهرة بارزة فى خلال الملكة اليزابيث . غير أن هنالك من يقول بان اليزابيث لم تعلم بتصرف وزرائها فى تنفيذ الحكم الابعد وقوعه، وأنها اضطرمت سخطا لأنهم اعتدوا بذلك على سلطة العرَش ووضعوا باستقلالهم فى الرأى سابقة خطرة على حقوقه وامتيازاته .

على أنه مهما كانت بواعث هذا الحزن الزائف ومهما كانت الأعذار والحيل التى لجأت اليزابيث اليها فى الفرار من تبعة دم مارى استوارت، فلا ريب أنها تحمل نصيبها من هذه التبعة قوية واضحة ، ولا ريب أنها كانت تتوق الى إهلاكها مذ وقعت اسيرة فى يدها حتى دبرت محاكمتها وقضى باعدامها .

يقول ڤولتير : « لم يشهد التاريخ محكمة أبعد عن الاختصاص، ولا رسوما أشد بطلانا . فقد قدمت اليها صور بسيطة من رسائل ، ولم تقدم اليها الأصول

قط ، واخذت المتهمة بشهادة أمينيها مع انها لم تواجه بهما قط ، وزعمت انها ظفرت بالدليل القاطع من اعتراف متآمرين ثلاثة اعدموا وكان ممكنا أن يؤجل أعدامهم حتى يواجهوا بالمتهمة . ولو اتبعت أبسط الاجراءات التى تقضى العدالة باتباعها نحو أقل الناس ، ولو أن نهضت الأدلة على أن مارى استوارت كانت تتلمس المساعدة والمنتقمين لما كان ثمة وجه لاعتبارها مجرمة . وما كان لاليزابيث عليها سوى قضاء القوى على الضعيف والمنكوب .

« لقد كانت اليزابيث تشعر بانها ترتكب عملا شائنا جدا ، جعلته أشد شينا بمحاولتها أن تخدع العالم ، ولم تخدعه ، وذلك بأن تظاهرت بالحزن على تلك التى أماتتها ، وادعت أن أوامرها انتهكت : ولكن أوربا روعت لقسوتها وريائها . والذى يزيد فى جرم اليزابيث أنها لم تكن مرغمة على ارتكاب هذه الشناعة » .

ويقول السير والتر سكوت : « إن الأدلة التى قدمت على اتهام ملكة اسكتلنده لم يكن فيها مايكفى لازهاق حياة أخس المجرمين . ومع ذلك فقد كان للمحكمة من القسوة والنذالة ما اعتبرت معه مارى مجرمة وأيد البرلمان الانجليزى هذا الحكم الجائر » .

واذا كان اعتدال المؤرخ لايذهب فى تبرئة مارى الى الحد الذى يذهب اليه حنان فيلسوف كڤولتير أو خيال شاعر وقصصى كوالتر سكوت ، فانه لايستطيع مع ذلك أن يرى فى كل مالجأت اليه اليزابيث ووزراؤها من تدبير المؤامرات والدسائس لايقاع الملكة الأسيرة ، ومن اصدار القوانين الخاصة لتطبق عليها ، واصطناع الأدلة لادانتها ، وحرمانها من وسائل الدفاع ، سوى محاولة مجرمة لاهلاكها ولتحقق بذلك غايات السياسة الغادرة . غير أن المؤرخ لايستطيع أن ينسى أيضا أن مارى استوارت لبثت طوال حياتها محورا لدسائس الكثلكة ، وبخاصة دسائس السياسة الاسبانية ، وأنها كانت حتى أثناء أسرها تتصل بأعداء انجلترا صلة مباشرة مستمرة ، وأنها كانت رمزا خطرا للمطامع الأجنبية فى انجلترا .

لم تكن مارى استوارت اذن تلك الشهيدة التى يصورها الخيال والشعر .

ولعل فى قول ڤولتير أبدع تصوير للأساء : « اذا كان هـذا العمل قد اسبغ سحابة على ذكرى اليزابيث، فمن الحماقة أن تقدس مارى استوارت كشهيدة للدين. انها لم تكن الاشهيدة أهوائها، ومقتل زوجها، وطيشها . وإن زلاتها ومصائبها لتشبه كل الشبه زلات جنة دى نابولى ومصائبها : كلتاهما حسناء نابهة، دفعها الضعف الى معترك الجريمة، وكلتاهما زهقت على يد آلها . وكثيرا مايعيد التاريخ نفس المصائب ونفس المحاولات، وجريمة تقمعها الجريمة » .

مراجع هذا الفصل

Brantôme : Vie des Dames Illustres.

H. Robert : Grands Procès de l'Histoire.

Voltaire : Essai sur les Mœurs.

A. Strickland : Life of Queen Elizabeth.

J. A. Froude : Short Studies on Great Subjects.

Hallam : Constitutional History of England.

Maccunn : Mary Stuart.

Alex. Dumas : Crimes Célèbres.

الفصل الرابع

محـاكمة أوربان جرانديـيـه

سـنة ١٦٣٤

كانت فكرة السحر من بين فكر العصور الوسطى أشدها مقاومة لجيوش العرفان والنور التي غزت المجتمعات المتمدينة منذ عصور الأشراق، وكانت من بين عناصر الخفاء أعرقها أصولا وأبعـدها أثرا، حتى لقد لبثت الى القرن الثامن عشر تحتفظ بكثير من سلطانها الذاهب على عقلية الجماهير والجماعات، بل نراها الى ذلك القـرن تمثل فى قوانين معظم الدول الأوربية وخصوصا فى القوانين الكنسية حيث كانت مزاولة السحر فى هاتيك العصور تعتبر جناية شائنة، ويفرض لها أشنع العقوبات من تعذيب واعدام ومصادرة للمـال . وكان "السحرة" فى العصور الوسـطى مثار الروع . وكثيرا ما كانت النظريات والتجارب العلمية والدعوات الحرة، تطبع بطابع السحر، ويحشر أقطابها فى زمرة السحرة. وفى وسعنا أن نلمس أثر الكنيسة واضحا فى هذا الميدان فان النظريات العلمية والدعوات الحرة كانت دائمـا أشد ما تخشاه الكنيسة على سلطانها المعنوى . ولم يكن سواد أولئـك " السحرة " سوى رجال نابهين ودعاة أحرار يعملون على تحطيم تراث الكنيسة، أو مغامرين حذقوا فى استغلال ظلمات الجهل التى كانت تسود عقول الكافة يومئذ. ومن ثم كانت صرامة القوانين الكنسية فى مطاردة السحر والسحرة، وكان الأثر البعيد الذى استطاعت الكنيسة أن تبعثه الى قوانين الدولة الخاصة بمعاقبة السحر والتنكيل بدعاته .

ونلاحظ دائمـا أن نشاط الكنيسة يشتد كلما هبت ريح جديدة من دعوات الخفاء تصـدع من نفوذها وسلطانها، وقد هبت مثـل هذه الريح على المجتمعات الأوربية منذ القرن السادس عشر، واتخذت مدى هذا القرن، ونصف القرن

التالى؛ صبغة السحر، فنشطت السلطات الدينية والمدنية فى مختلف الدول الى مطاردة "السحرة" وامعنت فيهم تعذيبا واعداما وحرقا . وكانت هذه التهمة كثيرا ما تتخذ سبيلا الى التخلص من فكرة أو شخص، وكان يسهل اثباتها دائما . وسنأتى فى هذا الفصل على سيرة غريبة توضح موقف الجماعات والسلطات ازاء فكرة السحر هذه، وماذا كانت تثيره من مختلف الاعتقادات، وماذا كان يتخذ ازاءها من الاجراءات الغريبة التى كانت مع ذلك عنصرا هاما فى تشريع هذه العصور .

ولسنا مع ذلك نرجع الى العصور الوسطى، بل الى القرن السابع عشر، والى مجتمع زاهر هو المجتمع الفرنسى، والى عصر لويس الثالث عشر ووزيره العظيم ريشليو .

* * *

وبطل هذه المأساة التى أثارتها خرافة السحر، أو بالحرى ضحيتها، رجل من رجال الدين هو أوربان جرانديه . وكان أوربان فى الوقت الذى نتحدث عنه ؛ أعنى فى أواخر سنة ١٦٣٠، فتى فى نحو الرابعة والثلاثين من عمره، حسن القد والمحيا، أنيقا فصيحا، يخلب الألباب بروائه وذلاقته، وكان ينتمى الى أسرة متوسطة فدرس فى حداثته الفلك والكيمياء على أبيه وعمه ثم درس اللاهوت فى كلية بوردو اليسوعية فأبدى ذكاء ونجابة، وأتقن اللاتينية واليونانية؛ وساعده الآباء عقب تخرجه فعين قسيسا فى كنيسة سان بيير فى مدينة لودان ثم عين بعد قليل عضوا فى مجلسها الدينى . فحقد عليه زملاؤه القساوسة لصغر سنه ، ولأنه كان غريبا عن المقاطعة وبالأخص لأنه كان يتفوق عليهم فى الثقافة والعلم وذلاقة الوعظ ؛ وأخيرا لأنه كان وافر الكبرياء والعزة يحرص على كرامته بشدة، ويدفع نقدهم بغلظة واباء.

والواقع أن أوربان جرانديه كان متقدما فى فكره على عصره ، وكان يجيش بنزعة الى التجديد والتحرير من سخف التقاليد، وكانت صرامة طباعه وقوة عزمه وحدة نفسه ترجع من بعض الوجوه الى احتقاره لضعة زملائه وضعة تقاليدهم وأساليبهم، فكان ذلك باعثا لهم على بغضه وتربص الفرص لايذائه . وكانت

الخصومة قد بدأت بالفعل بينه وبينهم منذ أكثر من عشرة أعوام . وكانت خصومات قضائية بادئ بدء انتصر فيها أوربان على خصومه وبالأخص على قس يدعى منيون انتزع منه منزلا كان ينازعه فى ملكيته . وكان منيون يومئذ عضوا فى المجلس الدينى ومديرا لدير الراهبات (الاورزلين) فاضمر لأوربان شرا مستطيرا .

وكان بدء الانتقام ان حاول خصوم جرانديه ثلم سمعته الدينية . وكانت سيدات لودان وفتياتها يؤثرن الاستماع الى وعظه لذلاقته وظرفه ، فاذاع خصومه أنه يغرى حسان السيدات . وكانت من بين تلميذات الدير فتاة حسناء هى ابنة نائب الملك ، وهو عم منيون أيضا . فمرضت ذات يوم واحتجبت فى منزلها فطارت الاشاعة بأنها وضعت خفية ، وان أبا الطفل هو جرانديه . وكان أثر هذه الاشاعات وأمثالها خطرا على مركز أوربان لأن كثيرا من الآباء والأزواج سخطوا عليه وخشوا أن يفتن بناتهم ونسائهم . وكان أشدّ مروج لهذه التهم عين من أعيان المدينة يدعى دوتيبو ، فلقيه أوربان ذات يوم عند باب الكنيسة وأنبه على قذفه ، فضربه دوتيبو بعصاه ، فسافر أوربان توا الى باريس والتجأ الى لويس الثالث عشر ، فاستمع الى ظلامته واحال قضيته ، وهى اهانة قس فى ثيابه الرسمية ، الى البرلمان .

ولكن خصومه انتهزوا فرصة غيبته ، فدبروا فى حقه تهما جديدة خطيرة خلاصتها أنه يفسق بالبنات والنساء فى الدير ، وأنه ملحد منكر ، فحقق القاضى الدينى فى هذه التهم وشهد على أوربان جماعة من خصومه ، وأحيلت القضية بعد ذلك الى أسقف بواتييه حيث للخصوم نفوذ وتأثير ، وكان هذا الأسقف يبغض أوربان لجرأته ، فأصدر أمرا بالقبض عليه . ووصل نبأ هذا القرار الى البلاط ، وأوربان فى باريس ، فأشار البلاط عليه أن يجيب عن هذه التهم الجديدة قبل أن ينظر البرلمان فى قضيته . فعاد الى لودان ، ثم توجه الى بواتييه حيث قبض عليه . ولبث شهرين فى سجن الاسقفية ولم يفلح خصومه فى اثبات ما قدموا ، ولم يتقدم لتأييد مزاعمهم أحد ، ولكن قضى عليه بالصوم مدى ثلاثة أشهر ، وحظر عليه مزاولة مهامه الدينية لأعوام طويلة ، فاستأنف الحكم الى مطران بوردو والى البرلمان ،

فحققت القضية ثانية، وكان التحقيق نزيها فى تلك المرة فانكشف التلفيق، وصدر الحكم ببراءته فى ٣١ مايو سنة ١٦٣١ وعاد الى مدينة لودان ظافرا يتحفز لمقارعة خصومه لأنه أيقن أخيرا أنهم أقوياء لا يغمض لهم عن سحقه طرف .

٢

وهنا بدء الحوادث الغريبة التى تعرض صور "السحر" وآثاره فى ذلك العصر، وتعرض بالأخص خطورة التهم المتعلقة به، وصرامة الشرائع ازاءها .

روع خصوم أوربان ظفره فاجتمعوا ثانية، وعرض منيون، وهو كما تقدّم روح هذه الخصومة وبطل ما سيتلو من الحوادث، مشروعا جديدا لاهلاك أوربان، فريدا فى نوعه ووسائله .

وكان منيون كما ذكرنا مديرا لدير الأخوات "الأورزلين" . ومؤسسته ورئيسته جنة دى بلفيلد، وبين راهباته عدّة من فتيات الأسر النبيلة . وكن لفقرهن يسكن فى منزل خاص اشترينه بثمن بخس لما أشيع من أنه مثوى للشياطين والأشباح . وكان مدير الدير الأوّل قد توفى، فأراد الراهبات أن يلهون بالتعزيم لاعادة الأشباح، فلم تمض أيام حتى أذيع أن الأشباح قد عادت، وانها كانت تركض فوق سقف الغرف، وأحيانا تجرؤ فتدخل الى الغرف ذاتها، وترفع الأغطية عن الأخوات وتجرّدهن من ثيابهن . فارتاع الراهبات وقررن اختيار مدير جديد للدير، وطلبن ذلك الى أوَربان أوّلا، فلما اعتذر لكثرة أعماله، وقع الاختيار على منيون .

فاعتزم منيون طرد الأشباح . ولكنه مالبث أن كشف حقيقة هذا العبث، وعلم أن التى تحدث هذه الأصوات وتأتى بهذه الفعال تلميذة لعوب صغيرة تدعى مارى أوربان، اعترفت بما ارتكبت، ولكنه أمر أن تستمر المهزلة أياما أخر حتى يقال أن الأشباح اختفت تدريجيا وحتى لاتلوث سمعة الدير، فصدع الأخوات باشارته .

وكانت هذه حال الدير حينما اجتمع خصوم أوربان لتدبير أمرهم، وعرض منيون مشروعه الغريب . فلم تمض أسابيع على هذا الاجتماع حتى ذاعت اشاعة مفادها

ان الأشباح عادت الى الدير بأشكال روحية خفية وان الراهبات قد احتوت عليهن الشياطين . ثم أذاع منيون أنه لا يستطيع بعد أن يرعى البنات المقدسات وحده. واستقدم لمعاونته قسا آخر يدعى باريه . وكان باريه رجلالا ارادة له ، يبالغ فى التظاهر بالورع والتصوف ، فكان بذلك عونا صالحا لمنيون على تنفيذ مشروعه .

وعلى أثر ذلك طارت الاشاعة بأن الشياطين قد احتوت على الراهبات جميعا ، وانها دفعت الى ذلك بفعـل ساحر . أما هذا الساحر فهو أوربان جرانديـيه الذى قربه الشيطان اليه ، وتعاقد معه فباع له روحه على أن يجعله أعلم أهل الأرض [1] .

وعكف منيون وباريه أياما على الاختلاء بالراهبات فى جلسات طويلة ينفقان الوقت على ما يقال فى الصـلاة والقاء التمائم لطرد الأرواح الخبيثة . وأخيرا أخطرا مأمور القضاء وحاكم المدينـة بالحضور الى الدير لرؤية راهبتين أصابهما الشيطان ، وما تعرض هذه الاصابة من الخواص الغريبـة ، وان الشياطين كانت قد احتوت على جميـع الراهبات فنجحا فى طردها بالتمـائم والصلاة المستمرة . ولكنها عادت فى ليلة ١٠ أكتوبر فاحتوت على الرئيسة جنة دى بلفيلد وراهبـة أخرى ، وانهما اكتشفا من التمائم ، ان رمز الميثاق الشيطانى الجديد باقة من الورد ؛ فحضر المأمور والحاكم وجماعة من القسس . ومددت رئيسة الدير وأخت أخرى كل منهما على سرير فى غرفة رحبة . فما أن انعقد الاجتماع حتى تولت الرئيسة هزات عنيفـة فأخذت تصرخ وتبدى اشارات وحركات غريبة . فقال منيون إنه سيسألها وستجيب باللاتينية رغم أنها لم تعرف هذه اللغـة قط . ثم تقدم منها وأمر بالسكوت المطبق وتلا بعض التمائم . وأخذ يسألها باللاتينية وهى تجيب أو يجيب الشيطان على لسانها . وخلاصـة ما قالت ، ان الشيطان احتوى على جسـمها كرها ، وبعقد من الزهور ،

---

(١) كانت فكرة السحر الجوهرية فى هاتيك العصور تقوم على محالفة الشيطان . وهذا الميثاق إما صريح أوضمنى ، وكل من قام بأعمال شيطانية يعتبر أنه قبل سيادة الشيطان . ونتيجة هذا الميثاق الانكار والالحاد ، اذ الشيطان على قولهم يمحو آثار الرسوم القدسية ، ويضع مكانها طابعه الخاص . ويجب على العضو طبقا لهذا الميثاق أن يشهد الشعائر الوثنية الرسمية ، والقداس الأسود ، وان يشترك فى جرائم التدنيس والقربان الدموى وغيرها من صنوف الاثم والاباحة .

وان الذى سلطه عليها هو أور بان جرانديبه راهب كنيسة سان بيير، ثم أفاقت على أثر ذلك وأخذ منيون يسعفها بالمـاء . واهتزت الراهبة الثانية بعد دقائق ، وحاول منيون سؤالها فلم تجب فكتب المأمور والحاكم محضرا بما شهدا وانفض الاجتماع .

وفى اليوم التالى عاد المأمور والحاكم ومعهـما كاتب التحقيق ، وأخطرا منيون ألا يعقد جلسات روحيـة أخرى دون حضورهما نظرا لخطورة المسألة، وأنهـما سينتدبان لاجراء التمائم رهبانا آخرين دفعا للشـبه، فأجاب منيون أنه لا يضمن أن تجيب الشياطين أحدا سواه . وأعيد نفس المنظر السابق فتولت الرئيسـة هزات عنيفة وسئلت وأجابت بمثل ما تقدم، فلما أراد القاضيان زيادة الايضاح قال منيون و باريه إن الشياطين قد تعبت، وأغرقا فى الصلاة، وأفاقت الرئيسـة وقالت إنها لا تذكر شيئا ممـا قالت .

أما جرانديبه فبادر برؤية مأمور القضاء وقدم اليه شكواه بالتحقيق مع منيون فى شأن هذه المهزلة الجديدة التى يراد بها أهلاكه، وطلب عزل الراهبات عن بعضهن، وفحصهن على يد رهبـان آخرين، فدون المأمور الشكوى واعتزم التحقيق مع منيون . ولكن منيون اعترض على اختصاصه قائلا إن أسقفه هو وحده المختص بذلك . فاخطره المأمور ألا يجـرى جلسات جديدة دون حضوره وأصـدر أمره بعـزل الراهبات المصابات واعتقالهن ليجرى فحصهن على يد أطبـاء و رهبان ذوى نزاهة . فاحتجت رئيسـة الدير بعدم اختصاصه أيضا وأبت تنفيـذ الأمر ، ودعا منيون و باريه بعض أطباء المدينة والرهبان لحضور جلسة جديدة ، فاضطر المأمور أن يذهب الى الدير لشهودها . وعقـدت الحفلة فى الكنيسة، وجلست الرئيسـة على سرير ، وألقى منيون و باريه القداس، والرئيسـة تهتز وتختلج . ثم أخذ باريه يسألها باللاتينيـة بعض أسئلة دينية وهى تجيب عنهـا ، وسألها عن اسم الشيطان الذى احتوى عليها فأجابت «اسموريه» . ثم جىء بالأخت كلير، وهى تئن وتصيح «جرانديبه، جرانديبه» وسألها باريه عن اسم الشيطان، فأجابت جرانديبه، وأنه يحتوى عليها بميثاق مزدوج . وأعيدت الجلسة عصرا . وطلب المأمور أمام الجماعة فصل

الراهبتين كل عن الأخرى . فلم يجرؤ القسان على رفض هـذا الطلب خيفة تسرب الشك . فعزلت الرئيسة وبدئ باستجوابها ، وهى تهتز وتضطرب كعادتها . وسئلت باللاتينية عن الشيطان والساحر . فاجابت باللاتينية انه أوربان جرانديبيه وأفاقت على أثر ذلك ، ثم كرر هذا المنظر فى اليوم التالى . وكانت الرئيسة تخطئ أثناء الاجابة فى اللاتينية . وهنا اقترح المحقق أن تقول الرئيسة كلمة (ماء) بالعبرية ما دام أن الشيطان يعرف كل اللغات . فاضطربت وتلعثمت ولم تجب . ثم سئلت بعد ذلك أسئلة أخرى أجابت عنها بان الساحر ، وهو أوربان جرانديبيه ، قد عقد مع الشيطان ميثاقا . وكان هـذا الجواب يلقى كما روينا فى خاتمة كل جلسة لأنه هو الغاية والمقصود .

وذاعت أنباء هذه الجلسات فى كل مكان . وعاد أوربان يكرر شكواه الى مأمور القضاء ، ويطلب عزل الراهبات وإجراء تحقيق نزيه . وكان يساعده فى شكواه تقرير الأطباء الذين شهدوا هذه المناظر إذ قالوا ان ماشاهدوه من الظواهر فى الراهبات قد يكون طبيعيا وقد يكون غير طبيعى ، وانهم لا يستطيعون ابداء قول حاسم فى الموضوع إلا اذا عزل الراهبات ، وتولوا هم السهر عليهن ومراقبتهن دون غيرهم . ولكن نائب الملك تنحى عن النظر فى الموضوع بحجة أن المسألة ترجع الى اختصاص القضاء الدينى دون سواه . أما أسقف بواتييه وهو المرجع الدينى فى هذا الأمر فلم يقبل إجراء تحقيق ما . ولكنه أرسل رهبانا آخرين من قبله الشهود الجلسات الروحية .

وطارت الأنباء فى جميع أرجاء فرنسا بأنه تحدث فى لودان ظواهر خارقة . فأوفدت الملكة وهى يومئذ حنة النمسوية (آن دوتريش) رسولا من قبلها ليشهد هذه الخوارق . وخشى مأمور القضاء والحاكم المدنى أن يخدع رسول الملكة فيدون فى تقريره ما يخالف تقاريرهما . فذهبا لحضور الجلسات الجديدة فى اليوم المحدد لعقدها . ولكنهما منعا من شهودها بحجة أنهما لاصفة لهما ، وان المسألة دينية محضة ، فبادرا باخطار أوربان ، فسارع بتقديم شكواه مفصلة الى مطران بوردو

الذى حماه من قبــل ، فاهتم المطران بالأمر ، وخشى أن يكون فيــه دسيسة مدبرة لاهلاك الراهب الفتى ، وأرسل طبيبه الخاص لفحص الراهبات المصابات بالأرواح الخبيثة ، فاستقبله منيون بجفاوة ، وأخبره بأن الشــياطين قد اختفت وأن الراهبات قد شفين قبل مجيئه . وشهد الطبيب أن الراهبات فى حالة طبيعية ، ولكن المطران أمر مع ذلك بندب رهبان من قبله لشهود التمــائم اذا أجريت . ولكن الشياطين لم تعــد ، واختفت الأشباح ، وأسبلت السكينة على هــذه الحوادث مدى حين .

٣

وكان ذلك فى ســنة ١٦٣٢ . وكان ريشليو ، الكردينال الدوق ، وزير لويس الثالث عشر يومئــذ ، فى ذروة نفوذه وســلطانه . وكان يهدم حصــون الأشراف أينما استطاع سعيا الى تحطيم نفوذهم الاقطاعى . فأمر بهدم حصن لودان ، وانتدب لهذه المهمة رجلا من صنائعه المتفانين فى خدمته وطاعته ، هو المستشار لو باردمون . فهبط لودان فى شهر أغسطس ، وفاوض عمدة المدينة فى مهمته ، وكانت حوادث الدير وغرائبه حديث القوم يومئذ ، وكانت عميدة الدير ، جنة دى بلفيلد من أقارب المستشار ، فتقدم منيون و باريه الى المستشار وقصا عليه ما حدث ، وما لحق بقريبته من اهانة وشين من جراء أوامر مطران بوردو ، وأقنعوه بالتوســط فى ذلك الأمر الخطير لدى الكردينال .

وكان لو باردمون أحد أولئك الرجال الذين لا يعدمون وسيلة لتحقيــق غايتهم مهما كانت من الروعة والضعة ، فالتمس الوسيلة وألفاها فى الحال . وذلك أنه كان ثمة من بطانة مارى دى مديتشى ، الملكة الوالدة[1] ، فتاة تقربها اسمها هامون ، وكانت هامون من لودان ، قضت حداثتها هنالك وعرفت راهبها الفتى النضر الأنيق أوربان جرانديه ونشأت بينهما صلة صداقة أو حب . ثم توالت الســنون ، واضطرمت الخصومة بين الكردينال ومارى دى مديتشى ؛ ونُشر ذات يوم نشــيد لاذع قاذف

(١) والدة لويس الثالث عشر .

فى حق الكردينال ، فنسب الى هامون وصيفة الملكة الوالدة . ورأى لوباردمون ومحترضوه أن ينسب النشيد الى أور بان لأنه كان كاتبا ،وكان يقرض الشعر أحيانا .
وأخذ لو باردمون الى الدير ومثلت أمامه مهزلة الشياطين باحكام فعاد الى باريس مقتنعا بصحتها وخطورتها ، وحادث الكردينال فى الأمر . وكان ريشليو فى الواقع يعرف القس جرانديبه ويحقد عليه أيضا لخصومات أسرها اليه أيام كان واعظا فى «كوسى» ، وكان جرانديبه يعترضه بصفته راهب لودان فى بعض الشؤون ، فلم يجد المستشار صعوبة فى إقناعه ، وسرعان ما حصل الأمر الملكى الآتى :

«انه أى لو باردمون ومستشاريه ، ينتقلون الى لودان وغيرها من الأماكن للتحرى عن كل ما نسب وينسب الى أور بان جرانديبه بخصوص اصابة الراهبات بالأرواح الخبيثة ،وعن كل ما تم فى ذلك الشأن ،وأن يشهدوا جلسات التمائم ويدوّنوا ما يرونه فيها ، وأن يحققوا كل ما يتعلق بها ، وأن يقوموا بمحاكمة جرانديبه المذكور وكل من ثبت اشتراكه معه فى جرمه حتى يصدر الحكم النهائى غير قابل لأية معارضة أواستئناف . وعلى الحكام والمأمورين والموظفين الملكيين ، أن يعاونوا فى تنفيذ هذا الأمر ... الخ »

واستصدر لو باردمون أمرا آخر بالقبض على أور بان جرانديبه وشركائه ، ووجوب إطاعة الحكام والمأمورين وغيرهم لما يلقيه بشأنه من أوامر ، وعاد الى لودان مزوّدا بهذا التفويض الهائل فى يوم ٥ ديسمبر . وفى صباح اليوم التالى قُبض على أور بان باسم الملك ، وفتش منزله فلم يوجد به شىء يؤخذ به ، وختم على غرفه وأثاثه ،وزج سجينا الى حصن أنجر ، ولبث هنالك أربعة أشهر مقطوعا من كل صلة بعيدا عن كل وسيلة للدّفاع عن نفسه ينفق وقته فى الكتابة والقراءة . وعبثا حاولت أمه ، وهى عجوز فى السبعين من عمرها ، التدخل والتضرع . ومضى المستشار فى تحقيقه حتى اختتمه فى يوم ٩ أبريل من سنة ٣٤ . وعندئذ جىء بأور بان من سجن أنجر الى لودان ، وزج الى سجن هيىء له فى منزل خاص .

وفى ذلك الحين تكاثرت الشياطين فى دير «الأورزلين» وبلغ الراهبات المصابات تسعا بعد اثنتين ، فقسمن الى ثلاث جماعات ، وعينت لمراقبتهن الأخت ميمان دى سيلى قريبة حاكم المدينة ، واختير لتعهدهن جماعة من الأطباء القرويين ، وصيدلى يدعى آدم وهو قريب لمنيون ، كان يزودهن بأشربة وعقاقير مريبة . أما الجراح فكان مانورى ابن أخى الراهبة ميمان . وانتهز اسقف بواتييه هذه الفرصة فعزل الراهبين اللذين عينهما المطران للرقابة فى الدير والجلسات وعين مكانهما آخرين من صنائعه ؛ وأعيدت جلسات التمائم والتجارب الخارقة فى الجماعة التى منها الرئيسة جنة دى بلفيلد ؛ وحضر الأطباء ولكنهم عجزوا أولا عن ابداء رأيهم بأكثر من أن المناظر والظواهر التى يرونها « هى خارقة تخرج عن علمهم وعن قوانين الطب » . ولكن جلسة حافلة عقدت فى يوم ٢٣ أبريل ؛ وفيها تولى الأب لاكتانس مندوب الأسقف استجواب الرئيسة . فقررت فى أثناء نوبتها أن فى جسم الراهب جرانديه خمس علامات رقمه بها الشيطان وأنه لا يشعر إلا منها ، فأصدر المستشار أمره بالتحرى عن صدق هذا القول . وفى يوم ٢٦ ذهب الجراح مانورى الى سجن الراهب وجرده من كل ثيابه ، وحلق كل جسمه ، وعصب عينيه ، وطرحه على المشرحة بحضور المستشار فلم يجد به سوى علامتين ، ولبث يجس مواضع من جسمه بمبضعه مسا سطحيا ، حتى اذا كان مكان العلامات التى قيل إنه يحس منها دفع الابرة فى لحمه بقوة . فصرخ الراهب ، ثم استغرق فى الصلاة رغم فداحة الألم . وفى اليوم التالى عقدت جلسة جديدة وأعيد استجواب الرئيسة . فكانت أقوالها ملأى بالاضطراب والتناقض . وعقدت جلسات أخرى للاخت كلير وباقى الراهبات ، وكن جميعا يزعمن أمورا بالنسبة لأوربان يظهر كذبها التحقيق . وكانت الخوارق التى يعد الرهبان بظهورها دائما تنقلب الى مهازل سخيفة ومن ذلك ماحدث فى جلسة ٢٠ مايو حيث فحص الأطباء الرئيسة بادىء بدء ليتأكدوا من سلامة جسمها وسلامة ثيابها ، وبعد أن لبث الأب لاكتانس حينا يغرق فى تمائمه وصلواته ، والرئيسة تهتز وتختلج ، عاد الأطباء وفحصوها فلقوا ثوبها وقميصها قد خرما فى عدة

أماكن، وجلدها مصابا تحت الثدى بعدّة خدوش، وقد لوث قميصها بالدم .وكان الغش واضحا حتى اضطرب المستشار نفســه لوجود عدّة من الكبراء والسادة فى الجلسة . وكانت لودان تغص يومئذ بجماعة كبيرة منهم أتوا ليشهدوا هذه الخوارق، ولكنهم أخذوا ينفضون فى النهاية عن المدينــة مكذبين ساخرين . وأذاع الراهب المتهم يومئــذ بيانا يفند فيه هــذه الألاعيب، ويدلل على كذبها وتلفيقها فى منطق قوى . ولكن المستشار سجل فى تقريره بالرغم من كل ذلك أن إصابة الراهبــات بالأرواح الخبيثة حقيقة لا شك فيها ، وأن ثلاثة منها قد أخرجت من جسم الأخت جنــة ديزانج من ثلاثة جروح بالقرب من منطقة القلب ، وسجل غير ذلك من الأساطير .

وفى منتصف يونيه قــدم أسقف بواتييه الى لودان ليسبغ قدومه على المسألة ما يجب لها من خطورة دينية وليقنع المنكرين، ويزيل ما أثير من شكوك وريب؛ وأذيعت على أثر ذلك بين الناس نشرات فيهــا حث على الايمان باستيلاء الشياطين على الأرواح البشرية لأن الملك والكردينال والأسقف وكبار الأحبار يؤمنون بذلك، وان المنكر يرتكب جريمة العيب فى الذات الملكية، ويعرض نفسه الى تهمة الاشتراك مع جرانديه . ثم عقدت فى يوم ٢٣ يونيه جلســة هامة وجىء بأوربان من سجنه ووجه بالراهبات لأول مرة وتليت عليــه أقوالهن وما ينســبن اليه من التعاقد مع الشيطان وتسليط الأرواح الخبيثة عليهن، فأنكر أوربان بشدّة كل علاقة بالشيطان، ثم أجريت التمائم وصاح الراهبات المصابات وهن يضطربن ويتأوهن متهمات أوربان بالسحر، وأوربان هادىء صامت لا يجيب بشىء إلا أن يطلب الى الأسقف والمستشار أن يأمرا الشــياطين ، ان ماكان ما تقوله حقا ، أن تدق عنقه اذا كان مجرما أو تطبعه بعلامة ما بشرط ألا يقربه الراهبات، فأبيا إجابة ملتمسه «إشــفاقا عليــه وخوفا أن تعرض هيبة الكنيسة لعبث الشياطين» ، وهكذا استمر الراهبات يصحن مضطربات مهتزات ويكررن أو تكرر الشــياطين على لسانهن ، أن أوربان ساحر آثم، ويسردن أزمنــة وأمكنة للقائهن به، ويشرحن وسائل احتياله عليهن

واتصاله بهن . وأوربان يجيب بهدوء انه برىء من كل هذه التهم، وانه لا يعرف الشيطان ويخشاه، ولا يلوذ إلا بالله والمسيح .

وكان التزييف ظاهرا والسخرية واضحة ، فكاد النـاس ينقلبون من الانكار الى السخط لهـذه المهزلة التى تدبر جهارا للايقاع بالبرىء، ولكن صرامة المستشار كانت تخرس الألسن ؛ هذا الى أنه صدر أمر رسمى يحرم على أى شخص أن يقول قذفا فى حق راهبات لودان المصابات بالشياطين أو فى حق الرهبان المكافين بتعهدهن ، ومن يفعل يعاقب بغرامة كبيرة ، فصمت النـاس وأمسك المنكرون عن كل جدل .

٤

ولكن شاء القـدر ، أن تفضح المهزلة على لسان الممثلين أنفسهم ، فقد حدث فى الغد حينما بدأ الأب لا كتانس باستجواب الأخت كلير فى جلسـة جديدة ، أن الأخت كلير نهضت باكيـة واتجهت نحو الحضـور وصاحت أن كل ما قالته عن أوربان جرانديه انما هو كذب وإثم ولم تقله إلا بتحريض منيون وزملائه . ولكن الأب لا كتانس لم يفقد سكينته بل قال فى هدوء وثبات ، ان هـذه حيلة جديدة يريد الشـيطان أن ينقذ بهـا وليه جرانديه . فطلبت الأخت كلير الى الأسقف والمستشار أن يتولى آخرون فحصهـا ؛ وصاحت بالحضور أن ينقذوها من الزلل ، ولكن صيحاتها ذهبت سدى ولم يجرؤ أحد على الكلام خوفا من العقاب ، وحملت الأخت كلير وهى تصيح وتصخب واعتقلت حيث كانت .

وحدث فى اليوم منظر أغرب ، فانه بينما كـان المستشار يستجوب فى الدير راهبة أخرى اذا بالرئيسة جنة بلفيلد قد نزلت الى ساحة الدير عارية القدمين وعليها قميص فقط ، وفى عنقها حبل الذنب ، ولبثت كذلك مدى ساعتين رغم دوى العاصفة وانهمار الغيث . فلما اجتمع المستشار والاسقف وباقى القضاة فى البهو ، صـعدت وارتمت عند قدمى لوباردمون وصاحت باكية أنها لا تقوى على تمثيل هذه المهزلة بعد ، وانها تشهد الله على ان اوربان جرانديه برىء من كل ما قالت وبأن ما تحمله

هى وزميلاتها نحوه من البغض انما هو رجعة الحب والهوى ، فان أوربان قد أثار فيهن بجماله جوى يضطرم وتذكيه عزلتهن القاتلة . فتوعدها المستشار وانذرها ولكنها أصرت على قولها وقالت : ان كل ما تخشاه الآن هو ألا يغفر ذنبها هذا ، فصاح المستشار انها حيلة جديدة للشيطان ، وهرولت الرئيسة الى حديقة الدير تحاول شنق نفسها فاحق بها الراهبات وحملنها فى حال يرثى لها ، وأمر المستشار بها فاعتقلت ولم تشفع قرابته لها .

وهنا خشى لوباردمون عاقبة هذه الفضائح ، وأراد أن يذهب الى الغاية توا فاعلن اختتام التحقيق وانتهاء التمائم ، وأعلنت المحكمة أن الحكم سيصدر على أثر ذلك .

وأيقن اوربان جرانديبيه انه هالك وأن ساعته قد دنت ، ولكنه قدم الى قضاته مذكرة قوية بدفاعه ينقض فيها ما نسب اليه بحجج متينة ومنطق واضح ، ويناشدهم فيها العدالة وخوف الزلل ، فلم يجد بيانه وتضرعه ، وأصدر القضاة حكمهم الآتى :

«صرحنا ونصرح بأن أوربان جرانديبيه المذكور مذنب بحق فى جريمة السحر والخبائث والاصابة الروحية التى حدثت لراهبات (الاورزلين) وغيرهن ، وماترتب عليها من جرائم ومنكرات ، وحكمنا ونحكم عليه بأن يقوم «بغرامة الشرف» فيسير عارى الرأس والحبل فى العنق وفى يده شمعة مضيئة وزنها رطلان الى عتبة كنيسة سان بيير ، ثم يقاد بعد ذلك الى الساحة العامة فيربط على محرقة ويحرق جسمه حيا مع المواثيق الشيطانية والتمائم السحرية ، ومع مخطوط الكتاب الذى ألفه ضدّ عزوبة الرهبان . ثم تذر حطامه فى الريح وتصادر أملاكه لجانب الملك ، ويقدم قبل كل ذلك الى التحقيق العادى وغير العادى ... الخ — قرىء فى لودان على جرانديبيه المذكور فى ١٨ أغسطس سنة ١٦٣٤» .

وفى صباح اليوم التالى انتقل المستشار الى السجن وأمر بأن يحلق لاوربان كل شعرة فى رأسه وجسمه . وهو اجراء يتبع بالنسبة للسحرة حتى لا يستطيع الشيطان أن يختفى فى مكان من جسم الساحر ويقيه ألم العذاب ، ثم نزعت ثياب المحكوم عليه واستبدلت بثياب خشنة ، وأخذ الى دار البلدية حيث غص المكان بطائفة من

الكبراء ورفيع السيدات جاءوا لشهود النطق بالحكم. وكانت المحكمة منعقدة والحراس في كل مكان . فأخذ اوربان الى الحاجز وتلا الكاتب عليه نص الحكم وهو يصغي اليه جامدا . وكان ينص على اعدام المتهم عقب التعذيب فى نفس اليوم، فلما انتهت التلاوة، أقسم اوربان بأقدس الايمان انه لم يكن ساحرا قط، ولم يرتكب قط اثما مما نسب اليه، والتمس الرفق والعدالة؛ فأخرج النظارة وأجاب المستشار أن لا سبيل الى الرأفة، وأمر بالمحكوم عليه فاخذ الى غرفة العذاب، وبدىء بعذاب الساقين، وهو نوع غريب وحشي من التعذيب، طريقته، أن يربط ساقا المحكوم عليه بألواح خشبية متعددة ربطا وثيقا محكما، ثم تدق بعد ذلك فيما بينهما أوتاد خشبية تنفذ الى لحم المحكوم عليه وعظامه فتدكها وتهشمها؛ ونفذ هذا الاجراء فى أوربان باروع أحكامه وتولاه المستشار نفسه مخالفا كل قانون، وبارك الراهب آلات التعذيب . أما أوربان فكان يصلي بصوت خافت، وهو يؤمر بالاعتراف فلا يجيب ويكرر انه برىء، وكلما أغمى عليه نبه ثم أعيد تعذيبه، حتى تناثر لحمه؛ وبرزت عظامه . ثم حمل مهشما على محفة، وعيناه تسطعان بحمى الألم، وأبى الاعتراف الى النهاية . وفى ذلك اليوم حمل الى عتبة الكنيسة وفى يده مشعل؛ وأدى هنالك عقوبة «الغرامة الشريفة» . ثم أخذ الى ساحة الاعدام، وأوثق بالنطع وقرىء عليه الحكم لآخر مرة؛ والرهبان من حوله يضجون بالصلاة طردا للشياطين .

ثم اشعلت المحرقة، وابتعد النظارة، وزهق «الساحر» المحكوم عليه فى غمر اللهب.[1]

مراجع هذا الفصل

ALEX. DUMAS: Crimes Célèbres.

ALF. DE VIGNY: Cinq-Mars ou Une Conjuration sous Louis XIII.

VOLTAIRE: Politique et Législation.

(١) يقول فولتير فى كتاب «السياسة والتشريع» فى كلامه عن السحرة معلقا على هذه القضية ما يأتى : « نعرف أن قضية الشياطين فى لوزان تسلم الى خالد الاشمئزاز والروع ذكرى أولئك الأوغاد الحمق الذين اتهموه (الراهب) اتهاما قضائيا بأنه سحر الراهبات الأورزلين، وأولئك النسوة الشقيات اللائى زعمن أن بهن مس من الشيطان، وذلك القاضى النذل لوباردمون الذى قضى على الساحر المزعوم بأن يحرق حيا، والكردينال ريشليو الذى أوفد لوباردمون ليشهد القاء التمائم على الراهبات، وليطرد الشياطين، وليحرق قسا» .

الفصل الخامس

معركة الدستور والحكم المطلق

١ – محاكمة تشارلس الأول ملك انجلترا

سنة ١٦٢٥ – ١٦٤٩

لعل صحف النضال بين الشعوب والعروش ، ومعركة الدستور والطغيان ، لم تشهد صراعا أروع فى حوادثه ، وأبعد فى مداه ، وأعمق فى آثاره ، من ذلك الذى اضطرم لظاه فى أواسط القرن السابع عشر بين الشعب الانجليزى والملوكية الانجليزية ، وبين حكم الدستور والحكم المطلق ؛ ففيه هيضت حريات شعب بأسره ، وشلت نظم برلمانية تالدة زهاء عشرين سنة ، ثم دفعت الملوكية ثمن عسفها رأس ملك ، سقط على النطع قبل أن يسقط رأس لويس السادس عشر ، الذى يعتبر ازهاقه رمزا للقضاء على شخص الملوكية والحكم المطلق ، بنحو قرن ونصف .

ذلك الملك الذى كفر بحياته عن انتهاكه لحريات شعبه هو تشارلس الأول ملك بريطانيا العظمى وارلنده . وقد ولى الملك فى سنة ١٦٢٥ ، وهو فتى فى الخامسة والعشرين من عمره ، وريح الخلاف الدينى والسياسى تعصف منذ بعيد بطوائف الشعب الانجليزى . وكانت الأهواء التى تمزق المملكة يومئذ " يغذيها اضطراب عام يملأ جميع الأذهان ، واضطرام عنيف مدبر لتغيير دستور الدولة ، وخطة للملكيين سيئة التدبير لاقامة الحكم المطلق ، وهيام الأمة بحب الحرية ، وظمأ مجلس النواب الى السلطة ، وأمنية غامضة للاحبار فى سحق الحزب الكلفينى (البروتستانتى)[1] " . وكان تشارلس يعتنق نظريات أبيه جيمس الأول فى الحكم المطلق ، ولكنه كان أقوى منه ارادة وأشد اقداما فى تنفيذها . وكان يتصف ببعض الخلال الحسنة

---

(١) فولتير Essai sur Les Moeurs

كذلاقة فى القول والكتابة ، ووقار فى التصرف، واستقامة فى حياة الأسرة، ولكنه كان وافر الغدر شغوفا بالوسائل الملتوية المظلمة .

وكانت بوادر المعركة الدستورية الكبرى التى علقت بها مصاير الشعب الانجليزى قد أخذت تبدو منذ أواخر حكم جيمس الأول . وكان على رأس مجلس النواب (العموم) يومئذ ساسة عظام اعتزموا أن يضعوا العرش فى موقف الفصل، فاما أن يحكم طبقا لرغبات البرلمان ، واما أن ينتهك أقدس مبادئ الدستور . وسرعان ما ألفى تشارلس نفسه مرغما على الاختيار، وسرعان ما حمله هواه « الذى تغلب عليه نزعة بغض راسخ للنظم البرلمانية[1] » على اختيار طريق الانتهاك والعنف . ووقعت أول مشادة بين العرش والمجلس بسبب المطالبة باعتمادات مالية لحروب يفكر العرش فى خوضها ، فلم يقر المجلس إلا القليل منها . ففى الحال عمد تشارلس الى حل البرلمان فى أغسطس سنة ١٦٢٥ ولما يمض على حكمه بضعة أشهر، واستدعى برلمانا جديدا اجتمع فى فبراير سنة ١٦٢٦ ، ولكنه ألفاه أشد مراسا من سلفه، وأحرص على تنفيذ سياسته والاحتفاظ بحقوقه وسلطاته . فتقدم الى النواب فى ٢٩ مارس سنة ١٦٢٦ واتهمهم بأنهم يلجئونه الى إشهار الحرب ، وينتهزون فرصة متاعبه لتحقيق غاياتهم، ومما قال لهم : « أرجوكم ألا تخدعوا، فهذه ليست طريقة برلمانية، وليست تصلح لمعاملة ملك، واذكروا أن البرلمانات إنما هى جميعا فى قبضة يدى سواء بالنسبة لاستدعائها أو جلوسها أو حلها، وانها تبقى أو لا تبقى طبقا لما أرى فى ثمار عملها من خير أو شر» .

ولم تمض أسابيع حتى أمر تشارلس بحل البرلمان ثانية، وألقى زعماء المعارضة الى السجن، وفرض على الشعب ما شاء من الضرائب، واستدعى برلمانا ثالثا اجتمع فى ١٧ مارس سنة ١٦٢٨ . ولكن البرلمان الثالث لم يكن أقل معارضة ولا حرصا على حقوقه من سلفيه، فأبى أن يبحث فى أمر ما قبل الفصل فى المسألة الدستورية . ورأى تشارلس أن لا مناص عندئذ من تغيير سياسته، فعقد اتفاقا بينه و بين البرلمان

(١) هالام : Constitutional History England.

يعرف «بالتماس الحق» (Petition of Right) وهو من أعظم دعائم الدستور الانجليزى، وفيه يتعهد الملك ألا يفرض أية ضريبة دون مصادقة البرلمان، وألا يسجن أحدا إلا وفقا لنص القانون، وإلا يخضع شعبه لحكم المجالس العسكرية. وأقر البرلمان من جانبه اعتمادات مالية كبيرة.

ولكن سرعان ماتبين أن الملك لا ينوى أن يفى بعهده، وسرعان مانكث العهد الذى قطع ثمنا لاقرار الاعتمادات. وكان «يفوق فى ذلك أشد الطغاة غدرا»[1]، فثار النزاع بينه وبين المجلس ثانية، وعاد فلجأ الى سلاح الحل، فحل البرلمان للمرة الثالثة على يد جنده، وقبض على أقطاب المعارضة، وزج بهم الى السجن ومات زعيمهم السير چون اليوت فى البرج غما وألما، وأبى تشارلس حتى أن تسلم جثته الى ذويه.

ومع ذلك فان تشارلس لم يجرؤ أن يستفيد من هذه الحرية فى فرض الضرائب الى الحد الذى يكفى لمتابعة الحرب، بل آثر أن يعقد الصلح، وأن يتفرغ لمعالجة الشئون الداخلية.

وهنا يبدأ عهد جديد فى تاريخ الدستور الانجليزى. ذلك أن كثيرا من ملوك انجلترا كانوا يرتكبون، بين حين وآخر، أعمالا غير دستورية، وكان آل پلانتا جنيت وآل تيودور يلجأون الى سد العجز المالى بفرض القروض الجبرية أو ما يماثلها، ولكن أحدا منهم لم يحاول قط بخطة موضوعة منظمة أن يجعل من نفسه ملكا مطاقا أو أن يجعل من البرلمان ألعوبة أو لا شىء. أما تشارلس الأول فقد فكر فى تحقيق مثل هذه الغاية فعطل البرلمان الانجليزى من مارس سنة ١٦٢٩ حتى أبريل سنة ١٦٤٠، ولم يشهد التاريخ الانجليزى قط مثل هذه الفترة الواسعة بين برلمان وبرلمان. وأخذ تشارلس فى تلك الفترة التى خلا فيها الجو للعرش، ينتهك نصوص "التماس الحق" بأسلوب مقرر منظم، ويجبى معظم الدخل بطرق منافية لشرائع البلاد، ويقبض على كل معارض ويلقى به الى غيابة السجن دون استجواب

---

(١) هالام.

أو محاكمة، ويجعل من نفسه رئيس حكومته، ويمزج التشريع بالتنفيذ، ويستعين برجال يرون فى الحكم رأيه،وتهيئهم كفاياتهم لتحقيق غاياته . وكان زعيمهم توماس ونتورث الذى منحه الملك لقب "إيرل سترافورد"، وكان إيرل سترافورد رجلا قادرا لسنا، جريئا، ولكن طاغية شديد البطش. وكان تشارلس يرجع اليه فى جميع شؤونه السياسية والحربية ، وكان قبل ذلك من أقطاب المعارضة « ولذا كان يشعر نحو أولئك الذين نبذهم بذلك الحقد الذى هو ظاهرة المرتدين فى كل العصور . وكان يحسن فهم مشاعر الحزب الذى نبذه ويقدر موارده وسياسته. وكان يريد أن يعمل فى انجلترا كل ما عمله ريشليو فى فرنسا وأكثر منه، فيجعل من تشارلس ملكا مطلقا كأى ملك مطلق فى القارة، ويضع أملاك الشعب وحرياته الشخصية رهن تصرف العرش،وينزع من القضاء كل استقلال فى السلطة،ويبطش بكل من تذمر من عمل الحكومة[1] " لهذه الغاية عمل سترافورد . ورأى خير وسيلة لتحقيقها إنشاء جيش ثابت، ولم يدخر فى ذلك السبيل وسعا ولا موردا . وبث روح الطغيان فى كل ناحية من نواحى الحكومة ، وأسبغ على محاكم العرش الاستثنائية سلطات واسعة ولا سيما « قاعة النجمة » و « اللجنة العليا[2] » والأولى سيف الطغيان السياسى ، والثانية سيف الطغيان الدينى . فكانت هذه المحاكم ترتكب من صنوف العنف والشدة والجور ما لم يسمع به من قبل . وكانت الحكومة تستطيع بواسطتها أن توقع ما شاءت من أحكام الاعدام والسجن والغرامة والمصادرة . وكانت كل يوم تتحدى سلطة البرلمان وتذهب فى الاغراق الى أبعد الحدود .

وهكذا لبث تشارلس الأول يحكم دون برلمان وخيل للامة انها لن تسمع بعد بالنظم البرلمانية . غير أن هذا الحكم المطلق كانت تنقصه دعامة متينة هو جيش قوى يؤيده . وكانت حاجة العرش الى المال عقدة العقد . ومن ثم كانت جهود تشارلس المستمرة فى فرض الضرائب والغرامات واغتصاب ضياع النبلاء

(١) اللورد ماكولى : History of England.

(٢) قاعة النجمة The Star Chamber واللجنة العليا High Commission

بحجة بطلان سبب الملك . وأقام سترافورد فى إرلندا حكومة مطلقة جائرة ، واستلب المال من كل ناحية وبكل وسيلة . على أن هذه السياسة الحديدية كانت تزيد أعداء العرش كل يوم وتذكى سخط الأمة جميعا وكانت . الأمة تخشى بالأخص على دينها من سياسة تشارلس لأنه كان يمالئ لود أسقف كنتربرى فى تنفيذ نظرياته الأرثوذكسية وفى فرض الرسوم والطقوس الجديدة ؛ ويمعن فى سياسة الحظر والاضطهاد والتدخل فى شؤون الدين والشعائر ؛ واتبع تشارلس سياسة الاضطهاد الدينى فى اسكتلندة أيضا ولكن الشعب السكتلندى لم يصبر على هذا التدخل فثار نصرة لدينه وحرياته ، ونهض الزعماء وحشدوا القوات المسلحة ، وعبروا نهر التويد وقاتلوا جنود الملك فى برويك واضطروه الى توقيع معاهدة تقرر إحالة النزاع الى جمعية عمومية (سنة ١٦٣٩) ، واجتمعت الجمعية وقررت ما رأته فى صالح الشعب السكتلندى ، ولكن تشارلس غلبته نزعة الغدر المتمكنة من نفسه فأبى المصادقة على قراراتها .



تشارلس الأول

وكانت متاعب الملك تتفاقم ، وحاجته الى المال تشتد . وكان سترافورد قد عاد من إرلندا واستأثر بنصح الملك فأشار عليه بدعوة البرلمان من جديد ليقرر تحصيل الأموال اللازمة وبذا يستطيع مواصلة الحرب مع اسكتلندا .

وهكذا التجأ تشارلس من جديد الى دعوة البرلمان ، فاجتمع فى ١٣ أبريل سنة ١٦٤٠ ، واستبشر الشعب خيرا بعود الحياة الدستورية . وكان مجلس النواب الجديد أكثر اعتدالا ، وأشد احتراما للعرش من أى مجلس عقد منذ عهد الملكة اليزابيث . وقد اعجب بهذا الاعتدال أنصار العرش أنفسهم ، واستاء

زعماء المعارضة . ولكن طبيعة تشارلس الأول لم تجنح الى وفاق ولم تذعن لمطلب . فلما أبدى النواب ميلا الى البحث فى مظالم الامة قبل بذل الأموال المطلوبة أمر الملك بحل البرلمان فى ٥ مايو سنة ١٦٤٠ أى بعد ثلاثة أسابيع فقط ولذا سمى «بالبرلمان القصير» . وعاد الملك الى أساليب العسف والقمع، وسجن بعض الأغنياء الذين رفضوا اقراض المال، وأخذ يستعد للحرب. بيد أن مركزه كان حرجا، وكانت قواته مختلة وموارده ضئيلة . وكان الشعب الاسكتلندى تؤازره المعارضة البرلمانية، ويعطف عليه الشعب الأنجليزى.. وفى أغسطس سنة ١٦٤٠ اقتحم السكتلنديون نهر التويد ثانية وهزموا قوات الملك فى نيوبورن واحتلوا درهام ونيوكاسل . فعقد تشارلس مجلسا كبيرا من الأعيان لبحث الحالة، ثم عقدت معاهدة ريبون بين الفريقين، وسلم الملك بجميع مطالب الأمة السكتلندية الثائرة .

وهكذا كانت النتائج التى ترتبت على محاولة تشارلس ان يحكم بلا دستور، وأن يسحق رغبات الامة: كانت اسكتلندة تضطرم بثورة ظافرة، وارلندة تنتظر الاشارة للثورة؛ وانجلترا تزداد تمسكا بالدستور، وهيبة البرلمان فى صعود .

•

ففى هذا المأزق العصيب، الذى نضبت فيه موارد تشارلس وتضاءلت سلطته حتى فى معسكره، وانهارت كل أسباب الثقة فيه، اذعن لضرورة الموقف ودعا البرلمان من جديد فانعقد فى ٣ نوفمبر سنة ١٦٤٠، وهو « ذلك البرلمان الشهير الذى يستحق رغم ما ارتكب من أخطاء، وما نزل به من نكبات، الاجلال والعرفان من جميع أولئك الذين ينعمون فى أية بقعة من بقاع الأرض بنعم الحكومة الدستورية» (١) .

وكان العام التالى عام انتصاف الشعب وفوز الدستور، وفيه أرغم العرش على قبول مطالب الامة فتقرر ألا يفصل بين عقد برلمان وآخر أكثر من ثلاثة أعوام، وألغيت المحاكم الاستثنائية، وأطلق سراح المسجونين السياسيين، وعزل وزراء العرش الطغاة، وألقى لود أسقف كنتربرى الى البرج، وأرغم الملك أن يوقع

(١) اللورد ماكولى .

بيده أمر اعدام مستشاره وصفيه سترافورد[1]، ووقع فى نفس الوقت قانونا يتعهد فيه ألا يؤجل برلمانا قائما دون رضاه . وفى نوفمبر سنة ١٦٤١ قدم المجلس الى الملك تقريرا يعرف «بالعتاب الأكبر» يسرد فيه أخطاء العرش، ويطلب تعيين وزراء يرضى البرلمان عنهم. واضطر الملك بعد ذلك بأسابيع أن يسند الوزارة الى زعيمين من زعماء المعارضة، وأن يعد بألا يقرر أمرا خطيرا دون رأيهما، غير انه أقدم دون علمهما على ارتكاب جرم شنيع اذ حاول أن يقبض بالقوة المسلحة على خمسة من أعضاء المجلس اتهمهم بالخيانة العظمى . ولكن المجلس وقف على مشروع البلاط فى الوقت المناسب، وفر الأعضاء الخمسة قبل أن يفد الملك وجنوده الى وستمنستر (دار المجلس). وكان ذلك خرقا شنيعا للحريات البرلمانية، وللتقاليد القديمة المرعية، اذ أن ملكا انجليزيا لم يدخل قط دار النواب لاقبل عهد تشارلس ولا بعده .

وهنا انفجر بركان من السخط فى البرلمان وفى البلاد ، وشعرت الأمة انها بينما ترتد بعطفها وثقتها الى العرش ، اذا بالملك يسدد ضربته القاتلة الى أثمن حقوقها وحرياتها ، واذا به يكشف عن رأيه فى اعتبار المعارضة لخططه جريمة يجب التكفير عنها بالدم ، وشعر زعماء المجلس أن سلطانهم وهيبتهم بل أموالهم ورقابهم تغدو فى خطر العدم اذا رفعوا لواء الخصومة أو المقاومة ، فذكت حماسة المعارضة دفعة واحدة ، ولم تنقض ليلة ذلك الحادث حتى كانت مدينة لندن كلها تتقلد السلاح ، وغصت الطرق المؤدية الى وستمنستر بجماهير مسلحة تحمل فى قبعاتها شارات المجلس ، واستعادت المعارضة كل سلطانها وسادت المجلس ، وأصدرت أشد القرارات ضدّ العرش ، واحتاطت بدار المجلس قوات مسلحة لتحرسه ، وأخذت الجماهير المسلحة الصاخبة تحاصر قصر الملك فى كل يوم وترسل اليه صواعق السخط واللعن . ولو بقى تشارلس بعد ذلك طويلا فى عاصمته الثائرة لالتمس النواب حجة لاعتقاله ، ولكنه غادر لندن فى ١٠ يناير سنة ١٦٤٢ ، لأيام فقط من انفجار الثورة ، والمظاهرات الصاخبة تحيط بموكبه : غادرها ليتأهب للحرب ، ولكنه

(١) سنأتى على محاكمة ايرل سترافورد فى الفصل التالى .

لم يعد اليها إلا يوم الحساب الأكبر، يوم استعاده الشعب الظافر ليسلمه الى نطع الجلاد .

وبدأت المفاوضات بين البرلمان والملك، وأخذا يتبادلان التهم ؛ وأدرك الملك عندئذ عاقبة غدره ، وعبثا عاد يقطع العهود على نفسه ويستشهد بالله على اخلاصه، ولم ينجع عهد ولا ميثاق فى إزالة الشك الذى أحاط به . كان نواب الشعب على يقين من أنهم لن يأمنوا على حريات الشعب إلا اذا جرد تشارلس من كل حول وقوة . ولذا تقدّموا اليه بطلب التنازل لا عما انتزعه لنفسه من سلطات وامتيازات تنافى الدستور والقانون فقط، بل أيضا عن كل امتياز وسلطة أخرى خولت منذ أقدم العصور الى ملوك انجلترا وما زالوا يملكونها حتى اليوم . وخلاصة مطالبهم ألا يعين وزير ، أو يخلق عين دون إذن البرلمان ، وأن يتنزل الملك عن سلطة الحرب والسلام التى خولت للعرش منذ أقدم عصر . وهذا التغيير الذى أراد النوّاب إجراءه فى الدستور الانجليزى هو الذى نفذ عقب الثورة الانجليزية أعنى بعد ذلك بنحو جيل فيما يتعلق بتعيين الوزارة واستقالتها ، وهو أن الملك وإن كان يعيّن وزراءه بالاسم والقانون ، إلا أن وزارة ما لا تستطيع أن تستمر فى مناصبها ستة أشهر رغم إرادة مجلس النواب . وهنا برزت ظاهرة غريبة فان سواد الامة كان متعلقا بالملوكية؛ ولم يك أنصار الجمهورية سوى أقلية ضئيلة ، وإذن كان مستحيلا أن تلغى الحكومة الملكية؛ وكان عبثا فى نفس الوقت أن يقنع النوّابَ من الملك بوعود جديدة . لذلك رأى نوّاب الشعب أن يفرقوا بين شخص الملك وبين امتيازات الملوكية، وأن تكون للبرلمان يد عليا فوق السلطة التنفيذية .

كانت هذه جهود عقيمة مع ملك لا يذعن ما بقيت أمامه سبيل للمقاومة . أصر نواب الشعب وأصر تشارلس. وفى أغسطس سنة ١٦٤٢ جُرِد السيف أخيرا. وانقسمت الأمة فى كل ناحية وبقعة الى فريقين خصيمين، واختلطت سلطات العرش بسلطات البرلمان، وامتلك البرلمان ناصية لندن وما حولها من المقاطعات ونهر التيمز ومعظم الثغور والمدن الكبرى؛ واستولى على موارد البلاد الحربية وفرض

الضرائب على الصادر والوارد . أما الملك فكانت موارده ضئيلة فى الرجال والذخائر ، وكانت الضرائب التى يفرضها على الأراضى التى تحتلها جنـوده لا تسد كبير حاجة ، وكان جل اعتماده على كرم أنصاره من النبلاء الذين باعوا أو رهنـوا ضياعهم وجواهرهم . ومع ذلك فقد كان جنود الملك ، ومعظمهم من السـادة وأتباعهم ، أكثر دربة وكفاية من جنود البرلمـان ، ومعظمهم من الفلاحين الذين لم يتقـلدوا السلاح ولم يعرفوا ميـدان الحرب من قبـل . ونشبت أول معركة بين الفريقين فى « ادجهل » فى أكتوبر ، واحتل الملك اكسفورد ولكنه عاد فارتد أمام القوات البرلمـانية فى ترنهام جرين فى نوفمبر ، ولم يرد أن يشتبك فى معركة حاسمـة . وكان البرلمـان يتعثر فى اختيار قادة جيشه فاختار قائدا بعـد قائد وفى كل مرة يهزم قواده أمام القوات الملكية ، فلم يمض عام حتى رجحت كفة الملكيين ، ولا سيما فى الولايات الغربية والشمالية ، واستولوا على مدينـة برستول ، وانتصروا فى عدّة معارك . وأقام الملك بلاطه فى اكسفورد واسـتقر هنالك . وارتاع البرلمـان ورأى أن يحصن مدينة لنـدن ، وكثرت الوشايات والدسائس وفر كثير من الكبراء الى اكسفورد . ولو اعتزم تشارلس أمره عندئذ وقام جيشه بهجوم قوى منظم على العاصمة لانتزعها وغير وجه المأساة ولكنه ارتد عنها الى مدينة جلوستر ، فحاصرها فى أغسطس سنة ١٦٤٣ فقاومته المدينة بعزم وشدّة وأثار مثلها البديع مدينـة لندن ، وعاد فأذكى ما خمد من حماستها ، فاحتشدت جماهير المتطوعين ثانية ، واجتمعت فى الحال قوة كبيرة وسارت غربا لانقاذ المدينة المحصورة فرفع الملكيون الحصار وخبت همتهم ، وثبطت شجاعتهم ، وعاد الكبراء المرتدون من اكسفورد الى وستمنستر واستعاد البرلمـان كل عزمه وسـلطانه .

ولكن ظهـرت داخل البرلمـان فى ذلك الحين ظاهرة سياسية جديدة ؛ وكان هنالك منذ البداية فى الحزب البرلمـانى ، رجال يرون إجراء انقلاب كان يرتاع سواد الحزب لإجرائه . وكان أولئك الرجال من أحرار المفكرين ؛ محايدين فى الدين أو مستقلين ، وكانوا فى السياسة «راديكاليين» يرون أن يقيموا جمهورية على أنقاض

الصرح السياسى القديم . وكانوا فى المبدأ أقلية ضئيلة ولكنهم غدوا فى ظرف عامين من نشوب الحرب أقوى حزب فى البرلمان وان لم يغدوا أكبره، وكان الميدان قد خلا من الزعماء القدماء مثل بيم وهمبدن وبدفورد ونورثمبراند واسكس إذ مات بعضهم وفقد البعض الآخر ثقة الشعب[1] . ففى هذا الظرف رفع المستقلون رؤوسهم، وبرزوا الى الأفق السياسى، سواء فى البرلمان أو ميدان الحرب . وكان روح هذا الحزب رجل دفعت به خلاله السامية الى الطليعة ، هو أوليفر كرمويل . وكان وقتئذ قد جاوز الأربعين من عمره، وقد نشأ ليعتنق المهن المدنية ، ولكنه قبل منصبا عسكريا فى الجيش البرلمانى . وسرعان ما أدرك بذكائه سر تفوق القوات الملكية ؛ ورأى وجوب تنظيم القوات البرلمانية، وحشد اليها رجالا أولى ضمائر يخشون الله ويرعون الوطن . وملأ فرقته برجال من ذلك الطراز ؛ وفرض عليهم أنظمة محكمة صارمة . وسرعان ماشهدت حوادث العام التالى براعتـه ؛ إذ هزم الملكيين



اوليفر كرمويل

فى الشمال فى مرستون مور هزيمة شديدة (سنة ١٦٤٤) ، واشتد ساعد حزبه ، وانضوى سواد الزعماء تحت لوائه ، فعمد من فوره الى تغيير القادة واستبدال الرؤساء فى روية وحكمة ، وأخذ فى تنظيم الجيش على نحو ما نظم فرقتـه ثم وقعت

(١) اللورد ماكولى .

على أثر ذلك أول موقعة كبيرة بين القوات البرلمانية المنظمة و بين الملكيين في نيزباى ، فانتصر البرلمانيون انتصارا حاسما شاملا ، وتلا ذلك انتصارهم فى عدة وقائع ، ولم تمض بضعة أشهر حتى بسطت سيادة البرلمان فى كل ناحية . أماتشارلس الأول فلبث حينا فى اكسفورد يحيك شباك المؤامرات والدسائس ، و يدبر مختلف المشاريع لاستعادة سلطانه ، يفاوض الدول الأجنبية ، و يفاوض البرلمان ، ويعد الكاثوليك فى نفس الوقت بالحرية الدينية اذا ساعدوه وساعده البابا على عودة الملوكية . ولكن القوات البرلمانية كانت تتقدم نحو اكسفورد ، فاضطر الملك الى مغادرتها فى ٢٧ أبريل سنة ١٦٤٦ والتجأ الى معسكر الجيش الاسكتلندى فى نيوارك فى ٥ مايو وسار معهم الى ثغر نيوكاسل . وفى نيوكاسل وصلته مطالب البرلمان المعروفة « باقتراحات نيوكاسل » ، فماطل فى الرد عليها مؤملا أن يستعين بمحالفة السكتلنديين على غزو انجلترا واستعادة ملكه . ولكن السكتلنديين شددوا فى شروطهم ومطالبهم الدينية ، وأبى تشارلس اجابتهم اليها ؛ وفى أثناء ذلك دارت المفاوضات بين البرلمان و بين السكتلنديين ، فرضوا بالانسحاب الى الشمال مقابل دفع البرلمان لمتأخر رواتب جيشهم ، وانسحبوا الى ديارهم فى ٣٠ يناير سنة ١٦٤٧ وأسلموا تشارلس الأول الى المندوبين البرلمانيين ، فقادوه الى «هولمباى هوس» . وفى ١٢ مايو أرسل تشارلس رده عن « اقتراحات نيوكاسل » مقررا قبوله لبعضها ، واستؤنفت المفاوضات بينه و بين البرلمان ، ولكن حدث أثناء ذلك أن أصدرت القيادة العليا أمرها بالقبض على الملك فقبض عليه بغتة فى ٣ يونيه سنة ١٦٤٧ وأرسل سجينا الى قصر « همبتون كورت » .

* * *

أسر تشارلس الأول ؛ ولكن المفاوضة استؤنفت بينه و بين كرمويل والبرلمانيين ، وكرر البرلمان مطالبه فى مسائل السلطة والمسؤلية الوزارية ، والدين ؛ وخلق الأعيان ، واستثناء بعض الملكيين من العفو ، و إقصائهم عن المناصب ؛ ولكن تشارلس كان

فى نفس الوقت يفاوض السكتلنديين سرا فى غزو انجلترا[(١)]، ويحاول من ناحية أخرى التأثير فى كرمو يل وزميله فيرفاكس بالوعود والمنح . وفى ٩ سبتمبر رفض الملك مطالب البرلمان مرة أخرى، وأخفق فى نفس الوقت فيما دبر من ضرب الأحزاب والقادة بعضهم ببعض . فوضع الجيش والبرلمان شروطا جديدة ، ولكنها قبل أن تقدم ، فر تشارلس من سجنه فى ١١ نوفمبر سنه ١٦٤٧ الى حصن برسبروك فى جزيرة « ويت » .

وهنالك استأنف الملك الفار مفاوضاته مع السكتلنديين ، وفى ٢٦ ديسمبر سنة ١٦٤٧ عقد مع مندوبيهم معاهدة سرية تقضى بأن يغزو الجيش السكتلندى انجلترا ليرد الملك الى عرشه ؛ على أن يجيب الملك مطالب اسكتلندا الدينية؛ ومن ثم نشبت الحرب الأهلية الثانية وغزا السكتلنديون انجلترا بقيادة المركيز هاملتون . وثار الملكيون فى نفس الوقت فى عدة أماكن . ولكن الملكيين وحلفاءهم أخطأوا تقدير عزم كرمو يل واهبة جيشه ، اذ سرعان ما اخمدت الثورات الملكية فى كل ناحية وهزم كرمو يل السكتلنديين فى برستون . وترك السكتلنديون حليفهم تحت رحمة اعدائه . وكان تصرفه الأخير شائنا فى نظر الأمة قاطبة، و يصفه كرمو يل بأنه «خيانة أفظع من أية خيانة أخرى» ، وكان البرلمان أثناء غيبة كرمو يل فى الشمال قد عاد الى المفاوضات مع الملك وهو فى نيو بورت، فلما عاد كرمو يل صرح بأنه لا فائدة بعد من مفاوضات زائفة لا يجنح الملك اليها الا ليتحين فرصة الفرار . على أن تشارلس سلم هذه المرة بمعظم مطالب البرلمان ، ولكن محاولاته المتكررة فى الفرار أسدلت حجابا أخيرا من الظلام والريب على كل عهوده ومواثيقه، وظهرت فى الجيش فى نفس الوقت حركة معارضة شديدة ضد مفاوضات نيو بورت ، وأيد كرمو يل مطالب

(١) يقول الكاتب الأشهر تشارلس دكنز : « من المحتمل جدا أنه كان يمكن انقاذ الملك حتى فى هذا المأزق لو أمكنت الثقة به فقد كان كرمو يل يصرح بأنه لا سلام ولا أمن إلا اذا بقيت للملك حقوقه . وكان يرى الملك كثيرا و يحادثه فى بساتين «همبتون كورت» وأروقته مخاطرا فى ذلك بنفوذه فى الجيش . ولكن الملك كان يعول سرا على نصرة الشعب السكتلندى » .

الجيش . وفى ١٦ نوفمبر انعقد مجلس الضباط وطلب محاكمة الملك « أعظم مسبب لكل مصائبنا » .

* * *

ومنشأ هـذه الفكرة أعنى محاكمة تشارلس الأول غامض ، فليس يعـرف انى ومتى نشأت ، « ولكن المرجح أن الذى كان يملك زمام القيـادة (كرمويل) قد أرغم على الموافقة ، لأن القوة التى خلقها كانت قوة لا يستطيع هو أن يسيرها دائمـا ، فكان عليه أن يطيع أحيانا لكى يطاع (١) » على أن كرمويل جاهر بأنه لم يكن صاحب الفكرة ، وأنه أخضع مشاعره الخاصة لأحكام الظروف . ولكن هذا التبرؤ لم يكن فى نظر العصر سوى ضرب من الرياء والسياسة ، فهـل كان كرمويل يرمى الى غاية معينة من وراء سفك هذا الدم الملوكى ؟ « ومهما أحاط بذلك من حدس وفروض فلا ريب أن كرمويل لم يفكر فى إقامة الجمهورية ولا حكم القديسين (١) » والثابت الذى لا ريب فيه هو أن حزبا فى المعسكر طالب برأس الملك الذى أضنى الأمة والجيش بغدره ، وذهب فى صيحته الى حد الوعيد ، بل ثار فى المعسكر شغب لم يخمده أوليفر إلا بعد عناء ومشقة ، « كان عليه إذن أن يغامر باخلاص حزبه واخلاص جيشه ، ثم بعظمته الشخصية ، بل بحياته اذا حاول انقاذ أمير لا ذمام له » ، وإذن فقد ترك تشارلس لمصيره ، وترك أخيرا ليكفر عن اخطائه وحماقاته بل جرائمه المتعددة ، وأن يدفع ثمن غدره وعبثه بحريات شعبه (٢) .

* * *

لبث تشارلس الأول أسـيرا فى قصر هورست أياما ، ثم نقـل الى وندسور فى الثالث والعشرين من ديسمبر ، وأبعد من المجلس كل من خيف منـه ميل الى

---

(١) اللورد ماكولى .

(٢) يعلق فولتير على ذلك بقوله : «كان كرمويل وفيرفاكس والمستقلون يرون موت الملك ضروريا لتنفيذ مشروعهم فى اقامة الجمهورية . وكان طبيعيا ألا يطمح كرمويل الى أن يخلف تشارلس على العرش لأنه لم يكن إلا زعيما فى جيش تمزقه الأهـواء . ولكنه كان يسـتمد أمله بحق من ذلك الجيش ومن تلك الجمهورية ، ومن الثقة التى بثتها أعماله الحربية الباهرة ، ومن تأثيره فى النفوس » .

الملك . وفى الخامس والعشرين حاول مجلس الضباط أن يتفق مع الملك الأسير لآخر مرة على شروط وضعها ، ولكن الملك أصر على إبائه . وفى أول يناير سنة ١٦٤٩ اجتمع بقية النواب ، وبحثوا فى أمر الملك ، وأصدروا قرارا أسندوا اليه فيه تهمة الخيانة العظمى لأنه « شهر الحرب على البرلمان وعلى مملكة انجلترا » . وفى الرابع من يناير شرع المجلس لنفسه سلطة التشريع دون موافقة اللوردات والملك ، وفى السادس منه قرر انشاء « محكمة عدل عليا » لمحاكمة الملك تتألف من مائة وخمسين عضوا منهم كرمويل وفيرفاكس . وقامت لجنة أخرى بصوغ التهم القضائية الموجهة الى الملك .

وفى التاسع عشر أحضر تشارلس الى قصر سنت چيمس ، وفى اليوم التالى بدأت المحكمة العليا محاكمته فى وستمنستر ، وكانت مؤلفة من النوّاب فقط ، إذ أبى القضاة جميعا أن يشتركوا فى اجراءاتها . أما الملك المتهم فقد ضحك علنا حينما وجهت اليه المحكمة تهمة الخيانة ، وتساءل بأى سلطة يحاكم وقال انه قد تعاقد مع البرلمان مذ كان فى جزيرة « ويت » ، ثم أخذ من هنالك قسرا ، وانه لا يرى بين قضاته أحدا من اللوردات . فأجابه برادشو رئيس المحكمة بأنه يحاكم بسلطة الشعب الانجليزى الذى اختاره ملكا . فرد تشارلس بأنه ملك بالوراثة لا بالانتخاب ، وان انجلترا مملكة وراثية منذ اكثر من ألف سنة . وهنا قطع برادشو الجدل بتأجيل الجلسة .

وفى الثانى والعشرين استؤنفت المحاكمة وكرر تشارلس جدله قائلا : « إنها ليست قضيتى فحسب بل هى قضية الشعب الانجليزى وحريته . واذا كنتم تصرون على ما تدعون ، فذلك لا يزيدنى إلا تأييدا لحريات الشعب : واذا كانت القوة تشرع دون القانون فلست أدرى من ذا فى انجلترا يستطيع أن يأمن على حياته أو على أى شىء يسمى ملكا » وفى الثالث والعشرين رفض تشارلس أن يدافع عن نفسه فأجلت القضية . وبدرت بوادر تذمر من نواح عدة مما يدل على أن الأمة لم تكن كلها من وراء الجيش فى محاكمة الملك ، وبينما كان يصيح الجند حينما يمر الملك بين صفوفهم « العدل العدل ! » اذا بالنظارة من الكافة فى الطرف الآخر من القاعة

يصيحون « أدام الله الملك! » ، بل كان التردد والأحجام باديا على أعضاء المحكمة أنفسهم ، ولكن المحكمة اجتمعت رغم ذلك فى ٢٦ يناير ، وأصدرت حكمها على عجل وبالاجماع باعدام تشارلس الأول. وفى اليوم التالى أحضر تشارلس أمامها ليتلى عليه الحكم ، فلما سمعه طلب أن يسمع دفاعه أمام البرلمان نوابا ولوردات فرفض طلبه ، وذهبت محاولاته فى تفنيد تهم الرئيس سدى فى عاصفة من الجلبة والصياح ، ونطق الرئيس بالحكم ، وقاد الجند الملك ، وهو يتلو احتجاجه الأخير فى الفاظ متقطعة «لقد منعت من الكلام ... فانتظروا ماذا يظفر به غيرى من عدالة » .

* * *

يقول ڤولتير « كان تشارلس يجيب قضاته باعتدال وثبات يشرفان ذكراه ، ولا يتباينان إلا مع خشونة قضاته وسوء نياتهم» . أما فى ساعاته الأخيرة ، فقد أبدى تشارلس سكينة بديعة ، واستسلاما ينم عن عميق إيمانه ويقينه ببراءته ، يصفه المؤرخ بيرنت فى قوله : «استسلام عجب له كل الناس خصوصا وانه ليس من خلاله . وقد كان يدلى بشيء فى اعماق نفسه ، بصبره على كل ما نزل به من ضروب الذلة ، بعظمة حقة لا يشوبها اضطراب أو ادعاء» . والواقع أنه ليس فى حياة تشارلس الأول أعظم من مفارقته لهذه الحياة . فهو قد عافها بلا ريب لما تخللها من متاعب ومحن لا نهاية لها ولكنه « لم يقدم على أمر وضيع أو مبتذل يشوب عظمة المنظر المشهود» . ففى صباح ٢٩ يناير سنة ١٦٤٩ لقى تشارلس ولديه الصغيرين اليزابيث وهنرى دوق جلوستر وودعهما الوداع الأخير . وفى ضحى الثلاثين سار الملك المحكوم عليه من قصر سنت جيمس الى هويت هول ، وفى الساعة الثانية بعد الظهر صعد الى النطع الذى أعدّ لإعدامه . وكانت تحجبه من الجماهير المحتشدة فى الساحة صفوف كثيفة من الجند ، على أنه مع ذلك التى كلمة لم يسمعها سوى قسيسه جكسون ومن معه فوق النطع ، صرح فيها بأنه يرغب فى حريات شعبه رغبة أى فرد ، قال : «ولكن يجب أن تعلموا أن حرية الشعب إنما هى فى أن تكون له حكومة... وليست فى أن يكون له نصيب فى الحكومة ، فذلك ليس من حقوقه . والملك

والرعية شيئان مختلفان» . ثم قال انه يموت مخلصاً للكنيسة الانجليزية، ولم يقل شيئا بعد سوى كلمة شهيرة ألقاها الى چكسون هى « تذكر ! »، حار فى تأويلها المؤرخون، فقال بعضهم إنها تشير الى أموال وكنوز خبأها الملك ولا يعرف مقرها سوى چكسون وانه يذكره بتسليمها لولده تشارلس الثانى . وقال آخرون غير ذلك(١) .
ويقول شاهد عيان لتلك المأساة : «لقد رأيت الجلاد يهوى بضربته؛ واذكر بقلب حزين أنه بدرت عندئذ من آلاف النظارة أنة لم أسمعها ولا أريد أن أسمعها أبدا . وقد صدر الأمر وقتئذ الى صفوف من الجند أن تسير من شارنج كروس الى وستمنستر، ومن وستمنستر الى شارنج كروس لتضبط حركات الجماهير وتفرقهم(٢)» .

* * *

وهكذا هلك تشارلس الأول فى غمر عاصفة دامية ، وكفر بدمه عن أكبر إثم يرتكبه ملك فى حق شعبه . يقول الشاعر ملتون وهو من معاصرى المأساة : « وانه لمشروع، وقد شرع فى كل العصور، أن يستدعى صاحب السلطة، طاغية أو ملكا شقيا ليقدم الحساب؛ ثم يعدمه بعد أن تقوم الأدلة على ادانته» . على أنه قد يقال فى هذا المقام ، ان محاكمة تشارلس الأول ، واعدامه لم يكونا من صنع الشعب الانكليزى بصفة مطلقة ، وإنما كانا من صنع أعداء الملوكية قبل كل شىء أو من صنع هذه الأقلية العسكرية التى قادها أوليفر كرومويل الى السلطان والحكم . وقد يقال من جهة أخرى إن مسلك تشارلس الأول، وغدره المستمر، وانتهاكه الصارخ لشرائع الدستور وحريات الشعب ، ودسه المتواصل لضرب الأمة بعضها ببعض :

---

(١) اتخذ اسكندر ديما القصصى الفرنسى الأشهر من هذه الحوادث مادة لقصة من أبدع قصصه هى Le Vicomte de Bragelonne.

(٢) يعلق ڤولتير على هذه المأساة ساخرا فى قوله «يروى أن بعض قطاع الطرق كانوا يحتفلون أحيانا بالقضاة الذين يقعون بين أيديهم قبل اعدامهم . ولعمرى أن هذا أبدع ما يشبه به عمل كرمويل وأصدقائه فقد وجبت كل فظاعة التعصب لكى لا يثير هذا الحكم سخط الأحزاب والشعب فيغدو تنفيذه مستحيلا ، ولا يمكن أن يعتبر له مبررا غير التعصب وحده» ويقول دكنز «لسنا نستطيع أن نقر تشارلس فى زعمه أنه مات شهيد الشعب فالشعب هو الذى كان له شهيدا ، ومن قبل كان شهيدا لنظرياته فى الملك» .

كل هذه آثام حقيقة بأن تدفع بمرتكبها وقت الفورة العامة الى يد النقمة والبطش . بيد أن الشعب الانجليزى لم يضطرم قط نحو الملوكية بتلك البغضاء الخالدة التى اضطرم بها الشعب الفرنسى نحوها بعدئذ بقرن ونصف ، والتى دكت ريحها العاتية صروح الملوكية الفرنسية ، ودفعت بلويس السادس عشر وزوجه الى موت رائع لم تتفطر له سوى فلول الملوكية ، ومن ثم فان الرجعة فى الثورة الانجليزية كانت سريعة قوية ، فسرعان ما استعادت الملوكية كل ما فقدت من عطف ، ولم تمض أعوام قلائل حتى تربع تشارلس الثانى ولد الملك المحكوم عليه ، على عرش أبيه ، ولم تشهد الملوكية الانجليزية بعد ذلك ثورة شعبية ظمئة الى دمها .

مراجع هذا الفصل

MACAULY : History of England.

HALLAM : Constitutional History of England.

VOLTAIRE : Essai sur les Mœurs.

DICKENS : A. Child's History of England.

THE ENCYC. BRITANNICA : (art. Charels I).

الفصل السادس

معركة الدستور والحكم المطلق

٢ — محاكمة إيرل سترافورد

سنة ١٦٤١

كان عضد العرش وساعده الأيمن فى تلك الحرب الضروس التى اضطرم لظاها بين الملوكية الانجليزية والشعب الانجليزى وبين الحكم المطلق والدستور كما رأينا ، رجل وافر الذكاء والجرأة هو توماس ونتويرث، إيرل ستافورد . وكان الى جانب العرش يوجه خطواته مدى حين ، ويذكى عزم المليك المعتد بحقوق الملوكية ، المستهتر بدستور أمته وحريات شعبه ؛ وكانت سياسته من أكبر العوامل فى تحرج هذه الأزمة الشهيرة فى تاريخ الشعب الانجليزى، وفى إثارة تلك العاصفة التى حملت رأس تشارلس الأول، ودكت عرش آل استوارت حينا .

وقد بدأ السير توماس ونتويرث حياته العامة فى فاتحة حكم الملك تشارلس الأول، وكان من وجوه مقاطعة يوركشير . وكانت ريح الاضطرابات السياسية تعصف يومئذ كما رأيت بالحياة الانجليزية العامة . وكان تشارلس قد ورث من أبيه جيمس الأول عسفه واستخفافه بالحريات العامة . وكان آل استوارت أكثر جرأة فى امتهان هذه الحريات ، وأشد إمعانا فى تطبيق نظرية « حق الملوكية الالهى » وكانت النظم البرلمانية فى عرفهم رسوما شكلية فقط . ولم يكن أسلافهم من آل تيودور أشد احتراما لهذه النظم ، ولكنهم كانوا يرعونها باحترام ظاهرى ولا يقدمون على انتهاكها صراحة . أما آل ستيوارت فقد كشفوا القناع واعتدوا صراحة على الحقوق والحريات العامة؛ فكانت تلك المعركة الدستورية الكبرى التى أتينا على حوادثها .

وكان أول مثار للخلاف بين العرش والبرلمان كما رأينا مسألة الأموال العامة وانفاقها . وكان حول العرش يومئذ بطانة من أولى الذمم المريبة، يبددون الأموال العامة فيما راق لهم من المشاريع والاهواء . وكان على رأسهم بكنهام وزير چيمس الأول ووزير ولده تشارلس من بعده . فلما أراد البرلمان أن يحصل على بعض الضمانات لصون الأموال العامة قبل تقريرها، غضب الملك وحل البرلمان فى أغسطس سنة ١٦٢٥ . وكان توماس ونتويورث يومئذ من زعماء المعارضة لأن بوكنجهام أبى أن يحقق اطماعه فى المناصب العامة . ثم رأى بكنهام أن يخمد أصوات بعض المعارضين بأن يسند اليهم مناصب «الشريف» فكان ونتويرث ممن حظى باحداها . ولكن الحيلة لم تفلح . وكان البرلمان الثانى الذى استدعى فى فبراير سنة ١٦٢٦ أشد مراسا من سلفه وأحرص على حماية الأموال العامة، فعمد الملك الى حله أيضا وألقى زعماء المعارضة فى السجن ومنهم ونتويورث . ثم استدعى برلمانا ثالثا فى مارس سنة ١٦٢٨ ،ولكنه لم يكن أقل صلابة من سابقيه . فاضطر عندئذ ان يقر لائحة «التماس الحق» المتضمنة لمطالب البرلمان فى ضمان الحريات والأموال العامة ، وان يطلق سراح المعارضين . وهنا تبدأ مرحلة جديدة فى حياة توماس ونتويرث، فانه نبذ المعارضة ليحوز حظوة الملك . وكان بكنهام قد قتل فى أغسطس سنة ١٦٢٨ وزالت بذلك عقبة خطيرة فى سبيل التفاهم بين الملك والبرلمان، ورفع الملك ونتويرث تباعا الى رتبة البارون ثم الى رتبة الفيكونت، ثم عينه رئيسا لمجلس الشمال،وكانت لهذا المجلس سلطات واسعة قضائية وتنفيذية، فأضحى ونتويرث سيد الشمال المطلق .

وكان تشارلس الأول رغم تعهده باحترام شروط لائحة «التماس الحق» يعمل على خرقها ما استطاع،ويعمل البرلمان من جانبه على مقاومته،وكان الخلاف يتفاقم كل يوم حتى انتهى تشارلس بأن حل البرلمان لثالث مرة فى مارس سنة ١٦٢٩ .

وفى سنة ١٦٣٢ عين توماس ونتويرت حاكما عاما لارلندا . وهنالك أقام حتى سنة ١٦٣٩ ، غير انه احتفظ بوظائفه فى انجلترا، ولبث متصلا بالعرش . وقد أبدى

فى هذا المنصب براعة وكفاية فائقتين، فرقى الصناعة والتجارة وأخذت أرلنده تنعم باليسر والرخاء . ولكنه كان صارما ، شديد الوطأة ، كثير التنكيل والبطش بالمعارضين والمخالفين ، شرها تمتد يده الى قسط وافر من الأموال العامة ، وكان عماله يحـذون حذوه فى العسف والبطش وسلب أموال الأمة . فكانت النتيجة أن بسط على ارلنده حكم ارهاب اخمدت فى ظله كل حرية ، وأخذ الشعب الأرلندى يتـذمر ويضطرم ويتأهب للثورة ، غير أن العاصفة لم تنفجر فى عهده ، اذ كان يعرف دائما كيف يخمد كل نزعة الى الثورة . وكان ونتويرث خلال ذلك وثيق الاتصال بالعرش . وكان تشارلس يقدر كفايته واخلاصه . وكانت متاعب العرش تزداد فى كل يوم ، ويتعثر فى حكم الأمة دون برلمـان ، ويلجأ فى تنفيـذ غاياته الى أشـنع الأساليب والوسائل ، ويمعن فى انتهاك نصوص « التمـاس الحق » ، ويجبى الضرائب بطرق منافية للشرائع ، ويلقى الى غيابة السجن بكل معارض . ولكن هذه السلطة المطلقة ما لبثت ان اضمحلت فى كل ناحيـة ، وتحدتها بوادر الثورة من كل صوب ولا سيما فى اسكتلنده . ففى تلك الآونة رأى تشارلس الأول أن يستنصر بتوماس ونتويرث وأن يلجأ الى ذكائه وعزمه ، فاستدعاه من ارلنده ورفعه الى مرتبة «الايرل» فغدا ايرل سترافورد ، وعينه فى منصب اللورد الوكيل أعنى كبير الوزراء ، وأضحى يرجع اليه فى جميع شؤونه السياسية والحربية . وعكف سترافورد من ذلك الحين على تقوية العرش ، وسحق أعدائه « وكان يرمى الى أن يعمل فى انجلترا كل ما عمـله ريشليو فى فرنسا وأكثر ، فيجعل من تشارلس ملكا مطلقا كأى ملك فى القارة ، ويضع أملاك الشعب وحرياته الشخصية رهن تصرف العرش ، وينزع من القضاء كل استقلال فى السلطة ، ويعاقب دون رأفة كل من تذمر من عمل الحكومة »[1] .

لهذه الغاية عمل سترافورد بكل ما أوتى من عزم ودهاء وبطش ، فبسط حكم الارهاب فى كل ناحية ، وأحيا المحاكم الاستثنائية القديمة ، وبخاصة «قاعة النجمة»

---

(١) ماكولى ، وقد تقدمت هـذه الفقرة فى الفصل السابق غير أن سياق الكلام اقتضى هنا اعادة بعض فقرات .

و « اللجنة العليا » ، ومال على المعارضين وخصوم العرش فمزقهم وشردهم . ولكن حاجة العرش الى المال كانت تشتد فى كل يوم، ولم يك ثمة سبيل الى تحقيقها غير موافقة البرلمان . فأشار سترافورد على الملك بدعوة برلمان جديد يقرر الأموال اللازمة،واجتمع برلمان جديد فى ١٣ أبريل سنة ١٦٤٠ . ولكنه لما رأى أن يثير البحث بادئ بدء فى مظالم الأمة واسترداد حقوقها،استشاط الملك غضبا وأمر بحله فى ٥ مايو أى بعد ثلاثة أسابيع فقط ولذا سمى « بالبرلمان القصير » ، وعاد الملك ووزيره الى أساليب العسف والقمع؛وأخذ يستعد لمحاربة السكتلنديين الذين عبروا التويد وزحفوا على شمال انجلترا . وكانت ارلنده تتحفز للثورة؛ وانجلترا تزداد تمسكا بالدستور، وسلطات العرش تنهار بعد ان نضبت موارده . عندئذ اذعن تشارلس لضرورة الموقف ثانية واستدعى البرلمان من جديد فانعقد فى ٣ نوفمبر سنة ١٦٤٠؛ وكان زعماء المعارضة يدركون مصاعب العرش ويرونها خير فرصة لانتصاف الشعب والتنكيل بجلاديه، فحملوا البرلمان على اصدار قرار بمحاكمة ستراافورد، ولود اسقف كنتربرى، زميله وحليفه فى البطش والعسف . وقبض على ستراافورد على أثر عودته من ارلنده وكذلك على لود،وزج الاثنان الى سجن البرج[1] بحراسة قوة كبيرة من الجند . وكان تقرير المحاكمة يومئذ هو السبيل لتقديم وزير متهم الى القضاء . وكان النواب يقومون بالاتهام على يد أعضاء منهم ينتدبونهم لذلك . وكان اللوردات يجلسون فى منصة القضاء . وكانت هذه ضربة مؤلمة للملك ولكن هذه المحكمة الاستثنائية أى محكمة اللوردات والنواب كانت تستطيع أن تتحدى أية سلطة ملكية . وكانت الاجراءات تقضى يومئذ بأن يصاغ الاتهام فى مواد يجيب عنها المتهم كتابة . وقد وجه النواب تهمة الخيانة الى ستراافورد فى عدة مواد تضمنت الوقائع التى بنيت عليها التهمة وهذه خلاصتها :

١ — اتباعه سياسة واعطاؤه نصحا من شأنهما أن يقلبا القوانين الأساسية وأن يحققا الحكم المطلق .

(١) برج لندن، وهو قلعة قديمة على ضفة نهر التيمز بدئ بانشائها فى القرن الحادى عشر . وكانت تحفظ جواهر التاج فى بعض معاقلها ويزج الى البعض الآخر من يعتقل أو يحكم عليه من كبراء الدولة ونبلائها .

٢ — انشاؤه لجنة جديدة لمجلس الشمال واستعمال سلطاته فى البطش بأهل هذه المنطقـــة .

٣ — خرقه لكل قانون وشرع فى إرلندا ، وتدخله فى القضاء ، واقامته للحكم العسكرى ، واغتصابه الأملاك والضرائب ، وسلبه ايراد الجمارك ، وفرضه الغرامات المحرمة وغيرها .

٤ — محاولته أن يذكى الخـلاف بين الانجليز والسكتلنديين وأن يعكر السـلم المعقود بين تشارلس والسكتلنديين .

٥ — نصحه للملك بأنه محرر من كل القوانين . تخويله لمحكمة «قاعة النجمة» سلطات غير مشروعة . نصحه للملك فى يوليه سنة ١٦٤٠ بأن يستولى على رصيد الذهب فى دار السكة مع أنه مملوك للافراد . فرضه فى أغسطس سنة ١٦٤٠ الضرائب على أهالى يوركشير لتموين جنده . تهديده لمدينة لندن حتى تذعن الى اجراء قرض اجبارى .

والخلاصة أن الاتهام رأى أنه لم يحدث فى انجلترا شىء منذ سنة ١٦٢٨ يعتبر جرما فى حق الأمة الا كان بنصح سترافورد وتدبيره .

أما جواب سترافورد على هذه التهم فيختلف باختلاف كل تهمــة فهو قد أنكر كثيرا منها ، وقد ادعى أنه فعل كثيرا منها بأمر الملك أو بمصادقته الصريحة ، أو أن لبعضها سوابق كثيرة فى التاريخ الانجليزى . أما بالنسبة للتهمة الجوهرية وهى محاولته بالنصح أن يقلب قوانين المملكة الأساسية وأن يقيم فيها حكومة مطلقــة مســتبدة خرقا للقانون والدســتور فقد أجاب عنها سترافورد فى وضوح ومتانة ، ومما قاله فى ذلك : «لقد بذلت



ايرل ســـترافورد

بصدق ما بذلت من نصح، وكان من واجبي نحو الملك أن أقرر ما رأيت بصدق. صحيح أني بذلت في بعض الأحيان نصحا مناقضا ولكن ليس في وسع انسان أن يعصم من الزلل، وقد يبدو الخطأ بعد تأمل . وقد كانت تؤخذ ملاحظاتي مشوهة دون أن يرجع الى الظروف أو مقتضيات الضرورة . ولذا فاني أقرر الآن رأيي في مسألة حقوق العرش وهو : انه في حالة الضرورة القصوى التي لا يمكن اتقاؤها بالعلاج المعتاد الذي نصت عليه القوانين ... فانه يباح لجلالته أن يتخطى القواعد العادية، وله أن يلجأ الى كل السبل والوسائل لحماية نفسه وحماية مملكته، والقانون الأعلى في تلك الحالة هو قانون «السلام العام» وذلك بشرط ألا يستعمل في أمر آخر، وبشرط أنه متى عاد السلام أنصف الأفراد، وإلا كان خروجا وجورا . »

* * *

وفي صباح يوم ٢٢ مارس سنة ١٦٤١ بدأت محاكمة ايرل سترافورد في بهو وستمنستر . وكان البهو قد أعدّ لتلك الغاية، فأقيم فيه عرش للملك ونظمت مقاعد للوردات والقضاة والنظارة . وأقيم هنالك روشن غريب أوقاعة خشبية صغيرة كان يحتجب فيها الملك ليرى ويسمع قصة عسف سترافورد وأدلته العديدة على أن الملك كان يأمر أو يصادق . ونقل سترافورد في الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم من البرج الى وستمنستر بطريق النهر تحرسه ستة قوارب فيها مائة جندي . وحرسه الى البهو مائتا جندي . وجاء الملك والملكة في الساعة التاسعة ولكنهما احتجبا عن الأنظار . ورأس اللوردات ايرل اروندل، وجلس القضاة لينيروا المجلس، وحضر عدد كبير من النواب، واستغرق اليوم كله حتى العصر في قراءة قرار الاتهام وأجوبة المتهم عنه . وفي اليوم التالي بدأت المحاكمة، وقام بالاتهام پيم وهو من أقطاب المعارضة يعاونه عدد آخر من الزعماء المعارضين منهم جلين وмينارد وهمپدن وسلدن وبالمر . وكان معظم هؤلاء من مشاهير المحامين . وافتتح پيم مرافعته بخطاب طويل، ورد عليه سترافورد بكلمة أشار فيها الى خدماته للدولة . وفي اليوم الثالث عمد النواب الى اثبات التهم واحدة فواحدة . وكانت كلها ثمانيا وعشرين وزعها

المدعون العموميون على بعض واختص كل منهم باقامة الحجة على عدد منها . وتولى جلين إثبات تهمة الخيانة، وسرد ما قاله سترافورد فى فرص كثيرة اشادة بسلطة العرش المطلقة وامتهانا لسلطة الأمة؛ وتلاه المدعون الآخرون . واستغرقت هذه المرافعات أياما عديدة . وفى ١٣ أبريل دعى سترافورد للدفاع عن نفسه . فشرح مبدأه الدستورى فى قوله : " ان امتيازات العرش يجب أن تستعمل كما يبدى الله القاهر قدرته فى الاحوال الخارقة، ويجب أن تطبق القوانين فى أوقات أخرى".

ثم تناول التهم واحدة فواحدة، ينكر البعض ويدحض البعض الآخر. وكان سترافورد يدافع عن نفسه بنفسه لا يقف الى جانبه أحد . ذلك أن القانون لم يكن يسمح يومئذ للمتهم فى المواد الجنائية أن يستعين بالدفاع فى الوقائع . فاذا ذكرنا أن معظم المدعين العموميين كانوا محامين ذوى ذلاقة وحجة، قدرنا المأزق الذى أحاق بالوزير المتهم. ومع ذلك فقد دافع سترافورد عن نفسه بفصاحة وقوة عارضة . ثم جاء دور المناقشة فى المسألة القانونية، أعنى هل تكون الوقائع المنسوبة تهمة خيانة بالمعنى الذى ينص عليه القانون؟ وهنا كان يسمح للمتهم أن يستعين بغيره للدفاع عنه، وهنا خشى النواب العاقبة . واشتد الجدل حول النقطة القانونية . ثم اجتمع المجلسان على أثر ذلك فى شكل مؤتمر. فطالب اللوردات بسماع الدفاع عن سترافورد، وأصر النواب على اصدار القرار وهددوا بالانسحاب . ودافع عن سترافورد فى ذلك المأزق لاين النائب العام . وانتهى الأمر بأن نفذ اللوردات رأيهم فى سماع الدفاع ؛ وجاء النواب فجلسوا شهودا فقط وأبوا الاشتراك فى المناقشة وتوالى محامو المتهم يقيمون الأدلة الفقهية على عدم توفر أركان الخيانة . ثم تلت ذلك فترة أيام. وفى ٢٦ أبريل انعقد المجلسان ثانية فى شكل مؤتمر وطلب سترافورد ان يسمع محاموه ثانية. وفى أول مايو جاء الملك وتدخل، وخاطب المؤتمر بنفسه مشيرا الى ما أذيع يومئذ من الاشاعات فأكد أنه لا توجد فكرة ما فى استحضار جيش ارلندى الى انجلترا، وأنه لم ينصح قط باقامة حكومة مطلقة، وقال إنه لا يوجد ثمة ما يؤخذ به سترافورد، وإنه يصلح لتولى أية وظيفة ، واختتم بأنه لا يمكن أن يصادقهم لا بقلبه ولا بيده على عقاب سترافورد باعتباره خائنا .

ومع ذلك فقد أصر النوّاب على اصدار قرار الادانة وقد صدر فى الواقع بأغلبية مائتين وأربعة ضد تسعة وخمسين ، وبقى بعدئذ قرار اللوردات . ولكن حدث قبل أن يصدر اللوردات قرارهم ان فكر الملك فى مهاجمة البرج وانقاذ وزيره ، ولكن النوّاب كانوا وقوفا على الأمر ، وفضح بيم المؤامرة ، فثار العامة وأحاطوا بالقصر الملكى وهدّدوا الملك وأسرته . وفى أثناء الثورة اجتمع اللوردات لينظروا فى القرار وتخلف عن الحضور كثيرون ، وصدر قرار الادانة بأغلبية ستة وعشرين ضد تسعة عشر ، ولم يبق سوى توقيع الملك ليعدم سترافورد .

* * *

ماذا كان موقف تشارلس الأول ازاء نكبة وزيره المخلص وخادمه الأمين ؟ لقد رأيت أنه جاهر فى المؤتمر بأن وزيره برىء مما نسب ، وأنه لن يشترك أصلا لا بقلبه ولا بيده فى اقرار عقوبته ، بل رأيت أنه اعتزم انقاذ وزيره من السجن بالقوة القاهرة . ولكن تشارلس الأول لم يكن قط رجل الكلمة والعزم ، ولا رجل الوفاء والتضحية . ففى اليوم العاشر من مايو تقدّم النوّاب الى تشارلس بقرار الموت ليوقعه بيده ، نخار عزمه وراعه تهديد الجمهور الصاخب حول قصره ، وسرعان ما أمضى وثيقة موت وزيره ، على أنه صرح للنوّاب قائلا : " لو كان الخطر يحيق بشخصى فقط لغامرت به مسرورا لانقذ حياة صديقى لورد سترافورد ، ولكنى والخطر يهدد روحى وأولادى وكل ملكى أرانى مضطرا الى التسليم " . وفى اليوم التالى أرسل تشارلس الى اللوردات التماسا بالعفو عن سترافورد ولكنه أضاف اليه حاشية محت كل آثاره وهى : " واذا كان لا بد من موته فمن الصدقة أن يؤجل إعدامه حتى يوم الأحد ! " وقيل ان سترافورد كتب الى تشارلس قبل الموافقة على قرار اعدامه ، أنه اذا كانت هذه الموافقة تصلح بينه وبين شعبه فليفعل ، على أنه لما أُخطر بأن الملك صادق على موته استقبل النبأ فى حزن ودهشة وألقى عبارته الشهيرة : " لا تضعوا ثقتكم فى الأمراء ! " . وفى ذلك يقول ڤولتير : " ذهب سترافورد فى سموه الى حد أن التمس من الملك الموافقة على اعدامه ، وذهب الملك فى ضعفه الى حدّ التوقيع على هذه الوثيقة الهائلة ، التى علمت الانجليز أن يسفكوا

دما أغلى وارفع . ولسنا نشهد فى ابطال بلوتارخوس مثل هذا الشمم فى فرد، ولا مثل هذا الضعف فى ملك" [١] .

وفى اليوم الثانى عشر من مايو سنة ١٦٤١؛ سقطت رأس توماس ونتوبرث ايرل سترافورد على نطع الجلاد .

وهكذا كانت الخاتمة المحزنة لحياة توماس ونتوبرث — حياة سياسى يبذل كل ما أوتى من ذكاء وبراعة فى تأييد عرش جائر وملك مستبد، على أنها الجزاء الحق أيضا لرجل يوقف كل ذكائه وعزمه على سحق حريات أمته وسلب حقوقها القومية ليهبها الى أسرة أو عرش، ويضحى بالمصالح العامة فى سبيل المصلحة الشخصية، ويطأ أعناق الملايين ليرفع رأس ملك مستبد ويدعم عرشه وطغيانه . وهكذا كان الموقف الشائن لأمير وقف وزيره المحكوم عليه الى جانبه فى الوقت العصيب، وأنقذ ملكه حينا من الانهيار، وبذل فداءه حقوق الشعب وحرياته، واحتمل فى سبيل ذلك أثقل المسئوليات أمام مواطنيه وأمام التاريخ . وقد يقال فى ذلك ان تشارلس أشفق على حياته وحياة زوجه وأولاده من الثورة فأمضى قرار الموت مكرها . ولكن مهما يكن من قيمة هذا العذر وأمثاله، فلا ريب أن هذا التسليم المؤسى من جانب الملك لحياة رجله العظيم وخادمه المخلص قد أسبل على شرفه وصمة لا تمحى، بل كان فى الواقع مقدمة انحلال ملكه ونذير قصاصه. ذلك أن تشارلس لم يكن يعتزم وهو يوقع أمر اعدام وزيره أن يعدل عن سياسة العسف والطغيان، وقد كان يعوزه لذلك رجال مثل سترافورد، ولكن أنى يجدهم، وقد بعث برأس كبيرهم الى النطع لا لسبب سوى أنه أخلص فى تحقيق غاياته . وقد عاش تشارلس ليندم على خطئه أمر الندم؛ بل كانت هذه الذكرى المؤلمة تعكر لحظات حياته الأخيرة، وهو يصعد الى مثل النطع الذى زهق عليه وزيره؛ وكانت وصيته الأخيرة لولى عهده "ألا يذعن قط لعقاب خدام العرش الأمناء" .

مراجع هذا الفصل

هى مراجع الفصل السابق وأيضا :

Lord Birkenhead: Famous Trials of History.

(١) فى كتابه (Essai sur les Mœurs) .

الفصل السابع

مؤامرة سان مار

سنة ١٦٤٢

لم يعمل أحد من ساسة فرنسا، لخلق الأمة الفرنسية الحديثة، وتدعيم وحدتها القومية، قدر ماعمل الكردينال ريشليو الوزير الأشهر؛ولى الوزارة منذ سنة ١٦٢٤، فى عهد لويس الثالث عشر، ولبث حتى وفاته زهاء ثمان عشرة سنة يوجه مصاير فرنسا بحزم وصرامة وبراعة، ويرد عنها عادية الخطوب فى الخارج والداخل؛ وكانت فرنسا ما تزال يومئـذ تمزقها الفتن الدينية والسياسية وتسودها نظم شـبه اقطاعية، والعـرش تضطرم من حوله دسائس النبلاء يحاولون الأفتئات على سيادته وسلطاته واقامة نوع من القصور والحكومات المركزية فى كثير من انحاء فرنسا . وكان الكردينال ريشليو يرى بحق أن فرنسا لا تستطيع أن تبدو فى كامل هيبتها وسلطانها، وان تقاوم أعداءها فى الخارج إلا اذا اتحدت كلمتها فى الداخل؛ لتحقيق هذه الغاية وجه معظم عنايتـه، فنشط الى اخماد الفتن الدينيـة وتحطيم سـلطان الهوجنوت (البروتستانت) ولا سيما فى الجنوب؛ ومال على النبلاء فأخمد دسائسهم ومكائدهم، وحطم نفوذهم، وسحق سلطانهم، وأذل عزتهم . وكان لويس الثالث عشر بالرغم من تضاؤل سلطته امام سلطة وزيره الكبير وما كان يأنسه فى جفائه وخشونته من مرارة، يؤيد سياسته فى الحكم، ويصغى الى نصحه، ويعتمد عليه فى توطيد دعائم عرشه، وسحق الخارجين عليه . وكان النبلاء كلما اشتد ريشليو فى ارهاقهم والضغط عليهم، وكلمـا آنسوا من الملك استسلاما الى وزيره، كلما اشـتد نشاطهم فى تدبير الدسائس والمؤامرات سعيا الى الانتقام واسترداد ما فقدوا من سلطان ونفوذ .

وكانت مؤامرة سان مار من أهم هذه المؤامرات وأخطرها .

وسان مار، بطل هذه المأساة، هو هنرى كفييه مركيز سان مار، وكان أبوه انتوان كفييه مركيز ديفيات من أكابر النبلاء والبطانة، تولى عدة مناصب هامة فى حكومة لويس الثالث عشر، وظهر فيها جميعا، وبلغ فى النهاية مرتبة الماريشال. وكان ريشليو يعتبره فى مقدمة عماله اخلاصا وكفاية ، ويؤثره بكثير من الحب والعطف. فلما توفى، تولى ريشليو من بعده رعاية أسرته وولده، ولا سيما سان مار الذى أعد لحياة القصر والحكومة .

وكان سان مار فى العهد الذى نتحدث عنه فتى صغيرا فى نحو الخامسة عشرة ، جميل الطلعة، خلاب المحيا، رشيق القد، جم الرقة والذكاء، تضطرم نفسه شغفا الى حياة العلياء والمجد . وكانت خدمة القصر سبيله الى تحقيق مطامعه . فانتظم أولا فى سلك الحرس الملكى، ومضى الوزير فى عونه ورعايته حتى عين وهو فى الثامنة عشرة فقط كبيرا لخزائن الثياب الملكية .

وكان لويس الثالث عشر ملكا سقيم الارادة والمواهب، مضطرب الخلال والأهواء . وكانت مهام الملك والحكم تضنيه وتضجره ، ولم يكن له فيها رأى أو نفوذ إلا ما أوحت به خليلة أو صفى . وكانت الوحشة تدفعه دائما الى تلمس الراحة والسلوى فى عشرة صاحباته وخلانه، فكان أحيانا يخضع لنفوذ خليلة، وآونة لنفوذ خل يصطفيه ويفضى اليه بمكنونات قلبه ، ويستمده الرأى والنصح . ولم يكن فى ذلك المجتمع الذى يحيط بلويس الثالث عشر، من نساء القصر ورجال البطانة من يخلص للوزير الكبير أو يرتاح الى سياسته وتصرفاته ، لأنه كان شديد الوطأة عليهم جميعا، ولم يكن من شيمه أن ينزل الى اغتنام عطف خليلة أو صفى يناوئه ، ولكنه كان يحاول أن يبعث من رجاله الى جانب الملك من يسيطر على أهوائه ويوجه ميوله وآراءه وفقا لما يرى . وكان هذا الاضطراب الذى يسود مشاعر الملك وأهواءه يجهد الوزير فى تذليل نزعات مليكه؛ ومما يؤثر عنه أنه قال ذات يوم لمستشاره وأمينه الأب يوسف : «كثيرا ما يجهدنى حكم الملك بأشد مما يجهدنى حكم الدولة» . وقد آنس ريشليو فى سان مار أداة صالحة لتحقيق غايته،

فدفع به الى جانب الملك ، وآثره بحمايتـه ورعايتـه . وألفى لويس الثـالث عشر في عشرة سان مار وفى مواهبـه وخلاله الساحرة مروحا لنفسـه وعلاجا لضجره ، فـال اليه وأغدق عليـه كل عطفه وحبه ، ولم يمض عام حتى كان جليسه بل خله الحميم الذى لا يستطيع صبرا على بعده ، والذى يأتمنه على مكنونات صـدره ، ويفضى اليـه بأحزانه وهمومه . وكان المسـيطر على عواطف الملك يومئـذ خليلته الآنسـة دى هوتفور خصيمة الكردينال ، ونفوذها يسـود فى البلاط كل نفوذ آخر . ولكن نجمها ذوى مذ أشرق نجم الخل الفتى سان مار ، واشتدّ ولع الملك بعشرته ، وغدا ملاذ أنسه وسلواه .



لويس الثالث عشر

ولم يمض عام آخر حتى اختار لويس الثالث عشر خله وصفيه لوظيفـة "كبير الركائب الملكية" ، وهى يومئذ أكبر مناصب البلاط ، فغدا سان مار بذلك أعظم سيد فى البلاط ، ولقب "بالسيد العظيم" .

ولكن ريشليو لم يستطع أن يستخدم نفوذ سان مار ، وتأثيره فى عواطف الملك على نحو ما يبغى ؛ فقد كانت أطماع الفتى تحمله الى نواح أخرى ؛ وكان أبعد من أن يذعن لوحى الكردينال رغم أنه المحسن اليه وصاحب اليد فى عليائه . وكان بالعكس يتأثر فى شـعوره نحو الكردينال بذلك الجو المشبع بالجفاء الذى كان يسـود البلاط يومئـذ ؛ وكان تمكنه من النفوذ على الملك ، ورفعتـه بتلك السرعة ، وما أحرز من سلطان فى البلاط والبطانة ، تذكى أطماعه وآماله ، وتملأ نفسه الفتية زهوا وفتنة .

وفى ذلك تقول الأميرة دى جونزاج فى مذكراتها : "لقد ائتمرت كل الظروف على إثارة زهوه وكبريائه ، ولا غرو فقد كان ارتفاعه كارتفاع الملك أو الكردينال ؛

وكان يتبعه حين ذهابه الى الملك مائتان من السادة، وكان يفوق جميع رجال القصر فى بهاء ثيابه، وجمال هندامه، ورواء طلعته، ورقيق خلاله؛ وكان النساء يتنافسن فى اغرائه، والوزراء على أهبة لتلقى أوامره " .

وكان ظهور هذه الأميرة الفاتنة فى البلاط يومئذ عاملا جديدا فى سير الحوادث . وكانت مارى دى جونزاج، ابنة الدوق دى نفر ومانتوا، فتاة رائعة الحسن ، وافرة الذكاء والسحر، غير انهـا كانت تجيش باطماع كبيرة، ولا ترى فى الحب أو الزواج غير وسـيلة لتحقيقها ، وكانت تطمح بادئ بدء الى الاقتران بجستون دورليان أخى الملك ، ولكنها أخفقت فى هـذه الأمنية وتزوّج الدوق من أميرة أخرى . فلمـا التقى بها سان مار، فتن بسحرها ، وباح اليها بهواه، فلم ترده، غير أنهـا أشارت اليه فى رقة ولطف أنها لا تستطيع الاقتران به قبل أن يحظى برتبـة الأمارة . فاتجهت آمال سان مار الى الكردينال رغم ما كان يشعر به نحوه من نفور وجفاء. وكان الملك ووزيره يعاملان « السيد العظيم » دائمـا معاملة الطفل ؛ وكانت المنـاظر العاصفة تقع أحيانا بين الملك وصفيه، وكلما غضب منه الملك أحاله على وزيره ليؤنبه، وكثيرا ما اعتذر عنه الوزير لمليكه بقوله : « من المستحيل أن يجتمع الشباب والحكمة» .

فلما تقدّم سان مار الى الكردينال بأمنيته، وطلب اليه أن يعاونه فى تحقيقها ، سخر منـه ، وردّه بجفاء ، وقال له : « ما أنت إلا سيد بسـيط رفعت بالحظوة ، فلست أدرى كيف تجرأ على التفكير فى عقد هـذا الزواج ، بل لو فكرت الأمـيرة حقيقة فى إجابة سؤلك لكانت أشد حماقة منك » .

وهكذا حطم الوزير آمالا كبيرة لسان مار، وأيقظه من حلمه بغلظة .

واستراب الوزير أيضا بسان مار، وطلب من الملك أن يقصيه عن الاشـتراك فى شئون الدولة وأن يحول دون مثـوله فى مجلس الحكم خشية أن تتعرض أسرار الدولة وشئونها الخطيرة لخفة سان مار وطيشه، فصدع الملك بنصح وزيره، وأقصى صفيه عن مجلس الدولة وشئونها .

وهكذا شهرت الحـرب بين الكردينال وبين سان مار ؛ وانقلب سان مار الى بغض المحسن اليه ولأبيه من قبله ؛ وأضمر له السوء والشر، وأخذ يتحين فرصة الانتقام منه ويسعى الى تحقيق أمانيه من سبل أخرى .



سان مار

ويشير ڤولتير الى ذلك فى قوله : « تطلع هذا الفتى الى المثول فى مجلس الدولة ؛ فلما سعى الكردينال الى منعه، غدا له عدوا ألد . وكان الملك نفسـه هو المشجع لسان مار على التآمر . ذلك لأنه كثيرا ما كان يغضب من وزيره ويسره زهوه وغطرسته، بل يسره براعته ذاتها، فيفضى بهمومه الى صفيه الذى يدعوه «بالصديق العزيز» ويتحدّث عن ريشليو بمرارة وغيظ حتى أنه شجع سان مار على أن يقترح عليه قتله أكثر من مرة . ولكن هذا الملك بنفسـه غضب بعد ذلك من صفيه، وأقصاه من حضرته غير مرة، وسرعان ما تحول سان مار الى بغض لويس الثالث عشر وريشليو معا » .

٢

وكانت معركة النبلاء والعرش يومئذ مسرحا خصيبا للتآمر . وكان الكردينال كارايت يطارد النبلاء فى كل ناحيـة لينتزعهم كل نفوذ واسـتقلال محلى . وكانت السياسية الأسبانيـة تشجع النبلاء على الخروج وتمدّهم بالعون، ففى سـنة ١٦٤١، ثار الدوق دى بويون صاحب سـيدان ، والدوق دى سواسون ، ووقعت بينهما وبين جنود الملك موقعة قتل فيها دوق سواسون وآثر ريشليو الصلح وأن تبقى سيدان فى يد الدوق دى بويون على أن تسقط فى يد الأسبان .

وكان سان ماريرى ان أمنيته فى التزوج من الأميرة دى جونزاج لا يمكن أن تحقق إلا بسـقوط الكردينال أو موته، وبذا يتحقق انتقامه أيضا من ذلك الذى

ازدراه واستخف به . فكان طبيعيا ان يتجه بصره الى التفاهم مع خصوم الكردينال وأعدائه . وكان الدوق دى بو يون من ألد أولئك الخصوم وأقواهم . وكان جستون دو رليان أخو الملك من جهة أخرى محور الدسائس التى يدبرها البلاط لمقاومة الوزير واسقاطه . فاتصل سان مار بالدوق دى بو يون ؛ وكان سفيره اليه صديقه الحميم فرانسو دى تو ، وكان من أذ كى سادة عصره ، وأفصحهم بيانا ، وأبدعهم خلالا ؛ وكان يومئذ مستشارا بالبرلمان وأمينا للمكتبة الملكية . فقام بمهمته فى عقد أواصر التفاهم بين الدوق وسان مار خير قيام ، ورحب الدوق بمحالفة سان مار ، وعقد على نفوذه آمالا كبيرة . ثم تقابل الحليفان بعد ذلك وتفاهما . وفاوض سان مار أيضا جستون دو رليان ، وكان ابدا على اهبة للاشتراك فى كل مشروع يرمى الى سحق الكردينال خصيمه وعدوه الألد .

واتجهت آمال المتآمرين الى اسبانيا . وشجعتهم السياسة الاسبانية كعادتها على وضع خططهم ، ووعدتهم بالعون والنجدة . ووضع سان مار وزملاؤه مشروعا للتحالف مع اسبانيا خلاصته أن يتعهد الدوق دى بو يون بتمكين الاسبان من الدخول الى فرنسا من طريق سيدان ، وان يتولى الدوق دو رليان قيادة الجنود المتحدة فى مهاجمة الجيش الفرنسى ، وان يمد ملك اسبانيا المتآمرين باثنى عشرة ألف رجل وخمسة آلاف جواد وأربعمائة ألف جنيه لانفاقها فى حشد الجند ، وان يتناول دوق دو رليان من اسبانيا معاشا سنويا قدره مائة وعشرون ألف جنيه ، وكل من سان مار ودى بو يون أربعين ألفا ؛ فاذا أفلح المشروع ، تولى سان مار الوزارة مكان الكردينال ، وعقدت معاهدة سلم دائمة بين فرنسا واسبانيا ؛ واذا أخفق فان ملك اسبانيا يسمح للمتآمرين بالاقامة فى أراضيه حيثما شاءوا ، ويتكفل بسلامتهم ودفع رواتبهم المذكورة . وصيغت المعاهدة بين طرفين ؛ الدوق دو رليان والدوق دى بو يون وسان مار من جهة ، وبين ملك اسبانيا من جهة أخرى ، وجاء فى مقدمتها ان القصد من عقدها انقاذ نبلاء فرنسا وشعبها مما يعانونه من الحرب المستمرة مع اسبانيا ، وعقد سلام عام بين المملكتين تأييدا لخير النصرانية . واختار المتآمرون لحمل مشروع المعاهدة الى اسبانيا سيدا يدعى المركيزدى فنتراى ؛ وكان أحدب وافر المكر ، يسر

للكردينال أهانة أوقعها به ، و يسعى الى الانتقام منه . فحمل مشروع المعاهدة ، ونجح فى حمل وزير اسبانيا الدوق أوليفار يس على اقراره وتوقيعه .

وكانت الحرب تضطرم يومئذ بين فرنسا واسبانيا ، ففى أواخر يناير سنة ١٦٤٢ ، قصد لويس الثالث عشر الى الجنوب ليشرف بنفسه على حصار بربنيان أحد معاقل اسبانيا الشمالية ، وكان الكردينال يعانى يومئذ من مرضه الذى حمله الى القبر بعد ذلك بأشهر ، ولكنه سافر مع مليكه محمولا فوق محفة ، وسافر كبراء البلاط ومنهم سان مار فى ركاب الملك ، واتفق سان مار ، ودورليان ، ودى بويون على اللقاء فى ليون . كذلك اعتزم سان مار ودى تو لقاء فونترای حین عوده فى كاركاسون احدى مدن الجنوب ، وقابلاه هنالك فعلا ، وصحبهما الى بربنيان . أما الكردينال فقد تخلف لشدة مرضه فى ناربون ، فارتاع لذلك أنصاره وخشوا أن ينتهى نفوذ سان مار باسقاطه وادالة دولتهم .

واعتقد سان مار من جهة أخرى ان الساعة قد حلت ، وشجعه اقرار اسبانيا للمعاهدة السرية على المضى فى خططه . غير انه كان يغلب الخفة والطيش على الرزانة والاناة ، فغدا كثير الادعاء والتفاخر ، وغدا يهدد بسقوط دولة ريشليو وكل من كان يؤيد الوزير الكبير أو يعطف عليه ، وشجعه بالأخص ان لويس الثالث عشر كان يفسح المجال لنصحه وقوله ، وانه تنفس الصعداء لبعد وزيره عنه وانقطاعه عن أرهاقه وتكدير صفائه . ولكن سان مار ذهب فى الجرأة والاستهتار الى حد المغامرة بحظوته لدى مليكه ، فما زال يتهاون فى معاملته ويقصر فى احترامه ، وقد يغتابه و يقذف أحيانا فى حقه فينقل الوشاة أقواله ، وما زالت تنشب بينهما المناقشات الحادة والمناظر العاصفة حتى بلغ الغضب بالملك ذات يوم ان حظر على صفيه الدخول عليه ؛ فلما انتهى الخصام بينهما ، لم يبق لسان مار فى قلب مليكه ما كان له من منزلة ، وغاض من بينهما ذلك الصفاء القديم الذى كان يوثق بينهما أواصر الحب ، ويرفع رسوم الكلفة والاحجام .

ولكن نجم ريشليو لبث ساطعا . وكان رغم مرضه وتخلفه يرقب حركات أعدائه . وكان يعتمد فى ذلك على خطة بديعة من التجسس وجماعة من عيونه الأذكياء ، فما لبث

أن وقف على خبر المعاهدة السرية ، وما لبث أن أمدّه أعوانه بصورة منها . فبادر الكردينال بارسالها مع شافيني أحد أمنائه الى الملك ، فروع لويس الثالث عشر ، ولم يشأ أن يؤمن بخيانة صفيه بادئ بدء ، حتى قيل إنه استدعاه لفوره ، وأطلعه على صورة



الكردينال ريشليو

المعاهدة ، وسأله عما اذا كان حقا ما نسب اليه ، فسكت سان مار وكان سكوته أقطع حجة على ادانته ، وأن الملك تركه ذلك اليوم حرا ولم يأمر بالقبض عليه في اليوم التالي[1] (أوائل يوليه سنة ١٦٤٢) .

(١) يروى الفرد دى فني فى قصته « سان مار » ان سان مار تقدّم الى الملك طائعا مختارا ، وقدم اليه سيفه قائلا : انك تانس يا مولاى صعوبة فى القبض على فوراس عشرون ألف رجل ، ولكنى أسلم نفسى لأنى أريد الموت وليس لأنى غلبت ؛ وان سان مار أراد الموت لأنه علم أن الملكة أرغمت حبيبته الأميرة دى جونزاج على تركه وقبول خطبة ملك بولونيا (الفصل الخامس عشر) ، ولكن المعروف أن الأميرة لم تقبل خطبة ملك بولونيا الا بعد القبض على سان مار ، وانها جزعت لخبر القبض عليه خشية أن تضبط رسائلها بين أوراقه ، فبذلت كل وسيلة لاسترداد هذه الرسائل ، وأن اهتمامها بأمر محنته كان قاصرا على خوفها من التشهير والفضيحة . أما سان مار فقد حاول بالعكس أن يفر ، ولكنه ضبط مختفيا فى أحد المنازل ، فقبض عليه .

وقبض على دى تو فى الحال أيضا ، وفرّ الدوق دى بو يون وكذلك المركيز دى فنتراى . أما الدوق دورليان فقد روعه خبر القبض على شركائه ، فبادر الى أخيه فى طلب العفو ، وعرض أن يشترى حياته بالاعتراف الكامل ، ومغادرة البلاد ، ورحب الكردينال بهذا الحل لأنه لم يكن يملك من الأدلة على المتهمين سوى صورة بسيطة من المعاهدة ؛ وأرغم الدوق على كتابة اعتراف مكتوب يشرح فيه تفاصيل المؤامرة ، ويتهم زملاءه ويفضح كل أعمالهم وأقوالهم ، وانتهى الأمر بقبوله أن يقيم فى « بلوا » دون امتيازات أو حرس ؛ وهكذا « كان قدره دائما أن يدفع بأصدقائه الى السجن أو النطع (١) » .

وافتدى الدوق دى بو يون نفسه بثمن غال هو مدينته سيدان ، فنزل عنها للملك وغادرها ليعيش مع أسرته فى فرنسا .

وكتب الوزير الكبير الى مليكه فى لهجة المتواضع المظلوم يشكو من تدبير الاعتداء عليه ويقول : « لقد وقفت يا ذا الجلال ، على المشروع الذى دبره «السيد العظيم» ضدى ، أنا الكردينال الذى يخدم ، منذ خمس وعشرين سنة ، بحول الله ، سيده موفقا » . وكان أهم ما يخشى الكردينال أن يضعف نفوذه لدى مليكه فى ذلك المأزق . ولكن الحقيقة أن نفوذه عاد يومئذ الى أشدّه ، وألقى اكتشاف المؤامرة والقبض على مدبريها الرهبة من جديد فى نفس أعدائه ، وفوض الملك الى وزيره عقاب المتهمين رغم أسفه على محنة صديقه وصفيه ، وأن يكون عقابهما رادعا لمن يجرؤ أن يتآمر على مليكه وأمته .

فاستدعى الكردينال سان مار ودى تو الى تاراسكون حيث كان الملك ، واستجوبهما بنفسه ، فلم يعترفا بشىء . عندئذ قرر محاكمتهما فى ليون أمام محكمة خاصة تؤلف من خمسة من مستشارى الدولة وسبعة من مستشارى البرلمان ويرؤسها المستشار سجييه . ثم اقتاد الكردينال المتهمين بنفسه الى ليون بحراسة ثلة قوية من الجند . ويفيض الفريد دى ڤينى فى قصته فى وصف تلك الرحلة العجيبة ، ويقدم

(١) فولتير .

الينا صورة بديعـة من عزم ذلك الحبر القوى الذى لم تقعده متاعب الكبر ولا آلام مرضه المبرح عن تولى المهام بنفسه، ومطاردة أعدائه بنقمته، فيركب النهر طريحا فى فراشه، ويرقب مصير المتهمين بنفسه [١].

٣

وفى ٣ سبتمبر سـنة ١٦٤٢، وصل الكردينال الى ليون، وزج بالمتهمين الى إحدى قلاعها وشدد عليهما الرقابة والحرس.

وفى صباح اليوم التالى بدأت لجنة برآسة المستشار سجييه بالتحقيق، واستمرت فى استجواب المتهمين عدّة ساعات، ولكنها لم تظفر منهما بجديد، وكان موقف الاتهام ضعيفا نحو دى تو بوجه خاص، إذ لم يرد فى اعترافات الدوق دورليان والدوق دى بويون ما يؤخذ به. وكانت اللجنة تطبق عليه قانون التآمر الذى أصدره لويس الحادى عشر، وخلاصـته أن عقوبة الموت تجب على من وقف على جريمة الخيانة أو الاعتداء على ذى الجلالة وصمت عن تبليغها، ولم يثبت من التحقيق أن دى تو كان على علم بتفاصيل الجريمة أو انه كان يعلم بخبر المعاهدة. ولهذا رفض المدعى العمومى أن يطلب عقوبة الاعدام بالنسبة لدى تو لان أركان الجريمة الموجبة لذلك لم تتوفر فى رأيه.

عندئذ لجأ الكردينال الى وسائله الخاصة، فعهد الى مستشار للدولة من رجاله وصَـنائعه يدعى لوباردمون، وهو كما رأينا شخص لا شرف له ولا ذمام [٢]، أن يسعى بكل الوسائل الى جمـع الأدلة. فقابل المستشار سان مار فى سجنه وأفهمه أن الاعتراف الكامل فى مثل حالته هو السبيل الوحيد لنيل العفو، وأن لا لوم عليـه فى ذلك لأن الدوق دى بويون والدوق دورليان قد اعترفا بكل شىء، وأن دى تو نفسه قد انتهى بالاعتراف واتهامه. وكان ما قاله المستشار عن دى تو كذبا صراحا،

(١) فى الفصل الخامس والعشرين.

(٢) نذكر أن لوباردمون هذا هو الذى قام بتدبير محاكمة أوربان جرانديه (راجع الفصل الرابع).

والكن خديعتــه الشائنة جازت على سان مار ، واعتقد أنه يستطيع انقاذ حيـاته بالاعتراف استنادا الى وعد الكردينال ، فاعترف عنـدئذ بكل شيء وأمضى باعترافه وثيقة رسمية .

ثم اســتدعى دى تو وسئل عمـا اذا كان لديه ما يطعن به على أقوال زميله ، فأجاب أنه لا يشك فى صــدقه ذرة ، فاذا قال شيئا فهو الصــدق الصراح . ولكنه لمـا تلى عليه اعتراف سان ماركاد يصعق ، فالتفت اليه ،وسأله متأثرا،عما اذا كان حقا ما تلى عليــه ؟ فأدرك سان مار فى الحـال خديعة لو باردمون وعلم أن دى تو لم يعترف قط وأنه إنمـا أخذ بحيـلة شائنة أضاعته وأضاعت صــديقه . وتسجل وثائق هذه المحاكمة الشهيرة لدى تو موقفه البديع يومئذ، وفيه يخاطب قضاته بما يأتى :



دى تو

«أيها السادة : كان فى وسعى أن أنكر اطلاقا أنى وقفت على شيء، وما كان باستطاعتكم هزيمتى بالخديعة أو باعتراف المركيز دى سان مار ، فانى لم أكتب شيئا أو أحدث بالأمر أحدا فى العالم .

« وليس لاقرار متهم على متهم آخر قيمة فى الاثبات ، ولا يمكن الحكم بالموت إلا بشهادة شاهدين ذوى عدل .

«لحياتى وموتى، وادانتى وبراءتى، معلقة على كلمة منى

«ومع ذلك فانى أعترف أيها السادة أنى علمت بالمؤامرة : أعترف بذلك لأنى استطعت خلال ثلاثة أشهر قضيتها فى السجن أن أزن الحيـاة والموت جيـدا، واقتنعت بأنى لن أستطيع أن أحيا سوى حياة نكدة سوداء، وان الموت خير منهـا

بكثير، وأنه أوضح نقطة فى صحيفة قدرى . فأنا على أهبة لأن أموت اذن ولم أكن قط أكثر رغبة فى الموت منى اليوم .

واذن فلست أريد أن تضيع هذه الفرصة التى أستطيع أن أظفر فيها بسلام روحى، واذا كانت جريمتى معاقبا عليها بالموت فانها ليست سوداء وليست فظيعة .

«أعترف أيها السادة بأنى علمت بالمؤامرة وانى بذلت كل ما أستطيع لأقنع المركيز سان مار بالعدول عنها

«وقد اعتقد أنى صديقه المخلص الوحيد، فلم أقدم على خيانته، ومن أجل ذلك أرانى أستحق الموت» .

وهكذا ألقى دى تو بنفسه بين براثن الموت .

وهكذا أفلح لو باردمون فى مهمته وتم ما أراد الكردينال ، فلم يجد المدّعى العمومى بدا من أن يطلب عقوبة الاعدام بالنسبة لسان مار ودى تو معا .

وصدر الحكم باعدام سان مار باجماع القضاة، ولكن حدث بالنسبة الى دى تو خلاف شديد فى الرأى . على أن الرئيس سجييه بذل كل ما أوتى من منطق وذلاقة فى اقناع زملائه ، وانتهت المناقشة بأن صدر الحكم باعدام دى تو أيضا بأغلبية احدى عشرة صوتا ضد صوتين فقط .

واليك نص هذا الحكم ، نورده نموذجا للاجراءات الجنائية الفرنسية فى عهد لويس الثالث عشر :

« ما بين النائب العام للملك ، بوصفه مدعيا فى جريمة اعتداء على ذى الجلالة طرف أول

« وبين السيد هنرى كفييه دى سان مار كبير الركائب الملكية وعمره اثنان وعشرون سنة، وفرانسوا أوجست دى تو، مستشار الملك وعمره خمس وثلاثون سنة، كلاهما سجين فى قلعة بيير أوسيز فى ليون، مدعى عليهما ومتهمين، طرف ثان

«بعد الاطلاع على أوراق القضية التى حققت بصفة غير عادية بناء على طلب النائب العام للملك ضد المذكورين، كفبيه ودى تو، وعلى ما ورد من أخبار وتحقيقات، واعترافات وانكارات، ومواجهات، وبعد الاطلاع على صور معترف بها من المعاهدة التى عقدت مع اسبانيا، وعلى قرارات الغرفة المنتدبة :

(١) من أن كل من يعتدى على شخص الوزراء والأمراء يعتبر طبقا للقوانين القديمة ودساتير الامبراطرة مرتكبا لجريمة الاعتداء على ذى الجلالة

(٢) وانه طبقا للقانون الثالث الذى أصدره الملك لويس الحادى عشر توقع عقوبة الاعدام على كل من لا يبوح بسر مؤامرة تدبر ضد الدولة .

«قرر المستشارون المنتدبون من قبل جلالته أن المذكورين كفبيه ودى تو قد ارتكبا وثبتت عليهما جريمة الاعتداء على ذى الجلالة لأن أولهما وهو كفبيه دى سان مار قد دبر المؤامرات والاجتماعات والمعاهدات مع الأجانب ضد الدولة، ولأن ثانيهما دى تو قد علم بالوقائع المذكورة .

«وأمروا عقابا لهما على الجرائم المذكورة بتجريدهما من كل شرف ولقب، وحكموا ويحكمون عليهما بقطع الرأس على نطع يقام لذلك الغرض فى ميدان تيرو فى تلك المدينة

«وقرروا ويقررون أن يصادر كل ما يملكان من منقول وعقار لحساب الملك، وأن يضاف ما امتلكاه من التاج مباشرة الى أملاك التاج ، وأن يؤخذ مما امتلكاه قبل ذلك مبلغ ستين الف جنيه للاعمال الخيرية» .

وتلى الحكم على المتهمين أثر صدوره . فتلقياه بثبات مدهش ، اثار الاجلال والاعجاب فى كل ناحية، وأفاض فى وصفه شهود المحاكمة من قضاة وغيرهم . ومما يقوله المستشار ماركا، أحد القضاة الذين أصدروا الحكم عن سان مار فى إحدى رسائله — : « انها لعجيبة خارقة انه لم يبد ذرة من الخوف أو الاضطراب أو الانفعال » .

وجاء فى مذكرات الكردينال ريشــليو ما يأتى : « ان سان مار لم يعتور محياه أو كلامه تغيير قط ، بل لبث حتى النهاية محتفظا برقته ، واعتداله ، واطمئنانه » . ودونت عن دى تو أيضــا ، وثباته ، وقوة جنانه ، تقارير ورسائل عديدة من شهود المأساة .

وكان الكردينال ريشليو قد غادر ليون صباح يوم المحاكمة ، فلحق به فى الطريق رسول الرئيس سجييه ، يحمل اليــه نبأ الحكم الذى يتمنى ، وبلغه فى نفس الوقت نبأ سقوط بربنيان فى يد الجيش الفرنسى ، فأبرقت أسرته ولاحت عليه أمارات البشر والفرح ، وكتب الى مليكه ما يأتى : « مولاى ! لقــد هلك أعداؤك ، وملكت بربنيــان» .

يقول ڤولتير : «أسبغ الكردينال على انتقامه الذى اصطبغ بلون العدالة كل صرامته العالية ، فقد رأيناه يجر كبير الركائب فى حاشيته فى نهر الرون فى قارب ألحق بسفينته ، وهو يعانى أوصاب الموت ، ظافرا بذلك الذى قضى أن يموت على النطع » . بيد أنه كان آخر ظفر للوزير الأكبر على أعدائه ، فقد توفى بعــد أشهر قلائل فى أوائل ديسمبر سنة ١٦٤٢

* * *

أما سان مار ودى تو فقد تقرر أن ينفذ فيهما حكم الاعدام فى ليون فى نفس اليوم الذى صدر فيه الحكم أعنى فى ١٢ سبتمبر . وكان ثباتهما الذى لم يعتوره الوهن لآخر لحظة ، آية من أسمى آيات الشجاعة والبسالة . فاجتمعا وتعانقا بحرارة ، وودع كل منهما صاحبه . وكتب سان مار الى أمه خطابا مؤثرا يقول فيه : «سيدتى وأمى العزيزة الرفيعة ، أكتب اليك اذ لا أستطيع أن أراك بعد ، لأستحلفك ياسيدتى أن تغدقى علىّ آيتين من رفقك الأخير : الأولى أن تقدمى الى روحى من الصلوات ما استطعت ، والثانيــة أن تؤدى ما علىّ من الدين ؛ وكل ما تعلق بالمــال تافه ، فلا تأب التماسى الأخير تحقيقا لسلام روحى ... ووداعا يا سـيدتى ، وصفحا اذا لم

أكن قد بجلتك فى حياتى كما يجب ، وتأكدى أنى أموت ، ولدك وخادمك المطيع العارف ... »[١] .

ثم اعترف كل منهما لقسه . وعند الأصيل، أخذا الى ساحة الاعدام فى عربة مكشوفة يتقدمها جماعة من الحرس الملكى، وكانت الطرق غاصة بالجموع، وقد اصطف الجند على الجانبين ليؤدوا التحية الأخيرة «للسيد العظيم» . وكان سان مار يرتدى ثيابه الرسمية الفاخرة، ويحيى الجموع بظرفه الخلاب، وأما دى تو فكان يرتدى ثيابا سوداء. ثم قيد سان مار الى النطع أولا، وأشرف من فوقه على الشعب هادئا. ثم تلاه دى تو، ثابت الجنان، فسقط الى جانبه صريعا .

واليك ما كتبه مشاهد لذلك المنظر المروع : « لقد رأينا صفى أعظم الملوك وأعدلهم تقطع رأسه على النطع فى الثانية والعشرين ، بشجاعة قلما عرف مثلها تاريخنا، ورأينا مستشارا للدولة يموت كما يموت الشهداء، وذلك لأنهما ارتكبا جرما لايستطيع الناس اغتفاره، دون خرق للعدل. ليس فى العالم انسان يعلم ائتمارها بالدولة إلا قضى عليهما بالموت، وقليل ممن يعرفون ظرفهما ورفيع خلالها لا يأسون لمحنتهما.

«وفى وسعنا دون خرق العدل أن نذم جرمهما، وأن نحمد ندمهما» .

* * *

كانت هذه المأساة مستقى خصبا لأقلام عدة من أمراء الخيال الفرنسى ، مزجوا التاريخ بالقصة، والغرام بالسياسة، وصوروا سان مار بطلا للحب والتضحية، وصوروا الوزير الأكبر طاغية، جبارا منتقما، أحمر قانيا تصطبغ يداه بالدماء البريئة، وتسقط الرؤوس صرعى أهوائه ومطامعه .

غير أن المؤرخ الذى يقدّر الوقائع فى روية ونزاهة، ويطبق مبادئ الأخلاق الخالدة، أو المشترع الذى يحتكم الى القانون والعدالة، لا يستطيع أن يذم حكم القضاء فى تلك القضية الشهيرة .

---

(١) لا يزال أصل هذا الخطاب فى المكتبة الوطنية بباريس .

ومن ذا الذى يذم ملكا أسلم المؤتمرين بالوطن مع العدو الى سيف العدالة ؟

ولقد كان ريشليو منتقما ، وكان قاسيا ، وكان تصرفه فى التحقيق والمحاكمة مشوبا بالتحريض والتحامل ، ولكن ريشليو كان فى الوقت الذى ينزل صارم انتقامه باعدائه ، يقضى فى نفس الوقت على خطر يهدد سلامة فرنسا ، وسلامة العرش الفرنسى ، فكان بذلك يخدم وطنه ومليكه .

وانه لمما يؤثر عن ذلك الوزير العظيم قوله ، وهو فى فراش موته حينما طلب اليه أن يصفح عن أعدائه : «ما كان لى أعداء قط غير أعداء فرنسا !» .

لقد كان ريشليو أعظم وزير ، وربما أعظم سياسى أنجبته الأمة الفرنسية ، وكانت سياسته البارعة المستنيرة مبعث الأمة الفرنسية الحديثة ، ومبعث عصر لويس الرابع عشر ، أمجد عصور التاريخ الفرنسى .

مراجع هذا الفصل

H. Robert : Grands Procès de l'Histoire.

Alf. de Vigny : Cinq-Mars ou Une Conjniration sous Louis XIII (Notes et Documents).

Voltaire : Essai sur les Mœurs.

R. Lodge : Modern Europe.

الفصل الثامن

مأساة الســـــموم

ســنة ١٦٧٢ — ٧٦

بلغت الملوكية الفرنسية أوج مجدها فى عصر لويس الرابع عشر، وسطع بلاطها يومئذ يعيده سيرة القصور الرومانية، فى الجمال والبهاء والبذخ، وفى الكيد والبطش والاثرة ؛ وتفتحت مظـاهر العبقرية الفرنسية فى كل النواحى ؛ وهبت على المجتمع الفرنسى بأسره ريح من النعماء والرفاهة . ولكن هـذه الملوكية كانت تمثل فى مجـدها سـقوط النبلاء وذلة الشعب . وكان عهـد ملك مبدؤه فى الحكم « انا الدولة » ، عهد السلطان المطلق، وحكم الهوى، وقضاء الباستيل . وكان ذلك المجتمع الزاهر تسرى اليه فى الخفاء عوامل الانحلال الخلق، وتنتابه النزعات الوضيعة . وكان الترف المغصوب، والاغراق فى الملاذ، واطلاق العنان للأهواء، ظواهر خطرة تشوب عظمة هـذا العصر، وتتمخض بين آونة وأخرى عن مفاجآت مروعة تكشف عما تبطن هذه العظمة من عوامل الانحطاط المعنوى .

وكانت جرائم المركيزة دى برانقلييه من أغرب هذه المفاجآت وأروعها[1] .

فى ســنة ١٦٦٣ قبضت شرطة الملك على الشفالييــه جودان دى سانت كروا بينما كان يجوب شوارع باريس مع صاحبته المركيزة دى برانقلييه فى عربة مغلقــة، ثم زج به الى سجن الباستيل .

---

(١) كتبت هذه المأساة فى صور روائية مختلفة ، ولكنى راعيت فى ايراد حوادثها الاغضاء عن كل عناصر القصة ، ولم أعتمد إلا على الوقائع والوثائق التاريخية المحققة .

ولم يكن الشڤالييه متهما بارتكاب جرم معين قبض عليـه من أجله ، ولكنه اعتقل تنفيذا لاحدى الرقاع المبصومة المعروفة «باللتر دى كاشيه»[١] .

وكانت سانت كروا فى ذلك الحين فتى فى نحو الثلاثين من عمره ، جميل القد والمحيا، يتألق البشر فى وجهـه، جم السرور والمرح، مولعا باللهو والمجـون، وافر الاسراف والكرم، شديد الحب والغيرة . ولم يكن له أصـل معروف فى النبل أو ثروة تسمح له بالانفاق بمثل سعته وبذخه، والاغراق فيما كان مغرقا فيه من اللهو والطرب ، فكان البعض يقول انه ولد غير شرعى لسيد كبير، والبعض الآخر انه ولد أبوين فقيرين، غير أنه آثر العار المتوج بألقاب النبل على الظلام والعدم، فادعى ما لم يكنه . وكل ما هو مؤكد عنـه أنه ولد فى منتوبان من أعمـال الجنوب ثم انتظم فى خدمة الجيش وتدرج فى مناصـبه حتى صار فى العصر الذى تحدّث عنه ضابطا برتبة قبطان .

أما ظروف القبض عليـه فهى أنه فى سـنة ١٦٦٠ تعرف بالمركيز دى برانفلييه قائد فرقة نورمندى حينما كان يعمل تحت لوائه، فجمع بينهما الشـباب، والتماثل فى الصفات والأخلاق، ونشأت بينهما صداقة متينة العرى، فلمـا عاد المركيز الى باريس قدم صديقه سانت كروا الى زوجته الحسناء .

وكانت المركيزة دى برانفلييه — واسمها العذرى مارى مادلين دوبرى — ابنة لانتوان دريه دوبرى، محافظ سجن الشاتليه . وكان له ابنـة أخرى وولدان . ففى سنة ١٦٥١ تزوجت مارى مادلين من المركيز دى برانفلييـه وحملت اليـه مهرا كبيرا زاد فى ثروته الطائلة التى كان ريعها يربى على ثلاثين ألف جنيه .

---

(١) (Lettres de Cachet) هى رقاع كانت تحمل أمر الملك بالقبض أو السجن أو النفى ويمهرها بخاتمه ، ولا يعين فيها اسم من تصدر ضدهم هـذه الأوامر ، وكان يحصل عليها ذوو النفوذ فى البـلاط ، ويشتريها الأغنياء ، ويستعملونها فى النكاية بأعدائهم .

وكانت مارى مادلين فتاة وثابة العواطف ، مضطرمة المشاعر والميول ، ثائرة النزعات ، لم يحسن أبوها تربيتها الخلقية والدينيـة ، رغم مكانة أسرته ، فنشأت كما تهوى وأطلقت العنان لأهوائها وشهواتها العاصفة . وكانت وقت أن قدم اليها زوجها صـديقه الشڤاليه سانت كروا فى الثامنة والعشرين ، فى ريعان جمالها ، حسناء ساحرة الملامح والقد . وكانت بالرغم من طبيعتها المضـطرمة ، جامدة المحيا ، وافرة الهدوء والسكينة ، تستطيع أن تضـبط عواطفها بمهارة فائقة .



لويس الرابع عشر

فلم يلبث هذا التعارف أن أدّى غير بعيد الى النتيجة الطبيعية . ذلك أنه سرى الى المركيزة والشڤاليه منذ اللقاء الأول عطف متبادل ، تحوّل سراعا الى هيام مبرح ، وانتهى بأن غدت المركيزة خليلة للشڤاليه .

وكان المركيز من جانبه زوجا ردىء الخلال ، ينفق كل وقته فى لهوه ومجونه فلم يعر سلوك زوجته كبير اهتمام ، ولم يثر من ضروب غيرته صعابا فى سبيل العاشقين . ولعله آثر الاغضـاء متأثرا بذلك الروح الفلسفى الذى كان ظاهرة للحيـاة الزوجية فى ذلك العصر . فاستمر غارقا فى بحار لهوه وفجوره ، غير مشفق على ثروته ، حتى اضطربت أحواله ، ودب الجفاء بينه وبين المركيزة التى كانت تضطرم جوانحها بنـار غرامها الجديد . ثم وقعت بينهما الفرقة ، فهجرت المركيزة منزل الزوجية ، واستسلمت الى صاحبها روحا وجسما ، وظهرت معه علنا فى كل مكان .

غير أن المسيو دوبرى راعه سلوك ابنته وسقوطها الى ذلك الدرك، فبادر بالحصول على "رقعة مبصومة" صرح فيها بالقبض على سانت كروا أينما وأنى وجد، فقبضت عليه شرطة الملك كما قدمنا .

* * *

زج سانت كروا الى الباستيل وهو يموج يومئذ بفرائسه، وكان زميله فى غرفة اسره رجل نحيف، طويل الشعر، شاحب اللون، يدعى إكسيلى .

فمن ذلك الرجل ؟ وما الذى أودى به الى ظلمات الباستيل ؟

لم يكن إكسيلى اسما خاملا أو نكرة، بل كان علما طائر الصيت . كان إكسيلى كيمائيا ايطاليا بارعا، ولكنه اختص ببراعته الجانب الأسود من مهنته، فانكب على درس السموم وخواصها ومؤثراتها حتى غدا اسمه قرين الموت فى إيطاليا . وحدثت فى رومة عدّة وفيات اشتبهت فى أمرها السلطات ولكنها لم تظفر بأدلة على الجانى فاتجه ريبها الى إكسيلى فنفته من رومة، فذهب الى باريس ولم يلبث أيضا أن أثار شكوك السلطات هنالك، غير أنها لم تظفر أيضا بالأدلة على إجرامه، فقبضت عليه وزجت به الى الباستيل .

وكان قد مضى على إكسيلى بضعة أشهر فى سجنه قبل أن يفد عليه سانت كروا، فتعارف الرجلان، وقويت بينهما الشدائد وأغلال الأسر، أواصر الصداقة والحب . ويقال إن إكسيلى أراد أن يقدّم الى زميله فى الأسر برهانا على إخلاصه فعرض عليه أن يقفه على أسرار سمومه وطرق تركيبها واستعمالها، فقبل سانت كروا وألفى فى تعلم هذه الأسرار الخفية لذة لم تلبث أن تحوّلت الى شغف هائل، فعكف آناء النهار والليل على درس تعاليم إكسيلى وتجاربه حتى غدا قرينه فى المهارة والبراعة .

ثم خرج سانت كروا من الباستيل بعد أن قضى فيه ردحا[1] أسود، ونفسه ثائرة على المجتمع، وجوانحه تضطرم بنار البغض والانتقام، غير أنه خرج وفى يده سلاح هائل يستطيع أن يخضعه لنقمته فى أمن وخفاء .

---

(١) يذكر فونك برنتانو أن سانت كروا دخل الباستيل فى ٩ مارس، وبقى فيه حتى ٢ مايو سنة ١٦٦٣ (كتاب مأساة السموم) .

هـذا ما تقوله بعض الروايات عن الظروف التى درس فيها سانت كروا أسرار السموم، ويقول البعض الآخر إن سانت كروا تلق أسرار السموم عن كيمائى سويسرى شهير يدعى خريستوف جلازر، وكان صيدليا للملك وله معمل للتجارب الكيمائيـة فى ضاحية سان جرمان، وكان صـديقا حميا لسانت كروا . والظاهر أن سانت كروا تلق علومه[١] عن إكسيلى وجلازر معا .

٢

وما كاد سانت كروا يخرج من سجنه حتى استـأنف العاشقان علائقهما ، غير أنهما خشيا أن يعيد المسيو دو برى الكرة عليهما فقررا أن يكون أول فريسـة لسلاحهما الجـديد وبذلك ينتقم سانت كروا لنفسـه، وتنجو المركيزة من الرقابة ، وتصلح بالميراث ما أفسدت بتهتكها وسفهها .

فأعد سانت كروا سلاحه الهائل، وكان المسيو دو برى قد أنهكه المرض والعناء فى ذلك الحين، فعوّل أن يقضى اجازته فى قصره فى أوفمون، فعرضت عليه ابنتـه المركيزة أن تصحبه الى الريف، وكان يعتقد أنهـا قطعت علائقها مع سانت كروا فقبل صحبتها راضيا .

---

(١) يقول فولتير فى كتابه «عصر لويس الرابع عشر» عن هذا الموضوع ما يأتى : «قضى قدر غريب أن تصاب فرنسا بهـذه الجريمة (التسميم) فى عصر المجد والمسرات التى تهذب الخلال ، كما تسربت الى رومة القديمة فى أبدع عصور الجمهورية .

«وكان ثمة ايطاليان أحدهما يدعى اكسيلى ، يعملان منذ بعيد مع صيدلى ألمـانى يدعى جلازر فى البحث عما يسمونه بحجر الفلاسفة فخسرا كل ما يملكانه فى هذه التجارب ، واعتزما أن يصلحا بالجريمة ما أفسداه بالحماقة ، وأخذا يبيعان السم سرا . ولكن الاعتراف الذى هو أعظم جماح للخبث البشرى ، وهو الذى يساء استعماله أيضا بفكرة أنه يمكن ارتكاب جرائم يصح التفكير عنهـا ، نقول إن الاعتراف كان سببا لوقوف كبير الوعاظ فى باريس على حقيقة ، هى أن أشخاصا توفوا بالسم ، فأخطر السلطات ، فاشتبه فى الايطاليين وزج بهما الى الباستيل ، فمـات أحدهما فى سجنه . ولكن اكسيلى بقى فيه دون أن تقوم الأدلة على جرمه ، ولبث من أعماق سجنه يبث تلك الأسرار المروعة فى باريس» . ويرجح فولتير الرواية الأولى عن تعلم سانت كروا أسرار السموم فيقول : «ان سانت كروا سجن لسوء الطالع فى الغرفة التى كان فيها اكسيلى ، فعلمه هذا الايطالى وسائل الانتقام وهى التى نعرف نتائجها المروعة» .

وهنالك التجأت المركيزة الى قناع محياها الهائل ، واستنجدت بذلك الجمــود الذى يسبغ على ملامحها الهــدوء المطبق مهما كان اضطرابها وثورة نفسها : بذلك القناع الهائل كانت تغدق على أبيها مظاهر الاخلاص والاشفاق والعطف، بينما كانت تتحين فى نفس الوقت فرصة لتنفيذ مشروعها الفظيع .

وسنحت الفرصــة وقدمت المركيزة الكأس المســموم الى أبيهــا ذات مساء وراقبته اذ رفعه الى شفتيه ثم تجرعه ، ولم ترتسم على وجهها بادرة من الجزع الذى كاد يمزق فؤادها .

ثم أعادت الكرة واستمرت تقدّم السم الى أبيها جرعات صغيرة وتراقب فعله فيه بهدوء وثبات .

وكان المسيو دوبرى يشعر بالتهاب شديد فى الاحشاء ويغلبــه القيء من وقت لآخر غير أن الطبيب الذى استدعى لفحصه لم يخامره أدنى ريب فى الحقيقة الهائلة واستمر يصف له أدوية لا خير فيها .

فلما اشتدت الحال بالعليل بادر بالعود الى باريس عملا بنصح ابنتــه، حيث تتوفر وسائل العلاج والعناية، ولكن المركيزة كانت تقصد من ذلك العود أن تبتعد عن مسرح الجريمة حيث شاهد الطبيب الاعراض الأولى، ومن ثم تتقطع أوصال المشاهدة والبحث .

وفى وسع القارئ أن يقدّر ما كان يجثم فى نفس تلك المرأة الهائلة من عناصر الاجرام والعزم ، متى علم أنها اعترفت أثناء محاكمتها فيما بعد أنها اضطرت أن تسمم أباها نحو ثلاثين مرة . وفى ذلك تقوم مدام دى سفنييه أشهر كاتبة فى ذلك العصر : " ان أروع الجرائم تعتبر أمورا تافهة بالقياس الى عمل تلك التى لبثت ثمانية أشهر تعتزم قتل أبيها، ولا تقابل كل عطفه وبوارد حنانه إلا بمضاعفة الجرعة ! " .

لبث المسيو دوبرى بضــعة أيام تتقاذفه آلام الموت والمركــيزة الى جانبه لا تفارقه لحظة، ثم أسلم روحه بين ذراعى ابنته وهو يبارك تلك التى قتلته . وكانت المركيزة أشدّ الناس وجدا على فقده .

وطارت الاشاعة بأنه قد مات مسموما غير أن الأطباء الذين فحصوا جثته لم يجدوا ما يدعو الى الريب فنسبوا الموت الى أسباب طبيعية .

* * *

وكان سانت كروا فى ذلك الحين غارقا فى لهوه ومجونه يعيش فى بذخ لا يعلم مصدره أحد . وكان البعض يقولون إنه اكتشفت أسرار الاكسير الذهبى .

غير أنه كان فى الواقع يؤدّى أعمالا أخرى فقد كانت له علائق كثيرة بكبار النبلاء والأغنياء ذوى المشاريع والمطامع . مثال ذلك أنه كان صديقا حميا لشخص من كبار الأغنياء يدعى بنوتييه وهو المحصل العام لخزينة الكنيسة . وكان لبنوتييه شريك فى أعماله ومصالحه يدعى داليبر . فتوفى داليبر ذات يوم فجأة، واختفت المستندات المثبتة للشركة ونكبت بذلك أرملته وأولاده . فارتاب صهر له يدعى مجدلين فى أمر وفاته وأخذ يجرى بعض المباحث للوقوف على الحقيقة ، ولكنه توفى أثناء مباحثه فجأة . فكان أولئك الذين لا يعتقدون فى السمياء يقولون إن سانت كروا وبنوتييه يزاولان معا صفقات رابحة .

أما المركيزة فانها لما انتهت فترة الحداد على أبيها استأنفت علائقها مع خليلها، وأمعنت فى تهتكها وفجورها بأشدّ من ذى قبل[1]، فغضب لسلوكها الشائن أخواها، ونقلت اليها أختها الصغرى وكانت لا تزال تلميذة فى الدير، لومهما واستياءهما .

وكان أكبر الأخوين قد خلف أباه فى منصبه، والآخر محاميا لدى البرلمان ، وكانا قد استوليا بالارث على معظم تركة أبيهما ولم تنل المركيزة منها إلا جزءا يسيرا .

فرأت المركيزة أنها لم تتخلص بمقتل أبيها من الرقابة، ولم تحظ بما كانت ترجو من ثراء، وشجعها النجاح فى الجريمة الأولى ففكرت فى ارتكاب جريمة أخرى .

---

(١) يذكر فونك برنتانو فى كتابه مأساة السموم ان المركيزة لم تكن خليلة لسانت كروا فقط ، بل كان لها أصحاب عدّة فى وقت معا ، ومنهم مؤدب أولادها الذى سيذكر بعد ، وابن عم لها ، وانها رزقت من بعضهم أولادا نسبتهم الى زوجها .

غير أنها ارتكبت في تلك المرة أشنع خطأ أدّى الى هلاكها فيما بعد، وذلك أنها لم تنفرد بالتنفيذ بل استعانت بوصيف لخليلها يدعى "لاشوسيه" استطاعت أن تدخله في خدمة أخويها وكانا يقيمان في منزل واحد .

كذلك خشيت أن تستعمل في تلك المرة سما سريع الأثر كالذى أودى بحياة أبيها فأمدّها خليلها بسم بطيء الأثر . ولكنها أرادت قبل استعماله أن تجربه بنفسها تجربة مقنعة .

ومن غرائب الظروف أن تلك المرأة الهائلة كانت برغم تهتكها واجرامها تعرف بالاحسان والبر، وكثيرا ما كانت تزور المستشفيات لتؤاسى المرضى ولكن أى مؤاساة ! فانها كانت تحمل الموت الزؤام الى أولئك التعساء : كانت تقدم اليهم الفاكهة والأشربة ممزوجة بسمها النقيع، ثم تعودهم لترى فعل السم فيهم وتراقب سيره وآثاره، وتحادث الأطباء الذين يتولون معالجتهم لترى رأيهم ومبلغ وقوفهم على الحقيقة[1] .

وقد كانت تجاربها باهرة تبعث على أشد الاطمئنان والأمن اذ كانت الفرائس تهلك واحدة بعد أخرى دون أن يهتدى أحد من الأطباء الى الحقيقة أو يخالجه أدنى ريب .

قلنا ان المركيزة دفعت الى منزل أخويها بوصيف لخليلها ليكون رسول الموت اليهما ، وكان ذلك الوصيف — لاشوسيه — وغدا سافلا لا يحجم عن ارتكاب إثم ، فدخل في خدمة السيدين وأخذ يتربص الفرص لتنفيذ مهمته الفظيعة ، ويدس السم من وقت لآخر الى الأخين في ما يحمله اليهما من الطعام والشراب ، فما لبثا حتى مرضا وأصابتهما آلام شديدة في الاحشاء وأخذا في الهزال والسقم ، وأخذ القيء يصيبهما من وقت لآخر .

---

(١) يؤيد هذه الرواية كثير من المؤرخين ومنهم فونك برنتانو ولكن ڤولتير ينفيها ، ويقول إن المركيزة كانت على شيء من التقوى وكثيرا ما كانت تشهد الاعتراف . أما القول بأنها كانت تجرب سمومها في المستشفيات فرواية كاذبة . ولكن الحقيقة أنها كانت وسانت كروا يتصلان سرا بأشخاص اتهموا بتلك الجريمة (عصر لويس الرابع عشر) .

ولبثا على تلك الحال شهرين يصارعان الموت دون أن ينجع فى شفائهما دواء ، وأشكل الأمر على جميع الأطباء واشتدت حيرتهم ، واعتقـدوا فى النهاية من الشبه بين أعراض مرضهما وأعراض مرض والدهما أن الأمر يتعلق بمرض وراثى .

ثم ساءت حال الأخ الأكبر فجأة وقضى نحبه فى ١٧ يونيه سنة ١٦٧٠ بعـد أن لبث يعانى عذاب السم زهاء شهرين .

فثارت الريب حول موته ، وانتـدبت السلطات جمـاعة من أكابر الجراحين لتشريح جثته ، فوجدوا سوادا فى المعدة وقروحا فى الجلد مما يحدثه فعل السم عادة ، وكذلك مما تحدثه عوامل أخرى ، لذلك لم يجرؤا على تأكيد ظنونهم فقرروا أن الوفاة طبيعيـــة .

أما الأخ الأصغر وهو المحامى فلبث يعانى آلام المرض بعـد أخيه ثلاثة أشهر أخرى ثم تبعه الى القبر . وثارت الريب حول وفاته أيضا فشرحت جثته كما شرحت جثة أخيـه ووجدت بهـا نفس الأعراض ، ولكن الأطباء قرروا أيضا أن الوفاة طبيعية بالرغم مما ساورهم من الحيرة والريب .

وهكذا أخفقت جميع المباحث وعميت جميع الأبصار عن الفاعلين رغم ما ساد المجالس والأندية من روع ودهشـة لتعاقب تلك الفواجع الأليمة فى أسرة واحدة ، ورغم كل ماذاع وشاع .

أما المركيزة فبدأت الحداد على أخويها ، وأما لاشوسيه فلم يرتب فى أمره أحد بل كافأه سيداه اللذان غدر بهما فى وصيتهما بمـائة جنيه مكافأة له على اخلاصـه فى خدمتهما والعناية بهما ، وأما سانت كروا فلبث منصرفا الى لهوه وبذخه ومرحه .

وهكذا تم للمركيزة ما أرادت من قتل أبيها وأخويها واغتنام ما طمحت اليه من المـال والحرية .

غير أن حياتهـا دخلت من ذلك الحين فى طور آخر ، ولسـنا نقصد بذلك أنها بدأت تعانى وخز الضـمير ومرارة النـدم فان قلبها الصخرى كان خليقا بتحطيم أية

عاطفة رقيقة . وما كان تأنيب الضمير أو الاشفاق والوجد إلا نزعات ضعف تزدريها تلك الطبيعة القوية الممتازة بحق ، ولكن المركيزة بدأت تعانى عذاب الروع الدائم، توقعا لغدر شركائها لأن الوغد لاشوسيه الذى لم تخمد قط جذوة جشعه كان يدهمها من وقت لآخر منـذرا متوعدا ، وكانت تكابد من خشونته ونذالته وغلظته أمرّ ما يخفض كبريائها ويؤلم عزتها .

كذلك لم يكن سانت كروا أقل الحافا وآمن جانبا بالرغم مما كان يربطهما من صلات الهوى، بل كان من نتيجة وعيده أن أرغمها على أن تكتب له سندين قيمتهما خمسة وعشرون ألف جنيه. وكانت تعرف أنه يضعهما مع طائفة من رسائلها المثبتة لجرائمها فى صندوق حديدى صغير أحمر كان يضع فيه زجاجات السموم أيضا . فكانت كلمة أو رسالة تكفى لهلاكها .

كانت المركيزة تعيش إذن فى غمار من الروع الدائم ، يطاردها شبح لاشوسيه وشبح سانت كروا وشبح الصندوق الأحمر : ذلك الذى لم تدخر وسعا فى سبيل رؤيته واستخراج رسائلها منـه، والذى استنفدت عبثا كل ما وسعت من تضرع وحنان ووعد و وعيد و يأس، لكى تحمل خليلها على تسليمه اليها .

فكانت تارة تكتب اليه أنها ستدبر قتله، وتارة تعده بأن تهبه جميع ثروتهـا ، وأحيانا تتظاهر باليأس و بأنهـا تعتزم الانتحار حتى تحمل خليلها على أن يعـدل عن إبائه الحديدى .

بل لقد ذهبت يوما الى أبعد من التظاهر فشرعت فى الانتحار فعلا، وشربت مقدارا من السم وكتبت فى نفس اللحظة الى سانت كروا تخطره بما فعلت . غير أنها ما كادت تشعر بالنار تسرى الى أحشائهـا حتى عدلت فى الحال ، وشربت كميات كبيرة من اللبن انتهت بلفظ السم فلم تصب منه إلا بانحراف بسيط .

كان الحب الذى بلغ بين العاشقين ذروته يتحول سراعا الى ذلك البغض الذى تخلقه شركة الاثم، وذلك الحذر الذى يبعثه الخوف المتبادل . فكانت الجريمة توثق

بينهما بأغلالها الدموية أشد مما يوثق الهوى المنحل. فكانا فى الواقع عدوان يرقب كل منهما صاحبه ، ويخشاه ويتربص به ، ويخفى تحت ستار الحب المغصوب ريبه فيه وخوفه منه .

وأراد سانت كروا أن يتخلص من صاحبته فاستطاع ذات يوم أن يدس لها جرعة من ذلك السم الذى ألفيا فيه ملاذ الخلاص والسعادة من قبل ، ولكنها ما كادت تشعر بوخزه حتى فطنت لخيانة صاحبها ، ووفقت فى تلك المرة أيضا الى الافلات من موت محقق .

وكانت هذه الحياة الفياضة بالاضطراب والروع تبعث الى ذهن المركيزة بأشنع ضروب الهواجس ، وتعصف أحيانا بثباتها وحذرها وذكائها ، فتبحث حولها عن ملاذ للافضاء والسلوى .

وكانت طبيعة المجرم الذى ينوء بجرائمه تغلبها وتثقل كاهلها ، وتدفعها أحيانا الى المفاخرة بجرائمها أو الاعتراف بها لكاهنها فى نزعة من التقى والورع ، بل دفعتها ذات يوم الى ما هو أخطر ، فقد أفضت فى غمرة من الذهول واليأس الى مؤدب أولادها — وهو فتى يدعى بريانكور — بقصة جرائمها الماضية ، بل بأسرار مشاريعها المستقبلة ، ومنها عزمها على اغتيال أختها الصغرى وأرملة أخيها الأكبر. فصعق المؤدب لهذه الاعترافات المروعة . ولكنه كان أبىّ النفس نقى الضمير ، فثار سخطا واشمئزازا ، وأنحى باللائمة على سيدته فى عنف وشدّة ، وأقسم أنه لن يمكنها من تنفيذ مشاريعها الأخرى .

فثارت المركيزة غضبا لجرأته ، واعتزمت أن تزهق ذلك الروح الأمين الذى لم يتسع لشناعة إثمها ونذالتها ، وبالأخص حينما علمت أن بريانكور قد حذر أختها الآنسة دوبرى سرا ، ورأى المؤدب المسكين بحق أن الخطر يهدّد حياته ، فضاعف حذره ، واعتاد أن يتناول « الترياق » وقاية لنفسه من السم ، واستطاع أن ينقذ نفسه من محاولتين دبرتا لقتله إحداهما بالسم والأخرى بالخنجر ، ثم عيل صبره وفاض ارتياعه أخيرا ، فسافر الى الريف فرارا من ذلك الجحيم .

وكان المركيز دى برانفليه من جانبه يشهد فجور زوجه وجرائمها صامتا عاجزا عن التدخل والمقاومة، ولكنه كان يعيش فى غمر من الجزع المستمر، يرى شبح الموت محلقا فى داره أبدا، فكان يتناول الترياق مرارا فى اليوم، ويعهد الى وصيفه الخاص بالوقوف وراءه وقت الطعام، ولا يسمح لأحد سواه بخدمته . ولم يكن روعه وحذره عبثا، فقد كانت زوجه الغادرة تتحين الفرص لقتله ليخلو لها الجو ولتستطيع أن تقترن من سانت كروا . ولكن كان من غرائب القدر أن سانت كروا كان يسهر على حياة المركيز بنفسه لأنه كان يمقت مشروع الزواج من خليلته، وكان يسعفه بالترياق كلما خانه الحذر، واستطاعت المركيزة أن تدس له السم .

واستمر هذا الصراع الغريب بين أهواء الجريمة أعواما ، وغمض جفن العدالة عن جرائم سانت كروا وخليلته، وخمدت جذوة الاشاعات والريب ، واعتقد الجناة أنهم أفلتوا من القصاص الى الأبد .

٣

ولكن القدر لم يكن غافلا، وكانت يد القصاص أقرب مما يتصور الجناة .

ففى ٣٠ يوليه سنة ١٦٧٢ توفى سانت كروا فجأة فى منزله . وتختلف الرواية فى ظروف موته . فيقول البعض إنه توفى مصعوقا بالسم . وذلك أنه كان يجرى تجاربه مع صديقه الصيدلى جلازر فى غرفة أعدّت لذلك فى حى موبير ، فمرض جلازر من أثر الأبخرة السامة، وتوفى . ثم مرض سانت كروا ولزم منزله فى شارع برناردان غير أنه لم ينقطع عن تجاربه فأنشأ له معملا صغيرا فى منزله . وكان فوزه باكتشاف سلاحه الخفى الهائل يدفعه الى الاستزادة من درسه والوقوف على خواصه . وكان يحاول اكتشاف سم أكثر خفاء وأنفذ أثرا، وأيسر استعمالا . وكانت أنباء سموم آل بورجيا وكاترين دى مديشى تذكى فى خياله المروع شغف استقصائها والاهتداء الى أسرارها . فاستمر يجرى تجاربه فى منزله، ويحمى نفسه من خطر الأبخرة السامة بقناع محكم من الزجاج يضعه فوق وجهه . ولكن سقط قناعه ذات يوم عن وجهه فجأة بينما كان منحنيا يرقب السم، فسقط صريعا لفوره، وزهق روحه على الأثر .

وألفته زوجته صريعا فى غرفته، والقناع محطم الى جانبه، فأخفت آثار الزجاج والنار ، وخشيت عواقب الأمر وثرثرة الخدم ، ورأت أن تخمد الألسن باستدعاء مندوب الضبط ليضع الأختام على أوراق الميت ومتاعه .

هذا ما ترويه بعض التواريخ عن مصرع الشڤاليه دى سانت كروا[1] . ولكن البعض الآخر يقول إن وفاته كانت طبيعية لم تقترن بمثل هذه الظروف الروائية .

وجاء مندوب الضبط ، فوضع الأختام على أوراق الميت وأمتعته، محافظة على حقوق الدائنين بالأخص، لأن الميت كان مثقلا بالدين .

وطار الخبر فى المدينة فأثار الريب والظنون من جديد .

ووقع النبأ كالصاعقة على المركيزة فكادت تجن روعا ويأسا .

ولم يكن ذلك أسفا منها على غرام تصرم لأن هيامها بسانت كروا تحوّل فى الأعوام الأخيرة كما رأينا الى بغض ونقمة، ولكن لأن موت شريكها فى الاثم فجأة، وقبل أن تتمكن من اخفاء ما لديه من أدلة ووثائق على جرائمها، أثار فى نفسها أمر ضروب الجزع ، فغدت ترتجف لشبح القصاص، وتخشى الوقوع بين براثن العدالة من آونة الى أخرى .

ذلك أن الشڤاليه كان يضع أوراق المركيزة ورسائلها كما قدّمنا فى صندوق حديدى صغير، وضعت عليه الأختام كما وضعت على باقى المتاع .

واستغاثت المركيزة فى ذلك المأزق بمؤدب أولادها السابق بريانكور نخامرته بها رأفة وهرع الى غوثها .

ولكن الأختام كانت قد وضعت على أمتعة الميت ، ولم يك سبيل الى رفعها قبل أن تأذن بذلك إدارة الضبط . فاضطرت المركيزة أن تصبر أياما فى غمر هائلة

---

(١) هذا ما رواه اسكندر ديماس الكبير، ولكن فونك برنتانو يعتبر هذه الرواية اسطورة و يقول إن الوفاة كانت طبيعية . وهذا أيضا رأى الأستاذ هنرى روبر أحدث من كتب عن هذه المأساة .

من الروع واليأس، حتى قررت ادارة الضبط أن ترفع الأختام عن أمتعة المتوفى فى ٨ أغسطس أعنى لتسعة أيام من وضعها .

وحينما شرع رجال الضبط فى ذلك تقدم اليهم محامى المركيزة وطلب أن يثبت فى محضر الجرد : « انه اذا وجد بالصندوق الذى تطالب به موكلته سندات صدرت منها وقيمتها ثلاثون ألف جنيه فانها تقرر أنها انتزعت منها بالاكراه وأنها تعتزم طلب الحكم ببطلانها » .

ثم بدأ مأمور الضبط وهو القومسير بيكار ومساعده، بحضور مسجلين ووكيل أرملة المتوفى ووكيل الدائنين، برفع الأختام . ولنذكر قبل كل شىء أن ادارة الضبط لم تكن تقصد بذلك الاجراء أن تفتش منزل المتوفى لأنه لم يك ثمة جريمة أو شبهة على ارتكابها، وانما كان الغرض فقط أن تجرد أمتعته ومنقولاته صونا لحقوق الدائنين والورثة .

ولم يجد القومسير شيئا غير عادى فى الغرف الأولى غير أنه لما دخل الى غرفة سانت كروا المنعزلة حيث كان يجرى تجاربه وجدها غاصة بالآنية والأنابيق والأفران الصغيرة والآلات المختلفة، ووجد فوق مائدة الكتابة غلافا ظاهرا كتب عليه « اعتراف » ، فارتد الى رفاقه مستفهما عما عساه يفعل به فرأى الجميع وجوب احراقه ، احتراما لأصول الاعتراف وذكرى الميت ، فألقى الغلاف الى النار وذهبت بذهابه أسرار لا يعلمها سوى الله .

وأخيرا عثر القومسير بيكار بالصندوق الحديدى الصغير ومفتاحه مربوط اليه ففتحه فوجد فيه عدة قوارير صغيرة فيها سوائل مختلفة الألوان، وعدة خطابات من المركيزة، وسندين موقعين منها أحدهما بمبلغ خمسة وعشرين ألف جنيه والآخر بثلاثين ألف، وسندا بمبلغ عشرة آلاف جنيه صادرا الى بنوتييه المحصل العام لخزانة الكنيسة من المركيز والمركيزة دى برانفلييه، ومرفق بجميع هذه الأوراق رقعة صغيرة يرجو فيها الكاتب بالحاح أن يسلم ذلك الصندوق الى المركيزة دى برانفلييه لأن ما فيه يعنيها وحدها .

ولم يك ثمة ما يدعو الى التردد فى العمل بوصية الميت لولا أن هذه القوارير وما تحتويه من السوائل المجهولة ، وما كان يذاع حول سانت كروا والمركيزة من الاشاعات الغريبة ، بعثا الى ذهن القومسير ضروبا مختلفة من الريب فآثر أن يحاول اكتشاف السر بنفسه ، ووضع الأختام ثانية على الصندوق ومحتوياته وعهد بحفظه الى مساعده .

فأخطرت المركيزة بذلك فى مساء نفس اليوم فثارت غضبا ورعبا ، وبادرت الى مساعد القومسير ، وخاطبته فى الأمر ، ثم عالجت أن ترشيه بالمال ليسلمها الصندوق . ولكن الرجل كان نزيها لا يرشى فأحالها على رئيسه . فذهبت المركيزة فى نحو منتصف الليل الى القومسير فى منزله فأبى استقبالها فى مثل ذلك الوقت المتأخر وضرب لها موعدا للمقابلة فى اليوم التالى .

وفى اليوم التالى تردد بيانكور ومحامى المركيزة ، ثم المركيزة ذاتها على القومسير ، وحاول كل منهم عبثا أن يحمله على رد الصندوق الى صاحبته .

فعيل صبر المركيزة حينئذ وخار ثباتها وجنانها ، غير أنها لم تضع وقتا فى اتخاذ أسباب الحيطة والحذر وإعداد معدات الفرار .

وفى ١١ أغسطس أمر الضابط المدنى برفع الأختام عن الصندوق وفحص محتوياته ، وقدمت السوائل الى الخبراء لتحليلها ومعرفة خواصها وآثارها ، فثبت من الفحص والتحليل أنها سموم قاتلة شديد الأثر ، غير أن خواصها كانت موضعا لحيرة الأطباء ودهشتهم لأنها جربت فى الحيوانات والطيور فكانت تقتلها على الأثر دون أن تترك فيها أثرا مميزا يمكن أن تنسب الوفاة اليه .

واليك نتيجة التقرير الذى وضع عن خواص هذا السم : " إن هذا السم الصناعى يفر أمام المباحث التى يراد اجراؤها فيه ، وهو من الخفاء بحيث يتعذر اكتشافه ، ومن المضاء ، بحيث يفلت من مهارة الأطباء ، ويكذب كل تجربة تجرى بشأنه ، ويخطئ كل قاعدة تطبق عليه .

” ان أصح التجارب وأعمها تجرى بواسطة المـاء والنار وفى الحيوانات ، ولكن سم سانت كروا يجوز كل تجربة ، ويهـزأ بكل اختبار ، فهو يطوف فوق المـاء ، ويفر من تجربة النـار ، ولا يترك وراءه الامادة لطيفة بريئة . أما فى الحيوانات ، فانه يغيض بحذق وتستحيل معرفته “ .

أما هذا السم الخفى الذى حير أطباء هذا العصر بخواصه وخفاء آثاره ، فلم يكن سوى الزرنيخ ، ويقال إن الذى بدأ باكتشافه هـو الكيمائى جلازر . وقد يكون هو نفس ذلك السم الخفى الذى كان يستعمله آل بورجيـا ، والذى روعت رومه بآثاره حينا من الدهر[1] .

سرت أنباء هذه الحوادث بسرعة ، وحملها الرواة الى كل صقع وناد ، وأذيعت عن فعل ذلك السم العجيب أغرب القصص والنودار . واهتمت العدالة والسلطات بالأمر ، غير أنهـا كانت فى مأزق ، لأن هذه الريب والاشاعات الكثيرة لم تسفر عن أدلة واضحة على ادانة أولئك الذين اقترنت أسماؤهم بها . وكان مركز بنوتييه وسمو منصبه ، ونبـل المركيزة ومركز أسرتها الاجتماعى ، تتطلب الأدلة القاطعة للقبض عليهما . هذا الى أنه لم تتقدّم فى حقهما أية شكوى .

غير أن حادثا جديدا أذكى جذوة الظنون والريب ، وضاعف اهتمام العدالة . وذلك أن الشق لاشوسيه وصيف الشقاليه ، لمـا علم بموت سـيده ، تقدّم وقت وضع الاختام الى مأمور الضبط مطالبا بمبلغ زعم أنه أودعه لدى سيده . فلما رفعت الأختام كرر طلبه والحف فيه . فسأله المأمور عمـا يعلمه عن صندوق السموم ، فاضطرب الشق وتلعثم واعتقد أن جرمه قد افتضح وأركن الى الفرار . فاستصدر

---

(١) هنالك رأى بان الشقاليه دى سانت كروا واكسيلى وجلازر وغيرهم من الكيمائيين والمسممين الذين ظهروا فى ذلك العصر لم يكونوا أفرادا متفرقين يعملون مستقلين ، بل كانوا ينتمون الى جمعية سرية كبرى ذات شعب وفروع فى جميع الأقطار الأوربية . ذلك لأن أساليبهم كانت مؤكدة ، وطرقهم فى تنفيذ الجريمة محكمة تدل بأنهم كانوا ينتمون إما مباشرة أو بالواسطة الى جمعية إجرام كبرى تذلل الصعاب وتدرس الوسائل التى تسبغ على الجريمة مظاهر خادعة محكمة لاتثير الريب . (يراجع كتابى تاريخ الجمعيات السرية) .

المأمور فى الحال أمرا بالقبض عليه ، وطاردته الشرطة فى كل مكان حتى قبض عليه بعد بضعة أيام .

عندئذ شعرت المركيزة بالخطر يحدق بها ، وبعين العدالة ترقبها وتنذرها ، فغادرت باريس خفية فى اليوم التالى وعبرت البحر الى انجلترا .

وكان فرارها فى الوقت المناسب لأن مدام دوبرى أرملة المسيو دوبرى أخى المركيزة الأكبر قدّمت على أثر القبض على لاشوسيه ضد وصيف زوجها السابق شكوى اتهمته فيها بتسميم زوجها ، فنشط القضاء الى تحقيق التهمة ، واستدعى بريانكور لسماع أقواله فبدرت منه عبارات تؤيد ادانة المركيزة . غير أن لاشوسيه أنكر ما نسب اليه بتاتا ودافع عن نفسه بمهارة زعزعت من يقين قضاته فى المحكمة الابتدائية فحكم باحالته على العذاب حتى اذا اعترف قضى عليه وإلا برئت ساحته .

فاستأنفت مدام دوبرى ذلك القرار خشية أن يصبر الشقى على آلام العذاب فيفلت من قبضة العدالة ، فأعادت محكمة تورنيل الاستئنافية نظر القضية وأخفق الدفاع فى تلك المرة وقضت المحكمة باعدام لاشوسيه فوق العجلة ، وقررت احالته الى العذاب قبل ذلك ليعترف بأسماء شركائه فى الجريمة ، فعومل لاشوسيه بالتحقيق العادى وغير العادى غير أنه خرج ظافرا بعد أن مزق لحمه وهشم عظمه ولم يتكلم إلا حينما أخذ الى ساحة الاعدام لاهلاكه فاعترف حينئذ بجريمته وسرد كل ما ارتكبته المركيزة دى برانفلييه من الجرائم المروعة ، وكان إعدامه فى ٢٤ مارس سنة ١٦٧٣

وفى ٢١ أبريل أصدرت المحكمة أمرا باستجواب بنوتييه فسمعت أقواله غير أن القرائن لم تكن كافية ضده فحفظ التحقيق بالنسبة اليه ، وأطلق سراحه بعد أن قضى عدّة أسابيع فى السجن .

٤

اهتزت باريس ، وفرنسا الى أقصاها ، لأنباء هذه القضية ، وما كشفت من أسرار وجرائم هائلة . واهتم البلاط بشأنها ، وطلب الملك (لويس الرابع عشر) نفسه مطاردة الجناة وعقابهم بلا رأفة أيا كانوا وكانت صفاتهم ومراكزهم .

وكانت ادارة الضبط البارزية تجد فى أثر المركيزة منذ اختفت حتى علمت بوجودها فى انجلترا فطلبت الحكومة الفرنسية تسليمها من الحكومة الانجليزية .

وكانت المركيزة تعانى فى لندن منذ بضعة أشهر أمر صنوف الشقاء والجزع لا سيما بعد أن علمت بأن الحكومة الفرنسية طلبت تسليمها . ولم ترفض الحكومة الانجليزية ذلك التسليم صراحة ولكنت رفضت أن تقوم شرطتها بالقبض وطلبت أن تتولاه السفارة الفرنسية، والسفارة لا تملك فى الواقع وسيلة لاجرائه .

بالرغم من ذلك شعرت المركيزة أن حياتها فى خطر، وأرادت أن تفر من شبح الرعب الدائم ، فغادرت لندن فى أوائل سنة ١٦٧٣ الى دير فى مدينة لياج .

وهنالك ظنت المركيزة أن الدير خاتمة المطاف ، وأنها ستجد فى الزهد والعزلة ما يسكن ثورة نفسها ويهدئ روعها ، ولم تدر أن الحكومة الفرنسية كانت ساهرة ترقب غدواتها وروحاتها ، وتتحين بفارغ الصبر فرصة القبض عليها ، ولم تدر ان هذه الفرصة قد سنحت بوجودها فى لياج التى كانت تحتلها الجنود الفرنسية حينئذ . ولذا ما كادت تأوى الى الدير حتى أوفد الوزير لوفوا الى لياج فتى من أمهر رجال الضبطية يدعى دجريه لتنفيذ تلك المهمة ومعه عدد من رجال الشرطة . فتم القبض على المركيزة باذن حاكم المدينة دون صعوبة ما .

أما ما يزعمه بعض الكتاب ومنهم المؤرخ ميشليه من أن دجريه اضطر أن يتنكر بزى راهب ليستطيع دخول الدير، وأنه نصب للمركيزة شركا غراميا وأوهمها بحبه، ثم ضرب لها موعدا للقاء خارج الدير وقبض عليها بعد ذلك ، فرواية خيالية ليس ثمة ما يؤيدها أو يرجحها[1] .

وفى ٢٦ مارس أخطر دجريه لوفوا بأنه قبض على المتهمة وضبط معها صندوقا صغيرا حاولت أن تسترده منه لأنه يحتوى على اعترافها ، وكانت هذه حقيقة لأن

---

(١) أورد ميشليه هذه الرواية وبعض قصص أخرى فى فصل كتبه عن المركيزة دى برانقلييه فى «مجلة العالمين» فى أواخر القرن الماضى . ولكنه أثار بما ذهب اليه يومئذ عاصفة كبيرة من النقد .

المركيزة كتبت سيرة حياتها وجرائمها وفجورها فى عدة فصول ترتعد لها الفرائص هولا وتحمر الوجوه خجلا ، وكان ذلك الاعتراف موضوع مناقشات حادة أثناء المحاكمة كما سنرى ، غير أنه اختفى بعد ذلك من بين أوراق القضية ولم يظفر بصورته الكاملة أحد ممن كتبوا سيرة المركيزة دى برانقلييه ، وكل ما وصلنا منه شذور وردت فى بعض رسائل للكاتبة الشهيرة مدام دى سفنييه معاصرة المركيزة ، من ذلك ما ورد فى احدى هذه الرسائل وهو :

« تقول لنا مدام دى برانقلييه فى اعترافها إنها صارت ثيبا فى السابعة وانها استمرت على تلك النغمة ، وانها سمت أباها وأخويها ، وأحد أولادها ، وانها سمت نفسها لتجرب مفعول الترياق ... ! » .

ولم يكن من السهل على دجريه ورفاقه أن يعيدوا المركيزة الى باريس بعد القبض عليها فهى لم تدخر وسعا فى محاولة الانتحار ولم تترك حيلة ممكنة للفرار إلا دبرتها .

غير أن دجريه ورفاقه كانوا ساهرين حذرين فخبطت مشاريع المركيزة كلها .

وفى ١٧ أبريل سنة ١٦٧٦ مثلت المركيزة فى مزيير أمام قاضى التحقيق لأول مرة ، وكان المحقق معها المستشار بالو . فسئلت عن اعترافها فأجابت أنها كتبته حقيقة ولكنه ليس إلا هذيانا وسخفا سطرته فى نوبة من الحمى الشديدة ، واكتفت فى الاجابة عن باقى الأسئلة بأنها لا تعرف أو لا تذكر شيئا .

وفى ٢٦ أبريل وصلت الى باريس وأودعت السجن . وفى ٢٩ أبريل مثلت أمام أكبر هيئة قضائية فى فرنسا وهى محكمة تورنيل والقاعة الكبرى مجتمعتين برآسة المستشار دى لاموانيون ، فاستغرقت القضية اثنتين وعشرين جلسة أدهشت المركيزة فيها قضاتها بقوة عارضتها ، وحدة ذهنها ، وشدة جلدها ، ولم تعترف بشىء بل أنكرت كل التهم التى وجهت اليها بجرأة وعناد وإباء .

وكانت أهم نقطة احتدم الجدل حولها هى مسألة الاعتراف الذى كتبته المركيزة بيدها ، وما اذا كان يعتبر دليلا على الادانة أم لا . فعارض بعض القضاة فى الأخذ به بشدة وتمسكوا بحرمة الاعتراف ، وقرر بعضهم أن لا مانع من الأخذ به لأن بعض

المحاكم الكنسية اعتبرته دليلا على الادانة، وأخيرا أحالت المحكمة هـذه النقطة على هيئة من علماء الدين فقررت أن سر الاعتراف لا يعتبر فى تلك الحالة وأنه يجب ألا يعتبر له وجود إلا فيما بين المعترف والكاهن، ومن ثم فانه تجوز قراءة الاعتراف الذى كتبته المركيزة دى برانقلييه[1] .

وكانت أشد الجلسات وطأة على المركيزة، جلسة ١١ يوليه سـنة ١٦٧٦ فقد استمرت ثلاث عشرة ساعة، ووجهت فيها ببريانكور مؤدب أولادها السابق .

تقـدّم بريانكور وقص بصوت يخنقه الانفعال والتهدج سـيرة سيدته القديمة وكل ما أفضت به اليـه من أسرار جرائمها وفجورها، وكيف سمت أباها، ودست لاشوسيه لاغتيال أخويها، وكيف أنها كانت تعتزم اغيال أختها وأرملة أخيها، ثم قصـة غرامها مع سانت كروا، وما كان يقع بينهما من المنـاظر العاصفة، وقصة الصندوق وما بذلته المركيزة لاسـترداده من تضرع ووعيد، وكيف أنهـا حاولت الانتحار من أجل ذلك . ثم وصف تلك الحياة الغريبة التى كان يحياها سيده المركيز دى برانقلييه فى ذلك البيت المشئوم، وكيف ان المركيزة أفضت اليه يوما بأسرارها الهائلة وهـددته حين أنبها على جرائمها، وكيف أنها حاولت أن تقتـله مرارا بالسم والخنجر، وكيف أنها دبرت ذات ليـلة كمينا لاغتياله فى غرفة نومها اذ أوهمته أنها تهواه، ودعته الى لقائهـا فى منتصف الليل، فذهب ليتعرف حقيقـة الأمر ففاجأ خليلهـا سانت كروا مختفيا وراء المدفأ متربصا لاغتياله بخنجره، ولكنه اسـتطاع النجاة من ذلك الكمين .

وكانت المركيزة أثناء كل ذلك تقاطعة بكبرياء وشـدّة وتقول إن هو إلا خادم نذل طردته من خدمتها فله أن يقول ماشاء .

ولمـا انتهى بريانكور من شهادته تحوّل نحو المركيزة وقال لهـا بصوت تخنقه الدموع « لقد حذرتك مرارا يا سيدتى من طيشك وقسوتك، وحذرتك من الوقوع فى عاقبة جرائمك » .

(١) هذا هو ملخص لمحضر جلسة ١٧ أبريل سنة ١٦٧٦

ولم يكن بريانكور يبكى وحده، بل كان من أثر السحر الغريب الذى تبثه تلك المركيزة الخلابة حولها أن بكى معظم القضاة والحضور، بل كان الانفعال يخنق صوت الرئيس نفسه [1] .

* * *

ثم نهض الأستاذ نيقل المحامى الذى عهد اليه بالدفاع عن المركيزة، وافتتح دفاعه بأن قال : ان فظاعة الجرائم وصفة المتهمة تتطلبان أدلة قاطعة جدا، وأدلة كتابية لا تترك مجالا للشك حتى يمكن الحكم بادانة المتهمة . ثم ناقش الأدلة التى قدمت وقرر بأن ليس لها تلك الصفة، وقارن أقوال الشهود وما تضمنته من تناقض وضعف، ثم قال عن الصندوق الشهير الذى ضبط فى منزل الشفاليه أنه يجب ألا يتخذ دليلا لأن الرقعة التى يصرح فيها سانت كروا بأن محتويات الصندوق هى ملك للمركيزة وحدها انما كتبت بلا ريب قبل أن توضع فيه قوارير السم . ثم تناول مسألة الاعتراف المكتوب بشدّة وذلاقة، وقال : «انه اعتراف دينى سطرته المركيزة، ومن المدهش أن يحاول الاتهام حمل القضاة على قراءته، فهذه الوثيقة تجعلها القوانين السماوية والبشرية مقدّسة لا يجوز انتهاكها، وتطبعها بخاتم الكتمان والصمت...» .
ثم وصف حياة المتهمة وصفا بليغا مؤثرا، وصور للمحكمة هذه المرأة الحسناء النحيفة، كريمة المنبت، ذات العواطف المضطرمة، وكيف سقطت من أرقى مراتب الرفعة الى أسفل دركات الحضيض، وصور آلامها المادية والنفسية التى عانتها خلال أعوام طويلة، وكيف أنهافرت أمام سخط الرأى العام، وغدت منذ أشهر هدفا للقذف يذكيه البغض، ولبثت طريدة شريدة تعانى الخطوب والشدائد، وناشد فى النهاية رأفة القضاة بأطفال أبرياء تتركهم المركيزة وراءها، وسيكون الحكم على أمهم بالاعدام والعار ضربة قاضية على عواطفهم ومستقبلهم .

غير أن ذلك الدفاع الرنان لم يؤثر فى اعتقاد القضاة وان كان قد خفف نوعا من حدّة النفوس التى تضطرم سخطا على المركيزة .

(١) يقول الأب پيرو فى مذكراته التى نشير اليها بعد : «وكان رئيس المحكمة يبكى بكاء مرا، وكذا كان الدمع ينهمر من عيون جميع القضاة» .

وفى ١٥ يوليو بذل رئيس المحكمة جهـدا أخيرا ليحمل المركيزة على الاعتراف بجرائمها، فلما أعيته الحيلة فى ذلك أخطرها بأن أختها راهبة الكرمليت أوفدت اليها حبرا جليـلا ليعظها ويحثها على التوبة والتكفير، هو الأب پيرو أحد أكابر الوعاظ وعلماء الدين، وهو الذى ترك لنا مذكرات مسهبة قوية عن مهمته الأليمة، وعما سمعه وشاهده من المركيزة فى ساعاتها الأخيرة .

قدم الأب الى السجن ليقوم بتلك المهمة الشاقة وقلبه فياض بالاحجام والخوف معتقدا أنه سيقابل الشيطان مجسما ويعده الى لقاء ربه، ولكن شد ما كانت دهشته حينما لقى أمامه «امرأة وديعة المحيا، صغيرة القد، زرقاء العينين، تفيض ملامحها سحرا ورقة» : كانت المركيزة تغنم دائما عطف كل من يقترب منها، بل قد يدهش القارئ اذا علم أن حراسها كانوا يبكون كلما سمعوا بأنها ستموت .

فاستقبلت الأب بترحاب ورقة، وتقدمت اليه ذليلة خاضعة، فاستجوبها بأناة ورفق، فما لبث أن تكللت جهوده بالفوز واسـتطاع انسان لأول مرة أن يخـترق حجب تلك الروح الحالكة . ثم دعاها الى التوبة والتفكير فى سلامها ، فكان أيضا أول انسان استطاع أن يستثير الدمع الصـادق من تينك العينين اللتين ما بكتا من قبل قط، إلا لتحجب دموعهما جذوة روح تتقد بنيران القسوة والبغضاء .

وفى صباح اليوم التالى قدم الرئيس بابيل الى السجن ليخطر المركيزة بأن الحكم سيصدر، وكانت المركيزة قد نامت ليلها هادئة بينما أرق الأب المسكين ولم يغمض له جفن ممـا عصف بمخيلته من عوامل الاضطراب والانفعال والجزع، فحادثتـه المركيزة قليلا ووعدته بأنها سـتعترف أمام المحكمة بالحقيقة كاملة ، ثم تركته يصـلى من أجلها ونزلت الى ساحة الجلسة لتسمع تلاوة الحكم .

فبدأ الرئيس باستجوابها ثانية، واستمر ذلك الاستجواب الأخير خمس ساعات، قصت خلالها المركيزة كل جرائمها وقررت بأن ليس لهـا شركاء سوى سانت كروا ولاشوسيه وأنها لا تعرف سر تركيب السموم التى استعملتها ولا تعرف منها سـوى الزرنيخ والفتريول وسم الضفدع . وأن الزرنيخ أشـدها أثرا، وأن الترياق الوحيد

الذى عرفته واستخدمته هو اللبن . فلما انتهى الاعتراف أشار الرئيس الى الكاتب أن يتلو صيغة الحكم .

وكان ذلك الحكم الشهير فى تاريخ الجريمة مؤرخا فى نفس اليوم أى فى ١٦ يوليه سنة ١٦٧٦ ، واليك نصه الذى يقدّم الينا صورة غريبة من اجراءات القضاء الجنائى فى ذلك العصر :

" بعـد اطلاع المحكمة العليا مجتمعة الخ ... على أمر احالة المدعوة دو برى دى برانقلييه ، وتحقيقات نائب الملك ، واستجواب دو برى المذكورة عن وقائع القضية ، قررت المحكمة وتقرر باقتناعها بأن دو برى دى برانقلييه السالفة الذكر قد سمت أباها السيد درى دو برى وأخويها السيدين دو برى ، وشرعت فى قتل أختها تريز دو برى ، وأنها عقابا لهـا قضت وتقضى على دى برانقلييه المذكورة أن تعـترف بذنوبها أمام البـاب الأكبر لكنيسة باريس حيث تؤخذ عارية القدمين ، والحبـل فى عنقها ، وفى يدها شمعة كبيرة مضيئة ، وهنالك تجثو على ركبتيها وتقول وتصرح أنهـا أثمت إما بعامل الانتقام أو الحصول على المـال ، فسمت أباها وحرضت على سم أخويها ، وأنها تندم على ذلك وتطلب الغفران من الله ومن الملك ومن العدالة ، ثم بعد ذلك تؤخذ الى ميدان جريف فى هـذه المدينـة حيث يقطع رأسها على نطع يقام لذلك الغرض فى الميدان المذكور ، ثم تحرق جثتها وتذر حطامها فى الهواء . وقبل كل ذلك يطبق عليها التحقيق العادى وغير العادى لتعترف بأسماء شركائها . وتقرر المحكمة حرمانها من ميراث أبيها وأخويها وأختها منذ ارتكابها للجرائم المذكورة ، ومصادرة كل أملاكها وإعطاءها لمن يستحقها ، وأن يؤخذ منها قبل كل ذلك مبلغ أربعة آلاف جنيه غرامة للملك ، وأربعمائة جنيـه لاقامة الصلاة عن أرواح أخويها وأبيها وأختها فى كنيسة سجن الحقانية ، وكذلك كل المصاريف التى صرفت فى محاكمة المدعو لاشوسيه .

صدر بالمحكمة فى ١٦ يوليه سنة ١٦٧٦ » .

ولسنا بحاجة للقول بأن المركيزة أصغت الى تلاوة الحكم بثبات وسكينة ولم تبد على ملامحها بادرة ارتياع أو ضعف .

* * *

وبالرغم من اعتراف المركيزة نفذ عليها أمر التعذيب، فأخذت الى قاعة التعذيب وعوملت بتحقيق "الماء" لتعترف بما لم تعترف به، وهذا النوع من العذاب عبارة عن إكراه المتهم على ابتلاع مقادير كبيرة من الماء قد تصل الى عدة لترات، يكره على تجرعها تدريجيا بحيث تترك له بين كل جرعة وأخرى فترة ليعترف فيها، والجرعة نحو لترين . وطريقة التجرع هي أن يطرح المتهم على ظهره ويوثق ذراعاه ورجلاه بالأغلال، ثم يضع الجلاد في فمه قرنا يصب الماء بواسطته فاذا أغلق فمه ضغط الجلاد على أنفه ليرغمه على أن يفتح فاه طلبا لاستنشاق الهواء، وانتهز تلك الفرصة لوضع القرن وصب الماء .

غير أن المركيزة بالرغم مما عانته من الألم الهائل لم تزد شيئا على ما قالت ، وقدم اليها الأب پيرو فألفاها "شديدة التأثر، ملتهبة الوجه، متقدة العينين، منقبضة الفم" من أثر العذاب، فأخذ يعظها برقة ويؤاسيها ويشجعها على استقبال الموت .

وفي عصر ذلك اليوم أخذت المركيزة لتنفيذ الحكم عليها ، فألبست ثيابا خشنة كالتي يلبسها المحكوم عليهم بالموت، وعرى قدماها، وحملت باحدى يديها مشعلا مضيئا وصليبا في اليد الأخرى، وأركبت عربة صغيرة وركب الى جانبها الأب پيرو .

وكانت الجموع تموج خارج السجن وعلى جانبي الطريق ، وكانت الشرفات والنوافذ غاصة بالنظارة، ومنهم مدام دي سفنييه الكاتبة المشهورة التي تصف ذلك المشهد بقولها : " لم تحتشد قط مثل هذه الجماهير، وما كانت باريس قط أشد انفعالا واهتماما" .

فسار الموكب الى كنيسة نوتردام والمركيزة تكاد تذوب ألما وتأثرا لمواجهتها تلك الجموع الغفيرة في تلك الصورة المهينة المخزية، بل لقد اشتد حنقها، وأضاء وجهها بنار السخط وتقلصت ملامحها حتى خيل للأب پيرو أنه يرى في محياها وجه نمرة ثائرة . قال الأب في كتابه : "وكانت هذه آخر مرة تغيرت فيها ملامحها، ومنذ تلك اللحظة لم تبد كلمة تذمر أوشكوى، بل لم تبد أية بادرة على الاحجام والضعف".

وقالت مدام دى سفنييه : "لقد ماتت كما عاشت أعنى فى ثبات وعزم، وفى غداة موتها بحث الناس عن عظامها لأنهم اعتقدوها قديسة" .

وقبل أن تتوارى أشعة الشمس الأخيرة أخذت المركيزة الى ميدان جريف ، حيث طار رأسها لأول ضربة من يد الجلاد بينما كان الأب پيرو جاثيا الى جانبها يلتمس لها الرحمة والغفران .

* * *

يصف المسيو البر سوريل[1] حوادث هذه المأساة بقوله : "إنها تكشف عن كل الدسائس والمفاجآت وكل الروع ، بل كل خوارق المأساة السوداء» بيد أنها الحقيقة تفوق اروع ما يصوره المسرح" .

ويقول لاروشفوكو[2] وصفا لعصر لويس الرابع عشر : "إن له مزية نكدة هى أنه يفوق القرون الماضية فى ازدهار الجريمة . ذلك أن فرنسا تجد نفسها فى ذلك العصر مسرحا نشهد فيه كل ما يقول التاريخ والاسطورة عن جرائم العصر الغابر . إن الرذائل واحدة فى كل عصر ، فالناس يولدون مشبعة نفوسهم بالأثرة والقسوة والفجور . ولكن لو أن بعض أولئك الأشخاص الذين يعرفهم الناس جميعا ظهروا فى العصور الغابرة افكنا نتحدث اليوم عن فجور هليوجابال[3] وعن سموم ميديه وجرائمها ؟ " .

لا ريب أن جرائم المركيزة دى برانفلييه إحدى حادثات عصر لويس الرابع عشر، بل لا ريب أنها مثل فذ فى تاريخ الجريمة .

مراجع هذا الفصل

H. Robert : Les Grands Procès de l'Histoire.
Alex. Dumas : Les Crimes Célèbres.
Funck-Brentano : Le Drame des Poisons.
Voltaire : Siècle de Louis XIV.

(١) من أعظم نقدة فرنسا المعاصرين ، وعضو الاكاديمية الفرنسية .

(٢) كاتب وسياسى فرنسى فى عصر لويس الرابع عشر أشتهر بكتابه فى الأمثال والحكم .

(٣) هليوجابال أمبراطور رومانى حكم فى القرن الثالث ، واشتهر بقسوته و بفجوره . وميديه فى الأساطير اليونانية ساحرة حسناء هجرها زوجها فانتقمت منه بذبح أولادها .

الفصل التاسع

محاكمة الكسى رومانوف

سـنة ١٧١٨

ليست مأساة الدون كارلوس ولد فيليب الثانى ملك اسبانيا فريدة فى سير القصور الدامية . قضى فيليب الثانى باعدام ولده، فلم يمض على تلك السيرة المؤسية نصف قرن حتى شهدنا ملكا عظيما آخر، هو بطرس الأكبر منشىء روسيا الحديثة، يقضى باعدام ولده وولى عهده الكسى فى ظروف مماثلة لتلك التى قضى فيها الدون كارلوس . وطرافة السيرتين ليست فى أن ملكا يقتل ولده، فان هذا الشذوذ الذى قد يعتبر فى حياة الكافة قسوة وحشية، وانتهاكا شنيعا لقوانين الطبيعة، لم يكن على كر العصور إلا ظاهرة عادية فى تواريخ القصور الدامية، ولكن الطرافة فى أن ملكا يتلمس إلى قتل ولده سبل الشرائع السماوية أو الوضعية، ويلجأ الى قناع من التواضع والتسليم فى إخضاع ولده إلى سلطان القوانين العامة أسوة برعيته . كان هذا شأن فيليب الثانى مع ولده الدون كارلوس، فقد ألقى فى روع هذا الطاغية كما رأينا أن فتاه يأتمر به، فلم يذهب الى غايته الدموية مباشرة وفى غمار الظلمات كما كان يفعل الطغاة فى العصر الغابر، ولكنه آثر أن يحاكم ولده على جريمته جهارا، وأن يصدر عليه حكم الموت، ليقنع شعبه أن قلب الوالد الكسير، قد آثر مصلحة الأمة وقدسية العرش، وأن دم الولد العاق أو المجرم رغم ما يثيره من شجن وأسى، ليس إلا تضحية فى سبيل سعادة الوطن . وهذا هو أيضا شأن بطرس الأكبر مع ولده الكسى . ولكن التاريخ يحيط تصرف بطرس الأكبر بكثير من الظروف المخففة وقد يبرره . ففى الوقت الذى اعتقد فيه القيصر أن ولده قد غدا محورا لدسائس المحافظين، كانت روسيا تجوز ساعة حاسمة، وكان مصيرها فى كفتى ميزان،

فاما ان تبرز الى ميـدان التجديد والحضـارة والعظمة الى جانب الغـرب ، وإما ان تنحدر الى هاوية الظلام والعدم، وتخلد فى غمر البداوة الاسيوية . ولهذا نستطيع أن نقول إن اهدار بطرس الأكبر لدم ولده قد يعتبر تضحية حقيقية فى سبيل سلامة العرش، وفى سبيل عظمة روسيا وسعادتها .

كان الكسى رومانوف يثير جزع أبيـه القيصر منذ الساعة الأولى . فقـد ولد (سـنة ١٦٩٠) من زوج بغيضة هى افدتشا او يودشيا لابوشين ، طلقها القيصر، واعتقلها فى أحد الأديار . وكانت يودشيا تنتمى الى اسرة عريقة من أنصار النظام القديم ، فلما هجرت وطلقت ، بقيت مع ذلك قوة ، ولبثت تعتبر فى نظر الشعب ونظر جماعة من رجال الدين الزوجة الشرعية الوحيدة . وكانت فوق ذلك والدة ولى العهد، وكان الكسى قد أنفق فى حجرها أيام صباه الأولى ، فاسـتطاعت أن تبث الى عقله وخلقه فى فترات غياب القيصر اسوأ الآثار . وهكذا نشأ الكسى فى مهاد الرجعـة وسـط الحزب الروسى العتيق . ونشأ فظا غبيا فاسـد الخلال ، يفيض ذهنـه بسخف الأوهام والتقاليد . وبذل القيصر كل ما استطاع ليصـقل خلال ولده ، فذهبت كل جهوده عبثا ، "ولم يكن ولد المصلح غير ولد لآل لابوشين . وبينما كان بطرس يقتحم ميادين الحرب ، إذا بالكسى يحيط نفسه بالقساوسة والصوفية والمشعوذين"[1] .

وكان القيصر قليل العطف على ولده كثير التوجس من سيرته واهوائه ، غير أنه لم يأب عليه شيئا من الرسوم التى تقتضيها مكانة ولى عهده ، فقد اختار الكسى أثناء الحرب التركية وصيا اسميا للمملكة ، ولكنه كشف أيضا عن حقيقة رأيه فيه فى خطاب شهير أرسـله من معسكره الى مجلس الشيوخ ، وفيـه يقول ، انه يجوز على ضفاف «البروث» ظروفا حرجة ، فاذا قضى أن يهلك ، فللشيوخ أن يولوا على العرش من آنسوا فيه الأهلية والكفاية قبل كل شىء .

---

(١) الفرد رامبو (Hist. de Russie) .



الأميرة شارلوت خرستين

وفى سنة ١٧١١ زوج القيصر ولده الكسى من الأميرة شارلوت خرستين ابنة دوق برنزفيك، فادركت هذه الأميرة الفتية منذ الساعة الأولى وضاعة زوجها وسوء خلاله، وأيقنت أنها لن تستطيع تأثيرا فى ميوله وتصرفاته، ولا تهذيبا لخشونته . كان الكسى يعامل زوجه، رغم سمو خلالها، ورفيع تربيتها وآدابها، معاملة مهينة حتى أنه اتخذ لنفسه خليلة فى جناح من القصر الذى تقيم فيه زوجه الشرعية، فكانت الأميرة لذلك تجانبه ما استطاعت، وكانت تلزم الصمت اذا أرغمت على لقائه . وكان أمر ما يؤلم نفسها الرقيقة أن تكون زوجا لذلك الغبى

الفظ ، الذى لاتخالجه عاطفة رقيقة أو فكرة سامية عن كرامة المرأة وشرفهـا ، حتى قيل إنه كان يضربها أحيانا كما يفعل أخس الرعاع .

وقد ارتبطت بسـيرة تلك الأميرة الشهيدة قصة مؤسـية ، ليست فى شى من التاريخ الحق ، ولكنها كانت مستقى خصبا لكتاب القصص والمذكرات الشائقة . وأصحاب هذه الرواية يرجعونها الى شقاء الأميرة ونكد حياتها الزوجية ، فيروى أن الكسى رومانوف حاول أن يقتل زوجه بالسم مرارا ، ولكنها كانت تنجو منه بتناول الترياق . وفى ذات يوم ، حينما قاربت الأميرة موعد الوضع ، لطمها الكسى لطمة شديدة ، فسقطت الى الأرض فى سيل من الدماء ، وكان القيصر وقتئذ غائبـا عن عاصمته ، وأيقن الكسى أنه قتل الأميرة ففر الى ضيعة من ضياعه . ولكن الأميرة أفاقت ، ثم وضعت جنينا ميتا . وكانت الكونتـة كينجزمارك والدة المـاريشال دى ساكس وقتئذ الى جانب الأميرة ، ففكرت أن تنقذها من ذلك الجحيم ، وأذاعت بالاتفاق مع نساء القصر انها ماتت ، وكتبت الى ولى العهد بذلك ، فأمر ولى العهد ان تدفن عاجلا دون احتفال . وذاع النعى فى كل قصور أوربا . وهنا يجىء أغرب فصل فى القصة ، اذ يروى أن الأميرة اعتزمت أن تغير كل صفاتهـا وماضيها ، وان تنزل عن جميع ألقابها وروابط أسرتها ، وأن تترك عالم القصور الى الأبد . فاختفت حينا فى جناح من القصر حتى تعافت ، ثم فرت الى باريس بمعاونة الكونتة كينجزمارك متنكرة فى زى سيدة من الطبقة الوسطى ، ومعها خادم المـانى شيخ زعم أنه والدها . وهنالك تعرف بها ضابط نبيل يدعى دوبان ، وهام بها ، ونفذ الى سرها واستطاع أن يكسب ثقتها . فلما أذيع نبأ موت ولى العهـد الكسى رومانوف فى منتصف سـنة ١٧١٨ ، تزوجها ، وعاشا فى صفاء وسكينة ، ورزقا طفلة . وفى ذات يوم كانت الأميرة تتريض مع ابنتها الصغيرة فى حديقة التويلرى ، وتحادثها بالالمـانية ، فقدر أن مر بهما المـاريشال دى ساكس ، وأطربه سمـاع لغته ، ونظر كل منهما الى الآخر مليا ، فعرفت المـارشال ، وأفضت اليه بسرها . وقص المـارشال خبرها على الملك لويس الخامس عشر ، فاهتم بأمرها ، وأمر بأن تغدق عليها كل صنوف الرعاية

والتكريم، وكتب الى الملكة مارى تيريز ينبئها بوجود عمتها (الأميرة) على قيد الحياة، فكتبت اليها الملكة تدعوها اليها بشرط أن تترك زوجها وطفلتها . فأبت الاميرة ، وآثرت حياة العزلة والسكينة حتى توفى زوجها فى سنة ١٧٤٧ . وعندئذ سافرت الى بروكسل لتقيم فيها اجابة لأمر الملكة مارى تيريز، وعاشت هنالك باسم مدام مولداك، والملكة تتعهدها بالانفاق والرعاية حتى توفيت حوالى سنة ١٧٦٨ (١)

هذه هى القصة الغريبة التى ابتدعتها الرواية لتسبغ على الأميرة شارلوت خرستين حياة جديدة ، ولتجعل منها بطلة لطائفة من المذكرات الشائقة . ولكن يجب ألا ننسى أن مجتمعات هذا العصر، أعنى منتصف القرن السابع عشر، كانت تضطرم شغفا بالخفى والمدهش والشائق ،وان الخفاء كان يومئذ ظاهرة قوية من ظواهر الحياة العامة، وأن أقطاب المشعوذين مثل سان جرمان وكاجليوسترو وفرنك، ظهروا جميعا فى ذلك العصر وأثاروا طلعة مجتمعاته وشغفها بمزاعمهم المدهشة وأساطيرهم العجيبة ودعاويهم الخارقة . وأما الذى حققه التاريخ فهو أن الأميرة شارلوت خرستين وضعت عقب مرضها ولدا لم يمت ولكنه تولى العرش فيما بعد باسم بطرس الثانى الكسيشفتش (ولد الكسى) ، وان الأميرة لم تمت عقب الوضع مباشرة، بل توفيت بعده بتسعة أيام فى أول نوفمبر سنة ١٧١٥ ، ودفنت باحتفال فخم شهده القيصر وولده . وكان القيصر حاضرا الى جانبها عند الاحتضار . وظاهر أن الآلام المعنوية الرائعة التى كانت تعانيها الأميرة من سفالة زوجها وشناعته كانت عاملا يذكر فى التعجيل بمصرعها . ففى نفس اليوم الذى قاد فيه القيصر نعش الأميرة الى القبر كتب الى ولده خطابه الشهير الذى ينعى فيه عليه قصوره واستهتاره بكل ما يؤهله للحكم ذات يوم ، وهو خطاب صاغه فى عبارات قوية ولكنها ليست مرة ولا مؤلمة بل تنم فى نفس الوقت عن رفق وحنان أبوى . ولعل بطرس الأكبر كان يخرج من ولده شخصا أفضل وأرفع لو اتبع نحوه منذ البداية سياسة الرفق والاناة والمصانعة، ولكنه يعترف فى خطابه المذكور بخطئه إذ يقول : « لقد ذهب كل شىء عبثا رغم انى

(١) فون بيلاو : Geheime Geschichten und räthselhafte Menschen.

كنت أحيانا أضربك وأقسو عليك ، ورغم انى أغضيت كل الاغضاء عن لومك منذ أعوام . كان ذلك كله هباء منثورا ، ولم ترد أنت الا أن تعيش وتلهو فى قصرك دون أن تفكر فيما عسى أن يجره ذلك ،لا عليك أنت فقط ولكن على المملكة كلها » .

ويختتم القيصر خطابه الى ولده بما يأتى : « إن جزعى من المستقبل يهدم ما يخالجنى من غبطة لظفرى الحالى . فانى أراك تزدرى كل ما يجعلك خليقا بأن تحكم بعدى . ولما كنت أشهد كل ذلك متألما ، وأعتقد أن لا خير فيك ، فانى أخطرك أنى سأمهلك أجلا آخر اذا أردت أن تصلح من شأنك ، فاذا لم تفعل فثق أنى سأقطعك من الميراث كما اقتطع العضو الفاسد . واياك أن تظن أنى أقصد الى اخافتك فان الله منفذ قدره : انى ما ضننت بحياتى قط وما أضن بها أبدا لخير وطنى وشعبى ، فكيف أضن بك أنت الطالح؟ ولأجنبىّ صالح خير من ولد طالح» .

فى هذه العبارات يكشف بطرس الأكبر عن سموّ فكرته فى الملك ، وهو سمو يمثل فى كل أعماله وسياسته العامة.



بطرس الأكبر

وكان وقع خطاب القيصر أليما فى نفس ولده ، فبادر الكسى الى الرد ووجه الى أبيه الخطاب الآتى : «مولاى ووالدى الرحيم ، قرأت الرسالة التى وجهتها الىّ يامولاى عقب دفن زوجى ، واليك ردّى : ما دمت ترانى غير أهل لأن أحمل تاج روسيا ، فلتكن ارادتك بل انى أعجل بالضراعة اليك أن تقبل اعترافى بأنى غير أهل لتولى هذه الشئون ، حيث قد أصبت بفقد الذاكرة (وهى موهبة لانستطيع شيئا بدونها) وأشعر انى لضعفى الجسمى والخلقى مما انتابنى من الأمراض

العـديدة، أبعد من أن أسـتطيع أن أحكم شـعبا كشعبنا يتطلب لحكمه رجلا أقل «انحطاطا» منى . لهذا أقرر انى لا أدّعى أى حق على عرش روسيا — أطال الله بقاءك — ولن أدّعى عليـه أى حق ، وانى أشهد الله على ذلك وأقسم بسلام روحى وأؤكده أيضا بتوقيعى بخطى» .

فأجابه القيصر، انه لا يعتقـد فى صـدق قوله ، وانه على أى الأحوال يخشى «أن يضله الرجال ذوو اللحى الطويلة» وأن يهدم ولده بعد وفاته ماشاده فى حياته . وناشـده أن يصلح من شأنه حتى يغدو جديرا بخلافتـه أو يرتد الى أحد الأديار . فاعتذر الكسى الى أبيه بأن انحلال صحته لايساعده على تحمل شظف الرهبانية .

ولكن بطـرس الأكبر آثر جانب الريب فى صدق ولده . وقوى هـذا الريب حينما أراد القيصر رؤية ولده فرآه طريح الفراش يدعى المرض،ثم لما غادر عاصمته ميمما شطر الغرب، علم أنه نهض لفوره وشهد بعض الحفلات. وعلى أى حال فقد أمهل القيصر ولده ستة أشهر أخرى، فلما انصرم هذا الأجل كتب اليه من كوبنهاغ يطلب اليـه قولا حاسما، ويأمره بالالتحاق بالجيش أو الدخول الى الدير فى ظرف أيام ثمانية . والظاهر ان الكسى كان يؤثر الأمر الأول، على انه سرعان ما اختفى فجأة مع خليلته افراجا،ولم يظفر أحد بأثره إلا فى كينجزبرج. وهناك استطاع تضليل شرطة القيصر أيضا واعتزم السفر الى ايطاليا أو فرنسا. ولكن صاحبين له هما كيكين وفسيمسكى وهما اللذان أوعزا اليه بالفرار على ما يظهر لقياه عندئذ أثر عودتهما من مرافقة الأميرة مارى أخت القيصر الى كرلسباد، وأوعزا اليه أن يلتجىء الى بلاط الامبراطور شارل الرابع، فقصد الكسى الى ڤينا، ولكنه خشى المطاردة، فارتد الى أرنبرج فى التـيرول ثم الى سنت ألم فى نابولى . وهنا اسـتطاع رسل القيصر، ان يظفروا بأثره فلحقوا به وقدموا اليـه خطابا من القيصر مؤرخا فى ١٠ يوليـه سـنة ١٧١٧ ، وفيـه وعد رسمى بالعفو بشرط أن يعود لفوره الى روسـيا ، وان يطيع كل الأوامر الوالدية، فاذا أبى، فان العاقبـة تغدو وخيمة، لأنه فضـلا عما يصيبه من لعنات والده، سيعرض الى الحكم عليـه باعتباره مرتكبا لجريمة الخيانة

العليا. فكتب الكسى الى والده يعرب له عن شكره وعرفانه، وانه مذعن لأوامره. ثم يمم شطر موسكو فوصلها فى ٣ فبراير سنة ١٧١٨ .

وكان القيصر قد اعتزم أمره ازاء ولده . فما كاد الكسى يصل الى موسكو حتى جمع القيصر كبار الأمراء والسادة ورجال الدين فى الكرملين ثم دخل فجلس فى عرشه، وجاء الكسى فجثا امام قدمى والده وقدم اليه خطابا يلتمس فيه العفو، فأمر القيصر



الكسى رومانوف

أن يتلى جهارا . ثم أنحى على ولده باللائمة، فارتمى الغراندوق ثانية أمام قدميه وهو يقول « لست أطلب إلا الصفح والحياة » فأعلن بطرس أنه يهبهما اليه، ولكنه يقرر فى نفس الوقت أنه يحرمه من ميراث العرش الى الأبد، فأجاب الغراندوق انه لا يعترض بشىء على ذلك، ثم أمضى اعترافا رسميا بالتنازل . ثم انتظم الجمع الملوكى الى موكب، وسار الى كنيسة أوبنسكى، وهنالك أقسم الكسى بتنازله بموقع

الامراء والسادة ورجال الدين جميعا على هـذه الوثيقة التى تحرم الكسى رومانوف من عرش آبائه وأجداده .

وتم ذلك كله طبقـا لبرنامج موضوع . ولكن القيصر لم ير أن يشمل برأفتـه محرضى ولده . وكان الغراندوق (الكسى) قد صرح فى التحقيق الذى بدىء باجرائه بالدور الذى أداه المحرضون فى غوايته . والمرجح انه أفضى بما أريد أن يفضى به روعة من القيصر واتقاء لبطشه . ولكن هناك مسألة راجحة أيضا ، هى أن الحزب الروسى المحافظ ، كان يتصـل بالأمير أشـد صله و يوجهه الى حيث أراد . وكان بطرس الأكبر يعلم هـذه الحقيقة . فقد كان ولده « محورا لمؤامرة دائمـة على اصـلاحاته . وكان أمل كل أولئـك الذين يريدون أن يهـدموا صرح عمله بعـد موته . ولئن قبل الكسى دخول الدير ، فليس ذلك إلا بأمل الخروج منـه . ولئن نزل عن العـرش ، فانه لم يكن صادق العـزم . لم يكن الكسى ينتمى الى نفسه بل كان ينتمى الى أعداء أبيه الذين يعرفون بعد كيف يحلونه من عهوده[١] » .

وكانت دسائس هـذا الحزب أخطر ما يهدد العمل العظيم الذى قام به بطرس الأكبر لتجديد روسيا ووضع أسس حضارتها وثقافتها الجديدة . وكان أنصار الرجعة يوعزون للغراندوق أن يتظاهر بالطـاعة لكل ما يأمر به القيصر وألا يرفع القناع إلا فى الساعة المعينـة . وقد رأى القيصر فى فرار ولده بادرة خطرة وتبين فيـه أثر الرجعيين . يقول الاستاذ مورفل : « كان الفتى الأحمق ، فاسد السيرة ، وليست له نزعة كريمة ولا حنان أبوى أو زوجى ، يعتمد صابرا على الزمن ، ليستطيع القضاء المبرم على أعمال الصانع العظيم . هكذا كان الولد . وأما الأب ، فقد كان بطبيعة نشأته ، يضطرم بكل تقاليد الطاغية الشرقى الذى يرى نفسه مالكا مطلقا لأرواح الأزواج والأبناء والرعايا ... نسى بطرس كل عواطف الأب ، ولم ير فى ولده الشقى إلا خائنا لسعادة روسيا وهيبتها[٢] » .

---

(١) رامبو .

(٢) فى كتابه : (Russia)

وعلى أثر اعتراف الغراندوق قبض فى موسكو وفى الأقاليم على عشرات ، منهم جماعة من الكبراء ، وحقق مع القيصرة السابقة أفدتشا ، ومع الأميرة مارى أخت القيصر ، وضبطت عند افدتشا أوراق فيها تفاصيل مؤامرة ترمى الى عزل القيصر ، وثبت أيضا ، أنها رغم عزلتها فى الدير ، كانت خليلة لشخص يدعى جليبوف . فأخذت الى موسكو حيث جلدها القيصر بنفسه ثم زجت الى السجن . واعترفت الأميرتان أن المحرض لهما هو المطران دوسيتى وكذلك الكسى ، فحوكم دوسيتى وكيكين وفسمسكى وجليبوف ، وحكم عليهم بالموت فى ٢٥ مارس سنة ١٧١٨ ، ثم عذبوا وأعدموا بأشنع الأساليب البربرية .

واستمر التحقيق مع باقى المتهمين فى بطرسبرج واستجوبت خليلة الكسى وحاجبه . ودل التحقيق على أن الغراندوق كان يسخط على الاصلاحات التى استحدثها أبوه ، ويعتزم هدمها جميعا متى ولى العرش ، وانه كان يتزعم الحزب المحافظ منذ أعوام ، وان لهذا الحزب مشاريع خطرة ترمى الى عزل القيصر ، وحل الجيش ، والاستعانة ببعض الدول الأجنبية . ازاء هذه الحقائق لم يبق مجال للرأفة «ذلك ان بطرس لم يكن بعد ازاء ولد عاق خامل ، بل كان ازاء خائن ، غدا زعيم أعدائه فى الداخل ، وحليف أعدائه فى الخارج ، فكان عليه أن يختار بين ولده وبين سلامة اصلاحاته[1] » .

وربما كان القيصر يؤثر الصفح عن ولده . ولكن بطانة القيصر ، كانوا أشد قساوة وأشد توجسا من الكسى وأنصاره . وكانت لهم الكلمة . فأمر القيصر بمحاكمة ولده . وفى ٦ يونية سنة ١٧١٨ استدعيت محكمة كبرى ألفت من عشرين من أحبار الكنيسة ومائة وأربعة وعشرين من رجال الدولة والحكومة . وكانت مهمة الأحبار أن يؤيدوا بآيات الكتاب المقدس ، الحكم الذى يجب أن يصدره القضاة . ومما يجدر ذكره أن الأحبار اختتموا قرارهم بهذه العبارة : « لما لم يكن لنا كرجال دين حقا فى أن نصدر حكم الاعدام ، خصوصا فى دولة يغلب فيها سلطان الأمير

(١) رامبو .

المطلق على الحكم الذى يجب أن يصدره الفرد، فانا عملا بأمر مليكنا قد جمعنا من آيات الكتاب المقدّس ما يمكن تطبيقه فى تلك القضية الهائلة . ... فاذا كان المليك يعتزم أن يعاقب الجانى طبقا لأعماله وأخطائه، فامامه ما قدمنا من الأمثال، واذا آثر الرحمة والغفران فامامه مثل المسيح، الذى يصفح عن ولده الجانى التائب» . ولكن المحكمة «المدنية» طبقت نصـوص القانون العسكرى وقضت باعدام الغراندوق، وأبلغ الكسى بهذا الحكم فى ٧ يوليه فى اجتماع علنى عقده مجلس الشيوخ .

وفى صباح اليوم التالى أبلغ القيصر أن ولده قد أصيب بنوبة عنيفة من الصرع من جراء ما عاناه من الانفعالات وما يعانيه من روعة الموت . ولم يأت ظهر هـذا اليوم حتى أبلغ القيصر ان حال ولده قد ساءت . فجمع القيصر فى الحال كبراء البلاط لينظر فى الأمر . ولكن سرعان ما أبلغ القيصر لثالث مرة ان ولده يحتضر وأنه قد يسلم الروح قبل نهاية اليوم، وأنه يطلب أن يراه ويحدثه قبل موته . فبادر القيصر الى فراش ولده المنكود، واسترد غضبه ولعناته، وباركه وانصرف . وفى مساء اليوم أبلغ القيصر أن ولده قضى . فأمر القيصر أن تعرض جثته فى الساحة العـامة مدى يومين، ثم دفن بعد ذلك باحتفال ملكى فخم .

وامتـدت نقمة القيصر الى عشرات آخرين من الحكام والكبراء ، والأحبار وغيرهم، فعذبوا واعدموا بأروع الألوان والأساليب .

* * *

هـذه هى سـيرة الأمير المنكود، الكسى رومانوف، وقصة محاكمته وموته . ولكن الرواية لا تقف عند هـذا الحد، بل تتهم القيصر، باغتيال ولده كما اتهمت فيليب الثـانى باغتيال ولده الدون كارلوس . فيقال : ان الكسى جلد مرارا حتى توفى . ويقول البعض انه مات قتيلا بالسم . ويزعم آخرون أنه أعدم بقطع الرأس .

وفى الرواية، رغم هـذا التضارب، على الأقل، ما يرجح أن الغراندوق لم يمت موتا طبيعيا . وفى وسعنا أن ندلل على ذلك بأن القيصر سار فى محاكمة ولده والحكم عليه علنا، حتى صدر حكم الاعدام ، ولم يبدأ دور الكتمان إلا عند التنفيذ . وعلى أى حال فان فى ظروف هـذه المحاكمة الشهيرة، وفى سيرة الغراندوق ، وفى الظروف الدقيقـة التى كانت تجوزها روسـيا يومئذ ، ما يجعل حكم التاريخ أرفق ببطرس الأكبر منه بفيليب الثانى .

مراجع هذا الفصل

FR. VON BULAU: Geheime Geschichten und rāthselhafte Menschen.

ALFRED RAMBAUD: Histoire de la Russie

MORFILL: Russia (Story of the Nations Series).

الفصل العاشر

الاعتداء على لويس الخامس عشر

سنة ١٧٥٧

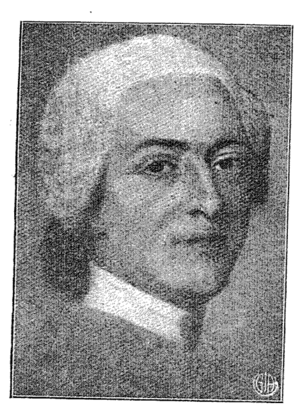
لبثت الملوكية الفرنسية قرونا عرضة لسهام التآمر وخناجر القتلة حتى زهقت على يد الثورة فى شخص لويس السادس عشر . وقد سقط منها عواهل قبل ذلك : فهلك هنرى الثالث بخنجر جاك كليمان ، وهلك هنرى الرابع بخنجر فرانسوا رافياك . ولكن الملوكية ذاتها لم تكن يومئذ هدفا لطعنات القتلة ، وإنما كان المقصود شخص الملك ، فلما ذهبت هذه الملوكية فى العسف والبطش الى حد الإغراق ، وأخذت تتوارى أعلام مجدها وبهائها التى أقامتها على أعناق الشعب الذى تمثل ، اتجهت اليها سهام البغض لذاتها . ولا ريب أن جراثيم هذه الخصومة التى قضت فى النهاية على الملوكية الفرنسية ترجع الى ما قبل لويس السادس عشر الذى اختاره القدر ليمثل مصرعها النهائى . ولعلها ترجع الى أواسط عهد لويس الخامس عشر أى الى العهد الذى بدأ هذا الملك يكشف فيه عما أودع نفسه الأثيمة من وضيع العناصر والشهوات . ففى ذلك الحين سقطت فرنسا صرعى حكومات شائنة ، قوامها وزراء ضعاف من خلق البلاط ، ورأسها ملك فاجر ، تحكمه أهواء البغايا اللائى يصطفيهن تباعا من بومبادور الى دوبارى . ونستطيع أن نتصور ما يصيب أمة تنكب بمثل هذه الحكومات الساقطة من طغيان وذلة وإرهاق ، وتبديد للأموال العامة ، وانتهاك للحرمات . وهو ما كان شأن فرنسا فى هذا العهد . هذا الى خوضها طائفة من الحروب التى أثارتها شهوات الملوكية والبطانة ، كانت مصائبها تذكى عوامل النقمة والسخط . فكان الشعب ينسب الى البلاط وسيده كل مسئولية . وكانت معارك البرلمان تضاعف هذا البغض ، وكان الجدل الدينى فوق ذلك يسمم العقول

والأفئدة . وكان بعض الغلاة من طوائف المتعصبين وجماعات الخفاء التى ذاعت فى هـذا العصر يزعمون أن لا خلاص للأمة إلا باسالة الدماء وأن هـذا هو ما يريده الله .

ولم تلبث هذه الدعوة أن أثمرت غير بعيد ، فان شخصا يدعى « جوتييه » من حاشية المركيز دى فريير ، وهو من أشد أولئك الغلاة تطرفا وحماسة ، فاه ذات يوم بعبارة خارجة ، فقبض عليه وألقى الى الباستيل سنة ١٧٤٠ ، فلما أطلق سراحه أخذ ينفث سخطه سرا فى إشارات وعبارات غامضة . فأذكت هذه الدعوة مخيلة شخص من الكافة يدعى روبر فرانسوا داميان ، وهو ولد مزارع ، زاول كل الحرف من وصيف ، وصانع ، وجندى ، وحاجب فى كلية اليسوعيين . وكان كثيرا ما يتردد على أروقة البرلمان فتضطرم مخيلته لما يشهد من جدل القضاة ورجال الدين . وكان ذهنه الهائم سريع التأثر ، فتصور ذات يوم أنه يستطيع إنقاذ فرنسا بارهاب ملكها الباغى أو إزهاقه . وسرعان ما عمد الى تنفيذ مشروعه . ففى مساء اليوم الخامس من يناير سنة ١٧٥٧ بينما كان الملك فى نحو الساعة السابعة ، يهم بركوب عربته ليذهب من فرساى الى تريانون ومعه ولى العهد ، ومن حوله كبراء البلاط والحرس ، تقدّم منه داميان وطعنه فى جنبه بمدية كبيرة ، فوضع لويس الخامس عشر يده مكان الجرح ورفعها ملوثة بالدماء ، وارتد الى ورائه فرأى داميان . وكان قد استطاع أن يدنو منه وسط الكبراء والحرس تحت جنح الظلام ، فاعتقد الحرس أنه من الحجاب لأنه كان يرتدى معطفا طويلا أسود . فقبض عليه ، ووجد معه بعض النقود الذهبية ، وكتاب صلاة . وقال داميان فى الحال لمن حوله : «حافظوا على السيد ولى العهد ، ويجب ألا يخرج نهارا » .

وكان يقصد بذلك إرهاب رجال البلاط وأن يلقى فى روعهم أن الأسرة الملكية والبطانة فى خطر عظيم ، فأصاب ما قصد وحدث هرج كبير فى البلاط ، وسرى الخوف الى كل الكبراء . وارتد الملك الى فراشه ، وطلب كاهنا ليعترف معتقداً فى خطورة جرحه .

أما داميان فقيد الى بهو الحرس حيث اجتمع الدوق ديان كبير الحرس ، والمستشار لا مونيون ووزير الحقانية ما شول . ثم جرد من جميع ثيابه وضبطت المدية التى ارتكب بها جريمته . ولم يكن جرح الملك خطيرا فى الواقع ، ولكن رجال الحرس ، اعتقدوا خطورته بادئ بدء فطبعوا جسم المعتدى بالحديد المحمى . ثم أحيل الى التحقيق فى الحال ، فقرر فى استجوابه الأول أنه حاول الاعتداء على حياة الملك بسبب الدين . ثم قرر فى الاستجواب الثانى أنه يعرف كثيرا من مستشارى البرلمان وأملى أسماء بعضهم . ثم أملى على محققه وهو المستشار بيلو خطابا الى الملك



لويس الخامس عشر

يقول فيه : « مولاى ، انى لعظيم الأسف إذ ساقنى النكد الى الاقتراب منك . انك اذا لم تحز الى جانب شعبك ، فانه لن تمضى بضعة أعوام حتى تهلك أنت وولى العهد . ومن الأسف ألا يكون أمير جم الطيبة مثلك يغدق عطفه على رجال الدين ، ويوليهم كل ثقته ، مطمئنا على حياته . واذا لم تجب سؤل شعبك فى منحه حق إقامة الشعائر عند الموت ... فان حياتك تكون عرضة للمخاطر . ويرجع أصل الشر كله الى أسقف باريس ... إن الاعتراف الصادق الذى استمحت لنفسى الافضاء به اليك ، بعد الجريمة القاسية التى ارتكبتها على شخصك المقدّس ، يحملنى على الرجاء فى رأفة مكارم جلالتك » .

وقد حمل هذا الخطاب موقعا عليه من الجانى الى الملك . فرأى بعض رجال البلاط أن يخطر أعضاء البرلمان الذين ذكرهم داميان بما نسب اليهم حتى يفقد

البرلمان فى نظر الشعب تلك الهيئة التى تعرقل كثيرا من مشاريع البلاط . وكان الحكم يومئذ للكونت دارجنسون رئيس الوزارة ، وماشول وزير الحقانية . وكان دراجنسون يخاصم المركيزة دى بومبادور جهرا ، أما ماشول فكان لهاخدنا وصنيعة . بيد أنهما اتفقا فى هذا الظرف على انتهاز الفرصة لاسقاط المركيزة ، وابعادها من القصر ، وفكرا فى أن يثيرا عليها سخط الأمة قاطبة بواسطة البرلمان . وكانت حالة الملك ما زالت تدعو الى الجزع ، إذ كان ثمة شك فى أن المدية التى استعملت فى الجناية كانت مسمومة . فرأى الوزيران أن يتخذا ما قد يصيب الدولة من جراء ذلك من حرج وفوضى ذريعة لابعاد المركيزة ، وتكليف البرلمان بمحاكمة داميان .

وقد أبدى لويس الخامس عشر فى هذا المأزق لمحة من الشجاعة والعزم ، فأقر إبعاد المركيزة وأخطرها ما شول بأمر الابعاد . واعتزمت المركيزة أن تذعن بادئ بدء ، وأيقنت أنها هالكة ، ولكن الموقف مالبث أن تبدل ، فان كبير الجراحين أعلن أن جرح الملك ليس بذى خطر فاطمأن لويس الخامس عشر واستبشر ، وسحب فى الحال أمره بابعاد المرأة التى ما زالت تحكم لبه وعواطفه .

ووجه الملك خطابا الى مستشارى المحكمة العليا طلب فيه « قصاصا رائعا » . وفى ليلة ١٧ يناير سارت ثلة قوية من الجنود الى ڤرساى ، ورابطت سريات من السويسريين فى الشوارع الكبرى . فغضب المستشارون (أعضاء البرلمان) لهذا التصرف واستقال معظمهم ، فأمر الملك باعتقالهم فى منازلهم وأنذرهم بالنفى . وتفرغت المحكمة العليا الى محاكمة داميان ، وبلغ اضطراب الرأى العام أقصاه ، وذاعت أغرب الاشاعات . ثم جاء دور الوزراء الذين غضب عليهم الملك ، فنفى الدوق لا روشفوكو ، والدوق شاتيون ، والكونت دى موريا ، وغيرهم من كبراء البلاط والدولة ومستشارى البرلمان ، ورجال الدين . وكانت يد المركيزة دى بومبادور ماثلة فى هذه السياسة الخرقاء ، فهى التى أوحت بالأخص بنفى الكونت دى موريا أقدم الوزراء ، ووزير الحقانية ما شول ، ثم الكونت دراجنسون بعد أن يئست من الاتفاق معه واستمالته الى سياستها . يقول ڤولتير :

« وكثيرا كان هذا مصير وزراء فرنسا ، فهم يَنفون ، ويُنفون ، ويَسجنون ، ويُسجنون » .

* * *

وأصر داميان بادئ بدء أمام المحكمة العليا على أن الدين هو الباعث على الجناية ، وانه لم يقصد قتل الملك قط ، وأنه فكر فى ارتكاب جريمته مذنفى البرلمان ، وأن عددا كثيرا من أعضائه يحقدون على أسقف باريس . وشهد ضابط من الحرس بأنه سمع داميان يقول : « إنه ما كان يقدم على قتل الملك من أجل الدين ، لو أنه قطعت رؤوس أربعة أساقفة أو خمسة » . فأجاب داميان عن ذلك : « بأنه لم يتحدث عن قطع الرأس ، وانما تحدث عن العقاب » وأصر على أن الحادث ما كان ليقع « وانه ما كان ليجرؤ على الاعتداء على الملك لولا تصرف أسقف باريس الذى يأبى القداس على أشراف الناس » . وصرح فى تحقيق ٢٦ مارس « انه لو لم يتردد على أروقة البرلمان لما اقترف جرمه ، ولكن الخطب التى كان يسمعها أضرمت مخيلته وأزالت تردده » .

وأخيرا أصدرت المحكمة العليا بحضور خمسة من أمراء البيت المالك ، ورهط كبير من النبلاء والأعيان والمستشارين ، حكمها الرائع على داميان : ذلك الحكم الذى يبقى صفحة خالدة فى تاريخ القضاء الوندلى . فقد نص على أن توقع بالمحكوم عليه ألوان هائلة من العذاب قبل أن يعدم ، وأن يزهق بأفظع الاساليب الوحشية . وعذاب داميان من أسود صفحات هذا العصر ، وقد لبث أعواما قبل الثورة مستق لدعوة شديدة على الملوكية وعلى آل بوربون ومن يلوذ بهم من النبلاء والساسة . وإليك كيف انتقم قضاء لويس الخامس عشر من ذلك الذى اجترأ على شخص الملك المقدس .

طبق على داميان عذاب « الجوانب » أولا وهو عبارة عن سهام محمية تدفع الى مابين الركبتين وهما موثقتان بألواح من الخشب . فبدأ المعذّب يصيح : « ان الوغد أسقف باريس هو أصل كل شيء » . ثم قال ان المدعو جوتيبه تابع المركيزدى

فريير هو الذى أوحى اليه فى حضرة سيده « انه لا يمكن التخلص من هذه الفوضى إلا بقتل الملك ، وانه يقيم بالقرب من منزل جوتييه هذا ، وانه سمع هذا النصح منه مرارا وانه قال له ان قتل الملك عمـل مجيد» . وما زال داميان يصر على ذلك حتى انتهى هـذا الطور الاول من تعذيبه ، فووجه بجوتييه ، والمركيز دى فريير . فأنكر الأول كل شىء ، وقال المركيز ان داميان كان فى بعض الأحيان يحمل اليـه صورا من قرارات البرلمـان .

واذ تمت هذه المرحلة التمهيدية ، حمل داميان الى مكان التنفيذ . وكانت الاهبة هائلة رهيبة فقد أفردت له أمام دار البلدية ساحة شاسعة أحيطت بالعمد ، و رابط الحرس فى كل الشوارع وانتشر الجنـد السويسريون فى جميع انحاء المدينة ووضع المحكوم عليه فى نحو الساعة الخامسة من ٢٨ مارس فوق نطع واسع ، واوثقت أطرافه بحبال ضخمة تتخللها سلاسل من الحديد . وبدىء بحرق يده فى موقـد يضطرم بالفسفور ، ثم كوى بالحديد المحمى فى الذراعين والساقين والصدر ، وصب الرصاص المذاب فى جميع جروحه . وكان المعذّب يرسـل صيحات منكرة تمزق الفضـاء . ثم أوثقت أوصاله بأربعة جياد قوية ، ومدت الحبال فوق جراحه ، ودفعت الخيل الى وجهات مختلفة ، فتمددت الاطراف ولكنها لم تفصل ، فقطع الجلادون بعض أوصاله ، فانحلت الاطراف عندئذ وفصل ساقا المحكوم عليه وإحدى ذراعيه ، ولكنه لبث حيا حتى فصلت ذراعه الأخرى من جثته الدامية . وعندئذ حملت اشلاؤه الى محرقة أقيمت بجانب النطع ، فالتهمتها النيران .

ولم يقف أثر الحكم عند ازهاق المحكوم عليه بل تعداه الى ابيه وزوجته وولده ، اذ تقرر نفيهم من المملكة فاذا عادوا اعدموا . والتزم جميع اقاربه بترك لقب داميان الذى لوثته الجريمة وجعلته بغيضا . أما جوتييه فأعيد استجوابه بعد التنفيذ فاعترف بأن داميان كان يحدثه عن شئون البرلمـان بحماسـة ، واستطال التحقيق معه أشهرا ثم أطلق سراحه .

يقول ڤولتير : « لقــد هلك ملكا فرنسا ، هــنرى الثالث ، وهنرى الرابع بيــد المتعصبين . ولكن يوجد ثمة هذا الفرق وهو أن هنرى الثالث وهنرى الرابع قتلا لأنهما ابديا عداء للبابا ، اما لويس الخامس عشر فقد اعتدى عليه اذ لاح انه يريد ارضاء البابا ... ان روح پولترو[1] ، وچاك كليمان التى اعتقد انها غاضت مازالت تجثم فى الأرواح الجاهلة المتوحشــة » .

وأغدق لويس الخــامس عشر أموال الدولة على أولئك الذين اشتركوا فى محاكمة المعتدى عليه وتعذيبه ، ولبث حينا يطارد المستشارين الذين يرفعون صوتهم بالاحتجاج أومعارضة القرارات الملكية ، ولبثت مناصب الدولة العوبة تحركها وضيع اهوائه .

وكان لهذه المعركة البرلمــانية ، وكان لمــا عانته فرنسا يومئذ من عسف هــذا الملك الوغد ، اثر عميق فى تحريك العاصفة الكبرى — الثورة الفرنسية .

مراجع هذا الفصل

VOLTAIRE : Siècle de Louis XV.

: Histoire de Parlement de Paris.

(١) قاتل الدوق فرنسوا دى جيز

الفصل الحادى عشر

الشڤالييه ديون

سـنة ١٧٦٠ — ٨٣

يقدّم لنا التاريخ من لويس الخامس عشر صورة وضيعة فياضة بالمخازى والمثالب، سواء من الوجهة العامة أو الشخصية، ومع ذلك ففى سيرة هذا الملك الخليع الفاجر ما ينم الدهاء والبراعه فى حياكة الدسائس، والسهر على سياسة العرش وتحقيق غاياته. ومن المدهش أن نعلم أن لويس الخامس عشر كان له مكتب للسياسة السرية لا تخفى خططه وغاياته على وزراء خارجيته فقط، بل تتعارض أحيانا مع الخطط والغايات التى يرى أن يتبعها أولئك الوزراء لخير فرنسا. ولكنه لم يخرج هذا المشروع الى حيز العمل إلا بعد أن توفى وزيره الأول الكردينال فليرى الذى كان يفوض اليه إدارة الشؤون كلها. ففى سنة ١٧٤٣ أنشأ لويس الخامس عشر هذا المكتب الشهير فى تاريخ الدبلوماسية السرية، وعهد الى إدارته بنشاط مع البرنس دى كونتى. وأنفذ الى جميع السفارات الفرنسية فى الخارج سفراء من من بطانته وصنائعه وأمرهم أن يكاتبوه سرا فى كل الشؤون التى تعرض لهم فى البلاد التى يمثلون فرنسا لديها. ولبث البرنس دى كونتى يدير هذه السياسة السرية لدى قصور وارسو واستوكهلم و برلين واستانبول زهاء اثنتى عشرة سنة حتى كانت دولة مدام دى بومبادور التى لم ينل لديها حظوة، فاستقال من منصبه فتولاه من بعده الكونت دى بروجلى الذى كان سفيرا لفرنسا فى بولونيا وتسلم كل المراسلات والأرقام الخاصة بمكتب السياسة السرية. وكان رئيس البريد يسلم للملك كل الرسائل التى ترد من أعوانه السياسيين فى الخارج، فيرسلها الملك الى بروجلى، ويرسل بواسطته الى أولئك الأعوان ما يلزم من المال. وكان الملك يطلع على كل الردود

السرية التى تكتب فيصلح فيها ويحور طبقا لا رائه الخاصة ثم يذيلها بكلمة «مقبول» .

وكان الدوق دى شوازيل خلف الكردينال فليرى فى رياسة الحكومة يقف بلا ريب على أمر هذه السياسة السرية غير أنه لم يتعرض اليها اما لأنها لم تكن تتعارض مع خططه أو لأنه كان يتغلب على آثارها بحسن تدبيره وبراعته . ولكن خلفه الدوق ديجويون لم يكن يعرف شيئا من أمرها ولم يكن فى مرتبته من الذكاء والكفاية . فتولته دهشة بالغة حينما علم بطرف من هذه الدسائس السرية ذات يوم من مبعوث فرنسا فى بروكسل ، ثم بعدذلك من أوراق ضبطت لدى ديموريه مبعوث همبرج . فأمر فى الحال بالقبض على ديموريه وفاقييه وسيجون ودوريه وغيرهم من أعوان السياسة السرية ، دون أن يخطر له أن الملك هو رأس هذه الدسائس والموحى بها . ولم يعترض الملك على شيء من ذلك حتى لا يكشف سره ، وعوض أولئك الأعوان عن مناصبهم بالأموال والهدايا . ولم يقف الدوق ديجويون على حقيقة الأمر إلا من مدام دوبارى التى سلمته خطابا من الخطابات السرية عثرت به فى مكتب الملك .

وكان لويس الخامس عشر كثيرا ما يكتب الى أعوانه السريين بنفسه . واليك مثلا من هذه الرسائل السرية — وهو خطاب كتبه الملك فى ٦ مارس سنة ١٧٦٠ الى المسيو «ديون» سكرتير السفارة الفرنسية فى روسيا :

«يا مسيو «ديون» ان بواعث خاصة ، والثقة التى لى فى غيرة البارون دى بريتى سفيرى لدى أمبراطورة روسيا ، وفى مواهبه ، حملتنى على أن أكشف له أمر المراسلات الخاصة التى تجرى بينى وبين أعوانى فى روسيا دون أن يعلم بها وزير خارجيتى ولا سفيرى . وقد أخطرته أيضا أنك من المطلعين على هذا السر ، أولا حتى تسهل لى أمر المراسلة ، وثانيا حتى تمدنى بالمعلومات الخاصة التى ترى أن تقدمها الىّ .

« أن المثابرة التى تبديها فى تأدية هـذا الواجب طبقا لما يسمح به مركزك وبعد المكان، تكفل لى انك ستقدّم الىّ أدلة جديدة على غيرتك أثناء وجود البارون دى بريتى فى بلاط بطرسبرج . وقد أخطرته برغبتى فى أن تبقى بالقرب منه سكرتيرا حتى تستطيع أن تشتغل طبقا لأوامره فى هـذه المكاتبة السرية . وسوف تقبض من وزير الخارجية ثلاثة آلاف جنيه مرتبا ، وسأقدم اليك فوق ذلك ابتـداء من هـذا العام ألفى جنيه علاوة على مرتبـك ، وذلك برهانا على رضاى عن الخدمات التى قدّمتها الىّ والتى أرجو أن تسير فى تقديمها .

« وسوف تقدّم الى البارون دى بريتى بالنظام المستطاع ومجانبة التحيز، كل المعلومات التى تجمعها عن أخلاق أمبراطورة روسـيا وزرائها وكل من لهم اتصال بأعمال الدولة ، وتضيف اليها ملاحظاتك على الخطة التى اتبعت منـذ بدء الحرب الى الآن ،وعلى ما تعتقد ان كان واجبا صنعه لتحقيق الخطط الموضوعة للصالح العام، أو على الأسـباب التى أخرت النجاح . ولكن يجب أن تنتظر أولا تعاليمه السرية فتدونها وتكاشفه برأيك عن خير الوسائل التى يجب اتباعها لاحراز النجاح .

« وهذه الثقة التى أضعها فى البارون دى بريتى دليل على أنه سينفذ أوامرى بكل ما وسع من غيرة وكفاية . على أنه قد يحدث ، رغم ما أوقن به من اخلاص نياته، أن يخطئ فى اختيار الوسائل لتحقيق غاية تعليماتى السرية، فعندئذ تشرح له مع التحفظ آراءك الخاصة اذا رأيت خيرا فى ذلك ... الخ . « مقبول »، ٦ مارس سنة ١٧٦٠ » .

اخترنا هذه الرسالة، لنرى مبلغ الثقة التى استطاع أن يوحى بها «ديون» هذا الى الملك والى أعوانه السريين، ثم لنقدّم الى القارئ هـذه الشخصية العجيبة التى لبثت طول حياتها لغـزا خفيا، إذ الواقع أن العالم لم يعرف ان كان هـذا السياسى القدير رجلا أو امرأة إلا حين وفاته فى سنة ١٨١٠

وقد ولد «ديون» فى تونير من أعمال بورجونيا فى سنة ١٧٢٨ من أب قاض فرباه باعتباره صبيا، وأعده لدرس الفقه ،فدرس القانون وحصل على أجازة العالمية

(الدكتوراه) فى القانون المدنى والقانون الكنسى . وكتب عدة رسائل سياسية لفتت اليه نظر البرنس دى كونتى فقدّمه الى لويس الخامس عشر . وفى سنة ١٧٥٧ أوفده الملك مع الشڤالييه دوجلاس فى أوّل مهمة سياسية لدى البلاط الروسى ، فنجحت المهمة بعد إجراء ومراسلات طويلة ، وعقدت بين فرنسا والروسيا والنمسا معاهدة لضمان صلح وستفاليا . وعاد «ديون» الى فرساى يحمل نبأ هذا التوفيق ، فأهداه لويس الخامس عشر صورته فى درج ثمين فيه تحويل على الخزينة الملكية ، ووساما بمرتبة فى النبل . وكان الكونت بشتوشيف رئيس الحكومة الروسية يومئذ يعاكس السياسة الفرنسية ويؤثر معاداة فرنسا على مهادنتها . وكان الفضل فى عقد الاتفاق بين روسيا وفرنسا رغم إرادته يرجع الى جهود الامبراطورة اليزابث التى استطاع دوجلاس وديون أن يؤثرا فى سياستها نحو فرنسا ، وأن يعقدا بينها وبين لويس الخامس عشر مراسلة منظمة . وكانت مهمة الشڤالييه ديون أن يعمل مع أعضاء البعثة الفرنسية على إسقاط الكونت بشتوشيف ، فما زال بعد عوده الى بطرسبرج يدس له الدسائس حتى أمرت الامبراطورة بالقبض عليه وضبط أوراقه . وأصاب بعض كبراء الحكومة الروسية مثل هذا الاضطهاد . وفى سنة ١٧٦١ ، ينقلب الشڤالييه ديون رجل حرب ، ويصحب الماريشال دى بروجلى الى ألمانيا بوصفه مساعدا لأركان الحرب ، ويجرح فى رأسه وفخذه . فلما عقد السلم سافر ديون الى لندن سكرتيرا للدوق دى نيڤرنيه سفير فرنسا هنالك ، واستمر فى مكاتبته السرية مع مجلس الملك الخاص ، وانفرد حينا بادارة شؤون سفارة لندن فى غيبة الدوق دى نيڤرنيه ، ولما استطالت غيبة الدوق عين ديون مكانه وزيرا مفوضا . واستطاع ديون أن يغنم عطف البلاط الانجليزى حتى أن الملك جورج الثالث اختاره ، خلافا للعرف ، ليحمل الى فرنسا قرار المصادقة على المعاهدة الانجليزية الفرنسية ، فأنعم عليه لويس الخامس عشر بتلك المناسبة بوسام القديس لويس .

ولكن الكونت دى جيرشى عين أخيرا سفيرا لفرنسا فى لندن ، فلم يشأ أن يتساهل مع ديون ، وأن يهبه من النفوذ ما كان له أيام سلفه ، وزاد على ذلك أن

اضطهده ، وتعمد اساءته واهانته . ولكن ديون لم يذعن لتلك المطاردة ، وأعلن أنه وزير مفوض ما زال يحتفظ بمرتبته الدبلوماسية ، وأنه لا يستطيع ان يمثل بصفته سكرتيرا ، فى بلاط مثل فيه كوزير مفوض . واشتد الخلاف بين الرجلين ، واتخذ صورا شائنة فى بعض الظروف حتى توهم الشفالييه أن حياته غدت فى خطر . وفى ذات يوم أهان نبيلا انجليزيا كبيرا فى احدى المآدب ، فأصدر قاضى الصلح أمره بوضعه فى حالة قبض . فعندئذ أصدر بلاط ڤرساى أمره بعزل الشفالييه ، فرفض العودة الى باريس . فاضطرت الحكومة الفرنسية أن تخطر الحكومة الانجليزية رسميا بأن ديون لا يمثلها بأية صفة رسمية . وعلى ذلك حظر عليه دخول القصر الانجليزى .

عندئذ استشاط الشفالييه ديون حنقا وأراد الانتقام لمركزه الضائع فأصدر فى لندن كتابا عنوانه : «رسائل ومذكرات ، ومفاوضات خاصة للشفالييه ديون» ، كشف فيه عن كل ما كلف به من مهام سرية وكل ما تبادله من مذكرات ورسائل سرية مع البلاط والحكومة والساسة ، وكل ما وقع من حوادث الخلاف بينه وبين الكونت دى جيرشى . فأحدث هذا الكتاب تأثيرا عظيما فى جميع الدوائر ، ولم ينجع فى محو هذا التأثير ما اتخذ من جهود لمصادرة الكتاب ولا رسالة وضعت للرد عليه . وسعى رجال السفارة الفرنسية فى لندن الى حمل النائب العام على أن يرفع قضية القذف بطريق النشر على ديون فرفعت وقضى عليه غيابيا بحكم لم ينفذ . وفكرت الحكومة الفرنسية فى أن ترسل الى لندن من يختطف الشفالييه عنوة ليزج به الى الباستيل ، ولكن لويس الخامس عشر ، على ما قيل ، أرسل يحذر الشفالييه . ذلك لأن ديون اضطر أزاء هذه المطاردة المستمرة أن يهدد بفضح كل مراسلاته السرية مع لويس الخامس عشر ذاته ، وهو ما اضطر لويس الخامس عشر الى أن يصدر أمره بمنح الشفالييه معاشا قدره اثنا عشر ألف جنيه يدفع اليه فى كل ستة أشهر حيثما كان الا فى بلاد الأعداء ، وحتى يسند اليه منصب يربو مرتبه على هذا الجزاء .

وفى بدء سنة ١٧٧٠ سرت أشاعة خفية بأن الشفاليه ديون انما هو امرأة ، ولكن مضت أعوام قبل أن يصدقها أحد . وليس صحيحا أن هذه الاشاعة ترجع الى أمر أصدرته الحكومة الفرنسية الى الشفاليه بأن يرتدى الملابس النسوية بل ان الاشاعة هى التى كانت سببا فى اصدار هذا الأمر الذى لم يخضع له ديون الا بعد ذلك بأعوام . وقد ترجع الى بعض خواص فى أخلاق الشفاليه ، وملامحه الناعمة ، وقده الرشيق . على انا لا نعرف الباعث الحقيقى الذى حمل الحكومة الفرنسية على اصدار مثل هذا الأمر ، ولا الباعث الذى حمل الشفاليه على تنفيذه بعد ذلك . وقد نجد هذا الباعث فى أن لويس الخامس عشر رأى ثوب المرأة حجابا يدرأ ما أذيع من الفضائح عن تخنث ديون ونعومته وخلاعته . وهكذا ارتدى ديون ثوب المرأة ، وزاد عدد المعتقدين فى أنوثته شيئا فشيئا ، حتى لم يبق فى أواخر حياته سوى القليل ممن يعتقدون فى رجولته . ومن الغريب أن الاعتقاد فى أنوثته كان قاعدة عامة فى فرنسا ، ولكن الاعتقاد فى رجولته كان قاعدة عامة فى انجلترا .

وعاد « ديون » الى فرنسا اجابة لدعوة الحكومة ولكنه تقدم اليها بثوب رجل ، فأصدر اليه لويس السادس عشر — ملك فرنسا يومئذ — أمره بأن يعود الى ارتداء الثياب النسوية . فرفض ديون الاذعان بادئ بدء ، ولكنه أطاع فى النهاية وظهر فى البلاط فى ثوب امرأة ، يزين صدره بأوسمته ويسمى نفسه «الشفالير ديون» . ولما كانت الشكوك حول هذا الموضوع لم تخمد كلها بعد ، وكان هذا الانقلاب من الذكورة الى الانوثة يثير دعابات وتحديات مرة ، فقد رأت الحكومة أن تحسم الأمر باعتقال الشفاليه حينا فى قلعة ديجون . ثم أطلق سراحه فى سنة ١٧٨٣ فعاد الى انجلترا ، واشتغل بمراسلة البارون دى بريتى وزير الخارجية يومئذ . وفى بدء الثورة ، فى سنة ١٧٩١ ، قدم الى الجمعية الوطنية التماسا بأن يستعيد منصبه فى الجيش ، قائلا إن « قلبه يثور ضد ثيابه الأنثوية » فرفض طلبه فبقى فى انجلترا ، وفقد معاشه

باعتباره مهاجرا . فاضطرته الحاجة الى بيع مكتبته وحلاه ، بل دفعته أخيرا الى أن يستغل الشهرة العجيبة التى اقترنت باسمه ، فنراه فى سنة ١٧٩٥ يفتتح فى لندن مدرسة لتعليم المبارزة و يظهر فيها فى ثوب أمرأة . ثم دهمته الشيخوخة وأمراضها ولم يتلق سوى اعانات ضئيلة من أصدقائه القلائل . وتوفى فى مايو سـنة ١٨١٠ بعد حياة طو يلة حافلة . فشرحت جثته على يد لجنة حضرها الاب اليزيه جراح لو يس الثامن عشر فيما بعد ، وأصدرت اللجنة قرارها « بأن ديون كان رجلا تام الرجولة » . وللشڤالييه ديون مؤلف ضخم فى مسائل عصره السياسـية ، غير انه لم يشر فيه قط الى الدور الغريب الذى ارتضى أن يمثله .

مرجع هذا الفصل

Von Bülau: Geheime Geschichten und räthselhafte Menschen

الفصل الثانى عشر

ڤولتـــير فى صـــورة المحـامى

كالاس — سيرفن — لابار

ســـنة ١٧٦١ — ٦٦

عرف التاريخ ڤولتير ذهنا خارقا، يصول فى معظم ميادين التفكير بقوة و براعة: عرفه فيلسوفا، وكاتبا، وشاعرا، وناقدا . ولكن ثمة صورة شائقة سامية أخرى، للمفكر العظيم، غلبت حينا على هذه الصور، تلك هى صورة المحامى . فقد كان ڤولتير محاميا أيضا، محاميا بكل معانى الكلمة، يحلل النصوص، و يفند القرائن والأدلة ، و يدفع الحجة بالحجة، و يسعى الى نقض الأحكام الجائرة، و إنصاف الأبرياء والمنكو بين .

ولكن ڤولتير لم ير فى النزول الى هذا الميدان إلا سبيلا أخرى لتحقيق الغـاية الانسانيـة الكبرى التى وقف لهـا كل تفكيره و بيانه : كان ڤولتير بطلا لحـرية الاعتقاد والفكر فى عصر هيضت فيه هذه الحرية ولا سيما فى وطنه، وكان قلبه الكبير يضطرم، وهو يشهد غلبـة التعصب الدينى على القضاء الفرنسى، سخطا على هـذا القضاء الكنسى الذى يتنكر فى ثوب العدالة، وكانت له فى أواخر حيـاته الباهرة حملات صارمة على هذا القضاء، وعلى اجراءاته وأحكامه، اشتهرت فى ذلك العصر فى جميع أنحاء أوربا، وهزت جميع القلوب الرحيمة، وأثارت جميع الأذهان المستنيرة، وكان لها أثر فعال فى نقض بعض الأحكام الشهيرة التى صـدرت يومئذ، وصورها ڤولتير ببيـانه الملتهب جرائم شنيعة ارتكبتها أذهان تجيش بحمى التعصب، على قدس العدالة وقدس الضمائر .

وكان ڤولتير يرمى بتلك الحملات النبيـلة المضطرمة الى غاية أبعـد وأجل من الدفاع عن أفراد ينكبهم القضاء باسم الدين ووحيه، هى أن ينصر التسامح و يسحق

التعصب . وكانت له فى ذلك الميدان جولات قلمية من أبدع نفثاته، بين مباحث أخلاقية ونفسية، ومذكرات قضائية، ورسائل لا حصر لها الى كبراء هذا العصر[١].
وكان المفكر العظيم يومئذ شيخا فى العقد السابع من عمره[٢]، ولكن ذهنه الخارق، وقلمه الصارم، وبيانه اللاذع، كانت فى أوجها . وكان صيته يومئذ يدوى فى جميع أرجاء القارة ؛ وكان صوته يهز مجتمعات العصر، وقصوره، وحكوماته . وكان قد طوى شبابه وكهولته فى حياة عاصفة، واغترف ما شاء من منهل اللهو والطرب، وخاض غمار الشهوات والملاذ، وحمله قلمه اللاذع الى الباستيل غير مرة ، وذاق مرارة التشريد والنفى، ولكنه عرف أيضا لذة الظفر الباهر والنفوذ الخارق ، وطاف بلاد القارة وقصورها ، واتصل بكثير من ملوكها وساستها ولا سيما فودريك الأكبر ملك بروسيا ، وكاترين الكبرى قيصرة روسيا ، وغنم عطفهم وثقتهم وتقديرهم؛ ثم استقر أخيرا فى قصره فى « فرنى » على مقربة من جنيڤ ، وعكف على مكاتبة العظماء من ملوك وأمراء وساسة ومفكرين .

وكانت محاربة الدين والتعصب أخص ما يطبع نشاط ڤولتير ونفثات بيانه ، وكان العقل والحرية والتسامح شعاره فى تلك الحرب الشعواء التى شهرها على مجتمع عصره، وعلى تقاليده وتفكيره .

١ — قضية كالاس

ألفى ڤولتير مستقى بديعا لحملاته فى عدة محاكمات وقعت فى فرنسا يومئذ؛ تسربت اليها الأهواء الدينية، فجاءت أمثلة شنيعة للتعصب، والعبث بقدس الضمائر، وقدس العدالة . وكانت قضية الأب كالاس أهم هذه المحاكمات وأشهرها .

---

(١) جمعت هذه المباحث والمذكرات تحت عنوان « السياسة والتشريع » (Politique et Législation.) فى عدة مجلدات ، ومنها رسالة التسامح الشهيرة (Traité sur la Tolérance) ، ثم المذكرات المختلفة المتعلقة بالقضايا التى تناولناها فى هذا الفصل .

(٢) كان مولد ڤولتير فى سنة ١٦٩٤ ، ووفاته فى سنة ١٧٧٨

وقعت حوادث هذه القضية الشهيرة فى تولوز فى سنة ١٧٦١ ، و بطلها أو بالحرى ضحيتها هو چان كالاس وأسرته . وكانت أسرة كالاس قد استقرت فى تولوز منذ نحو أربعين عاما ؛ وأعضاؤها الأب كالاس و زوجه ، وأبناء أربعة هم مارك انتوان أكبر اخوته وكان عندئذ فى التاسعة والعشرين ، و پيير ، ولو يس ، ودونا وهو أصغر الأخوة ، وابنتان إحداهما فى الثامنة عشرة والأخرى فى التاسعة عشرة ، وخادمة عجوز تدعى چانيت . وكانت الأسرة كلها تقيم فى منزل ذى طبقتين ، خصصت العليا منه للسكنى ، وخصص فى السفلى مخزن لحفظ البضائع — لأن الأب كالاس كان يشتغل بتجارة الأقمشة ، و يتصل هذا المخزن بحانوت البيع المشرف على شارع فيلاتييه .

وكان الأب كالاس فى ذلك الحين شيخا فى العقد السابع ، يصفه شهود القضية بأنه مديد القامة ، متين البنية ، جاف الملامح ، و يصفه ڤولتير بأنه شيخ متهدم أشرف على السبعين . وكان قد أثرى و جمع بالكد والاستقامة ثروة حسنة .

وكانت أسرة كالاس بروتستانتية المذهب . وكانت ريح الاضطهاد الدينى قد عادت تهب على فرنسا منذ أن نقض قرار نانت[1] فى سنة ١٦٨٦ . وكان أشدّ ما يقع هذا الاضطهاد فى الجنوب حيثما كانت للبروتستانتيين بقية من العصبية ، فكان زعماء الكثلكة وجنود الملك يطاردونهم و يستحلون دماءهم وأموالهم أينما استطاعوا ، تطبيقا لأمر ملكى صارم يقضى بالأعدام على "كل من ضبط مقيما لشعائر دينية غير شعائر الكثلكة" . وفى وسعك أن تقرأ فصولا رائعة من تلك المطاردة المجرمة فى قصص اسكندر ديما واوچين سو[2] .

ومدينة تولوز مسرح الحادث هى قاعدة ولاية لانجدوك التى عرفت بالتعصب الدينى منذ أقدم العصور . وقد كانت فى غير عصر مسرحا لحروب دينيـة وصليبية

(١) هو القرار الشهير الذى اصدره هنرى الرابع فى سنة ١٥٩٨ و به نال الهوجنوت (البروتستانتيون) حرية الاعتقاد ، وحق التعبد فى الكنائس ، والمساواة بالكاثوليكيين فى وظائف الدولة وكراسى البرلمانات . وقد لبث القرار نافذا حتى نقضه لو يس الرابع عشر .

(٢) مثل Les Massacres du Midi لديما و Fanatiques des Cevennes لسو .

دامية ، وكان أحرار المفكرين والملاحدة يظهرون فيها من آن لآخر ، فيضطرم التعصب ويذكو أواره ، ويكفى أن نذكر هنا أنها كانت حينا موطن الألبيين الذين احتشدوا فى ألبى[1] إحدى قواعدها ، وكان ظهورهم سببا فى اضطرام حرب صليبية هائلة زهقت فيها الأرواح البريئة أعواما طويلة . وكانت تولوز بالأخص مهد الاحقاد الدينية ، ومبعث التعصب ، وروح المطاردة التى كانت تصبغ بالدماء بسائط هذه الولاية بين عصر وآخر . وكانت تحتفل دائما بذكريات الحروب والحوادث التى سالت فيها دماء البروتستانتيين وجرد سيف التعصب : هكذا كانت روح المجتمع الذى وقعت فيه حوادث هذه القضية .

ومما يجدر ذكره أن أسرة كالاس كانت تضم عضوين كاثوليكيين ، هما أولا جانيت الخادمة لأن القانون كان ينص على وجوب استخدام الهوجنوت لخدم من الكاثوليكيين اذا رغبوا فى الاستعانة بالخدم ، وثانيا لويس أحد الأبناء الأربعة ، وكان قد ارتد عن مذهبه الى الكثلكة فنبذته أسرته وهجرها ، ولكن أباه لبث يتكفل بالانفاق عليه ؛ كذا كان دونا أصغر الأبناء الأربعة يشتغل بعيدا عن أسرته فى نيم .

وكان ارتداد الابن عن دين أسرته جرحا عميقا لكبريائها وعزتها يبعث اليها الأسى والشجن ، كذلك كان مارك أنتوان الابن البكر مضطرب الذهن ، كثير الكآبة . وكان يشتغل بالأدب بعد أن أخفق فى نيل الاذن بامتهان المحاماة لأنها كانت يومئذ محرمة على الهوجنوت ، وكان يذاع بأنه ينوى الارتداد أيضا عن دينه ، فكان الجفاء يدب بينه وبين أسرته من آونة لأخرى ، وكثيرا ما يتولاه اليأس .

ففى مساء ١٣ أكتوبر سنة ١٧٦١ وقعت المأساة . وكان صديقا فتيا للأسرة يدعى لاڤيس ، وهو ابن محام شهير من تولوز ، قد عاد فى نفس اليوم من بوردو ، وزار الأسرة وقبل دعوة العشاء معها . فاجتمع الأب كالاس وزوجه ، ومارك أنتوان ، وپيير ، ولاڤيس للعشاء . وأما الابنتان فقد ذهبتا منذ الصباح لزيارة أسرة صديقة فى ضواحى المدينة وأنفقتا الليل هنالك .

(١) أشرنا الى ذلك فى صفحة ١٩ من هذا الكتاب .

ولما انتهى العشاء، انسحب مارك أنتوان واختفى، فلم يهتم بشأنه أحد لما عرف عنه من الكآبة وحب العزلة . واجتمع الباقون للسمر حتى نحو الساعة العاشرة ، ثم أراد لاڤيس الانصراف، فصحبه پيير ليشيعه ومعه مصباح ينير الطريق . فلما وصلا أسفل الدار ، واقتربا من باب المخزن المفتوح رأيا لجأة مارك أنتوان يتمدد فوق الأرض على ظهره، ورأسه عار وفى عنقه رباط أسود، وليس عليه من الثياب سوى القميص والسراويل والحذاء ، أما باقى الثياب فقد نزعت ووضعت منتظمة فوق مائدة هنالك .

فاستغاثا بالأب كالاس، فهرول الشيخ تتبعه زوجه والخادمة، واعتقد الجميع أولا أن مارك أنتوان مغمى عليه فقط ، ولكنهم عبثا حاولوا إعادته الى صوابه ، واستدعى فى الحال طبيب فى الحى ، فجاء على عجل ، وشاهد الجثة بالوضع الذى وصفناه وفحصها، فاذا بالفتى قد فاضت روحه ؛ ولما رفع الرباط الأسود عن العنق ، وهو رباط لم يعتد مارك أنتوان على لبسه ، شاهد فى العنق بقعتين حمراوين مما يلى الأذن ، كأنهما أثرا حبل خنق به الفتى . فعندئذ علا الصياح والأنين ، وكثر الهرج ، وهرول الجيران على الضجة ليروا ما الخبر ، فبرز لهم الأب كالاس ونبأهم بأن ولده مارك أنتوان قد وجد قتيلا منذ بضع دقائق فى المخزن الواقع فى الطبقة السفلى ، وأنه يعتقد أنه ذهب ضحية نفر من الأشقياء .

ولكن هذا الايضاح لم يقنع أحدا ، فكثر الجدل والحدس ، خصوصا لأن أحدا لم يشهد غريبا دخل الدار أو خرج منها ، ولأنه لم توجد آثار كسر ولم ترتكب سرقة ما .

وذهب الناس فى تأويل الحادث مذاهب شتى ، وأذيعت أغرب الروايات والتهم ، وقيل إن مارك أنتوان كان يعتزم اعتناق الكثلكة ، فقتله الفتى لاڤيس ، وغلبت فكرة الجريمة على كل فرض آخر ، واتخذت فى الحال صبغة دينية ، وهاجت الخواطر ، وتصور المتعصبون ، أن الحادث ليس عملا فرديا ، وان البروتستانتيين فى لانجدوك قد اجتمعوا قبل ذلك سرا ، واختاروا لاڤيس جلادا لمارك أنتوان ، وانه قدم الى تولوز خصيصا لتنفيذ القصاص .

* * *

وجاء مأمور الشرطة داڤيد . وكان للمأمور يومئذ اختصاص قاضى التحقيق . فبدأ مباحثه ، واستجوب أعضاء الأسرة ، ونفرا من الجيران ، ولاح له أن أجوبة أعضاء الأسرة مريبة لأنها محفوظة متماثلة ، وانهم يحاولون اخفاء بعض الأمور ، فعهد فى الحال الى أطباء ثلاثة بفحص الجثة ، واقتاد أعضاء الأسرة كلهم والفتى لاڤيس الى دار البلدية ، وبدأ التحقيق معهم فى الحال .

فكانت أجوبة الجميع واحدة أيضا ، وخلاصتها انهم اجتمعوا للعشاء فى نحو الساعة السابعة مع الفتى لاڤيس الذى دعوه مصادفة لتناول الطعام معهم ، فلما انتهى العشاء نهض مارك انتوان ليذهب الى المقهى حسب عادته كل مساء ، ولبث الباقون يتسامرون حتى منتصف الساعة العاشرة ، ثم استأذن لاڤيس فى الانصراف وصحبه بيير ليشيعه الى الشارع وفى يده مصباح للانارة ، فلما وصل الى باب المخزن المشرف على الرواق شاهدا جثة مارك انتوان ممدة على ظهرها كما وصفت .

وشهد الجيران بأنهم سمعوا صراخا وأصواتا تصيح : «آه يارباه ! آه يا أبتاه ! » ، وأنينا ، ووقع أقدام ذاهبة آتيــة مسرعة ، وانهم رأوا الخادمة العجوز تبرز الى عتبة الدار صائحة : « آه يارباه ! لقد قتلوه ! » ولكن الخادمة أنكرت ما نسب اليها .

وثبت من التحقيق ان مارك انتوان كان يرغب فى امتهان المحاماة وهو مالم يكن مباحا إلا للكاثوليك ، وانه كان يفكر أن يحذو حذو أخيه فى الردة ، وانه كان يتردّد على الكنائس ، ونوادى «جماعة التوبة»[1] مما يشعر بقرب ردته ، واذن فقد كان ثمة مجال للفرض بأنه قد حدث منظر عاصف بين الأب كالاس وابنه ، وان الأب فى ثورة غضبه أقدم على قتل ولده اتقاء عار جديد ، وخوفا من أن يرغم على أن يدفع اليه بعد ردته نفقة كأخيه .

وهذا ما افترضه مأمور الشرطة داڤيد .

---

(١) هى جماعات دينية متعصبة كانت تعمل لتأييد الكثلكة والذود عنها ، وكان منها فى لانجدوك فى هذا العهد أربعة ، البيضاء والزرقاء والخضراء والسوداء . وكانت البيضاء أشدها نفوذا فى تولوز .

وفى مساء ١٤ اكتوبر قـدم الأطباء الثلاثة تقريرهم وخلاصـته : « انه من الممكن أن يكون مارك انتوان قد شنق نفسه وان يكون قد شنقه آخرون » .

وفى ١٥ أكتوبر استؤنف التحقيق ، وهنا غير المتهمون أقوالهم الأولى وقرروا « انهـم كذبوا فى الواقع حرصا على شرف الأسرة وضنا بجثة مارك انتوان أن تشرح حسبما تعامل جثث المنتحرين ، وان الحقيقة هى ان المنكود تولاه اليأس من جراء فشله المستمر فى الحياة فشنق نفسـه بنفسه ، وانهم وجدوه مشنوقا » غير ان هـذا الدفاع الجديد لم يفد المتهمين شيئا ، إذ ثبت انه أوحى اليهم به من محاميهم فى خطابات أرسلت اليهم وضبط المحقق بعضها .

هذا الى أن مأمور الشرطة أثبت فساد هذا الدفاع بدحض بعض نقطه المـادية ، فقـد ذكر المتهمون انهم وجدوا مارك انتوان مشـنوقا بحبل ثبت بهراوة من الخشب نصبت على مصراعى البـاب الذى يفصـل بين المخزن والحانوت . فتولى المحقق فحص المكان ، والهراوة ، والباب ، فانتهى أولا الى أن الهراوة لا يمكن لنعومتها واستدارتها وقصرها ، أن تنصب على المصراعين ثم تجذب الى أسفل ؛ وثانيا الى أن الباب يربى ارتفاعه على طول الجثة نحو نصف متر فمن المتعذر أن يرفع المنتحر نفسه حتى الهراوة ليربط عنقه بالحبل إلا باستعمال كرسى أو غيره ، وقـد أقر المتهمون أن القتيل لم يستعن بشىء ، ولم يكن ثمة كرسى أو غيره بمكان الحادث ؛ وثالثا انه يوجد فوق حافة المصراعين غبار كثيف لم تنطبع عليه آثار هراوة علقت ، أو غيرها .

يضاف الى كل ذلك ان ملابس القتيل المنزوعة وجدت منتظمة فوق المـائدة ولا يتصوّر أنه يعمد الى حزمها وتنظيمها قبيل انتحاره ، وان الحادث وقع فى الظلام الدامس ، ثم تناقض المتهمين فى أقوالهم وما سمعه الجيران من صياح وهرج واستغاثة وأنيـن .

* * *

هذا هو ملخص التحقيق وما كشف عنه من قرائن وأدلة ولكن ڤولتير ، يتهم المحقق بالتزييف والتحيز ، ويقول انه رأى فى الحادث فرصـة للظهور والمثوبة ،

فالتجأ الى وسائل واجراءات باطلة، وسلك طريقا مريبـــة، ويدحض، كما سنرى جميع الأدلة والقرائن، بقوّة و براعة .

وكانت لانجدوك قد اهتزت للحادث من أقصاها الى أقصاها ، وجاشت تولوز بكل تعصبها القديم،ونشطت جماعة التو بة البيضاء الى إثارة الشعور الديني،و إذكاء السخط على الهوجنوت، واذاعت ان مارك انتوان قد مات شهيدا لأنه كان يزمع الردة الى الكثلكة، واحتفت بذكراه فى موكب رهيب طاف المدينة، ومثل للقتيل فيه بتابوت كبير أبيض وضع عليه شـعار الشهداء، وهرعت الجموع لمشاهدته من كل فج، واعتبر النـاس مارك انتوان شهيدا وقديسا، وذاعت عنه وعن مصرعه الخوارق والأساطير .

ومما زاد فى اضطرام الخواطر وذكاء التعصب ان المدينة كانت تتأهب عندئذ للاحتفال بذكرى إحدى المذابح الدينيـــة التى زهق فيها الهوجنوت . فبلغ الهياج أقصاه، وجاهر الكافة بأن أفخم ما سيعرض فى هذا الاحتفال هو النطع الذى تزهق عليه أسرة كالاس، وان المدينة ستقود اليه الضحايا بنفسها .

يصيح ڤولتير : «وهذا يقع فى أيامنا أى فى عصر جازت فيه الفلسفة هذا التقدّم، وفى عصر تكتب فيه مائة أكاديمية لكى تعالج صقل الخلال وتهذيبها . ان التعصب الذى يثور لظفر العقل يضطرم على ما يلوح، فى الخفاء، بأشد من ذى قبل» (١) .

هكذا كان أفق تولوز،وقضية كالاس بين يدى القضاء،وهكذا كانت المؤثرات الخطرة تضطرم من حوله، وتتسرب اليه .

و يؤكد ڤولتير، فوق ذلك أن بعض القضـاة الذين نظروا فى القضـية كانوا ينتمون سرا الى جماعة التو بة البيضاء .

تناول القضاء الأمر فى هذا الأفق الخطر بروح مضطرب،ومن حوله صيحات الرأى العام تنادى بالويل والثأر من «قتلة الشهيد» . وفى ١٨ نوفمبر سنة ١٧٦١

(١) فى مقدمة رسالته : Traité sur la Tolérance

قضت محكمة المأمورين باحالة الشيخ كالاس وزوجه وولده بيير على التحقيق العادى وغير العادى بمواجهة الفتى لافيس، والخادمة جانيت . فاستأنف المتهمون هذا القرار، وقدّم محاميهم الأستاذ دى سودر مذكرة قوية بديعة بدفاعه، فلم يغن شيئا، ثم جاء دور برلمان تولوز وهو المحكمة العليا، فانتدب أحد مستشاريه (أعضائه) مقررا للقضية، فارتد الى الريف، وهنالك درس القضية فى هدوء وروية، وفى ٢٨ فبراير سنة ١٧٦٢ قدم الى البرلمان رأيه بالادانة .

وفى ٩ مارس نظر البرلمان فى القضية وفى طلبات النائب العام . وثار بين القضاة، وعددهم ثلاثة عشر، خلاف شديد فى الرأى، وطال الجدل واشتد، وانسحب أحدهم لاقتناعه بالبراءة، ورأى ستة منهم أن يقضى بالاعدام على الأب والأم والابن . ولكن البرلمان قضى أخيرا بادانة الأب كالاس وحده، وباعدامه فوق العجلة[١]، وأحالته قبل ذلك على العذاب ليعترف بأسماء شركائه، وأرجأ الفصل فى أمر باقى المتهمين .

ولكن الأب كالاس احتمل العذاب بشجاعة فائقة وهلك فوق العجلة «وهو يضرع الى الله شاهد براءته أن يصفح عن قضاته»[٢] .

فكان لذلك أثره فى سير القضية، وفى ١٨ مارس أصدر البرلمان حكمه ببراءة باقى المتهمين رغم حماسة الرأى العام ومطالبته بالثأر والقصاص الشامل . ولكنه قضى مع ذلك بنفى بيير كالاس، وهو ما ينتقده ڤولتير، ويراه دليلا على الاضطراب والتناقض إذ يقول : «كان هذا النفى تناقضا صريحا، فاما أن يكون بيير مجرما، وإذن فيجب أن يعدم كأبيه، وإما أن يكون بريئا، وإذن كان واجبا ألا ينفى» .

---

(١) يقول ڤولتير إن حكم الاعدام قد صدر بأغلبية صوت واحد فقط ثم يعلق على ذلك بقوله : «فى كل يوم يبدو ضعف عقلنا ونقص قوانيننا . ولكن أى فرصة يبدو البؤس فيها واضحا بأشد من تلك التى يصدر فيها حكم الاعدام بأغلبية فرد؟ ... لقد كان يجب فى أثينا أن يصوت خمسون فوق النصف لكى يجرأ القضاة على إصدار حكم الاعدام ... ولقد كان اليونانيون أعقل منا وأكثر انسانية» (الرسالة السابقة) .

(٢) ڤولتير .

* * *

كان ڤولتير يقيم يومئذ كما رأيت فى فرنى . وكان فى أوج مجده وسلطانه ونفوذه .

وكانت مأساة تولوز قد ذاعت فى جميع الأنحاء ووصلت الى الفيلسوف الأشهر فى عزلته ، ووقف على تفاصيلها من تاجر بروتستانتى من تولوز عرج عليه ووصف له ما لاقتــه أسرة كالاس من ضروب الاضطهاد والمطاردة ، وما أبداه الشـيخ المحكوم عليه من جلد وبسالة ، وأكد له أن الشيخ برئ من دم ولده ، وأن برلمـان تولوز قد تأثر فى حكمه بوحى رجال الدين وجماعة التوبة البيضاء .

فثارت نفس الفيلسوف لمـا سمع ، وفاض قلبه الكبير سخطا على ذلك القضاء المتعصب ، وتأثر لأولئك الذين اعتـبرهم ضحاياه ، وراعه وهو الذى أنفق حيـاته فى محاربة التعصب أن يكون للتعصب فى كل يوم ضحية ، وأن تتخذ العدالة أداة له ، وأن يغدو القضاة جلادين ، منفذين لأهواء رجال الدين .

ورأى ڤولتير فى حوادث تلك المأساة وظروفها مادة جديدة لنشاطه المضطرم وبيانه الملتهب ، وقلمه الصارم .

فكتب لفوره الى الكردينال دى برنيس (١) يسـتوضحه الحقيقة ، ويعرب له عن تأثره للحادث وريبه فى نزاهة برلمـان تولوز ، فأجابه الكردينال أنه لا يشاطره ذلك الريب ولابد أن البرلمـان قد اقتنع فى إصدار حكمه بأدلة وقرائن معقولة . ثم كتب الى عدّة أصدقاء آخرين يتحرى منهم ويستفسر ، فجاءته الردود مثبطة من كل صوب .

غير أن هــذه البوادر المثبطة لم تثن عزمه ولم تخمــد ذرة من جذوة حماسته ، فمضى فى تحقيق غايته من طريق الدعوة أوّلا ، ولكنه لم يغفل طريق البحث والعمل المنتج ، ومعالجـة الحصول على الأدلة والوثائق قبــل أن يحاول اتخاذ أية خطوة رسمية . فألف فى چنيف لجنة استشارية من بعض أصــدقائه الذين يرون رأيه ويضطرمون بمثل حماسته ، ومنهــم محام نابه يدعى ڤيجوبر ، وعهد اليها بجمع

(١) هو حبر وشاعر فرنسى كبير له مذكرات غريبة (١٧١٥ — ١٧٩٤) .

الوثائق والأدلة . فنشطت اللجنــة الى تنفيذ مهمتها ، وعمدت الى سماع شهادات النفى وتدوينها ، والى جمع صور من أوراق التحقيق ووثائق القضية .

غير أن الدعوة كانت فى الواقع أشدّ مضاء وأنفذ أثرا . وكانت دعوة مضطرمة تفيض قوة وذلاقة ، تشق سبيلها الى القلوب والعواطف شقا ، وتجتاح فى طريقها كل اعتراض ، ومقاومة .



ڤولتـــير

كتب ڤولتــير الى بعض أصــدقائه من أعلام المفكرين والساسة يستنصرهم فى بث دعوته ، وتحقيق غايته ، فكانت رسائله اليهم من روائع بيانه وخالد نفثاته ، وممـا كتب الى دميلاڤيل[1] ، فى ٤ أبريل ١٧٦٢ : « إخوانى الأعزاء : لقد ثبت

(١) كان من موظفى البلاط . وتولى ادارة البريد الملكى حينا وكان بذلك يسهل مراسلات ڤولتير . وكان وثيق الصلات بالفيلسوف وجماعة الكتاب (١٧٢٣ — ٦٨) .

ان قضاة تولوز أعدموا أوفر الناس براءة ، وان لا نجدوك لتضطرم بأسرها روعا وتجيش الأمم الأجنبية التى تبغضنا وتحاربنا سخطا . ولم يشن الطبيعة البشرية منذ القديس بارتلمى[1] بأشد مما شانها ذلك، فصيحوا ، وليصح الناس ! » ثم كتب اليه فى ٨ يوليه : «إن الاجراءات لم تخترع الا لاهلاك الأبرياء، فصح، انى أرجوك واحمل الناس على الصياح، فالصيحة العامة دون سواها كفيلة بانصافنا» . وكتب الى الكونت دارچنتال[2] فى ١١ يونيه : « يا ملائكة السماء : أرتمى حقا عند قدميك وقدمى سيدى الكونت دى شوازيل[3] . ان أرملة كالاس فى باريس تعتزم التماس العدالة ، أفكانت تجرؤ لو كان زوجها جانيا ؟ » . ثم كتب اليه فى ٥ يوليه : « لا نطلب غير ألا تكون العدالة بكماء كما هى عمياء، وأن تفصح ، وأن تقول لماذا حكمت على كالاس . فما أروع أن يصدر حكم سرى ، وقضاء دون أسباب ! وهل أشنع من أن يسفك الدم وفقا للهوى وألا تقدم لذلك أسباب ؟ يقول القضاة : انه ليس بعرف . ولكن أيها الأبالسة يجب أن يغدو ذلك عرفا، ويجب أن تقدموا للناس حسابا عن دم الناس ... ان برلمان تولوز يجب أن يشعر أنه يعتبر جانيا اذا لم يثبت ان آل كالاس هم الجناة» . وكتب اليه أيضا : « ليس لى أمل إلا فى الصيحة العامة ، وانى أعتقد انه يجب على الأستاذين بومون ومالا أن يثيرا الى صفنا جماعة المحامين كلها، وأن تقرع كل الأفواه اذن المستشار بلا ملل ولا انقطاع ، فلنصح دائما فى وجهه : كالاس، كالاس[4] : » .

وكتب الفيلسوف فى نفس الوقت الى جماعة من أصدقائه النبلاء مثل الدوق دانفيل، والدوق دى ريشليو، والكونته ديجمون، يطلب عونهم لدى البلاط .

---

(١) هى المذبحة الشهيرة التى دبرها آل جيز وكاترين دى مديتشى لاهلاك الهوجنوت ، ونفذت فى يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ ، وهو يوم القديس برتلمى .

(٢) سياسى وكاتب . وكان من أعظم أصدقاء فولتير وأشدهم اعجابا به . وكان يومئذ مستشارا فى هيئة التحقيق (١٧٠٠ — ٨٨) .

(٣) رئيس الوزارة فى ذلك العهد .

(٤) فولتير : Correspondance .

بيد أن أشد ما كان يذكى ضرام هذه الدعوة الشعواء التى أثارها الفيلسوف على قضاء تولوز ، هو طائفة من المذكرات القوية الملتهبة ، كتبها عن حوادث القضية على لسان المتهمين ، ولا سيما دونا كالاس الذى استدعاه الى جانبه ليذيع باسمه رسائله ومذكراته عن القضية ، وكانت هذه الرسائل والمذكرات تطبع فى سويسرا ، ويعهد ڤولتير باذاعتها ونشرها فى فرنسا الى أصدقائه كتاب الموسوعة (الانسيكلوبيديين)[1] .

وفى هذه المذكرات يستعرض ڤولتير حوادث القضية ، ويفند ما هنالك من قرائن وأدلة ، فى بيان شائق ، ومنطق قوى . واليك لمحة منها :

يقول ڤولتير : «ان مقتل كالاس الذى ارتكبه حسام العدالة فى تولوز فى ٩ مارس سنة ١٧٦٢ من أغرب الحوادث التى تثير اهتمام عصرنا واهتمام الخلف . وسرعان ما ننسى جمهرة اولئك الأموات الذين زهقوا فى حروب لا نهاية لها ... فحيثما تكافأ الخطر والمزايا ، ذهبت الدهشة بل ضعف الاشفاق ، ولكن لو أُسلم رب أسرة برىء الى براثن الخطأ أو الهوى أو التعصب ، واذا لم يكن للمتهم دفاع غير خلاله ، واذا لم يخاطر المتصرفون فى حياته إلا بالخطأ ، واذا كان لهم أن يقتلوا قضاء دون عقاب ، فعندئذ ترتفع الصيحة العامة ، وكل يخشى على نفسه ...

«نريد أن نعلم ان كان أب وأم قد خنقا ولدهما اغتناما لثواب الله ، واذا كان أخ قد خنق أخاه ، وصديق خنق صديقه» .

ويرى ڤولتير أن مارك أنتوان مات منتحرا ، ويعلل ذلك بقوله : لقد كان الفتى غاضبا لحاله ، مكتئبا ، وكثيرا ما كان يقرأ كتبا عن الانتحار . وقد رآه لاڤيس مساء الحادث ، قبيل العشاء ، غارقا فى تأملاته . فلما انتهى العشاء ، نزل الى أسفل الدار ونفذ عزمه فانتحر بشنق نفسه . ولما نزل لاڤيس وپيير ألفياه على تلك الحال ، فاستدعيا الأب ، وتعاون الجميع فى حل الجثة من الحبل ، ولم يرد الشيخ أن يعلم

---

(١) Les Encyclopédistes ، وهم مثل ديدرو ، ودالمبر ، وهلفاتيوس ، وهولباك ، وجريم ، وكندرسيه .

الناس أن ابنــه قد شنق نفسه ضنا بشرف أسرته أن يلوث، وضنا بجثــة ولده أن تشرح، وكان هذا خطأه الذى ترتب عليه حكم الادانة .

يؤيد ذلك، أن ملابس المنتحر كانت منتظمة، وكذا كان شعره منتظما، ولم يوجد بجسمه جرح ولا خدش ما ، ولم يظهر خدش الأنف والصدر إلا فى دار البلدية، وقد نشأ من نقل الجثة .

رأى القضاء أن ضعف الشيخ لا يمكنه من ارتكاب جرمه بمفرده، واذن فلا بد أن يكون قــد عاونه ولده الثــانى ، والام ، ولافيس والخادمة «وذلك مضحك ، اذ كيف يتصور انســان أن خادمة كاثوليكية ورعة ترضى أن يقتل الهوجنوت فتى ربته لأنه أحب دينها؟ وكيف يتصور انسان أن يجىء لافيس قصدا ليخنق صديقه الذى يجهل ارتداده المزعوم ؟ وكيف تقدم أم حنون على مس ابنها بأذى ؟ وكيف يستطيع الجميع معا خنق شاب قوى دون معركة عنيفة وصياح مزعج، ودون ضربات وخدوش وتمزيق ثياب ؟ [1] »

واذ كانت قد وقعت جريمة، فالجناة جميع المتهمين، واذا كان مارك أنتوان قد خنقه أحد من أسرته، فلا بد أن يكون الجميع قد اشتركوا فى ذلك بلا استثناء للخادمة ولافيس ، فهم جميعا لم يفترقوا لحظة . اما أن يكون الجميع مجرمين أو لا يكون احد منهم . ليس بين الأمرين وسط . وليس فى ظروف الأسرة وماضيها، وليس فى رأفة الأبوين، ولا فى وفاء الصديق ما يؤيد فرض الادانة .

ثم فى أى وقت استطاع الأب أن يشنق ابنــه ؟ لا يمكن أن يكون ذلك قبل العشاء لأنهما أكلا سويا . ولم يكن ذلك أثناء العشاء . ولم يكن أيضا بعد العشاء لأن الأب وباقى الأسرة كانوا فى الطابق الأعلى حينما نزل الولد الى الطابق الأسفل، ثم لمــاذا يشنق الأب ابنه؟ ألكى يعود فيحله من الحبل؟ يا لسخف هذه التهم !

---

(١) فى مقدمة رسالته : Traité sur la Tolérance

ويعلل ڤولتير ما سمعه الجيران من ضجة وصياح ، بأنه أنين الأبوين وبكائهما على ولدهما .

ثم يرمى المحقق بالتحامل ومخالفة الاجراءات ، ويتهم القضاة بأنهم هددوا لاڤيس ، ليحملوه على القول بأنه ترك آل كالاس ليلة الجريمة برهة فقط ، ولكنه آثر التعرض للعذاب والعقاب .

ويحمل ڤولتير على جماعات التوبة حملة صارمة ، ويفضح أعمالهم ودسائسهم . ويدلل على أن نصف القضاة أعضاء فى تلك الجمعية السرية ، ويتساءل فى سخرية : «هل يريد اولئك الاخوة أن تندمج أوربا كلها فى جماعتهم ؟ انه لمنظر بديع أن ترتدى أوربا أردية طويلة واقنعة ثقبت فوق العينين» .

وكتب الفيلسوف يومئذ الى دارچنتال يكشف عن غايته فى سحق هذه الجماعة : « يطربنى أن أفوز فى تلك القضية ، فاخذل بالفوز جماعة التوبة » ، والى دالامبر : « ان المذكرات التى نكتبها عن كالاس لم تكتب إلا لاعداد الاذهان ولأجل أن نسر بالتهكم على البرلمان وجماعة التوبة والتشهير بهما » وكتب اليه أيضا يوصيه بأرملة كالاس التى ذهبت الى باريس تلتمس العدالة : «أحمها ما استطعت أيها الأخ فقد كان زوجها ضحية لجماعة التوبة ، ويهم المجتمع البشرى أن يسحق المتعصبون . أيها الاخوان : فلنصارع النذالة (يريد الدين) حتى النفس الأخير!»

* * *

وهكذا تحول الفيلسوف الأشهر الى محام بارع يقرع الحجة بالحجة ، ويفند الأدلة والقرائن ، بالأدلة والقرائن . بيدان هذه المذكرات القوية الملتهبة لم تكن فى الواقع قطعا من الدفاع القضائى المقنع ، ولم يكن فى تلك الأدلة والقرائن التى برع الفيلسوف فى عرضها وتنسيقها ما يلقى ضوءا جديدا على المأساة ، ولم يكن فيها بالأخص ما يدحض بعض الأدلة المادية التى بنى عليها البرلمان حكمه .

(١) Mémoire de Donat Calas.

ولكن بيانه الساحر، ونقده اللاذع، وأسلوبه المؤثر كانت تسبغ القوة والرجحان على حججه وتدليله .

والواقع أن الفيلسوف كان يعتمد على العاطفة أكثر مما يعتمد على العقل ، وعلى الدعوة أكثر مما يعتمد على الجدل . وكان الرأى العام فى فرنسا، وفى جميع انحاء أوروبا، يتلقى رسائله ومذكراته بشغف ، ولا يعرف من دقائق القضية وخفاياها الا ما عرضه الفيلسوف، ولا ينظر اليها إلا بعينه، فكانت صيحاته المؤثرة تأخذ الأنفس، وتذيب العواطف، وتنفذ الى سويداء القلوب .

ولم يمض بعيد حتى أثمرت هذه الدعوة المضطرمة، واهتز الرأى العام فى فرنسا ، بل فى أوربا بأسرها ؛ وتلقى ڤولتير من فردريك الأكبر ملك بروسيا، وكاترين الكبرى قيصرة روسيا،وغيرهما من العظماء فى انجلترا وهولنده، مبالغ طائلة لانفاقها فى سبيل دعوته ، واذاعة مذكراته ورسائله ، واداء نفقات التحقيقات والشهود والاجراءات .

وهكذا غدت أوربا كلها تعمل مع ڤولتير لنقض حكم البرلمان، واعادة اعتبار[1] كالاس .

واجتاح الفيلسوف بجنانه المضطرم، وبيانه المؤثر، كل منطق وكل حجة، وجعل من حكم قضاة تولوز مشكلة قومية كبرى، وأخذ الرأى يقوى فى كل يوم بوجوب اعادة النظر فى القضية، فأما أن ينقض الحكم أو يؤيد، وبذا وحده تهدأ النفوس والخواطر، ويزول أثر التهم الخطيرة التى وجهها ڤولتير الى برلمان تولوز .

بعث ڤولتير وأصدقاؤه بارملة كالاس الى باريس لتلتمس العدالة، وكانت الدعوة قد مهدت الأفق فلقيت هنالك «ترحابا، وغوثا، ودموعا» وهرع أصدقاء الفيلسوف من كبراء ونبلاء ومفكرين الى نصرتها .

---

(١) نستعمل « اعادة الاعتبار» ترجمة لكلمة réhabilitation، وهى الترجمة التى يستعملها القانون التجارى المصرى للتعبير عن استعادة المفلس لشرفه ومركزه التجارى متى عاد الى الأداء .

وعهد ڤولتير الى جماعة من أعلام المحامين فى باريس منهم دى بومون ولوازو ومار يت، بوضع مذكرات فقهية عن القضية ، نقحها ڤولتير وأسبغ عليها من بيانه قوة وروعة، وقدمت الى مجلس الملك، وهو الهيئة المختصة دون سواها بنقض أحكام البرلمان .

وكتب ڤولتير فى نفس الوقت الى نفر من أصدقائه الكبراء ذوى الكلمة فى البلاط أن يسعوا لدى المستشار دى سان فلورنتان ليساعد فى نقض الحكم .

بل لقد حاول الفيلسوف تأثيرا فى نفس القضاة الذين انتدبوا لفحص القضية وكتب يومئذ الى دار چنتال : « إن القضاة كالسماء فيجب أن يرجى القضاة طويلا وبشدة صباح مساء، من أصدقائهم وأقاربهم، وقسسهم، وخليلاتهم» . ويروى جريم[١] أن لويس الخامس عشر نفسه اهتم بأمر القضية، وأن أحدهم لاحظ أمامه ذات يوم «بأنه يجوز أن يكون برلمان تولوز قد اخطأ، ولكل جواد كبوة» ، فأجابه الملك بهذا القول ، الظريف : « إنه خطأ برلمان بأسره ، لاخطأ قاض بمفرده . وانى أسلم بأن جوادا يكبو، ولكنى لا أسلم بكبوة مربط جياد بأسره» .

وكان ثمة أيضا خصوم أقوياء لفكرة اعادة النظر فى القضية، يقولون، خير أن يهلك بروتستانتى من أن يلحق الخطأ عدة مستشارين، وإن شرف أسرة يجب أن يضحى فى سبيل شرف القضاء . يقول ڤولتير : « ولكن هؤلاء لم يعرفوا أن شرف القضاة كشرف باقى الأفراد، هو فى أن يصلحوا أخطاءهم ... إما أن يكون قضاة تولوز قد حملهم تعصب الكافة ، فأهلكوا رب أسرة برئ وهو ما لا نظير له ، وإما أن رب الأسرة هذا وزوجه، قد خنقا ولديهما بمعونة ولد آخر لهما، وصديق؛ وهو ما ليس فى الطبيعة . وفى هذه وتلك، يكون الاغراق فى الدين قد أسفر عن ارتكاب جريمة كبرى . ومن خير الجنس البشرى أن نبحث عما اذا كان الدين يجب أن يكون بارا أو متوحشا[٢] " .

(١) من كتاب الموسوعة .

(٢) رسالة التسامح .

"لسنا نتهم القضاة فهم لم يقصدوا بلا ريب أن يزهقوا البراءة بسيف العدالة ، ولكنا نرد كل شيء الى الوشاية ، والقرائن الكاذبة ، والعرض الخاطئ ، ثم الى الجهل ، والى تلك الحماسة المضطرمة التى تريد أن ترمى بالاجرام المروع كل من لم يفكر كأصحابها" .

" فليدحضوا القرائن بالقرائن ، والشهادة بالشهادة ، والحدس بالحدس ... ان قضاة تولوز يشرفون أنفسهم ، ويقومون بواجب الاصلاح — اذا استطاعوا — لمصاب يروع اليوم كثيرين منهم . فليهبطوا الى أعماق نفوسهم ، وليتأملوا بأى الدلائل ساروا " .

" ان القضاء يُصور معصوب العين ، ولكن هل يجب أن يكون القضاء أبكم؟ ولماذا ، ما دامت أوربا تطلب الحساب عن هذا الحكم الغريب ، لا يبادر القضاء بتقديمه " [1] .

يقول ڤولتير أيضا : " ولعل المستشار الملكى يذكر قول سلفه ، وهو إن الحقيقة تبرز من سحب الاحتمال ، ولكنها تبرز متأخرة . ودم البراءة يطلب الانتقام ، فيرتد القاضى ليبكى مدى الحياة مصابا لا يمكن أن يصلحه الندم " .

* * *

كان طبيعيا أن تحدث هذه الصيحة القوية أثرها المطلوب .

ففى ٧ مارس سنة ١٧٦٣ ، أعنى لعام فقط من صدور الحكم ، عقد مجلس الدولة فى فرساى ، اجتماعا حضره الوزراء ، وجمهرة من الكبراء والنبلاء ، وتلا عليه مقرر الالتماس تقريرا فياضا عن قضية كالاس ، قرر المجلس على أثر سماعه أن يطلب الى برلمان تولوز أوراق القضية وأسباب الحكم ، ووافق الملك على هذا القرار [2] .

---

(١) مذكرة دونا كالاس .

(٢) يعلق ڤولتير على ذلك بقوله : «واذن فقد كان ثمة انسانية عند الناس وعدالة ، ولا سيما فى مجلس ملك محبوب ويخلق أن يحب » ، والملق يطبع هنا قول الفيلسوف .

وفى مايو سـنة ١٧٦٤ ، أصدرت غرفة الالتماس وهى المحكمة العليا المختصة بقضايا البلاط وما يحيله عليها الملك ، قرارها بقبول الالتماس وذلك بعد أن درست القضية ، وسمعت أقوال الأرملة ، ولافيس ، والعجوز جانيت .

وفى ٩ مارس سنة ١٧٦٥ ، أصدر برلمان باريس حكمه باجماع القضاة ، ببراءة الأسرة ، وإعادة اعتبار الأب كالاس .

ويروى أن ڤولتير بكى فرحا لما أُبلغ النبأ وصاح قائلا : "لقد قضى الرأى العام بذلك الحكم قبل أن يقضى به المجلس بمدّة طويلة" . ويصف الفيلسوف يوم الحكم بقوله : "كان الفرح عاما فى باريس ، واحتشد الناس فى الميادين والحدائق ، وهرعوا لرؤية أسرة منكودة أُنصفت ، وصفقوا للقضاة حين مروا ، وأغدقوا عليهم الهتاف والدعاء . ومما يجعل المنظر أشدّ تأثيرا ، انه وقع فى نفس اليوم الذى هلك فيه الأب كالاس معذبا قبل ذلك بثلاثة أعوام" .

كذلك قررت غرفة الالتماس أن تكتب الى الملك أن يصلح بجوده بؤس الأسرة ، فأجاب الملك بمنح الأسرة من خزانته الخاصة معاشا قدره ثلاثون ألف جنيه[1] ، وثلاثة آلاف أخرى للخادمة العجوز .

وهكذا كان فوز ڤولتير كاملا شاملا .

بيد أن برلمان تولوز لم يرضخ لذلك الحكم ، واعتبره باطلا لا أثر له ، وحظر أن يُعلق فى لوحة أحكامه أو فى دائرته ، ورفض أن يقرر إلغاء حكم الادانة واثبات حكم إعادة الاعتبار . وكان هذا من حقه لأنه لم يكن وفقا للنظام القضائى خاضعا لبرلمان باريس ، بل كان قاضيا أعلى بالنسبة لشئون أقليمه[2] .

---

(١) الجنيه القديم (ليفر) حل محله الفرنك ، وقد كان يختلف فى القيمة باختلاف العصور ، واذن فمعناه هنا الفرنك تقريبا . وقد مر ذكره فى فصول سابقة فيجب أن يفهم بهذا المعنى .

(٢) ذكر الأستاذ هنرى روبر ، انه كان ثمة ضحية لفوز فولتير فى شخص مأمور الشرطة دافيد ، فقد عزل من وظيفته وانتحر على أثر ذلك . وفى أيام الثورة ، أعدم حفيده وآخر ذريته ، لأن الأسطورة اعتبرته مسئولا عن اعدام الأب كالاس .

* * *

لعل اهتمام مجلس الملك وبرلمان باريس باعادة النظر فى هذا الحكم ثم نقضه، يرجع الى اضطرام الحملة الشعواء التى أثارها ڤولتير حول القضية بأكثر مما يرجع الى الرغبة فى إصلاح خطأ لم تنهض على حدوثه فى الواقع، أدلة حاسمة . بل يؤخذ من الجدل المستفيض الذى دار حول هذه المأساة أيام ڤولتير وبعده ان جانب الادانة بالنسبة للأب كالاس أقوى وأرجح . من ذلك ما قرره كاتب وافر النزاهة هو چوزف دى مايستر : «لم يقم دليل قط على براءة كالاس، بل هنالك ألف سبب للشك فى براءته والاعتقاد فى عكسها»[1] . ومنذ عهد قريب نشر الأب سالڤان وهو حفيد لأحد قضاة برلمان تولوز كتابا أيد فيه هذا الرأى بالاستناد الى كثير من الأدلة والوثائق .

وأخيرا وضع العلامة الكبير المسيو هوك المستشار بمحكمة استئناف باريس، والذى كان أستاذا فى كلية الحقوق بتولوز، بحثا فى قضية كالاس انتهى فيه الى ما يأتى : « ليس ثمة ما يدعو الى القول بان برلمان تولوز لم يصب فى حكمه »[2] .

ولكن الفيلسوف الأشهر كان يعمل، كما قدمنا، لغاية أسمى وأعظم، من الظفر بالغاء حكم يعتقد خطأه .

كان ڤولتير يشهر من طريق هذه الدعوة حربه العوان على التعصب، وكان يشهر علم العقل والتسامح الخالد .

٢ — قضية سيرڤن

فى نفس العام الذى وقعت فيه مأساة تولوز، وقعت مأساة مماثلة أخرى فى كاستر.

كان بول سيرڤن سيدا من أهل مقاطعة كاستر، وكان كلڤينيا (بروتستانيا) وكانت له ابنة يافعة، فأغرتها خادمة كاثوليكية بالمنزل، وحملتها الى أسقف كاستر.

(١) فى كتابه : Les Soirées de St. Petersbourg (أمسية بطرسبرج) .

(٢) وقد أورد هذه الآراء الثلاثة الأستاذ هنرى روبر الذى يصف حملات ڤولتير فى هذه القضية « بالمؤامرة » .

ولما علم الأسقف أنها كالفينيــة المذهب أمر بوضعها فى دير، وحملها على اعتناق الكثلكة . وكانت الفتاة تعرض فى الدير للجلد بالسوط ولأشــنع صنوف الارغام ، فما لبثت أن جنت ثم فرت من سجنها . ولم تمض أيام قلائل حتى ألقت بنفسها فى بئر فى الحقول فى قرية تسمى مازاريه فتوفيت منتحرة . ولكن القضــاء حينما ضبط الواقعة لم يقف عند هذا الفرض البسيط . وكان مثل حادث تولوز ما زال فى إبان ضجته وشهرته . وما دام أن قضاء تولوز قد ذهب الى إدانة الشيخ كالاس فى مقتل ولده ، لأنه حاول اعتناق الكثلكة ، فكذلك لا بد أن تكون الحــال مع فتاة سيرفن ولا بد أن تكون أسرة ســيرفن قد قتلت فتاتها غرقا لأنها أيضا اعتنقت الكثلكة ، ولم يكن ثمة فى القضية غير الفروض والحــدس ولم تك ثمة أدلة . بل لقد كانت واقعة كاســتر خالية حتى من تلك الشبه التى اعتبرها برلمــان تولوز أدلة على إدانة كالاس . وكل ما هنالك أن أسرة سيرفن كانت هوجنوتية وهــذا يكفى فى تأييد أى فرض .

قام قضاء كاستر وقعد ، وانتدب طبيبا لفحص الفتاة الغريقة لمعرفة أســباب الوفاة ، فذهب الطبيب الى رأى غريب ، هو ان الفتاة قتلت ضربا وخنقا فى الخارج ثم ألقيت الى البئر بعــد ذلك . وفى الحال أمر القضــاء بالقبض على سيرفن وزوجه وابنتيــه الاخريين . فلما علم ســيرفن بذلك الأمر ، جمع فى الحال أصــدقاءه، وكانوا جميعا يوقنون ببراءته ، فنصحوا اليه بالفرار وألا يعرّض نفســه لشهوة التعصب التى كانت يومئذ تعصف بالعامة والقضاء معا .

وكان الفصل شتاء والبرد قارسا والطريق وعرا تخلله الجبال ، فاضطر الأبرياء أن يخــترقوا الجبال المجللة بالثلوج فرارا من نقمة القضاء المتسرّع . وكانت واحدة من إبنتى سيرفن ، قد تزوّجت منذ عام ، وكانت حاملا فى أواخر أيامها ، فوضعت ولدها فى الطريق ، فوق الثلوج دون عون ودون إســعاف . ثم حملت طفلها وهى نصف ميتة على ذراعيها وسارت به تخترق الجبال مع باقى الأسرة ، وقيض الله نجاة الأبرياء .

وكان أوّل ما علمتــه الأسرة بعد التجائها الى ملاذها الأمين ، أن قضاء كاستر سار فى إجراءات المحاكمة الغيابية وقضى بالاعدام على سيرڤن وزوجته ، وعلى ابنتيه بالنفى المؤبد ، وبمصادرة أملاك الأسرة كلها .

وكان ڤولتير قد بدأ حملته الشهيرة يومئذ على القضاء الفرنسى بسبب قضية تولوز . وكانت فرنى ، مقام الفيلسوف يومئذ ، ملاذ المنكوبين وغوث الأبرياء . وكان أفراد من أسرة كالاس التى نكبها برلمـان تولوز ، قد لجأوا الى فرنى ، وأخذ ڤولتير كما رأينا ، يوجه بأسمائهم الى السلطات العليا والى العظماء والى البلاط مذكرات قوية مؤثرة . فالى فرنى أيضا هبط سيرڤن وأسرته . وألفى الفيلسوف فى قضية كاسـتر مادّة جديدة لنشاطه ، يدعم بهـا حملاته على القضـاء الفرنسى ، ويدلل بهـا خطر المؤثرات الدينيـة التى نفذت الى دور العدالة ، وكادت تجعل منها آلات مسـخرة للكنيسة .

شهر الفيلسوف دعوته أيضا لمناسبة قضية سيرڤن ، وكتب الى أصدقائه فى فرنسا من كتاب وكبراء ومحامين . ولكن الحكم على سيرڤن لم يكن يجوز فيه الطعن أو اعادة النظر أمام برلمـان باريس لانه لم يصدر من برلمـان قضائى ، وانما أصدرته محكمة صغرى ، ولا طعن فيه الا أمام برلمـان تولوز ذاته . وبرلمـان تولوز هو الذى حكم فى قضية كالاس ، وهو الذى ظهرت صلته وثيقة بجماعات التوبة .

ومـا يقوله ڤولتير بهذه المناسبة : « إن هذين الحادثين يرتبطان أشد الارتباط بخير الجنس البشرى ، ولذا رأينا أن نحمل على التعصب الذى أدى اليهما وأن نهاجمه من أساسه . والأمر يتعلق بأسرتين مسكينتين ، ولكن أخس النـاس اذا مات بنفس الداء الذى عصف بالعـالم خلال الاحقاب ، فان موته نذير بأن هـذا السم مازال يسرى ، ويجب على الناس جميعا أن يحذروا . واذا كان ثمة بعض الأطباء ، فعليهم أن يبحثوا عن الدواء الذى يمكن أن يسحق مبادئ الفناء العام » .

٣ — محاكمة الشڤالييه دى لابار

فى سـنة ١٧٦٥، وقعت مأساة أخرى فى ابيڤيل، ذهبت ضحيتها نفس بريئة غضـة .

وكان الدين أيضا مادة لهـذه المأساة، ففى أواخر سـنة ١٧٦٥ اتهم عدّة فتية فى مدينة أبيڤيل بالاعتداء على حرمة الدين ، واشتملت التهمة على واقعتين : الأولى أن أولئك الفتية لم يكشفوا رءوسهم حين التقوا عرضا فى الطريق بموكب دينى ، بل سخروا منه وأنشـدوا أغنية ضد الدين وضد العذراء، والثانية أنهم كسروا صليبا أقيم فوق قنطرة المدينة . ولم ينسب قضاة أبيڤيل الى المتهمين غير هذه الوقائع التى قد لاتعتبر فى عصرنا أعمالا يعاقب عليها القانون ، ولكنها اعتبرت يومئذ جرائم شـنيعة فى حق الدين تستوجب التعـذيب المروع ، وقطع اللسان والأوصـال ، ثم الاعدام .

ولكن الشڤالييه دى لابار هو الذى ذهب وحده من بين اولئك الفتية ضحية ، و باسمه اشتهرت القضية . وكان اعدام هذا الفتى الحدث الغض بعد تعذيبه، مثار الروع فى جميع أور با، وكان مادة جديدة لحملات ڤولتير الصارمة على القضاء الفرنسى الذى كان أثر الكنيسة يتغلغل فيه يومئذ الى الأعماق .

واليك الوقائع : كان الشڤالييه دى لابار ينتمى الى أسرة نبيلة ذهبت ثروتها . وكانت تعنى بتربيته فى حداثته عمة له هى راهبـة دير أبيڤيل . وكان ممن يترددون على الدير للقيام ببعض شؤونه شخص من أبيڤيل يدعى بلڤال . وكان بلڤال يتودد الى الراهبة الحسناء، فكانت ترده عنها بلطف فلا يزداد إلا إزعاجا لها و إرهاقا . ثم جاء الشڤالييه دى لابار ليقيم فى ابيڤيل على مقربة من عمته ، وكان يسكن خارج الدير ، ولكنه كان يغشاه كثيرا مع رفقته لتناول العشاء مع عمته . فلما رأى مضايقة بلڤال لعمته دعاه فى حماسة وشدّة الى التزام الأدب، وأغاظ له فى القول الى حد الاهانة . فثار بلڤال، وأضمر الشر له والانتقام .

وكان قد حدث قبل ذلك بقليل، فى شهر يوليه سنة ١٧٦٥ ، أن طاف بالمدينة موكب دينى ، وأن جماعة من الصبية والفتيان منهم دى لابار ، وصديق له يدعى ديتالوند ، شهدوه عن كثب ولم يرفعوا قبعاتهم ، وكان بلقال يعرف هذه الواقعة ، ويرى فيها سلاحا للانتقام ! وساعدته الظروف بحدوث واقعة أخرى ، وهى أنه يوم ٩ أغسطس من نفس العام لاحظ بعض رجال الدين أن صليبا خشبيا أقيم فوق قنطرة أبيقيل قد شوه وأصابه كسر وتجريح ، واعتقدت السلطات أن الذى ارتكب هذا الجرم هم جماعة من الجند السكارى . فاهتم أسقف المقاطعة بهذا الحادث ، وجاء الى أبيقيل فنظم فيها حول الصليب المشوه موكبا دينيا رهيبا ، وألقى رجاله خطبا ومواعظ عديدة ، زعموا فيها أن هنالك طائفة سرية ملحدة تنظم ارتكاب الجرائم فى حق الدين والآثار المقدسة ، وتحطيم الصور والصلبان أينما استطاعت ، وانها لم تتورع حتى عن سفك دم المؤمنين . فارتاع الناس لهذا الاجتراء ، وثارت الأفكار ، واضطرمت عناصر التعصب ، وتمنى المؤمنون أن يقع أولئك الملاحدة المجرمون فى يد القضاء .

فى هذا الظرف الدقيق وضع بلقال خطته وتفاهم مع بعض خدم الشقاليه السابقين و بعض خصومه ، ثم تقدّم الى المحقق وأبلغه رسميا ما أراد أن ينسبه الى الشقاليه دى لابار .

وفى الحال بدأ التحقيق ، وفى ١٣ أغسطس سنة ١٧٦٥ شهد ستة أشخاص بأنهم رأوا ثلاثة فتية يمرّون على قيد ثلاثين خطوة من الموكب ، هم دى لابار ، وديتالوند ، وموانل ، وان الأوّل والثانى لم يرفعا قبعتيهما ، وان الثالث كان يضع قبعته تحت إبطه ، وشهد البعض أنهم سمعوا من آخرين بأنهم رأوا الشقاليه دى لا بار واضعا قبعته على رأسه حين مرور الموكب ، وشهد آخرون بأن الشقاليه فاه بألفاظ مهينة فى حق تمثال للقديس نيقولا ، وعاب بألفاظ أخرى فى حق العذراء ، أو أنه أنشد مع ديتالوند أغنية تفيض بالالحاد وسب الآلهة والدين .

ولم يعترف الشڤالييه دى لا بار من كل ذلك الا بأنه كان ذات يوم ثملا فأنشد مع ديتالوند أغنيــة لم يعها ولا يذكرها ، وأنه فاه ببعض الألفاظ التى نســبت اليه ولكن لظروف ومعان غير التى زعمها الشهود .

ولكن الرأى العام كان مضــطربا ، متحمسا لمعاقبــة المنتهكين لحرمة الدين ، وكان القضاء يجرى عمله فى أفق يفيض بالشهوات والدعوات المختلفة ، التى يغلب عليها لون الدين ووحى الكنيسة .

ولم يوفق القضاء للقبض على غير الشــڤالييه دى لا بار وزميــله موانل ، وفرّ باقى المتهمين . وكان الشــڤالييه يومئذ فى التاســعة عشرة ، وأما موانل فلم يجاوز الخامسة عشرة ؛ فلم يكونا سوى طفلين كبيرين . ولكن الشڤالييه كان ذهنا جريئا مســتنيرا ، فأشفق على زميله الحــدث وبرأه من كل تهمة ، وارتاع موانل واعترف اعترافا مطلقا وطلب الرأفة والعفو .

وفى ٢٨ فبراير سنة ١٧٦٦ أصدرت محكمة ابيڤيل حكمها المروع على المتهمين . وقلما نجد فى صحف محاكم التحقيق ذاتها مثل هذه الشناعة ، فقد حكمت على الفتى ديتالوند الغائب ، وهو لم يبلغ بعــد الثامنة عشرة من عمره : أولا بأن يقطع لسانه من الجذر بحيث اذا لم يخرجه بنفسه انتزع بقابض من الحديد ، وأن تقطع يده اليمنى عنــد باب الكنيسة الكبرى ، وثانيا أن يقاد بعد ذلك فى موكب ، وأن يوثق الى سارية بسلسلة من الحديد ثم يحرق حيا . ولكن ديتالوند كان غائبا كما قدّمنا لا يعرف مقرّه أحد ، وكان قد فرّ فى الواقع الى خارج فرنسا وكتب القدر له حياة جديدة .

وأما الشڤالييه دى لا بار فقــد حكمت بأن يقطع رأسه قبل إحراق جســده ، وكانت فى هذا رحيمة به . ولكنها قضت مع ذلك بأن يطبق عليه العذاب العادى وغير العادى ، لكى يعترف على شركائه .

وصدر هذا الحكم الفريد فى صحف القضاء الوندلى تطبيقا لقانون صدر فى عهد لويس الرابع عشر يعاقب المنتهكين للدين بقطع اللسان ولكن بعــد العود الى ذلك

عدّة مرات . ويمكن أن تصل عقوبة الاجتراء الفاحش على الدين مما يصل الى حدّ الكفر الى حدّ الموت . ولكن هذا القانون الوحشى الذى صدر لمناسبة قضايا المسممين التى اتهمت فيها لاڤوران ولاڤيجوريه، وبعض القسس كان يشترط لتطبيق عقوبة الاعدام أن يقترن الانتهاك بالتجديف ، ولا يعنى فى الحقيقة إلا بأعمال السحر والاتصال بالشياطين، أعنى بأعمال جنائية تهدّد أمن المجتمع وسلامته، وليس بألفاظ فارغة أو حماقات صبيانية كالتى نسبت الى الشڤالييه دى لابار وشركائه .

وصادق برلمان باريس، وهو المحكمة العليا، على الحكم فى ٤ يونيه سنة ١٧٦٦ بالرغم من أن عشرة من أشهر محامى باريس قدّموا عن الشڤاليه مذكرة ببطلان الاجراءات التى اتخذتها محكمة أبيڤيل ، وبطلان الأسس القانونية التى بنت عليها الحكم .

وعلى ذلك أعيد الشڤالييه الى أبيڤيل لينفذ فيه الحكم . واتخذت السلطات لاجراء التنفيذ أهبة غير عادية، وأرسلت الجلادين من باريس، ووقع التنفيذ فى أوّل يوليه ، فعذب ذلك الفتى الرطب الغض الذى لم يعد طور الحداثة بأشنع ألوان العذاب ، ولكنه صعد بعد أن هشمت أطرافه الى النطع جريئا، ثابتا، مستسلما الى قدره، وهو يقول لقسيسه : «ما كنت أعتقد أنهم يعدمون سيدا فتى لمثل هذه الصغائر» .

كان لهذا الحادث وقع عميق فى فرنسا، وفى أوربا بأسرها . وكان المجتمع الفرنسى، الطروب المستهتر بالحياة ، قد اعتاد أن يشهد أمثال هذه المناظر المروعة جذلا مسحورا ، وأن يحتشد حول نطع الجلاد ليستمرئ صور القسوة والوحشية الانسانية . ولكن إعدام الشڤالييه دى لابار ، وظروف قضيته ، وضآلة تهمه ، وشناعة مصرعه، بعثت اليه شعورا من الرهبة والاشمئزاز، من وسائل قضائه، وثارت فى الحال حملة جديدة على قضاة أبيڤيل الذين سفكوا دم الشڤالييه دى لابار، كالحملة التى ثارت على قضاة تولوز يوم قضوا باعدام الأب كالاس .

وكانت حملات ڤولتير الصارمة على برلمان تولوز وعلى حكمه قد أثمرت ثمرها، فقضى برلمان باريس بنقض الحكم الذى أصدره برلمان تولوز فى قضية كالاس، واقترن هذا الفوز باسم ڤولتير وبذكرى صيحاته قبل كل شىء . وكان ذلك فى نفس العام الذى وقعت فيه قضية الشڤالييه دى لابار، أعنى فى سنة ١٧٦٥!

* * *

انفق ڤولتير أعواما فى حملاته على القضاء والبرلمان والتعصب ، وألفى فى تلك الفواجع القضائية كما رأينا ميدانا خصبا لبيانه ، واصطبغت مباحثه ورسائله فى ذلك الحين بلون الجدل الفقهى . وفى وسعك أن تقرأ فى كثير منها ڤولتير المحامى الى جانب ڤولتير الفيلسوف، وأن تشعر بقوة حجته ، و براعة منطقه ، ودقة شرحه ومقارناته للوقائع والنصوص، وفى وسعك أيضا أن تقرأ مشاعر الفيلسوف الدقيقة ، وآلامه المبرحة، لوقوع الانسانية بين براثن التعصب، وسخطه المضطرم على القوى الخفية أو الظاهرة التى تستغل ايمان المجتمعات وتحركها الاهواء الوضيعة . وقد كان ڤولتير محاميا موفقا كما رأيت، فقد أثار برسائله الملتهبة كل ذهن مستنير فى ذلك العصر، ورمى القضاء الفرنسى بعاصفة من السخط اهتز لها من الأساس .

ولبثت فرنى أعواما طويلة ملاذ المظلومين والمنكوبين . وكان من بين أولئك اللاجئين الى نصرة الفيلسوف وحمايته، الفتى ديتالوند دى موريڤال زميل الشڤالييه دى لابار الذى حكم قضاء ابيڤيل بقطع لسانه ويده كما تقدم، والذى استطاع أن ينجو من تلك الوحشية بالفرار والالتحاق بالجيش البروسى . وكان ڤولتير يثير حملته لمناسبة هذه القضية قبل ذلك بأعوام، ولكنه لم يحرز فى سبيلها فوزا كالذى أحرزه فى قضية كالاس . بيد أنه لم ييأس، وعاد فى سنة ١٧٧٥ أى بعد عشرة أعوام من صدور الحكم، يوجه الى الملك لويس السادس عشر على لسان ديتالوند دى موريڤال، رسالة بليغة ملتهبة عن حوادث هذه القضية، ينعتها « بصيحة الدم البرىء »(١) ،

---

(١) Le Cri du sang innocent.

ويطلب فيها الى الملك أن يعيد النظر فى حكم ابيفيل ، وأن ينقضه مجلســه انصافا للدم المسفوك ، وردا للشرف المثلوم .

ولكن البرلمـان كان يومئذ يشتد فى مناوأة العرش ، وكان لويس السادس عشر يومئــذ فتى ضعيف الارادة ، يســتقبل عهده فاتر العزم كثير الأحجام والتردّد ، فلم يستجب الى دعوة الفيلسوف ، ولم يجرء على مخاصمة البرلمـان .

وتوفى الفيلسوف لأعوام قلائل من ذلك ، فى سنة ١٧٧٨ ، دون أن ينصف الدم المسفوك ، أو يرد الشرف المثلوم ، ودون أن يمحو القضاء الأعلى ما سجله القضاء الأدنى : من تعصب ونذالة ووحشية ، فى محاكمة الشڤالييه دى لابار .

مراجع هـــــذا الفصل

VOLTAIRE : Traité sur la Tolérance à l'occasion de la mort de Jean Calas.

" : Pièces originales concernant la mort des Calas et le jugement rendu à Toulouse, etc.

" : Memoire de Donat Calas.

" : Relation de la mort du chevalier de la Barre.

" : Correspondance.

H. ROBERT : Grands Procès de l'Histoire.

الفصل الثالث عشر

عقد الملكة

سنة ١٧٨٤ — ٨٦

هذه قضية من أعظم قضايا التاريخ ، لا باعتبار موضوعها أو حوادثها ، ولكن باعتبار آثارها ؛ فالنقد الحديث يرى أن حادث عقد الملكة كان ضربة قوية للملوكية الفرنسية فى وقت تكاثفت فيه السحب من حولها ، وعاملا فى إذكاء سخط الشعب وريبه فى وقت كان العرش فيه أحوج ما يكون الى عطف الشعب وثقته ؛ وان ما كشفت عنه هذه القضية الشهيرة من صور الحياة الباذخة الناعمة التى يحياها السادة والأحبار فى الوقت الذى يعانى الشعب فيه آلام الحرمان والجوع ، كان ضربة قوية لهيبة النبلاء ورجال الدين .

وقع حادث العقد قبيل الثورة الفرنسية بثلاثة أعوام فقط ، أعنى فى تلك الآونة العصيبة التى كان فيها ضرام الثورة الخفى يسرى الى جميع الأذهان والعواطف ، فكان ماده جديدة لذلك الضرام ، وكان عاملا جديدا الى جانب عوامل لانهاية لها ، اجتمعت لتعجل بوقوع العاصفة الكبرى التى حملت الملوكية وتراثها ، والمجتمع الرفيع ونعماءه ، ونظم الحياة القديمة كلها .

وكانت الملوكية بريئة منه كما سنرى ؛ ولكنها كانت فى نظر الشعب ، مصدر مصائبه كلها ؛ وكان الشعب ينظر اليها يومئذ بعين المتهم الساخط ؛ وكان ينقم منها لمحة بهائها الأخير ، ولمحة نعمائها الأخيرة ؛ فكانت هى الجانية فى نظره ، وهى المسئولة عن اغراق النبلاء ورجال الدين فى صور بذخ وترف قوامها آلام الشعب وشظفه وبأسائه .

* * *

كانت الملوكية الفرنسية، تجوز فى عهد لويس الخامس عشر مرحلتها الأخيرة، وكانت عوامل ذويها وسقوطها تجتمع حول سياسة هذا الأمير الفاجر المستهتر، وحول بذخه وسفهه واغراقه، وكانت السحب تجتمع بطيئة فى أفق هذه الملوكية الباغية، وذلك البلاط الفاسد، الفياض بالأهواء والشهوات الخطرة، والرذائل والخلال الوضيعة، وذلك المجتمع المرح الأنيق الذى لا يعرف الحياة الناعمة إلا فى شقاء الشعب. ولكن القدر شاء أن يرجئ يوم الحساب الى عهد آخر، وأن يلحق القصاص آخرين، وأن يختتم الملك الفاجر حياته فى مهاد النعماء والعزة، وأن يتلقى ذلك التراث الخطر حفيده لويس السادس عشر وزوجه مارى أنتوانيت.

وكانت غاية السياسة هى التى جمعت بين هذين الأميرين المنكودين، فقد رأى لويس الخامس عشر ووزيره شوازيل أن يسعيا الى محالفة النمسا لتكون عونا لفرنسا على بروسيا، ولم ير الملك الشيخ لتحقيق غايته خيرا من تزويج حفيده وولى عهده من الأميرة مارى انتوانيت ابنة الأمبراطور فرانز الأول والامبراطورة مارى تيريز، وكانت يومئذ فى ربيعها الرابع عشر، وأيد السفير الفرنسى فى ڤينا مشروع مليكه، وبعث اليه ينوه بخلال الأميرة ويقول: "هى أميرة كاملة، سواء فى جمال الخلق والنفس، أو جمال القد والمحيا، بارعة فى الذكاء، ذات ذهن مرح، تتلمس رضى الناس، رقيقة فى مخاطبة الجميع، لها أبدع المزايا التى يمكن أن تحقق سعادة الزوج". وبعث لويس الخامس عشر مصوره الخاص الى ڤينا فنقل اليه عن الأميرة صورة تفيض جمالا وبهاء.

فلم تمض أسابيع حتى أعلنت الخطبة الرسمية، وفى ١٩ أبريل سنة ١٧٧٠، عقد الزواج فى ڤينا بطريق الوكالة، ثم غادرت الأميرة ليومين فقط من زواجها، وطنها القديم، الى وطنها الجديد، فوصل الركب الملكى الى شتراسبورج فى الثامن من مايو، وهنالك استبدلت ثيابها القومية بثياب فرنسية أعدت لها، اتباعا للتقاليد الملوكية، وايذانا باعتناقها جنسية وطنها الجديد.

وفى صباح اليوم التالى سار الركب الملكى الى كنيسة شتراسبورج بين هتاف الشعب، وعزف الموسيقى، وشذى الرياحين والزهر، فاستقبل ولية العهد عند باب الكنيسة الفخمة، مساعد الكردينال الأمير لويس دى روهان، وكان يومئذ فتى، أنيقا، جميلا، ممشوق القدّ، بهيا فى ثوبه البنفسجى الأنيق، وأغدق عليها التهانى والبركة، وخاطبها بقوله : « سوف تكونين بيننا، يا سيدتى، صورة حية لتلك الامبراطورة العزيزة التى تثير إعجاب أوربا منذ بعيد، والتى ستبقى أيضا موضع إعجاب الخلف . ان روح مارى تيريزهى التى ستقترن بروح البوربون » . فاضطربت الأميرة الفتية تأثرا، وبدر من عينها الدمع . « فقد غادرت امها، وربما الى الأبد، وهى ما تزال طفلة . وكانت تعبد أمها التى سهرت على تربيتها بقوة ذكائها، وحنان قلبها، فاذا بهذا الحبر المجهول ذى المحيا الجميل الناصع، يثير أمامها فجأة ذكرى تلك الصورة المبجلة»[1] .

«فمن كان يتصور يومئذ أن جذوة بغضاء خالدة ستضطرم ذات يوم بين ذلك الحبر الأنيق، وتلك الأميرة المحبوبة، كلاهما ضحية لخفايا قضية العقد»[2] .

وتلك هى الحادثة الغريبة التى نحاول أن نشرح خفاياها فى هذا الفصل؛ غير أنا نرى أن نقدّم قبل ذلك صورة صادقة لتلك الأميرة الفتية التى ساقها القدر لتلقى نصيبها من التبعات يوم اقترب الحساب، وذلك الأمير الذى اختاره القدر لاجراء القصاص، وذلك البلاط الذى كان يحيا فى غمر من البغضاء والسخط .

* * *

سارت مارى انتوانيت فى فيض من الهتاف والترحيب والبهاء الى فرساى، وفى ١٦ مايو، احتفل بعقد الزواج بحضور الملك والأمراء، وأكابر البلاط، وتوالت الحفلات والمراقص الشائقة أياما عدّة، ثم دخلت ولية العهد عاصمة ملكها المستقبل،

---

(١) فونك برنتانو فى كتابه : (L'Affaire du Collier)، وهو مؤلف ضخم، يفيض بالمراجع والوثائق الهامة وهو المشار اليه فيما يلى .

(٢) الأستاذ هنرى روبر .

فى ٨ يونيه، فى عاصفة من الحماسة والترحيب والمرح ؛ وكتبت الى أمها تقول : « لا أستطيع يا أماه العزيزة أن أصف لك مظاهر الفرح والعطف التى أغدقت علينا » .

والواقع أن تلك الأميرة الخلابة استطاعت لأول وهلة ، أن تثير بجمالها الرائع ، وظرفها الفياض ، وخلالها الباهرة ، إعجاب ذلك الشعب الفرنسى الذى اعتاد منذ القرون أن يمجد الجمال والبهاء ورقيق الشمائل ، وأن تغنم كل عطفه وحبه ؛ وبدت فى ذلك البلاط المنحل الذى تسيره النسوة الفواجر ، زهرة عطرة تتفتح ، ففتنت رجاله ونساءه ، وبذرت حولها أينما حلت بذور العطف ، والمديح ، والاعجاب .

وقد وصفها الاخان چونكور فى تلك العبارات القوية ، وهى من أبدع ما سطر من صور مارى انتوانيت :

«قلب يثب ، ويستسلم ، ويفيض ؛ وصبية تسير الى الحياة ، مفتوحة الساعدين ، تواقة أن تحب وأن تحب : تلك ولية العهد . كانت تهوى كل الأشياء التى تغذى التأمل وتهديه ، وكل المسرات التى تحدث الفتيات ، وتؤنس الملكات الاحداث : الخلوات البسيطة التى تتفتح فيها الصداقة ، والمحادثات الصافية التى ينساب فيها الذهن ؛ والطبيعة ، وهذه الصديقة ؛ والغابات ؛ وأولئك الخلان ، والمرح ، والأفق حيث يسرح البصر والذهن ؛ والأزهار وحقلها الخالد . ومن غرائب التباين ان كان المرح يحجب نفسها المنفعلة شبه المكتئبة . وانه لمرح متهور ، خفيف ، مضطرم ، يغدو ويروح ، فيملأ قرساى حركة وحياة ؛ أجل ، حركة ، وسذاجة ، وثمول ، وتفتح ، ولعب : كانت ولية العهد ، تسير فتنثر من حولها ، ضجة ظرفها الفياض . وكان الشباب ، والصبا ، وكل شىء يمثل فيها ليسحر ، ويقتحم الرسوم ؛ وكل شىء خلاب فى تلك الأميرة ، التى يمكن أن يقال انها كانت أبدع وأسمى مثل للعبادة ، من بين نساء القصور جميعاً[1] . »

---

(١) ادمون وچول چونكور : Hist de Marie Antoinette . وهى مما أورده فونك برنتانو فى كتابه .

غير أن ولية العهد كانت طفلة . وكانت تبسم للحياة من أى النواحى، ولا ترى فيها غير اجتناء المسرات، وكانت بطبيعتها وثابة الى اللهو، نزاعة الى المرح . وكانت ظروف البلاط الذى حلت فيه، وما يغلب عليه من الأهواء، وما يسرى اليه من الانحلال، وما يغرق فيه من البذخ والدعة، مما يفسح لها مجال هذه الحياة البهجة . ولكن الحقيقة أن الخطر كان يجسم تحت هذا الطلاء الخلاب؛ وكانت ولية العهد تثير بمرحها وخفتها ولعبها، عاصفة من النقد والوشاية؛ وكان الافتراء من حولها يعمل فى الخفاء لتقويض كل ما غنمته من حب وعطف .

وكانت الأمبراطورة قد بعثت الى جانب ابنتها بسفير ماهر وسياسى بارع، هو الكونت دى ميرسى ارجنتو، ليسهر على تصرفاتها، ويوجه خطاها، ويزودها بنصحه، ويبلغ عن نقائصها وأخطائها . وكان هذا السياسى المستنير يؤدى مهمته بمنتهى الدقة والأمانة، ويسجل تباعا مباحثه وملاحظاته عن أحوال البلاط الفرنسى وسياسته، وعن حياة مارى انتوانيت وتصرفاتها وما يحدق بها من الأخطار . ومذكراته ورسائله من أهم الوثائق السياسية المتعلقة بتاريخ هذا العصر، ومن أصدق الصور المتعلقة بالمراحل الأولى من حياة مارى انتوانيت فى البلاط الفرنسى [١] . وكان الكونت ميرسى يقاوم ما استطاع طيش الأميرة وخفتها، وينبئ الأمبراطورة بكل ما يبدر منها . وكانت الأمبراطورة تجزع لهذه الحماقة، وتخشى عواقبها، فكتبت الى ابنتها مرارا تؤنبها وتنصحها، ومما كتبت اليها ذات مرة : «يقولون انك بدأت تُضحكين الناس منك، وانك تضحكين فى وجوه الناس، وهو خطأ شنيع قد يثير الشك فى طيبة قلبك؛ وهذه النقيصة يابنية فى أميرة، ليست من الهينات» .

---

(١) لم تنشر هذه الوثائق الا فى أواخر القرن الماضى، وقد نشرت بهذا العنوان (Correspondance entre Marie Thèrése et Mercy-Argenteau) . كذلك نشرت مجموعة لمراسلات الكونت ميرسى ارجنتو والأمبراطور يوسف الثانى . وقد كان لاذاعة هذه الوثائق أثر فى تطور النقد التاريخى الخاص بهذا العصر . وسنقتبس منها هنا ما يقتضيه المقام نقلا عما أورده منها فونك برنتانو فى كتابه «قضية العقد»، وكذلك دى نولهاك فى كتابه «الملكة مارى انتوانيت» .

غير أن مارى انتوانيت لم تصغ الى نقد أو نصح وكانت نزعاتها تحملها دائما . وكانت أبدا تضطرم بحمى اللهو ، فكانت تنفق معظم أوقاتها فى تنظيم الحفلات وأعدادها، وفى الرقص، والمسرح، والصيد . وكان يتبعها أينما سارت جماعة من الفتية الظرفاء، الذين فتنتهم بسحرها، يفتنون فى ملقها وارضائها، وتحقيق أهوائها ؛ وعلى رأس هذه الجماعة المرحة الكونت دارتوا شقيق ولى العهد . أما ولى العهد نفسه، فكان ينظر الى حركات زوجه ساكنا، لا يستطيع كبح جماحها .

وسرعان ما وجدت الوشاية، والاتهام، والقذف، سبيلها فى بلاط يموج بالرذيلة والفساد؛ وسرعان ما انطلقت الألسن خفية بالطعن فى سير ولية العهد، وفى خلالها، بل فى شرفها وعفافها . وكانت الفتاة البريئة، المعتزة بخلالها وشرفها، الواثقة من نقائها وطهارة نفسها، تحتقر هذا الدس الدنىء، وتسير فى طريقها لا تقف عند نقد أو وشاية ، ولم تدر ان القذف سيغدو يوما أخطر سلاح فى يد خصومها ، وخصوم العرش .

٢

انفقت مارى انتوانيت ولية للعهد زهاء ثلاثة أعوام . ثم توفى الملك الشيخ لويس الخامس عشر فى أبريل سنة ١٧٧٤ ، وتنفست فرنسا الصعداء لذهاب هذا الملك الفاجر، وانقضاء عهده الفياض بالمخازى والمفاسد؛ وهرع الشعب المضنى يحيى العهد الجديد مستبشرا .

وأقبلت مارى انتوانيت تعانق زوجها الملك ، وتقول والدمع يجول فى عينها : « احفظنا واحمنا يا رباه فانا نتولى الحكم حدثين جدا ! » .

وقد كانا حدثين فى الواقع ، فقد كان لويس السادس عشر فى العشرين من عمره، وكانت مارى انتوانيت فى الثامنة عشرة فقط : اختارهما القدر ليرثا ملكا مثقلا بالتبعات؛ تبعات قرن بأسره . ولكن الملكة الفتية، كانت تستقبل الملك فرحة باسمة، فلم تمض أيام قلائل على جلوسها حتى كتبت الى أمها : « لا يسعنى

وان نشأت فى نفس المكانة التى أشغلها اليوم، إلا أن أعجب بتصرف القدر الذى اختارنى، أنا أخرى ولدك ، لأجمل عرش فى أوربا » ، فأجابتها الأمبراطورة : «أنتما فتيان جدا ، ياولدى العزيزين، والعبء فادح، وانى لأجزع، أجزع جدا» .

ولكن الملك لم يغير شيئا من نفسها الوثابة ، ولم يخمد ظمأها للحياة المضطرمة . بل كان الملك ميدانا جديدا لنزعاتها .

« كانت الملكة الفتية تحب الحياة والمرح واللهو، كما يحبها ، وكما أحبها الشباب والجمال دائما[1] » .

كانت الحفلات، والمراقص، ونزه الصيد تتعاقب .

وكانت الملكة تنظر الى شئون العرش، ورسومه، بخفة وبساطة ، ولا ترى منها غير السلطان والرياسة ، وكان أهم ما يشغلها، تنظيم الحفلات التى برعت فى ابتكارها وتنسيقها، واقتناء الازياء الفاخرة، واصطفاء الأصدقاء ، وأقصاء الأعداء. وكانت أبدا تشغف باللهو، والمقامرة، والسمر. وكان رفاق لهوها وانسها جماعة من الأمراء زعيمها دائما الكونت دارتوا والدوق دى شارتر، وجماعة من العقائل فى مقدمتها الأميرة دى جمنيه التى غدت مربية لأولادها فيما بعد، والمركيزة دى بولنياك التى عينتها فيما بعد محافظة لولى العهد ، والأميرة الحسناء دى لامبال، وكانت تنفق أوقاتها بين هاتين الجماعتين اللتين تتنافسان فى كسب ودها ، وتحقيق أهوائها .

كتب ميرسى الى الأمبراطورة يصف ذلك بقوله : « ان الملكة تتأثر بوحى الكونت دارتوا والدوق دى شارتر، وهما آفة كل اضطراب، ونكبة هذا البلاط. بل ثمة ما هو أدهى، وهوان الملك، إما ضعفا أو مجاملة، يسيغ هذا الاضطراب على ما يظهر، ولا سيما ما تعلق بأمر المقامرة والسباق، والمراقص المحجبة . وهذا مما يتعذر بل يستحيل معه معالجة الداء » .

(١) الأخان جونكور .

ثم الإسراف، بل تبـديد الأموال بلا حساب ولا وازع . كانت فرنسا تجوز أزمة اقتصادية هائلة ، وكانت مواردها قد نضبت ، وكان الشـعب ينوء بالضرائب والمغارم الفادحة . ولكن البلاط كان رغم ذلك يمعن فى الاسراف والتبذير. وكانت مارى انتوانيت تقدّم فى ذلك أسوأ مثل ، فقد كانت ، فضـلا عن اقامة الحفلات



الملكة مارى انتوانيت

الباذخة المتصـلة ، تغـرق فى اقتناء الحلى والأزياء الغاليـة ، والجياد المطهمة ، وفى المقامرة ، وكانت تذهب فى ذلك الى حدّ الاستدانة[1] ، وكان ذلك مثارا لعاصفة

---

(١) فى سنة ١٧٧٧ بلغت ديون الملكة الشـخصية زهاء نصف مليون ليفر (فرنك) دفعها الملك من ماله الخاص . وكانت نفقات الثياب فى سنة ٨٣ ؛ ١٩٩ ألف ليفر ، فبلغت فى سـنة ٨٥ ؛ ٢٥٢ ألفا (دى نولهـاك) .

من النقد والقــذف ، حتى ان اسم الملكة ردّد فى قضية اتهمت فيها سيدة باغتيال مبالغ طائلة بطريق النصب ، وزعمت أنها كانت تقترض هذا المــال بأمر الملكة ولحسابها وقدّمت وثائق زائفــة . يقول دى نولهــاك : « فهــل كانت تلق مثل هــذه المرأة ترحيبا من المصــارف اذا لم تكن مارى انتوانيت عرفت بالإسراف؟ لقــد أثار الحادث اهتمام الرأى العام، وقدم مادة للقــذف، ومهد الســبيل لمسألة العقــد »[1] .

وكانت نفقات الملكة، وبذخها، وإسرافها، أخطر ما يصيب هيبتها ومكانتها، وأخطر ما يذكى السخط على البلاط والعرش. وكانت الملكة ترتكب هذا الاسراف المثير فى وقت عزت فيه الأقوات والمؤن، وأقيمت المظاهرات طلبا للخبز . وكان واجب الملوكية أن تكون فى الأزمات قدوة، وأن تضرب المثل فى الاعتــدال والقناعة . وكان الكونت ميرسى ينوه للامبراطورة بخطر هذه السياسة من وقت الى آخر، ومما كتب اليها : « يوجد ثمــة من بين الأمور الذائعــة، أمر يلوح أنه أخطرها وأدعاها للأسف، وخطره فى أنه بطبيعته يؤثر فى جميع الطبقات، والكافة بالأخص، ووجه الأســف فيه هو أنه متى جرد من الكذب والمبالغات التى لا بدّ منها، يقوم مع ذلك على بعض الوقائع الثابتة ، فالرأى العام يضج جهارا بأن الملكة تبذل نفقات هائلة، وهذه الصيحة لا يمكن إلا أن تشتدّ اذا لم تأخذ الملكة عاجلا بسنة الاعتدال فى هذا الشان » . وكتب الكونت دى لامارك سفير السويد يومئذ الى مليكه : « ان الملكة تذهب بلا انقطاع الى الأوبرا، والى مسرح الكوميدى، وتقترض ديونا ، وتثير قضايا، وتسرف فى الريش[2] والأزياء؛ وتهزأ بكل شىء » .

وقد لاحظ الأمبراطور يوسف الثانى أخو مارى انتوانيت، حيـن زيارته لفرنسا ما يسود البلاط الفرنسى من اضطراب وفساد ، وساءه أن تخوض أختــه

---

(١) دى نولهــاك فى كتابه : (La Reine Marie-Antoinette)، وهو دراسة بديعة قيمة .

(٢) اشتهرت مارى انتوانيت بولعها فى اقتناء الريش الغالى . وكان ثمن الريشة الواحدة يبلغ أحيانا خمسين لوى (ألف ومائتا فرنك) .

الفتية هذه الغمار الخطرة، وان تغرق فى تلك الملاهى والحفلات الباذخة، فألحى عليها باللوم والنصح، وحذرها أن تخالف واجبها كملكة وزوجة، وترك لها بيانا مكتوبا بنصحه . فمالت الملكة الى شيء من الاعتدال ، وقللت نوعا من الحفلات والزيارات والاجتماعات ، وأخذت تبدى بعض الرفق نحو الكبراء . بيد أن هذا الانقلاب كان سطحيا، وكان مؤقتا، فما لبثت الملكة الفتية ان عادت الى سيرتها تهزأ بكل نصح وارشاد، بل لم تصغ الى صيحة أمها : « انى أرتجف لمستقبلك ! » .

ثم شهوة الحكم ! والاصطفاء ! كانت مارى انتوانيت تضطرم بشهوة الحكم والرياسة، وكانت تجد فى زوجها الوديع الهادئ خير أداة لتحقيق أهوائها . وكان تدخلها فى الحكم على هـذا النحو أشـدّ ما يهدّد سلامة العرش، ويضاعف ذنوبه وتبعاته، لأن الظروف الدقيقـة التى كانت تجوزها فرنسا يومئـذ ، كانت تتطلب الاصلاح العاجل؛ ولا إصـلاح إلا بالعمل الحكيم المنزه عن الهوى، والدرس الرزين الهادئ : ولكن كيف يستطيع السياسى المخلص، أو المصلح النابه، إصلاحا اذا اصـطدمت جهوده بنزعات وأهواء لا نهاية لها ؟ واذا لم يكن له من استقلال الرأى ونفاذه ما يكفى لتحقيق برنامجه؟ هكذا كان شأن الوزراء المصلحين فى حكومة لويس السادس عشر : كان تيرجو وزير الاصلاح المستنير يتأهب لتنفيذ برنامجه فى الاقتصاد، نخشى البلاط عاقبة سياسة تقضى بالاعتدال وضبط الأموال العامة، وتدخلت الملكة وناصبت الوزير المصلح العـداء ، ولا زالت به حتى عزل قبـل أن يحقق شيئا من برنامجه [1] ، وفى ذلك يقول ميرسى للامبراطورة : « لقـد أرادت الملكة أن يُزج تيرجو الى الباستيل، ولم تهدأ ثورة نفسها إلا بعد جهد ... والشعب لا يجهل ان ارادة الملكة ماثلة فى كل ما يقع، وانها تحققها بارغام الملك . وقد كان تيرجو مشهورا بالأمانة، محبوبا من الشعب، فمن الأسف أن يرجع عزله من بعض الوجوه الى عمل الملكة، وهذه البوادر الضارة بهيبة الملكة قـد تعرضها يوما الى لوم حق من جانب زوجها الملك بل من جانب الأمة كلها » .

---

(١) عين تيرجو وزيرا للمالية سنة ١٧٧٤ وعزل فى سنة ١٧٧٦

ويقول دى نولهاك : « ولعل أخطر ما ارتكبته مارى انتوانيت فى حياتها الملكية هو عملها لاسقاط الوزير المصلح، وقد كان بوسعه أن يلطف الثورة، وان ينقذ الملوكية[١] » .

وكتبت مارى تيريزالى ميرسى : « انى أصارحك بأنى لا أرغب فى أن يكون لابنتى نفوذ حاسم فى الشئون . فهى ما زالت فتية، وما زالت طائشة لا علم لها بشئون الحياة، ولهذا أعتقد انها لا تستطيع أن تحكم مملكة مضطربة كفرنسا، ولئن تفاقمت هذه الحال، فانى أود أن يسئل عن ذلك وزير وألا تسئل ابنتى، وأن تقع التبعة على آخرين...» وكتبت الى ابنتها : «ان الرأى العام لم يعد يذكرك بالمديح والحسنى، بل غدا ينسب اليك كثيرا من الصغائر التى لا تليق بمكانتك » .

كذلك دفعت مارى انتوانيت سياسة الاصطفاء الى حدود خطرة . فوهبت مناصب البلاط والدولة لجماعة من العاجزين ، وحققت فى ذلك اهواء المقربين والمداهنين ، وأغدقت عطفها بالأخص على آل بولنياك إرضاء لصديقتها وصفيتها المركيزه دى بولنياك، وكانت مارى انتوانيت تؤثر المركيزة بكثير من الحب والعطف، فجاء يوم أسرفت فيه المركيزة فى استغلال مركزها، فعينت هى محافظة لولى العهد ، واستولى آلها على كثير من المناصب الكبرى، وحققت لغيرها من الأصفياء مطامع واهواء، ورأت الملكة اهواء المقربين تختلط بارادتها وتشاطرها ادارة الشئون والحكم، ولم تدرك إلا بعد فوات الوقت ما ترتب على سياسة الاصطفاء من ضعف خطر، وما أثارت حولها من سخط واحقاد .

* * *

هكذا كانت الملكة الفتية التى تبوأت عرش فرنسا، والسحب تحدق به من كل صوب .

ولويس السادس عشر؟ لم يكن رجل الموقف . كان ذلك الأمير الضعيف المتردّد تحمله اهواء زوجه القوية المضطرمة ، فيترك حبلها على الغارب ، ويضحى

(١) « الملكة مارى انتوانيت »

فى سبيل هنائه الزوجى بكل رأى حكيم وكل نزعة الى الاصلاح؛ أجل، كان لويس السادس عشر يضطرم رغبة فى الاصلاح ؛ وكان يحب شعبه، ويتأثر لآلامه ، ويضمر له أصدق العواطف والنيات . ولكن العزم لم يكن قرين هذا الاخلاص، وكان كل ما فى ذلك البلاط الفياض بالأثرة والهوى يغلب الملك الضعيف على أمره .

كان شخصية ضئيلة، نشطا، ولكن فى الصغائر، يؤثر العزلة، ويجانب الرسوم ما استطاع، ويقضى ساعات طويلة فى أعمال الحدادة والبناء التى كان مولعا بها، ولم يكن يحيط بشخصه أو بخلاله أو عاداته شىء من هيبة الامارة واناقتها، بل كان التناقض والخشونة والاضطراب غالبة عليه ماثلة فى صفاته .

هـذا على قول دى نولهاك، ما تعـرفه فرنسا عن ملكها، وهكذا كانت مارى انتوانيت ترى زوجها ، فلا الأمة ولا الزوجة تريان فيه ذلك البهاء الذى يزين الملك والزوج، ولهذا تأسى فرنسا، وتبسم الملكة .

« ان الملك هو للأمة شخصية قوتها ومجدها، وهو رمز العدالة والحق الالهى، وهو الوالد والسيد . وهو للملكة الزوج؛ وانه لعبء ساحق لرجل ضئيل أن يمثل تلك الهيبة المزدوجة إزاء زوجة وأمة ...

ثم يقول فى نوع من التهكم : «ولكن كيف يقال انه ملك لا خلال له ؟ ألم يك ذا شعور بالواجب يعجب الكل به ؟ ألم يك مجدا، يدرس بنفسه كل الوثائق الهامة، ويقف على الشئون من وزرائه، ويقضى فى مكتبه ساعات طويلة ؛ وهل نستطيع أن نقسو فى مؤاخذة ملك مخلص عن ضعفه الطارئ أو عن تردده[1] ؟ » .

واليك ما يلخص به تيير صورة هذه الملوكية المضطربة المتناقضة : « كان الملك معتدلا، عادلا نشطا يحب الشعب، ويهتم بظلاماته؛ ومع ذلك فقد كانت تصيبه نوبات رعب ووهم، فيعتقد أن الفوضى تسير الى جانب الحرية ، والالحاد الى جانب التسامح .

---

(١) « الملكة مارى انتوانيت » .

«كان لويس السادس عشر يرتضى لنفسه كل تضحية ولا يجد السبيل لفرضها على غيره . كان فريسة تهاونه فى البلاط ، وخضوعه للملكة ، فكفر بذلك عن جميع الاخطاء التى لم يرتكبها ، ولكنه ارتضى أن ترتكب .

أما الملكة فكانت تغرق فى اللهو ، وتستمرئ من حولها سلطان سحرها ، وتطلب أن يلزم زوجها السكينة ، وأن تفيض الخزائن ، وأن يعبدها البلاط والشعب . وكانت أحيانا توافق الملك فى إجراء الاصلاح ، فاذا اعتقدت ان السلطة فى خطر ، وان أصدقاءها نزعوا مغانمهم ، وقفت فى وجه الملك ، وأقصت الوزراء والشعب ، وهدمت كل وسيلة وكل أمل فى سبيل الخير»[1] .

بل لقد اعتقد الشعب أخيرا ان هذه الملكة التى استبشر بقدومها ، وأغدق عليها حبه ، غدت أداة للسياسة النمسوية ، لا تحجم عن تضحية فرنسا ومصالحها القومية فى سبيل وطنها القديم . وهذا قول يلقى عليه النقد الحديث كثيرا من الضياء ، وتؤيده مذكرات الكونت ميرسى أرجنتو ، وغيرها من الوثائق السرية التى نشرت فى العهد الأخير . وقد ظهر أثر تدخل مارى انتوانيت لتأييد النمسا بالأخص فى مسألتين ، الأولى مسألة العرش الباڤارى ، فقد ادعاه يوسف الثانى عقب موت المختار ، ونشبت من أجله الحرب بين النمسا وألمانيا ، وأبت السياسة الفرنسية أن تؤيد النمسا فى هذا المأزق فرأت مارى تيريز أن تلجأ الى عون ابنتها رغم اقتناعها بخطر هذا التدخل على مركزها ، ورأت مارى انتوانيت انها أمل أسرتها ، وأصغت الى نصح ميرسى ، وتدخلت فى الأمر بحماسة ، وحاولت مرارا أن تدفع حكومة ڤرساى الى تأييد النمسا ، وغضبت على وزير الخارجية ڤرچان لأنه قاوم سعيها . والثانية مسألة هولندا ، فقد ادعى يوسف الثانى أيضا ملكية بعض أراضيها ، فسعت مارى انتوانيت الى حمل حكومة ڤرساى على تأييده ، وتدخلت فى توجيه السياسة الفرنسية لمصلحته ، وأرهقت لويس السادس عشر ووزرائه بهذا التدخل ، ولبثت حينا تكشف لأخيها الأمبراطور أسرار السياسة

(١) تيير : Hist. de la Révolution Française

الفرنسية . وكانت مارى انتوانيت تقدّم بذلك أقطع حجة على أنها لا تتأخر عن تضحية مصالح فرنسا القومية فى سبيل وطنها وأسرتها ؛ وكانت بذلك تغامر بكل ثقة فى إخلاصها وصدق نياتها .

وبذلك جنت مارى تيريز على مستقبل ابنتها شر جناية ، ولقبت مارى انتوانيت من ذلك الحين « بالنمسوية ! » ، وهو لقب مشئوم لحقها حتى يوم الحساب الأكبر .

٣

عرش تحيط به السحب ، ولكن يكسوه البهاء الخلب ؛ وملكة فتية ساحرة ، ولكن طائشة تغرق فى اللهو والبذخ ؛ وملك وديع مخلص ، ولكن ضعيف عاجز ؛ وبلاط فاسد يموج بالرذيلة والهوى ؛ وشعب بائس مضنى يرجو الخلاص : هكذا كانت فرنسا يوم وقع حادث العقد فى سنة ١٧٨٥

وقد اقترن هذا الحادث الشهير فى التاريخ ، باسم مارى انتوانيت والكردينال دى روهان ، ولم يقترن باسم الجناة ، لأن شخصية الجناة لم تكن شيئا الى جانب ما لحق الملوكية من آثار الجريمة ، ولأن ذلك الحبر الكبير كان لها ضحية ، بل كان لها برغمه بطلا .

كان آل روهان منذ قرون فرعا بارزا فى دوحة النبل ، وهم سلائل إحدى الأسر الملوكية الفرنسية . وكان عميدهم فى العصر الذى نتحدث عنه البرنس لويس دى روهان . ولد فى سنة ١٧٣٤ وتلقى تربية حسنة ، ونشأ ذكيا نابها . ولكنه نشأ أيضا ، كما ينشأ أبناء الرفاهة والترف ، كثير الأهواء ، وافر المرح والبذخ ، شديد الاسراف والجود ، سهل الانقياد والخديعة ؛ ثم دخل الحياة من بابها الذهبى ، وحملته ثروته ، ومكانة أسرته ، وجمال طلعته ، ورقة خلاله ، الى المراكز الرفيعة وكانت يومئذ وقفا على ذوى الجاه والمال والحسب ، فعين فى السادسة والعشرين ، أسقفا مساعدا لشتراسبورج ، وفى السابعة والعشرين انتخب عضوا فى الأكاديمية ، ثم عين سفيرا لفرنسا فى النمسا وهو فى الرابعة والثلاثين .

وصل روهان الى ڤينا فى أوائل سنة ١٧٧٢ ، واستأنف هنالك حياة البذخ الطائل ؛ وكان يقيم فى قصر فخم على ضفة الدانوب ، وينفق أيامه فى تنظيم الحفلات والاستقبالات الباهرة ، واقامة المآدب والمراقص الشائقة ، فغص قصره بأكابر النبلاء والعقائل من كل صوب ، وذاع صدى بذخه وروعة حفلاته فى كل مكان ، وذاعت بالأخص سيرة خفته وطيشه ، واستهتاره برسوم منصبه ووقار مكانته الدينية ، وسرعان ما غضبت مارى تيريز لمسلكه ، وكتبت الى ميرسى أرچنتو : « ان السفير روهان يفيض سخفا ، وقلما يتفق مسلكه مع صفته كحبر ووزير ؛ فهو يتخبط فى كل أمر ، ولا يلم بالشئون ، ولا يفوز بقدر لائق من الكفاية ؛ ثم هو كثير الخفة والتناقض . كذا تحيط به بطانة لا قدر لها ولا خلاق » .

ولبثت الامبراطورة تتحين الفرص لاقصاء هذا الحبر المتهتك الذى « يفسد أخلاق أشرافها ونساء مملكتها » ببذخه ومجونه ؛ وكتبت الى ميرسى تحثه على العمل لاستدعائه ؛ فلم تمض أسابيع على وفاة لويس الخامس عشر ، وتبوئ مارى انتوانيت العرش حتى أفلح المسعى ، واستدعى روهان الى فرنسا .

ولما عاد روهان استقبله الملك بفتور وتحفظ ، ولم تره الملكة ، وكان يحمل اليها رسالة من الامبراطورة فاكتفت بأن أرسلت تطلبها اليه ؛ فكان لذلك وقع أليم فى نفسه ؛ وكان نذيرا بغضب العرش منه ؛ وغضب العرش خطر على مكانة أسرته ، وعلى آماله ومستقبله .

ذلك أن هذا الحبر المرح ، كان رغم ثرائه ومجونه ، يجيش باطماع كبيرة ، تذكيها فى نفسه مكانة أسرته ، ورفعة مناصبه وألقابه ؛ وكان يرى فى مثل أحبار كريشليو ومازاران غايته التى يجب أن يبلغها ، بل كان أمامه مثل معاصره الكردينال فليرى الذى تبوأ رياسة الحكم وبلغ ذروة النفوذ . وما كان سبيله الى تحقيق هذا الأمل الباذخ غير الحظوة والزلفى .

فلا عجب اذا غدا سخط العرش لروهان شبحه المروع ، واذا غدت استعادة الحظوة والرضى شغله الشاغل .

وكان يرى أن كل شيء يتوقف على صفح الملكة ورضاها . وكانت هذه الفتاة التى كان أول من استقبلها وباركها طفلة ، قد غدت يومئذ فى البلاد كل شيء ، وغدت صاحبة الأمر والنهى ، ناثرة السخط والرضى .

فكتب اليها غير مرة يلتمس رؤيتها ، فكان الاهمال مصير رسائله ؛ وسعى الى نيل ملتمسه على يد أصدقاء كبراء ممن لهم المكانة والحظوة ، بل لجأ الى شفاعة أخى الملكة الامبراطور يوسف الثانى حينما زار باريس ؛ كل ذلك ليرى مارى انتوانيت ويقدم اليها عذره ويستغفرها خطأه ، فذهبت كل جهوده عبثا ، وأفهم الا سبيل للوفاق والقربى .


الكردينال دى روهان

وكان روهان فى ذلك الحين قد عين كبير الأحبار ، وهو ما يعادل منصب الوزير ، ولكن صاحبه لا يتمتع بكثير من النفوذ السياسى . وهذا ما قصد اليه الملك والملكة حتى لا تكون لروهان علاقة قوية بالعرش . ثم رقى روهان كردينالا ؛ وفى سنة ٧٩ عين مطرانا لاشتراسبورج مكان عمه المتوفى .

ولبث روهان دائما مضرب الأمثال فى الاسراف والبذخ ؛ فقد كان له قصر فى شتراسبورج ، وآخر فى باريس ، وثالث فى ساڤرن ، كلها تموج بالأتباع والحشم . وكان فى قصر ساڤرن وحده أربعة عشر رئيسا للخدم ، وخمسة وعشرون وصيفا ، ومائة وثمانون جوادا ، وسبعمائة سرير ، وآنية لا تحصى من الذهب والفضة ؛ وكانت موائده دائمة الحركة ولا يقل ضيوفه عن الخمسين فى كل يوم .

وكان قصره مجتمع الغيد الحسان، والفتية الظرفاء، فكان يجلس بينهم، ويرأس مجتمعاتهم وكأنه لم يخلق إلا ليحتفى ويستقبل .

وكانت الحرية المطلقة تسود هـذه الاجتماعات ، أو كانت تسـودها « الحرية والسعة والبذخ» ،وكان الكردينال يقول دائما : يجب ألا نبالغ فى صرامة الدين حتى لا نجعل منه « صحراء » مقفرة .

وكانت حفلات الصـيد فى ساڤرن ذائعة الصيت بين أشراف ذلك العصر، يشترك فيها مئات من السادة والعقائل،وجيش كبير من الفلاحين والجياد، ثم تنتهى فى المساء بحفلات تمثيل وطرب ورقص لا يحجم الكردينال فيها أن ينزع أعباء الكلفة والتحفظ، فيطرب ويرقص .

وعلى الجملة فقد كان كبير الأحبار يعيش عيشة الخيال والقصة . وفى وسـعك أن تقدر مبلغ بذخه واسرافه متى علمت أن دخله من مناصبه العديدة كان يربى على المليون، وانه فضلا عن انفاقها كان يستدين المبالغ الطائلة ليسد نفقاته الفادحة .

* * *

كان بين ضيوف ساڤرن، سيدة فتية حسناء، قدمت الى الكردينال باسم الكونتة دى لاموت؛ وكانت تزعم أنها سليلة لأسرة «ڤالوا» الملوكية مع أنها لم تكن ذات أصل معروف فى النبل، بل ظهرت فجأة فى مجتمع النبلاء والخاصة ، وقدمتها المركيزة دى بولانقليليه الى صديقها الكردينال روهان .

واسمها العـذرى چان دى ڤالوا، ولنشأتها قصة غريبـة، فقد نشأت فى مهاد الحرمان والبؤس فى « بارسيروب» . وكان أبوها البارون سان ريمى قد بدّد تراث أسرته الضئيل، وقضى حياته فى فقر مدقع ، وقضت چان طفولتها فى الحقل وتعهد المـاشية ؛ لا تحصل على خبزها وأطمارها إلا بشق النفس . فلما توفى أبوها هجرت القرية مع والدتها وأختها، ولم تجد إلا التسول وسيلة لكسب قوتها، وكثيرا مارؤيت فى طريق ڤرساى، نحيـلة، رثة ، خلقة الثياب، تركض وراء عربات النبلاء ،

وتسأل الصدقة بانكسار يمزق القلب قائلة : « تصدّقوا ، بالله على يتيمة سليلة لآل ڤالوا » .

فأثارت هذه العبارة ذات يوم اهتمام سيدة كبيرة هى المركيزة دى بولانقليه ، وكانت ذاهبة مع زوجها ، حاكم باريس ، الى ضيعتها فى پاسى ، فأمرت بوقف عربتها ، واستفهمت من الطفلة عن مقامها ، و وعدتها ان صدقت دعواها أن تشملها بعطفها و رعايتها .

وكانت چان ، فى الواقع سليلة بعيدة لآل ڤالوا . هذا ماحققته المركيزة بالبحث والتحرى عن أسرة چان ، ونسبتها . ومن ثم اعتزمت أن تسهر على تربية چان وأختها ، فبعثت بهما الى دير فى لونشان . وهنالك قطعت چان مرحلة طفولتها ، وصارت فتاة نضرة تملأ الأبصار .

وكانت چان فتاة مضطربة القلب والعواطف ، متوقدة الخيال والذهن ، أشدّ ما يكون زهدا فى الحياة الدينية وعزلة الدير ، فلبثت مذ ترعرعت و بدأت تدرك معنى الحياة تتحين فرصة الفرار من ذلك الأسر . وفى ذات يوم فرّت من الدير ، وعادت الى « بارسيروب » ، واختفت حينا فى دار مدام سيرمون ز وجة عمدة البلدة . وهنالك أخذت تغرر بشباب تلك الناحية وتلعب بعقولهم ، وتذكى بسحرها أهواءهم وعواطفهم ، حتى استطاعت فى النهاية أن تتزوّج من شخص يدعى الكونت دى لاموت ، وهو فتى أفاقٍ من أسرة متوسطة لا حسب له ولا ثروة ، وكان موظفا فى إدارة الشرطة ؛ ولكن چان رأت فيه أداة صالحة لمشاريعها فارتضته زوجا ، وعقد ز واجهما فى سنة ١٧٨٠

وكان كلاهما معدما ، وكلاهما مسرفا يهوى الحياة الناعمة ، فما لبثا أن وقعا بين براثن الحاجة ، وأثقلتهما الديون والقروض .

غير أن چان كانت حسناء سهلة الخلال ، قريبة المنال . وكان لاموت ذلولا يفسح لها الطريق ، فاستطاعت أن تتصل بكثير من الموسرين المعجبين بحسنها .

وكان من أشدّ المقربين اليها محام بالبرلمان يدعى الكونت بنيو، وهو فتى وافر الذكاء والفطنة، ثاقب البصر والملاحظة، ولعله أقدر من استطاع من عشاق چان أن يسبر غور دهائها، وأن ينجو من كيدها. وقد ترك لنا مذكرات يصف فيها چان بما يأتى:

«كانت مدام دى لاموت ذات قد صغير، ولكن متناسب ملىء، وعينين زرقاوين تفيضان بالاعراب والتأثير، وحاجبين سوداوين جميلين، ويد بديعة، وقدم صغيرة، ولون ناصع جدا. وكانت ذات فم واسع ولكن بديع، وابتسامة ساحرة خلابة.

وكانت وافرة الذكاء بالرغم من ضآلة تربيتها، وكانت تتحدى القوانين، وتحتقر مبادئ الأخلاق، ولا غرو فقد نشأت ثائرة على النظم الاجتماعية.

ومع ذلك فقد كانت عند الضرورة تتصنع الرقة الى ذروة الضعف النسوى.

وكانت هذه الخلال تقدّم للتأمل مزيجا هائلا، يخلب ألباب أولئك الذين لا يستطيعون أن يسبروا غوره».

عادت چان بعد زواجها فغنمت عطف المحسنة اليها؛ وصفحت المركيزة عن عقوقها وفرارها، واعتادت أن تصحبها حيثما دعيت لدى الكبراء، ثم قدمتها الى صديقها الكردينال دى روهان فى ساڤرن سنة ٨١؛ واستطاعت چان أن تثير عطف روهان واهتمامه بقصة بؤسها القديم، ونبلها، وسوء طالعها، وان تحمله على مساعدة زوجها لدى رؤسائه ومنحه معاشا من مال الصدقة، غير أن هذا التقدّم البطئ فى حياة النعماء واليسر، لم يكن ليهدئ ثورة اطماعها المضطرمة، فقد كانت ترى فى نفسها دائما تلك الطفلة المتسوّلة تجوب الطريق فى أطمارها، وتثير القلوب بانكسارها ودعواها الملوكية، وترى انها وضعت دون المكانة التى تستحقها بمراحل ولم توهب حياة تتفق مع نبلها وحسبها وأمانيها.

ولم تكن لها فى الحياة قبلة معينة، غير أنها كانت تلتمس الغنى والجاه والبذخ من أى الوجوه. وكانت ترتد بأبصارها نحو البلاط، لعل فى ظروفه وحوادثه ما يفسح لها فرصة العمل والنجاح.

فعادت الى باريس، وأخذت تحوم حول البلاط ، وتسعى بمختلف الوسائل الى رؤية الملكة أو الاتصال بها، واثارة عطفها، ولجأت فى ذلك الى وسائلها الروائية، واستطاعت ذات يوم أن تنفذ الى بهو « البلور » فى ڤرساى ، وارتمت فى طريق الملكة حين ذهابها الى القداس متظاهرة بالأغماء ولكنها لم تفز بما أرادت إذ حجبتها الجموع ولم ترها الملكة ، ثم عادت فكررت هذه المهزلة، أحيانا فى ابهاء ڤرساى، وأحيانا تحت نوافذ الملكة . ولكنها أخفقت فيها جميعا ، ولم توفق الى الاتصال بغير واحد أو اثنين من موظفى القصر، أحدهما وصيف للملكة يدعى ديكلو صحبها مرارا الى التنزه والعشاء .

ولكنها مع ذلك كانت تذيع فى كل مكان، فى باريس وڤرساى ، انها غدت من ذوى النفوذ فى البلاط، تدعى هناك بلقب « الكونتة دى ڤالوا » وتتناول الطعام على مائدة الكونتة دارتوا، وان الملكة قد تأثرت لبؤسها ، وأصغت اليها باهتمام، وغمرتها بعطفها و رفقها .

”وكان لجان خطتها، فقد كانت تدرس دور ”الوسيطات فى البلاط ومكاتب الوزارة“ . وكن كثيرات يومئذ، يعتمدن على نفوذ حقيق أو وهمى للحصول هنا وهنالك على مبالغ من المال لتحقيق هذا المشروع أو ذاك، أو منح وظيفة أو وسام . وكانت صناعة زاهرة بالطبع فى ذلك العصر الذى كانت تكفى فيه إرادة وزير أو صفية ، أو الملكة، لتحقيق أهم الشؤون ، وأدركت جان ان اليوم الذى يعتقد الناس فيه انها غدت ذات نفوذ لدى الملكة، هو خاتمة بؤسها“ [1] .

كانت جان دى ڤالوا تذيع هذه المزاعم حولها، فى المجتمع الذى يغشى منزلها فى شارع سان چيل، وحيثما حلت بين الكبراء، ولا سيما عند روهان، لتخلق من حولها ذلك الجو الذى تبتغيه ، والذى لا بدّ منه لتحقيق مشاريعها . وكانت تصيغ أكاذيبها فى أسلوب مقنع من التأكيد والصدق ، وتصف للكردينال ، مرة

---

(١) فونك برنتانو .

بعـد مرة ، كيف اسـتقبلتها الملكة فى قصر تريانون وكيف أغدقت عليهـا فيض عطفها ، وكيف غدا هذا العطف يفسح لهـا مجال الآمال والأمانى .

* * *

وكان الكردينال ، كما قدمنا ، يضطرم رغبـة فى نيل رضى الملكة ، واسـتعادة حظوته لدى العرش ، فعلى هذه الحظوة تتوقف أسمى آماله . و ربما كانت الملكة تؤثر الإغضاء والصـفح لأن الكردينال لم يرتكب ذنبـا فى حقها ، ولكن الكونت ميرسى كان يحفزها دائمـا الى بغضه ، و يحذرها منـه ومن حزبه ، فكان الكردينال يشعر دائمـا بهذا السخط يصدمه و يهدد مكانته ومستقبله ، حتى غدا همه الأوحد وشغله الشاغل أن يفوز بالصفح والرضى .

وكان الكردينال بطبيعته سليم الطوية ، سهل الخديعـة ، سريع الإيمـان حتى السذاجة ، وكان يتلمس تحقيق أمنيتـه بأى الوسائل . بل لقد اعتقد انه يستطيع الوصول اليها من طريق السحر والتمائم ، فالتجأ الى صديقه الكونت كاجليوسترو ، معتقـدا فى قدرته الروحية الخارقة ، وكان كاجليوسترو قد وفد يومئـذ على فرنسـا مع زوجه الحسناء ، يسبقه صيته المدهش فى صنع الخوارق والمعجزات ، واتصل بالكردينال ، وقويت بينهما أواصر الصداقة حتى أصبح روهان لا يطيق صبرا عنه .

و يجدر بنا أن نقدم الى القارئ هذه الشخصية العجيبة — شخصية كاجليوسترو

كان كاجليوسترو — واسمه الحقيق يوسف بلسامو — يذكى خيال معاصريه بمزاعمه وخوارقه ، فكان يزعم انه نشأ فى المشرق ، فى غابر العصـور ، وتلقى حكمة المصريين القـدماء ، وان عمره يربى على الثلاثمـائة ، وأنه عاش مرة قبـل المسيح ، وأن المسيح كان صـديقه الحميم ، وانه سـليل لكارل مارتل أو غيره من العظماء والفاتحين . والحقيقة أقل بهاء وغرابة . فقد نشأ بلسامو فى بالرم[1] ، ومهر منذ حداثته فى الكيمياء ، وضروب الشعوذة والخديعة ، وتنقل حينا فى ايطاليا ، يحترف

(١) ولد بلسامو فى سنة ١٧٤٣ ، وتوفى حوالى سنة ١٧٩٧ .

المغامرة والشعوذة والجريمة أحيانا؛ فلما أرهقته السلطات بالمطاردة غادر ايطاليا، وتجول حينا فى لندن، واسبانيا، وألمانيا، وغيرها من أنحاء أوربا . وكانت زوجه أو خليلته لورنزا، فتاة بارعة فى الجمال والدلال والفتنة، يستعين بسحرها على مغالبة الصعاب والتأثير فى الأغنياء والكبراء .

ثم اتصل بلسامو بمحافل البناء الحر[1]، وتسمى بالكونت كاجليوسترو، وأخذ يتردد بين باريس وهولنده، ويزاول ضروب السحر والشعوذة، ويغشى مجتمعات العظماء والكبراء، ويمتهن الطب الروحى فيهرع إليه المرضى من كل صوب . وكانت له فى ذلك الميدان أعمال خارقة، فقد كان يشفى كثيرا من الأمراض العصبية التى لم يهتد الطب الى أسرارها يومئذ، وكان يتنبأ بالغيب، ويأتى الخوارق . ويقال إنه تنبأ لكثيرين من نبلاء فرنسا بألوان الموت التى لقوها أيام الثورة، وانه عرض على مارى انتوانيت يوم كانت ولية



كاجليوسترو

للعهد، شبح «الجيوتين» فى قدح من الماء. وأنشأ فى باريس جماعة سرية تتبع رسوم المصريين القدماء ويبدو فيها متنكرا فى صورة أبى الهول؛ وكان يقيم حفلات غريبة يتوسل فيها الى مخاطبة الأرواح والملائكة والأنبياء، ويصنع كثيرا من العقاقير الغريبة الناجعة فى الشفاء، ويزعم أنه اكتشف «أكسير» الحياة، والشباب الخالد، و «أكسير» الجمال، الى غير ذلك من المزاعم والخوارق .

والحقيقة أن كاجليوسترو كان بارعا فى الكيمياء كما تقدم، وكان من جهة أخرى قد تلقى التنويم المغناطيسى عن مسمر؛ فكان يستعين به فى القيام بخوارقه الروحية، ومعالجة الأمراض العصبية؛ ولم يكشف التاريخ عن غايته الحقيقية، ولم يكشف

---

(١) (Franc—Maçonnerie)

بالأخص عن مصدر بذخه الهائل ؛ ولكن المرجح أنه كان ينتمى الى بعض الجمعيات السرية القوية التى كانت تتخذ الشعوذة والكيمياء أداة لنشر دعوتها ، أو أنه كان جاسوسا دوليا يعمل لحساب بعض القصور والحكومات .

هذا هو الرجل الذى لجأ روهان الى صداقته وعلمه الخارق . وكان كاجليوسترو يجرى حفلاته وتمائمه ليحقق بغية صديقه . وكانت الكونتة لاموت من جهة أخرى تثير اهتمامه بما ترويه عن نفوذها لدى الملكة ، ومن فوزها بعطفها ورضاها .

« كان كلاهما ، قد نفذ الى طبيعة الكردينال المؤمنة الطيبة ، التى تسودها البساطة والثقة ، ووقف أيضا على سر تلك الأمنية التى تنوء بها جوانحه ، والتى غدت ، رغم ما ينعم به من الثراء والرفعة ، عذاب حياته[1] » .

كان روهان سريع الإيمان والثقة . وهذا الايمان هو منشأ كل ما يكتنف حادث العقد من غموض وغرابة . بيد أنه أيضا مبعث الحادث وسره . يقول الدوق دى لثى فى مذكراته : « لقد كان هذا الايمان المدهش هو العقدة الحقيقية للحادث كله ، وفيه ما يغنى عن التماس ما عمد الناس اليه من تعليلات أشد غرابة » . وقال روهان نفسه أمام البرلمان فيما بعد : « لقد أعمتنى كل العمى رغبتى المضطرمة فى استعادة رضى الملكة » .

٤

لا تعجب بعد ذلك اذا علمت أن مزاعم چان دى ڤالوا أثارت فى نفس روهان اهتماما وأملا .

وهذا نفس ما كانت ترمى اليه چان ، فقد سألها روهان ذات يوم عما اذا كانت وقفت خلال زياراتها للملكة على طرف من شعورها نحوه ، وعما اذا كان فى استطاعته أن يؤمل عفوها ورضاها ، فأجابته أنها تعتقد أن الملكة قد غدت أقرب للعفو والرضى عنه ، وأنها ستعمل لتحقيق أمنيته ما استطاعت ، وتبذل

---

(١) فونك برنتانو .

كل ما لها فى البلاط من تأثير ونفوذ. ثم جاءت اليه ذات يوم من أيام مايو سنة ٨٤ متألقة المحيا ونبأته بأن الغاية تسير فى سبيل التحقيق .

وكانت چان تعرض من آن لآخر على روهان رسائل مكتوبة على ورق ذى إطار أزرق زين فى جانبه بزنبق العرش الفرنسى، زاعمة أنها مما تكتبه اليها ملكة فرنسا وفيها يرد اسم روهان أحيانا .

ثم جاءت ذات يوم الى روهان ونبأته بأن الطريق قد مهد وأن الملكة تطلب اليه أن يقدّم بيانا مكتوبا بأقواله ، فكتبه روهان مسرورا ، وتظاهرت چان بأنها حملتـه الى الملكة ثم عادت لأيام قلائل برد قالت إنه من الملكة كتب على ورقة صغيرة مذهبة الحواشى ، وفيه : «لقد سرنى أن أراك غير مذنب ، ولست أستطيع أن أمنحك المقابلة التى تلتمسها ولكنى سأخطرك متى سمحت الظروف» ، وطلبت الى الكردينال أن يكتب ردّا بالامتنان والشكر ففعل مغتبطا بهـذه البداية الحسنة . ثم توالت بعـد ذلك رسائل الملكة الى الكردينـال و رسائل الكردينال الى الملكة ، والكونتة دى لاموت تحمل هذه وتلك .

ولسنا بحاجة للقول بأن چان كانت تمثـل مهزلة خبيثة ، وأن رسائل الكردينال لم تصل الى الملكة قط ، وأن مارى انتوانيت لم تكتب الى روهان قط .

وكان محرر هذه الرسائل المزوّرة التى نسبت الى ملكة فرنسا شخص يدعى رتو دى ڤيت ، وهو فتى أفاق فى الثلاثين من عمره ، حسن القدّ ، جميل الطلعة يسمى نفسه «الشڤالييه دى ڤيت» . وكان من قبل زميلا للكونت دى لاموت فى إدارة الشرطة ومن خاصة أصدقائه فقدّمه الى زوجته ، واتخذته چان لها «سكرتيرا» . ولكن الواقع أنه غدا لهـا خليـلا [1] ، وكان يجيد نوعا من الخط النسائى الجميـل ، و يكتب الرسائل المزوّرة ، على أوراق مزركشة ، مزينة بالزنبق ، باملاء مدام دى لاموت ، و يوقعها «مارى انتوانيت دى فرانس» مع أن الملكة لم توقع بمثل هذا التوقيع قط .

---

(١) فونك برنتانو .

ولكن روهان لم يلبث أن تولته الدهشة من استمرار الملكة فى مكاتبته على هذا النحو ، ولأنهـا لم تحاول أن تعرب له عن صفحها ورضاها بطريق آخر . ولكن الكونتة كانت تبدد ريبه وتهدئ روعه ، وتؤكد له أن الملكة ليست حرة فى تصرفاتها وأن حزب الوزير « بريتى » خصم روهان ما زال هو المتغلب ، وأنه يجب الانتظار والصبر . بيد أنها أشارت عليه أن يلاحظ نظرات الملكة اليه كلما استطاع أن يراها فى الحفلات الرسمية أو الخاصـة . فكان روهان يتوهم كلما رأى الملكة فى احدى الحفلات أنها ترمقه بعطف ، ولم يكن ذلك إلا أثرا من اضطراب مخيلته ، واضطرام رغبته فى نيل بغيته ، وغلبة الأمل فى نفسه .

وكانت مدام لاموت تخشى من جانبها أن ينفد صـبر الكردينال ، وأن تضعف ثقته فيها ، اذا طال الزمن دون أن يظفر بدليل حاسم ، فأملى عليها خيالهـا المدهش فكرة غريبـة هى أن تدبر بين روهان و «الملكة» مقابلة سرية ، تقوم بدور الملكة فيهـا امرأة أخرى ، ولم تلبث أن نبأته بأن هـذه المقابلة ستقع قريبا فى ممر مقفر فى بستان فرساى على مقربة من القصر . فابتهج روهان واستبشر بنيل العفو والرضى .

ولكن ماالسبيل الى ملكة زائفة تمثل هذا الدور المدهش ، وتلتبس فى قامتها ومحياها مع الملكة ؟ لمح الكونت دى لاموت ذات يوم فى حديقة «الباليه روايال» امرأة فتية ذات حسن وظرف ، ولفت نظره ما بينها وبين الملكة من شبه مدهش ، يبـدو بالأخص فى شعرها الطويل الأشقر ، ونحرها الرشـيق ، فتردد الكونت على الحديقة أياما ، وكانت الفتاة تأتى هنـالك غالب الأيام عصرا ، وتقرب منها ، ثم دعاها الى منزله وقدمها الى زوجته .

واسم هذه الحسناء ، شبيهة مارى انتوانيت — مارى نيكول ليجواى ، وكانت صانعة للأزياء ، نشأت يتيمة بائسة ، وتلقت تربيـة مهملة ، وكانت يومئذ تقيم فى أحد أزقة مونمـارتر وتخلب بحسنهـا وظرفها جمعا من العشاق والفتيـة ؛ وكان أشدهم بها اتصالا فتى يدعى بوسير ، ورث عن أبويه مالا ، وأخذ يبـدده فى اللهو والمـلاذ .

وهبت چان صـديقتها الجديدة لقب « البارونة دوليڤا» رفعا لشأنها، وتمهيدا لمشاريعها، وسرعان ما قويت بينهما أواصر الصـداقة ، وغدت نيكول أداة لينـة فى يدها، وفريسة لتأثيرها ومزاعمها .

ثم اقترحت عليهـا ذات يوم مشروعا قالت إنها تغنم منه خمسة عشر ألف ليڤر ولا يكلفها شيئا فى الواقع، ولكنها تؤدّى به لصـديقتها الملكة يدا جليـلة ، وكل ما يطلب اليها أن تؤدّيه سهل جدا وهو أنها تذهب ذات مساء الى ممشى فى بستان ڤرساى ، ثم تقدّم زهرة و رقعة الى سيد كبير يمرّ بها و يلثم يدها . فلم تفهم البارونة الساذجة شيئا من الأمر ، ولم تدرك بالأخص ماذا يفيد الملكة من هذا المشروع ، ولكنها رضيت بتأثير الاغراء والاقناع أن تقوم بما طلب اليها .

وحدّد مساء ١١ أغسطس سـنة ١٧٨٤ لتمثيل المهزلة ، وأخطر روهان بالنبأ السعيد . وفى عشاء ذلك اليوم، جاء الكونت بالبارونة، وتولت الكونتة ووصيفتها روزالى اعداد زينتها ،وكانت الكونتة قد أعدّت لها ثيابا أنيقة، واهتدت فى ترتيب زينتها بصورة للملكة،وساعد رتو دى ڤيليت فى تنفيذ تلك المهمة التى لم تهتد البارونة الى سرها . ثم ذهبت الكونتة والبارونة الى أفخم مطعم فى المدينة لتناول العشاء .

وفى نحو الساعة العاشرة سار الجميع الى بستان ڤرساى، وكان فى ذلك العهـد، يفتح بالنهار والليل ولا توصد أبوابه، وكان الليل مظلما، تحجب السحب نجومه، والسكون شامل لا يقطعه سوى خرير المـاء، وسـقوط الأوراق الجافة . وكانت البارونة ترتجف تأثرا وخوفا من الخفاء والمجهول ، ولكن الكونت كان يدفعها فى مماشى البستان دون تردّد حتى وصلا الى ساحة «ڤينوس» أو ساحة الملكة حيث ترتفع الأشجار الكبيرة الباسقة، فوقف الكونت، وهمس فى أذن البارونة ألا تتحرك، ثم اختفى مسرعا فى الظلماء .

واليـك المنظر كما يصوره قلم فونك برنتانو : « وقفت الآنسة دوليڤا، خائفـة جامدة لا تجرأ على الارتداد. وأصاخوا السمع، فدوى حصى الممشى باقدام تقترب . وظهر ثلاثة رجال . وتقدّم أحدهم، وكان طويلا، ممشوقا ، يرتدى سـترة تحت

معطف طويل، وعلى رأسه قبعة كبيرة. فدُفع ذراع الآنسة دوليفا، وابتعد الكونت والكونتة. وبقيت فريدة، وأخذت ترتجف كأرواق الشجر، وسقطت الوردة التي تمسكها من يدها. وكان في جيبها رقعة، ولكنها لم تفكر في تناولها. أما الرجل ذو المعطف الضخم، فانحنى حتى الأرض، وقبل ذيل ثوبها. وغمغمت نيكول كلاما لم تعه. واعتقد الكردينال، في غمرة تأثره واضطرابه أنها قالت: « لك أن تؤمل أن الماضي سوف ينسى». فانحنى من جديد، وهو يتلو عبارات الشكر والاجلال، ولبثت البارونة ترتجف ولم تفهم شيئا. وعندئذ وثب شخص كقرعة الريح، وهو يقول: «هيا، هيا، فقد جاءت "مدام"[1]، والكونتة دارتوا!» وكان رتودى ڤيت. ثم قاد الكونت الآنسة دوليفا، وعاد الكردينال تتبعه الكونتة. وهكذا كان منظر الدغلة الشهير».

واجتمع الشركاء الأربعة على أثر ذلك في منزل الكونتة، وقضوا الليل في حبور ومرح، فقد فاق نجاحهم كل أمل.

* * *

ماذا كان أثر هذه المهزلة في نفس الكردينال؟ اليك ما يجيب به الأستاذ تارجيه محامي الكردينال في دفاعه عنه فيما بعد: «لم يعد الكردينال بعد هذه اللحظة المشئومة كثير الثقة والايمان فقط، بل غدا أعمى، وفرض من هذا العمى على نفسه واجبا لا يخرق. وامتزج خضوعه لأوامر مدام دى لاموت بعاطفة من الاجلال العميق والعرفان توجه حياته كلها. وغدا ينتظر صابرا يوما يبتدئ فيه الرضى الشافي. ولكنه يطيع اثناء الانتظار كل شيء: هكذا كانت حال نفسه».

وسارعت چان الى الاستفادة من هذا الأثر، فلم تمض أيام قلائل حتى نبأت الكردينال أن الملكة تطلب لأسرة نبيلة بائسة مساعدة عاجلة قدرها خمسين ألف ليفر، فاقترض روهان المال وارسله اليها، فتلقته چان كالقفر يتلقى الغيث، وبادرت باقتناء نفيس الرياش والثياب، وأعطت البارونة دوليفا أربعة آلاف فقط.

(١) أخت الملك.

ثم أعادت الكرة بعد حين، وطلبت هذه المرة قرضا للملكة قدره مائة ألف ليفر، فسعى الكردينال الى جمع المـال، وارسله اليها مع سكرتيره فى شهر نوفمبر من نفس العام.

وأى غرابة فى أن تلجأ الملكة الى الاقتراض وقد عرفت بالتبـذير والبذخ، واشتدّ العسر يومئذ بالبلاط ؟

أطلقت چان العنان لأهوائها وما كانت تعشق من ترف، وأخذت تبذر المـال دون حساب، وحملت الى الكردينال رقعة مزعومة من الملكة تنصحه فيها أن يرتد حينا الى الألزاس حتى لا يكون شاهد هذا الانقلاب الفجائى من البؤس الى الترف المفرط. وكانت من جهة أخرى تتظاهر دائمـا أمام الكردينال بأنها على حالهـا من الحرمان والفقر، وتتقبل منه من آن لآخر صلات بسيطة لا تتجاوز فى كل مرة خمسة أو عشرة لويزات (جنيهات).

وهنا تعرض مسألة دقيقة. هل كانت علائق الكردينال بچان دى ڤالوا تقف عند هـذا الحدّ ؟ تقول بعض الروايات إن چان كانت فى الواقع خليـلة الكردينال كما زعمت هى بعـد ذلك فى التحقيق. ولكن الرأى الراجح ينفى هـذه الدعوى، كما هو ظاهر من هبات الكردينال لچان، فقد كانت هبات صدقة لا صداقة، وكما أبدت ذلك شهادة روزالى الوصيفة، وغيرها [1].

وهكذا جنت چان ثمار دهائها الأولى. ولكن سرعان ما ذهب المـال، وعاد يهددها شبح البؤس.

لقد كان واجبا أن تبحث عن موارد أخرى، اذا شاءت أن تظل الحياة باسمة لها.

٥

كان ممن يتردّدون على بهو الكونتة دى لاموت فى شارع سان چيل محام يدعى لابورت، أثار اهتمامه أيضا ما كانت تدعيه چان عن علاقتها بالملكة ونفوذها

---

(١) فونك برنتانو.

فى البلاط . فحدّثها ذات يوم بمشروع تستطيع أن تفيد منه مالا كثيرا اذا استطاعت أن تحققه ، خلاصته أن جوهرى الملك المسيو بمر وشريكه المسيو باسنج يملكان عقدا نفيسا من الجواهر الكبيرة النادرة ، صنعاه فى عهد لويس الخامس عشر أملا فى أن يشتريه الملك يومئذ لخليلته الكونتة دو بارى ، ولكنه توفى دون شرائه ؛ فسعيا عبثا الى بيعه فى البلاط الاسبانى ، ثم حاولا بعد ذلك أن يحملا لويس السادس عشر على شرائه للملكة ، ولكن الملكة أبت شراءه لفداحة ثمنه ؛ فكررا المحاولة وارتمى بمر ذات يوم أمام قدمى الملكة والتمس اليها باكيا أن تشترى العقد وإلا قتل نفسه ، فنهرته ونصحته أن يقسم العقد وأن يبيعه أجزاء . فاحتار الجوهريان عندئذ ، واشتد بهما الحرج والعسر ، لأنهما أنفقا فى صنع هذا العقد النفيس مبالغ طائلة اقترضاها بأرباح فاحشة ، ولأن كبر حجمه وفداحة ثمنه — وهو مليون وستمائة ألف — يحولان دون بيعه ؛ وأنهما لذلك يقدمان لمن يعاونهما فى بيعه أتعابا حسنة . ورجا لابورت ، نظرا لصلة بين أسرته وبين الجوهريين ، مدام دى لاموت أن تسعى فى استخدام نفوذها لدى الملكة لتحملها على اقتناء تلك الحلية النادرة ، فتنقذ الجوهريين من ذلك المأزق ، وتحقق لنفسها ربحا حسنا .

فاهتمت الكونتة لقصة لابورت أيما اهتمام ، واضطرمت أملا وجشعا ، وحدثتها نفسها فى الحال أن غيث الأمانى قد انهمر ، وأنها يجب أن تفوز بهذه الصفقة البديعة فتضمن الثراء والنعماء الى الأبد .

وأبدت أهبتها للعمل وطلبت رؤية ذلك العقد النادر ، فحمله المسيو باسنج بنفسه الى دارها ، فبهرها جماله وروعته ونفاسته . وكان ذلك فى أواخر ديسمبر سنة ٨٤ ؛ وكان الكردينال يومئذ غائبا فى ساڤرن ، ولم يعد الى باريس إلا فى الرابع من يناير سنة ٨٥ ؛ وفى ٢١ يناير ذهبت الكونتة الى الجوهريين فى محلهما فى شارع ڤندوم ، ونبأتهما بأن العقد قد يباع فى أيام قلائل ، وأن المشترى هو سيد عظيم ، ونصحت اليهما أن يتخذا معه مباشرة كل الضمانات اللازمة ، وألا يذكرا اسمها . وفى ٢٤ يناير عادت مع زوجها ونبأتهما بأن المشترى ، وهو البرنس لويس دى روهان ،

سيحضر اليهما ، وكررت نصحها فى أن يعقدا معه كل الضمانات اللازمة ورجاءها ألا يذكرا اسمها أو تدخلها .

وكان المشترى هو روهان حقيقة . وكانت الكونتة قد ذهبت اليه على أثر عوده، وأفضت اليه بسر خطير، هو أن الملكة تريد أن تقتنى عقدا نفيسا من الجواهر النادرة أبى عليها الملك اقتناءه لفداحة ثمنه ، فاعتزمت أن تشتريه من مالها الخاص وأن تؤدى ثمنه أقساطا ، غير أنها لا تود التعاقد مع صاحبيه مباشرة ، بل فكرت فى أن تعهد باتمام الصفقة الى سيد عظيم يطمئن الجوهريان الى مكانته وثروته ، وأنها قد اختارته لأداء هذه المهمة ، وليكون واسطة الشراء ومتولى العقد ، وقدمت اليه فى نفس الوقت خطابا قالت انه من الملكة وفيه ترجوه أداء ما تقدم .

وهنا نعود فنتساءل كيف آمن روهان بهذا المشروع الجديد ؟ والجواب واحد دائما ، وهو أن حالة روهان النفسية ، واضطرام أمله ورغبته فى نيل الرضى ، والأثر العميق الذى تركته فى نفسه مهزلة البستان ، كانت تحجب بصيرته دائما ، وتسهل للكونتة سبيل الاقناع والثقة . أضف الى ذلك ما يؤثر عن الملكة من الاسراف والولع باقتناء الجواهر والأزياء النادرة .

وبعد فأى غرابة فى أن الملكة يدفعها هوى امرأة حسناء ، أرادت أن تحلى جيدها بذلك العقد النفيس الذى أبت شراءه بادئ بدء ؟ وانها خوفا من أن تغضب الملك اعتزمت شراءه من مالها الخاص وأداء ثمنه الفادح أقساطا ، وأنها أخيرا فكرت فى كبير يتولى عنها الصفقة فوقع اختيارها على الكردينال ، الذى أعربت له فى بستان فرساى عن تقديرها الخاص (١) ؟ .

فى ٢٤ يناير سنة ١٧٨٥ ذهب روهان الى الجوهريين وعاين العقد . وفى ٢٩ يناير قدم الجوهريان الى قصره لاتمام الصفقة ، وعقدت شروط البيع وخلاصتها أن يكون الثمن مليونا وستمائة ألف ليفر تسدد فى ظرف عامين على أربعة

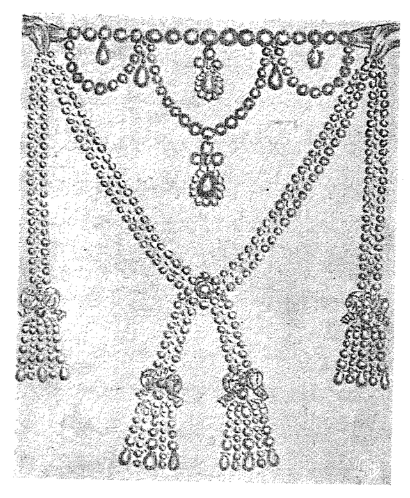
---

(١) الأستاذ هنرى روبر .

أقساط ، قسط فى كل ستة أشهر ، وأن يدفع القسط الأول فى أول أغسطس سنة ١٧٨٥ ، وأن يكون تسليم العقد فى أول فبراير . ودفع الكردينال بصورة من هذه الشروط الى الكونتة لتعرضها على الملكة للمصادقة عليها ، فأخذتها وأعادتها بعد يومين ، وقد كتب أمام كل نص منها كلمة « مقبول » ، ووقعت باسم « مارى انتوانيت دى فرانس » . وكانت الكتابة بنفس الخط الذى كتبت به جميع الرسالات السابقة ، لأن الكاتب واحد دائما ، وهو رتو دى ڤيت . وعلى ذلك اقتنع الكردينال ، واقتنع الجوهريان ، وتمت الصفقة . وفى اليوم التالى أعنى فى أول فبراير حمل الجوهريان العقد الى الكردينال ، ودبرت الكونتة فى دارها لاستلامه مهزلة جديدة وحمله اليها الكردينال بنفسه فى مساء ذلك اليوم ، وجاء رتو دى ڤيت يرتدى ثيابا رسمية ، وأعلن أنه « من قبل الملكة » ، ومعه رقعة منها بطلب الاستلام ، ولاحظ روهان أنه رأى هذا الشخص من قبل فى بستان ڤرساى ليلة المهزلة ، وانه هو الذى هرول نحو الملكة وأخطرها بقدوم « مدام » والكونتة دارتوا ، وساورته لمحة من الريب ، ولكن الكونتة هدأت روعه فى الحال ، وأكدت له ان هذا الشخص موظف فى الموسيقى الملكية ومن حشم الملكة معا ، وتم تسليم العقد بسلام ، وانصرف الكردينال جذلا راضيا .

وما كاد روهان ينصرف حتى اجتمع اللصوص حول الحلية النادرة ، تبهرهم أضواءها ، وفرطوا الجواهر ، ولم تمض أيام قلائل حتى بدأوا سرا ببيعها . فباعت الكونتة منها أجزاء متفرقة لأشخاص مختلفين ، ولكنها شعرت بالعيون ترقبها ، فعهدت الى زوجها ببيع القسم الأكبر من الجواهر فى لندن . وعهدت الى رتو أيضا ببيع بعضها ، ولكن تاجرا ارتاب فيه ، وبلغ فى حقه فقبض عليه وحقق معه ، فزعم ان الجواهر ملك لسيدة عظيمة لا يريد ذكر اسمها وانها وقعت فى حرج مالى ، ولما لم تكن إدارة الضبط قد تلقت بلاغا بسرقة جواهر ما ، فقد أطلق سراحه ، ونصحته الكونتة بالفرار ، ففر الى سويسرا بعد ردح قضاه فى الثراء والترف .

وسافر الكونت دى لاموت الى لندن ومعه القسم الأكبر من الجواهر، وباع منها بنحو ربع مليون ليڤر، قبض بعضها نقدا، وبعضها بتحويل على باريس، والبعض حليا وتحفا فاخرة، وارتاب فيه المشترى أيضا، وهو روبرت جراى أكبر جوهرى فى لندن، فاستفهم من السفارة الفرنسية عن الحقيقة، فأجابته بأنها لم تبلغ بسرقة ما، فزالت شكوكه وقبل الشراء، وعاد الكونت الى باريس فى أوائل يونيه، مثقلا بأحمال عديدة من الأثاث والرياش والثياب والتحف. وكانت الكونتة



عقـــد الملكة

قد باعت أيضا، مقادير كبيرة من الجواهر، وأودعت مائة وعشرين ألف ليڤر عند مسجل فى باريس، واشترت سندات قيمتها نحو مائة وخمسين ألف. فلما حضر الكونت، أرسلت الأثاث والرياش والتحف الى بلدها، بارسيروب، وعادت اليها مع زوجها ترفل فى أبهج الحلل، وافتتحت هنالك حياة جديدة باذخة، واقتنت العربات والخيل المطهمة، وأكثرت من الأتباع والحشم.

يقول فونك برنتانو بأسلوبه الشعرى : « واذن فقـد جلست السائلة الصغيرة التى كانت من قبل، تتبع بعينيها الواسعتين الشاردتين، وهى ترتجف من الزمهرير، عربات السيدات اللائى يغرقن فى الحرير والديباج، ناصعات باهرات — جلست بدورها بين وسائد الديباج فى عربة يجرها ستة جياد »(1) .

* * *

وكانت چان قد نبأت الكردينال بأن الملكة ستبدو مزدانة بالعقد فى اليوم التالى لاستلامه أعنى فى الثانى من فبراير، وهو عيد «التطهير» وفيه تبدو الملكة الى جانب الملك والأمراء فى حفلة عامة، ولهذا عجلت باستلامه، فبعث روهان وصـيفه الى الحفلة، وكذلك ذهب باسـنج ليرى كل منهما العقد فى جيـد الملكة، فلم يرياه ؛ وزار بمر روهان مضطربا، فهدأ روعه، ونصحه بأن يذهب الى ڤرساى ليقدم شكره لجلالتها على شراء العقد . فاطمأن الجوهرى ، وحاول مرارا أثنـاء الأشهر التالية أن يقوم بهـذا الواجب فلم تسنح له فرصـة . وأما چان فنبأت روهان بأن الملكة قررت ألا تحمل العقد قبل أن تبدأ بوفاء الثمن ، ثم دفعت اليه برقعة أخرى تنصحه الملكة فيها بأن يعود حينا الى ساڤرن، وذهبت هى كما قدمنا الى بارسيروب .

وعاد الكردينال الى باريس فى أوائل يونيه، وعادت چان . واقترب أجل الدفع، ولم تبدر بادرة من الملكة تشعر باستعدادها للأداء ، ولم ترقط فى الحفلات العـامة أو الخاصة مزدانة بالحلية النادرة . وبدأ الخوف يساور چان أيضـا، ولكن مورد ذكائها لم ينضب ، فنبأت الكردينال بأن الملكة تجد الثمن فادحا، وترجوه أن يسعى لدى الجوهريين فى تخفيض مائتى ألف من ثمنـه وإلا ردّته، فعاوده الاطمئنان، وقابل الجوهريين فى يوم ١٠ يوليه ، فقبلا التخفيض بعد جدل ، وكتبا باملاء روهان رقعة شكر الى الملكة هذا نصها :

---

(1) ويخصص المؤرخ فصلا بديعا لهذه التفاصيل يسميه بملحق «لألف ليله وليله» (الفصل الحادى والعشرون) .

« سيدتى : نحن فى فيض من السعادة إذ نجرؤ أن نعتقد أن التسوية الأخيرة التى اقترحت علينا، والتى خضعنا لها باحترام وغيرة، إنما هى دليل جديد على ولائنا واخلاصنا لأوامر جلالتك، وانه لمن أشد بواعث غبطتنا أن نفكر أن أبدع حلية من الجواهر فى العالم، إنما تزدان بها أعظم الملكات وأرفعهن » .

وحمل بمر هذه الرقعة الى الملكة فى يوم ١٢ يوليه ، وكانت قد دعته يومئذ ليعد لها بعض حلى أهداها اليها الملك ، فقدم اليها الرقعة، وتناولتها منه، ولكنها قبل أن تستطيع قراءتها دخل وزير المالية ليخاطبها فى بعض الشئون ، فانسحب الجوهرى، ثم عادت الملكة فقرأت الرقعة فلم تفهم منها شيئا ، فتلتها على قارئتها مدام كامپان فلم تفهمها كذلك ، فأحرقتها عندئذ على ضوء إحدى الشموع المنيرة ثم قالت لقارئتها : « ان هذا الرجل يعذبنى ، فنبئيه لأول مرة ترينه انى لا أحب الجواهر بعد، ولن أقتنيها فى حياتى » .

وهذه اللحظة من أدق مواقف حادث العقد . فقد رأى خصوم الملكة فيما بعد فى هذا التصرف ، على بساطته ، حجة قوية للقول بأن الملكة كانت على علم بصفقة العقد ، وأن سكوتها بعد قراءة هذه الرقعة ، يعتبر منها قبولا ضمنيا لاجراء الصفقة باسمها .

فى ذلك الحين كانت چان تقلب وجوه الحيلة للخروج من المأزق أو تأجيل العاصفة على الأقل، فذهبت الى روهان فى ٣١ يوليه، ومعها رقعة، تقول الملكة فيها ان القسط الأول لا يمكن دفعه إلا فى أول أكتوبر، وقدمت اليه مبلغ ثلاثين ألف ليفر ربح المبلغ عن مدة التأجيل، فاضطرب الكردينال، ولكن چان استطاعت أن تهدئ روعه، خصوصا بعد أن رآها تقدم اليه ربح المبلغ ، وهى على ما يعرف من فقر. وذهب للقاء الجوهريين، ولكنهما غضبا، ورفضا التأجيل بتاتا، وأصرا على الدفع ؛ وشعرت چان بدنو الخطر، ولم تر منجاة لها غير الجرأة فبعثت الأب « لوت » أحد أصدقائها الى باسنج يخطره « بأن الضمان الذى يحتفظ به الكردينال باسم الملكة مزور، ولكنه أى روهان غنى وفى وسعه الوفاء »

فهرول بيمر فى نفس اليوم الى فرساى ليرى الملكة ، فاستقبلتـه مدام كامپان ، وأجابته حينما نبأها بالأمر : « أنتمـا فريسة نصب ، ولم تستلم الملكة العقد قط » .

ثم بادر باسنج الى لقاء روهان فى قصره ، وحدث بينهما منظر عاصف ، وعبثا أكد له روهان ، ان الملكة هى المشترية ، وهى صاحبة الصفقة ، وان العقد فى أمان .

وأما چان فتقدمت الى الكردينال باكية ، وزعمت ان خصومها قد أوقعوابها ، وانها متهمة بإفشاء الأسرار ، واستغلال النفوذ ، وقد يقبض عليها من يوم لآخر ، والتمست اليه أن يأويها وزوجها بضعة أيام فى قصره ، فأبت رقة الكردينال إلا أن يجيب هـذا الملتمس الأخير ، وكان لچان فكرتهـا فى ذلك ، فقـد أرادت أن تربط مصيرها بمصير روهان ، وان تجعله وحده مركز التبعات كلها ، ثم غادرت القصر بعد يومين الى بارسيروب ، ولم تفكر فى الفرار ، لأنها لم ترد أن تقدم بالفرار دليلا على جرمها .

يقول الأستاذ لا بورى : « أى مسـلك أبعد عن الشذوذ ، وأشد فى الدهاء والحذر كان بوسع چان دى ڤالوا أن تسلكه ؟ كان الفرار تسليما بالتهمة ، وقد يقدم لروهان وسيلة الخلاص ، أما البقاء فهو قضاء على روهان بأن يسـوى المسألة بأى وجه ، فيـدفع الثمن ويتكفل بكل شىء . وماذا كانت تخشى فى الواقع ؟ ألم يكن روهان شريكها من بعض الوجوه ، لكونه قد تطاول على مقام الملكة بذلك الايمـان الساذج الذى أبداه نحو المقابلة السرية ، وتلك المكاتبة المزورة ؟ وروهان لا يستطيع رغم خديعتـه أن يقصد الى ضرر الملكة ، ولا يستطيع فى حالة العـلم أن يواجه تهمة بالاعتداء على ذى الجلالة ، وأن يعرض نفسه للنطع » [1] .

فقد روهان كل سكينة ، وأخذ الشك يمزقه ، وسرعان ما تبدت له الحقيقـة الرائعة حينما أراد أن يتحقق من أمر الخطابات التى حملتها اليه چان ، وذلك بمقارنتها برسائل حقيقية صادرة من الملكة ، فبدا التزوير ساطعا أمام عينيه .

(١) فرنان لا بورى ، من محاضرة ألقاها على المحامين سنة ١٨٨٨ ، واقتبس منها برنتانو .

فاشتد به الاضطراب والذعر، ولم ير للخلاص منفذا، واستشار فى الحال صديقه الحميم كاجليوسترو، فنصح اليه أن يسارع الى الملك، فيقص عليه تفاصيل الحادث كلها، و يطلب اليـه العفو والصفح . ولكن روهان كان فريسـة الحيرة والتردد، وكانت تغلب عليه فكرة أخرى هى أن يحسم الأمر بدفع الثمن واحتمال التبعات كلها.

ولكن الوقت كان قد فات، وعلمت الملكة بالحادث من مدام كاميان، فاستدعت بيمر فى الحـال، فحضر الى فرساى فى ٩ أغسطس، وقص على الملكة تفاصيل المسألة كلها، فدهشت وارتاعت لخطورة الحادث، وأمرته أن يكتب به تقريرا مفصـلا، فكتبه وقدمه اليها فى ١٢ أغسطس، فعرضته الملكة على الملك، وقصت عليه ما سمعت فى انفعال وتأثر، و بحث الاثنان وحدهما الأمر مليا .

ثارت مارى انتوانيت غضبا وسخطا لهـذا الاجتراء على مقامها، وهـذا التهجم على حرمتها والاتجار باسمها، وفاض قبلها حقدا على هذا الحبر الذى ذهب فى الجرأة الى حد الادعاء بأنها عهدت اليه أن يشترى لهـا فى الخفاء عقدا، والى التفاخر بأن تكاتبه سرا، واعتزمت أن تسحقه بانتقامها واحتقارها .

* * *

وفى يوم ١٥ أغسطس احتفل البلاط بعيد « الرفع »، وذهب الكردينال الى فرساى فى أثوابه الرسمية ليقيم القداس فى كنيسة القصر . وكان القصر غاصا بالأمراء والنبلاء والكبراء . ولكن الملك كان مجتمعا فى مكتبه بالملكة، و بريتى رئيس الديوان الملكى، وميرومزنل وزير الحقانية، وكان البحث دائرا فى مسألة العقـد وموقف روهان . وكان ميرومزنل ينصح بالاعتدال والروية . ولكن بريتى كان ينصح بالشدّة . وبريتى عدو لروهان . وكانت الملكة تضطرم غضـبا لهذا التردد وتشدد فى طلب القبض على الكردينال .

وأخيرا اسـتدعى الملك روهان الى مكتبه، وكان ينتظر مع الكبراء فى البهو الخارجى وسأله : ما قصة هذا العقد الذى اشتريته باسم الملكة يا ابن العم ؟

فامتقع روهان، وأجاب بعد برهة صمت: مولاى، لقد أدركت أنى قد خدعت ولكنى لم أُخدع .

قال الملك، اذا كان الأمر كذلك ، فلا بأس عليك يا ابن العم، ولكن أوضح ما تقول ...

فألقى روهان حوله نظرة حائر مضطرب ، فألفى الملكة أمامه ، أبية ، رافعة الرأس، تحدجه بقسوة، وتسحقه بغضبها وازدرائها : « أى سقوط سريع ، مروع، حُطم فيه بضربة، ذلك الأمل الجميل الكبير الذى فاضت به جوانحه منذ منظر البستان ! » وشهد الملك انفعاله فطلب اليه برفق أن يكتب ما يريد قوله ، وغادره ودخل المكتبة تتبعه الملكة والوزيران . وكتب روهان بيد مرتجفة عدّة أسطر ذكر فيها انه ذهب فريسة لخداع مدام لاموت فالوا .

ثم عاد اليه الملك بعد برهة وألقى على ما كتبه نظرة، وسأله :

— وأين هذه المرأة ؟

— لست أدرى يا مولاى .

— وهل لديك العقد ؟

— أنه بين يدى هذه المرأة .

ثم قال الملك وأين الرقاع التى قيل أن الملكة كتبتها ووقعتها وأشرت اليها فى مذكرتك ؟

— هى عندى يا مولاى، وهى مزورة .

— اعتقد تماما انها كذلك !

— سوف أحملها الى جلالتك .

ثم قال روهان انه سيدفع ثمن العقد، وتضرع الى الملك أن يتدارك العاصفة التى ستنقض على رأسه ولا سيما فى هذا اليوم الحافل الذى يغص فيه البلاط بالكبراء والشعب .

وكان التردد باديا على وجه الملك ، ولعله كان يؤثر الروية والصفح ، ولكن مارى انتوانيت صاحت عندئذ بروهان ، وهى تبكى والزفرات تمزق صدرها ، كيف يجرؤ أن يعتقد أنها تقدم على مثل هذا الشذوذ ، وتنزل الى هـذا الدرك . فتأثر الملك ، وغلب رأى بريتى ، وقال الملك لروهان « سأفعل ما يجب على كملك وزوج » .

وكان البهو الخارجى يموج بالكبراء عندئذ ، وقد سادت الحضور الدهشة لفوات موعد القداس ، وكثر الحدس والظنون .

ثم فتح الباب أخيرا ، فظهر الكردينال شاحبا ممتقعا ، وظهـر وراءه بريتى وهو يصيح بالدوق دى ڤيلروا قائد الحرس : « اقبض على نيافة الكردينال[1] ! » .

فوقعت الصيحة على الجموع وقع الصاعقة ، وساد الهرج والاضطراب والتأثر ، وتطاولت الأعناق ، وانهمرت الأسئلة ، وحدق الناس بروهان من كل صوب ، حتى اضطر الدوق دى ڤيلروا أن ينتظر عود السكينة لينفذ أمر القبض .

غير أن روهان استعاد عندئذ جأشه ، وانتهز فرصة الاضطراب العام ، وهمس فى أذن سكرتيره الأب جورچل أن يحرق أوراقه الخاصة .

وفى مساء ذلك اليوم زج الكردينال روهان الى الباستيل .

وفى ١٨ أغسطس قبض على الكونتـة دى لاموت فى بار سـيروب ، وكانت تتوقع الضربة من آونة لأخرى ، فأخفت كل ما استطاعت من المـال والجواهر عند بعض أصدقائها ، وأحرقت كل أوراقها .

وقبض على كاجليوسترو وزوجه لأن الكونتة ألقت عليهما التهمة كما ألقتها على الكردينال .

وكان باقى المتهمين أعنى رتودى ڤيت ، والكونت دى لاموت ، ونيكول دوليڤا ، قد فروا الى الخارج . ولكن الحكومة الفرنسية لجأت الى كل الوسائل ، دبلوماسية وغيرها ، وبذل آل روهان كل ما اسـتطاعوا ، فى مطاردة الفـارين ، فقبض على

(١) لخصنا هذا المنظر عن فونك برنتانو .

رتودى ڤيت فى سويسرا ، وقبض على نيكول وخليلها بوسير فى بروكسل ، أما الكونت دى لاموت فاستطاع النجاة وحده ، وحبطت كل الجهود التى بذلتها السفارة الفرنسية فى لندن للقبض عليه .

كذلك قبض على جميع الشهود الذين ورد ذكرهم فى التحقيق ، مثل المحامى لابورت الذى حدث الكونتة عن صفقة العقد ، ومارى چان أخت الكونتة ، وروزالى وصيفتها ، والبارون لابلانتا وكيل الكردينال ، وعدّة آخرين ، وزجوا جميعا الى الباستيل .

٦

عهد الملك الى ڤرچان وزير الخارجية ، والمارشال دى كاسترى وزير البحرية باستجواب الكردينال ، فقدم اليهما فى ٢٠ أغسطس خلاصة مسهبة صريحة لجميع الوقائع والظروف ، نخيره الملك عندئذ بين قضائه الخاص وبين قضاء البرلمان ، لأن الملك باعتباره مصدرا للتشريع كان يحتفظ بحق الفصل فى المسائل التى يرى أن يفصل فيها .

فردّ روهان بخطاب قال فيه انه ما كان ليختار قضاء غير عدالة الملك ورفقه ، لولا أن حرمانه من المناقشة والمواجهة يحول دون إثبات براءته ناصعة ، ولهذا فهو يلتمس من جلالته أن يحيل قضيته على برلمان باريس لتفصل فيها الدوائر مجتمعة ، فأجيب عندئذ الى طلبه ، وأحيل الى قضاء البرلمان .

وطارت أنباء الحادث فى جميع أرجاء فرنسا ، وفى الخارج ، ونشط الرواة[1] الى تنسم أخباره وإذاعتها ، وتناولته النشرات والرسائل بكثرة ولا سيما فى هولنده ، وذاعت عنه أغرب الأنباء والروايات ، ولم يبق سواه حديث فى الأندية والدوائر ، وكثرت الآراء وتضاربت ، واشتد اهتمام البرلمان ، وفرح خصوم العرش والملكة ،

---

(١) الرواة Les Nouvellistes وهم نقلة الأنباء فى هذا العصر أو مخبرو الصحافة . وكانت الرواية الشفوية فى المقاهى والاندية ما زالت أكثر ذيوعا من الصحف .

وصاح سان چيست أحد مستشارى البرلمـان ، وهو الذى غدا فيما بعـد من أعظم زعمـاء الثوره : « انه لحادث عظيم سـعيد ! فثمة كردينال أفاق ، وملكة تذكر فى حادث تزوير... يالوصمة عصا القس ، وصولجان الملك ، و يالظفر دعوة الحرية ، و يالاهمية البرلمـان ! » .

لقد ارتكب لويس السادس عشر أشنع خطأ باذاعة الحادث وتحويل القضية الى البرلمـان ، ولم يقـدر ما كان يجيش به البرلمـان يومئـذ من خصومة للعرش ، وما كان يتمتع به آل روهان من الجاه والعصبية ، ولم يقدر بالأخص ، ما كان يشعر به الرأى العام نحو الملكة من النفور والريب . فجاء تصرفه نذيرا باتحاد خصوم العرش والملكة من النبلاء ورجال الدين ، والكافة ، واستحال الحادث من قضـية عادية ، الى معركة سياسية ، ونضال صريح بين مختلف الأحزاب والقوى .

انتـدب رئيس البرلمـان المركيز داليجر ، مستشارين همـا تيتون دى ڤلوتران ودبوى مارسـيه عرف كلاهما بالنزاهة والبراعة لتحقيق القضية ، فنشطا إلى اداء المهمة بغيرة وجلد ، وصدر أمر ملكى بتحويل الباسـتيل فيما يتعلق بمتهمى قضية العقد ، من سجن للدولة الى سجن قضائى وذلك لكى يوضع تحت تصرف البرلمـان ؛ وجرى التحقيق فى علانية ، ولم تتخذ أية اجراءات غير عادية ، ودونت جميع الأجوبة ، والشهـادات والمواجهات ، وبحثت جميـع الأقوال والتفاصيل . وكانت الأقوال والأجوبة كثيرة متضاربة ، وكانت تتضمن أحيانا كثيرا من الفضائح ، ولكن الرأى العـام كان يقف على كل شىء ، وكانت نتائج التحقيق تذاع تباعا . وكان يسـمح للمتهمين جميعا بتقديم جميع الدفوع والأوراق والمذكرات ، والاتصال بمحاميهم داخل السجن وفى الجلسات .

والخلاصة أن التحقيق سار فى مجراه العادى ، فى روية ودقة ونزاهة ؛ واستطال بضعة أشهر ، من سبتمبر سنة ١٧٨٥ الى مايو سنة ١٧٨٦ .

* * *

أبدت مدام دى لاموت طوال التحقيق كثيرا من البراعة والجلد ، وأصرت على الانكار حتى النهاية ، ولم يغلبها اليأس مرة ، وكان تفتن فى ضروب الدفاع ، فكلما نقضت الأدلة والقرائن لها دفاعا ، سارعت بابتكار غيره وأيدته بظروف ووقائع معقولة محكمة ، وكلما ووجهت بشاهد أو متهم تحدته ، ونقضت أقواله بقوة وذلاقة ، واخترعت لرده وتكذيبه أغرب الروايات والحجج ؛ فأما الكردينال فقد ردّت كل أقواله ، وزعمت أنها كانت له خليلة ، وأنه هو وحده مصدر كل ما لوحظ عليها من ثراء و بذخ ؛ وردّت أقوال دوليقا بأنها فتاة ساقطة لا خلاق لها ولا صدق ؛ وردت أقوال كاجليوسترو بأنه كان يهواها ويحاول وصلها ، ولما دحض كاجليوسترو مزاعمها بمهارة وكشف عن ختلها وكذبها لم تتمالك أن رمته فى وجهه باناء نحاسى كان على مقربة منها ؛ وكان أشدّ المواقف وطأة عليها مواجهة رتودى ڤيليت ، ودوليقا ، فقد اعترف رتو بكل شىء : بأنه هو الذى كتب كل الرقاع المزورة على لسان الملكة ، والمصادقة على عقد الشراء ، وكل ذلك بأمر مدام لاموت وإملائها ؛ وانه استلم العقد وسلمه اليها وعاونها فى بيع جواهره ؛ كذلك اعترف رتو ودوليقا بمهزلة البستان وتفاصيلها كاملة شاملة . وكان ذلك فى جلسة ١٢ أبريل سنة ١٧٨٦ . وهنا فقط خارت عزائم مدام لاموت ، واعترفت باشتراكها فقط فى مهزلة البستان فى فيض من الصراخ المنكر والشتائم واللعنات ، ثم حملت الى سجنها مغشيا عليها ولم تعترف بشىء آخر . ولم يكثر تعثرها وتناقضها إلا فى الجلسات الأخيرة ، فكانت تارة تتهم كاجليوسترو ثم تبرئه ؛ ثم تعود فتتهم الكردينال وتقول إنه استولى على بعض أجزاء العقد ، وإنه عهد اليها والى زوجها ببيع بعض جواهره ، ثم تعود فتنقض أقوالها وهكذا .

وأخيرا لجأت الى الصمت والغموض وزعمت أن فى الأمر سرا ، فلما لم تنجع حيلتها ، تظاهرت حينا بالجنون ، ولكن الأدلة والقرائن الساطعة كانت تسحقها سحقا .

وفى أثناء التحقيق ظهرت مذكرات الدفاع . وكان الدفاع يذاع يومئذ فى مذكرات توزع على القضاة والجمهور ، وتباع غالبا ، ويقبل الناس على اقتنائها ولا سيما فى القضايا والمحاكمات الشهيرة . وكان يتولى الدفاع عن الكردينال الأستاذ تارچيه أحد أعلام البيان فى ذلك العصر ؛ وعن الكونتة لاموت الأستاذ دوايو ، وهو محام شيخ لاشهرة له ؛ وعن دوليڤا الأستاذ بلوندل وهو محام فتى هام حبا بموكلته الحسناء ؛ وعن كاجليوسترو الأستاذ تيلوربيه ؛ وتولى محامون آخرون الدفاع عن باقى المتهمين . وظهرت مذكرة الأستاذ دوايو محامى الكونتة أولا فذاعت ذيوعا هائلا ووزعت منها آلاف عدّة . واشترك كاجليوسترو مع محاميه فى تحرير دفاعه وصدرت مذكرته قوية بديعة شائقة فلقيت نجاحا عظيما ؛ وكذلك لقيت مذكرة دوليڤا عطفا واقبالا . ثم ظهرت مذكرة الأستاذ تارچيه فى نهاية التحقيق تفيض بيانا وذلاقة ، وفيها يدحض كل ما نسب الى روهان بقوة ومتانة ، فذاعت ذيوعا عظيما ، وطبعت غير مرة ؛ ولبثت مذكرات الدفاع المختلفة تثير طلعة الرأى العام وتستهويه مدى أشهر .

* * *

وفى ٢٢ مايو سنة ١٧٨٦ بدأ برلمان باريس بنظر القضية فى صورة « الغرفة الكبرى » و « لاتورنيل » مجتمعتين ، وعدد أعضائه يومئذ أربعة وستون ؛ واستمر فى تلاوة أوراق القضية أسبوعا ؛ وفى يوم ٣٠ مايو استجوب المتهمون . وكررت مدام لاموت اتهام الكردينال ، ودحض روهان أقوالها بوضوح وصراحة ، وكرر رتودى ڤيليت ودوليڤا اعترافهما .

ثم نهض النائب العام چولى دى فليرى ، فألقى مرافعته وطلباته خلال الصمت العميق ، وطلب أن يُعلن أن المستند الموقع باسم « مارى أنتوانيت دى فرانس » مزور ، وطلب معاقبة الكونت دى لاموت غيابيا ورتودى ڤيليت بالأشغال الشاقة المؤبدة ؛ وأن يقضى على الكونتة دى لاموت بالجلد ، وبالكى فوق الكتفين ، وبالسجن المؤبد ؛ وأما الكردينال فقد سلم ببراءته من تهمة النصب وبأنه كان مخدوعا ،

غير أنه وجه اليه سهام اللوم إذ سمح لنفسه أن يعتقد أن الملكة تنسى شرفها وواجبها وكرامتها فتنزل الى لقائه خاسة تحت جنح الظلام فى أروقة البستان، وأن يجرى دون التحقق من رغبات الملك والملكة صفقة العقد، ويستعير لاجرائها اسما ساميا هو اسم الملكة فيهتك بذلك حرمة الجلالة الملكية رغم كونه من أكبر موظفى العرش؛ وأن هذا الاجتراء جريمة تستدعى الاصلاح الرسمى الخاشع؛ وطلب أن يعلن الكردينال ندمه وأن يلتمس الصفح من الملك والملكة، وأن يقضى عليه بالاستقالة من منصبه واجراء الصدقة للفقراء، وأن يقيم بعيدا عن القصر الملكى مدى حياته. وعلى أثر ذلك حدثت فى الجلسة ضجة شديدة، وتعالت صيحات الغضب من كل صوب، ونهض المحامى العام سجينيه، وطلب أن يقضى ببراءة الكردينال براءة خالصة، وحمل على النائب العام لأنه لم يعرض عليه طلباته وفقا للاجراءات، ووقعت بينهما مشادة حادة تبادلا فيها السباب والقذف.

وفى صباح اليوم التالى — ٣١ مايو — اجتمع البرلمان مبكرا لأصدار الحكم، وغصت أروقة البرلمان، والطرق المؤدية اليه بجموع حاشدة، واجتمع فى ردهة الجلسة اقطاب آل روهان وسوبيز ولورين ما بين سيد عظيم وسيدة عظيمة؛ وهم جميعا فى ثياب الحداد، ثم بدئ بأخذ الأصوات، وكان العرف أن يعلن كل قاض بمفرده رأيه مسببا؛ فأعلن البرلمان بادئ بدء تزوير المصادقة التى وردت على عقد شراء العقد منسوبة للملكة وكذلك توقيع «مارى انتوانيت دى فرانس»؛ ثم اعلن باجماع الآراء ادانة الكونتة دى لاموت ڤالوا والحكم عليها بأشد عقوبة دون الموت، ومعاقبتها بأن تجلد عارية، وأن تكوى على الكتفين بحرف V [1]، وأن تسجن حتى مماتها، وأن تصادر جميع أملاكها؛ وقضى على الكونت دى لاموت بالأشغال الشاقة المؤبدة، وعلى رتودى ڤيليت بالنفى خارج المملكة وذلك لما أبداه من الصراحة والصدق؛ وبرئت نيكول دوليڤا لعدم كفاية الأدلة [2]؛ وأما كاجليوسترو فبرئ براءة خالصة.

---

(١) هو الحرف الأول من كلمة Voleuse أى سارقة.

(٢) أو قضى «باخراجها من المحكمة» وفقا لتعبير العصر.

ثم جاء دور الكردينال، فاضطرمت بشأنه معركة حاميــة دامت عدة ساعات، ووثبت الأهواء السياسية والحزبية من مكامنها . وكان موقف البرلمــان دقيقا فى الواقع ، لأن الحكم لروهان حكم على العرش والبلاط ، والحكم عليــه فوز للملكة وحزبها . والرأى العام يخاصم الملكة، والبرلمــان لا يستطيع مقاومة الرأى العام، هذا فضلا عن أنه لم يكن على وفاق مع العرش . ومن ثم كان احتدام الآراء واضطرام الجدل، فألقيت خطب رنانة ظهر فيهــا أثر الرأى العام واضحا، وظهرت خصومة البرلمــان صريحة للعرش ، و برئ الكردينال دى روهان براءة خالصة بأغلبيــة ستة وعشرين صوت ضد اثنين وعشرين[1] .

وطار الخبر الى الجموع، فارتفعت الصيحة من كل صوب «ليحيي البرلمــان ! ليحيي الكردينال !» .

وفى اليوم التالى غادر روهان وكاجليوسترو سجن الباستيل . وكان يوما مشهودا، فقد حاصر الشعب قصور آل روهان، وهتف للكردينال طويلا، واضطره الى الظهور مرارا فى شرفة قصره؛ وهتفت الجموع لكاجليوسترو اينما حل .

ولكن الملك لم يستطع صبرا على قضاء البرلمــان، وغلبته شهوة الانتقام لكرامته وكرامة زوجه، فأرغم روهان على الاســتقالة من منصبه ونفاه الى دير فى الريف ، وأمر بنفى كاجليوسترو من أرض فرنسا .

* * *

كان الحكم لروهان ضربة أليمة للملكة .

أرادت مارى انتوانيت أن تستحق روهان وحزبه ، فأجابها البرلمــان بأن الكردينال كان فى حل من أن يؤمن بكل ما نسب اليهــا من انتهاك لواجبها وشرفها كزوجة وملكة .

---

(١) نلاحظ أن الأعضاء الأحبار انسحبوا عند البحث فى أمر الكردينال، وعددهم أربعة عشر .

يقول الأستاذ لابورى : «ألم يك اذن ثمة شخص يصيح بهذا الشعب الجبار أن هنالك جرائم مستحيلة وأن ملكة فرنسا لا تبيع نفسها بحلية ؟»[1] .

كانت مارى انتوانيت بريئة، ولكنها كانت ضحية القذف والوقيعة والتحامل ؛ وكان خصوم الملوكية ينظرون الى موقفها وتصرفاتها بعين الهوى، ويرجعون اليها التبعة فى كل ما يعانى الشعب من آلام ومصائب؛ وكان الشعب يستمع اليهم .

لم تعد مارى انتوانيت، ولية العهد الفتية المحبوبة، يضطرم الشعب نحوها حبا وعطفا، بل غدت فى نظره، تلك الملكة، المسرفة المغرقة فى البذخ، المستهترة ببؤسه وآلامه، المبذرة لأمواله واقواته، فى حفلاتها وثيابها وحليها .

ومافعلت قضيةالعقد سوى أنأكدتهذه الصورة، واذكت الوقيعة والتحامل . أليست تتعلق بملايين تبذل ثمنا لعقد للملكة ؟ ثم ألم تكشف عما يغرق فيه النبلاء ورجال الدين من بذخ طائل يستحلونه من دماء الشعب؟ ألم تقدم مجتمع النبلاء ورجال الدين فى صور مخزية مثيرة، وتكشف عما يتغلغل فى خلال ذلك المجتمع الرفيع من عوامل الانحلال المروع ؟ .

كانت قضية العقد ضربة للملوكية والنبلاء ورجال الدين جميعا .

يقول جيته : «كانت هذه القضية ضربة هدمت اسس الدولة، وحطمت تقدير الشعب للملكة والطبقات العليا بصفة عامة، واسقطت دسائسها هيبة الملوكية . وتاريخ العقد هو فاتحة الثورة . وقد فقدت الملكة التى وثق اسمها بهذا الحادث المشئوم كرامتها وقدرها، وفقدت فى ذهن الشعب تلك المؤازرة المعنوية التى تجعل منها شخصا لا يمس»[2] .

---

(١) فى محاضرته السالفة الذكر .

(٢) فى كتابه : (Campagne in Frankreich) وهو تأملات عن غزوة ألمانيا لفرنسا فى بدء الثورة .

ويقول دى نولهاك : « منذ قضية العقـد ، تسارع فرنسا نحو الثورة ، وقـد فقدت الملوكية هيبتها الأخيرة ، ونزع تاج مارى انتوانيت سلفا » .

ثم يقول كارلايل فى اسلوبه الشعرى : » لقد اصيب العرش بصدمة مخزية ... ولبثت أوربا دهشة تضطرم بالخفاء عشرة أشهر ، فلا ترى إلا كذبا يطويه كذب ، وفسادا بين الرفيع والوضيع ... فابك أيتها الملكة الحسناء بدموع شقائك الأولى ، فقد وصم لسان البذاءة ، اسمك الجميل الى الأبد ، ولن تحبك القلوب أو تشفق عليك بعد[١] » .

ثم يقول ميرابو : « لقد كانت قضية العقد فاتحة الثورة[٢] » .

مراجع هذا الفصل

Fr. Funck-Brentano : L'Affaire du Collier.

Pierre de Nolhac : La Reine Marie-Antoinette.

H. Robert : Les Grands Pocès de l'Histoire.

Von Bülau : Geheime Geschichten und räthselhafte Menschen.

وبعض تواريخ للثورة الفرنسية اشير اليها فى سياق البحث .

---

(١) فى كتابه : The French Revolution

(٢) نرى اتماما للوقائع أن نذكر أن مدام دى لاموت بعد أن نفـذ فيها الحكم الصادر عليها بالجلد ، والكى ، ثم السجن ، استطاعت أن تفر من سجنها ، وأن تجوز البحر الى لندن . وهنالك نشرت تاريخها ، ومذكرات عن حادث العقد تؤكد فيها براءتها ، وتتهم الملكة بارتكابها كل الوقائع التى فصلناها ، وتنسب اليها كثيرا من الفضائح المثيرة . وكان لمزاعمها أثر كبير فى الرأى العام يومئذ ، بل كانت كما سنرى مادة لصوغ التهم التى وجهتها المحكمة الثورية الى مارى انتوانيت فيما بعـد . وقد يميل بعض النقدة المحدثين الى الأخذ بمزاعمها فى البراءة واتهام الكردينال دى روهان . من ذلك ما نشره المسيو لوى دى سوداك فى جريدة الطان فى أبريل سنة ١٩٠٢ . فقد ذهب فى بحثه الى اتهام الكردينال بالاستيلاء على العقد ، وكاجليوسترو بتزوير عقد البيع . ولكن المسيو فونك برنتانو يفند هذا الرأى فى مقدمة كتابه بقوة ووضوح . كذلك يجدر بنا أن نذكر أن الكردينال دى روهان تكفل بدفع ثمن العقـد ، وأداه فعـلا بتحويل ايراد بعض أدياره الى الجوهريين .

الكتاب الثالث

فى المحاكمات والقضايا الكبرى

---

٢ – عصر الثورة الفرنسية

تمهيـــــد

يقدّم عهد الثورة الفرنسية مادة غزيرة للقضايا والمحاكمات الكبرى؛ فلم يعرف التاريخ مثله عهدا، شهر فيـه سيف الاتهام بمثل روعته، وتعاقبت المحاكمات بمثل سرعته؛ ولم يشهد بالأخص فى عهد سواه مثل هذه الجمهرة من رؤوس سامية أو نابهة غص بها نطع الجلاد، وسقطت بسيف القضاء .

لبث المؤتمر الوطنى والمحكمة الثورية حينا مسرحا لهـذا القضاء المروّع، يفيض بالأهواء والشهوات العنيفة، وتتجاذبه الريب والأحقاد، وتمثل فيـه مأساة النضال الخالد فى سبيل الزعامة والسلطان، وتتفجر من حوله ضروب باهرة من الحماسـة والفصاحة والبيان .

لهـذا كان طبيعيا أن يخص تاريخ المحاكمات الكبرى قضايا الثورة الفرنسـية بكثير من العناية والافاضة . وسنقدّم نحن فى هذا الكتاب طائفة من هذه القضايا الكبرى . غير أنا نرى أن نمهـد اليها أولا بخلاصـة وجيزة للعوامل التى أدّت الى نشوب الثورة، وكذا لمـا يرد من حوادثها فى سياق الحديث .

* * *

لم تكن الثورة الفرنسية مفاجأة رائعة، وان تمخضت عن نتائج لم يتوقعها أحد حتى أولئك الذين أذكوا ضرامها، وسـيروا حوادثها؛ ولكنها كانت نتيجة طبيعية محتومة لعوامل ومؤثرات قوية دفينـة، لبثت عصورا تضطرم فى أعمـاق المجتمع الفرنسى، وثمرة لعقلية جديدة يجيش بهـا الشعب الفرنسى منذ بعيد . ومن الخطأ أن نرجع الثورة وكل آثارها الى أسـباب مادّية معينة — كالأزمة المـالية، وعجز الحكومة عن الاصلاح، والكوارث الزراعية، وقلة المؤن والأقوات — فقد كانت هذه الأسباب وأمثالها نذيرا بهبوب العاصفة فقط؛ واذا كانت قد أدّت بالفعل الى وقوع حوادث الثورة الأولى كاستدعاء الطبقات ثم نزاعها مع البلاط، وقيام الجمعية

الوطنية ،وسقوط الباستيل، فليست هى التى أدت الى اعلان حقوق الانسان ووضع الدستور، ثم إنشاء المؤتمر الوطنى و إلغا الملوكية و إقامة الجمهورية ،وسحق النظم القديمة كلها : وهذه هى الثورة . ولكن العوامل المعنوية والنفسية كانت أعمق وأشد أثرا فى تحريك العاصفة بل هى روح الثورة الحقيقى ، وعلى ضوئها فقط نستطيع أن نقدر ذلك المدى الهائل الذى بلغته حوادث الثورة وآثارها .

هـذه العوامل المعنوية والنفسية ترجع فى الأصل الى تكوين المجتمع الفرنسى ذاته ، والى تطوره فى ظل الإقطاع والملوكية . فقد نشأ المجتمع الفرنسى الحـديث كغيره من مجتمعات العصور الوسـطى ، مزيجا من طبقات متباينة ، تتفاوت فى الحريات والحقوق، ومن طوائف يمزقها الإيثار، ويحفزها النضال المستمر. كان مجتمعا قوامه الأمراء الاقطاعيون بقصورهم وبطاناتهم، والفرسان والنبلاء بأتباعهم وحشمهم، ورجال الدين بكنائسهم وأوقافهم وأملاكهم ، ثم جماعات الشعب من عمال وجند وفلاحين، يسومها الخسف هؤلاء وهؤلاء؛ والملوكية فوق الجميع يضطرم الصراع بينها و بين الأمراء والفرسان والنبلاء على توزيع السلطان والثروة؛ والشعب فى كل ذلك فريسة لطغيان المتنافسين فى استعباده واستغلاله . ثم سما شان الملوكية الفرنسـية ودالت دولة الأمراء الاقطاعيين، واستأثر آل كابيه بالسلطة الحقيقية ، واحتفظ النبـلاء حينا بامتيازاتهم ، حتى جاء ريشليو فأذلهم، وأخضعهم لسلطان العرش . وفى عهد لويس الرابع عشر، وصل الطغيان ذروته، واجتمعت كلمة الملوكية والنبلاء ورجال الدين على إرهاق الشعب واستغلاله ، وهبت على فرنسا ريح قوية من السلطان المطلق، والايثار بين الطبقات، وسحقت الحريات السياسية والفكرية ثم الدينيـة ، وطوح العرش بأبناء الشعب الى حروب طاحنـة ، تحقيقا لاطماع له فى السـلطان والملك ، واستنفدت الحرب و بذخ العرش والنبـلاء موارد الأمة . ثم كان عهد لويس الخامس عشر، فوصل المجتمع الفرنسى الى أسفل درك من الانحـلال الاجتماعى والخلق ، واجتمعت مظالم عصور ، ومثالب أحقاب طويلة من الجور والبطش والارهاق، لتبعث هذه العقلية الناقمة الساخطة التى الفت فيها

صيحات ڤولتير، ومونتسكيو، وروسو، وديدر، مهادا خصبة لبث المبادئ والتعاليم الجـديدة . وكانت المظالم قد بلغت ذروتها وسرت الفوضى الى جميع نواحى الحياة العامة ، وساد الهوى كل أعمال الحكومة والبـلاط ، وسادت الرشـوة القضاء ، واجتمعت الوظائف العامة فى يد جمـاعة من الأسر النبيلة القوية ، وحرم الشعب كل رأى وشـورى ، واشـتد النبلاء ورجال الدين فى ارهاقه واسـتغلاله ، حتى غدت حياته غمارا من البؤس والحرمان ، وارتفعت الصيحة العامة من كل صوب فى طلب الاصلاح . وكان الشعور عاما بوجوب الاصـلاح العاجل ، فى البـلاط وفى الحكومة؛ وكان لويس السادس عشر يتوق الى الاصلاح من صميم قلبه، ويبحث حوله عن المصلح الذى يضطلع بالموقف ، وينتشـل البلاد من هاوية الخراب الاقتصادى . ولكنه لم يحسب حسابا لارادة الملكة ، وأهواء البطـانة . وكانت ارادة الملكة كما رأينـا تغلب على ارادة الملك الضعيف المتردد، والرغبة فى الاصلاح تغالبها الأهواء والمصالح الخاصة، وهكذا حيل بين المصلحين وبين اجراء الاصلاح، وأقصت الملكة تيرجو أول الوزراء المصلحين ، وتعاقب فى الحكم وزراء ضـعاف يأتمرون بأمر الملكة والبطـانة، حتى تفاقم الخطب، وبلغت الأزمة ذروتها، وبلغ اليأس بالشعب أقصاه، ولم يدرك البلاط فداحة الخطر الا بعد فوات الوقت .

فى ذلك المأزق العصيب اجتمعت الآراء على اسـتدعاء نوّاب الطبقات لبحث الموقف ، فدعى النوّاب الى الاجتماع ، واجتمعوا فى ڤرساى فى مايو سنة ١٧٨٩ ، ووقع الخلاف بين نوّاب الشعب وبين العرش على نسبة التمثيل وطرق الاصـلاح ، وانضم النبلاء ورجال الدين الى العرش فى مقاومة مطالب نوّاب الشعب، وانضمت الحكومة الى العرش، وكثر الجدل والتردد ، وظهرت خصومة فريق العرش واضحة للأمة ومطالبهـا ، وذهب نوّاب الأمة للاجتماع ذات يوم، فأوصدت فى وجوههم قاعة الاجتماع الملكية، فاجتمعوا فى ساحة قريبة منها، وهنالك أقسموا بألا يفترقوا حتى يستردوا حقوق الشعب ويهبوا فرنسا نظما جديدة؛ ولم تمض أيام قلائل حتى اتخذوا اسم الجمعية الوطنية؛ فحشد البلاط الجند فى ڤرساى وباريس تأهبا للقمع والمقاومة ،

وعزل الملك وزير الاصلاح نكروزملاءه فى ١١ يوليه ، فاضطرمت باريس بنار الثورة، و بدأ النضال .

* * *

وكان سقوط الباستيل[1]، فاتحة الثورة الحقيقية .

ففى ١٤ يوليه سقط الحصن البغيض الذى لبث قرونا رمزا هائلا لعسف الملوكية و بطشها ، واتخذته مدى العصور مدفنا للاذهان النابهة، والفكر المستنيرة، والأصوات العالية ، سقط فى يد جماعة شاحبة جائعة رثة، ولكن فياضة الايمان والعزائم .

لم يكن سقوط الباستيل حادثا خطيرا فى ذاته، ولكنه كان خطيرا فى آثاره ونتائجه ، فقد كان أول نفثة لغضب الشعب ، وأول ظفر للثورة ، وأول طعنة حقيقية للملوكية والنظام القديم .

روّع البلاط ، وشعر بالخطر يحدق به، فذهب الملك فى اليوم التالى الى الجمعية الوطنية، وأبلغها أنه يسحب جنده من باريس وفرساى وهو ما أباه من قبل ، وأنه يركن الى اخلاصها ووطنيتها فى تهدئة الشعب ؛ فهدأت باريس فى الحال، وعين بايلى حاكما لها ، ولافاييت قائدا للحرس الأهلى ، وكلاهما محبوب من الشعب .

---

(١) الباستيل حصن قديم شيد فى عهد الملك شارل الخامس بين سنتى ١٣٦٩ و ١٣٨٢ ولبث أكثر من قرنين قلعة حربية ، ولكنه كان فى تلك العصور أيضا سجنا للعرش يزج اليه خصومه من الأكابر والساسة . وفى عهد لويس الثالث عشر جعل الباستيل سجنا رسميا للدولة ، يسجن فيه الرجال والنساء من كبراء وأفراد عاديين ؛ وكان يخصص غالبا لسجن الكتّاب والساسة وخصوم العرش ، تحقيقا لسياسة الانتقام والهوى ؛ ثم ذاعت « الرقاع المبصومة » منذ عهد لويس الرابع عشر ، فكانت سلاحا فى يد القادرين والأغنياء لزج خصومهم الى الباستيل (راجع ص ١٨٩) ، وشاع سجن الأبرياء فيه ، وغدا رمزا مروّعا لبطش العرش والحكومة والكبراء ؛ ومن أشهر سجنائه فى تلك العصور ذو القناع الحديدى المشهور ، وفوكيه ، والماريشال دى ريشليو ، ودى رنيفيل ، وفولتير ، ودى لاتيد ، و بومون ، ولابوردنيه ، ولالى ، والكردينال دى روهان وغيرهم .

وفى أوائل القرن التاسع عشر وجدت محفوظات سجن الباستيل الرسمية مدفونة تحت أنقاضه ، فأودعت مكتبة «الارسنال» ، وكانت أثمن مادة لتاريخ هذا السجن الشهير .

وأراد الملك فوق ذلك أن يقدّم البرهان على اخلاصه للشعب وعطفه على مطالبه ، فزار باريس فى ١٧ يوليه وعلى صدره الشارة المثلثة اللون — الأبيض والأزرق والأحمر — وهى شعار الثورة، فاستقبله الباريسيون بترحاب وحماسة ، ولاحت تباشير الصلح بين الفريقين . غير أن الملكة عز عليها أن تخضع الملوكية أو تذل، وعضدها البلاط حرصا على رسومه وامتيازاته، وآثرت أن تسلك سبيل العنف والنضال، وأن تحافظ على حقوق العرش كاملة مطلقة، فأنكرت تصرف الملك، وحالت دون مضيه فى سياسة التوفيق والتفاهم .

كانت مارى انتوانيت على قول ميرابو « رجل الملك الوحيد » .

فقطعت المفاوضات التى كانت تجرى بين الملك والجمعية لعقد اتفاق يمنح الملك بمقتضاه بعض الحقوق الدستورية لشعبه ، وغدا القصر وكرا للتآمر على الشعب ونوابه، وتدبير الخطط لمقاومته وتفريق جموعه .

غير أن الجمعية الوطنية مضت فى تنفيذ مهمتها غير مكترثة بالبلاط ودسائسه ؛ فأعلنت حقوق الانسان،وقررت إلغاء امتيازات النبلاء رجال الدين،ونظم الاقطاع وما إليها من حقوق موروثة ، وكل فوارق الطبقات . ووضعت دستورا جديدا لفرنسا أساسه أن تكون الحكومة ملوكية محدودة بلا سلطة مطلقة، والتشريع من حق برلمان ذى مجلس واحد، أو بعبارة أخرى كان للأمة أن تأمر، وعلى الملك أن يطيع . وفى هذا يقول المؤرخ لاڤالى : « قضت الثورة من وجهتها الاجتماعية على النبلاء، وقضت من وجهتها السياسية على الملوكية » .

* * *

وفى ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٨٩ أقام البلاط وليمة للحرس الملكى شهدها الملك والملكة وأكابر البطانة وتقلدوا الشارة البيضاء — شعار الملوكية — وأنشدوا الأغنية الملكية، وأهانوا الشعب والجمعية الوطنية ، فطار الخبر الى باريس، واستشاطت غضبا وسخطا . وفى صباح ٥ أكتوبر غص ميدان جريڤ بجموع كبيرة من النسوة

الثائرات ، فهاجمن دار البلدية وهزمن جند الحرس الأهلى ، واستولين على السلاح ، ثم صاح فيهن ستانسلاس مايار (وهو من قواد موقعة الباستيل) : «الى ڤرساى !» فانطلقن كالسيل واقتحمن المدينة ، وانضم إليهن فى الطريق كثير من الرجال ، و بدأن بمهاجمة الجمعية الوطنية ، وأهنّ النواب ، وطلبن قرارا بتخفيض ثمن الخبز . ثم وثبن على القصر الملكى فهربت الملكة الى جناح الملك ، فطعن فراشها بالرماح . واستغاث البلاط بالحرس الأهلى فقدمت منه فرقة للنجدة ، ثم قدم لافاييت بنفسه ليهدئ ثورة الجموع . وكان الملك غائبا يلهو بالصيد ، فلما عاد الى القصر هاله الأمر ، و بادر الى شرفة القصر مع الملكة ليستعطف الثائرات ، وقد كان أسيرهن فى الواقع لأنهن هزمن حراسه وقتلن عددا منهم ؛ ولكن الثائرات لم يقنعن بذلك وأصررن على ذهاب الملك وأسرته الى باريس ، فاضطر الملك الى الاذعان خوفا من سوء العاقبة ، وسار الى باريس فى عربته مع الملكة وابنته وولى العهد ، وحولهم جموع كبيرة من الثوار تهتف بحياة الأمة ، حتى وصلوا الى قصر التويلرى بعد رحلة مؤلمة استمرت سبع ساعات .

وهنا شعر الملك بالحقيقة الرائعة ، وهى أنه أضحى وأسرته أسرى الثوار ، وأن نقله الى باريس لم يكن إلا لقصد التأكد من شخصه ، وابقائه تحت رحمة الثوار بعيدا عن كل نجدة ، وأن الجند الذى عين لحراسته لم يعين إلا لمراقبته واحصاء حركاته وسكناته .

على أن الملوكية لم تعدم كل نصير بعد ، فقد كان فريق من نواب الجمعية الوطنية يرون أن الثورة يجب أن تقف عند هذا الحد اتقاء لوقوع البلاد فى غمر الاضطراب والفوضى ، وأن الملوكية يجب أن تبقى رمزا للسلطة ما دامت الأمة قد وصلت الى مطالبها الدستورية . وكان زعيم هذا الفريق ، ميرابو أقوى شخصية فى الجمعية الوطنية ، وأخطب خطبائها . فلما وقعت ثورة ڤرساى ، ونقل الملك الى التويلرى ، أخذ ميرابو يكاتب الملك والملكة سرا ، وينصح اليهما بالاذعان الى قرارات الجمعية الوطنية . وفى ٣ يوليه سنة ١٧٩٠ قابل الملك والملكة فى سان كلو وهدأ روعهما بالوعود ؛

وفى ١٤ يوليه أول عيد للثورة، حلف الملك يمين الطاعة للدستور مع النواب فى ساحة الشان دى مار، فهتف الشعب له هتافا مستفيضا .

على أن هذه لم تك سوى مظاهر خادعة لأن نفوذ الجمهوريين فى الجمعية كان يرجح نفوذ الدستوريين، وكان سواد الشعب يؤيد الجمهوريين، وكانت الجمعية تتصرف فى شئون الدولة متجاهلة وجود الملك . فثار الملك سخطا لذلك، وآثر أن



ميرابو

يعمل نهائيا بنصح الملكة والمهاجرين، وأخذ يفاوض معظم ملوك أوربا، ويطلب اليهم الحماية والنجدة .

ولم تمض بضعة أشهر أخرى حتى توفى ميرابو وانهار بموته حزب الاعتدال فى الجمعية . فاعتزم الملك أن يلجأ الى الوسيلة الأخيرة وهى أن يفر من باريس الى الحدود الشرقية ، وكانت هذه مخاطرة هائلة اذا أفلح فيها فقد يستطيع بمؤازرة المهاجرين وألمانيا أن يسترد عرشه وسلطانه ، واذا [illegible] اعتبره الشعب لا محالة

خائنا ، وقد أخفق ، إذ غادرت البطانة باريس سرا فى ٢٠ يونيه سنة ١٧٩١ ، وفر الملك وأسرته ووصل آمنا الى ڤارين على مقربة من ڤردون حيث تقرر لقاءه بجماعة الحرس التى دبرت مشروع فراره ، ولكنه انتظر فى ناحية من البلدة ، وانتظروه بالخيل فى ناحية أخرى ، ولم يلبث أن عرفه الناس رغم تنكره فقبضوا عليه ، ثم لحق به الثوار وعادوا به وبأسرته الى باريس .

وكان ذلك الحادث أول فرصة انتهزها الجمهوريون للمطالبة بعزل الملك باعتباره خائنا للأمة ، لأنه لم يقصد بالفرار إلا الاستعانة بالمهاجرين والأجانب على سحق الثورة ، ونهض جماعة منهم وهم «الكردليون» اتباع دانتون يطلبون محاكمته ، واجتمعوا مع شرذمة من الثوار فى الشان دى مار فى ١٧ يوليه ، فنشبت بينهم وبين الدستوريين معركة دموية فهزم الجمهوريون ، وركنوا الى السكينة حينا ، ولبثوا يرقبون الفرص .

ومن ذلك الحين اشتدت الرقابة على الأسرة الملكية فى التويلرى ، واضطرت أن تعيش فى وابل من الاهانة والزراية والوعيد .

وفى ٢٠ يوليه سنة ١٧٩١ هجم الثوار على قصر التويلرى واقتحموه رغم مقاومة الحرس الأهلى ، واهانوا الملك والملكة ، واضطروا الملك أن يلبس القبعة الحمراء (قبعة الحرية) وأن يعد « بالاذعان لكل ما يأمر به النظام الجديد » .

وفى ليلة ١٠ أغسطس أعاد الثوار الكرة على التويلرى ، وهاجموه بعد منتصف الليل فدافع رجال القصر عن أنفسهم حتى قدم النائب العام فى صباح اليوم التالى ، واقترح على الملك أن يلجأ الى حماية الجمعية التشريعية ، فسار الملك وأسرته بين جموع مضطربة متوعدة الى دار الجمعية ، وهنالك اعتقلوا فى مخدع ضيق زهاء سبع عشرة ساعة ، وقررت الجمعية أنها تضع الملك وأسرته « تحت حماية القانون » .

وكان الملك يعتقد حين مغادرته للتويلرى أنه يستطيع العودة اليه متى هدأت الحال ، ولكنه خدع فى ذلك الأمل فانه أخذ وأسرته الى دير « الفيان » واعتقلوا هنالك حتى ١٣ أغسطس . وكانت المناقشات الحادة تحتدم أثناء ذلك فى الجمعية

التشريعية حول اختيار مكان ملائم تسجن فيه الأسرة الملكية ، فوقع الاختيار في النهاية على التامپل ، وهو حصن عتيق ، مشيد الأركان ، كثيف الجدران ، منيع الأبراج ، فزج الملك وأسرته الى برجه الأكبر ووضعوا تحت حراسة « الكومون » والبلدية .

وكان الملك يشغل جناحا من البرج ، وتشغل أسرته جناحا آخر ، وهؤلاء هم الملكة ، وابنتها ماري تيريز وهي فتاة في الرابعة عشرة ، وولي العهد وهو في السابعة ، ومدام اليزابيت أخت الملك . ولم يلحق بالأسرة الملكية من الحشم سوى كليري خادم الملك المخلص ، فقد سمح له أن يخدم في الشدائد أولئك الذين خدمهم في النعماء . وكان يسمح للملك أن يجتمع نهارا بأسرته ويقضي الجميع ساعات الأسر سويا ، فيتناولوا الافطار صباحا في غرفة الملك ، ثم يجتمعون في جناح الملكة ، ويشتغل الملك بتعليم ولده ، وتشتغل الملكة بتعليم ابنتها . ثم تشتغل بالتطريز مع مدام اليزابيت . وعند الظهر تؤخذ الأسرة للرياضة في الحديقة المجاورة للسجن بصحبة حرس مسلح ؛ ثم تتناول طعام الغذاء في الساعة الثانية ، ويستريح الملك قليلا ، وتشتغل الأميرات بالتطريز ، ويلاعب كليري ولي العهد . ثم يتناولون العشاء سويا ، ويعود كل الى غرفته ، ويقضي الملك حينا في القراءة . وكان يقرأ عادة كتب مونتسكيو ، وبوفون ، وهيوم ؛ ولم يكن يسمح للملك أو الملكة بقراءة الصحف أو كتابة الرسائل ، فكانا يقفان على أخبار الحوادث اليومية من الحراس أو نداء باعة الصحف ؛ ثم حرم التطريز بعد ذلك على الملكة والأميرتين بحجة أنه قد يخفي مكاتبة سرية .

هكذا كانت حياة الأسرة الملكية في أسرها المحزن .

واليك كيف يصور لامارتين نفسية الملك الأسير : « اعتاد الملك أسره ، وخلد روحه الذي خلق للراحة والسكون الى التفكير في ظل هذه الجدران ، يتقوى بالتأمل ، ويتحرر بالصلاة ، ويتعزى بالا فضاء الى تلك الأنفس الوحيدة التي أحبها »

فى دائرة صغيرة من الحنان، يضيقها السجن من حوله . ولم يكن للويس السادس عشر، وهو ينسى راضيا عبء العظمة الذى سحقه، الا أمنية واحدة هى أن يُنسى فى ذلك البرج، حتى يعيده الغزو الأجنبي، أو عود الروية الى الشعب أو تطور الثورة، لا الى العرش وانما الى منفى أعذب، ويحقق له حرية ذويه »[1] .

ويقول تيير : « لما رد الملك الى الحياة الخاصة رد الى جميع فضائله، وغدا خليقا بتقدير جميع الأنفس الشريفة . ولو رآه أعداؤه أنفسهم بتلك البساطة والهدوء والنقاء، لما ملكوا أنفسهم من التأثر رغم ارادتهم، ولعفوا عن الأمير، اكراما لخلال الانسان »[2] .

---

(١) لامارتين : Hist. des Girondins (الكتاب الرابع والثلاثون) .

(٢) تيير : Révolution Française (الكتاب الحادي عشر) .

الفصل الأول

محاكمة لويس السادس عشر

نوفمبر سنة ١٧٩٢ — يناير سنة ١٧٩٣

لم يفقد الملكيون أمام ظفر الثورة ، عزمهم وجلدهم ، بل نشطوا الى سحقها بكل ما وسعوا سواء فى الداخل أو الخارج . فأما فى الداخل فقد اندس فريق من زعمائهم الى المقاطعات والأقاليم النائيـة مثل ڤندة و بريتانيا و بوردو ، يحشـدون الجند ، ويجمعون المـال والذخائر و يتأهبون لمنازلة جيوش الثورة ؛ وأما فى الخارج فقـد فرّ معظم الأمراء والنبـلاء و رجال الدين وضباط الجيش القديم الى ما وراء الحدود الشرقية ، واجتمعوا فى « كو بلنز » ، وأنشأوا هنالك جيشا لقمع الثورة ، وأخذوا فى مفاوضة الدول الأجنبية للاستعانة بها على غزو فرنسا . كذا لبث الملك والملكة فى مراحل الثـورة الأولى ، على اتصال بالملكيين فى الداخل والخارج ، يمدانهـم بالأراء والنصح ؛ فلما استفحل أمر الثورة ، التجأ الملك الى مفاوضة الدول الأور بية ، ولا سيما النمسا وألمـانيا ، على يد الفارين من أقاربه ووزرائه السابقين .

وكانت الحكومات الملكية فى الدول الأخرى ترقب سير الحوادث باضطراب وجزع ، فلما تفاقمت الثورة و جرف سيلها كل النظم القديمة ، وسقط العرش الفرنسى ، وسجنت الأسرة الملكية ، فزعت الدول ورأت أن هذا الاعتـداء المروّع على الملوكية لم يبق مسألة داخليـة تعنى فرنسا وحدها ، بل غدا بالعكس مسألة الملوكية فى كل دولة ؛ ونشطت الى التأهب لغزو فرنسا ، وسحق هـذه الثورة التى تهـدد العروش ؛ وكان أسبقهـم الى الأهبـة ، النمسا وألمـانيا ، لأنهما أقرب الى مسرح الحوادث وأقرب الى التأثر بنتائجه ، ولأن الاعتـداء أصاب عضوا من أسرتيهما ، هو مارى أنتوانيت .

وتمت أهبتهما فى ربيع سنة ١٧٩٢ ، وأمدّهما مونمران وزير لويس السادس عشر بالخطط والأسرار الحربيــة ، وتعهــد لويس السادس عشر أن يدفع نفقات الحرب الى حلفائه عقب النصر .

ثم زحفت الجيوش المتحدة على فرنسا ، واقتحمت حدودها ، وانتصرت على جيوش الثورة بادئ بدء . وكان البــلاط يعتمد فى الداخل على بضعة آلاف من أنصاره المخلصين فى سحق الشعب الباريسى ، وحل الجمعية التشريعية ، وانقاذ الأسرة الملكية . ولكن جيش الثورة استردّ عزائمه قبل بعيد ، وثبت فى «ڤالمى» ، وأنزل بالعدو المغير هزيمة شديدة ، فزادت الثورة شدّة واضطراما ، وأنزلت بالملوكية ضربتها الحاسمة فى ١٠ أغسطس حسبما فصلنا ، وزج الملك وأسرته الى سجن التامپل ، ودبر الجمهــوريون مذابح سبتمبر التى هلك فيهــا معظم الملكيين ورجال الدين وأنصــار النظام القديم .

وفى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ ، أعلن المؤتمر الوطنى عزل لويس السادس عشر ، وفى اليوم التالى أعلن سقوط الملوكية ، وقيام الجمهورية .

وكان الملك أثناء ذلك يعيش مع أسرته ، منقطعا عن كل صلة ، غير أنه لم يقطع كل رجاء فى الخلاص من أسره . ودبر أنصاره فى بدء اعتقاله ، عدّة مشاريع لفراره ، اكتشفت كلها[1] وأدّت الى حرمانه من حيازة الورق والأقلام والحبر والسكين وغيرها من الآلات القاطعة ، والى مضاعفة الرقابة عليه ؛ وكان سانتير رئيس الحرس يقوم بالتفتيش العام فى كل يوم .

* * *

قدّمنا أن الفريق المتطرّف من نوّاب الجمعية الوطنية كان يرى عزل الملك منذ البداية ، وأنه طالب بمحاكمته عقب الفرار الى ڤارين . فلما سمــا شأن الجمهوريين ،

---

(١) يشير المؤرخ ميشليه الى هــذه المحاولات بشىء من التهكم ، ويقول إن روايات الملكيين فى شأنها تدعو الى كثير من الريب ، وإن كثيرا من المؤرخين نقلوا هذه الروايات دون تمحيص فى حين أنها تحتوى على كثير من المبالغات والأكاذيب وضعها الملكيون أنفسهم ليبــدوا للخلف فى أثواب الأبطال والشهداء (تاريخ الثورة الفرنسية) .

وتوج فوزهم باعلان الجمهورية ، وسيطروا على أقدار الثورة وسياسة المؤتمر الوطنى ، ارتفعت الصيحة ثانية فى المؤتمر بمحاكمة الملك الأسير، وكان زعماء هذه الصيحة جماعة من أقطاب الجمهوريين اليعقوبيين مثل دانتون، وايبر، وروبسبيير، ومارا، وكان الأفق يومئــذ صالحا لاجراء المحاكمة، لأن العدو غزا أرض الوطن، والقيت التبعة فى ذلك على لويس السادس عشر، وعلى الملوكية وأنصارها ، واعتزم اليعقوبيون أن ينزلوا ضربتهم بالملوكية فى شخص الملك الأسير، وأن يجعلوا منها شركا لخصومهم « الجيرونديين » ، وهم حزب الاعتدال، حتى اذا أبدوا معارضة أو رأفة أتهموهم بالرجعة والخيانة .

وطرحت المسألة على المؤتمر منذ أكتوبر سنة ١٧٩٢ ولكنها لقيت فى الحال صعابا فقهية ، لأن المؤتمر الوطنى لم يكن محكمة أو هيئة قضائية؛ وكانت هذه أول نقطة أثيرت، فأحيلت الى اللجنة التشريعية لبحثها وبحث ما يترتب عليها من الوجوه الفقهيــة الأخرى . وفى أوائل نوفمبر أتمت اللجنة عملها ، وقدم النـائب دوفريش ڤالازيه تقريرا بحث فيه الوقائع المنسوبة الى الملك، وعما اذا كانت فى ذاتها تكون جرائم معاقبا عليها ، وقدم النائب مايية تقريرا آخر بحث فيه القضية من وجهين أساسيين هما : —

هل تجوز محاكمة لويس السادس عشر ؟

وأى محكمة تختص بمحاكمته ؟

وفى ١٣ نوفمبر بدأ المؤتمر الوطنى بمناقشة المسائل الفقهية. وكانت الجمعية الوطنية قد قررت فى دستور ســنة ١٧٩١ حصانة شخص الملك، لأنه قضى على الملوكية ، ألا تعمــل إلا على يد الوزارء ، فلا يمكن اذن أن تحاسب إلا فى شخص الوزراء ، وبذا سنّ الدستور حقا للملوكية لا يجوز نقضه، وقد تعاقدت الجمعية والملك على قبول هذا الدستور، وقطعت الجمعية بذلك على نفسها عهــد أن تسهر على قدسية شخص الملك ؛ كذلك احتاط الدستور لأحوال الخيانة وخروج الملك على وطنه أو ائتماره مع

الأعداء به ، فقرر أن الملك فى هـذه الحالة لا يحاكم طبقا لقوانين الخيانة العادية ، وانما يعزل و يعتبر متنازلا عن الملك .

هذا هو النص القاطع الذى ألفى المؤتمر الوطنى نفسه أمامه وجها لوجه ،فاذا كان لو يس السادس عشر قـد ارتكب بمحاولة الفرار الى فارين أو مفاوضة أعداء فرنسا أو غير ذلك أعمالا تعتبر خيانة فى حق الوطن، فالعزل جزاؤه . وقد عزل . والدستور صريح فى حماية شخصه وعدم جواز محاكمته .

على ذلك وقع الخلاف فى الرأى واشـتد الجدل . وكان فى المؤتمر فريق قوى يود إنقاذ لو يس السادس عشر ، و يؤثر ألا تحتمل الثورة تبعة دمـه . وهؤلاء هم الذين استتروا بمبدأ الحصانة، ودافعوا عنه باعتباره نصا قائما يجب احترامه حتى مع التسـليم بادانة لو يس السادس عشر، وكان زعيم هذه الجمـاعة وخطيبها النائب موريسون، واليك خلاصة نظريتها وأسانيدها :

« ان محاكمة الملك غير جائزة لأن الحصـانة مطلقة عامة ، ثم هى عهد حقيق صريح قطعته الأمة على نفسها وقطعته الهيئة التشريعية ، وقـد افترضت حالة عدم التبادل فلا يمكن أن تكون سببا فى البطلان ، والواقع أن هـذه الحصانة لا تترك جريمة دون عقاب،فان المسئولية الوزارية تلحق كل الأعمال، لأن الملك لايستطيع بعد أن يتآمر.أو يحكم دون أعوان . ثم ان هـذه الجرائم السرية التى تخالف جرائم الادارة الظاهرة، قد نص عليها ونص على عقابها بالعزل، لأن كل خطأ من جانب الملك ينتهى فى هذا التشريع بوقفه عن وظائفه . فاذا اعترض على ذلك بأن العزل ليس عقوبة، وانه ليس إلا حرمانا من الأداة التى أساء الملك استعمالها، أجيب بأن شدّة العقوبة ليست هى أهم شىء فى تشريع ينص على حماية شخص الملك ، والمهم هى النتيجة السياسـية ، وهى ممـا يحققه الحرمان من السلطة . ثم اليس فقد أول عرش فى العـالم عقوبة شديده ؟ وهل لا تعادل هـذه العقوبة لدى أنفس نشأت فى مهاد السمو عقوبة الموت ذاته ؟ واذا قيل انها عقوبة خفيفة فهى انما توقع طبقا لنص صريح؛ وقلة العقوبة فى قانون من القوانين لا يمكن أن تكون

سببا للبطلان . ومن المسلم به ، فى التشريع الجنائى ، أن كل خطأ فى النصوص يجب أن يفيد المتهم ، إذ يجب ألا نحمل الضعيف الأعزل أخطاء القوى . وإذن فلا حاجة الى الالتجاء الى القانون العام أو الأمة ما دامت قد وقعت عقوبة العزل تطبيقا لقانون سابق ، ولم توقعها محكمة ما ، ولكنها نفذت بالطريق الممكن ، وهو طريق الثورة القومية ، وفرنسا لا تستطيع اليوم أن تفعل شيئا بالملك المعزول إلا أن



لويس السادس عشر

تتخذ أزاءه تحوطات السلامة . وقد وضع يوم ١٠ أغسطس حدا لكل شىء وانتهى كل شىء بالنسبة للويس السادس عشر ، وتمت محاكمته فى ذلك اليوم ، وانقطعت كل صلة بينه وبين الأمة ، فلا جدال فى مسألة الاختصاص اذن ، ولا بحث فى محاكمة أو تأليف محكمة . هذا الى أنه لم يبق للجمهورية مصلحة بعد فى الحكم على لويس ، وكل ما هنالك أنها تستطيع أن تحوط لسلامتها إما بسجنه أو نفيه خارج البلاد . ولا يجوز مطلقا أن يكون للقانون أثر رجعى ينسخ الحقوق المكتسبة ، فاذ

كانت الأمة قد وضعت لهـا دستورا يحلها من عهدها السابق ، فليس لذلك من أثر رجعى ، والعهد الذى قطعته الأمة للملك قائم واجب الاحترام » .

ولكن المعارضين لهذا الرأى ، القائلين بجواز محاكمة لويس السادس عشر والحكم عليـه ، كانوا أغلبية فتعاقب خطباؤهم للرد على أصحاب نظرية الحصانة ونقضها . وكان زعيمهم وأقوى خطبائهـم النائب سان جيست ، وهو من أعظم شخصيات المؤتمر وأشدها اضطرابا وحماسة ، واليك خلاصة حجج هذا الفريق :

" ان الأمة اذا كانت بمنح الحصانة لشخص الملك قد استثنته من سلطة الجهات التشريعية ، فانها لم تستثنه بذلك من سلطتها العامة ، وهى لا يمكن بأى وجه أن تتنازل عن حقها فى عمـل أى شىء وإرادة أى شىء وفى كل الأوقات ، لأن هذه الارادة ذاتها هى مصدر سلطانها ، ولا يجوز التصرف فى هذا السلطان ، وإذن فما قطعت الأمة على نفسها أمام لويس السادس عشر عهداً ، وما كان ليحتج عليها بعهد لم تكن لتستطيع قطعه . ثم انه كان يجب لامكان صحة هـذا العهد أن يكون ثمة تبادل ، ولكن هـذا التبادل لم يوجد قط من جانب لويس السادس عشر ، فهو لم يرد قط هـذا الدستور الذى يريد أن يعتمد عليه اليوم ، وقد احتج عليه دائمـا ، ولم يدخر وسـعا فى مقاومته وسحقه لا بالتآمر فى الداخل فقط ، ولكن بالاستعانة بالأعداء أيضا ، فكيف إذن يحق له أن يستمد الحماية منه ؟

" واذا سلمنا جدلا بصحة هذه الحصانة بالنسبة للأعمال والجرائم الظاهرة التى يمكن أن ترد التبعات فيها الى الوزراء ، فكيف يمكن أن تطبق بالنسبة لأعمال سرية من مؤامرات ، ومفاوضات مع العدو ، وكيف يسئل الوزراء عن أعمال يجهلونها وقد دبرت من وراء حجاب ؟ فهذه الحصانة التى تلحق شخص الملك بالنسبة لأعمال الادارة تسقط حتما بالنسـبة للأعمال السرية والجرائم التى تهدد السـلامة العامة . أما العزل فهو أثر لمحاولة فشلت ، وليس عقابا مقررا لجريمة ارتكبت ؛ ثم كيف يقال إن الحرمان المجرد من السلطة هو العقوبة الوحيدة التى يمكن توقيعها على ملك أساء

استعمال هذه السلطة الى هذا الحد المروع؟ وهل بعد أن يقدم على خيانة الشعب، ويدفع الأجنبي الى غزوه، ويثير كل المصائب على رأسه، يكتفى الشعب بعزله أو نفيه؟ ان القوانين العامة تنص على معاقبة الخيانة، وهذه العقوبة واحدة فى جميع القوانين، وجميع المبادئ الأخلاقية فى كل العصور تقرر أن خيانة الملك جريمة، وشرائع الأمم جميعا تعاقب هذه الجريمة بأشد العقوبات . أما عن القانون الذى يطبق، وعن المحكمة المختصة، فها هى الأمة صاحبة السيادة تجمع فى شخصها كل السلطات، لها أن تحاكم وأن تشرع، كما أن لها سلطة السلام والحرب، وهذا المؤتمر هو ممثل الأمة ووكيلها المفوض، له أن يشرع لها، وأن ينقذها، وأن ينتقم لها . وإذن فالمؤتمر مختص بمحاكمة لويس السادس عشر، وهو أرفع محكمة يمكن أن يقدم اليها متهم، ولا يتصور أن الملك يطلب العدالة من أنصاره أو من الأعداء، ولا يطلبها من الأمة . ومن الخطأ أن يقال بأن خصومه هم نفس قضاته، فان المؤتمر يرتفع فوق كل الأهواء والمصالح والمآرب الفردية، واذا كانت الأمة معصومة من الزلل، فان النواب الذين يمثلونها يشاطرونها عصمتها وسلطتها" .

وما قاله سان جيست فى خطابه الشهير الذى ألقاه يومئذ: «إن أولئك الرجال الذين يتأهبون لمحاكمة لويس، عليهم أن يؤسسوا جمهورية، ولن يؤسس هذه الجمهورية أولئك الذين يعلقون أية أهمية على إنزال العقاب العادل بملك ، أيها المواطنون! اذا كان الشعب الرومانى بعد ستة قرون من الفضائل وبغض الملوك، واذا كانت بريطانيا العظمى بعد موت كرمويل، كلاهما قد رأى الملوكية تعود رغم عزمه، فأى شىء، لا نخافه نحن الذين نرى الفأس ترتجف فى أيدينا؟ ونحن شعب يحترم ذكرى أصفاده منذ اليوم الأول لحرياته ؟» .

والحقيقة أن خصوم الحصانة كان يستندون قبل كل شىء الى نظرية "القوة الظافرة والسلام العام" ، وهى نظرية دافع عنها سان جيست من الوجهة الفقهية بقوة وبراعة، ولخصها روبسبيير بقوله يخاطب المؤتمر: "ليس لنا هنا شأن بالمحاكمة، فليس لويس بالمتهم، ولستم بالقضاة، بل أنتم ولن تكونوا إلا ساسة، وليس عليكم

أن تحكموا على رجل أو تحكموا له ، ولكنكم تدعون الى اتخاذ إجراء فى سبيل السلامة العامة ، والى القيام بتحوط قومى" .

ولم يعدم لويس السادس عشر أصواتا تدافع عنه ازاء تلك العاصفة المضطرمة ، فقد دافع عنه النائب روزيه بخطاب مؤثر قال فيه : « لقد هزم لويس ، وغدا وحيدا أعزل يرتمى عند قدمى خمسة وعشرين مليون رجل ، أفيريد أولئك الملايين أن يرتكبوا نذالة لا فائدة منها بازهاق المغلوب ! ألم يضح فى سنة ٨٩ مختارا بقسط من سلطته؟ ألم ينزل عن جانب من الحقوق التى كانت لاسلافه؟ ألم يستدع نوّاب الطبقات ، ويرد الى نوّاب الطبقة الثالثة بعض حقوقها ؟ ... » . وكذا دافع عنه النائب فور بخطاب رنان يفيض جرأة ، قال فيه : « أين ما تنسبون الى لويس السادس عشر من الجرائم ؟ لقد قلبت الوثائق التى قدمت ضده ، فما وجدت فيها غير ضعف رجل يستسلم الى كل الآمال التى تلقى اليه لاسترداد سلطته ،... السلطة ، واختيار الوزراء ، والنساء ، والأقارب ، والبطانة — أولئك هم الذين أغروا كابيه . فاسموا اذن الى ذروة رفعة السيادة القومية ، وتصوروا كل ما يجب أن نتصف به هذه القوة من الشهامة والشمم ، واستدعوا لويس السادس عشر لا كمتهم ، ولكن كفرنسى ، وقولوا له : إن أولئك الذين رفعوك من قبل واختاروك ملكا ، يعزلونك اليوم ... فاصلح بخلالك كفرد عادى ، سيرتك التى اتبعتها كملك » ؛ كذا ألقى القس فوشيه خطابا قويا يعترض فيه على حكم الاعدام فى ذاته ، ويطلب الى المؤتمر أن يترك الملك المعزول يهيم فى ارجاء الجمهورية نسيا منسيا .

واستمر هذا الجدل الحاد الى الثلاثين من نوفمبر ، وانتهت اللجنة التشريعية الى الأخذ بجواز المحاكمة ، وهو رأى الأغلبية الكبرى ، وأصدرت قرارها فى الموضوع بما يأتى : « أن يحاكم لويس السادس عشر ؛ وأن يحاكم أمام المؤتمر الوطنى ؛ وأن تدوّن الوقائع المنسوبة اليه فى ثبت اتهام يضعه مقررون منتخبون ؛ وأن يحضر بنفسه للاجابة ؛ وأن يسمح له بالاستعانة بالدفاع ؛ وأن يصدر المؤتمر عقب سماعه ، حكمه فى الحال ، وذلك بأخذ الآراء كل عضو باسمه » .

وفى الثالث من ديسمبر بحث المؤتمر فى اجراءات المحاكمة وإعدادها، وعارض روبسپيير فى اجرائها بشـدّة ، وطلب الحكم على لويس السادس عشر فورا دون محاكمة ، ولكن المؤتمر أصدر القرار الآتى : « إن المؤتمر يعلن أنه سيحاكم لويس السادس عشر، وأنه سيحاكمه بنفسه » .

وفى الرابع من ديسمبر أعلن بيسيون رئيس المؤتمر بموافقـة الأغلبية أن المؤتمر سيتفرغ للنظر فى محاكمة الملك ، كل يوم من الساعة الحادية عشرة صباحا الى السادسة مسـاء؛ ورفض المؤتمر أن تقع المحاكمة فى جلسة متصـلة ، وأن يصدر الحكم على الأثر .

وشغل المؤتمر فى الأيام التالية بفحص الوثائق والمستندات التى جمعت لتأييد التهم المسـندة الى الملك ، ومنهـا مجموعة ، وجدت فى التويلرى عقب حوادث ١٠ أغسطس ، فىدرج حديدى سرى كان الملك قد صنعه بنفسه وأخفاه فىجدار، فنما خبره الى رولان وزير الداخلية ،فأسرع الى التويلرى واستخرج الأوراق الدفينة ، ثم أودعها فى المؤتمر الوطنى منذ ٢٠ نوفمبر، فارتاب البعض فى انه أخفى منها بعض الوثائق الهامة . ولكن مدام كامپان(١) تقول فى مذكراتها إن الأوراق الهامة سحبت من الدرج منذ ١٠ أغسطس . وعلى أى حال فانها لم تقـدم أدلة جديدة غير تلك التى جمعت وعرفت من قبل .

وفى ١٠ دبسمبر قدم تقرير الاتهام الى المؤتمر، فتقرر فى الحال دعوة الملك للمثول أمامه فى اليوم التالى ؛ وحمل اليه شامبون حاكم باريس اعلان الحضـور فى ضحى ذلك اليوم، واصطف حول السجن مئات من الجند . وتلقى الملك النبأ فى ثبات، ولكنه احتج على تسميته فى اعلان الحضور « بلويس كاپيه » واعتزم فى الحال أن يلبى دعوة المؤتمر، وركب الى المؤتمر برفقة حاكم المدينـة ، وسانتير قائد الحرس ، وتقدمتـه وتبعته سريات قوية من الجنـد معها بعض المدافع . « وكان قد تولاه

---

(١) قارئة الملكة مارى انوانيت .

الهزال، وتدلت طيات خدّه النحيل، وغدت ثيابه واسعة بالنسبة لجسمه، فكانت تتدلى على كتفيه كأنها ثياب مستعارة ألقتها الصدقة العامة على جسم شقى ... كان طيف الملوكية يقاد الى الموت، وقد ألبس ليترك حين مروره فى الشعب طابعه وذكراه»[1] .

ووصل الملك الى قاعة المؤتمر فى منتصف الساعة الثالثة، فساد الصمت العميق، «وتأثر الجميع لوقاره، وسكينته، فى مثل هذا الخطب الفادح[2]»، وقال له بارير الذى انتخب يومئذ للرآسة: «اجلس وأجب عن الأسئلة التى تلقى عليك»، فجلس الملك على كرسى أعدّ له بجانب الحاجز وأخذ يصغى الى قرار الاتهام الذى يتلى عليه، وكان القرار ثبتا لحوادث الثورة من يونيه سنة ١٧٨٩ إلى ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢، وفيه تنسب الى الملك تبعة كل ما تخلل هذه الحوادث من أخطاء ومصائب . وأهم التهم التى وجهت اليه هى : رفضه أن يصادق على حقوق الانسان وعلى الدستور، وحنثه بالعهد الذى قطعه للامة فى حفلة ١٤ يوليه، ومحاولته أن يعمل مع ميرابو للقضاء على الثورة، ورشوته لجماعة من النواب، وفراره الى ڤارين، وسكوته عن اعلان مؤتمر بلنتز، ومراسلته السرية مع الأمراء الفارين والدول الأجنبية، وتجريده للحصون القوية، ثم تصرفاته التى أدّت الى سفك الدماء فى ١٠ أغسطس، وكان الرئيس يسأله عند كل فقرة عن جوابه . وكان الملك يجيب تارة بانكار الوقائع المنسوبة، وأخرى بنسبتها الى وزرائه، وطورا باقرارها وتأييدها بنصوص دستور سنة ١٧٩١، ولكنه عند ما تلى عليه، أنه هو الذى عمل على سفك دم الشعب فى ١٠ أغسطس، صاح بشدّة : كلا ياسيدى، كلا، فلست أنا .

ثم قدمت اليه الوثائق المكتوبة، ومنها الأوراق المثبتة لمشاريع ميرابو ولافاييت، وخطاب سرى الى الأساقفة ينصحهم فيه بعدم قبول النظام المدنى، وخطابات أخرى تفيد أنه أنفق مبالغ كبيرة سعيا الى رشوة النواب والخطباء والزعماء فى الجمعية

(١) لامارتين : تاريخ الجيرونديين (الكتاب الرابع والثلاثون) .

(٢) تيير : تاريخ الثورة الفرنسية (الكتاب الرابع عشر) .

الوطنية، وكان منها كثير كتبه أو ذيله بخطه . ولكنه أنكرها جميعا . وأنكر الدرج الحديدى . فكان لهذا الانكار وقع سيئ . ثم طلب صورة من قرار الاتهام والوثائق، وأن يسمح له باختيار المدافعين عنه . وأعيد الى السجن فى منتصف الساعة السابعة، وأراد فى الحال أن يرى أسرته ، فأخطر أن أوامر الكومون قد صدرت بمنعه من الاجتماع بأسرته أو رؤيتها .

وثارت فى المؤتمر مناقشة عاصفة حول مسألة الدفاع، واعترض زعماء اليعقوبيين بشدّة على منح الملك حق الاستعانة بالدفاع، ولكن المؤتمر قرر منحه هـذا الحق بأغلبية كبيرة ، وأخطر الملك بالقرار وهو يسمح له باختيار محاميين للدفاع عنـه . فاختار الملك الأستاذين ترونشـيه وتارچيه [(١)] . وقبل أولهما المهمة فى الحـال، ولكن أباها تارچيه بحجة أنه اعتزل المحاماة، فتقدّم مكانه عدّة من أعلام البيان يومئذ، بل تقدّمت للدفاع عن لويس السادس عشر سيدة نابهة ذلقة تدعى اوليمپ دى جوچ [(٢)]، فشكرهم الملك جميعا، واختار من بينهم محاميا فتى بارعا، يدعى ديسيز، رفعه هذا الاختيار الى سماء الشهرة المجد، وخلد اسمه فى صحف الفصاحة القضائية . ثم تقدم في نفس الوقت للدفاع عن الملك مالزرب الوزير الأسبق . وكان يومئذ أعظم مشترع فى فرنسا . وكان فى السبعين من عمره، ولكنه كتب الى رئيس المؤتمر خطابا مؤثرا يلتمس فيـه أن يُسمح له بالدفاع عن سـيده القديم ، فأجاز المؤتمر طلبه . وأذن الكومون للمحامين الثلاثة بدخول التامپل والاتصال بالملك دون قيد ولا مراقبـة، وانتدب المؤتمر لجنـة تحمل أوراق القضية ووثائقها كل يوم الى التامپل ليطلع عليها الملك ومحاموه . واشتغل المحامون مع الملك بمراجعة الملفات الضخمة واعداد نقط الدفاع عدّة أيام ، وبذل ديسيز بالأخص جهدا عنيفا ، وواصل ليله بنهاره، وأعدّ مذكرة قوية بالدفاع، أقرّها الملك بعد أن حذف منها الأجزاء الخطابية المحضـة . وأخطر ديسيز المؤتمر باستعداده، وتقرر أن يستمع اليه المؤتمر فى ٢٦ ديسمبر .

---

(١) نذكر أن الأستاذ تارچيه هذا هو محامى الكردينال دى روهان فى قضية عقد الملكة .

(٢) ميشليه ؛ ويقول إن أقدامها على ذلك كان سببا فى اعدامها فيما بعد .

وفى تلك الليلة ، أعنى فى مساء الخامس والعشرين ، كتب لويس السادس عشر وصيته ، وفيها يتأهب للقاء ربه بعبارات مؤثرة ، ويطلب الصفح الى كل من أساء اليهم غير عامد ، ويعلن صفحه عن جميع أعدائه ، ويوصى زوجه بأولاده ، ويوصى ولده ، «بأنه اذا قضى عليه نكد الطالع يوما أن يتبوأ الملك ، أن يكرس حياته لسعادة الشعب ، وأن ينسى كل حقد وبغضاء» . ويختمها بقوله : «واختم بأن أعلن أمام الله ، الذى أستعد للمثول بين يديه ، انى لم أرتكب جرما مما نسب الى»(١) .

* * *

وفى السادس والعشرين من ديسمبر أخذ الملك من التامبل الى المؤتمر فى حرس قوى ، وجلس الى جانب المدافعين عنه . ونهض ديسيز خلال الصمت العميق ، فألقى دفاعه الأشهر ، وبدأه بمناقشة الأوجه الفقهية ، واختتمه بدحض الوقائع . فأثار نظرية الحصانة ثانية رغم قرار المؤتمر برفضها وجواز المحاكمة ، وبين أن الدفاع مطلق لا حدود له ، وان فى وسع لويس أن يعود فيتمسك بالحصانة . وسلم بسلطة الأمة المطلقة ، ولكنه رأى أن الأمة تستطيع مع ذلك أن تقطع العهود على نفسها ، وقد قطعت عهدا للويس السادس عشر هو حصانة شخصه وحمايته ، وأنها ملزمة بتنفيذ هذا العهد ، وأنه لا عقاب على الملك فى تلك الحالة غير العزل مهما ارتكب من جرائم . هذا وإلا فان دستور سنة ١٧٩١ يعتبر شركا وحشيا نصب للويس السادس عشر إذ يقطع له فيه عهد يقترن بنية عدم الوفاء . فاذا الأمة أبت على لويس حقوقه كملك ، فيجب أن تترك له حقوقه كوطنى على الأقل . ثم تساءل أين هذه الحقوق التى يسمح لكل وطنى أن يتمسك بها ، وهى التفريق بين هيئة الاتهام وهيئة الحكم ، وخيار الرد ، وأغلبية الثلثين والمداولة السرية ، وامتناع القضاة أثناء المحاكمة عن ابداء رأيهم . وهنا فاه ديسيز بعبارته المشهورة : «أبحث فيكم عن قضاة فلا أجد إلا متهمين !» .

(١) يورد لامارتين نص هذه الوصية برمته ، ويعلق عليها بقوله : «ان هذه الوثيقة التى يطبعها الحنان ويغمرها الدمع ، ثم الدماء بعد ذلك ، هى الشهادة القاطعة بأن ضميره يتقدم نقيا للقاء الله . فأى شعب لم يكن يعبد هذا الرجل اذ لم يكن ملكا ؟ »

ثم عطف ديسيز على الوقائع ففنـدها بمهارة ودحضها بقوة ، وبين بالأخص أنه لم يقم دليل قط على مفاوضة الملك للدول الأجنبية ، ورد تهمة سفك الملك للدماء فى ١٠ أغسطس بشدة وقال إن المعتدى فى ذلك اليوم هو الشعب ، وكان الدفاع من حق الملك ، ومع ذلك فقد آثر أن يلجأ مع أسرته الى الجمعية الوطنية حقنا للدماء . واختتم ديسيز دفاعه بما يأتى .

«لقد تبوأ لويس العرش فى العشرين ، فكان قدوة الفضيلة والخلال ، ولم يحمل الى العرش ضعفا مجرما ولا شهوة فاسدة ، بل كان مقتصدا ، عادلا ، صارما ، وكان أبدا صديق الشعب ، فاذا الشعب أراد الغاء ضريبة ترهقه ألغاها ، واذا طلب الشعب إلغاء نوع من السخرة بدأ بالغائه فى أملاكه ، فاذا طلب الشعب اصلاحا فى التشريع الجنائى لانصاف المتهمين اجراه ، واذا أراد الشعب حقوقه السياسية منحها له ، واذا أراد الحرية قدمها اليه . بل لقد كان فى طليعة الشعب فى التضحية ، ومع ذلك فباسم هـذا الشعب يُطلب اليوم ... أيها المواطنون لست اتم ، ولكنى أقف أمام التاريخ فاذكروا أنه سيحكم على حكمكم ، وأن حكمه سيكون حكم القرون !» .

ونهض الملك فى أثر محاميه ، فدافع عن نفسه بكلمة موجزة مكتوبة القاها خلال الصمت العميق ونصها : «لقد شُرحت لكم أوجه دفاعى ، فلست أعيدها ، ولكنى وقد أخاطبكم لآخر مرة ، أعلن اليكم أن ضميرى لا يؤاخذنى بشىء ، وأن المدافعين عنى قالوا الحق ، وأنى ما خشيت قط أن تفحص سيرتى جهرا ، ولكن يمزق قلبى أن ينسب الى فى ثبت الاتهام أنى أردت أن أسفك دم الشعب ، وبالأخص أن ينسب الى أنى مسئول عن مصائب ١٠ أغسطس .

«واعترف أن الأدلة العديدة التى قـدمتها فى كل وقت على حبى للشعب ، قد رفعتنى فوق هذه التهمة — أنا الذى تهون عليه نفسه فى سبيل حقن قطرة من دم هذا الشعب» .

ثم أعلن الملك ردا على سؤال من الرئيس أنه قال كل ما لديه ، وأعيد الى السجن فى الساعة الخامسة . وعلى أثر انصرافه ثارت فى المؤتمر عاصفة جديدة من الجدل ،

ونهض النائب لانجونيه ، وطلب الغاء الاجراءات التى اتبعت باعتبارها منافية للدستور والقانون ، ودافع عن حصانة الملك بشدّة ، وحمل بجرأة على « متآمرى ١٠ أغسطس » ، واشتدّ الهرج والصياح فى المؤتمر زهاء ساعة ، ثم انتهى بأن قرر استمرار نظر القضية حتى يصدر الحكم النهائى .

وفى اليوم التالى — ٢٧ ديسمبر — نهض سان چيست وحمل بشدّة على أقوال الدفاع ، وعلى المدافعين من النوّاب عن لويس السادس عشر ، وصوّره فى صورة المستبد الماهر المتواضع ، الذى طغى بمهارة ، ودافع عن نفسه بأدب وتواضع ، وقال إنه لا يرى فى سيرته وأعماله وتناقضه سوى الغدر مجسما ، ثم قال : «اذا كان الملك بريئا فالشعب هو الجانى ! لقد أعلنتم الحرب على جميع طغاة العالم ، ولكنكم تريدون انقاذ طاغيتكم ! ان الثورة لا تبدأ الا متى زهق الطاغية ! » . ونهض فرچنيو زعيم الجيرونديين ، فنوه بخطورة الحكم على لويس السادس عشر أولا بسبب الحصانة التى منحت اليه ، وثانيا لما قد يترتب على الحكم من الآثار السياسية ، لأن موت لويس السادس عشر اذا لم يسفر عن نشوب حرب جديدة ، فسوف يتخذ ذريعة للحرب ، ويغدو المؤتمر مسئولا أمام الأمة عن اسالة الدم ، ولأنه حقق باسمها عمل انتقام جر عليها المصائب ، ثم طلب أن تستفتى الأمة فى الأمر ، فرفض الاقتراح ، ووصف بأنه نذالة سياسية ، ودعاة للحرب الأهلية وتفريق الكلمة .

واستمر ذلك الجدل بين الأحزاب والزعماء حتى اليوم السابع من يناير سنة ١٧٩٣ ، ثم اختتمت المناقشات دون نتيجة ، وقرأ بارير ملخص القضية ، ثم قرر المؤتمر أن توضع الأسئلة الجوهريه وأن تؤخذ عليها الأصوات فى يوم ١٤ يناير والأيام التالية .

وهذا نص الأسئلة التى وضعها المؤتمر :

السؤال الاول — هل ارتكب لويس كابيه جناية التآمر على حرية الامة والاعتداء على سلامة الدولة ؟

السؤال الثانى — هل يعرض الحكم الذى يصدره المؤتمر الوطنى مهما كان نوعه، على الشعب للمصادقة عليه ؟

السؤال الثالث — ما هو العقاب الذى يوقع على لويس ؟

وفى الخامس عشر ثار جدل حاد على نسبة الأغلبية التى يصدر بها الحكم، فاقترح البعض أن تكون الثلثين كما هو الشأن فى المحاكم الجنائية، ولكن دانتون عارض الاقتراح بشدة، وطلب أن يكتفى المؤتمر بالأغلبية العادية أعنى النصف زائدا واحدا، فوافق المؤتمر على مبدأ الأغلبية العادية فى عاصفة من الصياح، و بدأ بأخذ الأصوات فى مساء ذلك اليوم، واستمر فى تدوينها طول الليل، ثم استؤنف التصويت فى اليوم التالى واستمر حتى مساء اليوم السابع عشر من يناير. واليك نتيجة التصويت على الأسئلة الثلاثة :

أجاب عن السؤال الأول بالايجاب ٦٩١ عضوا من أعضاء المؤتمر، وعددهم جميعا ٧٤٩، ولم يصوت باقى الأعضاء بسبب الغياب أو المرض .

أجاب عن السؤال الثانى ٤٢٤ عضوا بالسلب، و ٢٨٧ بالايجاب ولم يصوت الباقون لأسباب مختلفة .

أما السؤال الثالث وهو « ما هو العقاب الذى يوقع على لويس » ؟، فقد تضاربت فى شأنه الآراء، وساد على المؤتمر جو من الخطورة والتأثر، وأخذت الأصوات وأحصيت بمنتهى العناية، وطرح النائب مايبه أثناء التصويت مسألة وقف التنفيذ، فكانت النتيجة كما يأتى : صوتان للاشغال الشاقة، و ٢٨٦ صوتا للسجن والنفى، و ٣٣ صوتا للسجن والنفى والاعدام فى حالة غزو العدو أرض الوطن، و ٣٦١ للاعدام العاجل، و ٢٦ للاعدام مع المناقشة فى وقف التنفيذ، ولم يصوت الباقون لأسباب مختلفة . و بذلك بلغ الموافقون على الاعدام المطلق ٣٨٧ صوتا، وهو رقم يربى على الأغلبية المطلقة للحاضرين وعددهم ٧٢١ عضوا .

وهكذا تم الحكم بالاعدام على لويس السادس عشر فى مساء السابع عشر من يناير، فى أفق عاصف يفيض بالانفعال والتأثر . وكان من بين المصوتين بالاعدام فرچنيو زعيم الجيرونديين الذى عارض فى محاكمة الملك من قبل ، فكان لتصويته أثر شنيع فى أنفس المعارضين فى الاعدام من نواب حزبه لأنهم لم يجرؤوا بعد هذا التراجع على نصرة الملك، وحملهم تيار الخوف على التصويت بالاعدام. وكذا صوت بالاعدام الدوق دورليان ابن عم الملك فأثار بتلك النذالة احتقار النواب جميعا حتى المطالبين برأس الملك . وفى أثناء التصويت تقدم وزير الخارجية الى المؤتمر وأبلغه أن سفير اسبانيا يعرض حياد دولته اذا أبقى المؤتمر على حياة الملك ، فثارت لذلك عاصفة جديدة، وحمل دانتون على هذا التدخل ، وطلب فى الحال اعلان الحرب على اسبانيا . ومضى المؤتمر فى عمله ، وأحصيت الأصوات ، وظهرت النتيجة الرائعة ، وأعلن الرئيس بلهجة الألم باسم المؤتمر : « أن حكم الاعدام قد صدر على لويس كاپيه » .

وعلى أثر ذلك تقدّم محامو الملك ،ديسيز وترونشيه ومالزرب الى المؤتمر، فطلب ديسيز أن يؤخذ رأى الأمة فى الحكم خصوصا وانه صدر بتلك الأغلبية الضئيلة، وتمسك ترونشيه بأغلبية الثلثين، وطلب الشيخ مالزرب وهو يبكى أن يمهل الى الغد ليقدّم ملاحظاته . فرفض المؤتمر هذه الطابات، وقرّر أن يؤخذ الرأى فى الغد على مسألة وقف التنفيذ .

وفى اليوم التالى — ١٩ يناير — طرح السؤال الرابع للتصويت وهو : « هل يوقف تنفيذ الحكم الصادر على لويس كاپيه أم لا » . فأجاب عليه بالسلب ٣٨٠ عضوا، وبالايجاب ٣٤٦ عضوا ، ولم يصوت الباقون لأسباب مختلفة .

واتخذ الكومون أثناء ذلك أشدّ الاجراءات للمحافظة على الأسير خصوصا بعد أن صدر حكم الاعدام ، وحشد حول السجن سريات قوية من الجند ، ولم يبذل الملكيون محاولة جدية لانقاذ الملك خلافا لما يذهب البعض اليه .

* * *

كان الملك أثناء ذلك وحيدا فى سجنه لا يعلم شيئا من أمر مصيره، غير انه كان جلدا مستسلما الى قدره . وكان قد وصل الى تلك الحالة النفسية «التى ترتفع فيها الروح فوق رغباتها ، وتتحدى كل صروف الجد ، ولا تعانى بعد إلا فى الجسم ، ولا ترغب إلا فى حكم القدر»[1] . وكان كثيرا ما يقرأ فى ساعاته الأخيرة سيرة تشارلس الأول ملك انجلترا كأنما يتأسى بمثله وقدوته فى الآلام والخطوب .

وفى عصر ٢٠ يناير ذهب جارا وزير الحقانيـة برفقة سانتير قائد الحرس الأهلى الى سجن التامپل، وتلى على لويس السادس عشر نص الحكم الصادر من المؤتمر الوطنى باعدامه، المقرر تنفيذه فى ظرف أربع وعشرين ساعة ؛ فتلقاه المحكوم عليه فى ثبات ، وكتب الى المؤتمر خطابا يطلب فيه أن يمهل ثلاثة أيام يتأهب فيها للقاء ربه؛ وأن ينظر المؤتمر فى الحال فى مصير أسرته وأن يسمح لها بالذهاب أنى شاءت؛ وأن يسمح له برؤية أسرته قبل اعدامه، وأن يباركه قسيس يختاره بنفسه . فرفض المؤتمر طلبيه الأولين، وسمح له بالأخيرين .

وفى نحو الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم استدعى الى التامپل قسيس أجنبى يدعى أدجورث دى فرمون وهو الذى اختـاره الملك، فلبث مع الملك نحو ساعتين يحادثه فى شئون الآخرة .

وفى منتصف الساعة التاسعة سمح لأسرة الملك بمقابلته فارتمت الملكة على قدمى زوجها، فأجلسها الى يمينه وأجلس أخته الأميرة اليزابيت الى يساره، وأغمى على ابنته (مدام رويال) بين ذراعيه، وأخذ ولى العهد الطفل يصرخ صراخا يمزق القلب، واستمر ذلك المنظر المؤلم زهاء ساعتين ساد فيهما البكاء والزفرات والأنين .

ثم عاد الملك الاجتماع بقسيسه ولبث معـه حتى منتصف الليـل، ثم نام نوما عميقا، وأوصى خادمه كليرى بأن يوقظه فى السحر .

---

(١) لامارتين .

وفى فجر اليوم التالى نهض الملك، ونصحه قسيسه أن يفر على نفسه وعلى أسرته ألم الاجتماع بها ثانية، فاستمع إلى نصحة وأقبل يحادثه هادئا، ويتقبل البركة منه. وكان آخر ما أوصى به أن يعطى خاتم زواجه الى الملكة وأن يحفظ ختمه الملكى لولى العهد.

وكانت الطبول تدوى فى الخارج، والسجن غاص بالجند. وفى نحو الساعة التاسعة قدم سانتير، ومع جماعة من الضباط وأعضاء البلديه، فسار الملك معهم الى عربة



وداع لويس السادس عشر لأسرته (فى ٢٠ يناير)

كبيرة خضراء أعدت لركوبه، وفى صدرها جنديان، فأجلس فى المؤخرة مع قسيسه، وسار الركب الى ميدان الثورة تحيط به ثلة كبيرة من الحرس الأهلى . وكانت باريس بأسرها قد استيقظت مبكرة، وغصت الشوارع بالجماهير قبل طلوع الشمس، غير أن الصمت الرهيب كان يسود على الطرق والنواحى ؛ وكانت النوافذ والأبواب موصدة، وكان يحرس الطرق والممرات سريات صامتة من الجند .

وكانت آلة الاعدام (الجيوتين) قــد نصبت فى فراغ شاسع ، ونصب حولها عدد من المدافع ، وأحاطت بها فرقة كبيرة من الجند .

وكان الملك المحكوم عليــه يرتدى معطفا رماديا ، وصديرية بيضاء ، وسروالا أخضر ، وجوربا أبيض .

وصل لويس السادس عشر الى ميدان الثورة فى الساعة العاشرة فأخذ توا الى النطع ، وخلع ملابسه بنفسه ، غير أنه هم بالمقاومة وغلبه الاشمئزاز حينما أراد الجلاد أن يوثق يديه ، ولكنه أصغى لنصح قسيسه واستسلم وقال لجلاديه : «أصنعوا ما شئتم فسأكرع الكأس حتى سؤره» . وكف قرع الطبول برهة باشارة من الملك أو سانتير ، فصاح لويس السادس عشر بصوت رنان : «أيها الناس . أيها الناس : انى أموت بريئا من كل ما نسب الىّ ، واصفح عن أولئك الذين قضــوا بموتى ، وأطلب الى الله ألا يسقط الدم الذى تسفكون على رأس فرنسا ... » وكانت هــذه آخر كلماته ، اذ عادت الطبول الى القرع ، وغاض صــوته فى الدوى ، فاستسلم الى جلاديه .

ويقال أن لويس السادس عشر صاح فى آخر لحظة « العفو ! » وهو ما ينكره معظم الرواة ، ولكن المحقق أنه صاح صيحة عظيمة حينما سقط سلاح الجيوتين فوق عنقه . ويقول شهود ذلك المنظر الرائع أن وجه الملك كان شــديد الاحمرار . والظاهر انه كان يؤمل حتى اللحظة الأخيرة أن يعدل المؤتمر عن اعدامه ، وان سكينته التى حافظ عليها حتى اليوم الأخير غاضت بغتة وحل محلها الرعب والارتياع .

ويقال أيضا إن قسيسه ادجورث قال حينما سقطت رأســه : « اصعد يا ابن القديس لويس الى السماء[1] ! » .

ثم رفع الجلاد الرأس الدامى من شــعره ليريه للشعب ، وغمس بعض الجنــود سيوفهم فى دم المحكوم عليه ، وصاحوا « لتحيى الجمهورية ! »

---

(١) وهى رواية يؤيدها تيير ، ولكن لامارتين لا يذكرها .

يقول لامارتين : «ولكن روعة هـذا العمل أخمـدت الصيحة فوق الشفاه ، فبدا النداء كأنه زفرة عظيمة ، ودوت المدافع لتنبئ الأطراف البعيـدة بأن الملوكية قد زهقت مع الملك ، وتفرق الشعب صامتا ... وما بردت جثـة الملك على النطع ، حتى ارتاب الشعب فى العمل الذى ارتكب ، وتساءل فى جزع كالندم عما اذا كان الدم الذى سفك وصمة فى مجد فرنسا أم كان خاتم الحرية ؟ »

* * *

وهكذا زهق لويس السادس عشر بعـد أن ذاق فى محنته وأسره أروع الآلام النفسية ، وهكذا كفر بدمه عن تبعات الملوكية الفرنسية فى عصور طويلة من الظلم والارهاق . ولقد ورث الملك المنكود كما بينا عرشا مثقلا بالتبعات ، تحيط به ثورة دفينة من البغضاء والسخط ، هى التى شاء القدر أن تنفجر فى عهده ، وأن تحمل عرشه وملكه . ولكنه بلا ريب يحمل شطرا كبيرا من التبعة . ألم يكن دائما ذلك الملك الضعيف المتردد ، المستسلم لهوى زوجه واهواء بطانتـه ؟ ثم ألم يقض ذلك الاستسلام على كل محاولة جدية للاصلاح ، وكل مجهود للوزراء المصلحين ؟ ألم يُحمل الملك الضعيف على مخاصمة شعبه وانكار حقوقه يوم هبت بوادر الثورة ؟ ألم يحاول لويس السادس عشر حتى اللحظة الأخيرة أن يحافظ على سلطات العرش وامتيازاته كاملة مطلقة ؟ ألم يحاول مقاومة الثورة وسحقها بكل الوسائل ؟ ألم يأتمر مع الأمراء والنبلاء المهاجرين بوطنه ويحرض العدو على غزوه ؟ ألم يكن فى مفاوضة مستمرة مع الدول الأجنبية ؟ هذا ما يسجله التاريخ الحق على لويس السادس عشر ، وهذا ما سجله المؤتمر الوطنى عليه واتخذه سندا لمحاكمته وعقابه ، وهذا ما نهضت على وقوعه الأدلة الحاسمة .

كانت جيوش العدو التى قدمت لسحق الثورة وانقاذ الملوكية الفرنسية تجتاح أرض فرنسا ، وكانت شخصية الملك الأسـير رمزا لهذه الملوكية ، ومحورا للدسائس والاضطرابات فى الداخل ، ومصدرا دائما للجزع والروع ، فكانت بذلك خطرا على

الثــورة، وعلى الحريات والحقوق التى غنمها الشعب بدمه ، وكان المؤتمــر الوطنى فى حل من أن يعمل لسحق هذا الخطر حماية للثورة وصونا لسلامتها .

يقول ميشليه : « مهما كانت نتائج محاكمة لويس السادس عشر ، فانها يجب دائمـا أن تكون موضع احترام عميق خالد . ان مثل هذه الأعمال تقدّر من حيث النتائج باقل مما تقدّر به من حيث الفكر الجريئة وروح الإخلاص التى أملتها ... لقد اعتقدوا أنهــم بهذا الحكم يحققون هيبة فرنسا ، وسلامة أرضها ، وسلامتنا . فهل كانوا على ضلال؟ لسنا على الأقل ، نحن الذين نلومهم ، نحن الذين عملوا لإنقاذهم » .

ويقول تيير : « لقد كفر لويس السادس عشر عن اخطاء لم يرتكبها ، ولكنه ارتضى أن ترتكب » .

ويقول منيه : « وهكذا هلك أحسن الملوك ، ولكن أضعفهم ، فى التاســعة والثلاثين ، بعد أن حكم ستة عشر عاما ونصف أنفقها فى محاولة الخير . لقد ترك له أسلافه ثورة ، ولكنه كان أقدرهم على منعها أو حسمها ، فقد كان بوسعه أن يغدو ملكا مصلحا قبل اضطرامها وأن يغدو بعده ملكا دستوريا ؛ ولعله الأمير الوحيد الذى جمع بين تقوى الله وحب الشعب ، ومنهما يتكوّن خيار الملوك . وقد هلك ضحية شهوات لم يشاطرها : شهوات الألى حوله وكان غريبا عنهــم ، وشهوات شعب لم يثره . وسوف يقول التاريخ انه بقليل من العزم كان يغدو للملوك قدوة ومثلا » .

ويقول كارلايل : «إن لويس البرئ قد حمل اخطاء أجيال عدّة ... وإن مقتل ملك قد مزق فى الداخل كل الأصدقاء ، ووحد فى الخارج كلمة الأعداء » .

ويحمل لامارتين على عمل المؤتمر الوطنى بشدّة ويقول : «ان ازهاق رجل أسير لم يكن الا نزولا على الغضب أو الخوف . ولقد كان مزيجا من الانتقام والنــذالة والقسوة المطلقة ، أجل ، كان ازهاق المغلوب لخمسة أشهر من النصر ، عملا بلا رأفة ، أكان ذلك المغلوب جانيا أم كان خطرا» .

ثم يقول : « هل كان مقتل الملك كاجراء للسـلام العام، ضرورة؟ ثم نتساءل هل كان ذلك القتل عادلا ، فليست قضـية الأمم فى حاجة الى عمل ظالم فى ذاته، بل إن قوام قضية الأمم، وجمالها، وقدسها، انما هو قيام أعمالها على مبادئ الأخلاق القويمة، فاذا نزلت عن العدالة، فقدت علمها، ولم تصبح الاجمهرة حررت من الظلم، تقلد كل رذائل سادتها . ولم تكن حياة لويس السادس عشر أو موته، وهو معزول أو سجين ، لتعدل سيفا أكثر أو أقل فى كفة اقدار الجمهورية ... ومن ذا الذى ينكر أن الشجن الذى أحاط بمصـير لويس السادس عشر ومصير أسرته كان ذا أثر كبير فى عود الملوكية بعد ذلك بأعوام قلائل ؟ »

وأخيرا يقول البارون دى فنك فى كتاب أسماه «جناية سنة ١٧٩٣» : «إنه اذا كان خنجرا چاك كليان ورافياك[1] قـد أوديا بحياة ملكين، فانهما لم يصيبا الملوكية باذى، ولكن المؤتمر الوطنى ، بجنايته الوطنية التى ارتكبها فى سنة ١٧٩٣، قد قتل الملوكية والمبدأ الملكى»

على أنه سواء كان اعدام لويس السادس عشر، جناية قضائيـة أم كان حكما مشروعا ، فلا ريب أنه كان من أهم العوامل فى سلامة الثورة، واشتداد عزائمها، وارتياع أعدائها داخل فرنسا وخارجها .

المراجـــع

رأينا، نظرا لوحدة المراجع التى استثمرناها فى قضايا الثورة الفرنسية، أن نثبتها مجتمعة فى ذيل هذا « الكتاب » .

---

(١) كليان قاتل هنرى الثالث، ورافياك قاتل هنرى الرابع .

الفصل الثانى

محاكمة مارى انتوانيت

أكتوبر سنة ١٧٩٣

ساد على أسرى التامپل ، عقب مصرع الملك اسى قاتل؛ وتفطرت هذه الأفئدة الكليمة ، بين هذه الجدران القاتمة التى تحجب ضوء كل أمل؛ وكانت الملكة أشدهم حزنا و يأسا ، فقد لبثت حينا تسكب الدمع المدرار، وعبثا حاولت الأميرتان أن تبعثا الى نفسها لمحة من العزاء والأمل . والواقع أن قبسا من الأمل كان يلوح فى الظلماء ، فقد خفت الرقابة على الأسرى نوعا ، ومنح الكومون الملكة ثيابا سوداء للحداد ، وجنحت معاملة الحراس الى شيء من العطف والرقة ،و بدرت من بعض المأمورين أقوال تفيد أن هنالك فكرة فى الافراج عن الأسرى .

ولكن هذا التساهل كان مؤقتا؛ وشعرت السلطات أن هنالك جهودا تبذل فى الخفاء لانقاذ الأسرى ، فعادت الرقابة الصارمة . غير أن هذه الرقابة لم تمنع رجالا ذابت قلوبهم عطفا لدموع الأسرى ، أن يحاولوا بذل الغوث والمعونة ، فقد اتفق فى الخفاء جماعة من البلديين (المأمورين) أنفسهم على تسهيل الاتصال والمكاتبة بين الملكة و بين أصدقائها فى الخارج ، وتسهيل المساعى التى تبذل لفرارها ، وكان من هؤلاء الوطنى ليپتر ، والوطنى تولان ، والوطنى مشونيس .

وكان للملك وصيف يدعى « هو » ترك فى باريس حرا منسيا ، فكان يبعث بالرسائل والأنباء الى الأميرات على يد المأمورين ، فكن يقفن بذلك تباعا على حالة الرأى العام ، وتقدم الثورة الملكية فى ڤنده ، وتقدم الجيوش الأجنبية ، وغيرها ، ولكن الملكة كانت أبعد من أن تأنس ذرة من الأمل ، وكانت على قول لامارتين «قد وصلت الى سلام اليأس ، وجمود القبر مع شعور الحياة» (١) .

---

(١) تاريخ الجيرونديين .

• غير أن جماعة من أصدقائها المخلصين لم تفتر لهم همة فى تدبير المشاريع المتوالية لانقاذها . وكلما أخفق مشروع دبروا فى الحال سواه ، وكان أهمها مشروع دبره الشفاليبه دى جارچارى فى مارس سنة ١٧٩٣ بمعاونة ليپترو تولان ، لانقاذ الملكة ، وحملها فى ثياب رجل مع باقى أسرتها الى ساحل نورماندى حيث تركب البحر الى انجلترا ، وكان مشروعا محكم التدبير ، ولكنه انهار فى آخر لحظة لأن ليپتر الذى تعهد بالحصول على إجازات السفر للفارين شعر باشتداد الرقابة من حوله ، ولم يستطع حصولا عليها . ولم تلبث المؤامرة أن اكتشفت وقبض على ليپترو تولان و بعض شركائهما وأعدموا .

وقد هيئت للملكة أكثر من فرصة للفرار بمفردها ، ولكنها أبت بتاتا أن تترك ولدها لقدر لا تعرفه ، وكتبت الى أصدقائها تقول : «لقد رأينا حلما بديعا ، وهذا كل ما فى الأمر ، بيد أن مصلحة ولدى ترشدنى دون سواها ، ومهما آنست فى خلاصى من سعادة فلست أرتضى فراقا منه ، بل لست أستطيع أن أنعم بشىء اذا تركت ولدى من ورائى» .

ولم يكن المؤتمر الوطنى غافلا عن مصير مارى انتوانيت ، فانتهى أخيرا الى تقرير محاكمتها ، غير أنه شغل حينا عن تنفيذ القرار ، ومهدت لجنة السلام العام ، الى ذلك بقرار آخر هو فصل ولى العهد الطفل عن أسرته ، وأعلنت الملكة بهذا القرار فى ٣ يوليه ، فصاحت عند سماعه : «اقتلونى أولا ! » ، وحملت ولدها الى سريره ، ولبثت زهاء ساعة تدفع بنفسها رجال البلدية والجند عن سرير ولدها ، وتجعل جسمها درعا لحمايته ، ولكنها غلبت أخيرا أمام القوة القاهرة ، وانتزع ولى العهد من أمه ، فى فيض من الزفرات والدموع .

وعهد بالطفل المسكين الى حارس وغد يدعى سيمون ، اختاره الكومون لسفالته ونذالته ، فعامله معاملة الحيوان ، وأسرف فى ضربه وتعذيبه ، وحاول بالاغراء والوعيد أن يقتل فيه كل الخلال الحسنة ، وأن يشجع عناصر الرذيلة والشر ، فكان يحمله على إهانة ذكرى والده ، وازدراء دموع أمه ، وتقى عمته ، وطهر أخته ،

و إخلاص أنصاره، و يلقنه الأغنية الجمهورية البذيئة[1]، وكان الكومون يرمى بتعذيب الطفل على هذا النحو المثير الى غاية شائنة كما سنرى .

وكان سلاح القذف والوقيعة يعمل منذ أعوام للقضاء على كل أثر لذلك الحب القديم الذى غمر الشعب الفرنسى به مارى انتوانيت يوم قدمت اليه ولية للعهد ، ويوم تبوأت عرشه ملكة فتية، وقد رأينا كيف أذكى حادث العقد هذه الدعوة. بيد أنها منذ الثورة استحالت الى سيل من الاتهام المؤلم، والسباب الشائن ، وتناولت المطاعن المرأة بعد الملكة ، وانطلقت الألسن من كل صوب ترمى مارى انتوانيت بأخس ما ترمى به ملكة وزوجة وامرأة ، وكانت المذكرات والرسائل الشائنة التى نشرتها مدام دى لاموت عقب حادث العقد أخصب مصدر لهذا الاجتراء على حرمة الملكة الأسيرة وخلالها وكرامتها ، «وهى التى قررت نهائيا أسطورة رذائل مارى انتوانيت» .

يقول الكونت دى لامارك سفير السويد فى مذكراته : « يجب أن نبحث عن أسانيد التهم التى وجهتها المحكمة الثورية الى مارى انتوانيت سنة ١٧٩٣ فى الدسائس والأكاذيب التى أذاعها البلاط فى حق الملكة" وقد اذيعت منذ الثورة عشرات من الرسائل تفيض بهذه الاكاذيب والتهم ، وتغمر الابهاء والنوادى ، ووضعت أغنية تشيد برذائل مارى انتوانيت ، وتنشد فى الأوساط الرفيعة . "ولم يكن هذا الشعب الذى يُعلم احتقار الملكات والنساء والأمهات لينسى الدرس الذى يلقى عليه"[2] .

وكانت الصحف الثورية من جانبها تغمر الملكة بوابل من المطاعن الدنيئة ، وكان أشدّ الصحف البارزية اسرافا فى هذا الاعتداء ، جريدة إيبر وكيل نائب الكومون المسماة "الأب دوشين"[3] . فكانت توالى الحملات العنيفة على مارى انتوانيت ، وتذهب فى سبها وتمزيق حرمتها الى أسفل ذرك . وكان إيبر لاينفك عن رميها

(١) لامارتين : تاريخ الجيرونديين .

(٢) دى نولهاك : الملكة مارى انتوانيت .

(٣) (Le Père Duchesne)

بأخس الخلال والتهم، والمطالبة برأسها بشدّة، ويدعوها فى كتاباته "بالذئبة النمسوية" و"النمرة الظمئة الى الدم" و"الوحش الضارى" و"مدام ڤيتو" و"وارملة كاپيه" و"مسالين، وأغربين، وفريديجوند" وغيرها . وكانت "الأب دوشين" من أشدّ صحف الثورة ذيوعا، فكان لحملاتها أثر عظيم فى تكوين الرأى العام، واذكاء سخطه على الملكة الأسيرة ومقته لها .

يقول دى نولهاك "واى عجب أن تخص باريس الثائرة، مارى انتوانيت بأعظم بغض، وأن تكون منذ اليوم الأول هى الفريسة المطلوبة؟ لقد مضت خمسة عشرة عاما وهى تُقدّم الى الشعب فى صورة الخطر القومى، وتعتبر مصدرا لكل مصائبه. وكلما اضطرم البؤس والمذابح، والحرب، رسخت هذه الفكرة، ومثل فيها كل سخطه"(1).

كذا كانت عاصفة هذا البغض تدوى قوية فى جوانب المؤتمر الوطنى ، فكان الزعماء اليعاقبة يحملون على مارى انتوانيت بشـدّة، ويدعون الى عقابها، ويطالبون برأسها، ومما قاله روبسپير ذات يوم فى إحدى خطبه : "كفى ما منح الى اليوم من ضروب التسامح والاغضاء الى كبار المجرمين . هل تريدون اذن أن يكون عقاب أحد الظلمة (يشير الى اعدام الملك) هو القربان الوحيد الذى نقدم الى الحرية والمساواة؟

" وهل نحتمل أن مخلوقا ليس أقل اجراما، وليست الأمة أقل بغضا له، يبقى هادئا ليشهد ثمار جرائمه؟ إن الجمهورية تنتظر بفارغ الصبر ذلك الأعدام الذى يذكى أوار بغضاء مقدسة للملوكية، ويمد الذهن العام بقوة جديدة" .

وصاح باريرذات مرة : «لنضع نظام الارهاب فى جدول الأعمال . إن الملكيين يريدون الدماء، وسـوف نعطيهم دم مارى انتوانيت ... ان شجرة الحـرية لا تنمو إلا اذا رويت من دماء الظلمة ! » .

وصاح بلوڤارين مطالبا برأس النمساوية قائلا : «لقد ألقى المؤتمر درسا هائلا من الشدة على الخونة، بيد أن عليـه أن يصدر قرارا آخر ... أن امرأة هى عار جنسها،

---

(1) «الملكة مارى انتوانيت» .

وعار الانسانية ، وهى أرملة كاپيه ، يجب أخيرا أن تكفر عن جرائمها فوق النطع ...
« بمثــل هذا الاجراء الحازم نستطيع أن نسبغ الوقار على حكومة جديدة » .

ولم يرتفع فى المؤتمر صوت للدفاع عن الملكة الأسيرة ، وكان دعاة الاعتدال من أى حزب قد حطموا جميعا ، وتركوا الميدان فريسة للتطرف المطلق ؛ وربما كانت ثمة فى زوايا المؤتمر أقلية صغيرة تثور سخطا وألمـا لهذه الاجراءات والحملات المثيرة ، ولكن شــبح الاتهام والارهاب كان يروعها ويخمد أصواتها ، بل يرغمها على اقرار كل ما تعرضه تلك الأغلبية المضطرمة الظمئة الى الدماء .

* * *

وفى أول أغسطس قرر المؤتمر نقل الملكة من التامپل الى « الكنسيرچيرى » أقدم سجون الدولة ، ونفذ الأمر فى فجر اليوم التـالى بمنتهى الغلظة والصرامة ، ففتشت الملكة ، ونزعت منهـا بعض الحلى والتذكارات التى كانت تحملها ، وتجدد منظر الوداع الأليم مرة أخرى ، فودعت الملكة ابنتها ومدام اليزابيت الوداع الأخير وأغدقت بركاتها على ابنتها ، وأوصتها بالنسيان والصفح تنفيذا لوصية أبيها . وزجت فى سجنها الجديد الى غرفة رطبة مظلمة فرشت بقليل من الأثاث الخشن العتيق ، وجردت هنالك من كل وسائل الراحة العادية ، ولم يبق لهـا من الثياب غير ثوبين باليين أحدهما أسود والآخر أبيض .

يقول لامارتين : « وهنالك ، فى جوف الليــل ، ألقيت ملكة فرنسـا ، التى انحدرت من درك الى درك ومن نكبة الى أخرى من ڤرساى وتريانون ، الى أعماق هذا السجن »(١) .

وغدت مارى انتوانيت فى ذلك الحين نكرة لا تعرف ، فاستحال شعرها الأشقر البديع بياضا كالثلج ، وتولاها الشحوب والسقم ، وطبعت على محياها الهزيل أعمق ضروب الأسى والألم .

---

(١) تاريخ الجيرونديين .

ولبثت فى سجنها الجديد زهاء شهرين دبر أصدقاؤها خلالها مشروعا جديدا لانقاذها وأخفق كسابقيه . وكانت تنفق أوقاتها فى القراءة والتأمل والصلاة، منتظرة بفارغ الصبر يوما ينقذها الموت فيه من ذلك الجحيم .

وجاء هذا اليوم أخيرا . وكان فوكييه تنفيل المدعى العمومى يجمع أثناء ذلك وثائق القضية التى تقرر أن تنظر فى ١٥ أكتوبر . ولم يقرر المؤتمر نظرها بنفسه كما فعل بالنسبة للويس السادس عشر، ولكنه أحالها الى محكمة ثورية خاصة انتدبت لهذا الغرض، اعضاؤها عشرة معظمهم من اليعاقبة ورئيسها النائب هيرمان صديق روبسبيير الحميم، وانتدب فوكييه تنفيل مدعيا عموميا لها . وفى ١٣ أكتوبر جاء فوكييه الى السجن وأعلن الملكة بتقرير الاتهام . وانتدبت المحكمة محاميين للدفاع عن الملكة هما شوفو لاجارد وترونسون ديكودرى[1] . فذهبت شوفو لاجارد فى الحال الى السجن ليبحث مع الملكة نقط الدفاع وليدرس أوراق القضية . غير أن الأوراق كانت من الضخامة والاختلال بحيث يستحيل درسها وفهمها فى تلك المهلة الضئيلة ، ولذا قرر المحاميان بالاتفاق مع الملكة أن يطلبا تأجيل القضية بضعة أيام للدرس وأعداد الدفاع .

وفى ضحى اليوم التالى أخذت مارى انتوانيت الى المحكمة، وأجلست فى مقعد الاتهام، ورفضت المحكمة كل تأجيل، ومثل المحاميان دون استعداد أو المام بأدوار القضية ومحتويات الأوراق . وسئلت الملكة ، عن اسمها وحالتها وسنها ، فأجابت أنها تدعى مارى انتوانيت دى لورين دوتريش ، وأنها أرملة لويس ملك فرنسا السابق، وعمرها سبع وثلاثون سنة . ثم تلا فوكييه تنفيل قرار الاتهام، وهو خلاصة لتصرفات الملكة وأخطائها مذ قدمت الى فرنسا ، وخلاصة لكل ما رميت به من ضروب القذف والوقيعة والسباب؛ فأما فى القسم الأول، فقد نسب اليها أنها بددت أموال فرنسا العامة تارة فى مسراتها وتارة بارسالها الى أخيها الامبراطور؛ وأنها غابت

---

(١) يقول لامارتين إن الملكة هى التى اختارتهما ، وانهما هما اللذان أوعزا اليها سرا بهذا الاختيار لينالا شرف الدفاع عنها .

على ارادة زوجها وتدخلت فى اختيار الوزراء، ودبرت الدسائس لقمع الثورة مع النواب الذين انضموا الى البلاط ، ودبرت مشروع الفرار الى ڤارين ؛ وحرضت العدو على محاربة فرنسا وأمدته بكل الخطط الحربية القومية ؛ وأمرت يوم ١٠ أغسطس الجند باطلاق النار على الشعب وحرضت زوجها على المقاومة والدفاع ؛ وأخيرا أنها لم تنقطع وهى فى التامپل عن التآمر والمراسلة مع أصدقائها فى الخارج . وأما القسم الثانى ، فقد كان صفحة شائنة من القذف البذئ ، تردّد كل ما اذاعته النشرات والرسائل القاذفة من الأساطير المثيرة عن خلال الملكة وشرفها وعفتها ، وكل ما كانت توجهه اليها «الأب دوشين» من دنىء المطاعن والمثالب والصفات . واليك بعض مما ورد فى هذا التقرير المثير ، وهو نموذج غريب للصيغ القضائية للمحكمة الثورية :

« وحيث أنه قد ثبت من فحص جميع الأوراق ... أن مارى انتوانيت كانت مثل مسالين ، و برونهاوت ، وفريديجوند ، ومديتشى (١) اللائى كن ملكات لفرنسا ، واللائى لا تمحى أسماؤهنّ البغيضة من ثبت التاريخ الأسود ، مذ حلت بفرنسا ، نكبة على الشعب ، وسفاكة لدمه ، وانها كانت قبل الثورة السعيدة الذى ردت الى الشعب الفرنسى سيادته ، ذات علائق سياسية بالرجل الذى يسمى ملك بوهميا والمجر ، وان هذه العلائق كانت ضارة بمصالح بفرنسا ، وانها لم تقنع بالتآمر مع أخوة لويس كاپيه ، ووزير ماليتهم الوغد البغيض كالون على تبديد أموال فرنسا بشناعة (وهى ثمرة عرق الشعب) لتشبع أهواءها السافلة ، بل أرسلت الى الأمبراطور فى ظروف مختلفة ملايين استخدمها وما زال يستخدمها فى محاربة الجمهورية ...

---

(١) مسالين زوجة الامبراطور كلود يوس الرومانى اشتهرت بالفجور والفسق ، وقتلت سنة ٤٨ بأمر زوجها . وبرونهاوت أو برونهلده هى ابنة أتاناجلد ملك القوط وزوجة سيجبرت ملك استراسيا وخصيمة فرديجوند . أما فريديجوند فقد كانت وصيفة حسناء لشلبرك ملك الفرنج فظلت حتى قتلت زوجته جلسونتا وهى أخت برونهاوت وحلت مكانها فى العرش وارتكبت بعد ذلك سلسلة من الجرائم الفظيعة واشتهرت بفجورها ، ونشبت بينها و بين برونهاوت خصومة شديدة ، ولبث ولدها كلوتير الثانى يتحين الفرص حتى قبض على برونهاوت وقتلها . وأما المديتشى فاشارة الى كاترين دى مديتشى زوجة هنرى الثانى وقد اشتهرت بفجورها وجرائمها ، ثم الى مارى دى مديتشى زوجة هنرى الرابع .

« وآن أرملة كابيه قررت ودبرت مع أعوانها المارقين تلك المؤامرة الرائعة التى انفجر بركانها فى ١٠ أغسطس، ثم جمعت حول جناحها فى التويلرى الجند السويسريين وأضافتهم وهم سكارى ...

« وانها فوق ذلك سافلة لا خلاق لها، قرينة اغريبين، فاجرة تقدم على كل الجرائم، وأنها قد انحطت الى حد انها نسيت صفتها كأم، وأقدمت على ارتكاب شنائع ترتجف لذكرها الأوصال ... »

وعلى أثر تلاوة التقرير استجوبت المتهمة، فابدت فى أجوبتها ذكاء وبراعة، واليك مثلا من هذا الاستجواب :

سئلت — هل أنت التى علمت لويس كابيه ذلك الرياء البارع الذى استطاع أن يخدع به الشعب الفرنسى طويلا ؟

أجابت — أجل لقد خدع الشعب، وخدع بقوة، ولكن الذى خدعه لم يكن زوجى ولا أنا .

س — ومن الذى خدع الشعب اذًا ؟

ج — خدعه من كان لهم صالح فى خداعه، ولم يكن من صالحنا نحن ان نخدعه.

س — ومن هم أولئك الذين كان لهم صالح فى خداع الشعب ؟

ج — لست أعرف سوى صالحنا، وقد كان فى هداية الشعب لا فى خديعته.

وسئلت عن حادثة الفرار الى ڤارين :

س — هل أنت التى أشرت على لويس كابيه بأن يفر من فرنسا ليتولى قيادة أولئك الخوارج الحمق الذين أرادو أن يمزقوا الوطن ؟

ج — انه لم يرد الفرار قط من فرنسا، ولو أراد ذلك لبذلت كل ما أستطيع لتحويله عن عزمه، ولم تكن هذه نيته قط .

س — اذًا ماذا كان الغرض من تلك الرحلة الى ڤارين ؟

ج — كان غرضه أن يحصل على الحرية التى حرم منها هنا، وأن يوفق بذلك بين كل الأحزاب حرصا على سلام فرنسا وسعادتها .

س — انك لم ترجعى لحظة عن العمل لهدم الحرية، ألم ترغبى فى الحكم مهما كان الثمن، وفى العودة الى العرش على جثث أبناء الوطن ؟

ج — لم نكن فى حاجة للعودة الى ارتقاء العرش، فقد كنا فوقه، وما رغبنا قط إلا فى سعادة فرنسا .

ثم جاء دور الشهادة، لان المحكمة الثورية أعدت شهودها، وهم جماعة من الأسرى الكبراء مثل الأميرال دستان قائد الحرس الأهلى السابق، ولاتور دى بانوزير الحربية السابق، وبايلى حاكم باريس السابق، وڤالازيه النائب السابق، فسمعت أقوالهم عن التهم السياسية . وكان أخطرها ما قاله لاتوردى بان من أن مارى انتوانيت طلبت منه أيام وزارته تقريرا دقيقا عن حالة الجيش . كذا سمعت المحكمة شهادة إيبر نائب مدعى الكومون وصاحب جريدة «الأب دوشين»، وكانت شهادة مدبرة مثيرة . ذلك أن إيبر كان يتردد قبل نظر القضية على التامپل، ويلقن ولى العهد الطفل تحت وابل من الوعيد والأذى كل ما أريد أن ينسب الى مارى انتوانيت من الوقائع والتهم المثيرة، ثم أرغم الطفل بعد ذلك على أن يقرر أمام المحققين وهما باش حاكم باريس، وشوميت مدعى الكومون، تلك الأقوال التى لقنت اليه وأمر بحفظها وتلاوتها . ولم يحجم شوميت عن أن يستجوب مارى تيريزابنة الملكة، وهى التى لم تجاوز الخامسة عشرة بعد، عن تلك التهم المثيرة التى أمر ولى العهد أن ينسبها الى أمه . ووصفت هذه الأميرة بعد فى مذكراتها هذا الاجتراء فقالت : «لقد فاض بى الاشمئزار والغضب حتى أنى صحت رغم ارتياعى أن محاولتهم هذه عار ونذالة؛ على انهم ألحوا برغم صياحى ودموعى، وفاهوا بأقوال لم أفهمها . بل لقد كان ما فهمته منها رائعا فلم أملك دموعى غضبا واشمئزازا» . وهذه الوقائع المثيرة هى التى تقدم ايبر ليؤيدها أمام المحكمة باسم ولى العهد الطفل، لأن سنه لا يسمح بمثوله أمام المحكمة بشخصه، وكذا دعيت مدام اليزابيت كشاهدة بها وشريكة فيها . وتقدم ايبر فألقى هذه المطاعن التى تصيب مارى انتوانيت فى خلالها وشرفها وعفافها كامرأة وام، واستمعت المحكمة طويلا الى تلك النذالة، ولما أختم

فى طلب الايضاح من المتهمة صاحت مارى انتوأنيت : « ان الطبيعـة تقيلنى من الاجابة على مثل هذه التهم ، وانى لانادى قلب كل ام بين الحاضرات ! » .

واستمر الاستجواب وسماع الشهادة ، والجدل ، زهاء سـبعة عشرة ساعة تارة فى هـدوء وسكينة وطورا فى عاصفة من الضجيج والهرج . وكانت مارى انتوانيت خلال هذه الساعات العصيبة التى ترمى فيها بوابل متصل من القذف الشائن والاهانة المثيرة ، مثلا ساميا للسكينة وضبط النفس ، تثير بجلدها اعجاب القضاة أنفسهم .



مارى انتوانيت أمام المحكمة الثورية

ثم جاء دور الدفاع فى منتصف الليل فدافعت الملكة عن نفسها بثبات ومنطق ، وقالت انه ليس بين الوقائع المنسوبة اليها تهمة واضحة ، وانها باعتبارها زوجة للويس السادس عشر ليست مسئولة عن شىء مما وقع أثناء حكمه . ثم نهض شوڤولاجارد لالقاء دفاعه . وكانت مهمة الدفاع شاقة لأنه لم يتمكن كما قدمنا من درس أوراق

القضية ولأن الوقائع التى نسبت الى الملكة كانت كثيرة مشتتة ولم تتخذ صبغة التهم القانونية التى يمكن مناقشتها ودحضها بالاستناد الى نصوص معينة . بل كان الدفاع مهزلة، اذ كان المحقق ان المحكمة قد أعدت حكمها سلفا، وان ليس من حكم تصدره غير الموت، وانها لن تصغى الى أى صوت يرتفع بالدفاع أو المعارضة . وأخيرا كان الدفاع خطرا، لأن المحكمة الثورية لا يمكن أن ترى فى أية شجاعة أو براعة يبديها الدفاع فى مهمته غير المروق والخيانة والخروج على قضاء الثورة . وماذا كان مصير المدافعين عن لويس السادس عشر؟ ألم يعدم ما لزرب و يلق ديسيزحينا الى ظلامة السجن ؟

ومع ذلك فقد قام شوڤو لاجارد وترونسون ديكودرى بمهمتهما بشجاعة، فدافعا عن مارى انتوانيت بكل ما وسعا من بيان وذلاقة، وألقيا مدى ساعتين مرافعة بديعة مؤثرة، «حركت الخلف، ولم تحرك السامعين ولا القضاة [1]»، وكان أثرها الوحيد أن قبض عليهما عقب الجلسة فورا، وقدم قضاء الثورة بذلك مثلا مدهشا لمعياره فى تقدير حرية الكلام والرأى واحترام الدفاع الذى يلقى بأذنه وطلبه .

ثم اختلت المحكمة للمداولة عقب انتهاء الدفاع مباشرة، وعادت الى الانعقاد بعد برهة وأصدرت حكمها، باجماع الآراء، بادانة الملكة واعدامها [2] .

---

(١) لامارتين .

(٢) هذا هو نص الأمر الصادر باعدام مارى انتوانيت : «باسم الجمهورية الفرنسية... يطلب المتهم العمومى لدى المحكمة الجنائية الثورية، المنشأة فى باريس طبقا لقانون ١٠ مارس سنة ١٧٩٣، تنفيذا لحكم المحكمة الصادر (اليوم)، الى الوطنى قائد قوة الجيش الباريسى، ان يساعد وان يقدم القوة العامة اللازمة لتنفيذ الحكم المذكور الصادر ضد (مارى انتوانيت لورين أوتريش أرملة لويس كابيه) والذى يقضى عليها (بالاعدام)، ويجب تنفيذه (اليوم فى الساعة العاشرة صباحا) فى (ميدان الثورة) الواقع بهذه المدينة . ويطلب الى الوطنى القائد العام أن يرسل القوة العامة المذكورة الى ساحة وزارة الحقانية فى اليوم المذكور، (فى الساعة الثامنة) تماما (من الصباح) .

صدر فى باريس، فى (٢٥ من الشهر الثانى) للعام (الثانى) من الجمهورية الفرنسية .

المتهم العام : (فوكييه)

والكلمات المحصورة بين الأقواس هى المضافة كتابة الى النموذج المطبوع .

فأصغت الملكة الى الحكم فى سكينة وصمت ،ولم تبدر منها بادرة جزع أو خوف، ثم جازت درج الحاجز فريدة، واخترقت القاعة بقدم ثابتة ، وأعيدت فى الحال الى سجنها .

* * *

وكان الفجر قد انبثق، واستغرقت المحاكمة زهاء عشرين ساعة قطعت كلها فى جلسة واحدة .

أخذت مارى انتوانيت،والصبح يتنفس الى غرفة المحكوم عليهم،وكان يومها الأخير قد بدأ لأن الحكم ينص على التنفيذ فى ضحى اليوم نفسه، وطلبت ورقا وقلما فمنحت ما طلبت وكتبت الى مدام اليزابيت (أخت لويس السادس عشر) خطابا طويلا مؤثرا جاء فيه :

« فى ١٥ أكتوبر الساعة الرابعة ونصف صباحا .

« أكتب اليك يا أختاه للمرة الأخيرة . لقد حكم على، لا بموت شائن — إذ لا يحكم به إلا على المجرمين — ولكن بأن أذهب للحاق بأخيك . و إذ كنت بريئة مثله، فانى أؤمل أن أبدى ما أبداه من الثبات فى ساعته الأخيرة . ان قلبى يتمزق أسفا لمفارقة ولدى المسكينين، فانت تعلمين انى لم أعش إلا من أجلهما ومن أجلك، أنت التى ضحت باخلاصها كل شىء لتبق معنا...فاقبلى من أجلهما بركتى . وانى أؤمل أن يستطيعا الاجتماع بك ذات يوم وأن يتمتعا بحنانك فى حرية ... وعلى ولدى ألا ينسى مدى الدهر كلمات والده الأخيرة، فلا يحاول أبدا أن ينتقم لموتنا .

« وانى أطلب من كل قلبى الى الله أن يغفر لى كل الأخطاء التى قد أكون ارتكبتها منذ أن ولدت، وأطلب الصفح الى كل من عرفت ، واليك خاصة، يا أختاه ، عن جميع الآلام التى قد أكون سببتها اليك دون قصد . وانى لأغفر لأعدائى كل ما أساءوا به الى . فوداعا أيتها الأخت الشفيقة المحبوبة، وعسى أن يصل هذا الخطاب اليك . أذكرينى دائما . انى أعانقك من صميم قلبى، وكذا ولدى

العزيزين المسكينين . ر باه ، انه ليمزق فؤادى أن أفارقهما الى الابد . فالوداع ! الوداع ! ... »

ولكن مدام اليزابيت لم تستلم هـذا الخطاب قط ، لأن الحارس الذى استلمه من الملكة ، حمله الى فوكييه تنفيل ، ثم وجد بعد ذلك مصادفة فى أوراق روبسپيير بل لقد لبثت مدام اليزابيت لا تعلم مصير الملكة حينا .

وكتبت مارى أنتوانيت على كتاب صلاة صغير كانت تحمله تلك العبارة .

« فى ١٥ أكتوبر الساعة الرابعة ونصف صباحا ... ر باه : رفقـا بى ! ولدى المسكينين لم يبـق فى عينىّ دمع أذرفـه عليكما : فالوداع ، الوداع ! — مارى انتوانيت » (١) .

وانفقت مارى انتوانيت ساعاتها الأخيرة فى الصـلاة والاستغفار ، وتأهبت للقاء ربهـا .

وفى نحو الساعة العاشرة قدم الجلاد سامسون الى السجن بصحبة قضاة ثلاثة وكاتب الجلسة ، فتلى حكم الاعدام ثانية على الملكة ، ثم أوثق الجلاد يديها ، وقص شعرها — ذلك التاج البديع الأشقر الذى بيضته الخطوب قبل الأوان — ، ثم أخذت الى عربة مكشوفة وأركب الى جانبها قسيسهـا الأب جيرار . وكانت سريات كبيرة من الجنـد ترابط فى الطرق الموصلة الى ميدان الثورة (٢) ، وقد نصبت المدافع فى الميـادين ومفارق الطرق وفوق القناطر . وسارت عربة المحكوم عليها تحيط بها فرقة قوية من الفرسان ، بين صفوف كثيفة من الجند . وكانت المدينة تموج بالجموع الصاخبة خلافا لمـا سادها من صمت وذهول يوم مصرع الملك . وكان ثمة بالأخص جموع كبيرة من النساء . وكان الصياح يدوى من كل ناحية «لتحيي الجمهورية ! لتمت النمسوية ! ليسـقط الظلم ! » وكانت ألوف عديدة تحتشـد فى ساحة الاعدام وحول النطع .

---

(١) لا يزال هذا الكتاب محفوظا الى اليوم فى مكتبة شالون .

(٢) هو اليوم ميدان الكونكورد .

صعدت مارى انتوانيت درج النطع ثابتة، هادئة، وجثت برهة وهى تصلى، ثم نهضت، قائلة : «وداعا أخيرا يا ولدى، سوف ألحق بأبيكما»، ثم سقط رأسها مضرجا بدمه بعد الظهر بدقائق قليلة، ورفع الجلاد رأسها الى النظارة، فارتفعت صيحة طويلة «لتحيي الجمهورية !» . وحملت الجثة الهامدة مع جثث أخرى الى مقبرة المادلين وألقيت أياما فى العراء، حتى دفنها أحد عمال المقبرة فى ركن مجهول منها .

يقول لا مارتين : «اعتقدت الثورة أنها انتقمت، ولكنها ما فعلت الا أن وصمت، فقد سقط هذا الدم النسوى على رأسها دون أن يدعم حريتها ... ولم يسفر اعدام ملكة، وأجنبية، وسط الشعب الذى تبناها، حتى عن ثمن الخواتم المؤسية : عن ندم أمة وحنانها» .

ثم يقول : «وهكذا زهقت تلك الملكة، الطائشة فى السعادة، السامية فى الشدائد، الثابتة فوق النطع، معبودُ شوههه الشعب، حبُّ الملوكية ثم نصحها الأعمى، ثم عدوة الثورة . وهى ثورة لم تعرف أن تتوقعها أو تفهمها أو تقبلها، ولم تعرف الا أن تثيرها وتخشاها، وقد جاءت الى بلاط ولم ترتم فى أحضان الشعب، فأضمر لها الشعب كل ما يحمله للنظام القديم من بغض، وقرن باسمها كل فضائح البلاط وخياناته . وغلبت بقوتها وجمالها وذكائها ارادة زوجها، وغمرته بما يلحق بها من بغض، وجرته بحبها الى الهلاك ...

« ومهما كان من رأى التاريخ فسوف يذرف فوق هذا النطع دموعا خالدة .

« امرأة بمفردها إزاء الجميع، بريئة بجنسها، مقدّسة بأمومتها، وديعة لا خوف منها، يقتلها فى أرض الغربة شعب لا يغفر ذرة للشباب والجمال، وتيه العبادة ! ويدعوها ذلك الشعب لترقى عرشه، ثم يضن عليها حتى بقبر تثوى اليه» [1] .

---

(١) تاريخ الجيرونديين (الكتاب السادس والأربعون) .

* * *

قد يذوب القلب، و ينهمر الدمع لتلك التفاصيل المؤسية، ولكن حكم التاريخ يبقى جامدا صارما .

فاذا كانت مارى انتوانيت قد ذهبت قبـل كل شىء ضحية القـذف والوقيعة والبغض الأعمى، واذا كانت أقر أخطاء ومسئولية مما صوّرها أعداؤها، فمن الحق أن يقال أيضا إنها عملت كثيرا لاثارة العاصفة التى احتملتها .

ألم تحمـل الى العرش نزعات ولية العهد الطائشـة، وأهواءها المضطرمة ؟ ألم تمض مسرفة فى اللهو، مغرقة فى تبـذير الأموال فى وقت نضبت فيه موارد فرنسا وهـددها شبح الجوع؟ وماذا عرفت من مهام الحكم سوى الافتنان فى تنظيم الحفلات والملاهى الشائقة، ثم اتخاذ السلطان، تنزعه من زوج ذلول، أداة لتحقيق الأهواء، واصطفاء الأصـدقاء، و بذل الأموال العامة للقربين، ومناصب الدولة للعاجزين؟ ألم تقف سـدا منيعا فى وجه كل إصـلاح، وتقصى الوزراء المصلحين فى الحكم ؟ وهل كانت إرادة الشعب، وآماله وآلامه، شيئا فى نظرها، وهى تحول دون كل محاولة لبحث ادوائه وتخفيف آلامه ، وتوجه سياسـة زوجها الضعيف الى كل ما يسخطه و يذكى ضرام بغضائه؟ ألم تحاول حتى اللحظة الأخيرة أن تستبق للملوكية كل سلطانها وامتيازاتها القديمة لا تنزل عن ذرة منها لارضاء الشعب أو مسالمته وتحمـل زوجها ما اسـتطاعت على مقاومته ومحاربته ؟ وأخيرا ألم تكن هى روح المفاوضات والمساعى التى بذلت لتحريض الأعداء على غزو فرنسا وسحق الثورة ؟

قاست مارى انتوانيت عذاب الشهداء، وعاملتها الثورة بوحشية ونذالة، ولكن آلام فرد ، مهما بلغت من الروعة، ومهما بعثت من الأسى والشجن ، لا تعـدل امتهان شعب بأسره، ولا تشفع فى زلات تنكب الملايين .

الفصل الثالث

محاكمة شـــرلوت كـــرداى

يوليـــه ســـنة ١٧٩٣

كانت الملوكية وأسرتهـا وأنصارها، والنظم كلها، فريســة الثورة الفرنسية. ولكن الثورة ذاتها كانت منذ البداية، فريسة لأهواء زعمائها وقادتها، وكانت مسرحا للشهوات والنضال فى سبيل الرياسة، ومعتركا لمختلف المبادئ والنظريات، فبدأت غير بعيد تمزق قادتها و بنيها أنفسهم، وأخذ كل حزب يرقب الفرص ليبطش بخصيمه، وكل زعيم يعمل لسحق منافسه. وكان التطرف علم الاخلاص والظفر، والاعتدال وصمة الضعف والخيانة. فكان دعاة الاعتدال أول ضحية لهذا الصراع العنيف.

وكان دعاة الاعتدال كما رأينا، جماعة « الجيروند ». أولئك هم الذين حاربوا التطرف وأرادوا حقن دم الملوكية، وحاولوا انقاذ الثورة من الانحدار الى غمر الدمار والسفك. ولكن اعتدالهم كان سلاحا فى يد خصومهم دعاة التطرف والســفك، فسرعان ما ضعف نفوذهم، واتهموا بالتردّد والرجعة ثم الخيـانة، وهلك معظمهم على النطع، فلما خلا الميدان منهم انقلب الطغاة الى افتراس بعضهم بعضا، وسقطت رؤوسهم تباعا على نفس النطع الذى خضبوه من قبل بدماء خصومهم.

وهكذا هلك معظم زعماء الثورة الفرنسية بسيف « الجيوتين ».

ولكن واحدا منهم، وربما كان أشدهم تأثيرا فى ســير الجانب الاسود من الثورة، أعنى جانب الدمار والسفك، قد هلك بخنجر فتاة، غدت ســيرتها وصفاتها الخلابة مستقى خصبا لخيال الكتّاب والشــعراء: ذلك الزعيم هو چان پول مارا، وتلك الفتاة هى شرلوت كرداى.

كان مارا من أغرب الطبائع التى أخرجتها الثورة الفكرية فى القرن الثامن عشر، كان شخصية غامضة خفية تبعث من حولها الروع ، وكان ذلك الخفاء ذاته مصدر قوته ونفوذه الخارق فى الأفراد والجماعات .

ولد مارا فى بودرى من أعمال سويسرا فى سنة ١٧٣٤ ، وتلقى دراسة مضطربة متنوعة، ثم درس الطب، فى بوردو، وانتقل الى باريس يزاول مهنته فيها، واندس



مارا

الى المجتمع الباريسى يتملق الكبراء، ويختلف الى قصورهم . وكتب فى ذلك الحين بعض رسائل فلسفية وسياسية قوية . غير أن هذه الحياة العادية لم تكن لترضى أطماعه الكبيرة ، فلبث حينا يتحين فرص الظهور فلا يجدها، حتى كانت الثـورة ، فعندئذ أدرك مارا ان طالعه قد بدا ، وألفى فى تلك الحوادث والمفاجآت المدهشة ميـدانا خصبا للظهور والمغامرة، فاندس الى الثـورة ، واتصل بزعمائهـا، واندفع

الى خوض غمارها بكل ما وسع من دهاء وخديعة، فلم يلبث ان شق طريقه المنشود وسط العاصفة، وتبوأ مركزه من قيادة تلك الكتلة البشرية الثائرة المضطرمة .

وكانت مواهبه أخص ما يتطلب الموقف، فقد كان كاتبا ملتهب البيان، وصحفيا وافر البراعة، بل كان آية فى اختبار مشاعر الجماعات، وسبر اغوارها، والميل مع هواها، فكان يخاطبها ويتقدّم اليها من الانحاء الراجحة فيرضيها ويسخطها، ويهدئها، وفقا لمقاصده؛ عرفه الشعب الباريسى لأوّل مرة حينما طلع عليه من أعماق أقبيته الخفية بصحيفته «صديق الشعب»[1] التى بدأ باصدارها فى ١٢ سبتمبر سنة ١٧٩٠، فما كادت تظهر، حتى ذاعت فى المجتمع الباريسى ذيوعا هائلا، وسرعان ما برز محررها الى صفوف الزعماء والقادة فى ذلك العصر العصيب .

ودخل مارا المؤتمر الوطنى يعقوبيا متطرفا يبث فى أروقته أشنع دعوات التحريض والهدم . واستطاعت عناصر الاعتدال أن تهدئ هذه الصيحة الخطرة حينا، وملك الجيرونديون ناصية الموقف بادئ بدء، فى الحكومة وفى المؤتمر، ولكن محاكمة الملك كانت ضربة لهيبتهم، فاشتدت عليهم حملات اليعقوبيين، ورموهم بالضعف والخيانة، وأطلقت الدعوة الى العنف والسفك من عقالها، وبرز مارا الى الطليعة يحمل علم الدمار والموت، ويدعو فى بيانه الملتهب الى الدماء . كان مارا رسول الموت الى مجتمع الثورة، وكان ذلك المجتمع الذى حطم كل القوانين والنظم، يصغى متحمسا الى دعوته، وكان «صديق الشعب» يدعو الى السفك دائما؛ ويقدّم كل يوم ثبتا جديدا من المحكوم عليهم، ويهاجم خصومه أو خصوم الفوضى بأشنع ضروب القذف والسعاية، ويسخط الجموع عليهم بمختلف التهم والأكاذيب.

وكان الجيرنديون يضطرمون سخطا على ذلك الداعية الذى يسمم الأفق من حولهم، ويصور اعتدالهم للشعب خيانة، فينال بذلك من هيبتهم ونفوذهم أشد النيل؛ وكانوا يتربصون الفرصة لاسقاطه وإخماد دعوته، حتى وقع حادث رأوه وسيلة صالحة لتحطيم مارا ونفوذه .

L'Ami du peuple (١)

وذلك أنه حدث فى باريس شغب كبير فى أواخر شهر فبراير سنة ٩٣ نهبت فيه عدة حوانيت، وأحرقت دور كثيرة، وزهقت أرواح عديدة ، فألقى الجيرنديون تبعة الحادث على مارا لأنه فى اليوم السابق لوقوعه حرض الشعب فى صحيفته على نهب الحوانيت وشنق التجار احتجاجا على الغلاء؛ وخطب أحد النوّاب الجيرندويين فى المؤتمر، فاتهم مارا علنا بالتحريض على ارتكاب الجرائم وتقويض دعائم السلام



ظفـــر مارا

والأمن؛ ولكن مارا دافع عن نفســه بمهارة ورمى الجيرندويين بالضعف والرجعة والخيـانة ، فطلب الجيرنديون أن يحاكم هــذا الداعية الى الدمار والسفك، ووافق المؤتمر على طلبهم فى عاصفة من الجدل والصياح .

وأحيل مارا على المحكمة الثورية . ولكن المحكمة كانت مؤلفة من اليعقوبيين أصدقاء مارا وأنصار دعوته ومبادئه ، فتقدّم اليهـا موقنا ببراءته، ودافع عن نفسه

بحماسة وذلاقة، وصور نفسه فى صورة المضطهد الشهيد، وقال لقضاته : « أيها الوطنيون، انكم لا تحاكمون مجرما وانما أنا رسول الحرية وشهيدها ! وما حمل على تقرير محاكمتى الا جماعة خارجة دساسة ! » وهكذا برئ « صديق الشعب » براءة خالصة، فى عاصفة من الهتاف والحماسة ، وحمله الشعب على أكتافه، وتوجه بالأغصان، وطاف به الطرق هاتفا بحياته وزعامته، وحمله الى قاعة المؤتمر فى موكبه الفخم، فصعد مارا الى منبر الخطابة، وعلى رأسه تاج من الأغصان وصاح : « أيها المشرعون للشعب الفرنسى . أقدم اليكم وطنيا اتهم ثم برئ براءة خالصة، فأتى ليقدم اليكم قلبا طاهرا، ويعاهدكم على أن يستمر فى الدفاع عن حقوق الانسان وحرية الشعب بكل ما أوتى من قوة وعزم ! » فقوبلت كلمته بالهتاف الحاد، وأغدقت عليه التهانى من كل صوب .

وهكذا خرج مارا من ذلك النزال أشد بأسا وأقوى نفوذا، ولم تمض أسابيع أخرى حتى بطش اليعقوبيون بخصومهم الجيرونديين، فقبض على عدد كبير من نوابهم فى شهرى مايو ويونيه، وقدموا الى المحاكمة بتهمة الخيانة ثم أعدموا، وفر بعضهم الى الأقاليم، وأثاروا بعض الثورات المحلية، ولكنها أخمدت جميعا، وقبض اليعقوبيون وحدهم على أقدار الثورة ومصايرها .

٢

ننتقل الآن الى طرف آخر من المأساة، لنقدم الى القارئ تلك الفتاة التى هلك مارا بخنجرها .

شرلوت كرداى، أو ملاك القتل أو چان دارك الحرية، كما يسميها لامارتين اسم يقرنه الشاعر والقصصى دائما بسمات البطولة والتضحية والمثل الأعلى .

ذلك لأن شرلوت كرداى لم ترتكب جريمتها إلا عن عقيدة راسخة، ولم تسفك الدم الذى سفكت إلا لاعتقادها أنها بذلك تنقذ فرنسا من عواقب الدمار والفوضى، وتنقذ الجمهورية من طغاتها وجلاديها . ثم دفعت ثمن جريمتها حياة

فى زهرة العمر ، وجمالا شـعريا يفيض سحـرا ورقة ؛ وسارت الى الموت باسمة جريئة ، معتقدة أنها أدت واجبها نحو الوطن .

يقول لامارتين « بينما كانت باريس ، وفرنسا ، والزعماء ، وجيوش الأحزاب ، يتأهبون لتمزيق الجمهورية ، مثـل شبح فكرة عظيمة فى نفس فتاة ، وجاء ليدهش الحوادث والنـاس[1] » ؛ وهـذه الفكرة العظيمة هى التى أملت على شرلوت كرداى عزمها وجريمتها .

كانت شرلوت يومئـذ فى الرابعـة والعشرين . وكانت تقيم فى كاين عاصمة نورماندى . وكان الزعماء الجيروندبون الذين استطاعوا النجاة مثل باربارو ، وبيسيون ، وجوديه ، وسال ، ولانجونيه ، قد وفدوا على كاين يومئذ ، واتخذوها مقرا لدعوتهم ونشاطهم ؛ وكانت شارلوت تتردّد على اجتماعاتهم وتضطرم حماسة لمبادئهم ، ولكن هـذه الحماسة اتخذت فى نفسها المحجبة الصامتة سبيلا أخرى ، هى سبيل العمل الجرىء والتضحية الكبرى .

وكان مولد هذه الفتاة السامية فى سنة ١٧٦٨ فى احدى قرى مقاطعة أرجنتان . ولدت فى أسرة نبيلة ، ولكن بائسة ؛ وقضت بين أبويها وأخوتها طفولة متقشفة ، ثم فقدت والدتها وهى فى الثانية عشرة ، فأدخلت الى دير فى كاين ، وتلقت هنالك تربية حسنة ، وكانت تشغف منذ الحداثة بقراءة كتب الاجتماع والفلسفة والتاريخ ، فقرأت بلوتارخوس ، وڤولتير ، وروسو ، وديدرو ، ودرست قصص الشاعر كورنى — وهو جدّها الأكبر — وكانت فلسفة القرن الثامن عشر ، ونظرياته السياسـية والاجتماعية تذكى بالأخص خيالهـا المضطرم ، وتنفذ الى أعماق نفسها ، فنشأت تمقت النظم القديمة ، وتعشق الجمهورية والديموقراطية .

وكانت هذه المثل العليا تتأجج بين جوانحها فى خفاء وصمت ، لأن شرلوت كانت طبيعة هادئة ، يحجب الجمود اضطرامها ، وتلوذ بالعزلة والسكينة لتطلق العنان

---

(١) تاريخ الجيروندبين (الكتاب الرابع والأربعون) .

لأفكارها وتأملاتها، وقلما كانت تستسلم الى بوادر المرح التى تملأ الحداثة، أو تغادرها الرزانة والخطورة، فقد كانت الحياة لديها أسمى من متاع ولهو، وكان المثـل الأعلى غذاء نفسها، « وكان هذا المثل الأعلى يصير فى نفسها الى اخلاص غامض سام لحلم من السعادة العامة . ذلك أن هذا القلب كان من البسطة بحيث لم يكن ليقتصر على سعادته الخاصـة، فكانت تريد أن تملأه بسعادة شعب بأسره[1] » .

وكانت شرلوت فوق ذلك ذات حسن فائق، وسحر خلاب، وإليك ما وصفتها به مدرستها مدام دى مارمون : « كانت فائقة القد، فائقة الجمال، شديدة الازدهار، ناصعة اللون، تحمر بسهولة جمة، وتبدو عندئذ فتانة حقا . وكان محياها البديع يعرب عن رقة عميقة الأثر، ونبرات صوتها تنفذ الى السويداء، وما سمعت قط أنغاما أشد سحرا منـه . وما رأيت قط نظرات أنق وأطهر من نظراتها وأشد فتنـة؛ لقد كانت فى الواقع امرأة رائعة » .

بيد أن هذا الجمال الباهر لم يحول شرلوت عن الهيام بكتبها وتأملاتها .

ولما أغلقت الأديرة فى سـنة ١٧٩٠ تنفيذا لقرار الجمعيـة التشريعية غادرت شرلوت ديرها فى كاين ، وعادت الى منزل الأسرة . وكانت فى العشرين يومئـذ ؛ فلبثت هنالك ترقب الحوادث من أعماق القرية، وتستطلع الأنبـاء وتقرأ الصحف والنشرات العديدة . وكان الجيرونديون قد برزوا يومئـذ الى الطليعة، واجتمعت حولهم ، وحول مبادئهم ، كل المثل العليا ، فكانت شرلوت تقرأ أنبـاءهم وخطبهم بشغف ، وتضطرم اعجابا بزعمائهم ، ڤرچنيو و بريسو و باربارو ولوڤيه و بيسيون . وكان الجيرونديون فى الواقع قادة الثورة الحقيقية، فهم الذين ساروا بها خلال العاصفة الى الظفـر ، وحطموا صروح الملوكية والنظام القديم ، وحققوا مثـل الجمهورية والديموقراطية . ولكنهم كانوا دعاة مثل ومبادئ، لا دعاة سفك، وكانوا رجال بناء لا رجال هدم . وكان هذا خطأهم فى نظر خصومهم، دعاة الهدم المطلق، والعنف الأعمى، وكان مثار العاصفة التى احتملتهم . ذلك أن تيار التطرف ما لبث ان غمر

(١) لامارتين .

كل اعتدال، وأفلت زمام الثورة من يد أولئك الذين حاولوا أن يدفعوها الى طريق السلام، ليقع فى يد أولئك الذين يدفعونها الى غمر الدماء والفوضى . وكان اعدام لويس السادس عشر نذيرا باضطرام العاصفة الدموية، وفوز الزعامة الظمئة الى الدم .

وكانت شرلوت قد سئمت عزلة القرية النائية، وعادت الى كاين، وأقامت هنالك مع قريبة عجوز لها تدعى مدام دى برتفيل، وعكفت على تتبع الأنباء والحوادث . ووقع مصرع لويس السادس عشر فى نفسها أمر وقع، وثارت مخيلتها روعا ويأسا لانحدار الثورة الى تلك الطريق المخضبة بالدم ، واليك كيف تصور شرلوت لمحة من عواطفها فى خطاب أرسلته يومئذ الى صديقة لها : « تعرفين يا حبيبتى روز النبأ المروع، وقد ارتجف قلبك له سخطا كما ارتجف قلبى ؛ وهكذا تسقط فرنسا المسكينة فريسة الأشقياء الذين بالغوا فى الاساءة الينا .

« انى أرتجف روعا واشمئزازا، فكل ما نستطيع أن نتصوره من رائع ومخيف، يجثم فى ذلك المستقبل الذى تهيئه لنا أمثال هذه الحوادث، ومن الواضح أنه لن يمكن أن ينزل بنا ما هو شر من ذلك . انى أكاد أغبط ذوينا الذين هجروا أرض الوطن، لأنى قد يئست من أن أرى السكينة التى طمحت اليها تعود الينا . ان جميع أولئك الرجال الذين أخذوا على أنفسهم أن يهبونا الحرية قد قتلوها ، وهم ليسوا إلا جلادين، فلنبك مصير فرنسا المسكينة » .

وهكذا فازت الزعامة المتطرفة، الظمئة الى الدم ، وازور نجم الجيرونديين ، وقويت كلمة اليعاقبة، وسيطروا على أقدار الثورة ، وسياسة المؤتمر الوطنى ؛ وسار الجيرونديون من هزيمة الى هزيمة ، ثم سقطوا أخيرا فى ميدان النضال ، صرعى الانتقام الحزبى وساقهم اليعاقبة الى النطع بتهمة الرجعة والخيانة ، وعلت كلمة الطغيان والسفك ، وهبت ريح الارهاب الدموى على فرنسا تحمل فى سبيلها كل اعتدال وكل تفكير وكل معارضة .

وكانت شرلوت تتبع أدوار المأساة بجزع وألم، ويضطرم قلبها سخطا على أولئك الذين اعتبرتهم جلادين لوطنها — أولئك اليعاقبة الذين يحملون علم الدمار والموت .

فى ذلك الحين وفد على كاين جماعة من الجيرونديين الفارين، ومنهــم بار بارو و بيسيون و بيزو وجوديه وساں ولانجونيه، ونزلوا فى دار البلدية ، وأخذوا فى القاء الخطب الملتهبة، وتنظيم الثورة المعارضة . وكانت أنباء المذبحة الرائعة التى هلك فيها عشرات من نواب الشعب تثير الإضطراب والانفعال فى كل ناحيــة . وكانت شرلوت تشهد اجتماعات النواب الفارين ، وتصغى الى خطبهم بشغف وحماسة .



شرلوت كرداى

«كانت تريد أن ترى أولئك الذى ترغب فى انقاذهم، فحفرت أقوال هؤلاء الرسل الأوائل للحرية، ووجوههم، فى نفسها، وزادت فى اضطرام إخلاصها لقضيتهم» .
وكان سخط الشبيبة فى الأقاليم يجتمع حول اسم مارا ويعتبر فى نظرهم دون باقى الزعماء مصدر البلاء والشر، ولم يكن لاسم دانتون أو روبسپيير فى نظر الناقمين أهمية مارا

أو سلطانه على الشعب أو حمّاه الدموية . وكانت شرلوت ترى مثلهم هذا الرأى ، فكان شبح مارا فى نظرها يغمر الجمهورية كلها[1] .

وأرادت شرلوت أن تتصل بأولئك الزعماء الذين تجلهم ، وأن تحادثهم ، فذهبت لزيارتهم فى ٢٠ يونيه سنة ٩٣ ، فاستقبلها بار بارو ، واحتجت لزيارتها بانها قدمت ترجو توسطه لدى وزير الداخلية لمساعدة صديقة لها فى أمر يخصها ، فوعدها النائب أن يهتم بالأمر ، ثم عادت الى مقابلته بعد أيام ، واقترحت أن تذهب هى الى باريس لتقابل بنفسها وزير الداخلية ، وأن يزودها النائب بتوصية منه ، فأجابها الى ماطلبت .

والظاهر أن فكرة مقتل مارا استقرّت فى ذهنها يومئذ ، ولم تكن مسألة صديقتها كما اعترفت فى احدى رسائلها بعد ، إلا عذرا اتخذته للذهاب الى باريس .

وكان يذكى هذا العزم فى نفسها ماتسمعه من النواب الجيرونديين عن روعة مبادئه واضطرام ظمئه الى السفك ، وتقديره لما يجب حصده من الرؤوس بمئات الألوف .

وقد سمعت بار باروذات يوم يصيح فى إحدى خطبه : « اذا لم تظهر جاندارك جديدة ، واذا لم ترسل السماء نجدة سماوية ، واذا لم تحدث معجزة خارقة ، فقد قضى على فرنسا ! » فنفذ نداؤه الى سويداء قلبها ، وخيل اليها أنها هى المقصودة بالدعوة والنداء .

« كان قلبها الجريح يشعر أن كل هذه الضربات التى تنزل بالوطن ، تمثل أملا ويأسا وشجاعة فى قلب واحد . وكانت ترى هلاك فرنسا . وترى الفرائس ، ثم ترى الطاغية . فاقسمت لنفسها أن تنتقم لهؤلاء ، وأن تعاقب أولئك ، وأن تنقذ كل شئ . ولبثت أياما تستجمع عزمها الغامض فى نفسها دون أن تدرى ماذا يطلب اليها الوطن . ودرست الأشياء والأشخاص والظروف ، حتى لاتخطئ شجاعتها وحتى لايذهب دمها عبثا[1] » .

---

(١) لامارتين .

٣

اعتزمت شرلوت أمرها ، وذهبت الى ارجنتان فودعت أبيها وأختها قائلة أنها راحلة الى انجلترا فرارا من مصاعب العيش ، واضطراب الأحوال؛ وفى يوم ٩ يوليه استقلت عربة البريد من كاين مزودة بخطاب توصية من بار بارو الى صديقه النائب لوز ديبيريه ، فوصلت الى باريس فى ١١ يوليه ، ونزلت فى فندق "بروفيدانس" بشارع "فييه أوجستان". وهنا لك تحرت عن منزل النائب ديبيريه ، وقصدت اليه ، وقدمت اليه خطاب بار بارو ، فضرب لها موعدا فى صباح اليوم التالى ليصحبها الى وزير الداخلية .

ثم عادت الى الفندق ، وخلت الى نفسها فى غرفتها ، واشتغلت بتحرير بيان ضبط معها عقب الجريمة عنوانه "نداء الى الفرنسيين أنصار القانون والسلام" ، وهذا بعض ما جاء فيه .

"الى متى أيها الفرنسيون التعساء تؤثرون الاضطراب والتفرق؟ ألا لقد طال الأمد الذى غلب فيه الأوغاد ودعاة التفرق مصالحهم وأطماعهم على المصلحة العامة ، فلم تبطشون أنتم — ضحية أطماعهم — بعضكم ببعض فتقيموا بذلك صرح استبدادهم على أنقاض فرنسا ؟

"إن التفرق يتفجر من كل ناحية ، والمونتانيار يسودون بالجريمة والارهاب ، ويدبر بعض السفاكين الظمئين الى دمنا هذه الدسائس الشائنة ... انا نعمل لهلاك أنفسنا بغيرة ونشاط لم نعمل بهما قط لاغتنام الحرية ! أيها الفرنسيون ، قليل من الزمن فقط ثم لا يبقى منكم غير ذكرى حياتكم .

"أيها الفرنسيون ! انكم تعرفون أعداءكم ، فانهضوا وهيا ! هيا اسحقوا المونتانيار فتصبحوا من بعدهم اخوانا وأصدقاء .

" آه يافرنسا . ان سعادتك موقوفة على تنفيذ القانون . وانى لا أنتهك حرمته بقتل مارا ، فقد حكم عليه المجتمع ، وهو خارج على القانون . وأى محكمة تحاكمنى؟

وطنى ! ان مصائبك تمزق قلبى . وليس فى وسعى أن أهبك سوى حياتى ، بل انى أشكر الله الذى وهبنى حرية التصرف فيها ، فلن ينكب بموتى أحد . أريد أن يكون من زفرتى الأخيرة خير لأبناء الوطن وأن تكون رأسى المحمولة فوق الرمح فى طرقات باريس علم الاتحاد لكل أنصار القانون ، وان يرى المونتانيار المضطربون هلاكهم مكتوبا بدمى ، وان أكون آخر فرائسهم ، وأن يعلن العالم الذى انتقمت له أننى خليقة بشكر الانسانية ، ولن يضيرنى أن ينظر الى عملى بعين أخرى ... » .

وهذا النداء الذى ضبط مع شرلوت عقب القبض عليها صريح فى أنها كانت تقصد بانتقامها مارا دون سواه من زعماء المونتانيار ؛ وأنها قدمت باريس بعد أن استقر عزمها على ذلك . وهذا ما يؤيده أيضا قصدها لرؤية مارا مباشرة كما سنرى[1] .

وفى صباح اليوم التالى — ١٣ يوليه — غادرت شرلوت غرفتها مبكرة ، وطافت حدائق الپاليه رويال لتهدئ من ثورة نفسها المضطرمة . ثم ذهبت فى نحو الساعة الثامنة الى متجر للسلاح فاشترت منه سكينا كبيرة اخفتها تحت ثوبها ، ثم ركبت عربة طلبت أن تسير بها الى المنزل رقم ٣٠ بشارع « الكردلييه » . وهو المنزل الذى كان يقيم فيه الزعيم الكبير چان پول مارا .

وكانت شرلوت تفكر بادئ بدء أن ترتكب جريمتها فى ساحة المؤتمر الوطنى ذاته ، وان تزهق مارا وسط اصدقائه ، ولكنها علمت ان مارا لا يستطيع ذهابا الى المؤتمر بعد ، وان مرضه يرغمه على البقاء فى منزل . فقصدت اليه هنالك ، وأرشدتها حاجبة

---

(١) كان الشاعر والمؤرخ لامارتين أول من ظفر بالاطلاع على هذا المستند واذاعه فى كتابه « تاريخ الجيرونديين » . وقد أشير اليه فى وثائق القضية ، فى خطاب بعث به المدعى العمومى فوكييه تنفيل الى لجنة السلام العام ، مما يؤيد صحته . وقد ذهب بعض المؤرخين الذين كتبوا تاريخ الثورة قبل لامارتين ، ومنهم تيير الى أن شرلوت قدمت الى باريس لتقتل أى زعيم من زعماء المونتانيار ، إما دانتون أو روبسبيير أو مارا ، ولكنها اختارت مارا ، أخيرا لأنه كان أشدهم فى التطرف والدعوة الى السفك . ويفسر ذلك عدم اطلاع أصحاب هذا الرأى على هذه الوثيقة التى لم تذع الا فى منتصف القرن التاسع عشر .

الباب الى الطبقة التى يشغلها الزعيم، ولكنهـا اخطرتها أن الزعيم لا يستقبل أحدا، فانصرفت وعادت ثانية قبيل الظهر، فقابلتها عندئذ سيمون اڤرار خليلة مارا، واجابتها ان الزعيم يمتنع عن أية مقابلة، فالحت شرلوت وقالت انها تريد أن تنبىء الزعيم بأمور هامة مستعجلة، فلم يفد الالحاف، وافهمت أن الحظر مطلق عام .

فعادت الى الفندق، وكتبت الى مارا تلك الرقعة، وأرسلتها اليه على يد خادمة الفندق : « لقد جئت من كاين، واعتقد أن حبك للوطن يجعلك تتوق الى معرفة الحوادث الأليمـة التى تقع هنـالك، وسأقدم اليك فى الساعة الواحدة، فتفضـل بمقابلتى، وامنحنى برهة للحـديث، فسوف اجعلك فى مركز تستطيع أن تؤدى فيه خدمة عظيمة لفرنسا » .

ولبثت حتى المساء دون أن تتلقى الرد، فغادرت الفندق فى نحو الساعة السابعة وقصدت للمرة الثالثة الى شارع الكردلييه .

وكان مارا قد اضطره المرض منذ أسابيع أن يلزم داره . وكان يعانى من التهاب جلدى شنيع، وينفق معظم وقته فى حمامه . ولكن نشاطه الملتهب لم يخمد، فكان يجلس غائصا فى المـاء، وحوله الورق والقـلم، يكتب بلا انقطاع، ويحرر «صديق الشعب»، ويبعث الى المؤتمر بالرسائل والاقتراحات . واليك كيف يصفه لامارتين بأسلوبه الشعرى :

« لم يكن ليهدأ أو يترك غيره ليهدأ . وكانت تملأه هواجس الموت، فكأنمـا كان يخشى فقط أن تعاجله الساعة الكبرى قبل أن يتمكن من ازهاق من يريد من المذنبين . ولمـا كان أشدّ لهفة على القتل منه على الحياة، فقد كان يبادر بأن يبعث أمامه بأكبر عدد ممكن من الضحايا، كأنمـا يقدّمهم رهائن لسلاح الثورة الكاملة التى يريد أن يتركها بعده دون خصوم . ولكن الروع الذى كان ينبعث من منزل مارا كان يدخل اليه فى شكل آخر، هو الخوف الدائم من القتل . وكانت صاحبته وأعوانه يتصورون دائما أنهم يرون فوق رأسه من الخناجر قدر ماشهر على رؤس ثلاثمائة ألف .

وكان دخول هـذا المنزل محظوراً كدخول قصر الطغيان . وكان الحب ، والريب ، والتعصب تسهر على حياته معاً[1] » .

* * *

عادت شرلوت الى منزل شارع « الكردلييه » للمرة الثالثة ، وقصدت توا الى مسكن مارا ، وقرعت بابه ، ففتحت الحاجبـة ، وجاءت فى أثرها سيمون افرار ، ورفضت أن تسمح لها بالدخول ، فأصرت شرلوت وثارت بينهما مناقشة حادة . وكان الزعيم يجلس عندئذ فى حمامه ، فسمع المشادة ، واستفهم عن سببهـا وأمر أن يسمح للفتاة بالدخول .

فدخلت شرلوت الى غرفة الحمام ، وكانت مستطيلة ضيقة . وكان « صديق الشعب » يجلس فى المـاء حتى صدره ، ويغطى نفســه بمئزر ، وكان يكتب فوق ورق ثبت بلوحة فوق حافة المـاء ، فجلست شرلوت على مقعد بجانبه ، فاستفهم منها فى الحال عما يحدث فى كاين وأشارت اليه فى رقعتها ، فأخذت تحدثه عن النواب الجيرونديين الفارين ، وهو يقيد بعض الملاحظات . فلما انتهت من الحديث وانتهى من الكتابة قال : حسنا فسوف يذهبون جميعا الى «الجيوتين» .

فعندئذ ، أستلت شرلوت سكينها من تحت ثوبها بسرعة ، وانقضت على مارا ، وأغمدتها فى قلبه العارى بعنف ، فغاصت فيه حتى النصل .

فصرخ مارا مستغيثا : « الى ياصديقتى العزيزة : الى ! » غير أن الطعنة كانت قاتلة فمالت رأسه الى الوراء ، وانهمر الدم من جرحه .

وهرعت سيمون على الاستغاثة ، وهرع فى أثرها عامل الصحيفة ، فقبض على شرلوت وأخذ يضربها بعنف ، بينما حاولت سيمون أن تسعف خليلها . واستغاثت الحاجبـة ، فبادر الناس من كل صوب ، واستقدم طبيب على عجل ليعنى بالقتيل فالفـاه جثة هامدة ؛ وقـدم مندوب الحرس الأهلى ، ومأمور الشرطة فاستجوبا

---

(١) تاريخ الجيرونديين .

شرلوت فى الحال ، ثم قدم فى أثرهما ، النواب مور وشابو ودرويه ولجاندر ، أعضاء اللجان الحكومية ، واشتركوا فى استجواب المتهمة ؛ وكانت شرلوت هادئة ، ساكنة الجنان ، تجيب بجرأة ووضوح ، فلما تم التحقيق التمهيدى اعتقلت فى سجن «الابى» الواقع على مقربة من مسرح الحادث . وكان الشارع قد غص بجموع ساخطة مضطرمة تودّ تمزيق المتهمة ، فالفى الجند فى نقلها وحمايتها صعوبة شديدة . وتبعها النواب الى السجن ، واستجوبوها للمرة الثانية ، وفى منتصف الليل أعيدت الى منزل الجريمة لتواجه بالجثة ، وهنالك كررت اعترافها بانها هى القاتلة دون سواها .

وطار نبأ الجريمة فى كل مكان ، وأفاضت فى تفاصيلها الصحف ، واشتد الانفعال فى باريس ، واعتقد الكثيرون أن الجريمة ليست فردية وانها فاتحة لحركة رجعية كبرى دبرت ضد الثورة ، وأن زعماء المونتانيار وعلى رأسهم دانتون وروبسبيير سيقتلون جميعا ، وأن هنالك مؤامرة ملكية واسعة النطاق دبرها الجيروند يون ، ودفعوا بالفتاة القاتلة لتبدأ التنفيذ . واشتد الضجيج فى أروقة المؤتمر الوطنى فى يومى ١٤ و١٥ يوليه ، وقرأ شابور ودرويه تقريرهما عن الحادث ، فقرر المؤتمر فى الحال إحالة شرلوت كرداى على المحكمة الثورية ، والقبض على النائب دبيريه وفوشيه الاسقف السابق باعتبارهما شريكين فى الجريمة . وكذا قرر المؤتمر اعتماد مبلغ كبير لتحنيط جثة الزعيم الراحل ، وقرر الكومون أن تعرض الجثة فى كنيسة «الكردلييه» على عرش كبير تحوطه الورود والرياحين ؛ وشيعت الجثة فى احتفال عظيم سار على رأسه نوّاب المونتانيار ؛ وانتزع القلب ووضع فى وعاء مرصع بالجواهر وعلق فى بهو نادى الكردلييه ، وألقيت هنالك الخطب الرنانة فى رثاء مارا ، والتنويه بعظمته ؛ وشبهه بعضهم بالآلهة ، ونادى الجميع بالانتقام . ثم دفنت الجثة فى حديقة الكردلييه حتى تنقل بعد الى « البانتيون » ، ونقش على هرم صغير أقيم فوق القبر ما يأتى : « هنا يثوى مارا صديق الشعب ، الذى قتله أعداء الشعب فى ١٣ يوليه سنة ١٧٩٣ »

وفى أثناء ذلك نقل شارلوت الى سجن «الكونسيرچيرى» ؛ وأتمت هنالك رسالة طويلة بدأت بكتابتها الى باربارو ، وفيها تصف رحلتها الى باريس ، وظروف

الحادث وتفاصيله ؛ وكتبت رسالة وداع الى والدها تعتـذر اليه عن الحزن الذى تسببه له بعملها ، «وعن إقدامها على التصرف دون اذنه فى حياتها » . وقدم رئيس المحكمة الثورية مونتانيه الى السـجن فى يوم ١٦ يوليه ليستجوب المتهمة . ويقول لامارتين إنه تأثر لجمالها وشبابها وأراد أن ينقذها بأن يسبغ على أجوبتها صبغة تحمل على الاعتقاد فى جنونها ، وان يوعز إليها بالأجوبة تلميحا ، ولكن شرلوت لم تمكنه من تحقيق رغبته ؛ وكانت فى أجوبتها صريحه قاطعة ؛ وكانت تفاخر بعملها (١) .

وفى صباح اليوم التالى — ١٧ يوليه — بدأت المحكمة الثورية بنظر القضية ، فغصت ساحة وزارة الحقـانية بجموع كبيرة هرعت لتشهـد المحاكمة ، وأحضرت شرلوت الى قاعة الجاسة فى حرس قوى ، وبدئ باستجوابها فى الحال ، وانتدب لها الرئيس محاميا ، هو شوڤو لاجارد الذى فاز من قبل بشرف الدفاع عن الملكة ، وكان من شهود الجلسـة ، فقبل المهمـة بترحاب . ثم بدئ بسماع الشهود ، فتقـدمت سيمون اڤرار وأخذت تقص خلال الزفرات والدموع ما وقع يوم ١٣ يوليه ، فتأثرت شرلوت لحزنها ، وقاطعتها قائلة «أجل ، أجل ، فأنا الذى قتلته» . ونشبت على أثر ذلك بين رئيس المحكمة وبين المتهمة مناقشة حادة ، فأخذ يسألها بحدة ، وتجاوبه بسكينة وصراحة ، واليك طرفا من هذا الاستجواب :

س — ما الذى حملك ارتكاب هذه الجريمة ؟ ج — جرائمه .

س — وماذا تعنين بجرائمة ؟ ج — أعنى المصائب التى كان سببا فى وقوعها منذ نشوب الثورة ، والتى كان مستمرا فى تدبيرها لفرنسا .

س — ومن الذى أوحى اليك بكل هذا البغض لمـارا ؟ ج — لم أكن فى حاجة لأن يوحى الى الغير ببغضـه ، فقد كان لى من بغضى الخاص ما يكفى .

س — وماذا كنت تؤملين من وراء قتله ؟ ج — إعادة السلام الى وطنى .

س — وهل تعتقدين أنك قتلت كل مارا ؟ ج — كلا ، ولكن لعل موت هذا يخيف الآخرين .

(١) تاريخ الجيرونديين ؛ (الكتاب الرابع والأربعون) .

س — ومتى فكرت فى هذا المشروع ؟ ج — منذ ٣١ مايو، أعنى مذ قبض هنا على نواب الشعب[1] .

ثم صاحت شرلوت : « قتلت رجلا لانقذ مائة الف، وقتلت وغدا لانقذ الأبرياء، وقتلت وحشا ضاريا لينعم وطنى بالسلام . لقد كنت جمهورية قبل الثورة، وما فتر ايمانى قط » .

ولما وجهت بلوز ديبيريه وفوشيه، احتجت على اتهامهما بشدة، وأكدت براءتهما من الاشتراك معها فى أى ظرف من ظروف الجريمة .

ثم نهض المدعى العمومى، وقرأ تقريره، وطالب برأس المتهمة .

وتلاه شوڤو لاجارد، وكان فى مأزق حرج . وماذا كان بوسع الدفاع أن يقول فى مثل هذا الظرف ؟ لم يك ثمة مجال لنفى التهمة، أو تمجيد الجريمة وتبريرها، وقد وقعت على زعيم يمجده الشعب . كذلك أبى شوڤو لاجارد أن يشوه جمال الجريمة بنسبة الجنون الى المتهمة، ولهذا اكتفى بأن يلقى على المحكمة هذه الكلمة :

« إن المتهمة تعترف بثبات بالجرم الفظيع الذى ارتكبته، وتعترف بثبات بأنها تعمدت ارتكابه مدة طويلة، بل هى تعترف بأفظع الظروف، والخلاصة أنها تعترف بكل شيء ولا تحاول أن تبرر عملها، وهذا أيها الوطنيون المحلفون كل دفاعها !

« إن هذه السكينة الراسخة، وذلك الانكار التام للذات ، وهما اللذان لا ينمان عن ذرة من الندم حتى أمام الموت ذاته : هذه السكينة وذلك الانكار، الساميان فى معنى من المعانى، ليسا فى الطبيعة، ولا يمكن أن يفسرهما إلا اضطرام التعصب السياسى الذى قلد اليد بالخنجر، ولكم أيها الوطنيون المحلفون أن تقدروا ما لذلك الاعتبار المعنوى من التأثير فى ميزان العدل : انى ألجأ الى حسن تقديركم »

وعلى أثر ذلك انسحبت المحكمة للمداولة ثم عادت وأصدرت قرارها بالادانة، وقضت بأعدام المتهمة ومصادرة أملاكها .

---

(١) تريد الجيرونديين .

وقرئ الحكم فى صمت رهيب ، وأصغت اليه شارلوت دون أن يبدو على وجهها ذرة من التأثر ، وهل خالجها الشك فى مصيرها لحظة ؟

ولما أعيدت شرلوت الى السجن ، وفد عليها المصور هاور ليتم صورتها التى بدأ برسمها فى قاعة الجلسة ، فشكرته ووقفت أمامه حتى أتم صورتها ، وجاء راهب لتعزيتها فردته بلطف وابت سماعه . ثم جاء الجلاد فقص شعرها البديع ، وألبسها القميص الأحمر وأوثق يديها . ثم أخذت الى عربة المحكوم عليهم ، فسارت بها الى ميدان الثورة



شرلوت كرداى فوق النطع

بين جموع حاشدة تقذفها صيحات الوعيد والموت ، بيد أنها وقفت هادئة فى العربة لا تلوى على شىء . وكان من شهود ذلك المنظر فتى تبعها من الجلسة الى السجن ثم الى ساحة الاعدام ، فلما صعدت الى النطع صاح باعجاب وحماسة " إنها لأعظم من بروتوس[1] ! " . وكان هـذا الفتى آدم لوكس نائب مايانس ، وقد كلفتـه هذه

(١) أحد قتلة قيصر .

الصيحة رأسه اذ قبض عليه بعد ذلك بأيام وحوكم بتهمة تمجيده لقاتلة وقضى عليه بالاعدام .

بل لقد زهق فى سبيل ذكراها الشاعر الكبير اندره شنييه لأنه ترنم ببطولتها فى احدى قصائده وعناها بقوله : «لقد كنت وحدك رجلا» .

ويروى أن الجلاد رفع رأس شرلوت بعد أن سقطت وصفع خدها بيده فتصاعد الاحمرار الى الوجه الميت كأنما كان احمرار الألم والخجل[1] .

* * *

يقول لامارتين : «وهكذا كانت خاتمة مارا . وهكذا كانت حياة شرلوت كرداى وموتها . ولا يجرأ التاريخ ازاء القتل أن يمجد ، ولا يجرأ ازاء البطولة أن ينتقص . وتقدير مثل هذا العمل يضع الروح فى ذلك الخيار المروع ، فأما ان تنكر الفضيلة ، وأما ان تمتدح القتل ... إن اخلاص شرلوت كرداى للجريمة أحد هذه الأعمال التى يتركها الاعجاب والروع فى ثنايا الريب الى الأبد اذا لم تحكم فيها مبادئ الأخلاق . أما نحن ، فاذا كان علينا أن نجد لهذه المحرّرة السامية لوطنها ، وهذه القاتلة الكريمة للطغيان ، اسما يضم فى نفس الوقت حماسة انفعالنا ، وروية حكمنا ، فانا نسيمها ملاك القتل»[2] .

ويقول كارلا ليل «وا أسفاه ، كيف يمكن السلام أو يعد ، اذا كانت افئدة العذارى الحسان ، لا تحلم فى سكينة الأديار ، بجنان الحب ، ومرح الحياة ، بل باغتنام الموت؟ لقد أثار موت مارا الأحقاد القديمة أضعاف ما كانت ، وبذا كان أسوأ من أى حياة»[3] .

---

(١) يورد لامارتين هذه الرواية . ويقول أيضا إن بعض العاقبة اجترأوا على فحص جثتها ، فظهر أنها عذراء ، وكانوا يودون أن يظفروا بدليل سقوطها ، فلم يظفروا إلا بدليل طهرها ونقائها .

(٢) تاريخ الجيرونديين .

(٣) تاريخ الثورة الفرنسية .

والواقع أنه اذا كان الشاعر أو القصصي يرى فى عمل شرلوت كرداى مثلا خالدا للتضحية والبطولة ، فان المؤرخ الذى يستعرض الحوادث فى روية ، لا يرى فيه أكثر من نزعة الى السمو استولت على مشاعر نفس مضطرمة تجيش بكل ما كانت تحمله الثورة من بواعث الاضطراب والانفعال ، فاندفعت فى سبيلها ، بفكرة غامضة من البطولة والتضحية ، هى التى تحمل بعض الاذهان المحمومة الهائمة على الاعتقاد بأنها تستطيع بارتكاب جريمة فردية أن تؤثر فى مصاير الأمم أو سير التاريخ .

بمثل هذه الفكرة الغامضة أغمدت شرلوت كرداى خنجرها فى قلب مارا . ولم يكن سمو القصد أو جلال الفكرة ، ليبرر الوسيلة ، أو يحقق الغاية ، فقد زهق مارا ، ولكن بقيت دعوته أشدّ ما كانت ، ولم تفد الجريمة الفردية فى وقف تيار السفك العام ، بل اتخذت بالعكس ذريعة لمضاعفة الشدّة والبطش ، وذهب الدم وذهبت التضحية عبثا .

الفصل الرابع

محاكمة مدام رولان

نوفمبر سنة ١٧٩٣

ليس فى صحف الثورة الفرنسية، بين هاته السخصيات السامية، والطبائع الشعرية الخلابة، التى كانت تسطع بجأة فتضىء ما حولها حينا ثم تهوى سراعا الى عالم العدم، شخصية أنق فى مثلها، وأبلغ فى تأثيرها الخفى، من مدام رولان .

كانت مدام رولان وحدها تمثل ناحية من نواحى التفكير فى الثورة، وتنفث سحر خلالها، ونقاء مثلها، ورائق تفكيرها، الى حزب بأسره استطاع حينا أن يسيطر على أقدار الثورة . كانت هى روح أولئك الجيرونديين الذين أشربت مبادئهم وسياستهم بألوان من الاعتدال والنزاهة والرفق لم يلبث أن حملها تيار التطرف والهوى والوحشية — تلك الظواهر الكبرى التى شقت الثورة طريقها اليها فى سيل من الدماء الغزيرة، وبين أكداس من الاشلاء والرؤوس .

ولم تكن مدام رولان تجيش بشىء من هذه النزعات الوثابة التى دفعت بخنجر شرلوت كرداى الى صدر مارا، ولكنها كانت تضطرم بحماسة فلسفية، تغذيها الفكر المستنيرة، الشعرية أحيانا، وكانت طبائعها الهادئة، ومنطقها الحازم، وبيانها الخلاب أبلغ تأثيرا فى نفوس أولئك الزعماء الذين جذبتهم اليها بسحرها المتدفق، فاستطاعت أن تذلل من طبائعهم، وأن تصقل من تفكيرهم، وأن توجه أعمالهم وسياستهم الى حيثما يغلب الرفق والاناة والحلم .

وهذا هو السر فى أن مدام رولان رغم ما كان لها من عظيم الأثر فى سياسة الجيرونديين، لم تثر حولها ذلك الضجيج الذى كانت تثيره الزعامات الصاخبة الملتهبة .

* * *

ولدت مارى چان أو مانون فليبون من أسرة باريزية متوسطة فى مارس سنة ١٧٥٤ . وكان أبوها پيير جاتين فليبون حفارا من رجال الفن . والى ذلك تشير فى مذاكراتها اذ تقول : « أنفقت صباى فى مهد الفنون الجميلة ، يغذينى سحر الدرس ، لا أعرف سموا غير سمو الجدارة ، ولا عظمة سوى عظمة الفضيلة » . وكانت الصبية مانون تشغف بالقراءة فما عادت من الدير الى منزل الاسرة حتى استغرقت فى مطالعة بلوتارخوس ، وغيره من كبار المفكرين الأقدمين ، ثم قرأت فنيلون وڤولتير وچان چاك ، وأخذت نفسها الفتية تشرب من ذلك الحين بحب المبادئ الحرة والجمهورية التى كانت ظاهرة جديدة فى حياة هذا العصر . وكانت الى جانب القراءة والدرس المستفيض تشتغل بالكتابة . فأنشأت فى شبابها الأول طائفة من الفصول القوية تشهد لها بقوة الادراك والملاحظة ، ودقة الشعور والحس ، وذلاقة العرض والتعبير . كان التفكير والشعور يملآن فراغ حياتها ، وفى ذلك تقول : « لقد عمرت أطول عمر ، اذا كانت الحياة تحصى بالعاطفة التى تعين كل لحظات أجلها » .

وكانت نفسها التى تضطرم بمبادئ ڤولتير وچان چاك ، تثور سخطا على كل ما يغرق البلاط والنبلاء فيه من ضروب الترف واللهو الباطل ، وتذوب اشفاقا لما ترى حولها من بؤس الشعب والكافة ، وقد ذكت فى نفسها هذه العاطفة ، مذ شهدت وهى فتاة فى الخامسة عشرة تلك الاحتفالات الباذخة التى أقيمت احتفاء بمقدم مارى انتوانيت ولية عهد فرنسا وملكتها القادمة . ولم يخطر ببالها عندئذ أن نجم هذه الأميرة الأجنبية الذى كان يتألق يومئذ بكل ما وسع الضياء والبهاء ، سيزور بعد عشرين عاما ، ويبزغ نجمها هى ، مانون فليبون .

وكانت مانون فى عشرينها حينما ظهر المسيو رولان ده لا پلاتريير لأول مرة فى شهور سنة ١٧٧٥ ، وهو كما تصفه بعد ذلك «عالم ، غدا بعد ذلك وزيرا وبقى رجل بر» . وكان رولان يومئذ يجاوز الأربعين ، عرفتها به احدى صديقاتها ، فأخذ يتردد على أسرتها ، ولم يلبث أن استمالها بذكائه وخلاله . وبعد أدوار

ومساع عدة عقد قرانهما فى فبراير سنة ١٧٨٠ ، وكان رولان يومئذ يناهز السادسة والأربعين ، ولم تجاوز مانون عامها السادس والعشرين . ولكن مانون كانت تقابل حب رولان بعميق احترامها لذكائه وخلاله . ثم رزقا لعامين من زواجهما طفلة أسمتها «يودورا» ، فكانت لها مثلا ساميا من الرعاية والحنان ، وهكذا وثقت عرى هذا الزواج الشعرى بالحب والاجلال من ناحية ، والأمومة من ناحية أخرى .



مدام رولان

وكان رولان مفتشا للاعمال الصناعية فكان كثير الأسفار فى المبدأ ولكنه استقر فى ليون سنة ١٧٨٤ ، وعاش الزوجان هنالك بضعة أعوام حتى كانت سنة ١٧٩١ ، وفيها ندبت بلدية ليون رولان ليمثلها أمام الجمعية التأسيسية . وهنالك تعرف بجماعة من زعماء الثورة مثل بريسو وپيسيون وروبسپير وبيزو ، وسرعان ما فعل سحر مدام رولان فعله فى أولئك الزعماء ، فكانوا يجتمعون فى الأسبوع مرارا فى منزل رولان ليتحدثوا فى شئون السياسة التى كانت يومئذ كل شىء فى حياة المجتمع الفرنسى

وكانت مدام رولان عنــدئذ فى السادسة والثلاثين . ولم تكن وافرة الحسن ، ولكنها كانت ممشوقة القــد، وافرة الظرف تنفث حولها سحرا لا يقاوم، وتسـطع عيناها السوداوان النجلاوان بضياء الذكاء والعزم، وتبثان من التاثير ما لا يبثه جمال أتم . وكان صوتهــا الرخيم بالأخص يخلب الألباب ، ويذيب المشاعر . ولم تكن تجهل مالها من أسباب السحر، وخصوصا فعل صوتها الناعم فكانت تقول أحيانا : «ان كاميل ديمولان يدهش بحق، اذ أستطيع فى هذه السن، وفى قلة من الجمال، أن يكون لى من الناس عبادا على قوله، بيــد انى لم أحادثه قط ! »، والواقع انها كانت فى حديثها، فتانة ، متغلبة، وكانت تعرض مبادئها بمنطق تفيض عليه نبراتها الرقيقة تأثيرا فوق تأثير، وقوة فــوق قوة . وكانت فى أحاديثهــا ، تؤيد كل ما هو جمهورى حر، وتنكر بشــدّة كل ما هو ملوكى ، وكل ما يتعلق بالبلاط والنبــلاء ، وكانت تدفع هــذه العاطفة أحيانا الى حد المبالغة فتستمطر عقاب الشعب ونقمته على لويس السادس عشر وماري انتوانيت . كانت على قول تيير : «حسناء فتية، تستمرئ الأفكار الفلسفية والجمهورية فى أعماق عزلتها، وتخيل فكرا تسمو على جنسها، وتعتنق مبادئ تسيطر عليها عقيدة صارمة . وكانت تعيش مع زوجها فى حب وثيق، وتعيره قلمها ، وتبثه قسطا من اضطرامها، وتنفث حماستها لا الى زوجهــا فقط ، ولكن الى كل الجيرونديين الذين شغفتهم أسباب الحرية والفلسفة، فكانوا يعبدون فيها الجمال والذكاء ونفس مبادئهم»[(١)] .

* * *

وكان الجيرونديون، حزب الاعتدال فى كل أدوار الثورة . ولم يكن اعتــدالهم يعنى مسالمة للملوكية أو تهــاونا فى حقوق الشعب، ولكن يعنى تغليب الروية على الاندفاع والعف عن السفك ما وجدت سبيل لذلك . وهى ســياسة لم تكن من رأى اليعقوبيين الذين كانوا يؤثرون الهــدم الشامل وتحقيق كل المبــادىء الثورية المتطرفة توا ولو فى فيض من الدماء. على أن سياسة الجيرونديين غلبت حينا ودعوا الى

(١) « تاريخ الثورة الفرنسية » .

تولى الحكم فى مارس سنة ١٧٩٢ فاتجهت أنظارهم فى الحال الى رولان ده لا بلاتوريير، واختاروه وزيرا للداخلية . وكان الباعث على ذلك الاختيار ما آنسوا فى رولان من نزاهة واخلاص لمبادئهم، فكان عند ظنهم محققا لثقتهم . وكان معولهم فى الحكومة لهدم الملوكية، يغذى دعوتهم فى نفس الوقت بما يتصرف فيه من الأموال السريه، وكانت زوجته تسهر على سياسته، وتوحى اليه بمعظم الآراء والتصرفات . وكانت الحرب قد نشبت عندئذ بين الدول وفرنسا، فتراجعت جيوش الثورة أمام الغزاة فى المبدأ . فانتهز الوزراء الجيرونديون تلك الفرصة للضغط على الملك، ومحاولة حمله على توقيع قرارين، أولهما يتعلق بانشاء معسكر من عشرين ألف جندى فى ظاهر باريس، والثانى باتخاذ اجراءات معينة ضـد رجال الدين، فأبى لويس السادس عشر لأنه خشى أن إنشاء معسكر فى ظاهر باريس يغـدو خطرا جديدا على العرش فوق ما يهدده من أخطار، وأما مطاردة رجال الدين فأمر لا يتفق مع مبادئه الدينية، هذا فضلا عن أن رجال الدين كانوا سندا للعرش . وهنا اشتد النزاع بين الوزراء والملك، وأراد رولان أن يقدم استقالته فمنعته زوجه من ذلك، واقترحت عليه أن يتقدم الى الملك بخطاب قوى ينذره فيه بالقبول أو يتحمل كل تبعة أمام الدستور . ومدام رولان هى كاتبه هـذا الخطاب الشهير الذى وقعه رولان وتلاه أمام لويس السادس عشر ومجلس الوزراء . وإلى القارىء بعض فقرات هـذا الخطاب الذى أودعته مانون كثيرا من فِكَرها ومُثلها، وقوّة نفسها، وفصاحتها :

«لقد وهب الفرنسيون لانفسهم دستورا، فسخط عليه بعض الناقمين والخوارج . ولكن سواد الأمة يريد أن يؤيده، وقد أقسمت الأمه أن تحميه بدمها، ورحبت مغتبطة بالحرب التى تقدّم اليها وسـيلة كبرى لتأييده والذود عنه . ومع ذلك فان الأقليه تغذيها الآمال، قد جمعت كل جهودها لتنتزع الغنم .

«انك ياذا الجلال ، تمتع بامتيازات كثيرة، تعتقد أنهـا من ملحقات الملك، وقد نشأت على فكرة الاحتفاظ بها، ولم تستطع أن تشهد انتزاعها راضيا . ولكن الرغبـة فى النزول عنها طبيعية كالأسف الذى يحدثه فقدها . هـذه العواطف التى

ترجع الى طبيعة القلب البشرى، قد حسب لها أعداء الثورة الحساب بلا ريب، فاعتمدوا على التأييد الخفى حتى تسمح الظروف بأن تبذل لهم الحماية العلنية . بيد أن هذه الأمور لا تخفى على الأمة، وقد جعلتها على حذر .

«وإذن فقد كنت، يا ذا الجلال، دائما بين خيار النزول عن رسومك الأولى، وعواطفك الخاصة، أو القيام بتضحيات تمليها الفلسفة، وتقضى بها الضرورة . ومن ثم بين الخيار فى تشجيع الخوارج وإرابة الأمة، أو ارضائها باتحادك معها . ولكل أمر ظرفه، وقد حلت ساعة الريب أخيرا .

« ان سلام الدولة وسعادة جلالتك يرتبطان أشد الارتباط، وليس فى مقدور قوة فى الأرض أن تفرق بينهما . ولا ريب أن آلاما مبرحة وخطوبا محققة تحيط عرشك اذا لم تسنده أنت الى قواعد الدستور . وإذن فان مجرى الأفكار، وسير الحوادث، وبواعث السياسة، ومصلحة جلالتك، كلها تقتضى أن تتحد مع الهيئة التشريعية وأن تحقق رغبة الأمة، وتجعل ضرورة ما تقدمة المبادئ فى صيغة الواجب . بيد أن الاخساس الطبيعى لذلك الشعب البار على أهبة لأن يتلمس فى ذلك باعثا لشكر الصنيعة . لقد خدعوك يا مولاى شر خديعة، إذ أوحوا اليك بالابتعاد عن ذلك الشعب الذى يتأثر لأيسر أمر، والريب فى إخلاصه . وقد حملوك ببث الريب فى ذهنك على تصرف يثير الجزع فى نفسه، فلتره أنك تعتزم احترام الدستور الذى وقف عليه إخلاصه وسرعان ما تغدو موضع تكريمه وعبادته .

« إنى أعلم أن لغة الحقيقة المتقشفة قلما يتقبلها العرش، وأعلم أيضا أن الثورات تغدو ضرورة لأن العرش قلما يصغى الى هذه اللغة ، وأرى بالأخص من واجبى أن أتقدم الى جلالتك بذلك، لا كفرد يخضع للقوانين فقط، ولكن كوزير يتشرف بثقتك أو يعهد اليه بما يدلى بذلك، ولست أعرف أمرا يحول دون قيامى بواجب يمليه على الضمير .

« إن الحيـاة ليست شيئا للانسـان الذى يقدر واجبه فوق كل شىء، ولكن الخير الوحيد الذى يأنسه، بعد أن يسعد بقضاء هذا الواجب، هو أن يرى أنه أداه بأخلاص، بل أن ذلك لعهد على الموظف العام » .

بيد أن هذا الخطاب الشهير، الذى يصف المعركة الخالدة — معركة الدستور والحكم المطلق — ، لم يحدث أثره المنشود فى سياسة لويس السادس عشر، فأمر باستقالة رولان و زميلين له . ولكن مانون دفعت زوجها إلى ميدان النضال أيضا، دفعته إلى أن يتقدم بقضيته الى الجمعية التشريعية، وأن يبلغها صورة خطابه فصدع رولان بالأمر، ولم يمض يوم حتى غدا اسمه علما بين الشعب . فثار الشعب عندئذ (٢٠ يوليـه سـنة ١٧٩١) وهجم الثوار على قصر التويلرى ، واقتحموه . وطالب الشعب باعادة رولان و زملائه الى الوزارة . ولكن الملك لم يذعن، وتوالت الحوادث بسرعة، حتى كانت ليـلة ١٠ أغسطس، فسحقت الثورة القصر، وأسرت الأسرة الملكية، وعاد رولان و زملاؤه الى الوزارة الجيروندية الجديدة، ودخلهـا دانتون أيضا، واعتقدت مدام رولان أن سقوط الملكية إيذان بختام الثورة . ولكن الحوادث أثبتت بالعكس أن الثورة كانت فى بدئها . وكان اليعقوبيون يرقبون الحوادث ليقبضوا هم على ناصية الحكم، و يوجهوا الثـورة الى حيث تملى مبادؤهم وأهواؤهم العنيفة، فانتهزوا فرصة سـقوط ڤردون فى يد العدو ودبروا مذابح سبتمبر الشهيرة . و رأى الجـيرونديون زمام الأمور يفلت منهم شـيئا فشيئا، و رأت مدام رولان صرح مثلها ينهار تباعا، والدماء تتدفق حولها من كل صوب، فراعها هذا الانقلاب، وثارت نفسها سخطا لهذا السفك المستمر، وكتبت يومئذ الى صديق لها تقـول : « أنت تعرف حماستى للثورة . بيد أنى لاأخجل اليوم من هذه الحماسـة، فقـد تغلغل الاوغاد فى الثورة حتى غدت شـنيعة . ومن الذلة أن يبـقى المرء فى مكانه » .

ثم توالت الحوادث بسرعة، فألغيت الجمعيـة التشريعية، وقام المؤتمر الوطنى، وأعلنت الجمهورية .

وجاء دور الحساب ، فحوكم لويس السادس عشر وأعدم ، ثم حوكمت ماري انتوانيت وأعدمت .

وكان النضال بين ذلك ما فتئ يضطرم بين اليعقوبيين والجيرونديين . وكان الجيرونديون كما قلنا رسل الاعتدال فى كل خطب .

غير أنّ هذا الاعتدال ذاته كان نذير مصرعهم ، وكانت مقاومتهم للاجراءات المتطرفة فى نظر الشعب ، الملتهب الظمئ الى الدماء ، عنوان الفتور والتخاذل فى تأييد الثورة ، فلم تأت أوائل سنة ١٧٩٣ حتى أصبحوا يعدون من الخونة الرجعيين .

وغدا دعاة السفك من اليعقوبيين مثل مارا وايبر ودانتون وديمولان ، يوجهون الى الجيرونديين فى كل يوم تهما جديدة .

وكان حقدهم يجتمع بالأخص حول رولان وزوجه . وكانوا يبغضون فى مانون تلك المرأة القوية التى تسير زوجها ، وتسدد خطاه ، وينقمون منها شجاعتها ، وكبرياءها وذكاءها ، وينقمون بالأخص منها ذلك السحر الفياض ، الذى يجذب اليها تلك النخبة المصقولة النابهة من الجيرونديين ، « فتغذيهم بنظراتها ، وتثيبهم باعتبارها ، وتحتفظ فى ناديها بالبساطة الجمهورية ، الى جانب أدب يشور له أولئك الرجال الخاملون الأفظاظ[1] » .

وكان الريب فوق ذلك يدور حول رولان فى أنه أخفى أو أتلف بعض الأوراق الهامة من محفوظات القصر ، اخفاء لبعض الأدلة التى كانت تنطق بخيانة لويس السادس عشر .

ثم كان موقف الجيرونديين أثناء محاكمة الملك فاشتدت عليهم الحملة ، وتماطرت تهم الخيانة والتآمر على سلامة الجمهورية .

وألفى اليعقوبيون فرصتهم أخيرا ، وأصدر المؤتمر فى ٣١ مايو قراره بالقبض على النواب الجيرونديين وعددهم اثنان وعشرون .

(١) تيير .

وذهب رجال الكومون فى مسـاء ذلك اليـوم ليقبضوا على رولان بأمر من الكومون لأن قرار المؤتمر لم يكن قد صدر بعـد ، فاحتج رولان وأبى التسـليم ، فتخلف بعض رجال الكومون لحراسته حتى يجئ أمر المؤتمـر ، وبادرت مدام رولان تهرول هنا وهنالك تسعى فى انقاذ زوجها ، فلم توفق . وكان المؤتمر قد رفع جلسته وأوصـد ابوابه . فعادت الى دارها ، فلم تجد رولان ، لأنه استطاع أثناء غيابها أن يحتال على حراسه وأن يلوذ بالفرار .



الوزير رولان

وفى منتصف الليل جاء وفد من الكومون وطلب رؤية رولان ، فلم يجدوه ، ففتشوا الدار وانصرفوا .

ولكن وفدا آخر قدم قبيل الفجر ، فارتدت مانون ثيابها على عجل ، بينما وضع الرجال الاختام على كل ما فى الدار .

بيد أنهـا كانت قبلة الانتقام أيضا ، فقيدت « لجنـة السلام العام » اسمها فى ثبت المشبوهين ، ووقع رئيسها روبسپيير هـذا القرار آسفا متألمـا ، لأنه عرف مدام رولان قبل الثورة يوم كان وضيعا خاملا ، فقدرته واستشفت عبقريته وطالعه ، وكانت صـداقتها من عوامل رفعته ومجـده . ولكنه سحق عواطفه وكتب وثيقة اعدامها بيده .

« كان اسمها حزبا بأسره . وكانت روح الجيرونديين . ولو تركت حية بعـد أصدقائها الأعلام الذين سبقوها الى القبر ، لغدت آلهة الانتقام . ولكن بعضهم كان

حيا فلا بد أن تسحق عزائمهم بتحطيم المعبــود ، وكان آخرون قد ماتوا فلا بد أن توصم ذكراهم : تلك هى البواعث التى حملت الكومون واليعقوبيين على محــاكمة مدام رولان »[1]

فلم يمض يوم آخر حتى قبض عليها — أول يونيه ســنة ١٧٩٣ — وزجت الى سجن « الأبى » .

فكتبت من سجنها الى المؤتمر وكتبت الى وزير الحقانيــة ووزير الداخلية تحتج على هذا الاجراء

ولكن صيحاتها ذهبت عبثا ، واستطال أسرها فاشتغلت بالقراءة والكتابة . وأطلقت العنان لتأملاتها ، « وكانت تمثل الثورة من أعماق سجنها ، فى اضطرامها ، وفى هواها وتصوراتها ، وفى استشهادها ويأسها ، وفى املها الخالد »[1] .

واستطاعت بعطف حراسها ان تحصل على ماشاءت من ورق وقلم ، وأن تدون مذكراتها ، وكانت تسلمها تباعا الى صديق لها هو المشرف على الحديقة المجاورة للسجن ، وفى تلك المذكرات المؤثرة تصور احلامها وتأملاتها منــذ الطفولة ، من فتاة تواقة الى الحب والمجد ، الى اسيرة اقصيت عن زوجها وابنتها ، وسحقت كل عواطفها ، وغاضت كل آمالها .

وكان جماعة من الجيروندين قد استطاعوا الفرار الى الجنوب ، ومنهم بيزو . وكان بالطبع من أفراد الأسرة التى تتردد على بهو مانون ، وكان أقربهم اليها فى المبادئ والمثل ، وأشدهم فهما لنفسها وعقليتها ، فسرى اليهما عطف خاص ، لم يلبث أن تحول الى هوى متبادل . ولكنه كان حبا أفلاطونيا لا شائبة فيه ، فكان بيزو عفيفا وفيا ، وكانت مانون قوية بخلقها وأمومتها ورفيع خلالها .

ولذا خيل اليها أن شمس السعادة أشرقت عليها فى سجنها ذات يوم اذ استطاعت صديقة أن تحمل اليهــا رسالة من بيزو ، وفى الحال ردّت عليها بخطاب مستفيض أودعته كل عواطفها وشجنها .

---

(١) لامارتين : تاريخ الجيرونديين

وكانت الحوادث المؤسية تترى خلال ذلك، فقد أعدم الجيروندبون، وزهقت هـذه النخبة الباهرة من العقول والعزائم والخلال فى لحظة، وسـقطت رؤوس بريسو، وڤرچنيو، وڤالازيه، وچانسونيه وصحبهم فى باريس وفى الأقاليم، ولم ينج منهم إلا قلائل شردوا فى الآفاق مثل بيزو و باربارو و بيسيون .

ثم زهق مارا، «صديق الشعب»، وروح السفك، بخنجر شرلوت كرداى .

وكانت مدام رولان أثنـاء ذلك ترقب الحوادث وتتردّد بين الرجاء واليأس، حتى كان ذات صباح أخطرت فيه أنها حرة، وأطلقت من سجن «الابى» . ولكنها ما كادت تغادر السجن حتى قبض عليها ثانية، وزجت عندئذ الى «سانت بلاچى» . وهنا غلبها اليأس، «ذلك أن هـذه المرأة السامية الرفيعة، كانت تضعف، ككل طبيعة انسانيـة، فى العزلة وصمت السجن، وكان روحها الباسل كأنما يسـوده الصمت، فتترك قلبها النسوى يغيض و يتحطم، و يسقط من أوج الحماسة الى درك الحقيقة . وكان سقوطها مؤلما قدر ما كان ارتفاعها . فكانت أحيانا تجلس طويلا الى نافذتها، تتأمل السماء، وترسل الدمع الغزير[1]» .

وكان حكم «الارهاب» قد بسط ظله الأسود على باريس، و بعث الى المدينة الكبرى بشعور عميق من التوجس والشؤم حتى غدت كمدينة الموتى، فكتبت مدام رولان وصيتها، وفيها توزع ما تبقى من حلاها ورياشها وكتبها بين ابنتها وخدمها . وكتبت تودع زوجها وابنتها وتودع الحياة كلها، وتقول: «الوداع، الوداع، ياشمس نافذتى التى كانت أشعتها الساطعة تحمل السكينة الى روحى؛ الوداع أيتهـا المروج المنعزلة التى طالما تأثرت لمنظرها ... الوداع أيتهـا المكاتب الهادئة التى كنت فيها أغـذى نفسى بالحقيقة، وأصـفد خيـالى بالدرس، وأعرف بالتأمل والصمت أن اسحق الحواس واحتقر الأثرة — وداعا يابنية، واذكرى أماك . انك لم تُدخرى بلا ريب لمثل مصائبى . وداعا أيتها الابنة العزيزة التى غذيتها بلبنى، والتى كنت أريد أن أنفذ اليها بكل عواطفى» .

(١) لا مارتين

وفى أول نوفمبر نقلت الى سجن «الكنسير چيرى» ، ومثلث أمام النائب العام للاستجواب لأول مرة . ثم استجو بت مرة أخرى بعد ذلك بيومين . ثم كتبت مذكرة بدفاعها .

وكان من بين شهود النفى مربية ابنتها، وطاهيتها وخادمها .

وفى ذات يوم زارتها صديقة حميمة لها تدعى هنر بيت كانيه ، واقترحت عليها أن تستبدل ثيابها بثيابها وتسهل لها بذلك سبيل الفرار، لأنها أرمل ولا ولد لها مثل مانون التى تترك وراءها زوجها وابنتها . فأبت مانون بشدة قائلة : إن أقصى أمنية لها هى أن تغادر هذه الحياة .

وكانت فكرة الانتحار قد جالت بذهنها حينا ، وكان معها شىء من السم ، ولكنها لفظت هذه الفكرة ورأت فيها تراجعا وجبنا .

وأما عن الدفاع ، فقد التمس شوڤو لاجارد محامى مارى انتوانيت وشرلوت كرداى ، من المؤتمر، إذن الدفاع عن مدام رولان، فأذن له ، وزارها فى السجن مرارا لينظم معها طريق الدفاع أمام المحكمة الثورية . ولكنه دهش ليلة المحاكمة ، إذ قدمت اليه مانون خاتما كان فى أصبعها إيذانا بالوداع ، قائلة ، إنها على يقين من أنها ستزهق فى الغد، و إن نصحه عزيز عليها ، ولكنه قد ينقلب شرا عليه دون أن يفيد فى انقاذها .

وفى صباح ٨ نوفمبر سنة ١٧٩٣ ، مثلت أمام المحكمة الثورية تحمل مذكرة دفاعها . ولكن المحكمة كانت ضيقة الصدر، ترهقها بالأسئلة ، ولا تصغى الى الأجوبة ، وتكثر من مقاطعتها والتعريض بها ، فلم يسمح لها أن تتلو دفاعها الذى تحمله . وكانت المحاكمة فى الواقع ضربا من السخرية لأن الحكم فى معظم الأحوال كان يعد من قبل .

وعلى ذلك قررت المحكمة الثورية ادانة مدام رولان « فى أنها ألفت واشتركت فى مؤامرة ضد وحدة الجمهورية، وضد الحرية وسلامة الشعب الفرنسى » . وهى تهمة غامضة ، ولكنها صيغة خالدة تمثل فى اتهام كل من أراد زعماء الأرهاب ازهاقه . وقضت عليها بالحكم الأوحد الذى تقضى به دائما ، وهو الاعدام .

ولما تلى الحكم عليها قالت لقضاتها فى تهكم «شكرا لكم اذ رأيتمونى خليقة بأن أشاطر مصير العظماء الذين قتلتموهم» .

ويصف شاهد عيان هذا المنظر فيقول: «كانت ترتدى البياض، وشعرها الفاحم يتهدل حتى وسطها، فسارت الى منصة الحكم، ثم عادت مسرعة، ورفعت أصبعها إشارة بأنها هالكة، ولاح لنا أن عينيها نديتان، لأن أسئلة فوكيية تنفيل (النائب العام) كانت غليظة، وكانت تؤذى الشرف النسوى، ولكنها كانت تردها اليه بالاحتقار، ولكن مع الدمع».

وحدد للتنفيذ نفس اليوم، فحملت مانون فى منتصف الساعة الخامسة فى إحدى عربات الأعدام مع جماعة من المحكوم عليهم. وكانت هادئة، جلدة، حتى كانت أثناء الطريق تعنى بتعزية جار لها محكوم عليه مثلها، وتحاول أن تواسيه وأن تهون عليه. ولما وصلت الى ساحة الاعدام انحنت أمام تمثال الحرية، وألقت كلمتها الخالدة «آه أيتها الحرية، كم من جرائم ترتكب باسمك!» ولقيت قضاءها بشجاعة مثلى.

* * *

يقول لامارتين: «وهكذا زهقت تلك المرأة التى تصورت الجمهورية وهى فى الخامسة عشرة، والتى بثت بغض الملوكية فى ذهن زوجها الشيخ، وأذكت بروحها عزائم حزب من الفتية ذوى الحماسة والبيان، يحبون النظريات القديمة، ويسحرهم مثل أعلى، كانت شفتاها ونظراتها معينه الذى لا ينضب. ولقد كان هـذا الحب الطاهر الذى كان يبثه جمالها وعبقريتها، هو الدائرة السحرية التى تجمع حولها بكثير من أولئك الأعلام الذين تفرقهم الأراء والمبادىء. كانوا اسرى سطوعها؛ فلما لفظت نفسها الأخير، زهقت روح الجيروند».

ويقول كارلايل باسلوبه الشعرى: «يا له من حلم نبيل أبيض، بوجهه الرفيع ذى الجلال، وعينيه الفاترتين الفياضتين بالعزة، وشعره الطويل الاسود يلوح حتى الوسط، وياله من قلب شجاع ما خفق مثله فى قلب امرأة قط! لقد كانت كتمثال يونانى أبيض، كاملة السكينة، تشرق بين هـذه الأنقاض السوداء!... وقد كانت كمشكاة صغيرة تنثر الرفق ونوعا من القدسية. وكانت أيضا تضم ما لا يسمى، وكانت

(١) تاريخ الثورة الفرنسية.

أيضا من بنات اللانهاية ! وكان فيها خفاء لم يحلم به التفلسف ! — وقد كتبت نصائح مستفيضة لابنتها، وقالت ان زوجها لن يعيش من بعدها » .

والواقع انه لم تمض ثمانية أيام على موتها ، حتى وجد الوزير الشيخ رولان ميتا على مقربة من روان، وفى جيبه رقعة يقول فيها : إنه ترك مخبأه حينما علم أن القضاء قد نزل بزوجه، وانه لا يريد أن يعيش فى أرض تغطيها الجريمة .

ويقول تيير : « كانت هذه المرأة تجمع الى ظرف الفرنسية، بطولة الرومانية، وكانت تحمل فى روحها كل ضروب الألم : كانت تحب زوجها وتجله كأب ،وكانت تشعر نحو أحد الجيرونديين بهوى مضطرم عرفت دائما كيف تخضعه، وقد تركت ابنة يتيمة عهدت بها الى بعض الأصدقاء . وكانت ترتجف اشفاقا على كل أولئك الاعزاء،وتعتقد ان قضية الحرية قد فقدت الى الأبد — تلك القضية التى طالما عبدتها وتحملت فى سبيلها أعظم التضحيات . وهكذا نكبت فى جميع عواطفها مرة واحدة ... »(١) .

هكذا كانت مأساة تلك المرأة الساحرة، الباسلة، التى استطاعت بعزمها وذكائها، وسحر خلالها، أن تؤثر فى الدور الذى أداه الجيرونديون فى الثورة الفرنسية أيما تأثير.

أهم مراجع هذا "الكتاب"

THIERS : Hist. de la Révolution Française.
LAMARTINE : Hist. des Girondins.
MICHELET : Hist. de la Révolution.
MIGNET : ·Hist. de la Révolution Française.
CARLYLE : History of the French Revolution.
DE NOLHAC : La Reine Marie-Antoinette.
ALBERT MALET : Révolution et Empire.
HENRY ROBERT : Grands Procès de l'Histoire.
LA GRANDE ENCYCLOPÉDIE.

---

(١) تاريخ الثورة الفرنسية .

الكتاب الرابع

في المحاكمات والقضايا الكبرى

---

٣ ــ العصر الأخير

الفصل الأول

مصـــير لويس السـابع عشر
ومأساة كارل ناوندورف
ســنة ١٧٩٩ — ١٨٤٥

من أغمض حوادث الثورة الفرنسـية، مصير لويس السابع عشر بن لويس السادس عشر ومارى انتـوانيت الذى سجن مع أبويه فى التامپل حتى أعدم ابوه، ثم فصل من أمه التى لحقت بأبيه الى القبر لاشهر قلائل من محاكمته واعدامه، واستمر فريدا فى سجنه حتى منتصف سنة ١٧٩٥

وهنا يضطرب التاريخ وتتعدد الرواية؛ فمن قائل إن الطفل المنكود — وقد كان يومئذ فى الحادية عشرة فقط — توفى فى سجنه فى التامپل فى ٨ يونيه سنة ١٧٩٥؛ ومن قائل إن الذى توفى فى هـذا التاريخ هو طفل آخر وضع مكان الأمير الحقيقى، وان لويس السابع عشر قد أنقـذه الملكيون قبل ذلك فى سجنه وحملوه الى مكان مجهــول .

والمحقق هو أن لويس السابع عشر قد فصل من أمه فى ٨ يونيــه سنة ١٧٩٣ تنفيذا لقرار كومون باريس، وسجن بمفرده فى جناح من التامپل، وعهد بحراسـته الى الوطنى سيمون كما قدمنا . وكان هـذا الحارس الوغد يقسو فى معاملة أسـيره، ويعرضه لأشنع ضروب الألم المـادى والمعنوى . وفى يناير ســنة ١٧٩٤ نقل ولى العهد الى غرفة عليا فى أحد أبراج السجن، لاينفذ اليها مخلوق غير حارسه، وكان يلق اليــه الطعام والشراب كما يلق الى الحيوان، وقد أغلقت نافذته فحرم من الهواء والشمس، وقطعت عنه كل الكتب واللعب والثياب، فلزم فراشه لا يكاد يغادره، وانحطت مداركه وقواه، وانحلت أعضاؤه، وخمد ذكاؤه . وساءت حال الطفل

فى أوائل سـنة ١٧٩٥ ، فاهتم الكومون بالأمر، وأوفد الى السجن لجنة لزيارته وفحصه ، فزارته فى فبراير ووجدته فى حال تمزق القلب ، وانتدبت الطبيب الأشهر ديسول لفحصه والعناية به، فوجد الطبيب انه يعانى من أورام فى جميع مفاصله، ولم يستطع أن يستخرج منه كلمة، وقرر ان الوقت فات لانقاذه . وهنا وقع حادث مريب فان الدكتور ديسول وصديقه شوبار الصيدلى توفيا عقب ذلك تباعا فى أوائل يونيه سنة ١٧٩٥؛ ويفسر البعض ذلك بأن ديسول طلب اليه أن يسمم الطفل فأبى أو انه سمه وأريد التخلص منه احتفاظا بالسر . ويقول البعض الآخر ان ديسول صرح لصديقه شوبار بأن الطفل الذى فحصه ليس هو ولى العهد وانما هو طفل آخر وضع مكانه، فكان ذلك سبب قتله وقتل صديقه .

عندئذ عهد الى طبيبين آخرين هما بلتان ودمانجان بمعالجة الطفل،ولكنه لم يلبث أن توفى بعـد أيام قلائل فى ٨ يونيه سنة ١٧٩٥ . وفى ٩ يونيه أعلن سفستر باسم لجنة السلام العام فى المؤتمر مرض « ولد كابيه » ووفاته، وان المحاضر اللازمة قد حررت وستودع فى دار المحفوظات . وقام بتشريح الجثة بلتان ودمانجان وطبيبان آخران، وقرروا فى محضر الوفاة « أنهم وجدوا على الفراش جثة طفل يلوح أنه فى العاشرة ، وأن المأمورين قرروا بأن هـذا هو ولد المرحوم لويس كابيه (لويس السادس عشر) » ولكن ذلك لا يعتبر حجة كافية لأن أحدا من أولئك الأطباء لم ير ولى العهد من قبل قط .

هـذا هو ملخص الرواية القائلة بوفاة لويس السابع عشر فى سجنـه . ولكن هنالك رواية أخرى لا تخلو من قوة ووجاهة، هى أن الملكيين استطاعوا أن ينقذوا ولى العهـد من سجنه، وأن يستبدلوه بطفل آخر فى سـنه وفى قده وبعض ملامحه، وان هذا الطفل كان أبكم حتى لا يستطيع أحد ممن يزورون ولى العهد من رجال الحكم وأعضاء المؤتمر أن يقف على الحقيقة ، وأنهم لجأوا الى تلك الوسـيلة حتى لا يكشف أمرهم قبل أن يحمل ولى العهـد الى مكان بعيد أمين . ويدلل أصحاب هذه الرواية عليها بأن لجنة من أعضاء المؤتمر زارت ولى العهد فى ديسمبر سنة ١٧٩٤

لتحقق حالته وتتخذ ما يجب لتحسينها ،وحاول أولئك الأعضاء عبثا أن يحملوا الطفل على الكلام بأرق العبارات والأسـئلة ، ولكنهم نسبوا صمته يومئذ الى حزنه و يأسه وما أصابه من الانحلال المعنوى ، وأن زعماء «ڤنديه» الملكيين لبثوا طو يلا بعـد سنة ١٧٩٥ يصدرون بياناتهم وأوامرهم باسم لو يس السابع عشر متجاهلين موته . ثم يقولون أيضا إن السلطات الجمهور ية ذاتهـا كانت تشك فى رواية الوفاة بدليـل انزعاجها واهتمامها لظهور أى طفل يشتبه فى أنه هو ولى العهد . واليك بعض هذه الحـــوادث :

اشتبه الشرطة فى ذلك الحين فى أمر طفل يبلغ نحو الثانيـة عشرة كان يسافر بصحبة سيد يدعى أوجارد ياس توقف فى مدينة تيير ، وعهد بالطفل مؤقتا الى سيد آخر يدعى بارجريال ، فيروى رجال الشرطة أنهم سمعوا بارجريال هذا يقول ان هذا الطفل وديعة مقدسة . وفى الحال أبلغت الواقعة الى السلطات ، وأمر برجريال أن يحتفظ بالطفل وأنه مسئول عنه أمام الأمة . ولكن أوجارد ياس استطاع أن يحصل على الغاء هذا الأمر وأن يسافر بالطفل أنى شاء .

وفى سـنة ١٨٠٠ قبض فى شالون على طفل آخر اشتبه فى أنه ولى العهـد . و يزعم البعض أن بيانا صـدر بالوافعة فى ١٠ سبتمبر يسمى الطفل لويس شارل ده فرانس ، و يؤكد أن فى نخذه الأيمن وشما على شكل زنبقـة وفوقها رسم التـاج الملكى ، ومن حولها الأحرف الأولى لاسم أبيه وأمه وأخته .

و يقال أيضا إنه قبض فى سنة ١٧٩٥ على طفل يدعى ليون لو يس مايار باعتقاد أنه ولى العهد ، وأنه كان من بين محفوظات محكمة أنجوليم ملف يتعلق بالافراج عن طفل قبض عليه « لأنه ثبت من التحقيق أنه قد اعتبر ولى العهد خطأ » .

وعلى هـذا فان المؤرخين فى مصـير لويس السابع عشر فريقان ، فريق يؤ يد رواية وفاته فى سجنه فى سنة ١٧٩٥ ، ومن هؤلاء تيير ولامارتين ، وفر يق يؤ يد رواية فراره واستبداله بطفـل آخر هو الذى توفى فى السجن ، ومن هؤلاء ، لوى بلان ،

وجراو دى لابار[1] ، والمؤرخ الألمانى فون بيـلاو وجمهرة كبيرة أخرى من كتاب المذكرات والقصص . غير أنهم جميعا يختلفون فى تفاصيل فراره ، ومصيره بعـد الخلاص .

* * *

وقد ظهر فى أوائل القرن التاسـع عشر أشخاص عدة زعم كل منهم أنه لويس السابع عشر ، وأورد لتأييـد دعواه قصصا وأدلة . ومن هؤلاء شخص يدعى هنرى هكتور ايبر تسمى بالبارون دى ريشمون دوق نورماندى ، وقدم فى سنة ١٨٢٨ الى البرلمان طلبا بالاعتراف بشخصيته ونسبته الملوكية ، وزعم أنه هو ولى العهد وأنه احتج فى سنتى ١٨١٤ و١٨١٥ على ارتقاء لويس الثـامن عشر للعرش ولبث حينا يكرر هـذه الدعوى حتى قبض عليه فى سـنة ١٨٣٤ ، وقضى عليه بالسجن لتهمة التآمر والنصب ، ففر من سجنه واختفى حينا ثم عاد يكرر دعواه .

غير أن أحدا من المدعين لشخصية لويس السابع عشر لم يثر من الاهتمام قدر ما أثاره « كارل ناوندورف » ، ولم يثابر مثابرته فى التمسـك بدعواه ، فقـد لبث ثلاثين عاما يدعو الى قضيته فى ألمـانيا وفرنسا ، ويقـدم لاثباتها كثيرا من القرائن والأمارات التى تثير ريب المؤرخ ، وتحمله على التأمل فى قصته ودعواه . وقد ظهر ناوندورف فى ألمانيا لأول مرة حوالى سنة ١٨١٢ حيث جاء من برلين الى سبانداو واستقر بها يزاول تصليح الساعات . ولسنا نعرف شيئا عن حياته قبل ذلك . ولكن السلطات الفرنسية زعمت يومئذ أن ناوندورف انمـا هو أفاق مزور وأنه ولد صانع أقفال يدعى كارل ناوندورف أيضا ، وقد ولد فى نويشتات ايبرزفالد سنة ١٧٨٦ ، وتعلم صنع الساعات منـذ نعومة أظفاره ، وأنه تعرف يوم اسـتولى الفرنسيون على سبانداو بضابط منهـم يدعى ماراسان حاول أن يحمله على تمثيل دور ولى العهـد ،

---

(١) Grauau de la Barre ، وهو أشهر أصحاب هذه الرواية ، وقد أنفق شطرا كبيرا من حياته فى تأييدها وله فى ذلك كتاب شهير هو :

Intrigues devoilées ou Louis XVII, dernier roi légitime de France.

وفيه يؤيد صحة دعوى كارل ناوندورف التى أتينا عليها فى هذا الفصل بكل قواه

وأمده بكل المعلومات اللازمة لتمثيل هذا الدور، ثم عاد الى فرنسا ليمهد له السبل. وهناك رواية أخرى هي أن ناوندورف ينتمي الى أسرة يهودية من بروسيا البولونية وأنه جاء الى برلين في سنة ١٨١٠ ثم جاء الى سباندو في سنة ١٨١٢؛ على أن الروايتين تفتقر كلتاهما الى أهم عناصر الاثبات، لأن سجلات الحكومة البروسية لا تتقدم بأي تأييد لاحديهما، وليس فيها أثر قط لمولد ناوندورف. وعلى أي حال ففي سباندو وفي سنة ١٨١٢ يعرف التاريخ لأول مرة كارل ناوندورف ويعرفه فنانا بارعا في صناعته، موقرا من أبناء مجتمعه. ثم يعرف التاريخ أن كارل ناوندورف كان بارعا في اللغة الفرنسية، وأن تربيته ومعارفه كانت تسمو بكثير على مكانته الاجتماعية، وأنه كان يلم بدقائق الثورة الفرنسية، وأخبار الأسرة الملكية، وسجنها ومصائبها، وأخبار ولي العهد وتفاصيل سجنه، ومعالم التامبل، وكل ما يتعلق بذلك الماما شاسعا. وهذه بلا ريب ظاهرة مدهشة في حياة كارل ناوندورف تسبغ كثيرا من الرجاحة على دعواه.

والحقيقة أن ناوندورف كان يحتفظ بصور بارزة من حوادث هذا العهد، وهي حوادث معروفة، ولكنه كان يوردها بوضوح وقوة ودقة لا تكون إلا لشاهد عيان. فهو مثلا يصف الظرف الذي ألجيء فيه لويس السادس عشر على أثر حوادث ١٠ أغسطس الى الاحتماء في قاعة الجمعية الوطنية؛ وفرار الأسرة الملكية الى ڤارين، والمقابلة السرية التي وقعت بين ماري انتوانيت وميرابو والتي كان ولي العهد شاهدها الوحيد، ثم طائفة أخرى من الحوادث لا تهم التاريخ ولكنها من تلك التفاصيل التي تنطبع انطباعا عميقا في مخيلة طفل أذكت خياله الظروف والحوادث الغريبة التي يراها من حوله. وهو يذكر بالأخص من هذه الحوادث العظام كل ما يدهش الطفل من التفاصيل، ويرويها بذلاقة وترتيب وانتظام لا يشوبها الادعاء ولا تشف عن ضعف أو تردد أو تلعثم. وهو أقوى وأدق حينما يقص ذكريات طفولته في سجن التامبل. فهو في ذلك يبدي دقة غريبة في سرد أقل التفاصيل، وتصوير كل ما هنالك من أمكنة وأشخاص وأشياء مما لا يستطيع

أن يفعله سوى شخص عرف هـذه الأنحاء والحوادث حق المعـرفة وعاش بينها طويلا . ويستمر فى سرد هذه التفاصيل بهذه القوة حتى يصل الى حادث فراره، فيقول إنه كان من صـنع چوزفين بوهارنيـه وهوش وبشجرو وفروتيه . ولكن الظلمات تغشى الحوادث من تلك اللحظة، إذ يقال لنـا إن منقذى الأمير لم يحملوه خارج التامپل بادئ بدء، ولكنهم خبأوه فى غرفة صـغيرة تقع فى سطح السجن حيث بقى هنالك حينا، وان رجال المؤتمر لمـا وقفوا على الأمر اعتزموا كتمانه فأتوا مكان الأمير الفار بطفل أبكم هو الذى رآه مندوبو المؤتمر كما تقدّم، ولم يصرح بعد لانسان بدخول التامپل غير الواقفين على هـذا السر . ولكن الاشاعة ذاعت، رغم هـذه التحوّطات، بأن الأمير الحقيق قد اختفى . فعنـدئذ أراد رجال الجمهورية أن يثبتوا لفرنسا ولأوربا أن ولى العهـد قد توفى ، فقرروا موت الطفل الأبكم، فدس له السم فى الطعام ، ولكن الطبيب ديسول سقاه ترياقا وعالجه . وكان هذا هو السبب فى اغتيال ديسول . وعنـدئذ اضطر رجال الحكم أن يستبدلوا الطفـل الأبكم بطفل مريض مشرف على الموت أتى به من أحد مستشفيات باريس وهو الذى توفى فى ٨ يونيـه وسجلت وفاته باسم ولى العهد . وأما الملكيون فقـد رأوا مبالغـة فى الاحتياط أن يستبدلوا الأمير المختبئ فى سطح السجن بطفل آخر لقن دوره، حتى يحملوا الأمير الى مكان بعيد أمين ، وعلى ذلك فقد أتوا بالطفل البديل الى السجن فى صـندوق هو الذى استعمل لاخراج الأمير أيضا . ثم ألبسوا الأمير ثيـاب طفلة وحملوه الى مكان مجهول . على أن الرواية لا تقف عند هـذا الحد، إذ يقال بعـد ذلك إن الملكيين أنقذوا عدّة أطفال فى جهات مختلفة من فرنسا تضليـلا للشرطة عن اقتفاء أثر الأمـير الحقيق . ثم أخذ الأمير الى ڤنـده معقل الملكيين ، وهنالك أصابه مرض استطال أمده . وهنا أيضـا تضعف ذاكرته وتضطرب روايتـه ، ولكن ذلك قـد ينسب الى الآلام والأمراض النفسـية التى انتابتـه يومئذ . ثم سافر بعـد ذلك بصحبة بعض أنصـاره الى البندقية ، ثم الى رومة . وكانت معهم سـيدة سويسرية هى التى آوته يوم فراره من التامپل ،

فتزوجت فى رومة من صانع للساعات، واستقر معها ومع زوجها هنالك، وتعلم منه صنع الساعات، ومنها اللغة الألمانية . ولكن الخيانة كانت تطارده فى كل مرحلة، فقد ماتت السيدة وزوجها فجأة، وفر هو الى انجلترا، فقبض عليه فى عرض البحر، وسجن فى فرنسا حتى أطلق سراحه بواسطة چوزفين زوج بونابارت يومئذ، فسار الى الألتحاق بالدوق دنجين فى ايتنهايم، ولكن قبض عليه ثانية فى شترسبورج وزج الى قلعة ڤنسان . وهنالك بقى يرسف فى سجنه حتى سنة ١٨٠٩ حتى استطاع الكونت مونموران وهو من الزعماء الملكيين القدماء أن ينقذه أخيرا، وأن يقوده الى مكان أمين، ثم سافرا معا الى ألمانيا والشرطة تتعقبهما فى كل صوب، حتى استطاعا أخيرا بعد عناء وخطوب، أن يستقرا فى قرية صغيرة من أعمال برنزفيك، ومن هنالك التحقا بجنود الجنرال شيل وحاربا معه، فقتل مونموران وجرح الأمير، وحمل أسيرا الى فيسيل . ولكنه استطاع أن يفر الى سكسونية، ثم الى برلين، وهنالك أفضى بسره الى مدير الشرطة واستطاع بتوصية بعض أنصاره أن يستقر فيها، وأن تمنح حق الرعوية، وتسمى بكارل ناوندورف وهو اسم شخص مجهول قابله فى الطريق وأعاره جوازا بهذا الاسم . وأقام فى برلين حتى سنة ١٨١٢ ثم انتقل الى سبانداو واستقر بها . واحترف صنع الساعات .

هذه هى القصة العجيبة التى يسوقها كارل ناوندورف شرحا للحوادث والخطوب التى مر بها منذ فراره من سجن التامپل الى أن رأى الجو صالحا لاثارة دعواه . وكان ذلك فى سنة ١٨١٢ حينما أخذ مجرى الحوادث يتغير، ولاح يومئذ أن نجم بونابارت قد أخذ فى الازورار. فكتب ناوندورف يشرح دعواه الى ملك بروسيا و إمبراطور النمسا وقيصر روسيا. وكتب الى غيرهم من العظماء . ولكنه لم يتلق ردا من أحد . وفى سنة ١٨١٥ مر بسبانداو ضابط فرنسى كان أسيرا فى روسيا يدعى ماراسان، فأفضى اليه ناوندروف بسره ، وأخلص هو لقضيته كل الاخلاص ، وعهد اليه ناوندروف بأن يعمل لبث دعوته فى فرنسا، وزوده بمال وأوراق، ورسائل الى الدوقة دانجوليم (ابنة لويس السادس عشر وأخت ولى العهد أعنى أخته اذا صح

التعبير) . ولكن ماراسان لم يظهر بعد ذلك قط . ويقال إن البوليس الفرنسى ضبطه فى روان وتخلص منه بطريقة خفية . وفى سنة ١٨١٨ كتب ناوندورف الى اعمامه المزعومين فى فرنسا والى الدوق دى برى يعرض عليهم أن ينزل عن حقوقه فى العرش لعمومته وأبناء عمومته أعنى دوقى برى وانجوليم اذا كان ولد الدوق دى برى يبلغ وقت وفاة الدوق خمسة وعشرين عاما ، وإلا فانه يتولى الحكم حتى يبلغ ولد الدوق هذه السن ، ولكنه لم يتلق كلمة رد عن هذه الرسائل أيضا ، وهنا تولاه اليأس وفترت حماسته ، فتزوج من فتاة فقيرة ، غير أنه عاد فكتب الى الدوقة دانجوليم ثانية فى سنة ١٨١٩ وكتب الى الدوق دى برى سنة ١٨٢٠ ، وهو يزعم أنه تلقى فى هذه المرة ردا من الدوق وحده .

وفى سنة ١٨٢٢ ، انتقل ناوندورف الى براندنبرج على أثر مشاغبات حدثت له فى سباندا و ، ولكنه يزعم أنه منذ استقر فى براندنبرج ، توالت عليه سلسلة من الاتهامات والمطاردات ترجع الى وحى الأسرة الحاكمة فى فرنسا الى البلاط البروسى ، وأنه زج بسبب ذلك مرارا الى السجن ، فلم يطلق سراحه إلا فى سنة ١٨٢٦ فسافر الى كروسن واستقر هنالك . ولكنه لبث عرضة لصنوف المطاردة ، يرى كل من يعتنق قضيته يسقط صريع الاغتيال . فاعتزم أمره عندئذ ، واستطاع أن يدخل فرنسا بعد خطوب وحوادث ، وهنالك حاول عبثا أن يقابل الدوقة دى برى ؛ ثم سافر الى سويسرا ، وهنالك غير اسمه وأوراقه وعاد الى فرنسا ، ووصل الى باريس فى مايو سنة ١٨٣٣

وفى باريس عاش ناوندورف حينا فى عزلة تامة وبؤس مطبق . ولكنه وفق بعد قليل الى اجتذاب جماعة من الأنصار منهم بعض شهود حداثته ولا سيما المسيو دى بريمون الذى كان سكرتيرا خاصا للويس السادس عشر حتى أغسطس سنة ١٧٩٢ ، والمسيو چولى أحد وزرائه فى أواخر عهده . ومن السهل أن نصدق ما يرويه ناوندورف عن التفاف أولئك الأنصار حوله نظرا لما كانت تجوزه فرنسا يومئذ من الثورات والاضطرابات المختلفة . ولكن من المعقول أيضا أن يكون التفافهم

حوله لبواعث أخرى غير الايمان بدعواه . وعلى أى حال فقد حرك أولئك الأنصار دعوى ناوندورف فى فرص عديدة ولكنهم لم يفلحوا قط فى حمل الدوقة دانجوليم على لقائه أو العطف على قضيته . ويروى لنا مترجم ناوندورف[١] أنه بالعكس كاد يفقد حياته مرارا فى محاولات عدّة دبرت لاغتياله ، ففر من ذلك المعترك الخطر الى لندن ثم انتقل الى هولنده ، واستقر فى دلفت حتى توفى هنالك فى ١٠ أغسطس سنة ١٨٤٥ م ، وأدرجت وفاته فى السجل مقرونة بما كان يزعمه لنفسه من الصفات[٢] .

* * *

هذه هى مأساة كارل ناوندورف التى لبثت أعواما طويلة تثير الاهتمام والريب فى ألمانيا وفرنسا ، وهى مأساة يسخر منها معظم مؤرخى الثورة الفرنسية الذين يجمع سوادهم على أن لويس السابع عشر قد توفى طفلا فى سجن التامپل ، وأن كل ما أذيع حول فراره ، وظهوره بعد ذلك ، انما هو حديث خرافة ابتدعه خيال بعض المتعصبين الهائمين بتأييد قضية الملك « الشهيد » لويس السادس عشر ، وطفله البرىء ، وبعض القصصيين الذين رأوا فى أمثال هذه الخرافات اللذيذة مستقى خصبا لخيالهم . على أننا نعتقد مع ذلك أن فى مأساة كارل ناوندورف كثيرا مما يستوقف النظر ويدعو الى التأمل ، بل كثيرا مما يسبغ على دعواه مسحة من الصدقة . واذا كنا لا نستطيع أن نقطع بصدق هذه الدعوى فانا نرى فيها على الأقل ما يثير سحبا كثيفة من الريب على القول بوفاة لويس السابع عشر طفلا فى سجنه ، سيما اذا ذكرنا

---

(١) هو جراو دى لابار الذى سبق ذكره .

(٢) يعلق المسيو مونان فى دائرة المعارف الفرنسية على دعوى المتحلين لشخصية لويس السابع عشر بقوله : « كان فى وسع أولئك المدعين جميعا أن يعرفوا قصص التامبل ومذكرات كلرى (خادم لويس السادس عشر فى أسره) . ولكنهم جميعا تنقصهم رواية الفرار الصحيحة . فمن الذى دبره ؟ ومن كانوا أعوانه فى السجن ؟ ومتى وقع ؟ ثم لماذا صمت الأمير الفار منذ سنة ١٧٩٤ الى سنة ١٨٠٤ ولم يبد أية بادرة على الحياة ؟ هل اعتقله أعمامه ؟ واذن كان أولى أن يتركوه يموت . الخلاصة أن كل الظواهر تؤيد موت لويس السابع عشر فى التامبل » . (مقال لويس السادس عشر) .

ان معظم الثقات من مؤرخى الثورة الفرنسـيين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كانوا جميعا من الجمهوريين .

على أن دعوى كارل ناوندورف لم تقف عند هذا الحد، ولم تنته بوفاته، فقد ترك ستة أولاد وأرملة واتخذ أحد أولاده اسم شارل العاشر، واتخذ آخر اسم شارل السادس . وبذلت الأسرة كل سـعى لدى السلطات الهولندية حتى اعترفت لهم بما يزعمون من نسبة الى آل بوربون . وفى سنة ١٨٥٢، جاءت أسرة ناوندورف الى باريس، ورفعت أمرها الى القضاء الفرنسى مطالبة باثبات شخصيتها ونسبتها الملوكية وتولى چول فافر، وهو يومئذ من أعظم المحامين واعلام البيان، اثبات دعواها . ولكن محكمة السين المدنية قضت فى يونية سنة ١٨٥١ برفض الدعوى . فاستأنفت الأسرة الحكم، وسارت القضـية حتى وصلت الى محكمة النقض، ودافع چول فافر عن المدعين أيضا دفاعا اشتهر فى ذلك العصر، ولكن محكمة النقض أصدرت حكمها بتأييد حكم الرفض فى سنة ١٨٧٤

وفى سنة ١٨٨٤، تكررت الدعوى أمام القضاء، ورفع أحد أبناء ناوندورف، وهو لويس شارل الذى تسمى باسم شارل السادس دعوى ينازع الكونت دى شامبور، سليلة آل بوربون، لقبها، ولكنه أخفق ايضا، وكان ختام المأساة .

مراجع هذا الفصـــل

VON BULAU: Geheime Geschichten und rathselhafte Menschen.

JULES FAVRE: Le Procès de Karl Naundorff

LA GRANDE ENCYC. ET LAROUSSE: Le Grand Dictionnaire, (arts. Louis XVII, Naundorff etc.).

الفصل الثانى

مقتـــل الجـــنرال كليبر
ومحـاكمة سليمان الحلبى
يونية سنة ١٨٠٠

فى هذا الفصل ننتقل بالقارئ الى مسرح الحوادث فى الشرق، ونقف به لحظة فى مصر، على ذكرى الحملة الفرنسية .

قد نجـد فى الظواهر والمناسـبات التاريخية، وفى علائق الجوار والحضارة ، ما يفسر كيف كانت مصر على التوالى فريسـة لليونان فالرومان فالعـرب فالترك ، ولكننا لانستطيع أن نجد فيها مايفسر قدوم بونابارت الى هذه البلاد .

قدم نابوليون بحملته الى مصر، فى مأزق تكاثرت فيه الأعداء على فرنسا وأحاطتها النمسا وبروسيا وانجلترا بسياج من الخطر الداهم؛ قدمها قبـل أن يأمن غائلة هؤلاء الأعداء، بل قبـل أن يقمع الخارجين عليـه والمؤتمرين به، وقبل أن يثبت قدمه فى الرآسة والحكم .

ولكن بونابارت لم يقصد فتح مصر عبثا .

ذلك لانه لاحظ — وربما وحده من بين ساسة عصره — أن انجلترا تتطلع الى مصر، وتتحين الفـرص لافتراسها، وأدرك بثاقب فكره ماترتبه انجلترا على الفوز بفريستها من الأهمية العظمى، وأنها ترمى بذلك الى ربط مواصلاتها والسيطرة على طرق البر والبحر، والاستئثار بالسلطان المطلق فى الشرقين الأدنى والأقصى .

وانجلترا ألد وأعنت أعداء بونابارت .

فاذا استطاع بونابارت أن يفتتح مصر وأن يستقر بها، استطاع أن يحبط تدابير انجلترا، وأن يهدد مواصلاتها مع أملاكها الشرقية ولا سيما الهند .

نقول بعبارة أخرى أن بونابرت استطاع منذ قرن وثلث أن يتصور البحر الأبيض مرتبطا بالبحر الأحمر بقناة لم تكن حفرت بعد، وأن يقدر كل مايتعلق اليوم بتلك المشكلة الكبرى التي هي حجر الزاوية في كل صروح السياسة الانجليزية — مشكلة المواصلات الامبراطورية .

اعتزم بونابارت اذن أن يسبق عدوته الى مصر فيفتتحها و يجعل منها قاعدة فرنسية، حربية سياسية .

فخرج من ثغر طولون في شهر مايو سنة ١٨٩٨ في جيش ضخم، وعرج في طريقه على مالطه فاستولى عليها، ثم أشرف بجيشه واسطوله على ثغر الاسكندرية في ٣٠ يونيه و بدأ مخاطبة المصريين بأن أذاع بينهم أنه لم يقدم الى مصر غازيا ولا متغلبا، وانما قدمها ليعاقب الذين ظلموا الشعب المصرى، و يعمل على تأييد الدين الاسلامى تأييدا حقيقيا خالصا .

وشتت بونابارت جيش المماليك بجانب الاهرام وانشأ حكومة مركزية في القاهرة تقبض على ناصية الأقاليم الشمالية .

ولم تمض بضعة أيام على نزول جيشه الى البر، حتى قدم الأميرال الانجليزى نلسون في سفنه، وكان يجد في أثر بونابارت مذ خرج بجملته من طولون، ووثب على الأسطول الفرنسى فهزمه في أبو قير هزيمة شنيعة .

غير أن تلك الهزيمة لم تثن من عزيمة بونابارت، فلم يلبث أن استقر بمصر حتى اعتزم افتتاح سوريا قبل أن يهاجمه الباب العالى الذى اعتبر اعتداءه على مصر اعلانا للحرب عليه، فاخترق قفار سينا في غمار من الشدائد والصعاب الفادحة، واكتسح فلسطين، غير أنه رد عند أسوار عكا أمام عزم المدافع عنها، وهو أحمد باشا الجزار، الذى استعان على وقف الفاتح بالسفن الانجليزية و براعة قائدها السير سيدنى سميث، فعاد بونابارت بجيشه المنهوك الى مصر.

وما كاد يستقر في القاهرة ثانية حتى وصلته أنباء سيئة من فرنسا منها أن النمسا استعادت ايطاليا وهزمت جيوش الجمهورية، وأن روسيا و بروسيا وانجلترا والنمسا

تحشد الجيوش لغزو فرنسا ، وأن المؤامرات والثورات الملكية اشتدت وتكاثرت ، فبادر بونابارت بالعودة الى فرنسا ، وغادر مصر فى خفاء ونكيرة تاركا جيشه تحت امرة الجنرال كليبر .

وهو چان باتست كليبر ، أحد مشاهير قواد الثورة الفرنسية وقرين ديمورييه ، وبشيجرو ، وهوش ، ولد فى شتراسبورج سنة ١٧٥٣ ، وخدم فى جيش الجمهورية وظهرت براعته العسكرية فى ثورة ڤنده ، حينما اشتبكت الجيوش الملكية مع جيش الجمهورية فهاجمها ومزقها ، ولما قدم بونابارت الى مصر كان كليبر قائدا لاحدى الفرق ، وقد صحبه الى سوريا وأبلى بلاء حسنا فى واقعة غزه .

ورأى الجنرال كليبر حرج المأزق ففاوض السير سيدنى سميث فى عقد اتفاق يُسمح بمقتضاه الى الجيوش الفرنسية أن تغادر مصر فى سلام وأمن ، فتم الاتفاق على ذلك فى العريش فى فبراير سنة ١٨٠٠ ، ولكن القائد الانجليزى وصلته أوامر جديدة من حكومته تقضى بألا يُسمح للفرنسيين بالجلاء عن مصر الا اذا سلموا سلاحهم ، فنقض السير سدنى اتفاقه ، وانقض كليبر فى الحال بقواته على الجيش التركى فى هليو بوليس فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ فهزمه هزيمة شديدة بالرغم من تفوقه عليه فى العدد تفوقا هائلا اذ كان الترك ثمانين الفا والفرنسيون عشرة آلاف .

ثم استقر الفرنسيون فى القاهرة ثانية ، وأخذوا ينظمون شئونهم ويحصنون مراكزهم استعداد للطوارئ .

* * *

وكان القائد العام للجيش الفرنسى أى الجنرال كليبر قد اتخذ قصر الألفى المشرف على بركة الأزبكية مسكنا له ومركزا للقيادة العامة ، ولكنه أقام حينا فى الجيزة قريبا من النيل ، بجوار المركز العام لأركان الحرب ، حتى يتم اصلاح القصر ؛ ففى يوم السبت ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ الموافق ٢١ محرم سنة ١٢١٥ هـ . و ٢٥ پريريال سنة ٨ لقيام الجمهورية الفرنسية ، جاء الجنرال كليبر من الجيزة ومعه المسيو پروتان كبير المهندسين وأحد أعضاء البعثة العلمية الفرنسية الى حى الأزبكية ليتفقد أعمال

الاصلاح فى منزله، وليجيب دعوة الجنرال داماس الى تناول الغذاء، وكان يقيم فى دار قريبة من دار القائد العام تفصلهما حديقة مستطيلة . فلما غادر القائد العام دار الجنرال داماس سار صوب داره يخترق الحديقة مع المهندس بروتان، وكان القائد العام قد تقدّم قليلا ، فبرز من احد مماشى الحديقة فتى نحيف القامة ، متوسط الجسم، يرتدى الزى التركى، وتقدّم من القائد العام، ولوح اليه بيده كأنما يسأله صدقة أو يلتمس أمرا ، فأشار اليه كليبر بالانصراف، ولكن الفتى وثب نحوه، وقبض بيسراه على يده بشدة، وجرد بيده اليمنى خنجرا كان يخفيه تحت ثيابه ، وطعن به الجنرال عدّة طعنات سريعة أصابته فى صدره وبطنه وذراعه، فسقط الى الأرض صريعا وهو يصيح مستغيثا؛ فبادر المهندس بروتان لنجدته، ولكن القاتل أنقض عليه كذلك وطعنه بخنجره عدّة طعنات ألقته على الأرض وأفقدته الرشد، ثم وثب مهرولا الى مماشى الحديقة فغاب فيها واختفى عن الأعين .

هذا هو منظر الجريمة كما يصوّره التحقيق الرسمى وأقوال الشهود ؛ وقدوصفته الروايات المعاصرة جميعا بمثل ذلك أو بما يقرب منه. فالجبرتى حجة سير هذا العصر، يصف الحادث بما يأتى : « وفى ذلك اليوم (٢١ محرم سنة ١٢١٥) وقعت نادرة عجيبة هى أن سارى عسكر كلهبر كان مع كبير المهندسين يسيران بداخل البستان الذى بداره بالأزبكية فدخل عليه شخص حلبى وقصده، فأشار اليه بالرجوع وقال ما فيش وكررها فلم يرجع، وأوهمه ان له حاجة وهو مضطر فى قضائها، فلما دنا منه مدّ اليه يده اليسار كان يريد تقبيل يده فمدّ اليه الآخر يده، فقبض عليه وضربه بخنجر كان أعده فى يده اليمنى أربع ضربات متوالية، فشق بطنه وسقط الى الأرض صارخا، فصاح رفيقه المهندس فذهب اليه وضربه أيضا ضربات وهرب ، فسمع العسكر الذين خارج الباب صرخة المهندس فدخلوا مسرعين فوجدوا كلهبر مطروحا وبه بعض الرمق، ولم يجدوا القاتل [١] » .

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (ج ٣ ص ١٢١ الطبعة العادية) .

ويقول المعلم نقولا الترك، وهو من المعاصرين أيضا : « ثم بعد رجوعه لمنزله (يريد كليبر) آخر النهار خرج مع شيخ المهندسين وقد أجرته الأقدار الى شرب كاس البوار، وبينما هو منفرد فى الجنينة الكائنة بين منزله وبين منزل وزيره داماس دخل عليه ذلك الشاب سليمان ، وكانت عليه ثياب باليات ، ومد اليه يده ليستعطى منه صدقة، وأعطاه من يده ورقة ، فأخذها كليبر من يده، وبينما هو يمعن فى قراءتها ،



الجنرال كليبر

انقض عليه ذلك الشاب وضربه بسكين كان محتفظا عليه تحت ثيابه، فجاءت الضربة بخاصرته فسقط فى الأرض وصرخ صوتا عظيما، وضربه ثانيا وثالثا ورابعا، وقد سمع صوته كل من كان بالقرب منه ، فبادر اليه المهندس وبيده عصا قوية فضرب القاتل بها على هامه فجرحه فهجم سليمان على المهندس، وضربه بتلك السكين فجرحه جرحا بليغا ووقع على الأرض بين ميت وحى وفر القاتل هاربا » [1] .

(١) فى كتابه : ذكر تملك الجمهور الفرنساوية للاقطار المصرية والبلاد الشامية .

٢

وما كاد القاتل يختفى حتى وثب الحراس من كل ناحية الى مكان الاستغاثة ، فوجدوا قائدهم صريعا فى ممشى الحديقة والدم يقطر من جراحه ، ووجدوا زميله بروتان ملق على قيد بضعة أمتار منه ، ولم يروا أثرا للقاتل ، فذعروا واشتد اضطرابهم ، وطار الخبر الى الرؤساء والضباط ، فهرولوا من كل صوب ، واشتد الضجيج والهرج ، وانطلق عشرات الجند الى الجهات المجاورة يفتشون عن القاتل أو القتلة ، واعتقد الرؤساء ان تلك الجريمة انما هى نتيجة لمؤامرة كبيرة دبرها أهل القاهرة ، فأصدروا الأوامر الى القلاع والحصون بالتأهب ، واحتاط الفرنسيون بالمدينة واندسوا الى شوارعها ، وسرى الرعب الى القاهريين ، فأسرعوا الى الفرار والاختفاء فى المنازل والأحياء القاصية ، وأغلق التجار حوانيتهم ، فأقفرت الطرق ، وساد على المدينة سكون رهيب[١] .

غير أن ذلك الرعب العام ما لبث أن تبددت سحبه بعد أمد قصير اذ لم تمض ساعة حتى ظفر بعض الجند الذين انطلقوا فى أثر القاتل بشاب كان مختفيا فى البستان المجاور لمنزل القائد العام (أو صارى عسكر كما تسميه كتابات ذلك العصر) المعروف بغيط مصباح وراء جدار متهدم ، فقبضوا عليه ، فقدم للاستجواب فى الحال أمام مجلس عسكرى انعقد فى منزل الجنرال داماس رئيس أركان الحرب ، واستجوبه الجنرال منو[٢] أقدم الضباط فى حملة مصر ، وخلف كليبر فى القيادة العامة .

وكان الجنرال الجريح يعانى حشرجة النزع حينما قدم لفحصه كبير الأطباء فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر فى مركز القيادة بحى الازبكية ، وقد ظهر من الفحص أنه طعن بآلة قاطعة ذات حد واحد ، وأنه أصيب بأربعة جروح بالغة أحدها تحت

---

(١) يصف الجبرتى اضطراب القاهرة فى عبارة ظريفة فيقول : «ووقعت هوجة عظيمة فى الناس وكرشة وشدة انزعاج وأكثرهم لا يدرى حقيقة الحال» .

(٢) وهو جاك منو ، أو عبد الله منو ، وقد اعتنق الاسلام عقب قدومه الى مصر ، وتزوج من سيدة مسلمة ، ولبث حينا حاكما لولاية رشيد قبل أن يتولى القيادة العامة بعد مقتل الجنرال كليبر .

الثدى الأيمن ، والثـانى تجاه الكلية اليمنى والثالث فى ذراعه الأيسر وقد شـقه من ناحية الى أخرى ، والرابع فى الخد الأيمن . أما المهندس پروتان فقد ثبت الفحص أنه ضرب بآلة قاطعة ذات حد واحد أيضا ، وأنه أصيب بستة جروح ، فى صدغه وكفه وجنبه الأيسر وشدقه الأيسر وصدره من جهة اليسار (التقرير الطبي المؤرخ فى الساعة الثالثة بعد ظهر ٢٥ پريريال سنة ٨ لتأسيس الجمهورية) .

وقد أسلم الجنرال الروح بعد فحصه ببرهة وجيزة .

أما المهندس پروتان ، فلم تكن جراحه خطرة بالرغم من كثرتها فأسعف بالعلاج .

* * *

ظهر من الاستجواب الأول أن الشاب المقبوض عليه يسمى سليمان الحلبى ، وأنه ولد فى مدينة حلب بولاية الشام وعمره أربعة وعشرون سـنة ، وأنه قدم الى القاهرة مع احدى القوافل ثم نزل فى الجامع الأزهر .

غير أنه أنكر ما نسب اليه من جريمة قتل القائد العام والشروع فى قتل المهندس پروتان ، فتليت عليه الأدلة الأولى للاتهام ورد عليها كما يأتى :

(أولا) وجد الجند فى أحد مماشى الحديقة خنجرا ملوثا بالدماء ، على مقربة من المكان الذى كان مختفيا فيه ، فقرر المتهم أنه لا يعرف هذا الخنجر ، وأنه لم يحرز خنجرا من قبل ، ولا يعرف من أين أتى به الجند .

(ثانيـا) قبض عليه الجند وهو مختف فى الحديقة ، وقد رد المتهـم على ذلك بأنه لم يكن مختفيا ، وانه اضطر الى البقاء فى الحديقة لأن الجند سدت عليه كل المسالك ، فلم يستطع أن يسلك طريقا ما .

(ثالثـا) وجدت قطعة قماش أخضر فى المكان الذى سقط فيه القائد ، وهى تماثل قماش جلبابه الذى تمزق من ناحية ، وقد أنكر المتهم ان القطعة المذكورة هى من جلبابه .

(رابعـا) وجدت برأسـه ووجهه خدوش ورضـوض وكدمات ، وهـذه الاصابات هى نتيجة اشـتباكه مع المهندس پروتان الذى ضربه بعصاه عدّة

ضربات، وقد رد المتهـم على ذلك بأن هذه الآثار لم تصبه إلا من ضرب الجنـد الذين قبضوا عليه .

(خامسا) تعـرف عليه بعض الجنـد وقرروا أنه رؤى فى صبيحة ذلك اليوم فى الجيزة حيث كان القائد العام،ولوحظ أنه يتتبعه أينما سار،فقرر المتهم أنه ذهب حقيقة الى الجيزة ليبحث له عن عمل وأنه ماتتبع القائد العام، بل كان يود أن يراه فقط .

وأنكر المتهم أنه يعرف الوزير الأعظم (العثمانى) أو أحدا من زعماء الترك أو المماليك فى الشام أو مصر .

فقرر المجلس عندئذ احالته الى العذاب (طبقا لعرف البلد)،فشد وثاقه، ومازال يجلد حتى التمس الصفح، ووعد بقول الحقيقة .

فرفع عنه العذاب، واستجوب ثانية،فقرر أنه قدم الى القاهرة من غزة منذ واحد وثلاثين يوما،ولم يكن قدومه مع احدى القوافل بل كان على هجين استحضره خصيصا لذلك ، فقطع المسافة بين غزة والقاهرة فى سـتة أيام ، وأنه جاء الى القاهرة ليقتل القائد العام وقد حرضه على ارتكاب تلك الفعلة أغوات الينكجرية ، لأن زعماء الجيش العثمانى مذ عادوا مهزومين الى الشام أرسـلوا الى حلب للبحث عن شخص يستطيع قتـل القائد العام للجيوش الفرنسية ، ووعدوا من يتقدم لتنفيذ تلك المهمة بمال كثير، ومنصب كبير،فتقدم هو لقضائها طمعا فى المـال والمنصب .

وسئل هل حرضه على ذلك أحد فى مصر وهل أخبر أحدا بنيته ؟ فأجاب أن أحدا لم يحرضه فى مصر، غير أنه تعرف منذ سكنه فى الجامع الأزهر بأربعة مشايخ هم : السيد محمد الغزى ، والسيد أحمد الوالى ، وعبد الله الغزى ، والسيد عبد القادر الغزى ، وأنه أطلعهم على مشروعه فنصحوه بالرجوع عنه لاستحالة تنفيذه .

وقرر أيضا أنه تردّد على الجيزة لرؤية القائد العام والاستفهام عنه وعن غدواته وروحاته ، فعلم أنه ينزل أحيانا الى الحديقة ، وأنه رآه فى هـذا الصباح يجتاز النيل فى قارب فتبعه حتى قتله فى الحديقة كما تقدّم (المحضر الأول فى ٢٥ بريريال سنة ٨).

وكان يقوم بمهمة الترجمة أثناء التحقيق داميان برشويش سكرتير القائد العام .

* * *

فأصدر القائد العـام منو فى الحال أمرا بالقبض على الأربعة المذكورين، فلم تمض ساعة حتى قبض على ثلاثة منهم وأحضروا فى الحـال الى المجلس ، وبدئ باستجوابهم فى الساعة الثامنة من مساء نفس اليوم الذى وقعت فيه الجريمة .

وتتلخص أقوالهم فيما يأتى :

(١) الشيخ عبد الله الغزى : شاب فى نحو الثلاثين من عمره، مولود فى غزة، وساكن بالجامع الأزهر، وصناعته قراءة القرآن، أنكر أولا معرفته لسليمان الحلبى، وافضاء سـليمان اليـه بنيته فى قتل القائد العـام ، ولكنه اضطر ازاء اعتراف زميله الشيخ محمـد الغزى ومواجهتهما أن يقرر أنه يعرف سليمان وأنه رآه لآخر مرة قبل وقوع الجريمة بثلاثة أيام، غير أنه أصر على تأكيده أن سليمان لم يكاشفه بنيته .

(٢) الشيخ محمد الغزى : شاب فى الخامسة والعشرين ، مولود فى غزة ، وسـكنه بالجامع الأزهر ، وصناعته قراءة القرآن ، قرر أولا أنه يعرف سليمان منذ ثلاثة أعوام لأنه كان بمصر ثم غادرها الى مكة فلم يسمع عنه بعد ذلك، ثم عاد فقرر أنه رآه منـذ يومين وتحادث معه ، وانه (أى سليمان) قال له : إنه سيرحل رحلة قد لا يعود منها ولم يصرح له مطلقا بنيته فى اغتيال القائد العام .

(٣) السيد أحمـد الوالى، قارئ بالجامع الأزهر فى متوسط العمر، ومولود فى غزة قرر أنه يعرف سليمان، وأن سليمان هـذا يذهب للقراءة فى منزل أحد الأفندية، وأنه رآه منذ عشرين يوما ولم يره بعد ذلك، وأنه أفضى اليه بأنه سيقدم على عمل جنونى لم يبينه له إلا بأنه يقصد أن يغازى فى سـبيل الله ، بقتل أحـد النصارى ، وأنه شرح له فسـاد رأيه وحاول أن يمنعـه عن اتمـام قصده فلم يفلح (محضر ٢٥ بريريال سنة ٨ الساعة الثامنة مساء) .

(٤) وأما السيد عبد القادر الغزى الذى لم يقبض عليه بادئ بدء لاختفائه فقد قبض عليه بعد ذلك، وتبين من استجوابه أنه قارئ بالجامع الأزهر، ومولده غزة،

وقد أنكر أولا معرفته لسليمان، غير أنه عاد فاعترف بها وبأن سليمان أخبره بعزمه على المغازاة فى سبيل الله .

وقد أدّى استجواب المشايخ الأربعة الى القبض على شخص آخر هو مصطفى افندى البورصلى الذى قال عنه السيد احمد الوالى إن سليمان يذهب للقراءة فى منزله ، وقدّم للاستجواب فقرر ما يأتى :

أنه يسمى مصطفى افندى البورصلى ومولده فى بورصه من أعمال الأناضول وعمره احدى وثمانون سنة وصناعته معلم وسكنه مدينة القاهرة ؛ قرر أن سليمان تلميذه منذ أعوام ، وأنه قدم الى القاهرة منذ نحو عشرين يوما وزاره فى منزله للسلام عليه ، فأضافه ليلة واحدة لفقره ولسابق علاقته به ، وأن سليمان أخبره أنه حضر ليتقن تعلم القرآن ، ولم يخبره عن سبب آخر لحضوره، ولم يفض اليه مطلقا بشىء يتعلق بنيته فى ارتكاب الجريمة ، وأنه لا يخرج كثيرا من منزله لكبر سنه وضعفه .

وسئل هل يحض القرآن على الغزو فى سبيل الله وقتل الكفار، وهل علّم سليمان شيئا من هذا، فأجاب أن القرآن يحث على الغزو، ولكنه يفرض قتل القاتل، وأن المسلمين والفرنسيين سواء فى الشرف، وانه لم يعلم سليمان شيئا من هذا بل علمه الكتابة فقط .

وقد ووجه الأستاذ بتلميذه فأقره سليمان على جميع أقواله (محضر ٢٦ بريريال سنة ٨) .

٣

ولما انتهى التحقيق الابتدائى أصدر القائد العام جنرال منو فى اليوم التالى (٢٦ بريريال) قرارا بانشاء محكمة لمحاكمة المتهمين مؤلفة من تسعة أعضاء، هم الجنرال رينييه وهو الرئيس ؛ وفريان، وروبين، من القواد؛ وموران، ورچنيه ، ولروى، وبرتران، وسارتلون، وليبر، من كبار الضباط ورؤساء الأقلام، على أن يقوم

ليير بوظيفة المدعى العمومى، وسارتلون بوظيفة مقرر المحكمة ، وفوض لهذه المحكمة أن تتخذ كل الاجراءات التى ترى اتخاذها من قبض وتفتيش وتحقيق ، للوصول الى إظهار الحقيقة والقبض على جميع الجنـاة ، وأن تقضى على هؤلاء الجنـاة بالعقاب المناسب للجرم ، وأن تبدأ بعقد جلساتها فى الحال .

فبـدأت المحكمة بسماع شهود الاثبـات وهم : (١) الوطنى يوسف برين العسكرى الخيال من حراس منزل القائد العام ، قرر أنه هو و رفيقه المدعو رو بر قبضا على «المسلم» سليمان ، وأنهما وجداه مختفيا فى الحديقة المجاورة لمنزل القائد العام ، بين الجدران المتهدمة ، وأنهما شاهدا بقعا من الدم فوق الجدران ، فقبضا على المتهم وضرباه بالسيف صفحا لأنه حاول المقاومة والفرار ، وأنه عثر حين عودته بالقرب من ذلك المكـان بخنجر ملوث بالدم ملقى على الأرض فالتقطه وسلمه الى مركز القيادة العـامة . (٢) الوطنى رو بر العسكرى الخيال ، قرر أنه انطلق مع زميـله برين للبحث عن القاتل ، فقبضا على سليمان بالحالة التى وصفها زميله ، وأن زميله عثر بعـد ذلك بخنجر ملوث بالدم وسلمه الى مركز القيادة العامة . (٣) الوطنى كونستان بروتان المهندس وعضو البعثة العلميـة الذى انتقل المقرر سارتلون اليـه ليسمع شهادته لأنه كان طريح الفـراش بسبب جراحه ، قرر أنه كان يتمشى مع القائد العام فى المشى الكبير للحديقة المشرفة على بركة الأزبكية ، فرأى رجلا يرتدى الثياب العثمانيـة يقترب من القائد العام وكان قد سبقه بمسافة قصيرة ، وأن هـذا الرجل انقض على القائد العام وطعنه بخنجره عدّة طعنات ، فهرول اليـه حين سمع صياحه ، فانقض عليـه القاتل وطعنه أيضا عدّة طعنات ألقتـه صريعا ، وأفقدته الرشـد ، وأنه رأى سليمان بعد القبض عليه فتأكد أنه هو الذى طعن القائد العام وقتله . (٤) الوطنى فورتونيه ضابط فى فرقة الفرسان ، ومن معية القائد العـام ، قرر أنه كان بصحبة القائد العام حينما قدم ليرى منزله الجديد بحى الأزبكية ، وأنه لمح شخصا رث الثياب ذا عمامة خضراء يتتبع القائد العـام أينما سار ، فاعتقـد هو و زملاؤه أن ذلك الشخص من الفعلة الذين يشتغلون فى عمـارة منزل القائد العام

فلم يتعرّضوا له ، فلمـا دخل القائد العامّ الى حديقته لينفذ منها الى منزل الجنرال داماس ، رأى ذلك الشخص ثانية يندس الى حشم القائد العام فنهره وطرده، ثم رآه بعد وقوع الجريمة فتأكد أنه هو بعينه الذى طرده من قبل .

ثم أعادت المحكمة استجواب سليمان الحلبى ، فاعترف بجريمته ثانية، وأفاض هذه المرة فى تفاصيل الحوادث التى أدّت به الى ارتكابها . واليك ملخص قصته :

سليمان الحلبى

إن الصدر الأعظم لما هزم جيشه فى مصر، عاد بفلوله الى الشأم فى شهر ذى القعدة (سنة ١٢١٤ هـ) الموافق لشهر جرمينال سنة ٨ ، وكان سليمان حينئذ فى القدس عائدا من الحج ، فلما عاد الى موطنه مدينة حلب ، خاطبه اثنان من آغوات الصدر الأعظم هما أحمد آغا و ياسين آغا فى أمر قتل القائد العام الفرنسى ، واختاراه لتنفيذ تلك المهمة لأنه زار مصر من قبل ومكث بها بضعة أعوام و يعرفها جيدا . وكان والى حلب إبراهيم باشا يضطهد محمدا الحلبى والد سليمان ، و يرهقه بالغرامات والمكوس فاستجار سليمان منه بأحمد آغا المذكور فوعده خيرا ، وتعهد له بحماية أبيه ورفع الظلامات عنه ، وأوصاه بكتمان السر ، والحذر فى تنفيذ مهمته [1] . ولما عاد أحمد آغا الى القدس زاره سليمان هنالك فكرر

---

(١) يصف المعلم نقولا الترك منشأ الجريمة فى تلك الفقرة الشعرية : « وقد كان فى مدينة القدس المحمية أحد أغوات الانكجارية اسمه أحمد أغا من مدينة حلب القوية ، فهذا كان يجول بأفكاره على شخص مغوار أو مغازى يغار أو محتال غدار أو خبيث مكار يحتال بالفطنة والاختيار على قتل ذلك الرهط الجبار والبطل القهار سلطان أولئك الكفار و يسقيه كاس الدمار ... و بينما هو فى ذلك الاهتمام لبلوغ المرام =

مخاطبته فى تلك المهمة، وتحذيره ونصحه من أجلها ، ثم أرسله الى ياسين آغا فى غزة فنقده مالا يستعين به على السفر وعلى تنفيـذ مشروعه ، ثم غادر غزة مع قافلة من التجار كانت قادمة الى مصر وقطع سيناء على هجين ، ولمـا وصل الى مصر نزل فى جهة تسمى الغيطة فى ناحية الألفية واكترى حمارا من أحد الفلاحين وركبه حتى مدينة القاهرة ، ثم نزل فى الجامع الأزهر واجتمع بالمشايخ الأربعة ، ولم يكتم عنهم نيته فى اغتيال القائد العام ، بل كان يحدثهم بهـا كل يوم ، وقد حاولوا أن يمنعوه عن إتمام قصده فلم يذعن .

وأن أحدا فى مصر لم يفاوضه فى هذا الأمر ولم يعطه مالا من أجله وأنه كان يذهب الى منزل مصطفى افنـدى البورصلى ليقرأ عليـه كل خميس واثنين ولكنه لم يخبره قط بمشروعه .

واعترف سليمان أيضا بأن الخنجر الملوث بالدم الذى ضبط فى مكان الحـادث خنجره وأنه اشتراه من سوق غزة ليرتكب به جريمته (الاستجواب الثانى لسليمان محضر ٢٦ پرريال سنة ٨) .

ثم ووجه بالمشايخ الأربعـة فأصر على أنه حدثهـم بمشروعه مرارا ، واعترف هؤلاء ثانية بمعرفتـه ، وبأنه حادثهم فى شأن الغزو فى سبيل الله بقتل القائد العام ، وأنهم اعتبروه مجنونا ، وحاولوا منعه عن إتمام قصده فلم يفلحوا .

وووجه سليمان بمعلمه القديم مصطفى افندى البورصلى كما تقدم فأصر على أقواله (المحضر السابق) .

= واذا تقدم عليه شاب قوى الجنان مملوء من الجهل اسمه سليمان وهو من مدينة حلب الشهبا ، قد هزه جنون الصبا وأوعده بقتـل ذلك السلطان حبا بالدين والايمان . وكان ذلك ما بلغ من العمر أكثر من أربعة وعشرين سـنة الا أنه أسد ضرغام وليث هجام فسار من القدس على هذا المرام ... » (ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية) .

٤

وقد استغرق تحقيق القضية يوما واحدا هو يوم السبت ٢٥ بريريال أى اليوم الذى وقعت فيه الجريمة ، واستغرق استجواب المتهمين أمام المحكمة يوما آخر هو اليوم التالى ٢٦ بريريال (٢٥ يونيه) . وفى ختام هذه الجلسة التى لبثت طول اليوم طلبت المحكمة الى المتهمين أن يختاروا محاميا للدفاع عنهم فأجابوا أنهم لا يعرفون أحدا يعهدون اليه بتلك المهمة ، فعهدت المحكمة بذلك الى المترجم لوماكا .

وفى يوم الاثنين ٢٧ بريريال سنة ٨ — ١٦ يونيه سنة ١٨٠٠ — عادت المحكمة الى الانعقاد — وكانت المحاكمة علنية يشهدها جمهور من المصريين ؛ وبدأ المقرر سارتلون مرافعته التى نثبتها بنصها لأنها قطعة من الفصاحة القضائية ، ولأنها بالأخص شرح بديع لظروف الجريمة وتفاصيلها :

أيها الوطنيون :

ان الحزن العام ، والألم المبرح اللذين يحيطان بنا يعربان بأفصح بيان عن فداحة الخطب الذى نزل بجيشنا . لقد انتزع خنجر القاتل الذى نمت خيانته ونم تعصبه عن دافع التحريض والشراء قائدنا من بيننا بجأة وهو فى إبان ظفره ونخاره . وإذ قد عهد إلىّ بأن استنزل على ذلك القاتل الأثيم وشركائه نقمة الشرائع ، فليسمح لى لحظة أن أضم دموعى وحسراتى الى تلك الدموع والحسرات التى أثارها ذهاب فريسته فان قلبى يشعر بأشد الحاجة الى أن يقدم اليها ذلك القربان الواجب لها ، ولأن ذلك يسهل مهمتى ، فأستطيع أن أطرق دون كبير اشمئزاز تفاصيل ذلك الحادث المروع .

لقد قرأت عليكم أقوال المتهمين فى التحقيق وغيرها من وثائق المحاكمة . وما نهضت الأدلة قط بأكثر من نهوضها على ذلك الجرم الذى عهد اليكم بالحكم على مرتكبيه الأوغاد ، فان أقوال الشهود ، واعتراف القاتل وشركائه ، كلها قد اتحدت لترسل ضوءا مرعبا على ذلك الاغتيال الشنيع .

سأستعرض الوقائع بسرعة، وأكبح جهد الاستطاعة ما تثيره من السخط ، فاتعلم أوربا بل ليعلم العالم كله أن الصدر الأعظم للدولة العثمانية ، وأن قوادها وجيشها بلغوا جميعا من الخسة والنذالة أن أرسلوا وغدا سفاكا ليقتل القائد الشجاع ، المنكود كليبر ، الذى عز عليهم قهره ، فأضافوا بذلك الى هزيمتهم جرمهم الشنيع ، ولوثوا به أنفسهم أمام العالم بأسره .

تذكرون سيل الترك الجارف الذى دفع به الوزير من الاستانة ومن أعماق آسيا الى مصر لينتزعها ، وتذكرون ما زعموه من ظفرهم بارغامنا على أن نخليها بمقتضى معاهدة منعهم حلفاؤهم (الانجليز) من تنفيذها .

فان فلول هذا السيل المتوحش ما كادت بعد سحقها فى ميادين المطرية وهليوبوليس تعود مخذولة الى القفار حتى تجاذبتها صيحات اليأس والنقمة من كل ناحية ، وحتى أغرق الوزير مصر بفيض من التحريض على قتل الفرنسيين قاهريه .

كانوا يريدون إذا أن يصبوا جام نقمتهم على قائدنا العام .

وفى الوقت الذى يشعر فيه شعب مصر الذى أضلته سعايات الوزير، برفق الفاتح وكرمه ، وفى الوقت الذى نحسن فيه معاملة الأسرى من الاعداء ونداوى جرحاهم فى دورنا ، — فى هذا الوقت ينفذ الوزير مشروعه الفظيع .

وقد استعان الوزير على تنفيذ مشروعه بآغا وغد ، وهبه ثمنا للجريمة التى اقترحها عودته الى حظوته ، وإنقاذ رأسه الذى كان قد حكم بقطعه من قبل

كان أحمد آغا سجينا فى غزة منذ سقوط العريش ، فنقل الى بيت المقدس بعد هزيمة الوزير ، وسجن فى منزل واليها ، ولبس فى سجنه يشتغل بتدبير ذلك المشروع الدنىء .

سليمان الحلبى شاب فى الرابعة والعشرين لا ريب أن نفسه قد تلوثت بالجريمة من قبل ، تقدم الى الآغا يوم وصوله الى بيت المقدس ، والتمس منه الحماية ، وأن ينقذ والده التاجر بحلب من عسف واليها ابراهيم باشا ، ثم عاد اليه فى اليوم التالى .

وقد أسفر التحقيق فى شأن هذا الفتى المتعصب عن أنه كان يدرس ليكون فقيها فى مسجد، وأنه حج الى بيت المقدس، وحج قبل ذلك الى مكة والمدينة، وأن حمى الحماسة الدينية قد عصفت بتلك الرأس التى أضلتها النظريات الخاطئة عن كمال الاسلام حتى غدا يعتقد أن ما يسميه المغازاة وقتل الكفار هو خير الحسنات وأسماها .

لم يتردّد أحمد آغا حينئذ فى أن يخاطبه بشأن المهمة التى يريد أن يعهد بها اليه، فوعده بالحماية والمكافأة، وأرسله الى ياسين آغا والى غزة، ثم أرسله اليه مرة أخرى ليتزوّد بالتعليمات الأخيرة والمال اللازم .

واندفع سليمان الذى فاضت مخيلته بجريمته الى الطريق على الأثر، وأقام عشرين يوما بقرية الخليل من أعمال فلسطين ينتظر ورود القافلة ليجتاز معها الصحراء، فلما عيل صبره عاد الى غزة فى أوائل شهر فلوريال الماضى ، فآواه ياسين آغا فى أحد المساجد ليذكى ضرام تعصبه ، وأخذ يتردد عليه خفية بالليل وبالنهار أثناء الأيام العشرة التى قضاها هنالك . ثم زوده بالتعليمات، ونقده أربعين قرشا تركيا ، وأركبه على هجين برفقة قافلة وصلت الى مصر فى ستة أيام .

فوصل مسلحا بخنجره فى أواسط شهر فلوريال الى مدينة القاهرة التى قضى فيها ثلاثة أعوام من قبل، وأقام بالأزهر طبقا للتعليمات، وأخذ يتأهب لتنفيذ الجريمة التى أرسل من أجل ارتكابها، بالدعاء الى الله، وبصلوات مكتوبة كان يعلقها على جدران المسجد .

وقد استقبله بالأزهر أربعة فقهاء من مواطنيه ، فأفضى اليهم بمهمته وأخذ يحدثهم عنها فى كل وقت، ولم يرده عنها ما أوضحوه له من الصعاب والمخاطر المقترنة بتنفيذها .

علم محمد الغزى، والسيد أحمد الوالى ، وعبد الله الغزى، وعبد القادر الغزى بسر هذا المشروع، ولم يفعلوا شيئا لمنع تنفيذه، فاصبحوا شركاء فى ارتكابه بصمتهم المستمر المقصود .

وقد لبث القاتل يتربص لفريسته فى القاهرة واحدا وثلاثين يوما ، ثم اعتزم أخيرا أن يذهب الى الجيزة ، وأفضى يوم ذهابه اليها بعزمه الى محمد الغزى أحد المتهمين .

والظاهر أنه وفق من كل وجه ، فان الجنرال غادر الجيزة غداة قدومه عائدا الى القاهرة ، فتبعه سليمان طول الطريق حتى أرغم رجال المعية على طرده مرارا ، غير أنه لم ينقطع عن مطاردة فريسته حتى استطاع أخيرا فى اليوم الخامس والعشرين من هذا الشهر أن يندس الى حديقة القائد ، ثم اعترضه ليقبل يده ، وتأثر الجنرال بمنظر بؤسه فلم يأنف من دنوه ، فانتهز القاتل فرصة عزلته وطعنه بخنجره أربع طعنات ، وعبثا حاول الوطنى پروتان المهندس وعضو المعهد العلمى أن يبادر الى انقاذه ، فقد ذهب اقدامه سدى وأصيب هو من يد القاتل بستة جروح أفقدته صوابه .

وهكذا سقط ذلك الذى خاض غمار حياة حربية ملؤها المخاطر والمجد ، ذلك الذى كانت تهابه أقدار الحرب ، والذى كان أول من جاز الرين على رأس جيوش الجمهورية ، والذى انتزع مصر مرة ثانية من سيل العثمانيين الجارف — سقط صريعا و بلا دفاع أمام طعنات القاتل .

وماذا عسى أستطيع أن أضيفه الى الألم المبرح الذى أثاره فقده فى نفوسنا ! ان دموع الجند الذين كان لهم أبا شفيقا ، وأسف القواد الذين كانوا صحب أعماله ونخاره ، وحزن الجيش وذهوله ، وحدها خليقة بأن ترثيه .

لم يستطع القاتل سليمان أن يفلت من بحث الجند الناقمين ، فقبض عليه ملوثا بالدم وهو فى روع ووحشة ، وضبط خنجره ، فاضطر الى الاعتراف بجريمته ، وذكر أسماء شركائه ، بل يلوح لى انه يغبط نفسه على الجرم الشنيع الذى ارتكبه لأنه أثناء التحقيق وأثناء العذاب كان يبدى جلدا هائلا هو فى الغالب شطر من ضرام التعصب .

وقد اعترف الشركاء أيضا بعلمهم بمشروع الجريمة التى تمت بصمتهم .

ومن العبث أن يزعموا انهم اعتقدوا انّ سليمان لا يستطيع مطلقا أن ينفذ عزمه ، وانهم لو اعتقدوا لحظة فى صدق نيته ما تأخروا عن كشفها . ان الوقائع تكذبهم، فقد استقبلوا القاتل، ورحبوا به، ولم يردوه عن قصده إلا لخوفهم على أنفسهم، فهم شركاؤه، ولا عذر لهم .

ولست أتكلم عن مصطفى افندى، فانه ليس ثمة دليل على ذلك الشيخ يسمح باعتباره شريكا .

أما نوع العقوبة التى يقضى بها على المتهمين فأتركه لرأيكم، غير انى أعتقد انه يجب عليكم ألا تقضوا بعقوبة لا يسوغها عرف البلاد وان كانت فداحة الجرم تستدعى أن يكون العقاب هائلا . ولا بأس من الاعدام بالخازوق ، ولكن لتحرق يد ذلك الآثم قبل كل شيء، ثم ليزهق بعد ذلك فوق خازوقه، ولتترك جثته حتى تلتهمها الجوارح .

أما الشركاء فمهما يكن من فداحة ذنبهم، فيلوح لى أنه يجب أن يكون عقابهم أخف من عقاب القاتل ، ويكفى أن يحكم عليهم بالموت البسيط طبقا لما هو متبع فى مصر، وهذا هو ما اقترحه عليكم .

فليسمع الوزير ، وليسمع العثمانيون البرابرة فى رعب وروع خبر القصاص الذى أنزل بذلك الوحش الذى اجترأ أن ينفذ مشروع انتقامهم . حقا إن جرمهم يحرم جيشنا من رئيس يبقى فقده دائما موضع دموعنا وحسراتنا، ولكن ليبأسوا اطلاقا من دحض شجاعتنا، فان خلفه الشجاع البطل سيعرف كيف يقودنا الى النصر . وان الأنذال لم يخجلوا من أن ينتقموا لهزيمتهم بجريمة لم يشهدها التاريخ ، على أنهم لن يجنوا من ذلك التوحش سوى الخزى واحتقار العالم بأسره .

وانى ألخص طلباتى طبقا لما تقدّم فيما يأتى (١) الحكم بادانة المدعو سليمان الحلبى فى مقتل القائد العام الجنرال كليبر، وبأن تحرق يده اليمنى، ثم يعدم على الخازوق، وتترك جثته حتى تلتهمها الجوارح (٢) وان يقضى على كل من محمد الغزى،

والسيد أحمـد الوالى، وعبد الله الغزى، وعبد القادر الغزى بقطع الرأس (٣) وان ينفذ هذا الحكم عقب تشييع جنازة القائد العام بحضور رجال الجيش وأهل البلاد (٤) وأن يقضى ببراءة مصطفى أفنـدى وأن يخلى سـبيله (٥) وأن تطبع أوراق القضية بالعربية والتركية والفرنسية ثم تعلق على الجدران فى أنحاء البلاد المصرية .

القاهرة فى ٢٧ بريريال سنة ٨ للجمهورية الفرنسية .

الامضاء : سارتلون

وبعد أن تمت مرافعة المقرر، وقرئت أوراق التحقيق ثانية، أحضر المتهمون الى قاعة الجلسـة دون أغلال وسألهم رئيس المحكمة الجنرال رينييه بحضور وكيلهـم المترجم لوماكا عدّة أسئلة أخيرة فلم يغيروا شيئا من أجوبتهم السابقة، ثم سألهم إن كان لديهـم ما يبرئون به أنفسهم فلم يجيبوا بشىء، فعنـدئذ أمر الرئيس باخلاء الجلسة من الحضور، واختلت المحكمة للمداولة، ثم عادت الى الانعقاد، وأصـدرت حكمها بادانة كل من سليمان الحلبى ومحمد الغزى وعبد الله الغزى وعبد القادر الغزى والسيد أحمد الوالى، وبراءة مصطفى أفنـدى البورصلى واطلاق سراحه، وقضت على المحكوم عليهم بالعقوبات الآتية :

(١) أن تحرق لسليمان الحلبى يده اليمنى ثم يعدم فوق الخازوق، وتترك جثته فوقه حتى تفترسها الجوارح، وأن يكون ذلك خارج البلد فوق التـل المعروف بتل العقارب، وأن يقع التنفيذ علنا عقب تشييع جنازة القائد العام .

(٢) أن يعدم عبد القادر الغزى على الخازوق أيضا وأن تصادر أمواله من عقار ومنقول لحساب الجمهورية الفرنسية .

(٣) أن يعدم كل من محمد الغزى وعبد الله الغزى وأحمد الوالى بقطع الرأس، ثم توضع رؤوسهم فوق الرماح، وتحرق جثثهم بالنار وأن يكون ذلك فوق تل العقارب أيضا وأمام سليمان الحلبى قبل أن ينفذ فيه الحكم .

وقرئ الحكم على المتهمين بواسطة المترجم لوماكا، وكان ذلك فى اليوم الثامن والعشرين من شهر بريريال . فيكون جملة ما استغرقته هذه القضية من تحقيق ومحاكمة هو أربعة أيام فقط .

* * *

وفى اليوم التالى — الأربعاء ٢٦ محرم سنة ١٢١٥ — تأهب الفرنسيون لدفن قائدهم القتيل فشيعوا جنازه فى موكب حافل يصفه الجبرتى بما يأتى : اجتمع عساكرهم وأكابرهم ووفد عينه الأقباط والشوام وخرجوا بموكب مشهده ركبانا ومشاة ، وقد وضعوا الجثة فى صندوق من الرصاص مسنم الغطاء، مغطى بالقطيفة السوداء، ووضعوه فوق عربة ، وعليه خوذة القتيل ، وسيفه ، والخنجر الذى قتل به وهو ملوث بدمه ، ورفعوا فى أركان العربة الأربعة أربعة أعلام صغيرة مجللة بالسواد ، وتقدمته الموسيقى تضرب أنغاما محزنة ، وقد غطت الطبول بالسواد، وسار الجند يحملون البنادق، منكسة ، وقد وضع كل منهم على ذراعه شارة سوداء . ولما ابتدأت الجنازة بالتحرك أطلقت مدافع وبنادق كثيرة، ثم ابتدأ الموكب بالسير من حى الأزبكية الى باب الخرق (باب الخلق) فدرب الجماميز، فالناصرية، فلما وصلوا الى تلك العقارب بالقرب من القلعة التى بنوها هنالك أطلقوا عدّة مدافع أخرى ، وكانوا قد أحضروا سليمان الحلبى وزملاءه فنفذوا فيهم الحكم بحضور الجند والأهالى، ثم استأنف الموكب سيره حتى وصل الى باب قصر العينى وهنالك واروا الصندوق فى كثيب من التراب، وأحاطوا مكانه بسياج من الخشب غطوه بالقماش الأبيض وزرعوا حوله أعواد السرو ، ونصب على القبر جنديان مسلحان يتناوبان حراسته ليل نهار[1] .

---

(١) ج ٣ ص ١٤٠ (الطبعة العادية) ، ولكن الحقيقة أن تنفيذ الحكم لم يقع إلا بعد تشييع الجنازة طبقا لقرار المحكمة ، فرواية الجبرتى خاطئة فى القول بتنفيذه قبل اتمام الدفن .

* * *

هذه هى قصة مقتل قائد الفرنسيس فى مصر وقصة محاكمة قاتله ، وهى صفحة لا غبار عليها فى تاريخ الحملة الفرنسية المصرية ، بل هى صفحة ناصعة من صحف العدالة فى ذلك العصر الذى غلبت فيه الفوضى كل قانون وكل شريعة ، واستبيحت الأنفس والأموال والحرمات .

قتل كليبر وأعترف قاتله ، فعوقب بالموت ، وعوقب بعد محاكمة قانونية روعيت فيها الاجراءات الصحيحة ، والعلانية التامة ، وقام بالمحاكمة رجال من القادة والرؤساء المفكرين ، كانوا أثناء المحاكمة كلها مثال الرزانة وضبط النفس ، بل مثال النزاهة والعدالة .

مثال الرزانة وضبط النفس لأنهم نظروا الى القضية فى ذاتها . ولم يتخذوا من الاعتداء على قائدهم الأعلى حجة للنكال والبطش بخصومهم وأعدائهم من المصريين والمماليك .

ومثال النزاهة والعدالة لأنهم كقضاة راعوا تطبيق الاجراءات والنصوص القانونية ، بل راعوا عرف البلاد ولم يستعملوا الاكراه والعنف أو الاغراء والخديعة لينتزعوا اعترافا من القاتل أو شركائه . وقد يؤخذ عليهم انهم أحالوا القاتل وبعض شركائه الى التعذيب عند الانكار ، ولكن التعذيب بالجلد وغيره كان أمرا ذائعا فى التحقيق الجنائى بمصر وبلدان المشرق فى هذا العصر ، بل ان التعذيب بأروع أشكاله كان قبل ذلك بنصف قرن جزءا من الشريعة الفرنسية ، ولم يلغ إلا أيام الثورة الفرنسية .

وأما القضاء بالاعدام على المشايخ الأربعة كشركاء للقاتل فقسوة لا ريب فيها ، ولكنها قسوة القانون ، لأن المحكمة طبقت فى ذلك القانون الفرنسى القديم الذى ينص على اعتبار من يمتنع عن التبليغ عن مؤامرة تدبر ضد سلامة الدولة أو ضد

الأمراء والحكام شريكا للفاعل الأصلى، وينص على عقابه بنفس العقوبة ، وقد اعترف المشايخ بعلمهم بالجريمة قبل وقوعها [1] .

واذا لاحظنا فى النهاية أن هذا الاعتداء الفادح قد وقع على أكبر رأس فى الجيش الفرنسى فى مصر، وأنه وقع فى وقت تحرج فيه مركز الفرنسيين، واشتد الجفاء بينهم وبين المصريين ، وأن فقد الجيش لقائده الأعلى فى ذلك الظرف الدقيق كان عاملا فى تسرب الوهن والاختلال الى صفوفه، استطعنا أن نقدر اعتدال أولئك الجند القضاة ونزاهتهم وعدالتهم حق قدرها .

بل لقد قدرها من قبل شهودها ومعاصروها ، فان الجبرتى لم يملك نفسه من أن يشيد بها وأن يصح متأثرا بعدالة لم يرها فى قوانين البلاد وقضائها [2] .

مراجع هذا الفصل

Receuil des Pièces relatives à la Procédure et Jugement de Soleyman el Haleby, Assassin du général en Chef Kléber.

(وهى مجموعة التحقيقات الرسمية التى اذاعتها القيادة الفرنسية يومئذ بالفرنسية والعربية والتركية)

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى .

ذكر تملك جمهور الفرنساوية للأقطار المصرية والبلاد الشامية للمعلم نقولا الترك .

---

(١) نذكر ان نفس هذا القانون طبق فى محاكمة سان مار وشريكه دى تو (الفصل السابع من الكتاب الثانى) . وهذا أيضا هو نص القانون الأنجليزى الذى صدر فى عهد الملكة اليزابيث ، وطبق على مارى استوارت (الفصل الثالث من الكتاب الثانى) .

(٢) يمتدح الجبرتى اجراءات المحاكمة ويقارنها بعسف الترك قائلا : « (وهذا) بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر (الترك) الذين يدعون الأسلام ويزعمون أنهم مجاهدون ، وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الأنسانية »

الفصل الثالث

محـاكمة الدوق دنجين

سـنة ١٨٠٤

لمـا هدأت العواصف الأخيرة للثورة الفرنسية وقبض نابليون بوناپارت على ناصية السلطان والحكم، وانتخب قنصلا أبديا، لبث آل بوربون فى خارج فرنسا، وأنصارهم فى داخلهـا يدبرون لسحق المتغلب سلسلة لا نهاية لهـا من المؤامرات والدسائس، وكانت انجلترا محط رحال أولئك الأمراء الذين شردتهم الثورة، ونزعتهم ملكهم وسؤودهم وترفهم، تذكى نقمتهم وتزودهم بالتحريض والمـال . وكان نابليون يشـعر، وهو فى أوج ظفره وسلطانه، أنه لا يزال يرتطم بسيج خطرة من دسائس أولئك الأعداء الذين لا يرى منهم سوى الاشباح تنذره فلا يسـتطيع أن يناضلها فى ميدان الجهر .

وكان النبلاء من جهـة أخرى، وقد شردتهم الثورة وسلبتهم نعماءهم، يجتمعون فى بعض الأقاليم الألمـانية منذ بدء الثورة، وهم يرقبون ساعة الخلاص والعودة الى أوطانهم . ولكن نابليون كان يبغض النبلاء ويخشاهم، فاستطالت غربتهم وآلامهم . وكان حقا أن تطول هـذه الآلام لأن أولئك النبلاء الذين لم يروا أن يذعنوا لسير الحوادث والظروف، ولم يفكروا الا فى الاحتفاظ بما تقلبوا فيه على كر العصور من صنوف البـذخ والنعيم التى اعتصرت من لحم الشعب ودمـه، قد خذلوا فرنسا — وطنهم — فى أشد المآزق، وقاتلوها الى جانب أعدائها فى أشد ساعات الخطر .

بيد أن بوناپارت لم يكن يقدر هـذه الاعتبارات فى بغضه للنبلاء، وانما كان يخشى من دسائسهم على سلطانه قبل كل شيء .

وكان المهاجرون من نبلاء وغيرهم من أعداء الثورة قد أنشأوا من أنفسهم منذ سنة ١٧٩١ جيشا ليحارب إلى جانب أعداء فرنسا أملا فى سحق الثورة، واعادة الملوكية . ولكن أعداء فرنسا كانوا يرمون الى سحق فرنسا قبل كل شىء ، ولم يعنوا كثيرا بأمر أولئك الخوارج على وطنهم ولم يسندوا اليهم فى الحرب أدوارا فعالة ، فكان المهاجرون بذلك بين مرارة الخروج على وطنهم وما استحقوه من جراء ذلك من وصمات الغدر والخيانة، ومرارة الزراية التى يعاملون بها فى غربتهم، هذا الى ما يعانونه من مضض الحرمان والحاجة .

ومع ذلك فقد استطاع الملكيون أن يدبروا عدة محاولات خطيرة لقتل بونابارت أو اختطافه فى قلب باريس ذاتها . ولكنها فشلت جميعا، ولم تزد القنصل الأول الا سخطا على أعدائه وحذرا منهم .

وكان أعظم هذه المحاولات مؤامرة كبرى دبرها النبلاء فى سنة ١٨٠٣ ، فى لندن . وكان روحها الكونت دارتوا أخو لويس السادس عشر. وكانت الحكومة الانجليزية تشرف على تنظيمها ،وتقدم الأموال اللازمة لتنفيذها . وكان أقطابها جورج كادودال وهو من الزعماء الملكيين ، والجنرال پشجرو أحد قواد الثورة الأسبقين ، والجنرال مورو أحد قواد بونابارت . وكان غاية هذه المؤامرة كغاية كل محاولة سابقة أعنى قتل بونابارت ، واعادة البوربون الى العرش .

ولكن المؤامرة اكتشفت كسابقاتها فى يناير سنة ١٨٠٤ ، فقبض على مورو وپشجرو وكادودال فى باريس بعد أن اختفوا بها أشهرا ، واعترف كادودال أثناء المحاكمة انه كان ينتظر قدوم أمير من الأسرة الملكية لينفذ المهمة التى أسندت اليه وهى قتل القنصل الأول ، ولكنه لم يذكر اسم أمير معين .

ولم يك ثمة شك فى أن البوربون هم روح هذه المحاولات كلها . وهذا ما كان يعلمه بونابارت حق العلم . وقد حاول بونابارت مرارا أن يستميل آل بوربون ، وأن يستنزلهم حقوقهم . وجرت بينه وبين الكونت دى پروڤانس ، أخى لويس

السادس عشر، الذى كان يتسمى بلويس الثامن عشر، مفاوضات ومراسلات فى هذا الشأن . ومما كتب اليه :

«ليس لك ان تؤمل عودتك الى فرنسا ، فانه عندئذ يجب عليك أن تسير فوق مائة ألف جثة . فضح بمصلحتك حبا بسلام فرنسا وسعادتها ... فيسجل التاريخ لك هذه اليد .

« لست جامد العواطف ازاء ما أصيبت به أسرتك من الارزاء ... بل انى ليسرنى ان أعمل لراحتك، وتخفيف غربتك » .

وكان نابليون يفكر أن يبعد آل بوربون نهائيا عن العرش ، ويرى أن يشترى بالمال حقوق لويس الثامن عشر،ولكنه أخطأ تقدير نفسية الكونت دى پروڤانس وإبائه ، إذ أجاب الكونت على هذا الاقتراح المهين بالرفض المطلق وخاطب رسول القنصل الأول بما يأتى :

«لست أشبه المسيو بوناپارت بأولئك الذين سبقوه ، بل انى أقدر قدره ومواهبه الحربية، وأذكر له بالمديح كثيرا من الاصلاحات الادارية ، لأنى أغتبط دائما بكل ما تصيب بلادى من الخير، بيد انه يخطئ اذ يعتقد انه يستطيع حملى على المساومة فى حقوقى . بل الأمر بالعكس اذ هو يقررها بهذا المسعى ، اذا كان ثمة فيها نزاع» .

فأثار هذا الرد حماسة الأمراء وأيدوه جميعا بكل قواهم ، وازداد بوناپارت غضبا وسخطا لهذا الاخفاق .

وكان ذلك قبيل اكتشاف المؤامرة المذكورة بأشهر قلائل ، وكان نابليون يعرف من شرطته ورسله السريين ان مدبرها هو الكونت دارتوا ، ولكن الكونت دارتوا أنشط آل بوربون فى مقارعة القنصل الأول ، كان فى منفاه بعيدا عن نقمة خصمه القوى . فحاول نابليون أن يحمله على القدوم الى فرنسا بوسائل ومحاولات عديدة ، ولكن الكونت كان على قدم الحيطة والحذر، فلم تنجح فى اغوائه أية حيلة .

وكما رد زعماء الارهاب أيام الثورة على خصوم الثورة حينما هموا بغزو فرنسا باراقة دم الملوكية فى شخص لويس السادس عشر ومارى انتوانيت، فروعوا بذلك دعاة الملوكية داخل فرنسا وخارجها، كذلك كان بونابارت يتوق الى اراقة دم ملوكى جديد يروع خصومه، ويفت فى دسائسهم وعزائمهم .

يقول تيير : «كان القنصل الأول يسخطه ان لم يظفر بأحد من أولئك الأمراء الذين يدبرون موته، ويسرح بصره أينما وجدوا ... أن يروع الملكيين ويفهمهم أنه لا يعتدى على رجل مثله دون عقاب ، وأن يعرفهم ان دم البوربون لم يكن فى نظره أثمن من أية شخصية كبيرة فى الثورة، — تمكنت منه هذه الفكرة وغيرها مما يمثل فيه الانتقام وكبرياء الظفر[1]» .

* * *

وكانت جماعة من الأمراء والنبلاء المهاجرين ما زالت تقيم فى اقليم باد بالقرب من الالزاس وعلى رأسها الدوق دنجين سليل آل بوربون ومن أبناء عمومة لويس السادس عشر . وكان الدوق فى ايتنهايم يرقب الحوادث فى وحشة وكآبة . ولم يكن قد جاوز الثلاثين ، ولكن أعوام حداثته وفتوته تقضت كلها فى غمار داهمة من الخطوب والآلام .

فمنذ فاتحة الثورة، أعنى فى يولية سنة ١٧٨٩ غادر جده البرنس دى كوندى وأبوه الدوق دى بوربون و باقىأسرته أرض فرنسا ناجين بأرواحهم، واضطر الدوق دنجين منذ الحداثة ، أن يهجر قصر أسرته البـاذخ حيث ولد وترعرع فى أحضان الحياة الناعمة، وأن يذوق مرارة الغربه، وشظف العيش، وأن يخوض حياة الغمار والخطوب، الى جانب جده الذى التف حوله النبلاء الفارون وأقاموه زعيما وقائدا للجيش الذى نظموه منذ سنة ١٧٩١، لمحاربة الثورة واعادة الملوكية .

ولكن الأعوام توالت، والثورة مازالت فى اضطرام وتقدّم، وجيوشها مازالت فى ظفر فى الداخل والخارج، والأمراء أثناء ذلك يجوبون عواصم الدول المتحالفة

(١) تيير : Hist. du Consulat et de L'Empire (الكتاب الثامن عشر)

يدبرون محاولة بعد أخرى ومشروعا بعد آخر، حتى جاء بوناپارت ، فحطم أعداء فرنسا وأنهارت بذلك كل آمال يعلقها الأمراء والنبلاء على الحرب والسياسة ، ولم يبق لهم إلا سبيل الظلام والغيلة .

وقد عمدوا الى هذا الطريق ، كما رأيت ، ولكنهم لاقوا الفشل أيضا فى محاولات عدّة، وما زال نجم القنصل الأوّل فى تألق، ونجم خصومه فى ازورار .

وكان دوق دنجين الفتى يقيم منذ أعوام قلائل فى ايتنهايم ، وكان لمكثه هنالك باعث خفى دقيق . ذلك أن قبسا من ضوء الحب الناعم أشرق فى قلبه خلال الآلام والظلمات . وكانت الاميرة الفتاة شرلوت دى روهان تقيم هنالك فى قصر عمها الكردينال دى روهان بطل حادثة عقد الملكة حينما جىء بالدوق دنجين ذات يوم مريضا الى القصر ليعنى به ، وكانت تربطها بالدوق صلة قرابه ، وتعرفه منذ الحداثة ، فقضت الى جانب سرير مرضه أسابيع طويلة ، وسرى أثناء ذلك الى قلبيهما هوى مبرح . وتعاهدا على الزواج والحب الخالد . ثم عاد الدوق الى عمله فى ميدان الحرب . فلما حل جيش المهاجرين سنة ١٨٠١ ، عاد الدوق الى ايتنهايم وأقام هنالك فى منزل شاسع بسيط ، يتعهد حديقته وأزهاره .

وكان الأمير الشيخ دى كوندى يعارض فى زواج حفيده من الأميرة شرلوت ، ليعقد له زواجا رابحا . ولكن الدوق دنجين كان قد وهب قلبه لحبيبته وأعتزم أمره نهائيا ، فتزوج من الأميرة شرلوت سرا ، وأشرقت على حياته القاتمة بارقة أمل وسعادة ، واستمر يقضى أيامه فى ايتنهايم بين الازهار والصيد .

ولكن الدوق دنجين لم ينس الغاية التى يجب أن يعمل لها مع جميع الأمراء والنبلاء الفارين ، فلبث متصلا بالحكومة الانجليزية ، على يد رسلها ، ولبث رهن خططها وأوامرها ، «معتقدا انه عما قريب يجب أن يشهر الحرب على وطنه ، وهو دور مؤلم كان يؤدّيه منذ أعوام» [1] .

---

(١) تيير فى كتابه السابق الذكر .

وكان القنصل الأول (بوناپارت) يتجه ببصره نحو ايتنهايم ، ويرقب حركات الدوق دنجين ، ويحيطه بطائفة سرية من رسله وجواسيسه ، يقدمون عنه وعن حياته مختلف التقارير ، ويراقبون رسائله الى أصدقائه فى فرنسا ، وكان قد ذاع قبل ذلك أن الدوق يؤم شتراسبورج فى بعض الأحيان متنكرا ، بل قيل أنه كان أحيانا يزور باريس خلسة فلا يدرى به أحد . وكان بوناپارت يضطرب لهذه الأنباء . ولكنه لم يظفر قط بدليل كتابى أومادى يؤيد اشتراك الدوق فيما يدبر لاغتياله من مختلف المحاولات والدسائس .



نابليون ، القنصل الأول

ولكن ألم يثبت التحقيق فى المؤامرة الملكية ان المتآمرين كانوا ينتظرون قدوم أمير من الأسرة الملكية الى باريس لتنفيذ مشروعهم فى قتل القنصل الأول؟ فالمرجح أن هذا الأمير انما هو الدوق دنجين الذى يقيم على مقربة من باريس ، ولا يثنيه الخطر الذى يهدد حياته من جراء هذا الاقتراب عن البقاء فى اتنهايم ، ولا بد أنه يعمل لاثارة حرب أهلية جديدة ، ومهاجمة فرنسا مرة أخرى .

هذا ما افترضه القنصل الأول (بوناپارت) ، وهذا ما حاول عيونه على الدوق اثباته فى تقاريرهم . وفى مارس سنة ١٨٠٤ ، قدم اليه تقرير جديد جاء فيه ان الدوق يجتمع فى منزله بالجنرال ديموريه[١] (أحد قواد الثورة السابقين) ، ورسول انجليزى ، وأنه أرسل

(١) ينفى تتير قدوم الجنرال ديموريه الى اتنهايم ، ويقول ان جواسيس بونابارت وقعوا فى خطأ مادى يتعلق بالاسم ، فقد كان ثمة من أصدقاء الدوق شخص يدعى المركيز «تومرى» ولكن خيل اليهم من النطق الألمانى المحرف ان المركيز هو ديموريه ، خصوصا وانهم لم يروه من قبل .

كثيرا من الكتب الى الضباط المهاجرين ، وأن ثورة كبيرة على وشك الحدوث فى فرنسا .

وكان ورود هذا التقرير لأسابيع قلائل من اكتشاف المؤامرة الملكية . وكان أثره شديدا فى نفس بونابارت ، فآثر لفوره ان يؤمن بما فيه ، واعتقد أن هنالك صلة مباشرة بين المؤامرة الملكية وبين قدوم ديموريه صديق بيشجرو الحميم الى ايتنهايم ، واعتزم أن ينزل بآل بوربون ضربته الرهيبة فى شخص الدوق دنجين ، وأن يكون رمز نقمته ، وعنوان الدم الملكى المراق . ويروى أن بونابارت صاح عندئذ بتاليران وزير الخارجية وريال مدير الشرطة : «عجبا أيها السادة ، هل اعتبر كلبا اذن فلا يُسهر على سلامتى الى هذا الحد؟ وماذا يعمل البوليس ، وكيف خفى عنه قدوم ديموريه الى ايتنهايم؟ أهكذا اخدم ؟ لعمرى لقد حان الوقت الذى يجب أن تسدد فيه الضربة الحاسمة » ، وأنه قال أيضا : «ان ما يجرى فى عروقى ليس بالماء ، وانما هو الدم ... فاذا كان البوربون يريدون اهدار دمى ككلاب ، فسوف نرى ، وان دمى لغال كدمهم » .

وفى الحال عقد بونابارت مجلسا حربيا تقرر فيه اعداد حملة لاعتقال الدوق دنجين أو بالحرى لاختطافه لأن الدوق كان يقيم فى أرض أجنبية هى ولاية باد الألمانية واحضاره الى باريس ومحاكمته . ولم يحجم القنصل الأول عن ارتكاب مثل هذا الاعتداء على أرض أجنبية ، معتزما أن يرضى مختار باد بالاعتذار اذا اقتضى الأمر .

ونظمت الخطة على الأثر ، وأعدّت حملة قوية من الفرسان والشرطة تبلغ زهاء أربعمائة وعهد بقيادتها الى الجنرال أوردنر ، فوصلت الى شتراسبورج فى ليلة ١٣ مارس ، وتفاهم قائدها مع مدير الشرطة ، ووقف من طلائعه على ما كل أراد معرفته عن الدوق ، وفى اليوم التالى تأهب لتنفيذ الخطة ، ونما الخبر الى الدوق من بعض الأصدقاء ، فلم يؤمن به لأنه كان يقيم فى بلد محايد ، ومن الصعب أن تقدم الجنود الفرنسية على انتهاك أرضه ، غير أنه سمح لبعض أصدقائه بالبقاء الى جانبه . وكان ذلك مساء ١٤ مارس ؛ ففى الفجر دوت ساحة الدار بقصف السلاح فوثب الدوق

الى بندقيته وفتح نافذته فرأى الشرطة يتسلقون الجدران، وهالته كثرة الهاجمين؛ واقتنع بعبث الدفاع . وفى الحال تقدم مدير الشرطة ، وأمر باعتقال الجميع مبالغة فى الحيطة لأنه لم يكن يعرف الدوق بالذات، وسارت الكوكبة بالأسرى . ووصل الدوق الى شتراسبورح فى عصر ١٥ مارس، وبادرت زوجه الأميرة شرلوت تسعى لانقاذه ، ولكنه نقل الى باريس فى ١٨ مارس ، وذهب كل سعى لانقاذه عبثا .

وكان الدوق يعتقد أنه متى قابل القنصل الأول استطاع أن يثبت براءته بأيسر أمر، ولكنه أخذ توا الى قلعة ڤنسان، وأصدر القنصل الأول فى مساء نفس اليوم أوامره بشأنه الى الجنرال مورات حاكم باريس ، وهى أن ينتدب فى الحال لجنة حربية عين أعضاءها، لاستجواب الدوق ومحاكمته، ويجب أن تتم مهمتها فى نفس الليلة، «فاذا صدر الحكم بالاعدام، وهو ما لا يشك فيه، فيجب أن ينفذ فى الحال، وأن يدفن المحكوم عليه فى إحدى ساحات القلعة» .

هذه هى الأوامر التى أصدرها القنصل الأول بخطه فى شأن الدوق دنجين ، وأرسل للسهر على تنفيذها رجله الأمين الكولونيل ساڤارى . وهى أوامر صريحة قاطعة فى وجوب اصدار حكم الاعدام على الدوق وتنفيذه على الأثر . ولكن القنصل الأول أصدر أمره فى نفس الوقت الى « ريال » مدير الشرطة أن يذهب الى ڤنسان ليستجوب الأمير أيضا ثم يبلغه مايجيب به . ولكن هذا الأمر لم ينفذ كما سيجئ، وسنرى أهميته فى تقدير المسئولية .

وعقدت اللجنة الحربية فى الساعة التاسعة من مساء نفس اليوم، وكان الأمير منهوكا، فنام بعد أن تناول عشاءه . ولكنه أيقظ بعدئذ بقليل، وبدأ مقرر اللجنة فى الحال باستجوابه فى سجنه ، فأجاب عما سئل ، واحتج بانه لايعرف ديموريه ولم يره فى حياته قط وليست له علائق بالجنرال بيشجرو، واعترف بأنه يتناول مرتبا صغيرا من الحكومة الانجليزية بوصفه قائدا لجيش الرين. وكتب فى ذيل المحضر يطلب مقابلة القنصل الأول بالحاح. فعاد المقرر الى اللجنة، وتلا عليها ورقة الاتهام وفيها ينسب

الى الدوق دنجين أنه اشترك فى المؤامرات التى تدبر ضد سلامة الجمهورية ، ثم تلا أقوال الأمير . وكان هذا كل مافى القضية ، ولم تك ثمة وثائق ، ولم تسمع شهود . ثم جىء بالأمير من سجنه أمام اللجنة فلم تحصل مناقشة ، ولم يعين أحد للدفاع عن المتهم ، ثم أعيد الأمير الى سجنه قبل صدور الحكم . وكان الحكم معدا من قبل ، ولم يفعل رئيس اللجنة سوى أن تلاه فى صمت ووحشة .



الدوق دنجين

وكان الحكم بالاعدام . وهل كانت ثمة عقوبة أخرى ينطبق عليها أمر القنصل الأول ، وتتفق مع غايته ؟ وهل كان ثمة سبيل أخرى لارهاب الملكيين والمهاجرين سوى الدم الملكى المراق ؟

حكم القضاة بالاعدام ، ولكن معظمهم رأى نظرا لظروف القضية أن يعرض الحكم على القنصل الأول التماسا للرأفة ، وأن يرسل الأمير اليه ليسمع اقواله بنفسه ، ولكن أوامر بونابارت كانت قاطعة صريحة ، وكان ساڤارى هنالك يسهر على تنفيذها ، فحال دون تأجيل التنفيذ أو مراجعة القنصل بأى وجه .

وكان قائد القلعة قد أصدر أمره بأن تعد فى احدى ساحات القلعة حفرة ؛ وكانت ثلة من الشرطة قد أمرت أن تعد بنادقها « لاعدام متآمر خطر أراد أن يعيد فى فرنسا فظائع عهد روبسپيير » فوقفت أمام الحفرة الفاغرة على قدم الأهبة .

وكان الأمير قد عاد الى نومه غير متصور مايخبئه له القدر ، بل لم يخطر فى ذهنه لحظة أن ماوقع من استجوابه ومثوله أمام اللجنة هو كل مافى المحاكمة ، وأن اللجنة إنما كانت تمثل مأساة موضوعة . ولكن لم يمض الا قليل حتى فتح باب غرفته فجأة ، ودخل رئيس اللجنة ودعاه الى اتباعه طالبا اليه أن يستجمع كل شجاعته . فأدرك الأمير الحقيقة لفوره ، وسار بخطى ثابتة حتى وصل الى حيث أقيمت سارية

الاعدام، وهنالك تلى عليه الحكم، فأخرج خصلة من شعره ورقعة كتبت بالرصاص وخاتما من الذهب، ورجا الليوتنان نوارو أحد الضباط الحاضرين أن يرسلها الى زوجه الأميرة شرلوت دى روهان . ثم جثا ورسم اشارة الصليب، لانه لم يؤت له بقسيس يباركه ثم نهض وقال : ما أروع أن يموت المرء هكذا بيد مواطنيه !

* * *

وتم بذلك ماأراد القنصل الأول، وزهقت نفس من آل بوربون، واريق دم ملكى، فعلى من تقع مسئولية الدم المسفوك — لأن دما سفك؟ أعلى القنصل الأول، وقد كانت أوامره قاطعة، ام على اولئك القضاة الجند الذين أصدروا حكمهم دون دليل ودون سند ؟ وهل تأثر القضاة بأوامر القنصل فالغوا تقديرهم وضمائرهم وارادتهم، أم اصدروا حكمهم بالرغم من ذلك مختارين عامدين؟ هذه مسألة تثير كبير جدل ، بين مترجمى نابليون ومؤرخى الامبراطورية . والرأى الغالب دائما هو القول بمسئولية القنصل الأول . ويستند أصحاب هذا الرأى الى أوامر نابليون بشأن المحاكمة أولا، ثم الى تصرفه ازاء « ريال » رغم اهماله لتنفيذ أوامره . فقد ذكرنا أن نابليون أصدر أمر الى « ريال » — وهو مدير الشرطة — أن يذهب الى ڤنسان لاستجواب الأمير، وأن يقف التنفيذ اذا دعت الحال . ولكن ريال لم يذهب الى ڤنسان، وزعم أنه كان منهوك القوى فأمر وصيفه ألا يوقظه، ولم يقرأ رسالة القنصل الأول الا فى الساعة الخامسة من الصباح، فوثب الى طريق ڤنسان مرتاعا ، ولكنه علم بانتهاء المأساة واراقة الدم . ويرى النقدة فى هذا النوم المزعوم مهزلة شائنة ، وأن ريال لم يذهب الى ڤنسان فى الوقت الملائم لأنه كان واجبا الا يذهب قبل تمام كل شىء . ودليلهم على ذلك ماورد بالأخص فى مذكرات منيڤال سكرتير ديوان نابليون وصفا لمقابلة ريال للقنصل الأول غداة المأساة . فهو يقول : « أدخل سڤارى الى مكتب القنصل الأول حيث كنت ، وسرد عليه بايجاز ماتم فى الحكم وفى التنفيذ، ولما علم القنصل الأول أن الدوق دنجين طلب مقابلته ، قاطع سڤارى وسأله عما تم فى أمر ريال، وهل ذهب الى ڤنسان . فلما علم أنه

لم يذهب لزم الصمت وأخذ يدور فى مكتبته وقد شبك ذراعيه وراء ظهره . وهنا أُعلن قدوم ريال . وبعد أن أصغى الى كلامه وتبادل معه بضع عبارات ، عاد الى تأملاته ، ولم يبد موافقة ولا نقضا ، ثم تناول برنيطته وقال « حسنا » ، وترك ريال دهشا مضطربا ... » . يقول النقدة فكيف يقف القنصل الأول عند هذا الحد فى مؤاخذة رجل أهمل تنفيذ أوامره فى مثل هذا الشأن الخطير ؟

وهذه هى نفس الرواية التى يقدمها تيير أعظم مؤرخى القنصلية والأمبراطورية ، فهو يقول « إن ريال اعتذر مرتجفا لأنه لم ينفذ الأوامر التى صدرت اليه . فلم يبد القنصل الأول استحسانا ولا لوما ، بل صرف أولئك المنفذين لإرادته ، واحتجب فى مكتبته ولبث هنالك وحيدا بضع ساعات» (1) . ولكن تيير يرى فى نفس هذا الأمر الذى أصدره نابليون الى ريال ولم ينفذ ظرفا مخففا لتبعته ، ويقول انه كان سبيلا للفرار من الطريق المروع الذى سلك ، ووسيلة لاصدار العفو عن الدوق ، وانقاذ القنصل الأول من خطأ شنيع . واذا كان ريال لم ينفذ هذا الأمر فى الوقت المناسب ، فان تأخيره لم يكن مقصودا ولم يكن جريمة مدبرة .

ويحاول تيير أن يعتذر عن نابليون ، ويقول إن الذين ألجأوه الى هذا التصرف هم المهاجرون الذين ناوءوا الثورة من قبل ، وغدوا آلات فى يد انجلترا وحربا على وطنهم ، ولكنه مع ذلك يعتبر مأساة ڤنسان خطأ شنيعا ، ويقول إن اعدام الدوق دنجين رغم كونه قد روع الأمراء والمهاجرين ، « قد أثار الرجال الشرفاء الذين رأوا حكومة كانت قدوة بديعة ، تغمس يدها فى الدم ، وتنزل فى يوم واحد الى درك أولئك الذين أعدموا لويس السادس عشر» ثم يقول : «إنه لشقاء غريب للذهن البشرى ، أن نرى هذا الرجل العجيب ، الذى يفيض ذهنه عظمة وعدالة ، ويفيض قلبه كرما ، يضطرم أيضا نحو الثوار صرامة ، ويحكم على اخطائهم دون اغضاء ، وأحيانا دون عدالة . وقد كان ينعى عليهم أنهم سفكوا دم لويس السادس عشر ووصموا

---

(1) تاريخ القنصلية والأمبراطورية ج ٤ ص ٦٠٧ .

الثـورة ، ولكنه ارتكب فى لحظة واحدة مثل العمـل الذى ارتكب على شخص لويس السادس عشر» .

ويحمل المؤرخ الانجليزى لوكهارت على نابليون بشدّة ، وينتقد اجراءات المحاكمة مر النقد، ويعتبر الحادث قتلا مدبرا ، ويقول : «سرعان ما سرى الروع الذى أثارته فى باريس هذه الفاجعة الصارخة الى أوربا ، ومن ذلك اليوم قرن اسم بونابارت الى الأبد بفكر الانتقام المنظم، والقسوة الصارمة . لقد دبرت مذبحة يافا فى بلاد نائيـة، وارتاب الكثيرون فى صدقها . ولكن هذا العمل الدموى ارتكب فى فرنسا، أمام باريس كلها ، فلم يك فى الحقيقـة من شك ... لقـد كان نابليون الى ذلك اليوم وارثا سـعيدا للثورة، ولكنه غدا من ذلك الحين ، لفظائعها ممثـلا شرعيا ورمزا (١) » .

* * *

ولكن البحث التاريخى ظفر أخيرا بوثيقة جديدة تلقى ضياء على هذه المأساة ، وهى مذكرة للبارون منيڤال، كتبها بخطه عن الحادث، وفيها يصف موقف نابليون إزاء المأساة حينما نبأه سڤارى باعدام الدوق دنجين . ولأقوال منيڤال أهمية خاصة، فقد لبث أمينا خاصا لنابليون مـدى أعوام طويلة ، وكان لزام أفكاره وتأملاته ، وأقرب الناس الى فهمها وادراكها . وكان فوق ذلك صادقا نزيها، يقول عنه تيير: « إن الكذب لم يطبع شفتيه قط » . وقد أذيعت هذه الوثيقة فى باريس فى العام المـاضى،وأذاعها حفيد للمركيز دى منفربيه صديق منيڤال؛ وكان منيڤال قد أهداه حافظة كان يقدم فيها الى الأمبراطور ما يريد أن يطلع عليه من الأوراق ، وفيها مذكرته عن حادث ڤنسان (٢) . وهذا بعض ما ورد فيها تعليقا على المحاكمة :

« هل كان يسوغ لرئيس المجلس العسكرى إزاء فقد الأدلة المادية متى رأى ادانة المتهم أن يقف تنفيـذ الحكم وأن يبلغ رأيه الى رئيس الحكومة ؟ ويجب أن نزيد

(١) فى كتابه : The History of Napoleon Buonaparte

(٢) نشرت هذه الوثيقة فى الملحق الأدبى لجريدة « الفيجارو » الباريسية فى ١٦ مارس سنة ١٩٢٩

أن الدوق طلب بالحاح كبير أن يحادث القنصل الأول . ولكن من سوء الطالع أن اعتراف الأمير أثناء استجوابه بأنه ينتظر فى اتهايم ما يصل اليه من الأوامر كان اتفاقا غريبا مع وقوع المؤامرة . ولا بد أن هذا الاعتراف قد بدا لضباط يطبقون نصوص القانون العسكرى بأشدها متأثرين بظروف خطيرة كهذه، سببا كافيا للادانة؛ ذلك لأن رجالا لهم ما لأعضاء هذا المجلس من شرف لا يذهبون فى النذالة الى حد النزول عن ضمائرهم أمام أمر دموى . ومن ثم فانه يشك فى كونهم لم يتصرفوا طبقا لضمائرهم .

« ينتج مما تقدم أن القنصل الأول كان غريبا عن حكم المجلس العسكرى وعن التسرع الذى اقترن به التنفيذ، وأنه لم يحط علما فى الوقت المناسب بطلب الدوق دنجين مخاطبته . فلما نبىء بصدور الحكم دون وجود المستندات التى قيل بوجودها وبالتنفيذ العاجل ، ولما نبىء بأن ريال الذى عهد اليه باستجواب الأمير لم يستطع القيام بهذه المهمة لأنه علم أثناء سيره الى ڤنسان بصدور الحكم واعدام الأمير، شهدتُ منه حركة سريعة تعرب عن الدهشة والغضب . ولبث غارقا فى تأملات عميقة لم تفارقه حتى غادر مكتبه دون أن ينطق بكلمة ، ذلك لأنه أدرك ما سيثيره ذلك الخطأ وتلك القسوة العقيمة نحوه فى الرأى العام من أثر سيئ .

« ولا بد أنه قد جرح أيضا لما حدث من التصرف فى حياة مثل هذا الأسير الخطير دون أن يرجع فى الشك الذى لا بد أن قام فى ذهن القضاة الى أوامره الأخيرة . فمن ذا الذى يستطيع أن يدرك ما حدث فى تلك اللحظة الرهيبة فى تلك النفس الغريبة العويصة ؟ ولكن لم تك ثمة وسيلة لاصلاح الخطأ، فرأى متأثرا بعاطفة كرامته وواجبه كرئيس الدولة، أن يحتمل مسئولية ما حدث، واكتفى بأن التزم الصمت المطبق نحو ذلك الحادث . . »

ويورد منيڤال أيضا فى مذكرته بعض تعليقات دونها الامبراطور بخطه وهو فى منفاه فى سنت هيلانه ، وفيها يبرئ قضاة المجلس الحربى من التأثر بأمر غير

ارادتهم ، وينكر بالأخص ما دونه الرواة بعد ذلك عن تدخل جوزفين (زوج نابليون) وابنتها هورتنس وكونهما تضرعتا اليه أن يستبق حياة الدوق دنجين ، و يقول ان ذلك محض افتراء ، لأن الدوق دنجين حوكم وأعدم فى ڤنسان قبل أن يعرف أحد حتى بنبأ القبض عليه .

والخلاصة أن منيڤال يبرئ القنصل الأول من تبعة دم الدوق دنجين و يرجعها الى قضاته ، و يؤكد أنهم حكموا ضمائرهم حرة فى اصدار حكم الاعدام . وفى وسعنا اذن أن نفهم المنظر الذى يصفه منيڤال فى مذكرته عن لقاء الامبراطور لرجاله غداة المحاكمة فى مكتبته ، فان نابليون أدرك فى الحال أن كل جدل عقيم وأن كل اعتراض أولوم ينال من هيبته ، وأدرك بالأخص أن ريال قد خدعه ؛ وريال يعقوبى قديم ظمئ الى دم البوربون ، فلما مثل أمامه ريال تحجب بقناعه الذى يستر به نزعاته وعواطفه فى أحرج المواقف ، وأيقن أن خيرا له أن يرفع الرأس كبرا ومهابة ، من أن يخفضها انكارا ودهشة .

على أن منيڤال لم يصف المنظر فى مذكراته على هذا النحو ، بل أخرج عنه رواية كرواية تيير التى ذكرناها . ويقال ان ذلك يرجع بالأخص الى تأثير صديقه الحميم تيير . وكان تيير قد كتب يومئذ روايته عن مأساة ڤنسان ، وقال ان نابليون لم يبد عند سماعها « لا استحسانا ولا لوما » وقال منيڤال إنه لم يبد «موافقة ولا اعتراضا» وتيير مؤرخ القنصلية والأمبراطورية ، وقوله فى نظر منيڤال هو التاريخ الفصل ، ونفوذه عظيم عليه . ولكن منيڤال يستسلم بعد ذلك الى ضميره ، ويجرى قلمه سرا بما يعرفه و بما يخالجه ، ويترك للتاريخ وثيقته الهامة لعل النقد النزيه والتقدير الصادق ينتفع بها يوما .

بيد أنه مهما قيل فى تخفيف التبعة التى تلحق نابليون فى هذه المأساة المروعة ، فمن الصعب أن نبرئه من تبعة الدم المسفوك أو على الأقل من تهمة التسرع والاندفاع فى سفكه .

كان اعدام الدوق دنجين جريمـة ، بل كان على قول تاليران أكثر من جريمة ، كان خطأ شـنيعا . فقـد ثارت أوربا الى أقصاها روعا وسخطا ، وتأثرت هيبة بونابارت فى فرنسا ذاتها ، وأسبغ الحادث سحابة على خلاله .

وأدرك نابليون نتيجة خطئه غير بعيـد ، وحاول فيما بعد أن يبرأ من تبعة الدم المسفوك ، وأن يلقيه على المجلس الحربى الذى تعجل الأمر ولم يصـبر حتى يجرى التحقيق الذى عهـد به الى ريال . كذا أشار فى وصيته الى الحادث ، فقـال إنه أمر بالقبض على الدوق دنجين ومحاكمته صونا لسلامة فرنسا وشرفها .

كان نابليون يمقت وسائل الارهاب وفظائعه أيام الثورة ، ولكنه لم يحجم حينما تعلق الأمر بسلطانه عن أن يلجأ الى هذه الوسائل الدموية التى كان يمقتها .

وكانت المحكمة الثـورية أيام المؤتمر تهـرول فى المحاكمات ، وتعجل الاجراءات والتنفيذ ، ولكن سجلاتها قلما تقدم مثلا فى روعته وشناعته كمأساة الدوق دنجين .

وقد سقط رأس لويس السادس عشر فوق النطع ، ولكن بعد محاكمة اضطرم فيها الرأى والجدل ، وكان للملك أنصار كما كان له خصوم ، وكانت الأدلة ناهضـة على إثمه .

ولكن محاكمة لدوق دنجين كانت مهـزلة ، بل كانت أكثر منها : كانت جريمة قضائية يذكى من هولها ثوب عدالة مغصوبة أريد ان يسبغ عليها .

مراجع هذا الفصـــل

Thiers: Histoire du Consulat et de L'Empire.

H. Robert: Grands Hrocès de L'Histoire.

Lockhart: The History of Napoleon Bounaparte

Le Figaro (Supplément Littéraire, 16 Mars 1929).

الفصل الرابع

مقتـــل پول لوى كوربيه

ســـنة ١٨٢٥

مضى قرن كامل على مقتل الكاتب الفرنسى الكبير كوربيه دى ميريه ، ونقرأ ونحن نكتب هــذه السطور أن الفرنسيين يحتفلون بذكراه المئــوية ، وأن الأندية العلميــة الفرنسية تفيض بتلك المناسبة فى ذكر مواهبه ومناقبه ، وتفيض الصحف فى تفاصيل مصرعه . ولهذه المناسبة أيضا ، نكتب سيرة هذا المفكر الكبير ، وبالأخص سيرة مقتله ، فقد كانت أيضا قضية كبرى (١) .

پول لوى كوربيــه احدى هــذه الطبائع الغريبة التى تتفجر مواهبها الى نواح عدّة ، وتنم نزعاتها عن شذوذ وخروج ، وتحتقر كل ما هو طبيعى ومألوف ، فقد كان فنانا ، وسائحا ، وباحثا متعمقا ، مولعا بدرس الآداب القديمة ، غير أنه كان فى نفس الوقت يؤثر الانزواء والعزلة ومقاطعة الحياة العامة ، بل كان يبغض الرجال ويحتقرهم ، ولا سيما العظماء منهم ، ويطوى أعوام حياته ناقما منهم ساخطا عليهم ؛ ونفسه فياضة بالأثرة ، والأهواء الوحشية ، وحب الاستقلال الكامن فى كل أمر من أمور الحياة ، فلم يكن يعرفه العالم الخارجى إلا من لغته القاسية ، وقلمه الصارم الوثاب ، وتهكمه القارص المؤلم .

ولد كوربيه فى باريس ســنة ١٧٧٢ ، وتلق تربية حســنة ، ثم دخل الجيش أيام الثورة ، وخاض عدّة معارك . ولكن أعمال الحرب لم تخمد فيه شغف البحث والأدب . ثم استقال من الجيش بعد أن أنفق فى خدمته أعواما طويلة ، وتفرغ

---

(١) كتبنا هذا الفصل سنة ١٩٢٥

الى الكتابة، وكان النقد السياسى الصارم أخص ما يطبع نشاطه، فما لبث أن غدا قوة يخشى بأسها ، وكانت رسائله العديدة التى ينشرها فى صحف ذلك العصر مثـل «الصانصير والكوريه فرانسـيه والكنستيوسنل»[1] تثير البلاط والارستوقراطية، وتطرب الناقمين والساخطين .

وفى سـنة ١٨١٤ هام كوريه وهو فى الثانية والأربعين، بحب ابنة صديقـه كلاڤييه عضو معهـد النقوش والآداب ، وتم زواجه منها فى صيف هـذا العام، وأدركت زوجه الفتاة لأول وهلة ما انطوت عليـه طبيعته من الأثرة والجفاء ، فحاولت أن تلطف من صرامة نفسه وحدة طباعه، غير أنه كان صلبا لا تلين قناته، وقد كتب اليها يوما بتلك المناسبة : «تحثيننى على ضرورة إرضاء الناس الذين أراهم والانفاق فى ذلك السبيل، وتعطيننى بجد وخطورة و بأرق ما يستطاع كأنمـا الأمر لا يتوقف إلا علىّ . انك لاتتكلمين إلا فى ظرف ورقة . ولكنى أجيبك، يجب ألا نغصب مواهبنا؛ لقـد قالها لافونتين، واذا كان الله قد خلقنى جافا فيجب أن أحيا وأموت على هذا الجفاء ... » .

والواقع أن كوريه كان جافا، صارم الطبع، بل كان متوحشا يرسـل صواعق سخطه هنا وهنالك على كل من يعتقد فيه الخصومة،وكان جم الخشونة فى كل علاقة له أو مخاطبـة ، سواء أكانت مع الحكومة أو الأسرة الملكية أو القضاء أو المعهد العلمى، أو أية سلطة من السلطات، بل مع أهل قريته وجيرانه، وبالجملة مع كل من يعامله فى شأن من شئون حياته .

وكان كوريـه يعيش فى ضيعته فى مقاطعـة فيرتز منذ سـنة ١٨١٦ كما تعيش الضـوارى .

والظاهر أنه شعر بعد بضعة أعوام من تلك الحياة الحافلة بصنوف الاعتـداء والشر بمـا تحمله اليه من البغضاء والمخاطر، فقد أورد فى رسالة نشرها سنة ١٨٢٣

---

(١) Censure, Courier Français, Constitutionel

تلك الفقرة التى تكاد تكون نبوءة صادقة : « فى هـذا الصباح حينما كنت أتريض فى الباليه رويال مربى م ... وقال لى حذار يابول لوى حذار! سوف يدبر القادرون قتلك — فقلت وأى حذر تريد أن أتخذ؟ ألم يدبروا قتل ملوك عدّة ... ثم ألم يفلت منهم من أحكموا تدبير اغتياله؟ ... » .

* * *

بعد ذلك بعامين — فى ليـلة ١١ أبريل سنة ١٨٢٥ — وجد بول لوى كوريبه مقتولا فى غابات لارسى بين حقلين يقال لهما «البلوطة المشنوقة» و «خندق لالاند» بالقرب من ممر يفضى الى ضـفة حفائر تستغل . ووجد بالجثة جرح كبير نشأ عن طلقة بندقية، وقد اتبعت المقذوفات فى الجسم سيرا مدهشا، فقد سارت من الأسفل الى الأعلى متجهة من العجز الأيمن نحو الكتف الأيسر .

وقد أثار مقتـل الكاتب الكبير ضجة شـديدة ، وصدرت صحف باريس فى ١٢ أبريل سـنة ١٨٢٥ تفيض بالشكوك نحو الملك شارل العـاشر ووزرائه ، ونحو زعيم من زعماء اليسوعيين فى توركانت بينـه وبين الكاتب القتيل ضـغائن ومنازعات حادة .

غير أن القضاء الفطن لم يعبأ بهـذه الظنون ، فسار فى اجراءاته بحزم وذكاء، وما لبث التحقيق أن اسفر عن حقائق مدهشة برهنت على أن مقتل الكاتب لم يك إلا نتيجة لمأساة منزلية، وانتقام قروى .

٢

واليـــك البيان :

كان قران بول لوى كوريبـه وإرمينى كلاڤييه فى الواقع تعسا لم يطـل وئامه وسلامه، لأن خلق الزوج المستقل، وشغفه بالعزلة، وايثاره الانزواء، حالت دون احتماله نظام حياته الجديدة، بل مما يؤثر عنه أنه كتب فى احدى رسائله فى سنة ١٨٠٩، ان الزوج لا يعبأ بجمال زوجه لأسبوعين من زواجه ، وعلى ذلك فانه ما كاد يقترن بزوجه الفتية الحسناء حتى غادرها فريدة فى باريس، وسافر الى تورين ليعنى بمصالحه

وشئونه، ثم عاد بعد مدة، ومكث الى جانبها قليلا، ثم سافر، ولبث على ذلك النحو ينفق سواد أوقاته بعيدا عنها حتى سنة ١٨١٨

وكان الكاتب يرغب رغبة شديدة فى الابتعاد عن باريس وضجيجها، ومجتمعاتها التى يمقتها أشد المقت، فعقد عزمه على مغادرتها نهائيا وسافر ليقيم مع زوجه فى ضيعته الكبيرة المسماة «شافونيير» فى مقاطعة فيرتز.

وكان لذلك النفى أثر سيئ فى نفس الزوجة الفتاة، رغم ما كان يحوطها هنالك من مظاهر الفخامة والسيادة، فقد كانت باريزية رشيقة، وكان عليها أن تنزل عن عاداتها الأنيقة لتعيش فى عزلة قروية نائية، ولتحيا حياة جديدة ملؤها الكآبة والضجر، برفقة صاحب ليس فى عشرته وخلاله ما يلطف وحشة هذه الحياة، أو يخفف وقع مظاهرها المكدرة.

بل لقد كشف كوربيه فى ذلك المقام الموحش عن أسوأ ما تكنه طبيعته الجافة من الغلظة والصرامة، فقد كتب الى زوجه فى بدء نقلتهما ما يأتى: «متى ثوينا الى غاباتنا على ضفاف الشير، فيجب أن نستقر هنالك وألا نصادق أو نصاحب أحدا كما كنا نفعل فى باريس، وأنت تعرفين أسلوبى فى ذلك».



بول لوى كوربيه

وأسلوب كوربيه هو المقاطعة الصارمة كما قدمنا، فما كاد يستقر فى مقامه الجديد بضعة أشهر حتى أغضب بغلظته وسوء معاملته كل سكان هذه الناحية، فقد كان جم الغطرسة، شديد الجفاء، كثير الشجار والمشاحنة، شديد البخل الى حد أن كان يقسو فى مطاردة الفقراء الذين يحتطبون الأخشاب المهملة من حقله، أو يلتقطون الأوراق الساقطة من غاباته. وقد وصفته

ادارة شرطة هذا الاقليم فى تقرير وضعته عنه بما يأتى : « أسمر اللون، حاد الطبع، ذا محيا متقلب جاف، ينحنى قليلا عند السير، ورأسه مائل الى ناحية، مختل الثياب، قذرها، يضع دائما فى عنقه رباطا أسود» .

وفى هذا الوصف صورة مادية ومعنوية لپول لوى كوريبه .

* * *

وكان الكاتب يسافر أحيانا الى باريس تاركا زوجه الفتاة لعزلتها المحزنة، فأفضى ذلك الجفاء المؤلم والترك المستمر الى النتيجة الطبيعية ، وهى أن الزوج المهجورة أخذت تبحث فيما حولها عن السلوى ، فهامت بحب فتى عامل فى الضيعة يدعى پيير دبوا وهو قروى متين البنية فى عنفوان شبابه ، وكانت تصحبه بكثرة الى الحقول والأسواق والى الحانة، مستندة الى ذراعه، حتى شاع أمرهما وتحدّث كل الناس به ، فانطلقت الألسنة الحادّة من كل ناحية تشهر بالزوج الخؤون

ثم اشتدّت الفضيحة بعد حين حينما بدا على الزوج السافلة أنها تميل كذلك الى أخى خليلها الوضيع وهو عامل بالضيعة أيضا يدعى سيمفوريان دبوا .

ونبئ الكاتب بخيانة زوجه وتدهورها الى الدرك الأسفل، فطرد عامله پيير دبوا من خدمته فى ١٨ يوليه سنة ١٨٢١ ، أما أخوه سيمفوريان فبقى فى الضيعة لأن الشبهة لم تتوجه اليه ، وقد فاه الخادم المطرود عند انصرافه بتلك العبارة : « لقد طردنى من خدمته ، فلئن صادفته لأقتلنه قتلة الكلب » .

وفى نهاية شهر يوليه فرّت مدام كوريبه من مقام زوجها، فأثار فرارها فضيحة كبرى، وانطلق الكاتب فى أثر زوجه فوجدها بعد بضعة أيام فى منزل جنان فى تور وهو صديق لپيير دبوا، فعفا عن سلوكها واقتادها معه الى باريس حسما لذلك العار المؤلم.

ثم سرت الاشاعة فى فبراير سنة ١٨٢٥ أن كوريبه يحاول إرغام زوجه على دخول الدير واعتناق الرهبانية، والظاهر أن الخائنة لم تنقطع عن مكاتبة پيير دبوا وان كانت أقامتها فى باريس قد حالت دون اجتماعهما .

وكان الكاتب أثناء ذلك يسافر أحيانا الى ضيعته ، فسافر اليها فى ٥ أبريل ، وفى يوم السبت ٧ أبريل ألقت مدام كوريه الى مكتب بريد باريس خطابا بعنوان بيير دبوا وهو « الى مونبازون . يحفظ بالبوستة » غير أن ذلك الخطاب لم يضبط قط رغم ما أنفقه القضاء فى سبيل ذلك من بحث وتنقيب .

وفى مساء ١٠ أبريل سقط الكاتب قتيلا فى الغابة كما ذكرنا .

* * *

قلنا ان القضاء لم يأخذ بشىء من الاشاعات والظنون التى أفاضت فيها الصحف عن مقتل كوريه ، وأنه نشط الى التحقيق بحزم ونزاهة .

وقد ظهر من فحص المقذوف النارى الذى أدّى الى الوفاة واستخرج من الجثة أنه لف بقطعة من ورق الجرائد وجد مكتوبا عليها بأحرف كبيرة هذا المقطع (ouy) وظهر من فحصها ومقارنتها أنها قطعة من « الصحيفة الأدبيـة » وهى جريدة قليلة الذيوع فى تلك الناحية كان كوريـه مشتركا فيها . كذلك ثبت من الفحص الطبى أن المقذوف أطلق على مقربة من القتيل .

وفى ١٢ أبريل قبض على بيير دبوا وأخيه سمفوريان ، ثم قبض على أبيهما فى اليوم التالى .

أما مدام كوريه فلم تحضر إلا فى يوم ١٨ أبريل ، وما كادت تصل الى الضيعة حتى نشطت الى الدفاع عن آل دبوا بحماسة شـديدة ، ثم ألقت تهما غامضـة على اليسـوعيين ، وخصت بالاتهام حارس الصـيد المدعو فريمون ، وهو رجل شرير يقـدم على كل موبقة ، وقد خرج ليلة الحادث متقلدا بندقيته ، وقيـل بأنه ضرب للقتيل موعدا مريبا للمقابلة فى الغابة .

نشطت مدام كوريه الى اتهام هذا الحارس بشدة ، وكتبت الى النائب تتهمه بصفة رسمية ، ولبثت تقدّم الى النيابة فى كل يوم تقريرا بقرائن وأدلة جديدة تلق فى الواقع على الحارس شكوكا خطيرة ، منها أنه شرير ، كثير المطامع ، شديد الغيرة ، وأن زوجها كان يعتزم طرده من خدمته وأنه علم بذلك ، وقدّمت أيضـا عدّة شهود على

أنه هدّد القتيل مرارا ، هذا الى أن المحقق ضبط فى غرفته عدّة أعداد من جريدة «الصحيفة الأدبية» التى وجد المقذوف ملفوفا بقطعة منها .

وكان من أثر ذلك أن قبض على فريمون حارس الصيد فى ٢٢ أبريل وضم الى باقى المتهمين .

* * *

أما آل دبوا فقد استشهد كل منهم بشهود على أنه كان ليلة الحادثة فى مكان معين ، وبعد أن استمر التحقيق والمواجهات والتحريات نحو خمسة أسابيع تقرر حفظ التهمة بالنسبة لهم وأفرج عنهم لعدم كفاية الأدلة فى ١٧ مايو ، فبقى فريمون وحده رهن الاتهام ، وحولته غرفة الاتهام رغم إنكاره المستمر على محكمة جنايات تور ، فظهر أمامها فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٢٥ واعترف بأنه وجد حقيقة فى الغابة ليلة الجريمة على مقربة من مسرح الحادث ، غير أنه لم يسمع شيئا ، لأنه كان ثملا ، وقد غلبه النوم .

واتهمت مدام كوربيه حارس الصيد علنا فى الجلسة ، فأجاب فريمون بأنها تريد الانتقام منه لأنه أبلغ خيانتها وسوء سلوكها الى سيده . وقد كان سلوك مدام كوربيه أثناء نظر القضية مؤيدا لأقواله . فقد كانت تجوب طرقات المدينة متكئة على ذراع بيير دبوا بلا حياء ولا وجل ، وكان سمفوريان يهدّد الشهود حتى لا يجرا أحدهم على قول الحقيقة ، وأخيرا تضاءلت الأدلة والقرائن التى قدّمتها النيابة على إدانة فريمون ، فقضى ببراءته فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٢٥

وذهبت الأرملة الخائنة فى غدرها ونفاقها الى النهاية فأقامت أثرا فوق المكان الذى سقط فيه زوجها ثم عادت الى باريس .

وفى ذلك الحين توفى شخص يدعى باربيه وهو أحد الشهود الذين هدّدهم سمفوريان واشتبه فى وفاته وفى أنه قتل مسموما ، غير أن أبحاث النيابة فى سبيل اثبات ذلك الجرم الجديد ذهبت سدى .

أما سمفوريان نفسه فقد توفى فى سنة ١٨٢٧ ، وحضرت نزعه مدام كوربيه وألبست أصبعه خاتما ذهبيا اشارة الى الوفاء والاخلاص حتى بعد الممات !

٣

ومرت الأشهر والسنون وسحب النسيان ذيله على حادث مصرع الكاتب الكبير، وبدا للناس أن الحقيقة قد طمست الى الأبد .

ولكن شاءت الأقدار أن تفلت فى سنة ١٨٢٩ من فم فتاة تدعى سلفين جريڤول، وهى فتاة ساذجة سيئة السلوك، عبارة وصلت الى أذن القضاء وأثارت اهتمامه. وذلك أنها كانت تخترق الغابة من جانب حقل «البلوطة المشنوقة» فجمح فرسها فصاحت بها :

« أن جوادك المقدّس كاد أن يلقينى على الأرض، فقد تملكه ارتياع شديد، شديد كالارتياع الذى استولى على حينما قتلوا المرحوم المسيو كورييه » .

نقلت هذه العبارة الى القضاء، فاستدعى فى الحال سلفين جريڤول وسألها عن حقيقة ماقالت، فاعترفت بأنها وجدت فى الغابة على مقربة من حقل «البلوطة المشنوقة» ليلة الجريمة، مختبئة فى الغابة مع فتى من أبناء هذه الناحية، فسمعت كورييه وفريمون يتناقشان بحدة، ثم قدم على أثر ذلك أربعة أشخاص آخرين هم پيير وسمفوريان دبوا، واثنان من الجيران هما أرنول وبوتيه . ثم إن سمفوريان انقض فجأة على كورييه وقبض على ساقيه وألقاه على الأرض، فأطلق فريمون بندقيته عليه وهو بتلك الحالة ثم فر الجميع وتركوا الجثة الهامدة فى مكانها .

وهكذا أدرك القضاء لأول مرة سر ذلك السير الغريب الذى اتخذه المقذوف النارى فى جسم القتيل، فهو لم يطلق من أدنى الى أعلى كما يفهم لأول وهلة، وانما أطلق على رجل ألقى على الأرض .

فاستدعى فريمون وسئل فاعترف حينئذ بالحقيقة وقال ان الجريمة دبرت كلها بتحريض مدام كورييه . وكانت محاكمته غير جائزة قانونا لأن الحكم الصادر ببراءته من محكمة جنايات تور قد أصبح نهائيا لا مطعن فيه، فقبض على پيير دبوا وارنول وبوتيه، ولكنهم أنكروا كل شيء، وأنكر أيضا الفتى الذى كان يرافق سلفين جريڤول ليلة الحادث تلك الواقعة انكارا تاما لأنه كان متزوجا ولم يجرأ أن يكشف عن سيرته الماضية بل قال انه لم تربطه أية علاقة بسلفين .

وقد قبض على مدام كوريبه أيضا فأنكرت كل شيء ودافعت عن نفسها بشدة وجرأة، والواقع أن مركزها كان منيعا إذ لم توجد ضدّها سوى أقوال فريمون الذى اتهمته هى من قبل وطاردته أمام النيابة والمحكمة وحدث بينهما ما ذكرناه ، ولذلك لم تجد النيابة من الأدلة ما يبرر تقديمها لمحكمة الجنايات فقرّرت حفظ التهمة بالنسبة اليها وأطلقت سراحها، ولم تقدم الى المحاكمة سوى بيير دبوا وارنول وبوتيه .

وكانت المحاكمة مؤلمة مؤثرة، فتقدّمت سلڤين جريڤول متهمة، وتقدّم فريمون كشاهد فقط وقد أثقلته السنون وشوّهت ملامحه الخطوب وعذبه النـدم، فاعترف بجريمته وفصـل ظروفها وحوادثها تفصيلا دقيقا مسهبا ، بيـد أنه نسب تدبيرها وتنفيذ أهم أدوارها الى المتهمين، وكانت مدام كوريبه أثنـاء ذلك فى ايطاليا تطلق العنان لغرام جديد، فكتبت الى المحكمة تعتذر عن عدم المثول .

واستمر نظر القضية أياما ولكن ضمائر المحلفين لم تطمئن الى الحكم على المتهمين لأن فريمون الفاعل الأصلى الذى ارتكب القتـل كان حرا بعيدا عن نقمة القضاء ، وربمـا لم يطمئنوا كذلك الى أقوال سائين جريڤول ولم يجدوا فيها الدليل المقنع ، فقضوا ببراءة جميع المتهمين .

* * *

وهكذا ذهب دم كوريبه هدرا، وأفلت سافكوه من يد العدالة .

أما الزوج الخائنـة السافلة فنظمت شـئونها وتزوّجت ثانية فى سـنة ١٨٣٤ وذهبت للاقامة فى چنيف حتى توفيت سنة ١٨٤٢

نستطيع أن نحمل طبيعة پول لوى كوريبه وخلاله السيئة شطرا من مسئولية هذه المأساة، ولكن نذالة الزوج الخؤون لم تقف عند حد الجريمة وسفك دم المحسن البريء.

مراجع هذا الفصـل

Journal des Debats, Le Figaro, Le Temps.

وغيرها من الصحف الفرنسية .

الفصل الخامس

قضـــية مـــدام لافارج

ســنة ١٨٤٠

هذه مأساة شهيرة، ولكنها ليست من قضايا التاريخ، ولم تخلف أثرا فى سيره؛ بيد أنها خلدت فى صحف القضايا الجنائية، وأثارت كثيرا من الاهتمام والشجن، فى فرنسا وأوربا بأسرها، ولا تزال الى يومنا تثير كثيرا من الجدل الفقهى .

وموضوعها لا يخرج عن الحوادث الجنائية العـادية، فهى قضـية زوج توفى واشـتبه فى أنه توفى بالسم، واتهمت زوجه بقتله، وقضى عليها بالادانة والعقوبة . ولكن فرص البراءة كانت تناهض عبء الادانة أشدّ مناهضة؛ وكانت أدلة الاثبات والنفى تضطرم سجالا فى معركة مدهشة؛ وكان مصـير المتهمة يتراوح أمام القضـاء فى كفة القدر، فى كل لحظة من لحظات المحاكمة؛ وكان اليقين يكاد يعدله الشك سواء فى الادانة والبراءة . أضف الى هـذا الغموض المطبق الذى يحيط بظروف القضية، مركز المتهمة الاجتماعى، وشبابها الغض، وظرفها الشعرى المؤثر الذى كان يبعث السحر الى كل من يقترب منها .

كانت مدام لافارج، واسمها العـذرى، مارى كاپيل، فتاة باريزية فى الرابعة والعشرين؛ ولم تكن وافرة الحسن، ولكن وافرة الظرف والسحر، خلابة المحيـا، ذات عينين سـوداوين نجلاوين، رقيقـة الخلال، وثابة الذهن، تخلب كل من عرفت؛ وكم خلبت أيام محنتها، من أناس تأثروا بسحرها ومصابها، وأخلصوا لها حتى بعد الحكم عليها، ثم أخلصوا لذكراها بعد وفاتها !

نشأت فى عهـد النعماء فى أسرة حسـنة، وكان أبوها ضابطا كبيرا فى الحرس الامبراطورى؛ وفقدت والديها فى الحداثة، فعاشت مع خالة لهـا، وترك لها أبواها

ثروة حسنة تبلغ نحو مائة الف فرنك . وكان خيالها المتوقد يثير فى نفسها آمالا كبيرة، ويصور لها المستقبل فياضا بالحب والبهاء؛ ولكن الزواج أيقظها من ذلك الحلم الجميل بعنف . ففى أواسط سنة ١٨٣٩، وفد على باريس فتى من أعيان الريف، يدعى شارل لافارچ، وهو صاحب مصنع للحديد فى جلانديبه من أعمال مقاطعة كوريز، ليبحث عن زوج تؤنس بظرفها وحشته، وتصلح بمهرها أحواله المضطربة، فوفق بواسطة أحد وكلاء الزواج الى التعرف بمارى كاپيل . وكان لافارچ فى الثامنة والعشرين، قبيح الطلعة، ولكن الفتاة ارتضته لها زوجا لأنه قدم اليها باعتباره من كبار الأعيان، يملك قصرا فى الريف، ولا يقل ايراده عن ثمانين الف . ولم يمض أسبوعان حتى عقد الزواج، وعاد لافارچ بزوجه الحسناء الفتية الى مقامه فى جلانديبه .

فكان مقدمها خيبة أمل، اذ كان قصر الريف، دارا متهدمة رطبة، فى قفر منعزل، وكانت أثناء الطريق قد وقفت على طرف من حقيقة زوجها، فألفته جافا، سيىء الخلال والطباع؛ فلما رأت هذه الفتاة البارزية الناعمة التى ألفت المجتمع الرفيع ونشأت فى الترف، انها قد انحدرت بالزواج الى هذا الدرك، وقيدت الى هذا المنزل الخرب، والى غرفه الشاسعة الرطبة، أصابتها غمرة يأس قاتل، وبلغ من حنقها ويأسها أن كتبت الى زوجها ليلة وصولها الى جلانديبه — فى ١٥ أغسطس — خطابا تعرب فيه عن سخطها واحتقارها، وتقول انه خدعها، وان ما بينهما من تباين شاسع فى التربية والخلال يقيم بينهما سدا لا يمكن تذليله، وانها لذلك لا تريده بل تعتزم السفر الى المشرق، وترجوه أن يأخذ مهرها ويرد اليها حريتها، وأنها فى الواقع تهوى رجلا آخر، فاذا حاول ارغامها على البقاء اضطرّت الى الفرار أو الانتحار .

وهو خطاب غريب بلا ريب، ينم عنه يأس هائل وسخط بالغ، وبهذا يكون سندا للاتهام . ولكنه أيضا نفثة فتاة مضطرمة الخيال والذهن كمارى كاپيل، تهدّمت آمالها فى لحظة، وفقدت صوابها، وغلبها خيالها .

أما كونه سندا للاتهام، فلأن مدام لافارچ قد روعت منذ اللحظة الأولى لجفاء زوجها وخشونته وبدا لها فى ثوبه المثير، ذلك الثوب الذى أخفيت عيوبه للتأثير

فيهـا وحملها على الاقتران به ، فاشمأزت لغلظته ، وسيء خلاله وتربيته، وساورتها خيبة أمل مرة حينما وصلت الى جلانديبيــه التى تبعــد عن باريس مائة مرحلة، فألفت مقامها دارا منعزلة خربة، ورفيقها فى ذلك المكان الموحش رجلا « يروعها أن يقبل يدها، وتموت اذا شعرت أنها بين ذراعيه » . ولا تبعد الجريمة عن مثل هذا الذهن المضطرم اليائس؛ ومن ثم فان الاتهـام يعلق على هــذا الخطاب أهمية كبيرة ، ويصــفه « بمفتاح الاتهام » ، ويقول ان مدام لافارج اعتزمت من تلك الساعة أن تتخلص بأية وسيلة من زوج تبغضه وترتاع منه .

غير أنه أقرب الى نفثة مصدورة يائسة منه الى انذار بالجريمة ، يدل على ذلك ما ترتب عليه من الآثار، فان مدام لافارج لم تلبث أن هدأت ثورة نفسها ،واعتادت حياتها الجديدة شيئا فشيئا، وألفت فى زوجها، رغم جفائه وخشونة طباعه، رجلا طيب القلب، بل لقد ساد بينهما الوئام والعطف الى حدّ أن كتبت الزوجة ، فى فترة مرض، وصية توصى فيها بمالهـا الى زوجها اذا توفيت قبله ، ورد الزوج على ذلك بوصية يوصى فيها بماله الى زوجته اذا توفى قبلها .

وفى أواخر شهر نوفمبر سافر المسيو لافارج الى باريس ليسعى فى الحصول على امتياز باختراع له يتعلق بأعمـال مصنعه، وليجرى باسم زوجتــه قرضا يلزمه للسير فى أعمـاله . وتبادل الزوجان أثنـاء ذلك عدّة رسائل رقيقة . وهنا يعرض حادث يدعو الى التأمل، فقــد كان للسيو لافارج عامل يثق به يدعى دنى باربييه . وكان لافارج قد اضطرّه العسر المتواصل الى التزوير، فزوّر بمعاونة دنى عدّة سندات ، وحولها فى باريس . فلمـا سافر لافارج الى باريس ، تبعه دنى اليها خلسة، وأقام هنالك أياما . وفى أثنـاء ذلك — فى يوم ١٨ ديسمبر — اســتلم لافارج بطريق البريد صندوقا صــغيرا أرسلته اليه زوجته وفيــه صورة لهـا وبعض فطائر، ففتحه بحضور خادم الفندق، وأكل جزءا من الفطائر، فأصابه فى الليل قىء ومغص،وظهر من فحص الصندوق فيما بعد أنه أغلق بعد التصدير بطريقة أخرى مما يبعث الى الريب فى أنه قد فتح وغير ما فيه، غير أن لافارج لم يرتب فى شيء .

وفى الثالث من يناير عاد لافارج الى جلانديبه عليلا منهوكا ولزم فراشه .

وفى الخامس من يناير، بعثت مدام لافارج فى شراء مقدار من الزرنيخ، وكانت قد اشترت قبل ذلك شيئا منه فى يوم ١٥ ديسمبر من صيدلية فى ليموج على يد رسول أرسلته . ثم عادت فبعثت فى شراء مقدار آخر فى العاشر من يناير .

وفى الحادى عشر من يناير، قدمت الى جلانديبه فتاة مصوّرة تدعى الآنسة بران لتتم صورة مدام لافارج، فرأتها هذه الآنسة تضع مسحوقا أبيض فى قدح من اللبن والبيض أعدّته لزوجها المريض ، فساورها الشك ، وارسل القدح فى اليوم التـالى الى صيدلى فقرر أن به أثرا من الزرنيخ ، ولكن الطبيب المنتدب قرر فى التحقيق فيما بعد، أن هذا المسحوق الأبيض ربما كان بياض البيض أو الجير .

بعد ذلك بثلاثة أيام — فى الرابع عشر من يناير — توفى المسيو لافارج فى غمر من الآلام .

٢

هذه هى الوقائع الثابتة فى القضية، فهل ندهش اذا كان موت المسيو لافارج على هذه الصورة الفجائية، قد أثار فى الحال فكرة الجريمة ؟ بادرت أم المتوفى بابلاغ النيابة أن ولدها توفى قتيلا بالسم . ومن تتهم غير الزوجة؟ فلم تمض بضعة أيام حتى أمرت النيابة بالقبض على مدام لافارج التى بقيت عقب وفاة زوجها فى جلانديبه وأبت الفرار رغم نصح أصدقائها .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى اتهمت مدام لا فارج بتهمة أخرى هى السرقة . ذلك أن صديقة صباها الآنسـة نيكولاى ، وكانت يومئـذ زوجة الكونت ليوتو، أبلغت النيابة أن مدام لافارج سرقت منها حلية من الجواهر ، وكان اختفاء هذه الحلية يرجع الى ما قبل ذلك بعدّة أشهر، ولكن مدام ليوتو لم تفكر فى اتهام صديقتها إلا حينما قبض عليها؛ وبهـذا وجهت الى مدام لافارج تهمتان مستقلتان، الأولى أنها قتلت زوجها بالسم، والثانية أنها سرقت جواهر صديقتها الآنسة نيكولاى .

اختارت أسرة المتهمة للدفاع عنها الأستاذ پاييه نقيب المحامين فى باريس يومئذ، فانتدب الأستاذ باك المحامى فى ليموچ للحضور عنه أثناء غيابه ، ولكن مدام لافارچ طلبت أن ينضم اليهما فى الدفاع عنها محام ثالث هو الأستاذ لاشو المحامى فى تيل . وكان لاشو يومئذ فى الثانية والعشرين فقط ، فى مستهل حياته القضائية ، ولكن تبدّت يومئذ لمحة من مجده المقبل . وكانت مدام لافارچ قد سمعته ذات مرة أمام محكمة كوريز ، فتأثرت بفصاحته وقوة جنانه ، وتنبأت له بمستقبل باهر ؛ وكانت صادقة الحدس ، اذ غدا لاشو بعد ذلك من أعظم أعلام المحاماة والبيان فى عصره . وقد ذكرته فى محنتها وكتبت اليه من سجنها هذه الرقعة المؤثرة تطلب اليه أن يتولى الدفاع عنها : « انك ذو براعة مدهشة يا سيدى ، فقد سمعتك مرة واحدة ، ولكنك أبكيتنى ، وقد كنت مبتهجة ضاحكة . أما اليوم فانى حزينة باكية ، فأعد الى الابتسامة باظهار براءتى ناصعة أمام الجميع . » فلبى لاشو دعوتها مغتبطا ، ومع أنه لم يترافع إلا فى تهمة السرقة فقد اقترن اسمه من تلك اللحظة ، بتلك القضية الشهيرة ، التى كانت مهد شهرته الواسعة وفاتحة مجده الكبير .

* * *

كانت النقطة الحاسمة فى القضية هى ما اذا كانت الوفاة جنائية أو طبيعية . بيد أن هذه النقطة ذاتها كانت مثارا لغموض مدهش قلما سطرت مثله صحف القضايا الجنائية .

واذا كانت الوفاة جنائية ، واذا كان المسيو لافارچ قد توفى بالسم ، كما تدل الظواهر الأولى ، فلا بد أن يوجد أثر هذا السم فى جثة المجنى عليه .

قرر الدكتور باردون الذى عالج المتوفى قبيل وفاته أنه لم يشهد أية أعراض تدعو الى الشك فى تناول المريض للسم ، وانه كان يعتقد دائما أنه يعانى من مغص حاد ونوبات عصبية ، وبأنه كان مصابا بالتهاب فى الحلق ؛ كذلك قرر أنه هو الذى أعطى مدام لافارچ تذكرة لشراء الزرنيخ فى الخامس من يناير .

وقرر الدكتور ماسينا الذى دعى للاستشارة فى ١٠ ينـاير أنه لم يلاحظ أية أعراض تدل على التسمم .

وقرر الدكتور بوشيه أنه لاحظ «بعض أعراض مدهشة» .

وقرر الدكتور ليبانا الذى استدعاه للاستشارة دنى عامل المصنع ، أنه شاهد أعراضا تقطع بحدوث التسمم .

هذه آراء الأطباء الذين عنوا بالميت قبل وفاته وشاهدوا أعراض مرضـه ، شديدة التناقض والتباين . ولكن اليك نتيجة التشريح الذى أجرى لجثة الميت فهى أشد تناقضا وتباينا .

قرر أطباء «تيل» الذين تولوا التشريح الأول أن بالجثة رواسب كبيرة من الزرنيخ ، ولكن فحصهم ، كما قرر بعد ذلك أورفيلا خبير الحكومة ومن أشهر الأطباء والكيمائيين فى هـذا العصر ، كان رديئا ، ولم تتبع فى التحليـل الذى أجروه قواعد علمية صحيحة .

ولكن النيابة تقـدمت الى محكمة الجنايات فى كوريز بهـذه النتيجة . وبدأت المحكمة بنظر القضـية فى ٢ سبتمبر سـنة ١٨٤٠ ، واهتمت فرنسا بأسرها للحادث ، وأفاضت الصحف فى تفاصيله ، واشـتدّ الجدل حوله ، وأبدى الرأى العام كثيرا من العطف على المتهمة .

وكانت نتيجة التشريح والتحاليل هى القول الفصل فى القضـية ، فطعن الدفاع فى نتيجة فحص أطباء تيـل ، وأيده أورفيلا بنقده ، فانتـدبت المحكمة ثلاثة أطباء آخرين لاعادة الفحص والتحليل ، فقاموا بالمهـمة طبقا لتعليمات أورفيلا ، وقرروا أنهم لم يجدوا فى الجثة أثرا للزرنيخ . وهنا طلبت النيابة بدورها أجراء فحص ثالث ، لأن التناقض البين بين النتيجتين لا يدعو الى الطمأنينة ، فعارض الدفاع ، وتساءل بحق : « أكانت المحكمة تسمح باعادة الفحص لو كانت نتيجة الفحصين السابقين ضد المتهمة ؟ » . ولكن المحكمة أجابت طلب النيابة ، واستدعت أورفيلا نفسـه

للقيام بتلك المهمة ، فقام بها بمعاونة طبيبين بارعين، وتقدّم الى المحكمة ، فى الثالث عشر من سبتمبر وقرر أنه وجد فى الجثة نصف مليجرام من الزرنيخ .

فاعترض راسباى الكيمائى الشهير الذى استدعاه الدفاع لمناقشة الأطباء المنتدبين على هذه النتيجة وأنكرها، ودحضها بالأدلة ، ومما يؤثر عنه قوله للمحكمة : «الزرنيخ؟ وما الذى يثبته هذا؟ أعطونى أيها السادة عصا ، بل أعطونى الكرسى الذى تجلسون عليه أستخرج لكم الزرنيخ منه ! » .

الى هذا الحدّ تعدّدت الأقوال فى طبيعة الوفاة، وتناقضت نتائج التحليل، فأى غموض أشدّ وأى ريب أخطر يمكن أن يثار على الحقيقة ؟

* * *

يقول الاتهام إن الوفاة جنائية و إن هنالك جريمة وان الجانية هى مدام لافارج و يدلل على ذلك ببعض الوقائع الثابتة فى القضية، ثم بأقوال الشهود .

أما عن الوقائع ، فقد اشترت مدام لافارج باعترافها الزرنيخ ثلاث مرات متوالية، المرة الأولى فى ١٥ ديسمبر أعنى قبيل أن تبعث الفطائر «المسمومة» الى المسيو لافارج فى باريس ، والثانيـة والثالثة أثناء مرض موته . وقد ردّت مدام لافارج على ذلك بأن مقامها فى جلانديـيـه كان منزلا عتيقا موحشا تغشاه الجرذان بكثرة وتقضم الثياب والمؤن ، وتمنع زوجها من النوم ليلا ، فرأت ان تستعين بالزرنيخ على قتل هذه الحشرات الخطرة، وان تمزجه بالطعم الذى تضعه لها فى المصايد . كذا يعلق الدفاع أهميـة كبيرة على الطريقة التى اشترى بها السم وما اقترن بها من العلانية والجهر، فقد اشترت مدام لافارج الدفعة الأولى منـه بخطاب ارسلته الى الصيدلى فى ليوج، والثانية بتذكرة من الدكتور باردون، والثالثة بواسطة دنى عامل المصنع راجية اياه أن يستحضر لها مصيدة أو مقدارا من الزرنيخ لقتـل الجرذان، فهل بمثل هذه العلانية تتصرف مسممة قاتلة ؟

يقول الاتهـام إن المتهمة لم تبين ما الذى فعلتـه بمقادير الزرنيخ التى أحرزتها، فان الطعم الذى كانت تضعه للجرذان لم يوجد به أثر للزرنيخ، كذا لم يوجد شىء منه

فى المصيدة التى ضبطت . وهـذه نقطة لم يستطع أن يدحضها الدفاع بقوة . أما المتهمة فقـد ردت عليها بأنها أعطت الزرنيخ لخادمتها ، واعترفت الخادمة بذلك ، وبأنها ألقته فى الحديقة فى مكان معين ، ووجدت فى هذا المكان بالفعل علبة تشبه علب الزرنيخ ، ولكنها كانت تحتوى على بيكربونات الصودا وليس على الزرنيخ .

ثم يقول الاتهام إن مدام لافارج وضعت مقدارا من الزرنيخ فى الفطائر التى أرسلتها الى زوجها وهو فى باريس ، وكانت هـذه أول خطوة فى تنفيذ الجريمة . ولكن الدفاع يرد على ذلك بأنه لم يثبت أن لافارج قد ظهرت عليه فى باريس أية أعراض تسمم ، ولم يدع أحدا من الأطباء لفحصه وقتئذ ، ولم تضبط الفطائر المرسلة ولم تحلل قط . أضف الى ذلك أن مدام لافارج كتبت الى زوجها ترجوه أن يدعو أختها المقيمة فى باريس لتشاطره إكلة الفطائر ، فهـل بلغت بها الحماقة أن تقـدّم الدليل الكتابى على جريمتها ؟ وكل كانت تريد أن تقتل أختها بالسم أيضا ؟ ألم يكن المعقول أنه اذا كانت مدام لافارج تريد قتل زوجها ، أن تصحبه فى رحلتـه ، ثم تنفذ جريمتها فى باريس حيث يوجد المجنى عليه بعيدا عنه أهله ، وحيث يسهل اخفاء آثار الجريمة ؟

أما عن الشهادة فهى تنحصر فى أقوال الآنسة بران التى استقدمتها مدام لافارج فى أوائل نوفمبر لترسم صورتها ، فقد شهدت هذه الآنسة بأنها رأت علبة من الزرنيخ لدى المتهـمة فى يوم ١٠ يناير ثم رأت المتهمة فى اليوم التالى تضع مسحوقا أبيض فى قدح من البيض واللبن أعد لزوجها . وقـد ردت مدام لافارج على ذلك بأن الشاهدة واهمـة وأن المسحوق الأبيض لم يكن إلا مسحوق الصمغ . كذا حمـل الدفاع على الآنسة بران ونوه بأنها فتاة عصبية ، مضطربة الذهن والخواطر .

ثم ما هى البواعث على ارتكاب الجريمة ؟ يقول الاتهـام إن هنالك باعثين : البغضاء والجشع .

أما البغضاء فلأن مارى كابيل ، وهى فتاة ذكية مهذبة ، وثابة الذهن والخيال ، قد نكبت فى آمالها وعواطفها بالتزوج من رجل تفصل بينها وبينه هاوية سحيقة ،

وقد حملها الى مقام موحش ناء ، وألفت نفسها فى عزلة مخيفـة وفى مجتمع خشن لا يقدرها ولا ترتاح اليه ، وشعرت فوق ذلك بأنها محاطة بسياج من بغض المقيمين معها بين جدران منزلها ولا سيما حماتها الفظة الحقود . غير أنه يقال فى الرد على ذلك إن لافارج وإن لم يكن متعلما مهذبا كزوجه ، كان طيب القلب ، وكان يحبها على ما يظهر ، فلم تلبث سحب الصـدمة الأولى أن تبددت ، وحل الوفاق بينهما مكان النفرة ، ومثل ذلك العطف واضحا فى الرسائل الرقيقة التى كتبتها المتهمة الى زوجها أثناء غيبتـه فى باريس . ولم يكن يبغضها من سكان المنزل سوى حماتها ، وهـذه ظاهرة طبيعية معروفة . وأما باقى أهل المنزل فكانوا يحبونها ويخلصون لها . وقد ظهر هذا الاخلاص واضحا وقت محنتها ، فقد تبعتها خادمتها كليمانتين الى السجن ، وكذلك ابنة عم زوجها الفتاة إيما بونتييه ، ولم تتركها إلا بعد أن بذلت أسرتها كثيرا من التضرع والوعيد . ولم تقم من جهة أخرى أية شبهة على أن مدام لافارج كانت زوجة خائنة تهوى رجلا آخر هوى يدفعها الى الجريمة لتفتدى حريتها ، بل لم يحاول الاتهام ذاته أن يفترض مثل هذا الفرض . على أن الاتهام علق أهمية خاصة على الخطاب الذى كتبته مدام لافارج الى زوجها يوم مقدمها الى جلانديبه فى ١٥ أغسطس ، وأتينا على ذكره فى بدء هذا الفصـل ، ووصفه بأنه مفتاح الاتهام ، واتخذه سـندا قويا لنظريته ، غير أن هـذا الخطاب لم يكن كما قدمنا سـوى فورة طارئة سريعة لذهن مضطرم ، ولا يمكن أن يتخذ عنوانا قاطعا لمـا يجول فى نفس فتاة وثابة الخيال كمدام لافارج ، هذا فضلا عن أنه كتب وقت الصدمة الأولى ، وفى لحظة ربمـا خيل فيها لتلك الفتاة الرقيقة الساحرة أن قصورا بنتها فى الهواء قد أنهارت ، وأن آمالا كبارا تعلقها على الزواج قد غاضت وتحطمت .

وأما الجشع فلا يتصور أن يكون باعثا للجريمة ، اذ فيم تطمع زوجة يحدق العسر المـالى بزوجها ، وكيف ينسب الطمع المـادى الى زوجة تضحى بمـالها الخـاص لانقاذ زوجها من الافلاس ، وتساعده بضمانها على عقـد القروض ، بل توصى اليه بثروتها فى أول وصية تكتبها ، ثم تتعهد بعد وفاته أن تدفع قيمة السندات التى أقدم على تزويرها ، صونا لذكراه ؟

والخلاصة أنه لم يوجد بين الأدلة التى قدمها الاتهام ما يقطع بادانة مدام لافارج أو ما يرجحها .

فالدليل المادّى الحاسم أعنى وجود السم يحيط به أشدّ ضروب الغموض والريب ، وتتناقض فى شأنه المباحث والآراء الفنية الى حدّ لا يبعث الى ذرة من الاطمئنان ، بل لا تزال تضطرب بشأنه المباحث العلمية الى يومنا ، ولا تؤيده سوى شكوك أم حقود ، وشهادة فتاة عصبية هائمة الذهن ، ويدحضه فوق ذلك كثير من القرائن القوية .

وبواعث الجريمة لا وجود لها ، فلا الحب الأثيم ، ولا الجشع المادى . ولا التباين بين الزوجين وهو مما يزول عادة بتأثير الحياة المشتركة ، يمكن كما بينا أن تفترض هنا باعثا للجريمة .

٣

مع ذلك رأت محكمة جنايات كوريز أن تأخذ بنظرية الاتهام فى كل شىء .

استغرق نظر القضية سبعة عشر جلسة كانت مثار كثير من الاهتمام والانفعال والتأثر ، وبذل الدفاع كل ما أوتى من بيان وحجة ، وألقى الأستاذان پاييه وباك مرافعات بديعة[١] ، وفى الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٨٤٠ ، طرحت المحكمة السؤال الآتى على هيئة المحلفين :

« هل قتلت مارى فورتونيه كاپيل أرملة المسيو لافارج ، زوجها فى شهرى ديسمبر ويناير الماضيين بواسطة مواد يمكن أن تحدث الموت وقد أحدثته فعلا؟ »

فتداول المحلفون وأصدروا قرارا بإدانة المتهمة مع وجود الظروف المخففة . ثم تداولت المحكمة وقضت على مدام لافارج بالأشغال الشاقة المؤبدة والعرض العلنى فى الساحة العامة لمدينة تيل .

فرفعت نقضا عن الحكم ، فلم تفد شيئا سوى أن أعفيت من العرض العلنى .

---

(١) ذكرنا أن الأستاذ لاشو انضم الى الدفاع اجابة لدعوة مدام لافارج ، وقد اشترك فى جميع أدواره ، ولكنه اختص بالمرافعة فى قضية السرقة التى يأتى الكلام عليها .

* * *

يرى بعض القائلين ببراءة مدام لافارج أن المحلفين قد تأثروا بأمرين كليهما خارج عن القضية الأصلية .

(الأول) تهمة السرقة، فقد ذكرنا أن مدام لافارج اتهمت عقب القبض عليها بسرقة جواهر صديقة حداثتها الآنسة نيكولاى. وذكر زوجها الكونت ليوتو فى شكواه أن هذه الجواهر قد فقدت منذ أكثر من عام وأن السارقة لا بدّ أن تكون مدام لافارج . فلما سئلت مدام لافارج عن هذه التهمة أجابت بأن الجواهر عندها ودلت على مكانها فى منزلها ووجدت حيث قالت . ولكنها أبت بادئ بدء أن توضح سر وجودها عندها . ولما أرهقتها أسرتها ومحاموها أن تفضى بالحقيقة انقاذا لنفسها من تهمة شائنة ، صرحت أن صديقتها هى التى سلمتها الجواهر بمحض اختيارها وقت زفافها لأنها كانت قبل زواجها تهوى فتى يدعى فيلكس كلاڤييه ،وقد كتبت اليه كثيرا من الرسائل الغرامية، ولكنها اكتشفت فيما بعد أنه أفاق شريد، فلما عقد زواجها مع الكونت ليوتو خشيت أن يفضح كلاڤييه سر هواها القديم، ففكرت فى افتداء رسائلها وصمته بالمال، فسلمت الى صديقة حداثتها مارى كاپيل — ولم تكن تزوجت بعد — هذه الجواهر لبيعها أو رهنها ودفع ثمنها لكلاڤييه، ولكن مدام لافارج شغلت عن أداء هذه المهمة بزواجها و بقيت الجواهر عندها . وكتبت مدام لافارج الى صديقتها من سجنها تتضرع اليها أن تقول الحقيقة، ولكن مدام ليوتو كذبتها فى دعواها، وقالت إنها عرفت كلاڤييه معرفة بسيطة ، ولم تكن بينه و بينها علائق غرامية . وزاد الأمر غموضا أن كلاڤييه لم يظهر و لم يعرف له أثر . وعلى هذا وجهت الى مدام لافارج تهمة السرقة ، فى نفس الوقت الذى اتهمت فيه بالقتل، وقدمت الى محكمة الجنح أوّلا لتحاكم عن السرقة، فقضى عليها بالحبس عامين فى يوليه سنة ١٨٤٠ أعنى قبل صدور الحكم فى قضية القتل بشهرين، وقدّمت مدام لافارج الى محكمة الجنايات ملوثة بوصمة السرقة .

(الثانى) عبارة وردت فى مرافعة المدّعى العمومى، فقد خاطب المحلفين بقوله :
«هل تريدون أن يعتقد الناس أن المحلفين هيئة لينة خانعة اذا ما تعلق الأمر بامرأة

ذات مركز رفيع فى المجتمع، وأنها ترفع جبينها اذا تعلق الأمر برأس وضيع ؟ »
ويرى البعض أن هذه العبارة وقعت فى نفوس المحلفين أعمق وقع .

* * *

هذه قضية مدام لافارج التى أثارت فى عصرها أشدّ الاهتمام والأنفعال والتأثر، وهكذا كان ما أحاق بها من غموض وتناقض .

ولم يكن حكم القضاء خاتمة الجدل فى تلك القضية الشهيرة التى ما زالت الى يومنا تثير مختلف البحث والاستنتاج .

فمثلا يرى كثير من المشترعين والباحثين أنه لم تك ثمة جريمة، وأن لافارج توفى منتحرا لأنه لم ير سوى الانتحار وسيلة للخلاص من الأزمات المالية التى أنهكته ومن مطاردة الدائنين .

ويرى البعض أن وفاة لافارج كانت نتيجة الخطأ، وهو فرض لم يتعرّض لبحثه الاتهام أو الدفاع ، بيد أنه ليس من المستحيل أن يكون لافارج قد ذهب ضحية خطأ شنيع ، وأن تكون خادمته كليانتين أو خادمه الفرد أو مدام لافارج نفسها قد وضعت له الزرنيخ القاتل خطأ مكان بيكاربونات الصودا أو مسحوق الصمغ .

ثم يرى بعض القائلين بوجود الجريمة أن مدام لافارج لم تكن هى الجانية . وأشهر من قال بهذا الرأى مشترعان ألمانيان هما تيما وتيرنر، وقد كانا من مستشارى المحكمة الملكية البروسية ومن معاصرى المأساة . ورأيهما أنه كان أولى أن تتجه الشكوك الى دنى بار بييه عامل المصنع ، فقد كان وغدا، فاسد السيرة والخلال ، وكان هو المزوّر للسندات التى حوّلها سيده، وكان المحقق وقوعه فى يد القضاء اذا اكتشف التزوير . وقد جاء الى باريس خلسة وقت وجود لافارج فيها ولم يعرف أحد بسفره حتى فى جلانديبه، وكان هو الواقف دون غيره على شئون لافارج ومصالحه، ولم يكن بعيدا أنه هو الذى دس السم فى الفطائر، وهذا فرض يؤيده فتح الصندوق وإغلاقه ثانية قبل أن يستلمه لافارج . هذا الى أن دنى كان على

أثر عوده الى جلانديبيه يحرز السم ، وقد أعطى منه لمدام لافارج علبة ، وكان في جلانديبيه طول مدة مرض لافارج . ثم كان بعد ذلك أثناء القضية أشدّ الشهود اتهاما لمدام لافارج . ولا يقطع المشترعان الألمانيان بإدانة دني ، ولكنهما يريان أن القرائن على اتهامه أشدّ وأقوى من تلك التي قامت على اتهام مدام لافارج .

* * *

قابلت مدام لافارج الحكم عليها بشجاعة وجلد ، ولبثت أثناء المحاكمة وبعد الحكم ، تثير أشد الاهتمام والعطف حتى لقد كانت تتلقى في سجنها في تيل آلافا مؤلفة من الرسائل كل عام ، منها رسائل عطف وعزاء ، ورسائل غرام ، وعرض هبات ، وطلبات زواج . وكان من بين مراسليها بعض أقطاب الأدب والبيان في ذلك العصر مثل اسكندر ديما الكبير ، والأستاذ لاشو ، والأب بونيل ، والعلامة رسباي .

وقد أذكت المحنة خيال مدام لافارج ، وأطلقت بيانها وقلمها ، فكتبت في سجنها ثلاثة كتب تفيض بلاغة ورقة وكآبة وهي « ساعات السجن » و « المذكرات » و « الرسائل » .

وفي مايو سنة ١٨٥٢ كتبت الى البرنس لويس نابليون رئيس الجمهورية خطابا مؤثرا تلتمس فيه الرأفة والعفو ، هذا نصه :

« مولاي : لقد يئست مدى اثني عشر عام من عدالة البشر ، ولكني اليوم وقلب فرنسا يخفق في قلب نابليون الثاني ، اليوم وفي وسع ألم الضعفاء أن يؤمل وأن يتضرع ناهضا ، ألتمس اليك يامولاي قليلا من الشمس لحياتي ، ورعاية سامية لمحنتي .

« اني بريئة يا مولاي ! . وأنتِ ممثل العدالة الالهية على الأرض . فتنازل ، بهذا الوصف ، الى الحكم بيني وبين الوقيعة ، وتنازل بوزن دموع قدرها الله وحده . ان الحقيقة تجيب نداء الملوك ، وفي وسعها أن تحمل الوقائع على تأييدي ، ولما كنت أيها الأمير ، قد صحت نحوك في يأسي ، شأن كل منكوب في فرنسا ، فسوف

أتعزى وسوف أنقذ . لقد زوّدنى الايمان بالقوّة فى ساعات أسرى ، وسيكون العرفان خلة أيام حريتى .

« لست ألتمس حرية السعادة ! ولكنى ألتمس يا مولاى القدرة على تمثيل ضميرى فى كل عمل من أعمال حياتى ، والوسيلة الى كسب سموّك الى قضية براءتى ، و إلى اغتنام عطف الله على ظفر حق .

« أيها الأمير ، لو كان أبى حيا ، لكان عليه فقط أن يجد اسما عظيما ليحول قرار رأفة الى قرار عدالة . وأنت تحمل هـذا الاسم يا مولاى ، وانى لأرتفع بصلاتى نحوك . فعفوا لأجل ذكرى أبى وشرفه ، وعفوا أيها الأمير وعدالة لاثنين » .

فعفا عنها لويس نابليون ، وعادت الى جلانديبيه فى منزل زوجها القديم بعد اثنى عشر عام من الأسر ، غير أن المحنـة وصروف الزمن لم تذهب بسـوء الظن من قلوب أهل القرية فكثيرا ما كانت تسـمع من حولها اذا خرجت للتريض من يصمها « بالسارقة ، والمسممة » .

ولم تنعم مدام لا فارج طويلا بحريتها ، فقـد مرضت لأشهر فقط من اطلاق سراحها ، ولما شـعرت بدنو أجلها جمعت حول فراش موتها أو فى أصـدقائها ، وأكدت أمامهم وأمام القسيس الذى أتى يباركها ، انها بريئة من دم زوجها قائلة : «انى سأتقدّم لقضاء الله ، وانى أمامه أؤكد براءتى » ، وهذه أيضا قرينة على براءتها .

* * *

كانت قضية مدام لا فارج للأستاذ لاشو فاتحة شهرته وبداية مجده ، ولم يتأثر مثله انسان لمحنة هـذه الفتاة الرفيعة الخلابة ، التى كانت تنفث من حولها الانفعال والسـحر .

دافع عنها بكل ما أوتى من قوّة جنان ، ومنطق ، وبلاغة فنية . وبلغ من تأثره لمحنتها وعطفه عليها أنه لبث أعواما طويلة يكاتبها فى أسرها ، ويزورها فى سجنها كلما سنحت الفرص ، بل لقـد حدّثته نفسه ذات مرة حينما نقلت مدام لافارج

الى سجن الجنوب ، أن ينقل مكتبه الى مونبلييه وأن يقيد اسمه فى جدول محاميها ، ليكون دائما على مقربة منها، ولكنها حملته على العدول عن فكرته .

وكان لاشو يثق ببراءتها ثقة تبلغ حدّ اليقين والايمان ، ولم يغير من يقينه قط رغم كل ما أثير حول هذه المأساة من ضروب الجدل، وما ذكر اسم البريئة أمامه إلا تولاه الانفعال والشجن .

ولما توفيت مارى كاپيل سنة ١٨٥٣ لبث لاشو حتى وفاته ، مدى ثلاثين عاما يتعهد قبرها، ويضع الأزهار عليه .

مراجع هذا الفصل

F. Sangnier : Plaidoyers de Lachaud.

H. Robert : Grand Procès de l'Histoire.

Larousse (Le Grand Dictionnaire).

الفصل السادس

الاعتداء على نابليون الثالث
ومحاكمة أرسيني زعيم الوطنية الايطالية
سنة ١٨٥٨

فى أواسط القرن التاسع عشر كانت أوربا تجوز مرحلة عنيفة من مراحل التطور . وكان الاضطرام المعنوى أو الفكرى الذى يثير بوادر هذا العنف يعمل فى بث الاضطراب أكثر مما تعمل الحرب . وكانت أمم أوربية عديدة مثل روسيا وايطاليا وفرنسا تعيش فى غمار متعاقبة من الحوادث والمفاجآت المتباينة . وكانت ايطاليا بالأخص مهدا لتطور فكرى سياسى عميق هو عهد اليقظة القومية ، فكانت بذلك مسرحا للنزعات الحرة ، وكانت معارك الطغيان والحرية تضطرم فى الجهر والخفاء معا . وكانت ايطاليا مذ انهارت دولة بونابارت فيها ، قد مزقت الى وحدات سياسيه جديدة ، فاستولت النمسا على البندقية ، وقامت مملكة ساقويا القديمة ، وأعيدت الدولة البابوية . ولكن دعوة التحرير كانت قد ذاعت فى جميع ايطاليا ، وكان الفتح البونابارتى فى الواقع عاملا فى تكوين الوحدة الايطالية ، لأنه جمع ايطاليا تحت نير واحد ، وحطم الحواجز السياسية والاجتماعية التى كانت تفرق بين أجزائها منذ قرون .

ففى ذلك العهد الذى أخذت تجيش فيه ايطاليا بنار الثورة التحريرية ، ظهر فى ميدان النضال جماعة من أولئك الرجال الذين يعتبرون بحق رسل الوطنية ، والذين تعمل دعواتهم الوطنية ، ويعمل اخلاصهم وحماستهم ، ما لا تعمله الجيوش الجرارة : ظهر ماتسينى ، وكاڤور ، وجاريبالدى ، وفابريزى ، وأرسينى ، وكثيرون غيرهم فى الميدان ، فبثوا فى الشبيبة الايطالية حمى الوطنية ، وبعثوا الى جوانحها شغف الحرية

والاستقلال والوحدة . وكانت الوطنية الايطالية تلجأ يومئذ الى سلاح التآمر قبل كل شيء، لأن عسف الحكومات الأجنبية المحلية، كان يجردها من أسلحة الجهر وأدوات النضال الظاهر، والى هذه الجهود السرية يرجع الفضل الأكبر فى تحرير ايطاليا وفوزها باستقلالها وحرياتها .

ونريد أن نعنى فى هذا الفصل بسيرة رجل من أولئك الرجال الذين خلدوا اسمهم فى تلك الصفحة المجيدة، هو أرسينى . وأرسينى فوق كونه من أعلام الوطنية الايطالية، بطل قضية من قضايا التاريخ الكبرى، وهو أيضا متآمر بارع، ومفكر نابه، وكاتب مؤثر، وفى حياته القصيرة من ضروب النشاط، والمغامرة ما يفوق كثيرا من قطع الخيال الرائع، وفى خاتمته المؤسية ما يسبغ على اسمه وذكره ظلال الرهبة والروع، فقد هلك أرسينى فى سبيل دعوته ومبادئه فوق النطع، ولكنه زهق جريئا يبتسم للموت، و يعتبره خاتمة سعيدة لكفاح لم يكلل بالنجاح قط، وحياة لم يعرف من نعمائها سوى عسف الاضطهاد والمطاردة، ووحشة السجن والمنفى، ومرارة البأساء والحرمان .

ولد الكونت فيليشى أرسينى فى ملدولا من أعمالى فورلى فى سنة ١٨١٩ من أسرة نبيلة . وكان أبوه وطنيا صادقا بث فيه منذ نعومة أظفاره حب الوطن ومقت المغتصب . وفى سنة ١٨٣٨ انتظم فى جامعة بولونيا ليدرس الحقوق . وكانت مدن الجامعات الايطالية يومئذ معاقل الوطنية الايطالية لأنها مجمع الشبيبة المتنورة . وكانت تنتشر فيها شعب الجمعيات السرية الوطنية ، فانضم أرسينى الى جمعية ايطاليا الفتاة التى أسسها ماتسينى منذ سنة ١٨٣١ ، ولم يفكر منذ حداثته فى قطع حياة هادئة أو امتهان أعمال عادية منظمة ، ولم يملأ رأسه سوى فكرة واحدة هى أن يكرس حياته ونشاطه لمقاومة الغاصب ونيره، ولذا عنى عناية خاصة بدرس الأسلحة والشئون الحزبية ومهر فيها . وكان بدء حياته الثورية العملية فى سنة ١٨٤٣ حيث قامت اضطرابات فى بولونيا وغيرها من مدن الجامعات ، فكان أرسينى فى الطليعة . ثم دبر الوطنيون محاولة لأخذ إمولا وقام بها ريبوتى أحد زعمائهم، وكانت عصابات

الوطنيين ما زالت مفككة قليلة المران والأهبة فخابت كل محاولة دبروها يومئذ ومزقت جموعهم فى كل مكان، وقبض على جماعة كبيرة من الوطنيين منهم أرسينى وأبوه؛ وقدم فيليتشى للمحاكمة أمام «المشورة المقدسة» فى رومة فقضى عليه بالنفى المؤبد، وأرسل الى منفى شفيتا كاستيلانا فى سنة ٤٤ وهو لم يجاوز يومئذ الخامسة والعشرين من عمره .

ولكن عهد أسره لم يطل . وكانت فكرة الفرار تختمر فى ذهنه؛ وكانت وشيكة النفاذ، ولكن الحرية جاءت اليه من طريق آخر . فان جريجورى السادس توفى فى يونيه سنة ٤٦ فخلفه فى كرسى البابوية پيوس التاسع، واستهل حكمه باصدار العفو عن جميع المجرمين السياسيين، وكان عددهم زهاء ألفين، وصدر العفو فى ١٦ يولية سنة ٤٦ فخرج ارسينى من منفاه، ولكنه أرغم هو وزملاؤه على توقيع وثيقة يقسم كل فيها بشرفه « ألا يعمل بعد لتعكير النظام العام والا يحاول مقاومة الحكومة الشرعية » وهو ما يشير اليه أرسينى بعد ذلك فى مذكراته السياسية بقوله «هل استطعنا أن نقطع مثل هذا العهد دون مخالفة لضمائرنا ؟ أقول نعم اذ نستطيع أن نعتبر الحكومة الجديدة حكومة شرعية، ألم تفتتح عهدها بالاصلاح والعمل على تحقيق رغبات الشعب ؟ ألم تعتبر أشرافا أولئك الرجال الذين اشتركوا فى الثورات السابقة ؟ ثم ألم تعترف فى الواقع بأن النظام الذى ورثته انما هو نظام الاستبداد ؟ وبعد فهل حاولنا فى الثورات التى تلت أن نعكر النظام العام ؟ وهل اعتدينا على حكومة شرعية ؟ الجواب كلا، فقد خرجنا على پيوس التاسع لأنه حنث بعهده وحذا حذو أسلافه، وخان ايطاليا وطن رعاياه، ولأنه تحالف مع الطغاة الأجانب، ومن ثم فانه لم يبق الحاكم الشرعى» .

وخرج أرسينى من السجن أشد ما يكون عزما على متابعة الكفاح؛ فذهب الى توسكانيا وانخرط هنالك فى سلك الثورة التى قامت لارغام الجراندوق ليوبولد الثانى على اجراء اصلاحات كالتى أقرها پيوس التاسع . فقبض عليه ثانية وأبعد خارج الحدود . ولكنه عاد فدخل ايطاليا وانضم الى ريبوتى وفابريزى، وتولى

مكاتبـة فابريزى مع ماتسينى . وكان لسقوط الملوكية واعلان الجمهورية فى فرنسا فى فبراير سـنة ٤٨ صـدى عميق فى ايطاليـا . وكانت الثورات المحليـة تنشب فى جميع أنحاء أيطاليا ، فلبث ارسينى يتقلب فى هذه الثورات ، وانتظم حينا ضابطا فى جيش البندقية الوطنى ، وخاض عدّة وقائع أبدى فيها جميعا كثيرا من الجرأة والشجاعة والبراعة .

ولمـا قامت الثورة فى الولايات الرومانية وأسفرت عن فرار البابا وقيام الجمعية الدستورية فى رومه سنة ٤٩ انتخب أرسينى نائبا عن كايات بولونيا وفورلى ، ولكن فرنسا تدخلت فى الحوادث عنـدئذ وبعثت جنـدها الى رومه تحت قيادة الجنرال أودينو لتسحق الثورة ولتنقذ المدينة الخالدة من يد الثوار، فحاصر الفرنسيون رومه ولبث أرسينى أثناء الحصار الى جانب جاريبالدى حتى سقطت المدينة فى يد الغزاة الأجانب ، ففر أرسـينى الى جنوه . ثم عاد فتجوّل حينا فى الولايات الوسطى يبث دعوة الثورة ، ويحاول حشد القوى الوطنية ، ولكن الوطنية الايطالية لم تلق يومئذ سوى الفشل فى كل ناحية ، وقبض على أرسينى أثناء هذه الحوادث أكثر من مرة ، واتصل بمـاتسينى فى جنيف . وكان يحمل تعليماته الى اللجان الثورية . ثم سافر الى النمسا باسم مستعار وطاف حينا فى المجر يدعو سرا الى الثورة هنـالك على الحكومة النمسوية . والظاهر أنه كان يحاول بذلك أن يدبر فى المجر ثورة تقوم فى نفس الوقت الذى تضطرم فيه الثورة فى ايطاليا ، فتشغل الحكومة النمسوية بذلك ويضطرب دفاعها . ولكن قبض عليه بعـد حين وحوكم ، وكانت قائمة اتهامه تحتوى على تهم رئيسية ثلاث : هى أولا ، أنه قضى حياته فى التآمر على الحكومات الايطالية وبث الدعوة الثورية . وثانيـا ، أنه كان رسول ماتسينى الى اللجـان الثورية يحمل تعاليمه المكتوبة بيـده اليها ، وقد ضبطت بعض هذه الرسائل فى ميلان . وثالثا ، تجواله متنكرا فى الولايات المجرية وهى رحلة لم يتضح غرضه منها . قدم أرسينى مثقلا بهذه التهم الى المحكمة المخصوصة فى مانتوا وهى لجنة تطبق قضاء شـبه عسكرى وتجرى أمامها المرافعات سريعة وسرية ، وأحكامها صارمة لا تقبل الطعن . وكان مصير

أرسيني ظاهرا لا شـك فيه، فلم يحاول انكارا أو دفاعا عن نفسه . وقضت المحكمة بادانته فى تهمة الخيانة العليا وحكمت باعدامه فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٥٥ . وكان يعتقل عندئذ فى حصن من أمنع الحصون هو قصر سان چورچو، ولكنه لم ييأس ولم يفقد جلده وصفاء ذهنه، ولم يلبث أن وفق رغم صرامة الاعتقال وضيق الوقت الى تدبير فرار من أغرب ما دونت سير القصص والخاطرات الغريبة .



الأمبراطور نابليون الثالث

وكانت لندن مقر الثورة العامة التى يدبرها ماتسينى، وكان أرسينى من أهم أركانها . وكانت العاصمة البريطانيـة يومئذ ملاذا أخيرا لدعاة الثورة على اختلاف غاياتهـم وألوانهم، فاعتزم أرسينى أن يؤمها وأن يستقر فيها ردحا من الزمن ينظم فيه

خططه ومشاريعه. وكان قد زارها مرارا قبل ذلك لمهام ورسالات ثورية، فوصلها في شهور سنة ٥٦، وكان صيته قد سبقه وذاعت مخاطراته في كل مكان. وكتب هنالك وقتئذ كتابه عن « السجون الفرنسية والايطالية » ومذكراته السياسية التي يهديها الى الشبيبة الايطالية[١]، وعاش حينا من القاء محاضرات عامة في شؤون ايطاليا الوطنية. والظاهر أن الذي حمله على الاستقرار في لندن ذلك الحين هو خلافه مع صديقه وزعيمه القديم ماتسيني، فقد قامت بينهما أسباب الخلاف لأول مرة فانفصل أرسيني عنه واعتزم أن يفكر وأن يعمل مستقلا في نفس السبيل ولنفس الغاية.

وأنفق أرسيني في لندن زهاء عام ونصف عام. والظاهر أنه سئم المضي في مغامراته وجهوده العقيمة في الأراضي الايطالية ذاتها، فاتجه ببصره الى ناحية أخرى. وكانت الوطنية الايطالية تعلق آمالا كبيرة على فرنسا، وكانت فكرة تحرير ايطاليا ووحدتها ذائعة في فرنسا في ذلك الوقت، سيما بين الجمهوريين. فلما أعلنت الجمهورية الفرنسية في سنة ٤٨ قويت هذه الآمال. وكان لويس نابليون أو (نابليون الثالث) في الواقع قد تدخل لأجل ايطاليا غير مرة، وهدّد النمسا باعلان الحرب عليها اذا هي اعتدت على استقلال مملكة بيمون التي كانت أول حجر في صرح الوحدة الايطالية، ووعد الجنرال لامرمورا رسول الملك فكتور إمانويل أن يساعد ايطاليا على تحقيق أمانيها متى انتهى من توطيد سلطان فرنسا وهيبتها، ولكنه من جهة أخرى أرسل جنده لسحق الثورة في الولايات الرومانية واستخلاص رومة من أيدي الثوار، كما تقدّم، واقصاء الوطنيين عنها، ورد السلطة الى البابا[٢]. وكانت هذه في نظر

---

(١) Memorie Politiche de F. O., dedicata alla Gioventu italiana.

(٢) يجدر بنا أن نذكر كلمة عن موقف نابليون الثالث من الحركة القومية الايطالية. فقد كان نابليون نصيرا لهذه الحركة مذ كان فتى شريدا في حداثته. وكان يحب ايطاليا و يقول عنها إنه وطنه الثاني، بل كان في الواقع عضوا في جمعية الكوبوناري السرية التي لعبت دورا كبيرا في اعداد الحركة القومية الايطالية وأمدتها بمعظم رجالاتها و زعمائها، وقد اشترك في ثورة سنة ١٨٣١ التي قامت في الولايات الرومانية (ولايات الكنيسة). وفي سنة ١٨٤٩، بعد موقعة نوفارا التي هزمت فيها النمسا مملكة بيمون الايطالية هزيمة ساحقة بادر نابليون لنصرة فكتور إمانويل ملك بيمون وهدد النمسا بارسال الجيش الفرنسي الى بيمون =

الوطنية الايطالية جريمة لا تغتفر. وكان زعماء ايطاليا الفتاة مثل ماتسيني وجاريبالدى يفكرون يومئذ فى إقامة جمهورية إيطالية فى رومه تكون نواة لجمهورية إيطالية موحدة فقضى لويس نابليون على هذا الحلم. وفى أواخر سنة ٥١ كشف لويس نابليون القناع بجأة ودبر وثبة ديسمبر العسكرية التى انتهت قبل عام بسحق الجمهورية الثانية واعلان الامبراطورية، والتى ينعتها فكتور هوجو «بالجريمة»، ويقص حوادثها الغريبة فى كتابه «تاريخ جريمة»[1] . وكان هذا الانقلاب جريمة جديدة فى نظر الوطنيـة الايطالية، لأنها كانت تضـع آمالها فى الحزب الجمهورى الذى حطمه نابليـون الثالث . وكان أرسينى يعتبر الرجل الذى قضى على استقلال وطنه فى المهـد، أعنى نابليون الثالث مصـدر مصائب إيطاليا كلها؛ ويرى فيـه رمز الطغيان وروح الحركات الرجعية فى أوربا كلها . والظاهر أن فكرة اغتيال نابليون الثالث خطرت لأرسينى أثنـاء مقامه فى لندن ولم تخطر له قبل ذلك . والظاهر أيضا أنها نشأت فى ذهنه مستقلة، ولم تكن من وحى جماعة إيطاليا الفتاة، ولم تكن بالأخص من وحى الزعيم ماتسينى، ولم يكن يعلم بها ، وان كانت الشبهات قد توجهت اليه من كل صوب ، واعتبرته الصحف المحافظة، فى جميع أوربا، روح الجريمة ومدبرها .

= للدفاع عنها اذا حاولت النمسا اعتداء على استقلالها، واستطاع بذلك أن يرغم النمسويين على اخلاء بيمون . وفى سنة ١٨٥٢ استقبل الجنرال لامرمورا رسول فكتور إمانويل ووعده أن يقوم بجهود لنصرة ايطاليا متى استتبت شؤون فرنسا. وكان نابليون أو لويس نابليون يومئذ رئيسا للجمهورية الفرنسية، ولكن الجمهورية استحالت بعدئذ الى الأمبراطورية الثانية وتربع لويس نابليون على عرشها باسم نابليون الثالث . ومن ذلك الحين استقرت سياسته الخارجية على مؤازرة الحركات الحرة خارج فرنسا، وبخاصة فى ايطاليا . وكان اشتراكيا فى مبادئه، ومتآمرا قضى شطرا من حياته يجوس خلال الجمعيات السرية الحرة التى ذاعت يومئذ فى ايطاليا وفرنسا. وكانت فكرة القومية وتحريرها ووحدتها توحى اليه كثيرا من أعماله وسياسته الخارجية. ومن ثم كان اهتمامه المستمر بنصرة الحركة القومية الايطالية ومقاومة النمسا فى ايطاليا . وكان اعتداء أرسينى على الأمبراطور بفكرة أنه نكث بعهده وغير سياسية . وكان للاعتداء أثره . فان الأمبراطور عقد مع كافور وزير بيمون معاهدة سرية يتعهد بها أن يعاون بيمون اذا غزتها النمسا . وعلى قاعدة هذه السياسة تدخلت الجيوش الفرنسية فى حوادث ايطاليا وحروبها القومية مرارا حتى سنة ١٨٧٠

(١) L'Histoire d'un Crime

وعلى أى حال فقد اعتزم أرسينى تنفيذ مشروعه فى أقرب فرصة . فالتجأ الى عون ثلاثة من مواطنيه هم پيرى و رديو وجومز، وهم من الوطنيين المنفيين مثله . ثم عبر البحر الى فرنسا بجواز انجليزى باسم مستعار هو توماس السوب ، ووصل الى باريس فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٥٧ ، وأقام فى شارع مونتابور رقم (١٠) ولحق به زملاؤه تباعا . وكان يحمل معه عدّة قنابل صنعها فى لندن وحشاها بمواد وأحماض عنيفة، باعتبارها آلات غازية . واستمر زهاء شهر يدبر الخطط الأخيرة لمشروعه ، و يترقب يوما صالحا للتنفيذ .

* * *

وكان هذا اليوم ١٤ يناير سنة ١٨٥٨ . وكان قد تقرّر أن تقام فى مساء هذا اليوم فى دار الأوپرا حفلة تمثيلية خاصة يشهدها الامبراطور والامبراطورة وكبار البطانة . وكانت دار الأوپرا وما حولها من الميادين والطرق تسطع بأنوار باهرة . وكانت الشوارع المؤدّية اليها تغص بجماهير كبيرة احتشدت لرؤية الامبراطور . وفى نحو الساعة الثامنة ظهر الموكب الامبراطورى . وكان يؤلف من ثلاث عربات ملوكية ، فى الثانية منها نابليون الثالث وزوجه الامبراطورة أوجينى . وكان أرسينى قد رابط مع زملائه فى شارع پلتييه المواجه للاوپرا وكل يحمل قنبلة . وكان الموكب الامبراطورى يسير ببطء حينما اقترب من الأوپرا ميمما شطر الممر الملكى، فلما همت عربة الامبراطور بالدخول فيه دوت ثلاثة انفجارات رائعة هى دوى القنابل التى ألقاها أرسينى ورديو وجومز، لأن پيرى قبض عليه قبل أن يلقى قنبلته. فانطفأت المصابيح فى الميدان وساد الظلام ، وساد بين الجموع اضطراب هائل، وارتفعت صرخات الذعر من كل ناحية يتخللها أنين الجرحى . ولم يصب الامبراطور والامبراطورة بأذى رغم أن عربتهما أصيبت بنحو سبعين شظية، وقتل أحد الجوادين وجرح الآخر، وأصيب الجنرال روچيه ياور الامبراطور والسائق والحجاب جميعا باصابات مختلفة . أما فتك القنابل بالجموع فكان ذريعا . فقد غدا الميدان الذى كان يتلألأ منذ برهة كأنه ساحة موقعة حربية، وثبت من التحقيق الذى أجرى

بعد ذلك أن زهاء مائة وستين شخصا أصيبوا ، وأن القتلى على الأثر بلغوا عشرات ، ومنهم احدى وعشرون امرأة وأحد عشر طفلا ، وأن كثيرين ماتوا بعد ذلك من جراحهم ، وجرح أرسيني نفسه جرحا شديدا .



الامبراطورة أوجينى

وكال پيرى قد اشتبه فى أمره قبيل الحادث وقبض عليه — كما قدّمنا — فوجد معه مسدس وخنجر وقنبلة . ولم يمض على وقوع النكبة إلا القليل حتى قبض على جومز أيضا فى مطعم فى شارع پلتييه . وكان قد لفت نظر الخادم باضطرابه وامتقاعه وزفراته وإشاراته وأقواله الغريبة ، فاستدعى شرطيا فقبض عليه ، وقيد الى مأمور

البوليس فأقر بكل شيء . ولم تمض بضع ساعات أخرى حتى قبض على رديو وأرسيني، فتم القبض بذلك على جميع الشركاء .

* * *

واستمر التحقيق عدّة أسابيع . ولم يحاول الانكار سوى بيرى، واعترف أرسيني بكل شيء وانه هو الذى دبر المشروع، وحمل القنابل وحشاها بنفسه، وأكد أنه هو وحده المسئول عن كل شيء . أما زملاؤه فلم يكن دورهم فى الجريمة سوى ما طلبه هو اليهم من المعاونات المادية ، وكانوا آلات فى يده فقط . وفى يوم ٢٥ أبريل ظهر أرسيني وشركاؤه أمام محكمة جنايات السين ، وكان يرأسها المسيو دلانجل . وظهر چول فافر مدافعا عن أرسيني، وكان چول فافر قد تسنم يومئذ ذروة الزعامة السياسية . وكان علما من أعلام الفصاحة، بل كان أمير البيان يومئذ . وكان من أقوى أركان الحزب الجمهورى ومن ألد خصوم الامبراطورية . وهو الذى حاول فى سنة ٤٨ أن يحشد الشعب الباريزى لمقاومة لويس نابليون حينما انتخب رئيسا للجمهورية . وقد انتخب بعدذلك عضوا فى وزارة الدفاع الوطنى أيام الحرب الفرنسية الألمانية سنة ٧٠، وتقلد وزارة الخارجية واشتهر يومئذ بقوله : « إنه لن يسلم لألمانيا شبرا من الأرض ولا حجرا واحدا من قلعة »، فكان چول فافر يمثل فى وقوفه الى جانب أرسيني خصومة المبادئ الحرّة للطغيان ؛ وكان الموقف ميدان مبادئه وعقيدته؛ فاستنفد فى الدفاع عن موكله كنوزا من البيان الرائع ، وجاء دفاعه الرنان صفحة خالدة من الفصاحة القضائية، وحمله يومئذ الى ذروة الشهرة . وكان أرسيني قد أرسل الى الامبراطور من سجنه فى مازاس منذ ١١ فبراير خطابا يوصيه فيه بتغيير موقفه نحو إيطاليا، ويناشده الرجاء أن يبذل ما يستطيع فى سبيل استقلالها ووحدتها، فتلا چول فافر هذا الخطاب الأشهر أمام المحكمة بعد ان استأذن الامبراطور فى تلاوته . وكان قطعة مؤثرة من الوطنية الحارة . واليك بعض فقراته :

«ان الاعترافات التى سجلتها على نفسى فى القضية السياسية التى رفعت عن حادث ١٤ يناير تكفى لارسالى الى الموت ، وسأحتمله دون أى التماس للعفو،

لأنى لن أحنى رأسى أبدا أمام ذلك الذى قتل حرية وطنى المنكود فى المهد ، ولأن الموت فى مثل موقفى يعتبر نعمة . واليوم وان كنت على شفا الموت ، أحاول مجهودا أخيرا فى سبيل ايطاليا التى خضت حتى اليوم من أجل استقلالها كل المخاطر ، ولم أحجم عن أية تضحية : ذلك أنها ملاذ كل حبى وهى الفكرة الأخيرة التى أريد أن أودعها هذه الكلمات التى أوجهها الى جلالتك .

«إن استقلال ايطاليا واجب لحفظ توازن أوربا وإلا فعلى النمسا أن تحكم الأغلال التى تضعها فى عنق ايطاليا . وبعد فهل أطلب فى سبيل خلاصها أن يسفك الفرنسيون دمهم من أجل مواطنى ؟ كلا ! فلست أذهب الى هذا الحدّ . ولكن ما تريده ايطاليا هو ألا تحاز فرنسا الى أعدائها ، والا تؤيد النمسا فى المعارك التى ستنشب . وهذا ماتستطيع ، يا ذا الجلالة ، أن تؤدّيه اذا شئت ، وعلى ارادتك تتوقف سعادة وطنى أو نكبته ، ويتوقف حياة أو موت أمة تدين أوربا بحضارتها اليها أعظم دين .

«هذا هو الرجاء الذى أجرؤ أن أرفعه من ظلام سجنى الى جلالتك ، ولست بيائس أن يسمع صوتى الخافت . إنى لأضرع اليك يا ذا الجلالة ، أن تردّ الى وطنى ذلك الاستقلال الذى انتزع منه فى سنة ٤٩ من جراء خطأ الفرنسيين أنفسهم ...» .

غير أن دفاع چول فاڤر لم ينقذ رأس موكله فقضى بادانة أرسينى وزملائه ، وحكم عليهم بالاعدام ما عدا جومز ، فقد اعتبرت له ظروف مخففة فقضى عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وفى ١١ مارس وجه أرسينى من سجنه الى الشبيبة الايطالية خطابا مفتوحا ينكر فيه الالتجاء الى القتل السياسى ويقول إن الوسيلة الوحيدة لتحرير ايطاليا هى اعتناق الفضائل والتقاليد القومية .

وكان التنفيذ فى يوم ١٣ مارس ، فقيد أرسينى وزميليه الى النطع ؛ وأعلن رديو فى ساحة الاعدام أن حكمه قد خفف الى الأشغال الشاقة المؤبدة . فقيد أرسينى

و پیری وحدهما الى النطع . و يروى أن پيرى كان شديد الاضطراب ،وأن أرسينى كان يهدّئ روعه و يواسيه . أماأرسينى فقد حافظ على جلده وثباته حتى آخرلحظة ، و يروى أنه صاح حينما وضع رأسه فوق النطع : «لتحيى ايطاليا ، ولتحيى فرنسا ! » .

وهكذا زهق الكونت فيليتشى أرسينى فى زهرة العمر ، بعدحياة قصيرة ، ولكن حافلة بصنوف الكفاح والمغامرة ، فى سبيل قضية الوطن المقدّسة . وكان أرسينى يمثل بايمانه الوطنى ، وخلاله و إقدامه وتضحيته ، صورة مزدوجة من أبطال العصر القديم ، و رسل الحرّية المحدثين . وكان يجمع فى شخصه ، كل الصفات والمواهب التى تؤهله للزعامة الوطنية . وكان بيانه الملتهب خير لسان للشبيبة الايطالية التى لبث حينا رمز أمانيها البديع . وكان خطابه الذى وجهه لنابليون الثالث ، من ظلمات سجنه وغمر يأسه ، وثيقة مؤثرة تشهد بروعة جأشه ، ومتانة خلقه وعقيدته .

مراجع هذا الفصل

B. King : The Life of Mazzini.

J. Favre : La Défence d'Orsini.

Malet : XIX Siècle

Larousse : Grand Dictionnaire.

الفصل السابع

محاكمة المارشال بازين

سنة ١٧٨٣

لم ينقرض فى الشعب الفرنسى بعد ذلك الجيل الذى شهد الحرب الألمانية فى سنة ١٨٧٠ ، فمن الفرنسيين اليوم شيوخ ما تزال تمثل فى أذهانهم صورة المأساة الرائعة التى سحقت فيها فرنسا وذلت . وقد محت الحرب الكبرى التى سحقت فيها ألمانيا العسكرية وذلت ، من أذهان الشعب الفرنسى كثيرا من آثار هذه الذكريات المؤلمة . ولكن حوادث الحرب البروسية الأولى تبقى دائما عبرة خالدة فى تاريخ فرنسا القومى . ففى غمار هذه النكبة التى لا مثيل لها فى التاريخ الفرنسى استطاعت فرنسا أن تعتبر با لحوادث ، والدم يقطر من جراحها العميقة ، فحطمت الامبراطورية واستعادت حكومتها الجمهورية — ثمرة الثورة الفرنسية الكبرى ، وقضت على المطامع والدسائس السياسية القديمة التى جعلت منها مدى ثلثى قرن فريسة لطائفة من المتغلبين من فل الملوكية والامبراطورية ، وسطرت بذلك فى تاريخها القومى صفحة مجيدة جديدة ، هى قدوة خالدة للقومية المنكوبة ، بما تفيضه من معانى الشجاعة والبسالة ، ومغالبة الشدائد .

ولسنا نعرض لسيرة الحرب الألمانية الفرنسية لذاتها ، أسبابها أو مقدماتها ، ولكنا نريد أن نعنى بفصل من فصول هذه المأساة الشهيرة ، نستعرض خلاله بعض مواقفها العصيبة الحاسمة — نريد محاكمة المارشال بازين ، وما اقترن باسم بازين من حوادث وخطوب . والحقيقة أن اسم المارشال يمثل فى أدق وأحرج المآزق التى لقيت فيها فرنسا ضربتها القاتلة ، وما زال اسم المارشال يعنى الهزيمة

والقصور والتفريط والخيانة . ولعل فى سيرة الماريشال وخلاله وتصرفاته، قبل الحرب وأثناءها، ما يبرر حكم التاريخ عليه ، وما يصمه بشر الوصمات . ولكن حقيقة الظروف والحوادث التى أثارت على اسم الماريشال ومقاصده ، وخلاله ، سحابة كثيفة من الريب، وأنزلته الى درك التفريط والخيانة، مازالت موضعا لكثير من الجدل . وقد كان هذا الغموض ماثلا فى محاكمة تريانون التى عقدت لمحاسبة الماريشال على ماأثم فى حق وطنه، وماترتب على هذا الاثم من خطوب وكوارث. ولكن قضاة تريانون ألفوا فى سلوك الماريشال وتصرفاته ما يكفى للقضاء عليه بخسران شرفه وحياته . والنقد الحديث لا يبرئ الماريشال، ولايعفيه من مسئولية ماحدث من جراء تفريطه، ولكنه قد يرفع شيئا من الريب المزرية التى أحاطت بنيات الماريشال وجعلته مستحقا لوصمة الخيانة الخالدة .

والحقيقة أن نشأة المارشال بازين وصروف حياته، وتكوين ميوله وأخلاقه، لم تكن تؤهله لأن يكون رجل الموقف العصيب الذى اختير له ، ولا أن تلقى اليه مصاير فرنسا فى مأزق من أدق المآزق فى تاريخها . فقد بدأ بازين حياته فى العشرين جنديا بسيطا فى الجيش سنة ١٨٣١ ولكنه كان يجيش بأطماع قوية غامضة ، وفيم يطمع الجندى البسيط ؟ وكانت تحفزه ارادة حديدية لعلها أمتن خلاله . ودخل الفرقة الافريقية بادئ بدء ورقى بسرعة حتى جاز رتبة « الليوتنان » سنة ١٨٣٥ ، وكانت الحرب الأهلية تضطرم يومئذ فى اسبانيا، فأرسله لويس فيليب اليها لمساعدة الملكة كرستين على رأس فرقة صغيرة ، فأظهر كفاية ومقدرة ، ثم عاد الى الفرقة الافريقية، ورقى « كبتين » سنة ٣٩، ثم رئيس فرقة سنة ٤٤ ثم «كولونيل» سنة ٥٠، ثم قائدا للفرقة الأجنبية. وفى هذه البيئة أعنى فى معترك الحروب الأهلية والمعارك الصغيرة، وما يصحبها من تقلب وخديعة ودسائس، سلخ بازين شبابه، وتكونت ميوله وأطماعه . وفى سنة ١٨٥٥ أرسل مع جيش القرم فاشترك فى وقائع هذه الحرب، وعين حاكما لسباستبول لما سقطت المدينة فى يد الفرنسيين . ثم خاض بعد ذلك الحروب الايطالية وظهر فيها .

على أن بازين لم يظهر فى ثوبه الحقيق ولم تبرز خلاله وظواهر نفسه إلا فى حوادث المكسيك . وكانت الحكومة الامبراطورية قد اعتزمت أن تفتتح الجمهورية الناشئة وأن تخوض مغامرة المكسيك الى نهايتها . وكانت قد أرسلت اليها قبل ذلك قوة صغيرة مزقتها قوات الزعيم المكسيكى بنيتو چواريز . ولكنها فى أواخر سنة ١٨٦٢ أرسلت الى المكسيك جيشا قوامه ثلاثون ألف مقاتل على رأسه الجنرال فورى ؛ وكان بازين قائدا لاحدى فرقه ؛ فاشترك فى المواقع الحاسمة التى استولى الفرنسيون فيها على مدينة المكسيك وبيبلا . وأنشأ الجنرال فورى فى الحال مكان الحكومة الجمهورية حكومة مؤقتة نادت بالارشيدوق مكسمليان النمسوى امبراطورا على المكسيك . ولكن الجنرال فورى ما لبث أن استدعى الى فرنسا وعين بازين مكانه رئيسا للحكومة الجديدة . وكان الجيش المكسيكى قد مزق خلال المعارك الأخيرة، واضطر الرئيس چواريز أن يلتجئ الى الشمال . ولكن فلوله الممزقة انتظمت الى عصابات قوية، عمدت الى حرب الكمين المنهكة، وأخذت تزعج الفاتحين . وكان على بازين فى الواقع أن يفتتح امبراطورية باسرها ، لأن الشعب المكسيكى لم تلن قناته، ولم يذعن للغاصب المغير .

وقد رأيت أن بازين لم يتلق شيئا من فنون الحرب المنظمة إلا ما تعلمه فى معارك القبائل الافريقية ، ولم يدرس شيئا من أصول السياسة الحرة أو مداراة الشعوب الا ما تعلمه فى هاتيك الحوادث من مبادئ العنف والمفاجأة . ولكن الحكومة الامبراطورية رفعته فى ذلك الحين الى مرتبة المارشال، فضربت بذلك مثلا فذا فى التاريخ الفرنسى يرقى فيه جندى بسيط الى ذروة الشرف العسكرى . ولما وصل الامبراطور مكسمليان الى المكسيك فى مايو سنة ١٨٦٤ كان بازين فى الواقع سيد الموقف، وكان هو الحاكم الحقيق . وكانت صرامته، وصلفه، وحدة نفسه، تجعل مهمة مكسمليان شاقة، وتقنعه فى كل بادرة أنه انما يمثل مهزلة ملوكية . فلم يمض الا قليل حتى دب الجفاء المستحكم بين الرجلين، ونشبت بين الجيش الفرنسى والقصر الامبراطورى معركة حامية خفية . وكان بازين يسلك سياسة لا تفصح عن حقيقة

مرماها . ولعله كان يجيش باطماع خفيـة فى البلد المفتوح، ويفكر فى التخلص من مكسمليان الذى جاء ليقطف ثمـرة جناها الجيش الفرنسى بدمه، ويرمى الى انشاء حكومة فرنسية محضة يكون هو على رأسها طاغية وحاكما مطلقا . وقـد نجد تعليلا لذلك فى خلال المـاريشال وأثرته وكبريائه وعنته . على أن هـذه السياسة المريبة كانت خطرا على مشروع الفتح الذى لم يعمل بازين شـيئا لتوطيده ، فان چواريز بطل الوطن المفتوح بقى رغم ما أصابه من خطوب وهجر وتمزيق ثابتا جلدا فى ميدان الكفاح ، يمثل استقلال المكسيك وحرياتها أمام الغاصبين ، كما كان بلايو بطل القوط يمثل فى هضاب اسـبانيا الشمالية، استقلال وطنه المفتوح أمام الاسـلام الظافر . وكانت ثمة مقاطعات باسرها فى الشمال والجنوب ماتزال تفلت من قبضـة الفاتح ، فلم يمض عام وبعض عام حتى استطاع الوطنيون أن ينظموا قواهم من جديد .

وكان بازين أثنـاء ذلك يشدد الوطأة على مكسمليان ويحطم كل مسعى يبذله للتفاهم مع الوطنيين حتى تفاقم الموقف . على أن هذه المعركة المرة بين المـاريشال والقصر لم يطل أمدها ، فان الولايات المتحدة التى شغلت عن غزو المكسيك حينا بحربها الأهلية، بادرت مذ عقد الصلح بين الولايات (سنة ١٨٦٥) الى مقاومة الغزوة الفرنسية استنادا الى مبدأ الرئيس مونرو القائل باعتبار أى تدخل من الدول الغربية فى شؤون أية أمة من الأمم الأمريكية عملا عدائيا يوجه لى الولايات المتحدة ذاتها ، وطلبت الى حكومة باريس سحب جنودها من المكسيك فى الحال وإلا اضطرت الى إشهار الحرب على فرنسـا وتولى تحرير المكسيك بنفسها . فاضطرت حكومة باريس ازاء ذلك الوعيـد أن تقرر الجلاء . ومن الغريب أن المـاريشال لم يذعن لهذا القرار بادئ بدء حتى اضطر نابليون الثالث أن يرسل الجنرال كاستلنو الى المكسيك ليتولى تنفيذه بنفسه . فماذا كان يجيش بنفس بازين يومئذ من المشاريع والفكر؟ هذا ما لم يكشفه التاريخ . وعلى أى حال فقد بدأ الجلاء فى فبراير سنة ١٨٦٦ ، وعاد بازين من المكسـيك مع آخر فرقة فرنسـية فى أوائل مارس تاركا مكسمليان لمصيره الرائع ، اذ قبض عليه الوطنيون ، وحوكم ، وأعدم بعد ذلك بأشهر قلائل .

وهكذا كانت خاتمة الغزوة المشؤومة التى ضحت فرنسا فى سبيلها بكثير من مالها و بنيها، وكانت هذه مفاجاة مؤلمة للرأى العام الفرنسى الذى لبثت حكومة الأمبراطور حينا تغذيه بالأوهام والأنباء الكاذبة . ولم يكن فى حكومة باريس من ترجع اليه تبعة هذه النكبة قدر نابليون الثالث ، ولكنه حاول التنصل من هذه التبعة الأليمة و إلقائها على عاتق مبعوثيه وقادته ، فتظاهر بالغضب على بازين وقابله عند قدومه بفتور . ولكن هيبة المارشال كانت قوية مكينة ، وكانت الحملة المشؤومة ذاتها شاهدة له أمام الرأى العام ، فألقى به غضب الأمبراطور الى أحضان المعارضة التى كان المسيو تيير روحها يومئذ . ولكن أطماع المارشال كانت أقوى من كبريائه ، وكان نابليون الثالث من جهة أخرى يخشى عاقبة هذا التحالف بين الأفراد الأقوياء من خصومه و بين كتلة المعارضة ، فسرعان ما تفاهم بازين مع الحكومة الأمبراطورية ، وهجر المعارضة ليتولى قيادة فيلق نانصى ، وليتابع بذلك حياة الأطماع والمغامرة .

* * *

وكانت فرنسا أثناء هذه الأعوام القلائل تسير الى مصيرها الرائع بخطوات سريعة . وكانت سياسة الأمبراطورية تسير من هزيمة الى أخرى سواء فى الداخل أو الخارج ، وكانت ألمانيا من جانبها تبحث عن طالعها وعظمتها نحو الغرب ، فألفت فرصتها فى مسألة العرش الأسبانى . ومن غرائب القدر أن فرنسا هى التى قدمت بنفسها الى خصيمتها فرصة التنكيل بها . فهى التى أعلنت الحرب على ألمانيا فى ١٩ يوليه سنة ١٨٧٠ ، لأن ولهلم الأول أبى أن يتعهد بمنع أمراء أسرته من قبول العرش الأسبانى . وكانت الأمبراطورية تعلق آمالها الأخيرة فى التوطد والثبات على الحرب ، وتعتمد على تفرق الدول الألمانية . ولكنها خدعت فى كل آمالها وتقديراتها . وانقضت ألمانيا كلها بجيوشها الجرارة الفتية ، على فرنسا . وكان الجيش الفرنسى أقل بكثير فى العدد والأهبة ، وكان يرابط للقاء الفاتحين فى سبعة أقسام تمتد من بلفور الى تواتقيل ، وكان نابليون الثالث يتولى القيادة بنفسه مع المارشالات ليبيف ، و بازين ، ومكماهون ، وكانروبر . وكان

بازين على رأس الفيلق الثالث، وكان على الجيش الفرنسى أن يزحف لغزو العدو قبل أن يغزوه لأن فرنسا هى التى أعلنت الحرب ، ولكن القيادة العليا تردّدت وتباطأت حتى انقض الجيش الألمانى كالسيل، وغزا فرنسا من طريقين : شتراسبورج ومتز . وبدأت المعارك الفاصلة منذ ٣ أغسطس فهزم مكماهون فى ڤيسمبورج وڤيرت (٣ — ٦ أغسطس) ، وهزم الجنرال فروسار فى فورباخ (٦ أغسطس) . وكان بازين يرابط بقواته يومئذ فى سانت إڤولد على مقربة من فورباخ، ولكنه لأسباب لم تعرف لم يقم بأنجاد فروسار مع أنه كان يرتبط بمواقعه بخط حديدى . وارتد مكماهون جريحا بفلوله الى شالون، وفتحت هزيمة فورباخ طريق متز، وتوالت الحوادث بسرعة اهتزت لها أوربا .

ففى ذلك المأزق العصيب اتجهت الأنظار الى بازين . ولم يكن الماريشال قد أبدى من ضروب العبقرية النادرة ، ولم يكن فى ماضيه وخلاله ، ما يبعث الى ثقة خاصة . بل كان البعض يومئذ يشدّدون فى الحملة عليه ، والتنويه بريائه وقصوره الحربى . ولكن السواد الأعظم كان يرى فيه أعظم جندى فى فرنسا، ويراه أخلق رجل بالرآسة ومواجهة الموقف . وقد يرجع السر فى ذلك الى ما كان يسود علائق الماريشال والأمبراطور من الجفاء والتوتر، والى ما كان يجيش به الرأى العام نحو الأمبراطورية من عوامل البغضاء والسخط . وقد رأيت ان بازين انضم الى المعارضة غداة عوده من المكسيك وتحالف بذلك مع خصوم الأمبراطورية. ففى هذا المأزق طلبت المعارضة الى الحكومة الأمبراطورية أن تعهد بالقيادة العليا الى بازين . وبذل أصدقاء الماريشال سعيهم ونفوذهم لتحقيق هذه الغاية . وصدع الأمبراطور بتأثير الرأى العام ومساعى المعارضة ، فنزل عن القيادة العامة ، واختار لها بازين فى يوم ١٢ أغسطس، وهكذا أصبح بازين قائدا أعلى، وألقيت اليه مصاير الجيش الذى تضع فرنسا فيه كل آمالها .

وهنا ذروة الغموض الذى أحاق بموقف الماريشال وتصرفاته ، وهنا ذروة الجدل التاريخى . هل كان الماريشال يومئذ جنديا مخلصا فقط يحاول جهد

استطاعته أن يقوم بواجبه ؟ أم كانت نفسه تجيش بنيات وفكر أخرى ؟ وما ذا كانت هذه النيات والفكر؟ هذا ما لم يقل عنه التاريخ قط كلمة فصل، وهذا ما لم تقدّم عنه محاكمة تريانون إيضاحا شافيا . ولكن اليك كيف أدّى الماريشال أمانته فى تلك الآونة العصيبة : تقرّر الانسحاب بعد كبير تردّد الى ڤردون ، وعين لذلك يوم ١٤ أغسطس . ولكن حدث عند التنفيذ أن اختارت القيادة العليا طريقا واحدا للانسحاب هو طريق جراڤيلوت مع أنه كانت ثمة لاجرائه على قول النقدة الحربيين طرق عدّة، فترتب على ذلك ان غصت الطريق وأعيق السير ، ولم يبدأ الانسحاب إلا ظهرا . ولكن طلائع الألمان ظهرت فى الساعة الرابعة مساء، وانقضت فى الحال على قوات المؤخرة التى لم تكن قد عبرت بعد نهر الموزل . فلما علم بازين بذلك أمر فى الحال بوقف الانسحاب، ولكنه لم يتقدم لرد الألمان مع أن العارفين من شهود هذا اليوم يؤكدون أنه كان يمكن إما متابعة الانسحاب لأن الجيش الفرنسى كان تحت حماية قلاع متز ، أو الانقضاض على القوات الألمانية القليلة التى غامرت بمحاربة قوات فرنسية تفوقها كثيرا فى العدد ولا تقل عنها فى البسالة . وكانت كل ساعة تأخير تزيد فى حرج المأزق، وتصعب مهمة الجيش الفرنسى، لأن الألمان كانوا يطاردون أعداءهم بسرعة مدهشة . وكان يعترض سبيل الجيش الفاتح عقبتان : الأولى نهر الموزل ، والثانية مدافع متز التى يجب أن يسير الجيش المغير على مقربة منها . فاحتل البروسيون قنطرتى آر ونوڤيان وهما الوحيدتان على الموزل مع أن السكان طلبوا هدمهما، فأجيبوا من القيادة أن انتظروا ، وزالت بذلك العقبة الأولى . واندفع الجيش الظافر الى ثنية متز فلم يعترض سبيله أحد ، ولاح أن الطريق قد فتحت أمامه الى باريس .

وكان الامبراطور وقتئذ فى جراڤيلوت . فوافاه بازين ونصحه بالسفر، فاستقل الامبراطور عربته فى يوم ١٦ ، وتبعه الجيش المنسحب فى طريق ڤردون . ثم رأى بازين بعد ذلك أن يؤخر الانسحاب حتى العصر انتظارا للفيلقين الثالث والرابع . ولكن الألمان ظهروا فى الساعة التاسعة صباحا ، واشتبك القتال فى الحال بين

الجيشين فى ريزنكور . وكان الفرنسيون يتفوقون فى هذه المعركة على الألمان فى العدد ، فقد كانت قواتهم ١٣٥ ألفا ، ولم يزد الألمان على ٩٥ ألفا . ولكن المارشال أصدر أمره فى مساء ذلك اليوم بعد المرحلة الأولى من المعركة بالارتداد نحو متز محتجا بقلة المؤن والذخائر . وهنا يتساءل النقدة لماذا لم يتابع بازين زحفه نحو ڤردون ؟ ولماذا هذا الجمود الذى فقدت به فرنسا فرصة كانت تلوح بالنصر ؟ لقد كان المقدّر أن يصل الجيش الفرنسى الى جراڤيلوت فى مساء يوم ١٤ ، ولكنه لم يصل إلا فى يوم ١٥ ، وبذا ضاع وقت نفيس جدا . ثم لماذا بعد أن اشتبكت المعركة يلجأ بازين الى الانسحاب مع أن التفوّق كان فى جانبه ؟ على أن الألمان أصروا على مقاتلة الجيش المنسحب فى هذه الساحة أيضا ، فالتق الجيشان ثانية فى «سان بريڤا» . وكان الجيش الفرنسى يرابط فوق تلال تتخللها الغابات تحت أسوار متز وحول طريق ڤردون ، فاشتبك القتال بين الفريقين طول يوم ١٨ أغسطس وأبدى الفرنسيون تفوّقا وبسالة ، فظهر القسم الذى يقوده المارشال ليبيف والجنرال فروسار على جيش مولتكه ، ولكن جناح المارشال كانروبر أرهق ومزق ، وكان بازين وقتئذ فى مركز القيادة العام فى بلانشيل فى ظاهر متز ، وكان لا يؤمن كزملائه بحرج الموقف . ولكنه كان واهما لأن الألمان كانوا عندئذ قد حشدوا معظم قواهم فى هذه الساحة حتى بلغوا مائتى ألفا ، والجيش الفرنسى لا يزيد على ١٣٥ ألفا . وهكذا مكنت خطة الجمود والتناقض التى اتبعها المارشال من ١٤ الى ١٨ أغسطس العدو من أن يمركز قوّاته تمركزا هائلا . فمزق جيش كانروبر وهو يطلب النجدة فلا يجد . وكان الجنرال بورباكى يرابط وراء الجيش بالقوّات الاحتياطية منتظرا أن يؤمر بالهجوم ، ولكن بازين أمره فجأة أن ينسحب بكل قوّاته الى متز ، فسادت الدهشة فى دوائر القيادة ، ولم تمض بضع ساعات حتى اضطر المارشال كانروبر الى تسليم سان بريڤا . فكانت الضربة حاسمة ولم يبق للفرنسيين سوى الالتجاء الى قلاع متز . وفى صباح اليوم التالى أمر بازين فعلا بالالتجاء الى القلاع وهنالك تحصن الجيش الفرنسى مدى شهرين كاملين يستنفد موارده دون أن يشتبك فى أية معركة أخرى حتى كانت النكبة الشاملة .

وهكذا عمد بازين منذ غداة سان بريقا الى خطة الجمود المطبق ، وهى خطة يحمل عليها النقدة بشدة ، فقد كان الماريشال على رأس جيش باسل يضطرم حماسة وشجاعة ، يبلغ زهاء مائتين وأربعين ألف رجل اذا أضفنا اليه حامية متز والحرس المتحرك والعمال . ولكن الماريشال ثبط عزائمه بجموده وأتى به الى غمرة احجام مؤلم ، ودفع به الى مابين القلاع يرى العدو يتوغل الى أرض فرنسا ، فلا يستطيع له ردا .



الماريشال بازين

فهل كان بازين يتصرف طبقا لظروف الموقف أم كان تصرفه طبقا لخطة مرسومة ولغاية فى نفسه ؟ يلوح أن تصرفه لم يكن طبيعيا أو لم يكن منطقيا على الأقل . كان بازين يرى الخطر محدقا بفرنسا ، وكان يستطيع فى أكثر من فرصة أن يتقدم لدرئه أو تخفيف ويله على الأقل . ولكنه لم يفعل . فكانت النتيجة ان مزق الجيش ، وحصر سواده فى متز ، وتوغل العدو ، وفتح طريق باريس . على أن سياسة بازين أسفرت أيضا عن ابعاد الامبراطور واستئثار الماريشال بالأمر ، واستقلاله بجيش متز ، ووضع الألمان بينه وبين فرنسا ، فماذا كان يؤمل من وراء ذلك ؟ وأى غايات خفية كانت تجول بذهنه ان صح ان كانت له غايات ؟ يقول بعض المؤرخين إن بازين كان يرمى الى اسقاط الامبراطورية ، وانشاء حكومة طغيان عسكرية يكون هو رأسها . ولهذا رأى أن يدخر الجيش الذى يقوده الى فرصة مستقبلة يترقب سنوحها ، ولما كان جيش الرين هو القوة الوحيدة المنظمة التى بقيت لفرنسا ، فقد كان بوسع الماريشال أن يتصرف بالبقاء على رأسه فى اقدار فرنسا . هذا ما يفسر به البعض تصرفات بازين ، بيد ان هذه المسألة ما تزال كما قدمنا سرا لم يكشفه التاريخ .

* * *

وهنا دخلت الحرب فى دورها الحاسم، فتولى قسم من الجيش الألمانى بقيادة البرنس فردريش كارل حصار بازين فى متز، وانطلق باقى الجيش بقيادة ولى العهد الى طريق باريس . وكان الجنرال مكماهون كما قدمنا قد جمع أشتات الجيش المنهزم فى شالون ، فلما التجأ بازين الى متز ، سار بأمر الامبراطور الى نجدته . فالتقى بالألمان فى سيدان (أول سبتمبر) . وهزمت فرنسا فى سيدان هزيمة ساحقة قلما يعرض مثلها التاريخ الفرنسى . وفى اليوم التالى سلم جيش مكماهون كله، وكان الامبراطور من الأسرى .

ووقعت نكبة سيدان دون أن يتحرك بازين . وكان هذا التصرف أعظم نقطة فى المحاكمة بعد . ذلك أن مكماهون كان يسير لانقاذ بازين . فهل علم بازين بهذا؟ وماذا كان جوابه لمكماهون ؟ كانت الرسائل التى تبادلها الرجلان سرا من أغمض الأسرار، وكانت عماد الاتهام والقول الفصل فى ادانة المارشال على نحو ما نفصل بعد . بيد أنا نقول هنا إن مكماهون كان رجل الامبراطورية وكان جيشه ملاذها الأخير . وكان إذ يسير لانقاذ بازين يحاول انقاذ الامبراطورية فى نفس الوقت . ولكن نهوض الامبراطورية كان عثرة فى سبيل دكتاتورية بازين ان صح ان كان له اليها مطمح . فهل يُحمل إحجام المارشال عن انجاد مكماهون الذى بادر لانجاده على خطأ حربى شنيع أم كان تصرفا عمدا ينم عن نية جنائية أو بالحرى عن خيانة جالت بذهن المارشال؟ وعلى أى حال فقد كانت سيدان قبر الامبراطورية، وكان بازين سيد الموقف فى معنى من المعانى . على أن الحوادث سارت بسرعة مدهشة فلم تمض على سيدان ثلاثة أيام حتى ألفت فى باريس « حكومة الدفاع الوطنى » وروحها رجلان هما چول فافر وزير الخارجية، وليون جامبتا وزير الداخلية . وأعلن سقوط الامبراطورية وقيام الجمهورية، وفرت الوصية الامبراطورة أوچينى الى انجلترا وعهد بالدفاع عن باريس الى الجنرال تروشو . ولكن الألمان ساروا الى باريس بخطى الجبابرة، وعسكروا فى ظاهرها فى يوم ٢٠ سبتمبر، وبدأ الحصار الأشهر .

ولبث بازين فى متز يرقب الحوادث . ولم يعلم بنكبة سيدان إلا يوم ٤ سبتمبر . ولكنه عرف كل شىء فى العاشر منه . والظاهر أن الماريشال اضطرب لقيام الحكومة الجمهورية ، وألفى فيه عاملا جديدا فى حرج المأزق . وكان بازين خصيم الامبراطورية ، ولكنه لم يقدر أن سقوط الامبراطورية سيسفر عن قيام الجمهورية بتلك السرعة . والظاهر أنه لبث حينا يتردد فى اختيار المسلك الذى يسلكه ازاءها ، فأحيانا يحظر على الصحف الطعن عليها ، وأحيانا يثور غضبا لذكرها ويصفها على بعض الأقوال « بالسلطة المجرمة التى تقود فرنسا الى هلاكها » . وقد قال بازين فيما بعد أمام المجلس العسكرى الذى تولى محاكمته إن حكومة الدفاع الوطنى لم يكن لها وجود فى نظره ، فأجابه رئيس المجلس ، أن فرنسا توجد أبدا . وفى ١٥ سبتمبر أذاع بازين فى الجيش منشورا بمناسبة قيام الحكومة الجديدة يقول فيه : « تألفت حكومة ... أيها الجند نعتمد على كل عزائمكم فى طرد العدو من أرض فرنسا ، وقمع الأهواء السيئة ... وواجباتنا العسكرية تبقى كما هى » . وكانت فرنسا قد سقطت من بعد سيدان صريعة أمام الفاتح ، ولم يبق فى انقاذها أمل . وكان جيش الرين الذى يوجهه الماريشال هو القوة الباقية من موارد فرنسا ، وقد تؤثر فى سير الموقف اذا سنحت لاستعمالها فرصة . ولكن نيات السياسة الألمانية كانت عاملا حاسما فى الموقف ، وعليها قبل كل شىء يجب أن يتوقف مسلك الماريشال . وهذا ما أدركه بازين بلا ريب . فماذا كان يجول برأسه فى ذلك المأزق العصيب من نيات وفروض؟ نجيب دائما أنها لبثت على التاريخ سرا مغلقا . ولكن الظاهر أن الماريشال اعتزم مفاوضة العدو عندئذ ، فكتب الى البرنس فريدريش كارل يتحرى منه نيات السياسة الألمانية ، فأفهم من طريق غير مباشر بأن ألمانيا لا تعرف فى فرنسا سوى الحكومة الأمبراطورية . ولكن الأمبراطور كان أسيرا كما رأيت ، وقد فرت الوصية (الامبراطورة) الى الخارج . واذ كانت الحكومة الجمهورية لا صفة لها فى نظر ألمانيا فمعنى ذلك أن الماريشال هو الذى يستطيع وحده أن يفاوض فى تسوية الموقف . وكان بازين كما رأيت خصما

لحكومة الدفاع الوطنى أو على الأقل لم يكن معها على وفاق، ولم يعتقد أن لهـا أن تأمره أو توجه تصرفه . فهـل كان بازين يفكر فى أن يحالف العـدو على محاربة الحكومة الجمهورية ؟ هذا ما يقوله بعض المؤرخين ، ويرون تأييدا لرأيهم فيما قاله بسمارك لجول فافر فى مقابلة ١٩ سبتمبر : إنه (أى بسمارك) يعتقد لأسباب لديه أن بازين ليس من رجال الحكومة الجمهورية ، وأن الحكومة الجمهورية تخطئ اذا كانت تعتمد عليه . على أنه لم يكن ثمة ريب فى أن بسمارك كان بعيدا عن أن يجارى المـاريشال فى مثل هذا المشروع . ولعله كان يلوح له به فقـط ليؤكد سكوته الى اللحظة الأخيرة . وعلى أى حال فقد ارتضى الألمـان مفاوضة المـاريشال، وبعثوا اليه رسولهم فى ١٣ سبتمبر، وهو شخص مجهول يدعى رجنييه . فعرض المـاريشال المفاوضة على قاعدة أن ينسحب جيش متز بأسلحته



جـــول فافـــر

الى أرض محـايدة ، وأن تبقى متز على حالتها الدفاعيـة . ولكن البرنس فريدريش شارل بعث اليـه يحتم التسليم ، فأجاب المـاريشال أنه يسلم مع الاحتفاظ بأسلحته وأن تبقى متز مع ذلك فى حالة دفاع . فلم يلق من الألمـان ردا . وكان الألمـان يسعون الى اكتساب الوقت ، وكانوا يعلمون سوء الحالة فى متز من قلة ذخائر ونفاد مؤن . وفى ١٠ أكتوبر جمع بازين قوّاد الصفوف ونبأهم بخطورة المأزق ونفاد الخبز وعبث الدفاع وضرورة المفاوضة . ثم جرت بينه وبين بسمارك مفاوضات غامضة حول اعادة الامبراطورية استغرقت أياما كانت هى الباقية لوضع متز تحت رحمـة الألمـان . ولكن بسمارك أخطر المـاريشال فى يوم ٢٤ أكتوبر ألا يعتمد على نتيجة هـذه المفاوضات . وكانت الساعة الحاسمة قد أذنت . فعقد بازين المجلس الحربى فى يوم ٢٨ أكتوبر، وفيـه تقرر التسليم المطلق . وأبلغ البرنس فردريش

خضوع جيش الرين . وبدأ التسليم فى اليوم التالى ، فكان يوما أسود فى تاريخ فرنسا ويوما مشهودا فى تاريخ العسكرية البروسية ، اذ أسرت فيه جيشا جرارا بأسره ، قوامه ١٣٩ ألف مقاتل منهم ثلاثة ماريشالات ، وخمسون قائدا ، وستة آلاف ضابط ، واستولت على مهماته وذخائره ، وتسلمت متز وقلاعها . وكان بازين فى طليعة الأسرى .

وهكذا انهار كل ما لعله جال بخاطر الماريشال من مشاريع وفكر ، وجردت فرنسا من أعظم قواتها الدفاعية . ولكن بسالة الرجال الذين ألقى اليهم مصير فرنسا بعد الامبراطورية كانت تسمو الى الذروة فى معترك الخطوب والمخاطر . وكان جامبتا قد فر من باريس أثناء الحصار فى «بالون» ، وحشد جموعا مضطربة ناقصة الأهبة والدربة أطلق عليها «جيش اللوار» ، فسارت تحاول انقاذ باريس من براثن العدو القادر الظافر ، وابتسم الجد لها لحظة فى «كولمييه» ، ولكن البروسيين دفعوا وقتئذ بالجيش الذى كان يحاصر متز الى باريس ، فانهار كل أمل فى الدفاع والخلاص . وذاعت أنباء النكبة فى ألوان مثيرة غامضة فوجم لها الناس ، وتفطرت القلوب . وهنا ألقى جامبتا صيحته الأليمة المروعة «لقد خان بازين !» ، وذلك بعد أن كان من أشد أنصاره الذين يشيدون بمواهبه وبسالته ، وأذاع فى الشعب الفرنسى بيانه الأشهر فى ٣٠ أكتوبر أعنى ليومين من سقوط متز . واليك نص هذا البيان الذى يصور لمحة من عزم جامبتا ، واضطرام نفسه ، وقوة جنانه :

تور فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٧٠

«أيها الفرنسيون

«ارفعوا أرواحكم وعزائمكم فوق ذروة الأخطار الرائعة التى تنقض على الوطن

«ان الأمر ما زال يتوقف علينا فى أن نتهك الجد العاثر وأن نبدى للعالم بأسره ما يستطيعه شعب عظيم لا يريد الهلاك ، بل تسمو شجاعته فى قلب الخطوب ذاتها

«لقد سلمت متز

«ولقد انتزع قائد كانت تعتمد عليه فرنسا حتى بعد المكسيك، من الوطن الذى تحدق به المخاطر، أكثر من مائتى الف من المدافعين عنه .

«لقد ارتكب المارشال بازين جريمة الخيانة !

«وقد حذا حذو رجل سيدان فى الاشتراك فى الاثم مع الفاتح، ولم يقدر شرف الجيش الذى أؤتمن عليه، فسلم الى العدو، دون أن يحاول مجهودا أسمى، مائة وعشرين ألف محارب، وعشرين ألف جريح، وبنادقهم ومدافعهم وأعلامهم، وسلم متز أعظم قلاع فرنسا — متز التى لبثت حتى عهده عذراء لم يدنسها أجنبى .

«ان مثل هذه الجريمة لفوق عقاب العدالة

«والآن فاقدروا أيها الفرنسيون عمق الهاوية التى ألقت بكم اليها الامبراطورية ! لقد حكمت فرنسا تلك القوة الفاسدة مدى عشرين سنة، فلوثت فيها كل موارد العظمة والحياة

« وقد غدا جيش فرنسا الذى جرد من صفته الوطنية، دون أن يدرى، آلة للحكم والاستعباد، ثم غاض رغم شجاعة جنده بخيانة رؤسائه فى غمار الخطوب التى نزلت بالوطن . ولم يمض شهران حتى أسلم الى العدو مائتان وخمسة وعشرون ألف رجل،

وهى خاتمة مشئومة لثورة ديسمبر العسكرية .

« وقد آن أيها المواطنون وقت النهوض فى ظل الجمهورية التى نعتزم ألا نسلمها فى الداخل أو الخارج، وأن نستمد، حتى من غمار مصائبنا، روح خلالنا ومتانتنا السياسية والاجتماعية . أجل ! مهما يكن مدى مصائبنا فانا لن نذهل ولن نتردد .

جامبتا

«نحن على أهبة لاحتمال أية تضحية. ونقسم انا لن نسلم لعدو يحالفه كل شيء. وما بقي تحت أقدامه شبر مقدس من الأرض، فسوف نثبت في رفع علم الثورة الفرنسية المجيد.

«ان قضيتنا قضية العدالة والحق. وهذا ما تراه أوربا وما تشعر به. وان أوربا لتجيش من تلقاء نفسها بالتأثر والحركة إزاء ما نزل بنا من مصائب لا نستحقها. إياكم والأوهام! وإياكم أن نسلم أنفسنا الى الملل أو الغضب، بل علينا أن نثبت بالأفعال أنا نريد، بل نستطيع أن نحافظ على شرفنا واستقلالنا وأرضنا، وكل ما بنى في صرح حريات الوطن وعزته.

« فلتحي فرنسا! فلتحي الجمهورية واحدة متماسكة!»

ولكن ما أبدته فرنسا في محنتها من ضروب البسالة لم ينجها من قدرها الرائع. وكانت حكومة الدفاع الوطني تأبى على الألمان كل شيء، وكانت تخطرهم بلسان چول فافر «انها لا تسلم في شبر من الأرض، ولا في حجر من قلعة». ولكن عزم الحكومة وتمسكها وثباتها لم تغن شيئا أمام قوة الظافر فسلمت باريس، وأحنت فرنسا هامها ذليلة أمام العدو، وسلمت في كل ما فرض وطلب، وسجلت هذه الخطوب الأليمة خالدة في صحف فرنسا السود. وبينما كانت فرنسا ترزح في محنتها، كان بازين يرزح أوينعم في منفاه، في قلهلمسهيه على مقربة من الامبراطور.

* * *

وقضى بازين في الأسر أشهرا طويلة، ثم عاد الى فرنسا ينوء تحت أعباء فادحة من الآلام النفسية. على أنه لم يكن يقدر أي عاصفة سيلق، فقد كانت ذكرى متز ونكبتها ما تزال حية في الأذهان، وكانت وصمة التفريط والخيانة تقرن كل يوم باسم بازين. وكانت العاصفة تغذى كل يوم بما يرويه الضباط القدماء وتنشره الصحف. وكان اضطرام الرأي العام يشتد كل يوم، وترتفع الصيحات من كل ناحية مطالبة بالانتصاف ممن زج بالوطن بتفريطه أو خيانته في غمار المحن. وكانت الكتب والنشرات عن مسألة متز تترى، فياضة بالأدلة على مسئولية بازين وخيانته. وانقسم

النقدة والرأى العام الى فريقين : أحدهما وهو الأغلبية الكبرى ، يرى أن الماريشال جنح الى الخيانة منذ موقعة جراڤيلوت ، وأنه أراد أن يحتمى فى متز لا من الألمان ولكن من سلطة الأمبراطور ، وأن يترقب فرصة الاضطراب الذى أصاب فرنسا ، ليستخدم جيشه فى القبض على مصايرها وتسييرها طبقا لأهوائه ومطامعه ؛ والثانى وهو أقلية ضئيلة كان يرى أن بازين أرغم على تصرفه بفعل الحوادث ذاتها ، وأنه التجأ الى متز ، حتى اذا توغل الجيش الألمانى فى الداخل انقض على مؤخرته واتخذ خطة الهجوم . ورد الماريشال عن نفسه تهمة الخيانة بشدّة وإباء ، ونشر دفاعه عن نفسه فى كتاب أسماه « جيش الرين » ، وفيه يؤكد أنه لبث طول حياته خادما أمينا لوطنه ، وأن فكرة الخيانة لم تخطر له قط ، ولكن موقف جيشه فى متز كان من أسوأ المواقف ، وكان العدو يحتل مراكز حصينة ويعتمد على جيش قوى الأهبة ، أما جيش الرين فقد أصيب بخسائر فادحة ، وكثر فيه الجرحى ، فرأى الماريشال ، من بعد سيدان ، أنه يستحيل عليه الخروج بجيشه من متز اذ خبت حماسته ، وانحلت قواه المعنوية ، وطلب الماريشال بشدّة أن يحال الى المحاكمة ليدفع هذه الوصمة عن نفسه . وردّد المسيو تيير رئيس السلطة التنفيذية يومئذ هذا الطلب أمام الجمعية الوطنية فى بوردو . وطلب التحقيق والمحاكمة باسم الماريشال ذاته ، وقال إن الماريشال قد وصم بأشنع التهم ، والعدل يقضى بالتحقيق فى حوادث متز ، اظهارا لبراءة الماريشال وشرف جيشه . فنزلت الجمعية الوطنية عند هذه الرغبة ، وانتدبت فى سبتمبر سنة ١٨٧١ لجنة للتحقيق فى نكبة متز برآسة الماريشال بارجواى ديلييه . ومثل الماريشال أمام اللجنة فى أبريل سنة ٧٢ وشرح دفاعه وفند التهم التى وجهت اليه . وانتهت اللجنة فى تقريرها الى أن الماريشال بازين مسئول عن نكبة شالون مسئولية جزئية ، ومسئول عن تسليم متز وضياع جيشها مسئولية مطلقة . وفى ١٢ مايو سنة ١٨٧٣ صرح الجنرال كيسى فى الجمعية الوطنية أن الحكومة تعتزم احالة الماريشال بازين الى المجلس الحربى . وصدر بذلك قانون فى يوم ١٦ مايو ، فغادر الماريشال منزله الفخم فى شارع يينا ، وأسلم نفسه سجينا ،

فاعتقل فى منزل فى ڤرساى . ولم يعدم بازين مع ذلك فى محنته كل عضد ، فقد ارتفعت بعض أصوات قوية بالدفاع عنه، فى طليعتها المسيو تيير، والجنرال شانجارنييه أحد قواد متز . وكان تيير من أصدقائه القدماء ، وكان يثق فى براءته ثقة راسخة ، ولكن أصوات أولئك الأنصار القلائل غاضت فى الصيحة العامة .



المسيو تيير

وشقت العاصفة طريقها الى غايتها بسرعة وأصدر وزير الحربية المسيو باراى قرارالاتهام فى ٢٤ يوليه سنة١٨٧٣ مشتملا على التهم الآتية :

١ — ان المارشال فاوض العدو وسلم اليه منطقة متز التى كان لها قائدا وذلك دون أن يستنفد كل وسائل الدفاع التى يملكها ودون أن يقوم بكل مايحتمه عليه الواجب والشرف .

٢ — انه بوصفه قائدا عاما فى متز قد أمضى فى « الساحة المكشوفة »(١) تسليما كان نتيجته وضع جيشه تحت رحمة العدو .

٣ — انه لم يقم قبل المفاوضة شفهيا أو بالكتابة بكل مايحتمه عليه الواجب والشرف .

وألف لمحاكمة المارشال مجلس حربى يرأسه الدوق دومال ، وأعضاؤه جماعة من كبار القواد هم : لاموت روچ، دى شابو لاتور، ربيبه ، برنستو ، پورسيه ، لالمان، ريساير، مالروى . ووضع الجنرال سيريه دى رڤيير تقرير الاتهام وأسبابه، وقام الجنرال پورسيه بمهمة نائب الحكومة (المدعى العام) .

(١) أعنى حيثما يمكن اشتباك المعارك ولا يوجد للتسليم مبرر .

والدفاع ؟ من يتولاه ؟ كانت مهمة شاقة أليمة بل مهمة خطرة ، اذ من يستطيع أن يتقدّم للدفاع عن الرجل الذى تبغضه فرنسا بأسرها وترميه بأشنع التهم؟ ومن ذا يخاطر بتحـدى رأى عام بأسره ؟ ومع ذلك فقد تولى هـذه المهمة الخطرة علم البيان وأعظم المدافعين فى ذلك العصر : تولاها الأستاذ لاشو! وكان المسيو تيير قد قصد الأستاذ « ألّو » وهو من أعلام عصره أيضا ليعهد اليه بمهمة الدفاع عن صديقه . ولكن الأستاذ « ألو » رفض الرجاء بعزة ، فالتجأ الى الأسـتاذ لاشو . ولبى لاشـو داعى الواجب وقبل مهمة الدفاع عن بازين ! وكانت كما رأيت مهمة بغيضة خطرة ، بل كانت مسـتحيلة . وكان الجو قاتمـا يفيض بأسـباب النقمة والسخط على المـاريشال وعلى كل صوت يرتفع لتزكيته . ولكن لاشو لم يقدّر سوى الواجب عليـه ، فتقدّم لأداء مهمته فى تلك الظروف العصيبة بشـجاعة هى قوام خلاله كلها .

وكانت محاكمة مشهورة قلما سطرت مثلها صحف العدالة . وكان المجلس الحربى يجلس فى قصر تريانون فى بستان واتو . وكان المـاريشال قد تغـير يومئذ حتى كاد يغدو نكرة على عارفيه ، اذ تضخم وبهت لونه وارتسمت على محياه أمارات السكون والأعياء . وكان قليل الاكتراث لمـا يدور حوله كأنما كان غريبا عن الحوادث العظام التى يسئل عنها ، وكان يدفع محاميه الى الرد عنه ما استطاع اليه سبيلا .

واستمرت المرافعات من ٦ أكتوبر الى ١٠ ديسـمبر سنة ١٨٧٣ ، واستمرت أقوال الشهود وحدها حتى ٣ ديسـمبر ، وكان عددهم عظيما منهـم للاثبات مائتان وتسع عشر وللنفى ثمـانى عشر ، وكانت أقوالهم أهم جزء فى القضية ، ولا غرو فهى سـيرة محن فرنسا كلها . وكان منظرهم عجيبا متباينا ، فمنهم قوّاد وضباط كبار وصغار ، ثم جند وحراس وعمال وغيرهم ممن استطاعوا اختراق الخطوط البروسية أيام الحرب ، ومنهم الرؤساء والساسة من جول فافر الى جامبتا ومكماهون . وكانت أهم الوقائع التى جرى تحقيقها واعتبرت أدلة على تقصير المـارشال وتفريطه وقصـده الجنائى تتلخص فيما يأتى : —

(أولا) انه فى يوم ٦ أغسطس سـنة ١٨٧٠ كان بجيشه فى سانت إفولد على مقربة من فورباخ حيث انقض العـدوّ على جيش الجنرال فروسار، ولم يفعل شيئا لانجاده مع تمكنه من ذلك .

(ثانيـا) انه سعى بواسـطة زوجه وأصدقائه فى باريس لنيل القيادة العامة حتى حصل عليها فى ١٢ أغسطس ، وقد شهد المسيو كيراترى مدير البوليس وزميل بازين القديم وصديقه ، أن مدام بازين قصدته يوما لهذه المهمة . فصحبها مع چول فافر وبيكار أحد أعضاء حكومة الدفاع بعـد الى وزير الحربية وطلبوا اليـه أن يحقق هذا الرجاء .

(ثالثـا) انه لجأ فى تنفيذ الانسحاب نحو ڤردون الى التردّد والتناقض والبطء ممـا ينم على أنه كان يفكر فى غايات خفيـة أخرى ، فى حين أنه كان يمكن اتمـام الانسحاب رغم هجوم الألمـان لأن الجيش كان تحت حماية قلاع متز .

(رابعـا) انه أثنـاء موقعة سان پريڤا الحاسمـة فى يوم ١٨ أغسطس لم يتحرك لانجاد المـاريشال كانروبر، بل بالعكس أمر الجنرال بورباكى أن ينسحب مع الاحتياطى الى متز فى أدق المواقف ودون مبرر . وقد شهد المسيو بومون الذى تلقى هذا الأمر من بازين لتبليغه الى الجنرال بورباكى أنه دهش وتأثر جد التأثر حتى أنه كرر سؤال المـاريشال عن حقيقة ما يعنيه خشية أن يكون قد أخطأ الفهم ، فكرر المـاريشال أمره وقال : « لقد انتهى اليوم . وقد أراد البروسيون سـبر أغوارنا ففعلوا وانتهى الأمر » .

(خامسا) تصرفه أثناء موقعة سيدان الحاسمة . وكانت هـذه أهم نقطة فى القضية . فقد رأيت مما تقدّم أن المـاريشال مكماهون زحف بجيشه من شالون لانجاد بازين فى متز . ولكن بازين لبث جامـدا فى متز . فهل كان يدرى أن مكماهون تحرك لانجاده ؟ وماذا تبادل القائدان يومئـذ من الرسائل ؟ كان كل ينكر ما ادعى الآخر أنه أرسـله اليه . وكان منظرا مؤلمـا مهينا أن يواجه أعظم جنديين فى الأمة بصغار الضباط والسعاة والحجاب الذى تلقوا الأوامر أو حمـلوا الرسائل .

وكان شرف الجنديين العظيمين أشدّ ما يصطدم بهذه النقطة . وقد بقيت حقيقة هذه الرسائل على التاريخ سرا مغلقا . ولكن ثبت من التحقيق أن أشخاصا كثيرين استطاعوا أن يصلوا الى متز حتى يوم ٢٥ أغسطس وذلك رغم بدء الحصار . وأكد الكولونل لوال أنه سلم الى بازين منذ يوم ٢٣ أغسطس رسالة تخطره بسير مكماهون الى انجاده . وإذن فقد عرف بازين بالأمر قبل يوم ٢٩ أعنى قبل يوم سيدان . وثبت أيضا أن أركان حرب مكماهون قد تسلم من بازين رسالة ينصح فيها بعدم السير الى سيدان . واذا فقد أخطر كلاهما . ولكن مكماهون أنكر، وأنكر أركان حربه كل علم برسالة بازين . والذى يثير ريبا على صدق بازين فى مسألة الاخطار أنه أصدر أمره فعلا بالخروج من متز فى يوم ٢٩، ولكنه عاد فتردّد فى تنفيذه وجميع قوّاد الصفوف والأسلحة للتشاور وأخطرهم بنفاد الذخائر والمؤن ، ولكنه أخفى عنهم نبأ سير مكماهون . ولم يعترف بازين إلا بالأخطار الذى وصله على يد الضابط ديكرو يوم ٢٩ أغسطس . وعليه أصدر أمره ثانية بالتحرّك ظهر يوم ٣٠، ولكنه تردّد أيضا ولم ينفذ، ثم عاد وأمر بالتحرّك يوم ٣١، وخرج بعض الصفوف فعلا واستولى على بعض القرى من الألمان . ولكنه كان يرسل أوامره غامضة مثل : «استمروا فى العمل طبقا لتصرفات العدو ودافعوا عن المراكز لا للاحتفاظ بها ، ولكن لكى تلتجئوا فى المساء الى القلاع» . على أنه عاد فأمر الصفوف بالعود الى الحاميات .

وفى هذه التصرفات المريبة المتناقضة أكثر من خطأ حربى شنيع : فيها ما يدلى بفكرونيات خفية، وما يحمل على الاعتقاد بأنها كانت تصدر عن عمد وسوء قصد، يؤكد ذلك ما حدث بعد من انفرادا لمارشال بالمفاوضة مع العدو ومفاوضته للامبراطورة المعزولة فى منفاها وصنائع الامبراطورية الساقطة، وما رواه چول فافر وزير الخارجية فى حكومة الدفاع الوطنى من أقوال بسمارك عن المارشال أثناء المفاوضات الأولى .

•

هذه هى أهم أسانيد الاتهام، وقد استغرق الجنرال پورسيه فى شرح التهم وسرد الأدلة عليها أربعة أيام من ٣ الى ٦ ديسمبر . ثم جاء دور الدفاع وكانت المهمة

هائلة ، وكان الأمل مستحيلا ، فلبث لاشو مدة أربعة أيام كاملة يستنفد فى أداء مهمته الأيمة الفادحة كل ما أوتى من ذكاء ومنطق وبيان . ولكنه لم يوفق الى تحريك أولئك القضاة الجند ذرة ، فجلس بعد أن أتم دفاعه مريضا منهوكا موقنا بالخسران . ثم رد الجنرال پورسيه على الدفاع بكلمة ختامية . ولكن بدرت منه أثناء إلقائها بادرة ألفى فيها الأستاذ العظيم فرصته مرة أخرى فقد خاطب الجنرال پورسيه المجلس بقوله : «أيها السادة ، ان المحامى الذى ترونه أمامكم هو المدافع عن أقطاب المجرمين : هو المدافع عن تروپمان» . فوثب لاشو من مكانه لتلك الاهانة ، واستعاد فى الحال كل قواه وكل بيانه وعاد الخطيب اللسن الأشهر ، وسحق المدعى العام بمنطقه وذلاقته حتى استطاع أخيرا أن يحرّك القضاة أو على الأقل أن يهزم عداوتهم ، واستدعاه الدوق دومال فى ختام الجلسة وقال له : «انى أهنئك ياسيدى إذ استطعت أن تنقذ رأس الماريشال» وكانت هذه هى المعجزة التى أنقذ بها لاشو حياة الرجل الذى تتطلع فرنسا كلها الى رأسه [1] .

وفى الساعة التاسعة من مساء ١٠ ديسمبر سنة ١٨٧٣ تلا الدوق دومال الحكم الآتى :

« باسم الشعب الفرنسى :

« اليوم ، ١٠ ديسمبر سنة ١٨٧٣ ، تداول المجلس الحربى الأول بصفة سرية وألقى الرئيس الأسئلة الآتية :

السؤال الأول — هل ارتكب الماريشال بازين فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٧٠ بصفته قائدا عاما لجيش الرين جريمة التسليم فى الساحة المكشوفة ؟

السؤال الثانى — وهل أسفر ذلك التسليم عن وضع الجنود التى يقودها الماريشال تحت رحمة العدو ؟

---

(١) أثبتت هذه المرافعة الختامية بنصها فى مجموعة مرافعات لاشو ، وهى طويلة جدا ، ولم نقتبس منها لأنها تتعلق بمسائل فنية ، وبوقائع سبق أن شرحناها .

السؤال الثالث — هل تفاوض المارشال بازين شفهيا أو بالكتابة مع العدو دون أن يقوم قبل ذلك بما يحتمه الواجب والشرف ؟

السؤال الرابع — هل ثبتت إدانة المارشال بازين الذى حوّل الى المحاكمة بناء على طلب مجلس التحقيق فى أنه فى يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٧٠ تفاوض مع العدو وسلم اليه منطقة متز التى كان لها قائدا أعلى وذلك دون أن يستنفد كل وسائل الدفاع التى كانت لديه ودون أن يقوم بكل ما يحتمه الشرف والواجب ؟

وقد أخذت الأصوات وابتدئ بأقدم القضاة فى الرتبة، وأعطى الرئيس صوته أخيرا، فقرّر المجلس الحربى الأوّل ما يأتى :

عن السؤال الأوّل — نعم بالاجماع .

عن السؤال الثانى — نعم بالاجماع .

عن السؤال الثالث — نعم بالاجماع .

عن السؤال الرابع — نعم بالاجماع .

«وبناء عليه، وحيث أنه بعد الطلبات النهائية التى قدّمها مندوب الحكومة (المدعى العمومى) فى مرافعته تلا الرئيس نص القانون وأخذ الأصوات ثانية بالشكل الموضح قبل فى شأن توقيع العقوبة» .

« وبناء عليه وبناء على نص المادتين ٢١٠ و ٢٠٩ من القانون العسكرى ، ونصهما كما يأتى :

المادة ٢١٠ — كل جنرال وكل قائد جماعة مسلحة يسلم فى الساحة المكشوفة يعاقب : (أوّلا) بالاعدام والتجريد من الرتب العسكرية اذا أسفر التسليم عن وضع جنوده تحت رحمة العدو أو اذا لم يكن قبل المفاوضة شفهيا أو كتابة قد قام بكل ما يحتمه عليه الواجب والشرف . (ثانيا) يعاقب بالعزل والتجريد فى كل حالة أخرى .

المادة ٢٠٩ — يعاقب بالاعدام والتجريد من الرتب العسكرية كل حاكم أو قائد يحال الى المحاكمة بناء على رأى مجلس التحقيق وتثبت إدانته فى أنه تفاوض مع العدو وسلم اليه المكان الذى عهد به اليه ، وذلك دون أن يكون قد استنفد كل وسائل الدفاع التى لديه ، ودون أن يكون قد قام بكل ما يحتمه الواجب والشرف .

«يقضى المجلس باجماع الأصوات على فرانسوا أشيل بازين ماريشال فرنسا بالاعدام والتجريد من الرتب العسكرية .

«وبناء على نص المادة ١٣٨ من القانون العسكرى ونصها كما يأتى :

« اذا كان المحكوم عليه عضوا فى جماعة فرقة الشرف (اللچيون دونير) أو يحمل الوسام الحربى فان الحكم ينص — إلا فى الأحوال التى يقرّرها القانون — على أنه يفصل من جماعة فرقة الشرف وعلى حرمانه من التحلى بالوسام الحربى .

« يقضى المجلس الحربى الأوّل بأن المارشال بازين قد فصل من جماعة فرقة الشرف وحرم من حق التحلى بالوسام الحربى .

« ويقضى المجلس فوق ذلك على المارشال بازين بأن يدفع مصاريف القضية للحكومة تطبيقا لنص المادة ١٣٩ من القانون العسكرى .

« وعلى مندوب الحكومة الخاص أن يتخذ الاجراءات لتلاوة هذا الحكم على المحكوم عليه ، وذلك أمام جماعة الحرس متقلدة أسلحتها ، وأن يخطره بأن القانون يمنحه للطعن فى هذا الحكم مدّة أربع وعشرين ساعة » .

وعلى أثر تلاوة هذا الحكم كتب أعضاء المجلس الى وزير الحربية الخطاب الآتى :

« يا سعادة الوزير :

« أصدر المجلس الحربى حكمه على المارشال بازين .

« وإذ كنا محلفين فقد بحثنا المسائل التى طرحت علينا غير منصتين الى صوت إلا صوت ضميرنا . وليس علينا أن نكرر المداولات المستفيضة التى استترنا بها ، فالى الله وحده يجب أن نقدّم الحساب عن تفاصيل حكمنا .

« وقد أرغمنا كقضاة أن نستعمل قانونا صلبا لا يسمح أن يخفف أى ظرف من الظروف وقع جريمة ترتكب ضد الواجب العسكرى .

« ولكن هـذه الظروف التى يحظر علينا القانون أن ننظر اليها عنـد إصدار الحكم يحق لنا أن نتلوها عليك :

«إنا نذكرك بأن المـاريشال بازين قد تولى وزاول قيادة جيش الرين فى غمار من صعاب لا مثيل لهـا ، وأنه ليس مسئولا عن المصائب التى وقعت فى فاتحة القتال ، ولا عن اختيار خطوط القتال .

« ونذكرك بأنه كان دائما يشهد المعارك بنفسه ، وان أحدا لم يفقه فى البسالة فى بورنى ، وجراثيلوت وتوانفيل وانه فى يوم ١٦ أغسطس ، اسـتطاع بثباته أن يحافظ على قلب خطوطه .

« واذكر خدمات الجندى الذى تطوع للانتظام فى الجيش منذ سنة ١٨٣١ ، وعدد كل المعارك ، والجروح ، والأعمـال الباهرة ، التى اسـتحق من أجلها عصا ماريشال فرنسا .

«واذكر الأسر الطويل الذى رزح تحته ، وأذكر عذاب هذين الشهرين اللذين لبث خلالهما كل يوم يرى شرفه أمامه عرضة للجـدل ، وعندئذ تضم صوتك الينـا فى الالتماس من رئيس الجمهورية فى ألا يسمح بتنفيذ الحكم الذى أصدرناه ... » .

وبعد يومين استبدل حكم الاعدام بالسجن المؤبد .

* * *

يقول خصوم المـاريشال بازين إن المجلس الحربى كان يمثل دورا موضوعا من قبل ، وإن الحكم الذى أصدره كان صورة ، اذ أنه فى نفس الوقت الذى يقضى فيه بالاعدام على المـاريشال ، يسعى الى انقاذ حياته ، وإن حكم السجن المؤبد الذى استبدل به قضاء الاعدام نفذ على نحو يؤيد هذا الرأى ، فقد اعتقل الماريشال فى قصر فخم فى جزيرة سانت مرجريت تحيط به البساتين اليانعة ، وسمح لزوجه وولده ولبعض

حشمه بالاقامة معه، وسمح لأصدقائه بزيارته فى كل وقت ، وأمر الحرس بحسن معاملته . بيد أنه لم تمض ثمانية أشهر حتى استطاع المارشال أن يفر من اعتقاله الرفه فى ليلة ١٠ أغسطس سنة ١٨٧٤ ، وكان فراره فى ظروف مريبة غامضة ، فاستقل قاربا كانت تنتظره فيه زوجه، وسافر الاثنان باسم الدوق والدوقة روفيلا . وقصد المارشال الى اسبانيا حيث احتفى به ملكها الفونسو الثانى عشر . وعاش فى مدريد فى عزلة وهدوء . وأخرج كتابا ثانيا للرد على خصومه أسماه « حوادث حرب سنة ١٨٧٠ وحصار متز » . وفى سنة ١٨٨٧ حاول فرنسى يدعى هيليرو أن يقتل المارشال، فأصابه بجرح يسير فقط، وحوكم وعوقب .

وفى سنة ١٨٨٨ توفى المارشال بازين بعيدا عن وطنه، منبوذا من مواطنيه، مشيعا بلعناتهم الى قبره النائى .

* * *

لا نرى مجالا للشرح والتعليق بعد الذى أفضنا فى سرده من غمار الحرب والسياسة التى جازها المارشال بازين . بيد أنه مهما كان الغموض الذى يحيط بالدور الذى أداه المارشال فى حوادث متز وفى خصومة الامبراطورية، فان الأدلة والقرائن التى استطاع أن يظفر بها التاريخ ما تزال تنهض عليه لا له .

مراجع هذا الفصل

HENRI GIRARD : Hist. de la Troisième République.

A. MALET : XIXeme Siècle.

F. SANGNIER : Plaidoyers de Lachaud.

M. PETIT : Hist. de France.

LA GRANDE ENCYCLOPÉDIE.

الفصل الثامن

خصـــومة الساميـــة

وقضية دريفوس

١٨٩٤ — ١٩٠٦

نختتم كتابنا بالكلام على قضية دريفوس ، فهى من أعظم قضايا التـاريخ ، بل هى أعظم القضايا الكبرى فى العصر الأخير ، وقلما تقدم الينا صحف العدالة ، قضية أوسع منها فى المدى ، وأعمق فى الآثار السياسـية والاجتماعية ؛ فقد شغلت قضية دريفوس فرنسا بأسرها اثنى عشر عاما ، و بثت اليها من الأحقاد القومية والخصومات السياسية ما لم تبثه أعظم الفتن والحوادث ، وكادت تمزق وحدتها ، وتدفعها الى هاوية الثورة والحرب الأهليـة والانحلال السياسى والاجتماعى . ومن جهة أخرى فقـد شغلت قضية دريفوس اليهودية فى أنحاء العالم كله ، وكانت لها نذيرا باشتداد الخطر الجنسى الذى يهـدد حياتهـا ومستقبلها ، فتأهبت لمقاومته ، واتخذت لدرئه وسائل جديدة . فالخصومة السامية وقضية دريفوس يرتبطان أشـد الارتباط . ولم تكن الثانية إلا فورة للأولى . لهذا يحسن قبل الكلام عن القضية أن نتقدم بشرح هذه الخصومة التى كانت لها روحا ومنشأ .

هذه الخصومة ترجع الى أقدم العصور ، ولكنها لم تتخذ صبغتها العلمية الحديثة الا فى القرن المـاضى ، حيث استحالت الى حركة اجتماعية وسياسية منظمة عرفت بخصومة السامية (الانتى سميتزم)[١] ، وهو اصطلاح حديث يعنى المعارضة فى حصول اليهود على المساواة السياسـية والاجتماعيـة ، و يرجع الى النظرية القائلة بأن اليهود

---

(١) Anti-Semitism

شعب سامى يختلف كل الاختلاف عن الشعوب الآرية أو الهندية الأوربية ولا يمكن أن يمتزج بها، وهذه المعارضة فى منح اليهود المساواة السياسية والاجتماعية لا ترجع الى الدين، بل ترجع الى خواص اليهود الجنسية، فمن خواصهم طبقا للنظرية، الجشع، وكفاية خاصة لجمع المال، وبغض العمل الشاق، والتمسك بالعصبية الجنسية، والتدخل فى شئون الغير، ثم فقد الكياسة الاجتماعية، وبالأخص فقد العاطفة الوطنية[1] .

وكان العلامة الألمانى لاسن[2] أول من نوه بأهمية الفوارق الجنسية، بين الجنس السامى، والجنس الآرى. فذهب الى « أن الحضارة كانت هبة لأمم قلائل، وكان المصريون وحدهم دون باقى الشعوب، والساميون والآريون من الجنس القوقازى، هم بناة الحضارة البشرية . ويدلل التاريخ على أن الساميين لا يتمتعون بتناسق القوى الطبيعية الذى يمتاز به الآريون . فالسامى أنانى مستأثر، وهو ذو ذكاء قوى يمكنه من انتهاز الفرص التى يهيئها الغير، كما يدل على ذلك تاريخ الفينيقيين ثم تاريخ العرب » . كذا يقول المؤرخ الفرنسى رينان[3] ، بانحطاط الجنس السامى ، فيقول : « ان العلم والفلسفة، وهما اللذان لبثا حتى اليوم عنوانا لتقدم العقل البشرى نحو الحقيقة كانا غريبين عنه » ثم يقول ان أعظم الحركات الحربية والسياسية والعقلية كلها من صنع الآريين، بينما قام الساميون بالحركات الدينية ، واليهود مع ادعائهم بأن المستقبل لهم، ليسوا شعبا تقدميا، والى هذا التناقض فى موقفهم يرجع البغض الذى لم تلطفه القرون .

وخصومة السامية (الانتى سميتزم) تطلق على الحركات الحديثة التى قامت ضد اليهود، ولكنها قد تشمل فى معنى أوسع كل اضطهاد عرضت اليه اليهودية فى جميع العصور والأمم . ذلك أن اليهودية منذ ألفى عام، تعيش أينما حلت فى معزل،

---

(١) دائرة المعارف اليهودية .

(٢) كرستيان لاسن (١٨٠٠ — ٧٦)، وكان أستاذا بجامعة بون .

(٣) أرنست رينان من أشهر المؤرخين الفرنسيين (١٨٢٣ — ٩٢).

ويحيط الريب بنياتها ومقاصدها ووسائلها فى الحياة والتقدم، وقد كان اليهود منذ أقدم العصور عرضة للاضطهاد، وكانت مبادؤهم الأخلاقية دائما موضع الريب . وفى العصور الوسطى بلغ اضطهاد اليهود ذروته ونسبت اليهم تهم من خواص هذه العصور، فاتهموا بحشد الطوائف السرية لهدم النصرانية، والدعوة الى الخفاء والسحر، وتسميم الآبار، وقتل الصبية اجراء للشعائر العبرية، وتدنيس الآنية المقدسة وغيرها . بل لبثت هذه التهم وأمثالها تنسب الى اليهود فى العصر الحديث، ويقرها أعلام مثل ڤولتير . وفى الدول الاسلامية ذاتها، وهى التى كانت ملاذ اليهود ومهاد نعمتهم وازدهارهم، كانت ريح من هذه الريب والظنون تهب على اليهود . وكانت وسائلهم فى الحياة والتماس الجاه والرفعة تبعث أحيانا الى النفور والسخط . من ذلك ما ذكره المؤرخ دوزى فى تاريخ الأندلس[1] من أن فقيها من أعلام البيرة كتب الى الخليفة فى منتصف القرن الحادى عشر يحذره من اليهود، ويقول إنهم وهم أسافل منبوذون قد غدوا سادة عظاما لا حد لكبريائهم وغرورهم، فيجب ألا يصطفيهم وألا يتخذ منهم وزراء بل يجب أن يتركهم وينبذهم لأن العالم كله يصيح فى وجوههم، ثم يقول انه شاهد اليهود فى غرناطة سادة وحكاما يسيطرون على الضرائب ويعيشون فى بذخ، بينما يعانى المسلمون صنوف الذلة والبؤس .

على أن خصومة السامية الحديثة ترجع بالأخص الى ما ينسب الى اليهودية من رغبة فى سيادة العالم المعنوية، وما تعرض اليه الشعوب الغربية واستقلالها وحضارتها من أخطار هذه الفكرة . ويرجع خصوم السامية وهم أصحاب هذه النظرية، دعوتهم الى حقائق التاريخ وتطوراته فيقولون ان الشعب اليهودى قد اتخذ لنفسه منذ تشتته فى أنحاء أوربا نشأة مستقلة، ومهما كان من تطور هذه النشأة على يد السياسة والتشريع والكنيسة، ومهما كان من تأثر اليهود بالصبغة الغربية وتطور أخلاقهم ونزعاتهم، فقد لبثوا خلال القرون جنسا غريبا فى أممهم، وانتظموا فى مجتمعات خاصة بهم، واكتسبوا بذلك خواص مادية وأخلاقية تميزهم عن

---

(١) «تاريخ المسلمين فى اسبانيا لغاية فتح المرابطين» .

الشعوب التي تحكمهم . وقد قويت هـذه المظاهر على يد الثورات الاقتصادية التي توالت في أوائل القرن الأخير، وبدت خطورتها بالأخص حينما حرر اليهود من القيود القديمة ومنحوا الحقوق السياسية والاجتماعية التي حرموا منها قرونا طويلة . واليهود في العالم كله أقلية صغيرة لا تجاوز الخمسة عشر مليونا ، ولكنهم استطاعوا أن يحرزوا مكانة ساميـة في ميدان النشاط العقلي كما أحرزوا من قبل مكانة رفيعة في ميـدان النشاط المـالي . وقد ظهروا في المهن الحرّة كالطب والقانون والصحافة، وأخرجوا للعـالم أعظم القادة الثوريين مثل بيرنه وهينه ولاساله وماركس . بيـد أن احتشاد اليهود في طبقة « البورچوازي » (أصحاب الأموال والأعمال) ، وامتلاكهم بذلك ناصية المـالية العليا ، هو أشد هذه الظواهر الخاصة وطأة على المجتمعات الأوربية وهو حجر الزاوية في خصومة السامية وفي صيحة الخطر اليهودي[1] .

وكلمـا اشتد نفوذ اليهودية في الشئون المـالية والدولية، كلمـا اشـتد خصوم السامية في دعوتهم، وألفوا في عسف «البورچوازي»، وبؤس الطبقات الوسطى والعاملة، تأييدا لهـا وقوة . وكان اضطرام الدعوة في النمسا بادئ بدء، حيث كان الاحتشاد اليهودي أقوى وأشد، وكان نشاطه أبلغ أثرا وأبعد مدى . ولكن الفورة الاولى وقعت في ألمـانيا على أثر عقد المعاهدة الفرنسـية الألمـانية، وتدفق ملايين غرامة الحرب الفرنسـية الى ألمـانيا ، وظهور التضخم الصناعي والمـالي من جراء ذلك، وهبوط النقد، وسوء الأحوال المـالية . عندئذ نهض ادوارد لاسكار، وهو يهودي من زعماء الحزب الوطني، وحمل على تلك السياسة، وحذر ألمـانيا من عواقبها الوخيمة، وألف لجنة للتحقيق كشفت مباحثهـا عن فضائح ماليـة كبرى وقعت

---

(١) السيادة المـالية اليهودية هي بلا ريب أقوى ناحية في نظرية خصومة السامية . وقـد عني أخيرا ببحث هـذه المسألة مفكر ألمـاني كبير هو الأستاذ فرنر سمبارت ، فأخرج منـذ أعوام قلائل كتابا أسماه : «اليهودية والمـالية الحديثة» بين فيه مبلغ ما وصلت اليه اليهودية في تنظيم المـالية العليا وامتلاك ناصيتها وشرح الأساليب والخطط التي تتبعها في إحكام اغلالها الاقتصادية حول شعوب أوربا وأمريكا . ومن الحقائق المعروفة أن اليهود قد أصبحوا في أوربا وأمريكا سادة المـال وأقطاب الأعمـال والصناعات ، وأصبحوا قادة البورچوازي ، ولا يخفى ما لتلك السيادة المـالية من أثر في سير السياسة الدولية .

فى مجتمع المالية العليا والارستوقراطية ، وتلا نتيجة بحثه على المجلس البروسى فى خطاب قوى مؤثر ألقاه فى فبراير سنة ١٨٧٣ ، ثم أصيبت النمسا بأزمة مالية خطيرة ، ووقع من جرائها كثيرا مما تنبأ به لاسكار ، وكان لليهود من تبعاتها وفضائحها أكبر قسط لأنهم أقطاب المالية والبورچوازى . فاشتد السخط عليهم ، وقويت خصومة السامية . وفى ذلك الحين نشر صحفى ألمانى غير معروف رسالة عنوانها : « انتصار اليهودية على الجرمانية » [1] فلقيت صيحته مهادا خصبة فى سخط الرأى العام ، وفى الخصومات الحزبية والأهواء السياسية ، وفى نضال الطبقات الذى أذكاه البؤس المالى والصناعى ، وألفى رجال الدين فيها سلاحا جديدا لمحاربة اليهودية . وفى سنة ١٨٧٦ ظهرت رسالة أخرى لكاتب آخر عنوانها « البورصات ، ونصب الشركات فى برلين » [2] ، فصل فيها الكاتب نصيب اليهود فى الفضائح والخدع المالية التى نكبت الملايين يومئذ . وهنا شعر اليهود بخطورة هذه الحملات ، فنهضوا للرد والدفاع . وكانت المعركة قلمية صحفية فى المبدأ غير أنها ما لبثت أن تطورت فجأة ، وانحدرت الى ميدان السياسة بقوة ، وأخذت تتمخض عن خصومات وبوادر عنيفة . وكانت يد بسمارك ماثلة فى هذا التطور ، وكان بسمارك يعتمد من قبل على مؤازرة الأحرار ، وفيهم كتلة يهودية قوية ، لتحقيق سياسته ، ولكن بسمارك كان رجل الامبراطورية والنظم الاتوقراطية ، وكان خصيم النظم البرلمانية ، ولم يحالف الأحرار إلا لأنهم يؤيدون وحدة ألمانيا . فلما تمت هذه الوحدة ، وقامت الامبراطورية ، وأمنت كل خطر ، نبذ بسمارك حلفاءه الأحرار الذين لا يرتاح الى مبادئهم ، وانقلب الى مناوأتهم ، ورأى فى خصومة السامية سلاحا لمحاربتهم لأن فيهم كثرة يهودية . وهكذا استمدت خصومة السامية روحا جديدة من سياسة بسمارك ، واجتمعت الحركة فى يد المحافظين ورجال الدين أنصار هذه السياسة ، وتولى تنظيمها وقيادتها رجل من رجال البلاط ومن أعوان بسمارك ، هو أدولف

---

(١) Der Sieg des Judenthums über das Germanthum.

(٢) Die Borsen und Grundergeschwindel in Berlin.

شتيكر، فنادى بأن اليهود خطر على ألمــانيا تدل عليــه الحوادث اليوميــة ، ودوت صيحته فى الرأى العام بقوة، وسرى السخط الى كل مجتمع ، وحدثت من جراء ذلك مناظر عاصفة فى المجلس البروسى ، وطلب بعض النواب الى بسمارك إبعاد اليهود عن الوظائف والمدارس، ونظمت الجهود والهيئات لمقاطعة التجارة اليهودية ، واشتدت وطأة المطاردة على اليهود، وأهينوا فى كل مكان ، وتماطرت عليهم النشرات والحملات القاذفة، وذاعت المبارزة بين اليهود وخصومهم وذهبت أرواح كثيرة . ورأى جماعة من العقلاء والمفكرين وعلى رأسهم ولى العهد خطورة هذه الحركة ، وخشوا عواقبها ، فأذاعوا منشورا وقعــه كثير من أعلام العصر، شرحوا فيه اخطار هــذه الخصومة القومية، ووصفوها بأنها وصمة فى شرف ألمــانيا ، وناشــدوا الشعب أن يخلد الى الســكينة والوئام . فجاءت الدعوة فى وقت مناسب ، لأن حركة الســخط على اليهود، أدت فى روسيا وفى المجر الى مظاهرات وحوادث مروعة قتل فيها الكثير من اليهود ، واعتدى عليهم بأساليب وحشية . وظهر من جهــة أخرى أن نفرا من زعماء خصومة السامية شركاء فى كثير من الفضائح المــالية والسياســية التى وقعت يومئذ، وانهم يستغلون الحركة لمآربهم . فوقعت الرجعة ، واضمحلت الحركة بسرعة ، وانفض عنها معظم العقلاء ، واقتنع سواد الرأى العام بخطرها على الوحدة القومية .

* * *

وكانت خصومة الساميــة فى فرنسا أشــد وأعمق أثرا . وهى ترجع الى نفس العوامل التى اثارتهــا فى النمسا وألمــانيا أعنى تمركز اليهودية المــالى ، والفضائح والكوارث المــالية . غير أنها لقيت فى فرنسا ظروفا خاصة أذكت ضرامها وآثارها . ذلك أن طغيان « البورچوازى » فى بلد تحكمه الملوكية يخفف منه سلطان العرش ونشاط الارستوقراطية السياسى . ولا وجود لهــذا العامل فى ظل النظم الجمهورية التى تخضع لهــا فرنسا . فكانت السياسة مطمح المغامرين من كل حزب ، وكانت « البورچوازى » تستأثر بالســلطان والحكم وفيها عنصر يهودى قوى ، فكانت تثير البغض والسخط لطغيانها أوّلا ثم لعنصرها اليهودى ، كذا احتشد فى فرنسا كثير من

مغامرى المالية وسواهم من اليهود ، واجتذبت المضاربات والمشاريع المالية المريبة كثيرا من أموال الطبقات الوسطى والفقيرة . وكان بدء الانفجار احدى الفضائح المالية . فان شخصا يدعى بول بنتو كان شريكا لآل روتشيلد (اليهود) ، وانفصل عنهم لخصومات مالية ، أنشأ شركة مالية تعرف « بالاتحاد العام » بمؤازرة خصوم آل روتشيلد ، وأذاع انه سيعمل على مقاومة الاحتكار اليهودى المالى ، وخاض «الاتحاد» غمار مشاريع مالية ضخمة ، وأقبل الناس على تعضيده من كل صوب . غير انه لم يكن قائما إلا على المغامرة ، والدعوة الكلامية ، واستغلال خصومة السامية ، فسرعان ما انكشف وتحطم صرحه فى يناير سنة ١٨٨٢ عن ديون تربى على مائتى مليون فرنك . وكانت النكبة هائلة واسعة المدى ، ذهبت بثروات آلاف الأفراد والأسر ، ودفعت بهم الى براثن الفاقة . فعم السخط واليأس ، وارتفعت الصيحة فى الحال بأن اليهود هم الذين دبروا النكبة ، واشتد سخط الرأى العام وتحامله عليهم . وفى سنة ١٨٨٦ نشر كاتب يدعى ادوار درمون كتابا عنوانه «فرنسا اليهودية»(١) ، شرح فيه خصومة السامية ، وأيدها بالأدلة ، ووصف فساد الحياة الاجتماعية الفرنسية وانحلالها فى صور قوية مثيرة ، ورد التبعة فى كل ما تعانيه فرنسا من المصائب الى اليهودية ، فذاع كتابه ذيوعا هائلا ، وزاد فى اضطرام الفتنة واتساعها .

كذا كانت الخصومة الدينية فى فرنسا تستتر وراء خصومة السامية ، ذلك أن أعداء الكنيسة من أحرار المفكرين كانوا يعملون لتحطيم نفوذها فى الشئون العامة . وكانت هذه الخصومة شعار الحزب الجمهورى على الأخص ، فاسفرت جهوده غير بعيد عن اصدار قانون بحل بعض الهيئات الدينية وغلق كثير من الأديرة ، وعن سنّ مجانية التعليم ، فكانت ضربة قاضية على المدارس الدينية . فاشتد سخط الدوائر الدينية والرجعية ، واتهمت أحرار المفكرين بأنهم حلفاء اليهودية يعملون لترويج دعوتها الالحادية . ولما صدر قانون باباحة الطلاق فى سنة ١٨٨٤ بلغ سخط

---

(١) La France Juive.

الكنيسة غايتــه ، وكررت الصيحة ضــدّ اليهودية ، لأن زعيم الدعوة الى الطلاق كان نائبا يهوديا يدعى ناكيه ، وسمى القانون فى الدوائر الكنيسة «بالقانون السامى» .

وهكذا اشتدت وطأة الحملة على اليهودية ، واجتمع كثير من خصومها ، ومنهم أنصار دريمون حول الجنرال بولانجيــه ، فى هيئة نظمت لمقاومــة اليهود والدعوة الى خصومتهم ، واستمر دريمون فى نشاطه القلمى ، فأخرج عدّة كتب ورسائل أخرى تفيض كلها بالتحريض على اليهود واليهودية . وفى ســنة ١٨٩٢ أنشأ صحيفة « الليبر پارول »(١) لتكون لسانا للحركة . ونظمت حملة للكشف عن الفضائح المــالية أو السياسية التى يكون لليهودية فيها يد ما . كذا أنشئت جمعية من الارستوقراطيين العاطلين لاستثارة اليهود ومبارزتهم . واشــتدت الدعوة بين صفوف الجيش حيثما كانت العناصر الرجعية قوية ، وقامت حركة لاخراج الضباط اليهود وعددهم يومئذ خمسمائة من الجيش ، وحملت «الليبر پارول» على هؤلاء الضباط فى مقالات ملتهبة ، وأتهمتهم بأنهم عيون الأعداء على الجيش وانهم خونة المستقبل ، فثارت الخواطر ، ووقعت من جراء ذلك عدّة مبارزات دموية كان من ضحاياها ضابط يهودى محبوب يدعى الكبتين أرمان ماير ، فتأثر العقلاء لقتله ، وانفض كثيرون عن الحركة ، وكفت الليبر پارول عن حملاتها حينا ، وخيل للناس أن الفتنة قد خبت واضمحل شأنهــا ، وغاضت مادّتها .

ولكن حادثا جديدا عاد فأذكى الفتنة بسرعة هو فضيحة شركة پناما التى أسسها فردينانــ دى لسبس سنة ١٨٨١ لتشق قناة پناما ، فقــد انهارت دعائمها فجأة فى سنة ١٨٨٩ بعد أن اتسعت أعمالهــا اتساعا هائلا ، وكثرت قروضها ، وعجزت عن الوفاء بتعهداتها ، فنكبت بافلاسها عشرات الألوف . وكشف التحقيق القضائى عن اشتراك كثير من النواب والشيوخ فى أعمالهــا والدعوة الى تعضيدها اشــتراكا مريبــا ، وأحيــل وزير سابق للأشغال وبعض الشــيوخ على محكمة الجنــايات سنة ١٨٩٢ ، فبرئوا ماعدا الوزير . وكانت «الليبر پارول» أوّل من نشط الى كشف

(١) La Libre Parole.

هذه الفضائح ، فكان لظهورها وقع شــديد فى الرأى العام، خصوصا لمـا ظهر من أن بعض المـاليين اليهود اشتركوا فى أعمـال الشركة المفلسة ، وفرّوا الى الخارج ؛ فاشتدّت الدعوة من جديد، وارتفعت الصيحة ضــدّ اليهودية بأشدّ من ذى قبل، واضطرمت البلاد بنار الفتنة مرة أخرى .

وفى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٤ قبضت السلطة الحربية على ضابط يهودى يدعى الفرد دريفوس، وهو «كبتين» فى قسم المدفعية، ومن المرشحين لقسم أركان الحرب . قبض عليه بتهمة الخيانة، وحقق معه سرا . وقدّم الى محكمة عسكرية سرية . فكان ذلك بدء هــذه القضية الشهيرة التى شغلت فرنسا واستغرقت حياتها العامة أعواما طويلة . وكانت الليبر پارول أوّل من أشار الى التهمة ، وقالت إن هنـالك أدلة قاطعــة على أن دريفوس قد باع أسرار فرنسا الحربية الى ألمـانيا ، وإنه اعترف بجرمه اعترافا كاملا ؛ كذا نشطت قبل المحاكمة الى القيام بحملة شديدة ضدّ وزير الحربيــة الجنرال مرســيه ، وأعربت عن تخوّفها من أنه قد يأتمر مع اليهود ومع زملائه الجمهوريين على إخفاء التهمة . وهكذا كانت خصومة الساميــة تبث دعوتها حول الحادث منذ البــداية، وكانت الأنفس يومئذ فى ذروة اضطرامها تتأثر بكل تحريض ودعوة ، وكانت نكبة پناما قد مهدت الى ظفر خصومة الساميــة ، والى احاطة اليهودية بسيج من البغضاء والأحقاد الخطرة . وكانت قضية دريفوس ذروة هذه الخصومة الجنسية لا فى فرنسا وحدها، ولكن فى العالم بأسره .

٢

كان قلم التحريات السرية بوزارة الحربية الفرنسية يشدّد الرقابة على السفارة الألمـانية فى باريس لاعتقاده أن الملحقين الحربيين الألمـان يجدون بكل الوسائل فى الحصول على أسرار الدفاع الفرنسى ، وكان من وسائل هذه الرقابة ان استطاع قلم التحريات حمل خادمة بالسفارة الألمـانية تدعى مدام بستيان على أن تلتقط من مكتب الملحق الحربى الكولونل شفارتزكوپن كل الأوراق المهملة والقصاصات،

و بقايا الأوراق المحروقة، ثم تحملها أو ترسلها مرة أو مرتين كل شهر الى قسم الاحصاء، وهنالك تفرز، وتلصق أجزاؤها المتناسقة بمنتهى العناية .

بهذه الوسيلة ثبت لدى قلم التحريات أنه قد تسربت منذ سنة ١٨٩٢ أسرار تخص الدفاع الوطنى، وظهر أيضا من قصاصات احدى الأوراق أن الملحق الحربى الألمانى يعتمد على شخص تعهد له باحضار الوثائق المطلوبة على أثر صدورها من وزارة الحربية . وفى صيف سنة ١٨٩٤ ظفر القلم بوثيقة هامة ينسب صدورها الى السفارة الألمانية، وهى عبارة عن خطاب غفل اشتهر منذ ظهوره باسم « البردرو »[١]، كتب على ورق مما يستعمل عادة للمذكرات فى السفارات، وكان ممزقا فى موضعين فقط . وكان المعتقد طبقا للرواية الرسمية أنه وجد بين قصاصات مدام بستيان، ولكن الظاهر أنه سرق من مكتب الكولونل شفارتزكوبن بواسطة أحد أعوان قلم التحريات . واليك نص هذه الوثيقة الشهيرة :

« لا أعرف ان كنت ترغب فى رؤيتى يا سيدى، ولكنى أرسل اليك بعض معلومات هامة هى الآتية :

« (١) مذكرة تتعلق بالآلة المائية رقم ١٢٠، والطريقة التى يشتغل بها هذا المدفع .

« (٢) مذكرة عن « قوات التغطية» .

« (٣) مذكرة عن تعديل يختص بتكوين المدفعية .

« (٤) مذكرة تتعلق بمدغشقر[٢] .

« (٥) مذكرة تتعلق بالاقتراح الخاص « بقواعد ضرب النار » فى مدفعية الميدان (١٤ مارس سنة ١٨٩٤) وهذه الوثيقة مما يصعب إحرازه وأستطيع أن أتصرف فيها لمدة أيام قلائل فقط . وقد وزع وزير الحربية بعض نسخ منها على

---

(١) Le Bordereau.

(٢) كانت فرنسا تجهز يومئذ حملة لغزو هذه الجزيرة .

القوات، والقيادة مسئولة عنها، ويجب على كل ضابط بيده نسخة أن يردّها عقب التمارين . فاذا رأيت فيها ما يهمك وردّدتها إلىّ بأسرع ما يمكن فسأحاول الحصول عليها، إلا اذا فضلت أن أنسخها بنصها وأرسل اليك صورتها .

« وانى أبدأ الآن التمارين[1] » .

هذه هى صورة الوثيقـة التى كان ظهورها منشأ القضية الشهيرة . ولم يعرف تاريخ تحريرها أو ورودها بالضبط، ولكن وزير الحربية قال انها وردت مع أوراق أخرى بين ٢١ أغسطس و ٢ سـبتمبر . وكان الذى تسـلمها هو المـاچور هنرى مساعد قلم التحريات ، ولكنه لم يخطر بشأنها رئيسه الكولونل ساندهر إلا فى يوم ٢٤ سبتمبر، وأخطر هذا فى الحال وزير الحربية، فاهتم بالأمر ، وتكونت الفكرة فى الحال ممـا ورد فى الخطاب بأن الكاتب له هو ضابط فرنسى ، وأنه ينتمى لفرقة المرشحين لقـلم أركان الحرب . واتجهت أنظار بعض الرؤساء الى ضابط يهودى هو الفرد دريفوس ، وكان بعضهم يعتقد فيه الاهمال وسوء السلوك . وفى الحال قورن خط الخطاب المضبوط سرا بأوراق عليها خط دريفوس فكان من غرائب الاتفاق أن وجد بينهما بعض الشبه، فاعتقد الرؤساء أنهم عثروا بالمجرم الحقيقى .

* * *

والفرد دريفوس الزاسى ولد فى سنة ١٨٥٩ من أسرة غنية تملك مصنعا كبيرا للغزل . وكان له ثلاثة اخوة، وثلاث أخوات . فلما استولت ألمـانيا على الالزاس واللورين عقب حرب سـنة ١٨٧٠ بقى أكبر الاخوة فى الالزاس لادارة الشـئون المـالية، ونزحت الأسرة الى باريس . والتحق الفرد بمدرسة الهندسة، ثم بمدرسة الضباط ، وانتظم عقب تخرجه فى الجيش بقسم المدفعية، ورقى فى سنة ١٨٨٩ الى رتبة الكبتين . ثم تزوج من لوسى هادامار وهى ابنة جوهرى غنى . واستمر فى تقدمه حتى رشح فى أواخر سـنة ٩٢ لقسم أركان الحرب ؛ وكان يظفر من جميـع رؤسائه بتقارير حسنة ما عدا أحدهم الكولونل فابر . ولكنـه كان رغم ذكائه، ونشاطه،

(١) نقلنا صورة هذه الوثيقة عن دائرة المعارف اليهودية التى نشرت صورتها الفتوغرافية أيضا .

وواسع معرفته ، جاف الخلال ظاهر الكبر ، فكان ذلك يحرمه من عطف الكثيرين من رؤسائه وزملائه . بيد أنه كان مستقيما ، بعيدا عن الشهوات والرذائل الاجتماعية ، يعيش عيشة رفهة منظمة ، لأنه فضلا عن مرتبه كان غنيا . ولم يكن ثمة فى سيره العام أو الشخصى ما يحمل على الارتياب فى وطنيته . بل كان فى الخطاب المضبوط ذاته ما يبعد الشبهة عنه وعن كل زملائه فى قسمه لأن كاتب الخطاب يتحدّث عن « البدء فى التمارين » ، ولم يذهب الى التمارين فى هذا العام أحد من مرشحى قسم أركان الحرب .

مع ذلك رأى الكولونل فابر أن المجرم هو الضابط اليهودى ، وآمن رئيس قلم التحريات الكولونل ساندهر بهذا الرأى . وأبلغ وزير الحربية الرأى الى مجلس الوزراء ، فأذن له أن يقوم بتحقيق سرى دقيق . فانتدب لمضاهاة الخط چوبر أحد خبراء بنك فرنسا ، فقرر بعد فحص « البردرو » وأوراق عليها خط دريفوس ، «أن الخطاب الغفل قد يكون صادرا من شخص آخر غير الشخص المشتبه فيه » . فاعتبر رأيه محايدا ، وانتدب لاعادة الفحص برتيون رئيس قلم تحقيق الشخصية ، فقرّر « أنه اذا استبعدت فكرة وثيقة زورت بمنتهى العناية ، فواضح أن نفس الشخص هو الكاتب لجميع الأوراق التى فحصت بما فيها الورقة المشتبه فيها[1] » . وعلى أثر ذلك أمر وزير الحربية بالقبض على دريفوس فقبض عليه سرا فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٤ بتهمة الخيانة العليا . ولكنه أنكر التهمة بإباء وشدّة ، وأكد براءته بكل قواه .

ولم تمض أيام قلائل حتى أذاعت الصحف البارزية النبأ فى صور مثيرة ، وزادت الليبر پارول أن الأدلة ناهضة على جرم المتهم ، وأنه فوق ذلك اعترف اعترافا كاملا .

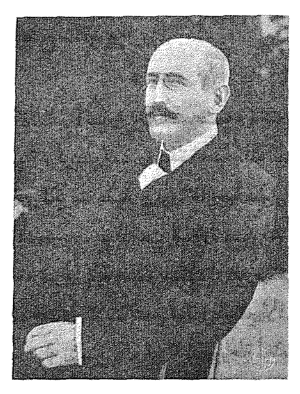
---

(١) تعلق دائرة المعارف اليهودية على ذلك بقولها ، ان برتيون موظف لم تكن كفاية تؤهله لهذه المهمة ، هذا فضلا عن أنه كان قد حصل من چوبر على صور فتوغرافية للبردرو من قبل ، وانه ، إن جريمة المشتبه فيه ثابتة لا شك فيها ، ولهذا كون رأيه بسرعة وقدم تقريره فى نفس اليوم الذى فحص فيه الأوراق .

وتولى التحقيق القضائى المدّعى العمومى لمحكمة السين العسكرية، فلم يعثر بجديد، ولكن بعض الضباط من زملاء دريفوس ذكروا فى التحقيق أنه كان يبدى بعض الفضول، وذكر ضابط أنه أعاره «قواعد ضرب النار» فى شهر يوليه، هذا فى حين كان المعتقد أن البردرو كتب فى أبريل . وذكر جاسوس عهد اليه الماچور هنرى بالتحرّى عن أخلاق دريفوس، أنه انتهى فى بحثه الى أن دريفوس كان مقامرا فاسقا، وأن أسرته أرغمت مرارا على أداء ديونه ، هذا مع أن دريفوس الضابط لم يكن معروفا فى نوادى اللعب والهوى ، وانما كان له سمى خلطه التحرّى به . وهكذا «كانت الخيانة المزعومة دون سند ، ودون باعث واضح، ودون سابقة من أى نوع، ودون احتمال نفسى أو أخلاقى، بل كان الاتهام يستند فقط الى قصاصة ورق، أبى خبيران من خمسة أن يعترفا بأن كاتبها هو دريفوس» (٢) .

ولكن وزير الحربية الذى كان يحفزه اضطرام الصحافة وهياج الرأى العام رأى أن تعدّ الأدلة بطريق آخر، وعهد الى قلم التحريات السرية أن يعدّ ملفا سريا خاصا توضع به أية أوراق سرية يمكن أن تفيد فى إثبات التهمة، وأن يعرض على القضاة وحدهم وقت المداولة دون اطلاع المتهم أو الدفاع عليه . وعهدت أسرة دريفوس بالدفاع عنه الى الأستاذ ديمانج فلم يقبل المهمة إلا بعد أن اقتنع من مراجعة أوراق التحقيق بأن التهمة باطلة . وبذل كل سعى فى إجراء المحاكمة علانية وأقسم بشرفه ألا يثير أية مسألة دقيقة تؤدّى الى مشاكل سياسية ؛ ولكن جهوده فى هذا السبيل ذهبت عبثا، وطلب وزير الحربية «لأسباب تتعلق بسياسة الدولة» أن تجرى المحاكمة سرا . وبدأت المحاكمة فى ١٩ ديسمبر فى سجن «شرش ميدى» الحربى، واستمرت أربعة أيام . وقررت المحكمة العسكرية سرية المرافعات بالرغم من احتجاج الأستاذ ديمانج . وسارت القضية دون حادث . وأكد دريفوس براءته بكل قواه . وعبثا حاول الأستاذ ديمانج أن يبين فى مرافعة قوية لبثت ثلاث ساعات، أن محتويات «البردرو» ذاتها تنفى التهمة عن دريفوس . وعند المداولة فقط

(٢) دائرة المعارف اليهودية .



الفرد در يفوس

جىء بالملف السرى ، وعرض على القضاة وحدهم فى غرفتهم . وعرف فيما بعد أنه كان يحتوى على تقرير سرى عن حياة در يفوس يتهم فيه بأنه خائن قديم وأنه سلم للألمان أسرار الدفاع مذ كان فى المدرسة ، و بعض قصاصات من مذكرة لشقارتزكوبن (ملحق ألمانيا الحربى) يشير فيها الى مخبر يستقى أخباره من الوزارة ، ثم سحب الملف بعد ذلك على الأثر . وقضت المحكمة باجماع الآراء بادانة در يفوس ، وحكمت عليه بالنفى المؤبد فى قلعة والتجريد قبل ذلك . فصعق دريفوس لهذا الحكم لأنه كان قوى الأمل فى البراءة ، وتولته نوبة يأس هائل ، ورجا أن يعطى مسدسا لينتحر ، ولم يهدأ إلا بعد حين ، و بعد أن كتبت اليه زوجه ترجوه فى رسائل مؤثرة أن يبقى على حياته قياما بواجبه نحو أسرته . ولم يكن استئناف الحكم إلا إجراء شكليا فرفض فى ٣١ ديسمبر . وأخذ دريفوس فى ٥ يناير سنة ٩٥ الى ميدان الشان دى مار لتنفيذ حكم التجريد فى مشهد علنى حافل . ولكنه حافظ على جلده وسكينته ، ولما ألقى عليه القائد صيغة التجريد المعتادة صاح «إنكم تجردون رجلا

بريئا . فلتحي فرنسا ، وليحي الجيش » وكرر الهتاف بينما كسر سيفه ، ونزعت أوسمته ، والشعب من حوله يصيح مطالبا بموته .

* * *

وفى أثناء ذلك كان اسم ألمانيا يملأ الصحف ، وكانت تشير اليها والى أعمالها فى فرنسا اشارات سيئة . فردت السفارة بعدّة احتجاجات شبه رسمية فى الصحف ، وقابل السفير الألمانى الكونت منستر وزير الخارجية هانوتو ، وأكد له أن ألمانيا لم تشترك فى المسألة بأى وجه . ثم أذاعت السفارة بعد ذلك بلاغا رسميا أكدت فيه أنها لم تتصل بدريفوس بأية صلة مباشرة أو غير مباشرة . ولما لم يفد كل ذلك فى وقف تيار الاهانات والحملات الشديدة ، قابل السفير الألمانى رئيس الجمهورية كازمير پرييه ، فصرح له الرئيس بأن الورقة المضبوطة أخذت فعلا من السفارة الألمانية ولكنها ليست وثيقة هامة . وانتهت المسألة بأن أصدرت وكالة هاڤاس مذكرة شبيهة بالرسمية تؤكد فيها ابتعاد جميع السفارات عن قضية دريفوس . ولكن لم تمض أيام قلائل على ذلك حتى قدم كازمير پرييه استقالته من رئاسة الجمهورية بحجة وقوع أزمة وزارية (٩ يناير سنة ٩٥) . وكان لغموض القضية وما أحاق بها من الريب أثر فى هذا التصرف[1] . فانتخب مكانه للرآسة فيلكس فور ، وألف ريبو وزارة جديدة لم يدخلها الجنرال مرسييه وزير الحربية بل خلفه فيها الجنرال زورلندن .

أما الضابط المحكوم عليه فأخذ فى ١٧ يناير الى سجن ريه الحربى . وزارته زوجه فى تلك الفترة مرارا . ثم أخذ فى ٢١ فبراير فى مركب حربى الى منفاه فى جزيرة سالى على مقربة من جويانا الفرنسية . ورفض طلب زوجه فى اللحاق به . وهنالك زج وحيدا الى سجنه فى أقليم شنيع ، وأسيئت معاملته ، وأرغم على أداء أشق الأعمال ، وقدم اليه طعام ردئ . ولكنه كان يحتمل مصيره جلدا ، وكان يقطع أوقاته بالمطالعة والتمارين الشاقة ، وتدوين مذكراته[2] . وكانت الليبر پارول تقول مع ذلك

---

(١) دائرة المعارف اليهودية .

(٢) دائرة المعارف اليهودية .

إن حراسة السجين ليست محكمة ، وإنه يستطيع الافلات بأيسر أمر ، وإن جماعة قوية الفت لانقاذه . فكان من أثر ذلك أن أصدر وزير المستعمرات أمره الى حاكم جويانا بان يبنى حول الساحة التى يتنقل فيها السجين أسوارا عالية حجبت عنه البحر. وكان يسمح له بتسلم الرسائل والكتب من أسرته أولا ، ولكن قطعت عنه الكتب بعد ذلك ، وحجزت رسائل أسرته وقدمت اليه صور منها فقط . واستمر الحال على ذلك حتى سنة ١٨٩٨ ، وكانت رسائل زوجته ، بالرغم من ايجازها مفرغة فى لهجة التشجيع والأمل .

* * *

لم تكن محاكمة دريفوس والحكم عليه خاتمة الهياج ، بل كانت بالعكس فاتحة لمرحلة جديدة من الخصومة والنضال . فلم تمض أشهر قلائل على صدور الحكم ، حتى ثارت فى مجلس النواب (فى أبريل سنة ٩٥) مناقشة حادة فى مسألة « الخطر اليهودى » فاضطرمت الأنفس من جديد ، والقيت القنابل مرتين على مصرف روتشيلد فى باريس ، واتخذ النضال وجهة خطرة . ومن جهة أخرى فقد اهتزت اليهودية الى أقصاها لهذا العدوان ، ونشطت الى الدفاع . وكانت أسرة دريفوس موقنة ببراءته ، وكانت قوية غنية ، فلم تستسلم الى اليأس ، بل نشطت الى العمل لأظهار الحقيقة . وتولى هذه المهمة ماتيو دريفوس أخو الضابط المحكوم عليه . وكان مقداما ذكيا ، ولكنه لم يهتد الى طريق واضح للعمل ، ولم تك ثمة آثار يمكن تتبعها ، بل كان الغموض يحدق بالحادث من كل ناحية .

بيد أن الحقيقة لاحت من ناحية أخرى . ذلك أن قلم التحريات السرية ظفر فى مارس سنة ١٨٩٦ بوثيقة جديدة من قصاصات السفارة الألمانية . وكانت هذه القصاصات تحمل دائما ، ولكنها لم تكشف عن جديد هام ، وان كانت تدل بان تسرب أخبار الدفاع لم ينقطع بعد الحكم على دريفوس . وكان رئيس القلم ساندهر قد اعتزل العمل لمرضه وخلفه فى رآسته الكولونل پيكار ، وهو ضابط فتى جم الذكاء ، حسن الخلال . وكانت الوثيقة الجديدة التى ضمت قصاصاتها رقعة كتبت على ورق تلغراف أزرق ، وهذا نصها :

« الى الماجور استرهازى، ٢٧ شارع بيانفيزانص، باريس .

« سيدى : انى انتظر قبل كل شيء شرحا أكثر تفصيلا من الذى زودتنى به منذ أيام عن المسألة موضوع البحث . ولهذا ارجوك أن ترسله الى كتابة حتى استطيع أن أقرر ما اذا كنت أمضى فى علائق مع مصنع « ر » أم لا » — س .

فثارت شكوك بيكار ، ولكنه آثر أن يحقق الأمر فى روية وتكتم ، فوضع «الرقعة الزرقاء» فى خزانته ، وأخذ يجمع التحريات اللازمة عن الماجور استرهازى الذى كانت الرقعة مرسلة اليه ، اذ كان واضحا أن الرقعة كتبت فى مكتب الكولونل شفارتزكوبن ، ولكن عدل عن ارسالها لأمر ما ومزقت ، والتقطت قصاصاتها مدام بستيان كعادتها .

وكان استرهازى يومئذ ضابطا برتبة الماجور ، ولكنه تقلب قبل ذلك كثيرا فى الجيش وفى مناصب وزارة الحربية ، وتنقل فى مختلف الحاميات ، وقضى وقتا فى تونس . وكان كثير الأسراف والأهواء ، فبدد ميراث أسرته ، ثم حاول الثراء بالمقامرة والمضاربة . وكان تقدمه فى الجيش مع ذلك سريعا ، وكانت تقاريره حسنه . ولكنه كان يشكو حظه دائما ، ويعتبر نفسه مغبونا ، ويسر الحفيظة لرؤسائه . وكان يبحث عن المال انى استطاع ، فما لبث أن سقط الى الهاوية التى يسقط اليها ذوو الأخلاق والذمم المريبة ، والتجأ الى مزاولة التجسس . واشتبه فى أمره لما كان فى تونس ولوحظ أنه قوى العلاقة مع الملحق الألمانى الحربى . وثبت فيما بعد أنه دخل خدمة شفارتزكوبن منذ سنة ١٨٩٣ ، وأنه كان يتقاضى منه مرتبا شهريا ، ويوافيه بمعلومات هامة عن المدفعية ، ويزعم أنه يستقيها من زميله الماجور هنرى . ولكنه كان يلقى فى سبيل مهمته صعابا كثيرة . ولم يقف بيكار على تفاصيل هذه الأسرار كلها ، غير أنه وقف على حياة استرهازى المضطربة وعلى ما نسب اليه فى تونس ، وعلى ميله الى التجسس واستقاء الأخبار . كذلك علم أنه مهمل فى واجبه ، يتغيب كثيرا عن حاميته ، وأنه كان يبدى فضولا غريبا فى معرفة الأخبار العسكرية السرية ولا سيما ما تعلق منها بالمدفعية والتعبئة ، وانه

كان يقبل على شهود التمارين . ولم يخطر لبيكار بادئ بدء أن هناك أية علاقة بين «الرقعة الزرقاء» وبين «البردرو» بل اعتقد أنه ظفر بآثار خائن جديد، وأمل أن يضبطه متلبسا بجريمته . ولما اخطر وزير الحربية الجنرال بيلو بالمسألة ، أمر بيكار أن يمضي في بحثه في سكينة وتكتم . وكانت فكرة الرؤساء أنه اذا انتهى البحث بضبط خائن جديد ، أن يكتفي بعزله من الجيش في صمت وألا تجرى أية محاكمة جديدة . فمضى بيكار في مباحثه ، وبدأ بالحصول على رسائل مما كتبه استرهازى بخطه الى المصالح الرسمية ، وقارنها بنسخ فتوغرافية من «البردرو» ، ففي الحال بدا له بين الخطين شبه قوى غريب ، وعرض الخطوط على برتيون مدير تحقيق الشخصية بعد أن محا منها الاسم ، فقرر أن الخطوط واحدة متطابقة . فظهرت الحقيقة الرائعة أمام عيني بيكار . ذلك أنه اذا كان استرهازى هو كاتب «البردرو» كما تدل المقارنة والظواهر ، فان دريفوس يكون قد ذهب ضحية خطأ قضائي شنيع .

وكان بيكار يعتقد في نزاهة رؤسائه و يعتقد أنهم يتحمسون مثله لنتائج بحثه . ولكنه لما أفضى بالأمر الى الجنرال جونس وكيل أركان الحرب ، أفهمه أنه يجب التفريق بين قضية دريفوس وبين هذا الاكتشاف الجديد ، وأيد هذا الرأى رؤساء بيكار المباشرين . فلم يدرك بيكار معنى لهذا التفريق لأن «البردرو» كان في رأيه حلقة للاتصال لا يمكن فصمها . كذلك لم يلاحظ أن أعماله ومباحثه أضحت من ذلك الحين تحت رقابة زملائه في قلم التحريات ولا سيما أحدهم الكولونل هنرى . وكان هنرى من زملاء استرهازى الأقدمين ، وكانت بينهما رابطة صداقة وثقة غامضة . والظاهر أن هنرى كان يعلم حقيقة «البردرو» كما يدل على ذلك تصرفه فيما بعد . وعلى أى حال فقد أصر بيكار على موقفه ، وراجع الجنرال جونس في الأمر ، وألح في أن تقوم ادارة أركان الحرب باتخاذ الخطوة الأولى نحو التحقيق ، فنصحه الجنرال بالتريث وعارض في اجراء المضاهاة ، ولكن بيكار كرر سعيه والحافه ، وعارض في كتمان الأمر وإخفائه ، وقال للجنرال إنه لا يستطيع أن يحمل هذا السر معه الى القبر .

عنـدئذ تقرر إبعـاد پيكار عن قلم التحريات لكى يمنع من المضى فى خطته، ولكنه أمر احتفاظا بالظواهر أن يمضى فى مباحثه على ألا يتخذ أية خطوة حاسمة فى الأمر قبل المراجعة . أما استرهازى فكان قد حذر . كذا سحب الجنرال جونس « الملف السرى » من مكانه . وغلبت كلمـة هنرى فى قلم التحريات وتولى بحث قصاصات السفارة الألمـانية .

وفى ٦ نوفمبر ظهرت مذكرة أعدّتها أسرة دريفوس عن القضية، بقلم الكاتب اليهودى برنار لازار، فندت فيهـا الوقائع والأدلة، وحللت محتويات «البردرو» ، وعرضت فيها براءة الضابط المحكوم عليه بقوة ، ووزعت على النوّاب . ولم تمض أيام قلائل حتى نشرت جريدة المـاتان صـورة « البردرو » . فأثار نشرها اهتماما عظيما . ذلك أن الكتابة أمر مادى، ومن الممكن تحقيقه . وفى وسع الخبراء والناس جميعا أن يقارنوا بين خط دريفوس وخط البردرو، كذلك تمكن المقارنة بين البردرو وبين خط استرهازى، وعندئذ يظهر المجرم الحقيق . وقـد استغلت أسرة المحكوم عليه وأنصاره هذا الظرف بمهارة، وأثاروا حوله ضجة كبيرة . واعتقد أركان الحرب أن الذى دبر هـذه الفعلة هو پيكار ، وصـدر الأمر فى الحال بنقـله الى نانصى، فأذعن للظروف . وعلى أثر ذلك قدم أحد النوّاب استجوابا الى وزير الحربية عن المسألة، وطلب محاكمة شركاء الخائن، ومنهم صهر دريفوس هادامار، وبرنار لازار، فأجاب وزير الحربية بأن المسألة سارت فى طريقها الصحيح ، وناشد المجلس باسم الوطنية أن يغلق باب هذه المناقشة الخطرة . فاستجاب المجلس الى ندائه ، وطلب الى الحكومة أن تتخـذ الاجراءات اذا كان لهـا وجه . ورفضت اللجنـة القضائية البحث فى طلب قدّمته مدام دريفوس لعدم كفاية الأدلة والقرائن الجديدة .

أما پيكار، فنقل من نانصى الى تونس، وانتدب هنرى لرآسة قلم التحريات . وعكف بأمر الرؤساء على تدبير تهم ضدّ پيكار يؤخذ بها وقت الحاجة، منها أنه فتح مراسلات لا علاقة لها بالأعمال الرسمية (يشير الى خطابات استرهازى)، وأنه فض الملف السرى واذاع محتوياته . وعلم پيكار بهذه التدابير، فعاد الى باريس باجازة ،

وأفضى باكتشافه الى صديقه الأستاذ لبلوا المحامى، وطلب اليه أن يبلغ الحكومة اذا اقتضى الأمر. على أن السر كان قد تسرب يومئذ وعلم به كثير من أنصار دريفوس. وكان فى طليعة أولئك الأنصار، السياسى شويرركستنر، وهو الزاسى، كان عضوا فى مجلس النواب، وزميلا لجامبتا، ثم دخل مجلس الشيوخ وانتخب وكيلا له. وكانت أسرة دريفوس قد حملتــه على مؤازرة جهودها فى السعى الى اكتشاف الحقيقة، فدرس القضية وظروفها ورآها خالية من الأدلة المقنعة. وبينا هو فى مباحثه إذ أفضى اليــه الأستاذ لبلوا بمــا سمعه من پيكار، وناشده أن يعمل لانقاذ دريفوس وپيكار معا، وذلك دون اطلاع أسرة دريفوس على شىء، ودون ذكر اسم پيكار، فاقتنع شويرركستنر نهائيا بالحقيقــة وأقسم أن يعمل لانقاذ البرىء بكل ما وسع. ولكنه ارتكب خطأ فاحشا إذ التجأ الى صديقه الجنرال بيلو وزير الحربية معتقدا أنه لا يحجم عن نصرة البرىء والعمل لاظهار الحق. فرجاه الوزير أن يتريث، وساوره الجزع، فسكت شويرركستنر مؤقتا. وفى الحال تفاهم الوزير مع الرؤساء العسكريين، وأحيل استرهازى الى الايداع لأسباب صحية. ولكن الجنرال چونس وزملاءه رأوا أيضا أن يعملوا فى نفس الوقت لانقاذ استرهازى. وبينا شويرركستنر فى صمته، اذا بالصحف تنظم بايعاز وزارة الحربية حملة جديدة على «المجمع اليهودى» الذى يحاول استبدال دريفوس «برجل من قش» لكى يلوث شرف الجيش. وقصر شويرركستنر ســعيه لدى الحكومة، وخاطب رئيسها ميلين فى المسألة مرارا، فأحاله على وزير الحقانيــة. وكان القانون الجديد الذى صدر فى ســنة ٩٥ يقضى بأن طلب اعادة النظر الذى يبنى على واقعة جديدة ظهرت بعــد صدور الحكم النهائى، لا يمكن أن يقدم الى محكمة النقض إلا بواسطة وزير الحقانية بعد أن يأخذ رأى اللجنة الخاصة. ولكن شويرركستنر لم يقدم على سلوك هــذا السبيل لأنه لم يجــد لديه من الوثائق والأدلة ما يشجع على سلوكه، هذا الى أن الحكومة صرحت فى هذا الشأن أنهــا تحترم «قوة الشىء المحكوم به» وأن دريفوس حوكم وحكم عليه طبقا لاجراءات صحيحة.

فى ذلك الحين أصدر برنار لازار رسالة جديدة عن القضية جمع فيها آراء الخبراء الفرنسيين والأجانب فى مضاهاة خط «البردرو» بخط دريفوس، وفيها إجماع بأنهما يختلفان كل الاختلاف . وفى يوم ١٥ نوفمبر سنة ٩٧ ، قدّم ماتيو دريفوس الى وزير الحربية بلاغا ، نشرته الصحف فى نفس الوقت، يتهم فيه استرهازى بأنه هو كاتب « البردرو » وأنه هو مرتكب الخيانة التى حكم من أجلها على أخيه . وكان هذا تسرعا فى الواقع لأن كبراء وزارة الحربية كانوا جميعا من وراء استرهازى، يسدّدون خطاه و يلقنونه دفاعه . وعهد بتحقيق البلاغ الى الجنرال پلبيه، ولم تقدّم وثائق القضية بما فيها « البردرو » للبحث إلا بعد ألقى شويرركستنر استجوابا فى مجلس الشيوخ . وأكد وزير الحربية فى مجلس النوّاب ثانية يقينه بادانة دريفوس ، وصرح المجلس «باحتقاره لأولئك الخوارج الذين يثيرون هذه الحملة المرذولة التى تعكر ضمير الرأى العام » . وأيد سواد الصحف هذا الموقف . ولكن الصحف التى تناصر دريفوس واعادة النظر فى قضيته نشطت أيضا الى الرد والهجوم . وكانت نخبة قوية منها « له سيكل » و « اورور » و « پتيت رپبليك » و « دروا دلوم» و «له فيجارو» و «لوترتيه» و «له سولى» ،ويحرر فيها نخبة قوية من الكتاب والساسة منهم ايف جيو، وچوزف ريناخ ، وكليمنصو ، وڤوجان ، وچوريس ، وكاسنياك ، واضطرمت المعركة القلمية ، ونشرت « الفيجارو » صورا فتوغرافية لرسائل كتبها استرهازى الى خليلته ، لتجرى المقاونة بينها وبين «البردرو» فأثار نشرها اهتماما عظيما . واشتد الجدل فى كل ناحية ومجتمع ، وشغل الرأى العام بالقضية عن كل مسألة أخرى .

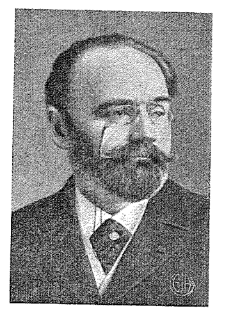
وكان استرهازى قد قبض عليه منذ بدء التحقيق . غير ان كان على صلة بحُماته . وكان دفاعه مزيجا من الانكار والكذب . وقد اعترف بعلاقته مع شڤارتزكوپن ولكنه قال إنها علاقة اجتماعية عادية ، وطعن فى « الرقعة الزرقاء » بأنها تزوير من صنع پيكار، ولم ينكر مشابهة خطه لخط « البردرو » ، ولكنه فسرها بأن دريفوس حصل على أحد رسائله بلا ريب وقلد خطه اخفاء للحقيقة . وقال خبراء ثلاثة

اختارتهم وزارة الحربية ، إن «البردرو» ليس بخط استرهازى ، ولكن قسما منه كتب فوق خطه . وبذا أعدت أدلة البراءة ، وقرر المحقق أن لا وجه لاقامة الدعوى . ولكن الرؤساء رأوا أن تجرى المحاكمة العسكرية ليظفروا بحكم جديد حاسم فى الموضوع .

وفى أثناء ذلك كان شويرر كستنر يلح فى طلب سماع پيكار ، فاضطرت وزارة الحربية الى استدعائه من تونس ليؤدى شهادته . وجرت محاكمة استرهازى فى ١١ و ١٢ يناير سنة ٩٨ ؛ وعهدت أسرة دريفوس الى الأستاذين فرنان لابورى ودیمانج بتمثيلها ، ولكن المجلس العسكرى رفض طلب المثول . وسمع الشهود المدنيون ، مثل ماتيو دريفوس وشويرر كستنر علنا ، ولكن المجلس قرر سماع الشهود العسكريين سرا . وبذا أدى پيكار شهادته فى جلسة سرية ، وكان المجلس يناقشه بشدة . وعلى أثر انتهاء المرافعات أصدر المجلس حكمه ببراءة استرهازى ، وهو حكم لم يك ثمة شك فى صدوره ، ولم تكن المحاكمة غير مهزلة مدبرة لاقناع الرأى العام واخماد صيحة «الدريفوسيين» . كذا عوقب پيكار بالسجن ستين يوما . فاستقبل «الوطنيون» هذه النتيجة بالهتاف ، واشتدت الصحافة الوطنية فى حملاتها .

وتضاءل الأمل فى اعادة النظر فى القضية مدى حين . ولكن أنصار الاعادة لم يفتر لهم عزم . وشعر سواد العقلاء والمفكرين أن يدا خفية تعمل لطمس الحقائق الظاهرة ، وانضم الى طلاب الاعادة كثير من المفكرين والأساتذة والكتّاب . وكان الكاتب القصصى إميل زولا فى طليعة الأنصار منذ البداية ، يرى فى دريفوس شهيدا وضحية ؛ وكان يكتب فى جريدة « الفيجارو » مقالات قوية ضدّ خصوم السامية ، ويمتدح مساعى شويرر كستنر ويصفه بأنه « روح من البلور » . ففى غداة الحكم ببراءة استرهازى ، فى يوم ١٣ ينـاير ، نشر زولا فى جريدة «لورور» تحت عنوان «إنى أتهم ! » خطابا مفتوحا وجهه الى رئيس الجمهورية ، حمل فيه بشدّة على «أعداء الحق والعدالة » ، وفصل مظلمة دريفوس وحوادث قضيته باسلوب روائى مؤثر ، وشرح تدابير أركان الحرب وتحيزه المجرم بعبارات مثيرة ، واتهم القوّاد بارتكاب «جريمة الخيانة العليا ضدّ الانسانية » ، والخبراء بالتزوير والكذب ، ووصف براءة استرهازى

بأنها «ضربة ساحقة لكل حق وكل عدالة» ، والمحكمة التى أصدرتها بأنها جانية ، وختم خطابه بالعبارة الآتية : « إنى أتهم المجلس العسكرى الأول بأنه انتهك القانون لأنه حكم على المتهم بناء على وثيقة سرية . وإنى أتهم المجلس العسكرى الثانى أنه تستر على هذا الانتهاك تنفيذا للأوامر ، وأنه ارتكب بدوره جريمة قضائية هى أنه قضى عن عمد وعلم ببراءة شخص مجرم» .



اميـل زولا

فكان لهذا الخطاب الجرىء وقع عميق ، زاد فى اضـطرام الأنفس ، فضجت أروقة البرلمـان ، واشتدّ سخط الصحف الوطنيـة ، وهاجت الدوائر العسكرية ولم تصبر على هذا التحدّى ، وطلب وزير الحربيـة الى القضاء اتخاذ الاجراءات لمعاقبة القاذف . وكان هذا ما يرمى اليه زولا بالذات ، فقد أراد أن يعجل خطابه على قوله «بفورة من الحق والعدالة» ، وأن تقام عليه دعوى القذف فيتمكن أنصار الاعادة من إثارة القضية كلها أمام القضاء . ونظرت محكمة السين قضـية القذف بين السابع والثالث والعشرين من فبراير سـنة ٩٨ ، وكانت جموع الوطنيين تجوب الشوارع وتهتف للجيش ، وتحيي كل ضابط ، وتهدّد أنصار الاعادة «أعداء الجيش» ، وكانت المناظر العاصفة تقع فى كل يوم فى شوارع باريس وفى المقاهى والأندية العامة ، وكان زولا يسير الى المحكمة ومن حوله دائما جماعة من الأنصار لحمايته من الاعتداء . وتولى الدفاع عنـه الأستاذان لابورى والبركليمنصو ، واستدعيا أمام المحكمة عددا كبيرا من الشهود ، ولكن المحكمة أبت أن تسمع أية شهادة أو تناقش أى دليل لا علاقة له بالتهمة الأصلية ، والتجأت الى كل حيلة للتفرقة بين قضـية دريفوس وقضية استرهازى . ولكن محامى دريفوس الأستاذ ديمانج استطاع أن يثير مسألة « الملف السرى» . وكان أهم شهود القضية الكولونل پيكار . وكان خصومه من

القواد والرؤساء يحاولون الطعن فى شهادته بأنه كان يعمل بكل الوسائل لاستبدال دريفوس باسترهازى ، وانه افتض المراسلات الخاصة والأحراز السرية . وكان هنرى أشدهم طعنا فى صدقه وذمته ، وكان يشير أثناء شهادته الى وثائق سرية أخرى سنعطف عليها بعد . ولكن بيكار حافظ على سكينته أثناء المرافعات ، وفى نهاية القضية بارز هنرى وجرحه . وشغل الخبراء أهم قسم فى المرافعات ، وأكد جماعة من العلماء الأعلام أمام المحكمة أن خط البردرو هو نفس خط استرهازى . وطعن القواد فى هذا الرأى لأن المضاهاة لم تقع إلا على صور فتوغرافية للبردرو ، ومعظمها مزور على قولهم ، وأشاروا الى الوثائق السرية الأخرى التى تثبت جرم دريفوس . وفى الثالث والعشرين من فبراير أصدر المحلفون قرارا بالادانة المطلقة ، وقضى على زولا بأقصى العقوبة أعنى بالحبس سنة وبغرامة قدرها ثلاثة آلاف فرنك ، وقضى على مدير « لورور » بالحبس أربعة أشهر وثلاثة آلاف غرامة . فطعن المتهمان فى الحكم بالنقض ، فقبل الطعن ، وألغت محكمة النقض الحكم باعتبار أن المبلغ فى القضية لم يكن ذا صفة ، وان التبليغ من شأن المجلس العسكرى وهو المقذوف فى حقه لا من شأن وزير الحربية . فبادر المجلس العسكرى برفع دعوى القذف ، ونظرت القضية ثانية فى ١٨ يوليه . ولكن زولا فر عندئذ الى انجلترا تبعا لنصح أصدقائه ، وقضى عليه ثانية بمثل الحكم الأول وبشطب اسمه من ثبت فرقة الشرف (اللچيون دونير) .

ولكن الضجة التى أثارتها هذه الحوادث لم تهدأ بل تفاقمت ، ونفذت الحركة الى صميم الحياة والشئون العامة . وكانت وزارة ميلين قد استقالت أثناء ذلك ، وخلفتها وزارة راديكالية برآسة هنرى بريسون ، وعهد بوزارة الحربية الى كاڤنياك وهو من الوطنيين ، تهدئة للرأى العام ، وفوض اليه بريسون أن يعالج مسألة دريفوس بما يرى . وتقدّم كاڤنياك الى مجلس النوّاب بخطاب طويل أيد فيه ادانة دريفوس بوثائق حاسمة أذيعت بعد الحكم ، وعرض عليه محتويات الملف السرى ، ولكن مع وثائق جديدة لم يجر ذكرها من قبل ، وهى التى أشار اليها القوّاد وهنرى أثناء

قضية القذف، فاطمأن المجلس، ووافق على الخطاب بحماسة. ولكن پيكار رد فى اليوم التالى على وزير الحربيــة بخطاب مفتوح نشرته الصحف ، عرض فيه أن يثبت أمام أية هيئة قضائيــة ان الوثائق السرية التى عرضها الوزير على المجلس ، بعضها وهو المؤرخ ســنة ٩٤ لا يتعلق بدريفوس، والبعض الآخر وهو المؤرّخ سنة ٩٦ مزوّر بلا ريب. فرد كافنياك بأن كتب الى وزير الحقانية ليتخذ الاجراءات لمحاكمة پيكار طبقا لقانون التجسس بتهمة أنه فض الملفات السرية، وأذاع الأسرار الرسمية، فقبض على پيكار فى ١٣ يوليه . ولكن المحقق رأى أثناء التحقيق ادانة استرهازى فى تزوير عدّة رسائل أرسلها الى پيكار ليلقى عليــه شبهة الاشــتراك فى التجسس ، فألقى عليه القبض ولم يفرج عنه إلا بعد مساع قوية بذلتها وزارة الحربية . ورأى وزير الحربية، أن يمحو اسمه من ثبت الجيش حسما للجدل الذى يدور بشأنه .

وهنا رأى وزير الحربيــة أن يفحص الملف السرى بنفسه ليضع حدّا لهذه الشكوك التى ترتفع من كل صوب . فحدث أن المــاچور كونييه الذى عهــد اليه بتلك المهمة، لاحظ أثناء فحص الأوراق أن واحدة منها تتكوّن من أجزاء مختلفة، وأن خطوط جزئها الأعلى وجزئها الأدنى تخالف فى اللون خطوط الجزء الأوسط ، وهى الوثيقــة المنسوبة الى سنة ٩٦ ، فأفضى باكتشافه الى الوزير، فاقتنع مثــله بالتباين، ودعى المــاچور هنرى الذى كان وقتئذ متوليا أعمال قلم التحريات وسئل عن هــذا السر فأنكر أوّلا وقوع تزوير أو تبــديل ما ، وعاد فقرّر أن أحد الجزئين المضافين قد أضيف بنــاء على معلومات شفوية ، ولكــنه انتهى بالاعتراف بأن الوثيقة كلها من صنعه ، وكان يعتقد أن رؤساءه الذين تستروا من قبل على جريمته يتقدّمون عندئذ لغوثه وانقاذه، ولكنهم تركوه لمصيره ، فقبض عليه فى الحال وزج الى السجن . فتولاه يأس هائل ، فانتحر فى اليوم التــالى لسجنه (٣١ أغسطس ســنة ٩٨) بقطع عنقه بموسى كانت معه، وذهب الى القبر يحمــل كثيرا من أسرار القضية، وفر اســترهازى فى نفس الوقت الى الخارج، واستقال رئيس قلم أركان الحرب الجــنرال بوادفر . واهتز الرأى العام لهــذه الحوادث، واضطرب الوطنيون

وخصوم الساميـة، واضطرمت المسألة كلها من جـديد، وقوى الاعتقاد فى براءة دريفوس، واشتدت دعوة أنصار الاعادة، لأنه اذا كان أركان الحرب قد اضطر فى سنة ٩٦ أن يستعمل هنرى لتزوير وثيقة جديدة لتأييد إدانة دريفوس، فليس من ريب فى أن الملف السرى لم يكن يحتوى على دليـل ما، ولكن كافنياك وزير الحربيـة، لم يشأ رغم ظهور هـذه الحقيقة الناصعة، أن يتراجع فى موقفه، وقدّم استقالته لأن بريسون رئيس الوزارة أصر على اتخـاذ الاجراءات لاعادة النظر فى القضية، فخلفه زرلندن حاكم باريس .

لم تكن المسألة عندئذ مسألة القضية فقط، ولكنها غدت مسألة فرنسا بأسرها، واستغرقت معركة السياسـة، والحياة العامة كلها . وانقسمت البلاد الى معسكرين خصيمين . وخشى الراديكاليون والاشـتراكيون نشاط أعداء الجمهورية، وراعهم بالأخص نفوذ الكنيسة فى الجيش، فانضموا الى الدريفوسـيين أنصار الاعادة . وانضم الرجعيون الى الوطنيين خصـوم الاعادة، واتهموا خصومهم بأنهـم خوارج على الوطن يأتمرون بالجيش، ويعملون على إضـعافه أمام العـدو القومى (ألمـانيا) . ولم تضطرم معركة خصومة السامية بعد حول دريفوس، معه أوضدّه، ولكنها غدت تضطرم حول الجيش، له أو عليه، وكانت تجثم من وراء ذلك معركة حياة أو موت بين أنصار الجمهورية وخصومها . وكان الموقف يزداد كل يوم حرجا وخطورة، وجزع الرأى العام تذكيه الاشاعات الغريبة، وخصوم الجمهورية يتذرّعون بالجـرأة والتحدّى، ويعملون على الحط من هيبتها ما استطاعوا، بل لقـد حاول چان ديروليد رئيس « المجمع الوطنى » أن يحـرض رجال الجيش على الزحف على قصر الاليزيه لإسـقاط الجمهورية، فأخفق فى محاولته . وكانت الجمعيات المختلفة تغذى هياج الرأى العام بمختلف دعواتها ومزاعمها، والشوارع تغص بمواكب الدعاة والمتظاهرين، والاضطراب يسود كل الشـئون العامة حتى خيل للناس جميعا أن البلاد تسير مسرعة الى الثورة، وأن مصير الجمهورية غدا يهتز فى يد القدر .

ففى تلك الآونة العصيبة نشط الاشتراكيون والراديكاليون الى انقاذ الجمهورية وألفوا جبهة برلمانية لتأييد الحكومة، وكانت الحكومة ترى أن الحل الوحيد لقمع الفتنة هو إعادة النظر فى القضية، ووضع حد نهائى لهذا الجدل المضطرم. ففى الثالث من سبتمبر قدّمت مدام دريفوس الى وزير الحقانيــة طلبا باعادة النظر يقوم طبقا للقانون على وقائع جديدة، ذكرت منها اثنتين الأولى، فحص الخبراء للبردرو فحصا جديدا خالفت نتائجه فحص سنة ٩٤، والثانية اعتراف المـاچور هنرى بجريمة التزوير، وهو اعتراف يدحض كل الأدلة التى قدّمت. فطلب وزير الحقانية، ساران، ملف قضية دريفوس من وزارة الحربية، فأرسل اليه مع مذكرة من الجنرال زرلندن وزير الحربية يعارض فيها فى طلب الاعادة. وثار بين الوزراء جدل شديد انتهى باحالة القضية الى اللجنة القضائية، فاستقال وزير الحربية وكذا وزير الأشغال. وتولى وزارة الحربية الجنرال شنوان، وأعيد زرلندن حاكما لباريس. ولمـا نظرت قضية الجنحة المتهم فيها پيكار فى ٢١ سبتمبر، طلب المدعى العمومى التأجيل نظرا لقرب اعادة النظر فى قضية دريفوس كلها. وفى أواخر سبتمبر نظرت اللجنة القضائيــة فى طلب اعادة النظر، واشتدّ الخلاف بين أعضائها. فعندئذ طلب رئيس الوزارة الى وزير الحقانيــة أن يحيل الطلب الى محكمة النقض. وبذلك اتخــذت الخطوة الأولى. ولكن فريق العســكريين والوطنيين لم يقف جامدا ازاء هــذه النتيجة، فنشــط الى التحريض والعمل، وكرر الصيحة والمزاعم القديمة، ورمى الحكومة بالمروق والخيانة، فعقدت اجتماعات عديدة صاخبة، ووقعت مظاهرات عنيفة، ونظمت الاعتصابات فى كل ناحية، واشــتدّ الاضطراب والهرج، وتضاءلت هيبة الوزارة بسرعة، ثم هزمت لأول يوم تقدّمت فيه الى البرلمـان فى بدء الدورة البرلمـانية الجديدة، اذ اقترع المجلس ضــدّها فى قرار تتهم فيــه بالتفريط فى حماية كرامة الجيش. فاستقالت. وخلفتها وزارة اتحاد جمهورى برآسة شارل ديپى فى الثالث من نوفمبر. وتولى فريسنيه وزارة الحربية، وليبريه وزارة الحقانيــة. وفى أثنــاء ذلك نظرت الغرفة الجنائيــة لمحكمة النقض فى طلب الاعادة، وقررت قبول الطلب شكلا فى ٢٩ اكتوبر، ثم أخذت

فى بحثه موضوعا ، وعقدت عدّة جلسات سرية سمعت فيها شهود القضية جميعا ، وقرّرت فى ١٥ نوفمبر اخطار دريفوس بالبدء فى اجراءات اعادة النظر ، وأن يستعد لتقديم دفاعه . وكان پكار أهم الشهود . ولكن العسكريين حاولوا تجريحه قبل أن تسمع شهادته ، وصدر أمر السلطات الحربية باحالته على المجلس العسكرى لمحاكمته عن التهم القديمة المنسوبة اليه . بيد أن هذه المحاولة لم تفلح لأن محكمة النقض أمرت بنقل ملف القضية العسكرية وملف قضية الجنحة اليها ، حتى ينتهى البحث فى طلب اعادة النظر .

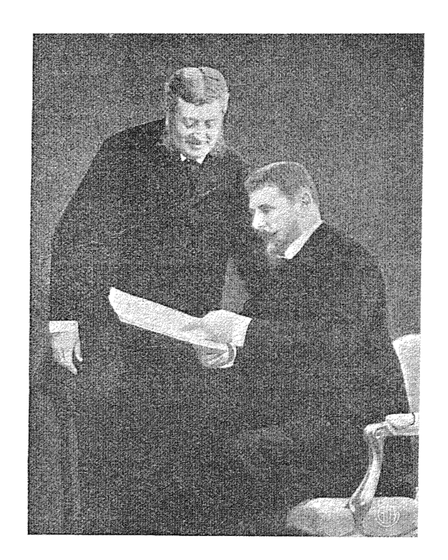
وفى ذلك الحين ضاعف الوطنيون وخصوم الاعادة جهودهم . وكانت حملات الصحف تشتد على الغرفة الجنائية ، كلما أذيع أن سير الأمور يبشر باعادة النظر . واشترك فى هذه الجهود والحملات كثير من أعلام الكتاب ، وأنشأ الشاعر فرانسوا كوپيه ، والكاتب جول ليمتر « مجمع الوطن الفرنسى » لتأييد الكتلة الوطنية ومقاومة الاعادة . ولكن المحكمة سارت فى طريقها ، وطلبت « الملف السرى » للاطلاع عليه . فأجيبت الى طلبها بعد معارضة عنيفة . وأحيل «البردرو» على هيئة جديدة من الخبراء لفحصه فأجمعوا على نسبته الى استرهازى . وفى أثناء ذلك وقع خلاف أمام المحكمة على تفسير بعض العبارات الرقمية التى وردت فى إحدى الوثائق السرية ، بين وزارة الحربية ووزارة الخارجية ، واتهم مندوب وزارة الحربية وزارة الخارجية بالقصور وسوء النية فى ترجمة الوثائق الرقمية ، وتبادلت الوزارتان مكاتبات شديدة اللهجة فاستقال فريسنيه وزير الحربية ، وحل مكانه كرانز وزير الأشغال .

وفى ٢٩ مايو عقدت محكمة النقض جلسة علنية ، وتلى المستشار بالوبوبريه تقريره ، فصرح بأن « البردرو » من صنع استرهازى ، وان هذه الواقعة كافية للقطع ببراءة دريفوس ، وتكلم المدعى العمومى عن تزوير الوثائق . وألقى الأستاذ مورنار ، عن أسرة دريفوس مرافعة بديعة . وفى الثالث من يونيه ، أصدرت المحكمة حكمها بالغاء الاجراءات السابقة التى اتخذت فى حق دريفوس والغاء الحكم الصادر عليه ، وإحالة القضية على مجلس رن العسكرى لنظرها من جديد .

٣

فكان لهذا الحكم وقع عميق، وثار الوطنيون، واشتدت حملاتهم، وزاد اضطرام الخصومة السياسية ، وضاعفت الكتلة الوطنية العسكرية جهودها ، وتفاقمت الصعاب حول الوزارة، وقويت الدعوة ضدها فى البرلمان وفى الصحف ، فلم تمض أيام قلائل حتى هزمت وأسقطت ، فتحالفت أحزاب اليسار للدفاع عن الجمهورية . وفى ٢٢ يونيه ألف ڤالدك روسو وزارته ، وتولى المركيز دى چاليفيه وزارة الحربية .

ووصل دريفوس على ظهر طراد حربى فى أول يوليه وزج فى الحال الى سجن رن العسكرى ، وكان فى حالة يرثى لها من الانحلال المادى والمعنوى . وكان يجهل كل ما وقع أثناء سجنه من هذه الحوادث والتطورات المدهشة . فاشتغل محامياه لابورى وديمانج حينا باطلاعه على ما حدث وتفهيمه حقيقة الموقف ، وإعداده لخوض الاجراءات الجديدة . وفى ٧ أغسطس بدأت المحاكمة الجديدة فى رن . وكان رئيس المجلس العسكرى الكولونل چووست . وسار المجلس على نفس الخطة التى سار عليها المجلس القديم ، وأعاد سماع نفس الشهود القدماء ومعظمهم من العسكريين خصوم الأعادة ، فكرروا الروايات القديمة ؛ ولم يعن المجلس ببحث الوقائع الجديدة التى نوهت بها محكمة النقض ، ولكنه بحث الملفات السرية والسياسية فى عدة جلسات سرية . ولم يقل دريفوس جديدا ، بل أصر على الانكار المطلق . وكان أهم الشهود ، رئيس الجمهورية السابق كازمير بريه ، والجنرال فرايشتاتر أحد قضاة المجلس السابق ، والجنرال مرسييه وزير الحربية السابق ، وجمهرة من رؤساء الأقلام وكبار الضباط . ووقع أثناء المحاكمة حادث نم عن الوجهة الخطرة التى اتخذها النضال ، فقد أطلق شخص مجهول النار على الأستاذ لابورى فأصابه بجرح خطير فى ظهره منعه أياما من مباشرة الدفاع . وفى الثامن من سبتمبر ألقى المدعى العام مرافعته وذهب الى ادانة دريفوس ؛ ودافع الأستاذ ديمانج وحده عن المتهم ؛



الأستاذ لابورى ، والأستاذ ديمانج ، محاميا دريفوس

وأكد دريفوس مرة أخرى براءته . وكان الأمل قويا فى كل ناحية فى حكم البراءة ، ولكن مجلس رن قضى فى التاسع من سبتمبر بالإدانة مع الظروف المخففة ، وحكم على دريفوس بالسجن عشرة أعوام مع التوصية بالرأفة . فوقع هذا الحكم كالصاعقة ! على البرىء وأنصاره ، وأنصار العدالة جميعا ، وقابله العالم المتمدن كله بالانكار والدهشة ، ورأى نفوذ الكتلة الوطنية والعسكرية ماثلا فيه ؛ واضطربت الحكومة لهذه النتيجة ، ولم تر حلا للأزق غير العفو عن المتهم ؛ وفى ١٩ سبتمبر أصدر لوبيه رئيس الجمهورية أمرا بالعفو عن دريفوس ، يمحى عنه العقوبة كلها بما فيها التجريد العسكرى .

وفى ٢٠ سبتمبر أطلق سراح دريفوس، فكتب فى الحال الى رئيس الجمهورية خطابا يقرر فيه براءته من جديد ، ويؤكد أنه لن يفتر لحظة عن العمل لإعادة شرفه . واعتبرت وزارة ڤالدك روسو أن المسألة قد انتهت ، وأن هذا الحل قد أنقذ البلاد من جدل أفسد حياتها العامة ، وبث الركود الى شئونها الحيوية ، وكاد يدفع بها الى الثورة والحرب الأهلية . ونشطت الحكومة فى نفس الوقت الى مطاردة الجمعيات الوطنية التى لم تنقطع لحظة عن تدبير المؤامرات والشغب ، وقبض على زعماء الحركة، ديروليد وهابروجيران، وحبطت بذلك محاولة جديدة كانت تدبر لاسقاط الحكومة ، وحوكم المتهمون وقضى عليهم بالسجن أو النفى . وأخيرا رأت الحكومة أن تضع حدا نهائيا لكل نضال وجدل حول القضية فقدمت الى البرلمان مشروع قانون بعدم جواز البحث وإعادة النظر فى أية مسألة من المسائل المتعلقة بقضية دريفوس، فلقيت فى المبدأ معارضة شديدة، ولكنها ظفرت أخيرا بالمصادقة على القانون فى ديسمبر سنة ١٩٠٠

* * *

ولكن هذه الخاتمة العرجاء لم ترض الضابط البرىء، ولم ترض أنصاره ، فقد رفعت العقوبة، ولكن بقيت الوصمة . كذلك لم ترق هذه الخاتمة فى نظر الكتلة الوطنية، ولم تكف عن خصومتها وحملاتها . فلم يمض بعيد حتى عاد النضال الى سابق اضطرامه، يمثل فى كل الحركات والشئون العامة، ولا سيما الانتخابات البرلمانية . وكان شويرر كستنر قد توفى فى نفس اليوم الذى صدر فيه العفو عن البرىء، وعاد زولا الى فرنسا ، ولكنه توفى فى سبتمبر سنة ١٩٠٢ ، ففقد أنصار الاعادة بذلك عضدين قويين . وأفرج عن پيكار، ولكن محى اسمه من الجيش، فانضم الى أنصار الاعادة قلبا وروحا .

وهكذا استمرت الخصومة واستمر النضال . وكان الوفاق مستحيلا ، فاما أن تسحق الجمهورية دسائس الكتلة الرجعية، وبذا تستأصل الهياج من أساسه، واما أن تتراجع وفى التراجع خطر على حياة النظم الجمهورية ذاتها . بيد أن الأحزاب

والقوى الجمهورية اتحدت كلها فى معسكر واحد، ونزلت الحكومة الى ميدان النضال بعزم وشجاعة، وقدّمت الى البرلمان قانونا صارما للحد من عبث الهيئات والجماعات الدينية، فثار رجال الدين وأبرق الرجعيون، ولكن انتخابات سنة ١٩٠٢ أسفرت عن ظفر الجمهوريين، فأصدر القانون . وشعرت الكتلة الوطنية والرجعية بالخطر، فضاعفت جهودها ، وأغرقت البلاد بسيل من النشرات والحملات القاذفة ، ومضت ترمى الحكومة بالخيانة الوطنية . كذلك لم ينقطع أنصار الاعادة عن تحريك دعوتهم كلما استطاعوا، فى البرلمان والصحف، وكان الجدل والمناقشات العاصفة تثور حول القضية من آن لآخر . وفى كل فرصة ترتفع صيحة الضابط البرىء باعادة النظر فى قضيته، فيتردّد صداها فى البرلمان .

وهكذا لبث شبح القضية الشهيرة يظلل الحياة العامة فى فرنسا رغم القانون الصادر بعدم إثارتها ، وهكذا لبثت صيحة البرىء تزعج البلاد بأسرها . وكان الزمن فى الواقع يعمل عمله لتمهيد السبيل الى الظفر النهائى . وكان الرأى العام ينحاز شيئا فشيئا الى قضية الحق والعدالة . وحلت الساعة أخيرا فى أوائل سنة ١٩٠٥ فى وزارة كومب، إذ نهض الزعيم الاشتراكى چان چوريس يردّد فى مجلس النوّاب صيحة دريفوس ، ويدعو المجلس الى قبول طلب إعادة النظر إن لم يكن لإنصاف دريفوس، فلتهدئة البلاد و إنقاذها من فتنة طال مداها، فايد سواد النوّاب دعوته؛ وصدر الاذن المنشود باعادة النظر . وفى الحال ألفى وزير الحربية الجديدة الجنرال اندريه من الظروف والوقائع الجديدة ما يسمح باعادة النظر ، وسارت الاجراءات بعزم وسرعة ، وفحصت اللجنة القضائية القضية من جديد ، ثم أحيلت الى محكمة النقض، وفى ١٢ يوليه سنة ١٩٠٦، أصدرت دوائر محكمة النقض مجتمعة حكمها باجماع الآراء، بأن جميع التهم التى وجهت الى الفريد دريفوس باطلة كلها من الأساس، وقضت من تلقاء نفسها ودون إحالة بالغاء حكم مجلس رن العسكرى، وسجلت فى حكمها بمنتهى الصراحة والجلاء أن القضية قامت من مبدئها على التلفيق

الشائن ، وان المذنبين الحقيقيين هما استرهازى وهنرى ، وهما اللذان سرقا الوثائق وفضحا أسرار الدفاع وألقيا التهمة على البرىء .

وبذا انتهت القضية الشهيرة التى غدت مضرب الأمثال فى التعقيد والخطورة فتنفست فرنسا بأسرها الصعداء ، وانحنى الجميع إجلالا لحكم القضاء الأعلى إلا شرذمة من الرجعيين . ونفذت الحكومة الحكم الى أقصى حدوده ، فأعادت دريفوس وپيكار الى ثبت الضباط العاملين ، ورقى أولهما الى رتبة الماچور والثانى الى قائد فرقة ، ومنح دريفوس وسام فرقة الشرف (اللاچيون دونير) وسلم اليه فى حفلة رسمية شائقة أقيمت فى ساحة المدرسة الحربية . أما زولا الذى توفى قبل أن يشهد ظفره ، فقد نال نصيبه من الانصاف والتكريم بنقل رفاته الى الپانتيون ، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى ألف چورچ كليمنصو وزارته الأولى واختار الجنرال پيكار وزيرا للحربية ، وعلت بذلك كلمة الحق والعدالة ؛ وانتهى الفصل الأخير فى مأساة قضائية لم تشهد مثلها سير القضاء .

* * *

على أن آثار الحادث الفريد لم تنته بانتهائه . فقد تغلغلت فى حياة فرنسا العامة الى الأعماق ، ولبثت أعواما طويلة تطبع السياسة والتفكير بطابعها القوى ؛ بل ليس مبالغة أن نقول إنها غيرت مصاير الأمة الفرنسية ، وحوّلت مجرى التاريخ الفرنسى كله ؛ ولم يقتصر ذلك الانقلاب العميق على ما أحدثته القضية أثناء سيرها من تغيير وتبديل فى رآسة الجمهورية وفى الوزارات ، وفى مصير الأحزاب والساسة ، وفى سير الانتخابات البرلمانية ، ولكنه كان أبعد مدى وأشد أثرا فى صوغ الحياة الفرنسية العامة ، وفى وضع قواعدها المستقبلة . فقد استطاعت الديموقراطية الفرنسية على ضوء قضية دريفوس أن تقدر فداحة الخطر الذى يهدّد حياة الجمهورية من جراء تحالف القوى الرجعية ، وأدركت أنه يجب لسلامة النظم الجمهورية والديموقراطية أن تنزع الكنيسة سلطانها السياسى بصفة نهائية ، وأن يحرر الجيش من نفوذها . وعملت لتحقيق هذه الغاية بكل ما وسعت ، حتى توج جهادها بالظفر ، وفصلت الكنيسة

عن الدولة فى ديسمبر سنة ٩٠٥ . كذلك ارتد سعى العسكرية الى صدرها ، وضعف نفوذها بعد أن حاق الشك بنياتها ، ونظمت لمقاومتها تلك الحركة التى ما زالت الى اليوم تمو وتشتد ، وخرجت الديموقراطية من ذلك النضال كله ، قوية ظافرة ، وثبتت دعائم الجمهورية ، وتوطدت هيبتها ، وزالت الأخطار التى كانت تحدق بها .

ومن جهة أخرى فقد جاءت قضية دريفوس دليلا ساطعا على فساد الخصومة السامية وخطرها على الوحدة القومية ، وعلى أنها عامل هدم لابناء ، وانها لاتستند الى قاعدة جنسية صحيحة ، بل تقوم على نزعة خطرة من الرجعية والتحامل ، وانها أبدت قصورا واضحا فى العمل السياسى ، ولم تعتمد إلا على سلاح التآمر والتضليل واثارة الشهوات العامة . ومن ثم كان فشلها المطبق فى تحقيق غايتها الجوهرية أعنى سحق اليهودية . بل لقد كانت خصومة السامية لليهودية درسا أحسنت تقديره والاعتبار به ، فقد شعرت شعورا قويا بما يهددها من أخطار الفورات القومية ونزعات التعصب الجنسى والتحامل الدينى ، فبعث اليها الخطر روحا جديدا من النضال والعزم ، وقويت وحدتها وتضامنها ، وانضوت تحت لواء الجنس بعد أن كانت تنضوى تحت لواء الدين ، وقويت بذلك فكرة القومية اليهودية . كذا لم تقف اليهودية عند حد الدفاع والكفاح السلبى بل تقدمت الى ميدان العمل ، وردت على خصومة السامية ، بالحركة الصهيونية التى نمت وترعرعت بسرعة ، وغدت اليوم رمزا قويا للقومية اليهودية . واجتمعت كلمة الشعب اليهودى فى أنحاء العالم كله ازاء الخطر والشدائد ، وطبعت نهضته الجديدة نزعة قوية من الاتحاد والتضامن ، وحماسة فتية فى النضال ، وأمل راسخ فى الأحياء القومى .

مراجع هذا الفصل

THE JEWISH ENCYCLOPEADIA (Arts. Anti-Semitism; Dreyfus etc.).
THE ENCYCLOPEADIA BRITANNICA (Arts. Anti-Semitism, Dreyfus etc.).
J. REINACH : Hist. de l'Affaire Dreyfus.
MALET : XIXeme Siècle.

تراجـــم موجزة

لأهم المؤرخين والكتاب الذين رجعنا اليهم

برانتوم ، پيير دى بوردى : (سـنة ١٥٤٠ — ١٦١٤) مؤرخ فرنسى انتظم أولا فى سلك رجال الدين . ولكن الحياة الكنسية لم ترق له فهجرها بعد قليل ، والتحق بالجيش وظهر فى صفوفه بالشجاعة والبراعة . وكانت له صـلة قوية بالبلاط الفرنسى ، وبكبار الأمراء والسادة يومئذ . وكان كثير السياحة ، فطاف باسبانيا وانجلترا واسكتلنده ومراكش . وصحب مارى استوارت فى رحلتها من فرنسا الى اسكتلنده عقب وفاة زوجها فرانسوا الثـانى . ثم أصيب فى إحدى الحوادث بجرح خطـير أرغمه على ترك الحيـاة العسكرية . فانقطع للتأليف والكتابة . وكان له شغف بتدوين السير والحوادث . فاختار أن يدوّن سـير الملكات والأميرات وشهيرات النساء فى عصره . وكتب فى ذلك كتابين هما (١) : « تراجم شهيرات النساء » و «تراجم النسـاء العاشقات» . وكتب أيضـا مذكراته . ولم تنشر كتبه إلا بعـد وفاته بأعوام طويلة . وروايته حجة فيما تتناول من شئون قصور عصره ، وأسلوبه ممتع ، يشف عن دقة فى النقد وقوة فى الملاحظة . وقد رجعنا الى أوّل كتبه فى بعض الروايات والتفاصيل الشائقة .

پرسكوت ، وليم هكلنج : (١٧٩٦ — ١٨٥٩) مؤرخ أمريكى كبير ، ومن أشهر مؤرخى العالم . ولد فى ولاية ماسشواستس ، ودرس القانون ، ولكنه أصيب أثناء دراسته بحادث فقد فيه إحدى عينيه ، فكان لذلك أثر حاسم فى تغيير مجرى حيـاته . فعدل عن مزاولة المهن القضـائية ، وانقطع للباحث التاريخية ؛ فأبدى فى هـذا الميدان براعة غريبة ؛ وأخرج فى سنة ١٨٣٧ أوّل كتبة : «تاريخ فرديناند وايزابيلا» فذاع صـيته فى الحال ورفع الى صف أعاظم المؤرخين فى عصره . ثم أخرج « تاريخ فتح المكسيك» ، ومن بعـده «تاريخ فتح پيرو» ، وأخيرا أخرج «تاريخ فيليب الثـانى» ولكنه توفى قبل اتمامه . ويبدى پرسكوت فى جميع كتبه تعمقا عظيما فى البحث ، ونزاهة واضحة فى النقد ؛ ويعرض فوق ذلك روايته بأسلوب بديع يأخذ اللب . وكتبه من أعظم مصـادر التاريخ الاسبانى . ولعل أهم مزية لپرسكوت انقطاعه لعصر معين وأمة معينة . فقد انقطع لدرس ازهر عصـور التاريخ الاسبانى ، وغاص على أنفس مصادره ووثائقه . وكان يجيد اللغة الاسبانية . وكانت له صلات قوية بجميع الدوائر التاريخية فى عصره . وكان يتبوأ فيها أرفع المراكز . وكان لنا مصدرا نفيسا بالأخص فى القسم الأول من تاريخ ديوان التحقيق .

(١) نشرنا الأسمـاء الافرنجية لمؤلفات هؤلاء المؤرخين فى ثبت المراجع العام .

بركنهد ، لورد : (ولد سنة ١٨٧٢ —) مشترع وسياسى انجليزى كبير درس الأدب والقانون. وقام بتدريس التاريخ الحديث فى بعض الجامعات. ولكنه انتخب نائبا فى سنة ١٩٠٤ وخاض غمار السياسة الى جانب حزب المحافظين . وتولى عدّة مناصب قضائية كبرى . ثم عين فى وزارة المحافظين الأخيرة وزيرا للهند . وله عدّة رسائل وكتب تاريخية وقانونية منها كتاب «محاكمات التاريخ الشهيرة» الذى تناول فيه بعض حوادث القضاء الانجليزى .

بيلاو ، فردريش فون : (١٨٠٥ — ١٨٥٩) مؤرّخ وسياسى الماني . درس القانون فى ليبزج ، ثم تولى تدريس الفلسفة حينا ، واشتهر بمباحثه السياسية فى الصحف الألمانية الكبرى . وله مؤلفات كثيرة فى السياسة والتاريخ منها : «تاريخ نظم الدول الأوربية» و «تاريخ ألمانيا من سنة ١٨١٦ — ١٨٣٠» ومنها «التواريخ الخفية والشخصيات الغامضة» . وهو الذى رجعنا اليه فى بعض الفصول .

تيـــير ، أدولف : (١٧٩٧ — ١٨٧٧) سياسى ومؤرخ فرنسى كبير ولد فى مرسيليا من أسرة وضيعة ، وبدأ حياته بمزاولة الصحافة ، وظهر فيها . ثم مال الى التاريخ ، فاشتغل أعواما بكتابة «تاريخ الثورة الفرنسية» ، وهو مؤلف ضخم فى عشرة مجلدات ، وساعده فى بعض أجزائه فيلكس بودان . وفى عهد لويس فيليب عين مستشارا ، ثم وكيلا لوزارة المالية ، فوزيرا للداخلية فى سـنة ١٨٣٢ . وفى سـنة ١٨٣٦ كان تيير على رأس الوزارة ، وكان يتبع سياسة اصلاحية حرة . ثم تولى بعد ذلك وزارة الخارجية مع الرآسة . وكانت سياسته ترمى الى مؤازرة محمد على باشا والى مصر ضدّ تركيا . ولكنه لما عقد الصلح بين تركيا وروسيا وانجلترا ، لجأ الى سياسة الانذار والتظاهر بالتأهب للحرب لكون فرنسا قد أخرجت من الكتلة الأوربية ، ولكن سياسته انتهت بالفشل ، وكانت سبب سقوطه . فانقطع عندئذ لكتابة التاريخ وأخرج مؤلفه الضخم فى « تاريخ القنصلية والامبراطورية » فى عشرين مجلد . وكان تيير رجعيا فى سياسته الأولى يقاوم الجمهورية ، ولكنه غدا فيما بعـد من أعظم خصوم الامبراطورية . وفى سنة ١٨٦٣ انتخب نائبا عن احدى دوائر باريس ، ولما وقعت نكبة سيدان سنة ١٨٧٠ انتخب رئيسا للجمعية الوطنية ثم انتخب أوّل رئيس للجمهورية الثالثة . وكتب تيير عدّة كتب أخرى منها : «الملوكية منذ سنة ١٨٣٠» و «قانون الملكية» و « سنت هيلانة » وغيرها . وكتابه عن «القنصلية والامبراطورية» من أعظم المصادر لتاريخ فرنسا أيام نابليون . وكان تيير متمكنا من وثائق الدولة وأسرارها ، وهـذه أعظم ظاهرة فى روايته . غير أنه أحيانا يغلب نزعاته السياسـية فى نقده . وكان أيضا عضوا فى الأكاديمية الفرنسية . وقد رجعنا اليـه بالأخص فى قضايا الثورة فى كثير من التفاصيل والوثائق الهامة .

دكنز ، تشارلس : (١٨١٢ — ١٨٧٠) قصصى انجليزى ، نشأ فقيرا ، ولكنه كون نفسه بالمطالعة ، وظهر أوّلا بالكتابة فى بعض المجلات ، ثم بدأ منذ سنة ١٨٣٩ باخراج قصصه الشهيرة التى رفعته

الى صف أئمة الأدب الانجليزى ، وبدأ باخراج قصة «أوليفر توست» فكان لها وقع عظيم . ثم أخرج عدة قصص أخرى منها «نيكولا س نكلباى» و «قصــة المدينتين» و «دافيــد كبرفيلد» و «نادى بكويك» وغيرها وكلها شهيرة فى الأدب الانجليزى ، وكتب «تاريخ انجلترا للأطفال» وهو مختصر قيم .

ديما ، الكساندر : (١٨٠٣ — ١٨٧٠) قصص فرنسى أخرج قصصا شهيرة فى الخيال الفرنسى تعد بالمئات ومنها قطع من أبدع ما أخرج الخيال وفى مقدمتها « الكونت دى مونت كريســتو » و «الفرسان الثلاثة» وسلسلة قصص تاريخية كبيرة تشرح التاريخ الفرنسى منذ عهد آل فالوا حتى الثورة الفرنسية وقد ظهر أيضا فى الكتابة للسرح ، وأخرج عدة قطع مسرحية بديعة . وكتب بالاشتراك مع كاتبين آخرين كتاب « الجرائم الشهيرة » محتويا على عدة حوادث جنائية ومحاكمات تاريخية شهيرة ، بالاعتماد على الوثائق التاريخية ، وهو الذى رجعنا اليه فى بعض الفصول .

رامبو ، الفرد : (١٨٤٢ — ١٩٠٥) مؤرخ فرنسى وكان استاذ التاريخ الحديث فى السوربون منــذ ١٨٨٢ حتى وفاته . وفى سنة ١٨٧٩ عين وزيرا للاشغال فى وزارة جول فرى . ولكن السياسة لم تحوله عن الاشــتغال بالتاريخ . وله عدة آثار جليلة منها « تاريخ الحضارة الفرنســية » و « تاريخ روسيا » وغيرها .

روبر ، هنرى : محام ومشترع فرنسى وهو اليوم فى نحو السبعين من عمره . اشــتهر بكتابه الذى وضعه فى الأعوام الأخيرة عن « قضايا التاريخ العظمى » ، وهو مؤلف ضخم فى ستة مجلدات ، تناول فيه نحو ثلاثين قضية شهيرة ، غير أنها جميعا ماعدا واحدة أو اثنتين تتعلق بالتاريخ الفرنسى . وتمتاز جميعا بالعرض البديع والأسلوب الساحر والتحليل القوى ولا سيما من وجهة التقدير القضائى . وقد رجعنا اليه فى عدة قضايا . وله مؤلفات أخرى منها رسالة عن « المحامى » . وهو من أعضاء الأكاديمية الفرنســية ، ونقيب سابق للحامين فى دائرة باريس .

فافر ، جول : (١٨٠٩ — ١٨٨٠) سياسى ومحام فرنسى شهير ، خاض غمار السياسة منذ حداثته . وكان جمهوريا قوى النزعة . واشــتهر بالفصاحة والبيان ، ولا سيما منذ دفاعه عن ارسينى فى ســنة ١٨٥٨ . وتولى وزارة الخارجية فى حكومة الدفاع الوطنى سنة ١٨٧٠ ، ثم انســحب منها فى نهاية الحرب . وعاد الى المحاماة . وتولى الدفاع فى عدة من القضايا الشهيرة يومئذ ، وجمعت خطبه ومرافعاته ورسائله فى مجلدين كبيرين .

فرود ، جيمس انتــونى : (١٨١٨ — ١٨٩٤) من أعظم المؤرخين الانجليز ، تولى التدريس بالجامعات الانجليزية أعواما طويلة . وانقطع لدراسة التاريخ الانجليزى ، وأخرج فيه عدة كتب

جليلة أهما « تاريخ انجلترا من عهد وولزى الى هزيمة الأسطول الاسبانى » « مارى تيودور » «طلاق كاترين الأرجونية » « البحارة الانجليز فى القرن السادس عشر » وكذا كتب عدّة رسائل وفصول نقدية شهيرة جمعت بعنوان : « دراسات صغيرة فى موضوعات كبيرة » . وكتب أيضا ترجمة لكارلايل .

ڤولتير ، جان فرانسوادى : (١٦٩٤ — ١٧٧٨) كاتب وشاعر وفيلسوف ومؤرخ فرنسى كبير ولد فى باريس ، ودرس فى كلية لوى الأكبر اليسوعية . وظهر منذ الحداثة بكفايته الادبية ، واستطاع أن يتصل بأرقى الدوائر والهيئات . وسجن ونفى فى شبابه أكثر من مرة بسبب رسائله وما تحوى من لاذع النقد . واشتهر أولا بكتابته المسرحية . ثم طاف حينا بانجلترا وأوربا ، وعاد الى فرنسا ، وكتب رسائله الفلسفية و«تاريخ شارل الثانى عشر» ، وكتب أيضا عندئذ عدّة قطع مسرحية . ثم كتب «عصر لويس الرابع عشر» ورسائله النقدية التاريخية التى جمعت بعنوان «رسالة عن الأخلاق وروح الشعوب وأشهر حوادث التاريخ» . واتصل حينا بالبلاط البروسى وقويت أواصر الصداقة بينه وبين فردريك الأكبر ، كذا كانت علائقه قوية بالبلاط الروسى والامبراطورة كاترين الكبرى ، وكثير من الأمراء فى مختلف البلاد . وفى أواخر أيامه ارتد الى فرنى على مقربة من جنيف وعاش فيها ، وانقطع لمراسلة اصدقائه فى فرنسا ومختلف أنحاء القارة . وقد جمعت مؤلفاته ورسائله فى طبعة «كيل» الشهيرة فى خمسة وسبعين مجلدا . وكان لڤولتير تأثير عظيم فى التفكير فى عصره ، وكانت نفثاته ومبادئه من العوامل التى ساعدت فى تكوين عقلية المجتمع الذى أضرم نار الثورة الفرنسية . وقد أوردنا كثيرا من تعليقاته النفيسة واعتمدنا عليه بالأخص فى «قضية كالاس» التى كان بطلها .

ڤينى ، الفردوى : (١٧٩٩ — ١٨٦٣) شاعر وكاتب فرنسى ، التحق حينا بالجيش ، ونظم الشعر منذ الحداثة . ثم أخرج قصته الشهيرة «سان مار» مذيلة بطائفة من المذكرات والوثائق التاريخية . وكتب أيضا عدّة قطع مسرحية .

فونك برنتانو ، فرانز — مؤرخ فرنسى حديث ، كان أمينا لمكتبة « الارسنال » ، فانقطع لدراسة طائفة من الوثائق التاريخية النادرة . وأخرج عدّة كتب قوية فى موضوعات طريفة منها «محفوظات الباستيل» ، «قضية العقد» ، «مأساة السموم» ، «الرواة» ، ويبدى فى بحثه دقة مدهشة ، وقد استطاع أن يلقى ضوءا جديدا على كثير من المباحث التى تناولها . واسلوبه قوى ممتع ، وخياله ساحر مؤثر . وكان عضوا بالمجمع العلمى . وقد اشترك أيضا فى اخراج سلسلة من الكتب عن عصور التاريخ الفرنسى . وكان كتاباه «قضية العقد» ، و«مأساة السموم» من أنفس المصادر التى رجعنا اليها .

كارلايل ، توماس : (١٧٩٥ — ١٨٨١) كاتب ومؤرخ انجليزى كبير ، درس فى ادنبورج ، وتولى التدريس حينا ، ولكن عاف هذه المهنة ، وأراد درس القانون واعتناق المحاماة ، ولكنه مل أيضا

هذه الدراسة، وعاش حينا باعطاء الدروس الخاصة . وظهر بادىء بدء بمقالاته فى مجلة فى ادنبورج . ودرس الأدب الألمانى وتأثر به فى بدء حياته، وبدء باخراج ترجمة للشاعر الألمانى شيلر، وترجم عن جيته قصة « فلهلم مايستر »، وترجم أيضا قصصا من هوفمان، وتيك، وريختر . ثم انقطع للتحرير، وكتب للمجلات الكبرى . ثم انتقل من ادنبورج الى لندن، وهنالك كتب «تاريخ الثورة الفرنسية» الذى ظهر فى سنة ١٨٣٧ . وكتب أيضا «الأبطال وعبادة البطولة» و «الماضى والحاضر»، وجمع «خطب كرمويل ورسائله» ثم وضع كتابه عن فردريك الأكبر . ولكارلايل أسلوب قوى شعرى، هو أعظم خواصه .

كوندى، جوزف انتونيو : (١٧٧٦ — ١٨٢٠) مستشرق ومؤرخ اسبانى، درس فى جامعة الكالا، وعين موظفا فى المكتبة الملكية فى مدريد، ونشر فى سنة ١٧٩٩ الجزء المختص باسبانيا من جغرافية الادريسى (نزهة المشتاق) بنصه العربى . وانتخب عضوا فى أكاديمية مدريد ثم عضوا فى أكاديمية التاريخ . وأشهر آثاره كتابه عن العرب فى اسبانيا المسمى (تاريخ دولة المسلمين فى اسبانيا)، وهو أول مؤلف حديث عن الأندلس اشتق من المصادر العربية، وعالج تاريخ الأندلس السياسى . وفيه نبذ حسنة عن تاريخ نصارى الشمال، وفصول مؤثرة عن سقوط غرناطة، ونفى المسلمين .

لاشو، شارل الكساندر : (١٨١٨ — ١٨٨٢)، محام فرنسى شهير، ولد فى مقاطعة كوريز، واشتغل بالمحاماة أولا فى دائرة «تيل»، وكانت قضية مدام لافارج التى اشترك فى مرافعتها بداية شهرته، وفاتحة مجده . ثم انتقل الى باريس، ولم يلبث أن غدا اسمه علما بين أقطاب الدفاع والبيان فى ذلك العصر . وكانت براعته تبدو بوجه أخص فى القضايا الجنائية، فتولى الدفاع فى كثير من المحاكمات الكبرى، وفاز بالظفر الباهر فى كثير منها، وذهبت فصاحته مضرب الأمثال، وقد جمعت أشهر مرافعاته فى مجموعة ذات مجلدين .

لامارتين، الفونس دى : (١٧٩٠ — ١٨٦٩) شاعر ومؤرخ فرنسى كبير . ولد فى أسرة تخلص للنظام القديم؛ فنشأ على تقاليدها من أنصار الملوكية؛ وتقلد عدة وظائف هامة فى حكومة البوربون . وأخرج يومئذ عدة مجموعات شعرية رائقة، انتهت بانتخابه عضوا فى الأكاديمية فى سنة ١٨٢٩ . وفى سنة ١٨٣٥، انتخب نائبا وخاض غمار السياسة؛ واشتهر فى ثورة سنة ١٨٤٨ ولكنه بعد الانقلاب الذى انتهى بسقوط الجمهورية، اعتزل السياسة؛ وكتب عدة قصص بديعة منها «رافائيل» و«جرازييلا» و «الأسرار» . وأما فى التاريخ فقد كتب لامارتين «تاريخ الجيرونديين» وهو تاريخ الثورة الفرنسية، و«تاريخ ثورة ١٨٤٨» وكتب تاريخا لروسيا وآخر لتركيا . وكتابته عن الثورة تنزع الى نقدها والحملة على جوانبها المتطرفة .

لورنتى ، دون جوان انتونيو : (١٧٥٦ — ١٨٢٣) حبر ومؤرخ اسبانى ، كان أوّل من استطاع أن يرفع الحجاب عن تاريخ ديوان التحقيق ، لأنه اتصل به عن كثب ، واشتغل سكرتيرا لديوان التحقيق فى مدريد ، فاستطاع أن يظفر بالاطلاع على وثائق الديوان وأعماله وقضاياه ، وأنفق أعواما عديدة فى بحثها ودرسها ، ووقع منها على أسرار مروعة لبثت حتى عصره فى زوايا الكتمان . ووضع عن الديوان كتابه الشهير : « التاريخ النقدى لديوان التحقيق الأسبانى » وهو من أعظم وأوثق المصادر فى تاريخ الديوان . وكتب أيضا عن البابوات كتاب « الصور السياسية للبابوات » .

لى ، هنرى تشارلس : مؤرخ أمريكى حديث ، درس القانون والأدب ، وتولى تدريس التاريخ فى الجامعات الأمريكية ، واشتهر بمباحثه عن ديوان التحقيق ، وكتابه « تاريخ ديوان التحقيق فى العصور الوسطى » أعظم مصدر لتاريخ الديوان القديم . وكتب أيضا « تاريخ الموريسكيين ، تنصيرهم واخراجهم » ، وهو مؤلف قوى مؤثر مسند الى أوثق المصادر .

ماكولى ، لورد : (١٨٠٠ — ١٨٥٩) مؤرخ وسياسى انجليزى كبير ، ظهر أوّلا بكتابته فى الأدب وتولى عدّة مناصب حكومية ، ثم عين عضوا فى مجلس الهند الأعلى ، فلبث هناك خمسة أعوام . ولما عاد الى انجلترا ، انتخب عضوا فى مجلس العموم ، وتولى سنة ١٨٣٩ وزارة الحربية . ولكن السياسة لم تشغله عن الأدب . فلبث أعواما يشتغل بوضع كتابه الشهير « تاريخ انجلترا » الذى قوبل أيام صدوره بعاصفة من المديح والاعجاب ، ورفعه الى صف أعظم الكتّاب والمؤرخين . وفى سنة ١٨٥٧ ، أنعم عليه برتبة فى النبل . وكان ماكولى خطيبا قديرا أيضا ، وناقدا أديبا ، جمعت خطبه ورسائله النقدية فى عدّة مجلدات .

مشليه ، جول : (١٧٩٨ — ١٨٧٤) مؤرخ فرنسى ، ولد فى باريس ، وتولى تدريس التاريخ فى « كوليج رولان » منذ سنة ١٨٢٣ ، ثم عين بعد ذلك بأعوام قلائل أستاذا للمحاضرات فى مدرسة المعلمين العليا ومساعدا للمؤرخ جيزو الذى كان أستاذا فى السوربون . وظهر فى ميدان التأليف بنشر رسالة عنوانها : « مقدّمة للتاريخ العام » . ثم اشتغل بوضع كتابه « تاريخ فرنسا من أقدم العصور الى نشوب الثورة » . وفى سنة ١٨٣٨ عين أستاذا للتاريخ فى « الكوليج دى فرانس » واشتهر يومئذ بمحاضراته . وأخرج كتاب « التاريخ الرومانى » ثم « تاريخ الثورة الفرنسية » . وله رسائل أيضا فى التاريخ الطبيعى والتربية . ونزعته الجمهورية ظاهرة فى كتابه عن الثورة .

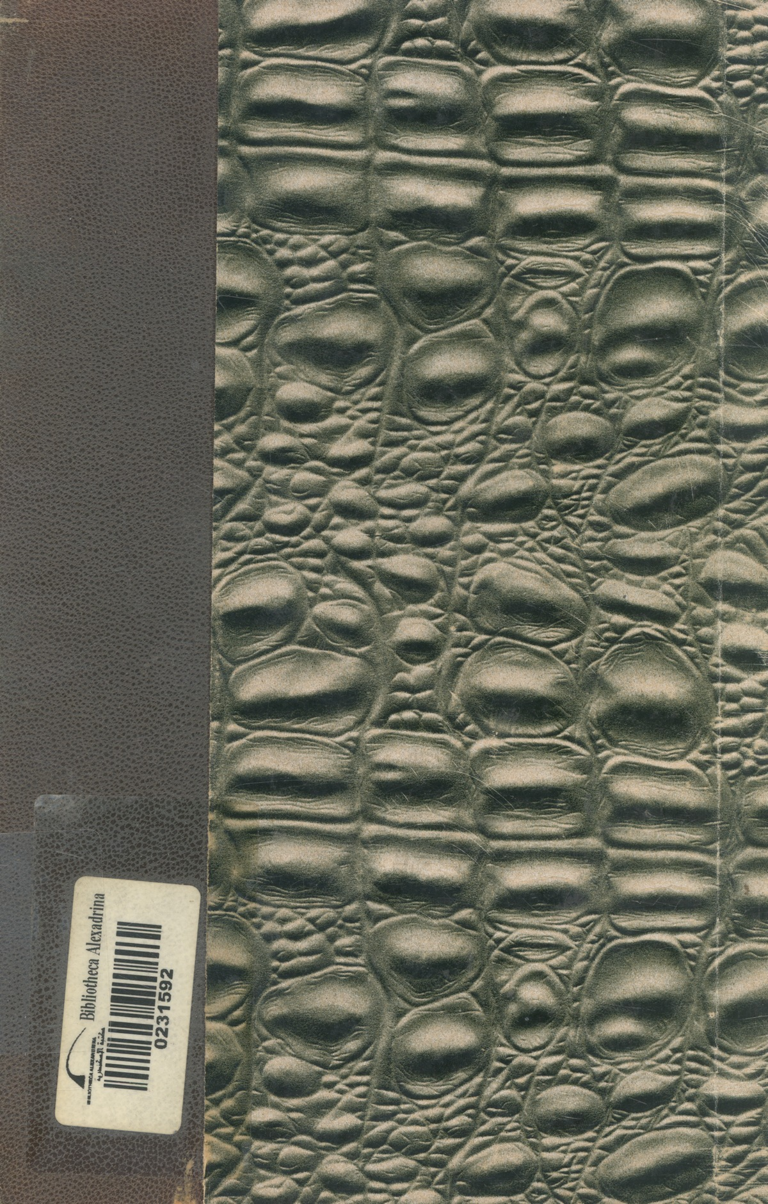
منييه ، فرانسوا أوجيست : (١٧٩٦ — ١٨٨٤) ، مؤرخ فرنسى اشتهر منذ شبابه بكتابه عن تاريخ «الثورة الفرنسية» ، ثم أنشأ مع صديقه المؤرخ تيير فى سنة ١٨٣٠ جريدة «لى ناسيونال»

الحرة ، وبعد ذلك بأعوام قلائل انتخب عضوا فى الأكاديمية الفرنسية ، واشتهر أيضا بكتابة عدّة تراجم قوية عن فرانكلين ، ومارى استوارت ، وشارلكان .

نولهاك ، بييردى : (ولد سنة ١٨٥٩ —) كاتب ومؤرخ فرنسى معاصر ، درس الأدب واشتغل حينا مديرا لمتحف جاكار اندرى ، وأمينا فى المكتبة الوطنية ، وكتب أوّلا عدّة رسائل أدبية عن فرجيل و بترارك ، ثم بدأ بكتابة سلسلة من الرسائل عن تاريخ البلاط الفرنسى منها «لويس الخامس عشر ، ومارى لكزنيسكا» و «لويس الخامس عشر ومدام پومپادور» و «مارى انتوانيت ولية العهد» و «الملكة مارى انتوانيت» ، وأجيز الى الأكاديمية منذ سنة ١٨٩٤ ، وله أيضا عدّة رسائل عن قصور فرساى وبساتينها ، وله ديوان شعر ، وأسلوبه قوى ساحر ، ولا زال يكتب الى اليوم فى بعض الصحف الفرنسية الكبرى .

هالام ، هنرى : (١٧٧٧ — ١٨٥٩) مؤرخ انجليزى ، درس القانون وامتهن المحاماة أوّلا ، ثم اشتغل بالأدب ، وظهر فى ميدان التاريخ برسالة نشرها سنة ١٨١٨ عنوانها « حالة الدولة فى أوربا فى العصور الوسطى » ثم نشر «تاريخ انجلترا الدستورى» ، و « مقدّمة للادب الأوربى » فلقيت كتبه تقديرا عظيما ، وكلها تمتاز بدقة فى البحث ، ونزاهة فى العرض والتعليق ، واشتغل هالام أيضا بالسياسة الى جانب حزب الأحرار .

(مطبعة دارالكتب المصرية ٨٦٩/١٩٣٠/٢٢٠٠)


Bibliotheca Alexandrina
0231592